التفسير المأمون

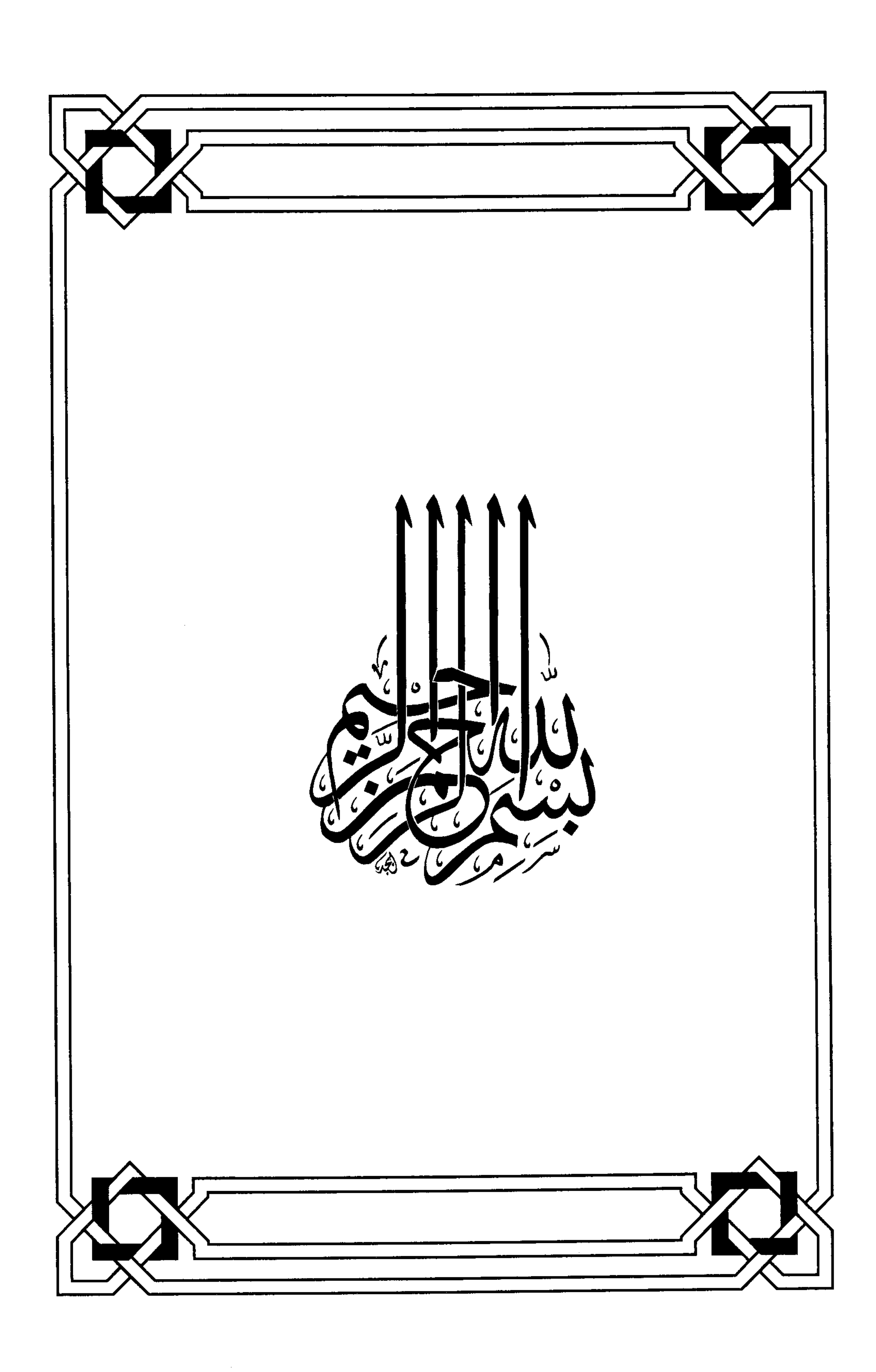
على منهج التنزيل والصحيح المسنون

تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين
- الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة -
على فهم الصحابة والتابعين

تفسير منهجي فقهي شامل معاصر

الجزء الثالث

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون حموش


بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المأمون

على منهج التنزيل والصحيح المسنون

الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

موافقة وزارة الإعلام
رقـم: 91092
ورقم: 91451
تاريخ: 16/ 7/ 2006 م
دمشق - سورية

يطلب من المؤلف
دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي
الدكتور أحمد راتب حموش

93 - 94. قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يقول سبحانه: ومن أشد جرماً وأجهل فعلاً وأكثر بغياً ممن اختلق على الله كذباً أو ادعىٰ النبوة والرسالة وأنه يوحىٰ إليه من الله، أو زَعَمَ أنه سينزل مثل ما أنزل الله، ولو ترىٰ ـ يا محمد ـ إذ يغمر الموت بسكراته حين موعده الظالمين المكذبين، والملائكة باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهؤلاء الظلمة: اخرجوا إلى سخط من الله وغضب، فتفرق أرواحهم في أجسادهم، فينتزعونها فَتَقَطَّعُ مع ذلك النزع الشديد العروق والعصب، هذا يومكم الذي توعدون، وهذا الخزي جزاء ما كنتم تفترون على الله وتكذبون وتستكبرون. ولقد قدمتم ـ يوم القيامة ـ وحداناً لا مال ولا سلطان ولا ولد ولا خدم، وخلفتم أيها القوم ما مكناكم في الدنيا مما فتنكم وأكثرتم به التباهي والاستكبار، وما نرىٰ معكم مَنْ زعمتم أنهم سيكونون لكم شفعاء، بل تمزقت الأوصال بينكم وبينهم، وضل عنكم ما كنتم تزعمون.

فقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾.

قال ابن جرير: (ومن أخطأ قولاً وأجهل فعلاً ممن اختلق على الله كذباً، فادعىٰ عليه أنه بعثه نبياً وأرسله نذيراً، وهو في دعواه مبطل، وفي قيله كاذب).

قال عكرمة وقتادة: (نزلت في مُسيلمة الكذّاب). وذلك أنه زعم أن الله أوحىٰ إليه.

قلت: وبنحوه الأسود العنسي وسجَاح زوج مُسَيلمة، كلهم تنبأ وزعم النبوة وورود الوحي من الله عليه، وهم مفترون في ذلك كاذبون، تشملهم الآية وتشمل أمثالهم إلى

يوم الدين. وقد أخبر النبي ﷺ عن تتابع ما لا يقل عن ثلاثين كذاباً على ذلك الافتراء ـ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [إن بين يدي الساعة كذابين، فاحذروهم](1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند، والإمام مسلم في الصحيح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [يكون في آخر الزمان دجّالون كذّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يُضلونكم ولا يفتنونكم](2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذّابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله](3).

وله شاهد عند أبي داود من حديث ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: [وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبيّ الله، وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدي].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: [سيكون في أمتي دجالون كذّابون يحدثونكم ببدع من الحديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم لا يفتنونكم].

وفي لفظ: [بين يدي الساعة قريب من ثلاثين دجالين كذابين، كلهم يقول: أنا نبي، أنا نبي].

وفي لفظ من طريق ابن عمر: [إن بين يدي الساعة ثلاثين دجالاً كذاباً].

وفي لفظ عنده وعند الطبراني عن حذيفة: [في أمتي كذابون وَدَجَّالون، سبعة وعشرون، منهم أربعُ نسوة، وإني خاتم النبيين، لا نبيّ بعدي](4).

فهؤلاء الدجالون بين يدي الساعة يخرجون فيزعمون أنه يوحىٰ إليهم من الله، وإنما

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (6/ 4). وانظر مختصر صحيح مسلم (1196)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (966/2) ـ لتفصيل ذلك في علامات الساعة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد ومسلم. انظر صحيح مسلم (8/ 189). وانظر ـ للفظ أحمد ـ صحيح الجامع الصغير ـ حديث (8007)، والمرجع السابق (966/2) لتفصيل البحث.

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2023)، وتخريج المشكاة (5406) للشاهد بعده.

(4) انظر تفصيل هذه الروايات في صحيح الجامع (2044)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (967/2).

هو في حقيقته تَنَزُّلٌ من الشياطين عليهم نتيجة انحراف مناهجهم فسلطهم الله عليهم. كما قال جلت عظمته في سورة الشعراء: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ ﴾.

قال القرطبي: (قلت: ومن هذا النَّمط من أعرض عن الفقه والسّنَن وما كان عليه السلف من السنن فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوّها عن الأغيار، فتتجلّىٰ لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيَستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بِها عَلى الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص. وقد جاء فيما ينقلون: «استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتون»[1] ويستدلون على هذا بالخَضِر، وأنه استغنىٰ بما تجلّى له من تلك العلوم، عما كان عند موسىٰ من تلك الفهوم. وهذا القول زَنْدَقَةٌ وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، فإنه يلزم منه هدّ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ).

وقوله: ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾.

قال ابن كثير: (يعني: ومن ادّعى أنه يُعارض ما جاء من عند الله من الوحي بما يفتريه من القول، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ... ﴾ [الأنفال: 31]).

وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾.

قال ابن عباس: (هذا عند الموت. و«البسط»، الضرب، يضربون وجوههم

(1) حسن لشواهده. هو بعض حديث أخرجه أحمد (228/4)، وأبو يعلى (1586) عن وابصة بن مَعْبد، وللحديث شواهد، ولذلك حسنه النووي في الأربعين ح (27)، وكذلك ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (220)، بعد أن أفاض في تخريجه، وأنه ورد من حديث أبي ثعلبة الخشني، وإسناده جيد، ومن حديث واثلة، وأبي هريرة، وغيرهم.
والحديث يدل على الاستئناس بما يطمئن إليه القلب عند اختلاف الفتوى من أهل العلم، واختلاف الاستدلال، وعدم وضوح الحلال من الحرام نتيجة الاجتهادات المختلفة في فهم النصوص الشرعية، فإن للحق نوراً يسطع في قلب المؤمن، كما قال تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾، وكقوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾. أي نوراً يفرق به بين الحق والباطل.

وأدبارهم). قال: (و﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾، وملك الموت يتوفاهم).

وقال الضحاك: (﴿ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾، يعني سكرات الموت).

وأصل الغَمْرة الشيء الذي يغمرُ الأشياء فيغطيها، ومنه قولهم: غَمَرَه الماء. ثم استعملت في الشدائد والمكاره. ومنه غمرات الحرب. قال الجوهري: (والغَمْرَة الشدة).

وقوله: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾.

قال القرطبي: (أي: خلصوها من العذاب إن أمكنكم، وهو توبيخ. وقيل: أخرجوها كرهاً، لأن روح المؤمن تَنْشَطُ للخروج للقاء ربه، وروح الكافر تُنْتَزَعُ انتزاعاً شديداً).

وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾.

قال ابن كثير: (وذلك أن الكافر إذا احْتُضِرَ بشَّرته الملائكة بالعذاب والنَّكال، والأغلال والسَّلاسِل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرَّق روحُه في جسده، وتَعْصِي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرجَ أرواحُهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾.. الآية، أي: اليوم تُهانون غايةَ الإهانة، كما كنتم تُكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم والطيالسي بسند صحيح من حديث البراء: قال رسول الله ﷺ: [ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ـ أي: رأس الكافر أو الفاجر ـ فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتقطع معها العروق والعصب][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (287/4)، وأبو داود (281/2)، والنسائي (282/1)، وابن ماجة (469/1)، وأخرجه الحاكم (37/1 - 40) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وانظر رواياته المختلفة في: أحكام الجنائز ص (159).

الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغسَّاق ، وآخرَ من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [وإن الكافر إذا خرجت روحُه ـ قال حمّاد وذكر من نَتْنِها ، وذكَرَ لَعْناً ـ ويقول أهل السماء: روحٌ خبيثةٌ جاءت من قِبَلِ الأرض، قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل][2].

وقوله: ﴿ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

قال القرطبي: (أي: تتعظمون وتأنفون عن قبول آياته).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾.

قال ابن جرير: (﴿فرادىٰ﴾ وحداناً لا مال معهم ، ولا إناث ، ولا رقيق ، ولا شيء مما كان الله خولهم في الدنيا ، ﴿ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، عراة غلفاً غرلاً حفاة ، كما ولدتهم أمهاتهم ، وكما خلقهم جل ثناؤه في بطون أمهاتهم لا شيء عليهم ولا معهم مما كانوا يتباهون به في الدنيا).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾] الحديث[3].

وقوله: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾.

أي: أتيتمونا مجردين من كل ما أعطيناكم وما مَلّكْناكم في هذه الحياة الدنيا ، وخلفتم وراءكم النعم والأموال التي اقتنيتموها فلم يعد لكم فيها من لذة أو متاع. وأصل الخَوَل: ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنعم.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، من حديث قَتادة عن مُطَرِّف ، عن أبيه قال: [أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: يقولُ ابن آدم: مَالِي،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4262) ، وأحمد (2/64-288-296) ، وله شواهد كثيرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2872) ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب: عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه ، وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه. وحماد: هو حمّاد بن زيد ، أحد الرواة.

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2151) ص (571). وغُرْلاً: أي غير مختونين.

مَالِي. قال: وهَلْ لكَ، يا ابن آدمَ! مِنْ مَالِكَ إلاّ ما أكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أو تَصَدَّقْتَ فأمْضَيْتَ][1].

وروىٰ مسلم نحوه من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [يقول العَبْدُ: مالِي، مالِي، إنما له مِنْ مالِهِ ثلاثٌ: ما أَكَلَ فأفنىٰ، أو لَبِسَ فَأَبْلَى، أو أَعْطَىٰ فاقتنىٰ، وما سوىٰ ذلك فهو ذاهبٌ، وتاركه للنَاس][2].

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾.

قال السدي: (فإن المشركين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدون الآلهة، لأنهم شفعاء يشفعون لهم عند الله، وأن هذه الآلهة شركاء لله).

والآية توبيخ للمشركين وتقريع بفساد منهجهم، فإنهم ظنوا أن الأمر في الآخرة يمكن أن يعالج بمثل ما كانوا يعالجون قضايا حياتهم الدنيا، فأخبرهم الله سبحانه أنه لا ينفع اليوم واسطة ولا رشوة، ثم لا شفاعة لتلك الآلهة التي كانوا يعبدونها، وإنما الشفاعة يوم القيامة للملائكة والنبيين والصالحين حين يأذن الله تعالى لهم، وشفاعتهم منحصرة بالمؤمنين دون الكافرين والمشركين.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 22 ـ 24].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: 92 ـ 93].

3 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: 98 ـ 100].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2958) ـ كتاب الزهد ـ باب: الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر. ورواه أحمد في المسند (24/4)، والترمذي (2342)، والنسائي (238/6)، وابن حبان (701). من حديث قتادة عن مُطرِّف عن أبيه مرفوعاً.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2959) ـ كتاب الزهد. الباب السابق، وله شواهد كثيرة.

مؤمناً حسنته يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزىٰ بها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزىٰ بها][1].

وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤﴾.

المعنىٰ: لقد تقطع الوصل بينكم وما كان يجمعكم، وحاد عن طريقكم ومنهاجكم ما كنتم تظنونه من رجاء الأصنام وشفاعة الأوثان، وبدا لكم من الله ما لم تكونوا تحتسبون.

فعن مجاهد: (﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قال: تواصلهم في الدنيا). وقال قتادة: (وصلكم). وقال أيضاً: (ما كان بينكم من الوصل). وقال ابن عباس: (﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، يعني الأرحام والمنازل).

وقراءة أهل المدينة بالنصب ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُم﴾ ـ أي: تقطع ما بينكم. في حين قرأها قراء مكة وأهل العراق: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بينُكُم﴾ بالرفع، أي: لقد تقطع وصلكم وشملكم. وكلاهما قراءتان مشهورتان.

والمقصود أن الأمر سينقلب على المشركين يوم القيامة، وسيمزق الله الأرحام والأنساب والأوصال التي جمعتهم على الشرك بالله تعالىٰ، وسيرون فساد المنهج الذي ضمّهم ووصلهم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166 ـ 167].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝١٠١﴾.

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25].

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (60) ـ كتاب الإيمان. باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا. وكتابي: أصل الدين والإيمان (757/2) في تفصيل بحث الشفاعة ـ ومن يحال بينه وبين الشفاعة.

95 - 97. **قوله تعالى**: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إن الله سبحانه ـ معشر العادلين به الآلهة والأنداد ـ هو الذي فلق الحب فشقّه من كل نبات ينبت في الأرض وأخرج لكم به الزرع ، وكذلك فلق النوىٰ ـ مما له نواة ـ فأخرج لكم به الشجر ، يخرج السنبل الحي من الحب الميت ، ويخرج الحب الميت من السنبل الحي ، والشجر الحي من النوىٰ الميت ، والنوىٰ الميت من الشجر الحي ، أفلا يستحق هو أن يفرد بالعبادة والتعظيم أيها الجاهلون. وهو الذي شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ، فأضاء لكم به الفجر وما بعده ، بعد أن جعل لكم الليل سكناً ، فاستقر كل شيء وهدأ راحة لكم ونعمة يحتجّ بها عليكم ، وجعل الشمس والقمر يجريان في أفلاكهما بحساب ، تحصون بذلك عدد الأيام والشهور والسنين ، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم علامات تهتدون بها إذا ضللتم الطريق في البر والبحر ، أفلا تعني لكم هذه الآيات الكبيرة بطلان شرككم والنهوض لعبادة الواحد الأحد ، الجبار القهار الذي دانت له السماوات وما فيهن والأرضين وما فيهن.

فقوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾.

قال السدي: (أما ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ ﴾: ففالق الحب عن السنبلة ، وفالق النواة عن النخلة).

وقال قتادة: (يفلق الحب والنوىٰ عن النبات). وقال الضحاك: (خالق الحب والنوىٰ).

وقال مجاهد: (﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ ﴾: الشقان اللذان فيهما).

وخلاصة المعنى كما قال الحافظ ابن كثير: (﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ ﴾ أي: يَشُقُّهُ في الثرىٰ فَتَنْبُتُ الزروعُ على اختلاف أصنافها من الحبوب ، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها من النوى. ولهذا فسّر قوله: ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ ﴾ بقوله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ، أي: يُخرجُ النباتَ الحيَّ من الحبِّ والنوى الذي هو كالجماد

الميت ، كما قال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يٰس: 36]).

وقوله: ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾. معطوف على قوله: ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ والنوىٰ ﴾.

قال ابن عباس: (يخرج النطفة الميتة من الحي ، ثم يخرج من النطفة بشراً حياً).

وقال السدي عن أبي مالك: (النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والحبة من السنبلة ، والسنبلة من الحبة). قال السدي: (أما ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ، فيخرج السنبلة الحية من الحبة الميتة ، ويخرج الحبة الميتة من السنبلة الحية ، ويخرج النخلة الحية من النواة الميتة ، ويخرج النواة الميتة من النخلة الحية).

ولا شك أن الآية تشمل كل إخراج للميت من الحي والحي من الميت حقيقة أو كناية ، فيدخل في ذلك خروج الولد الصالح من الكافر ، والكافر من الصالح ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، والحبة من السنبلة ، والسنبلة من الحبة ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، وغير ذلك.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: إن الذي أجرىٰ هذه السنن وأمضىٰ هذه الأشياء هو الله وحده لا شريك له ، فكيف تصرفون عن عبادته وإفراده بالتعظيم والكبرياء ، فتعبدون معه غيره.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبو داود في السنن ، بسند صحيح ، عن أبي تميمة عن رجل من قومه ، أنه أتىٰ رسول الله ﷺ ، فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تَدْعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مَسَّكَ ضر فدعوته كشَف عنكَ ، والذي إن أضللت بأرضٍ قفرٍ فدعوته ردّ عليك ، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][1].

وقوله: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾.

قال مجاهد: (إضاءة الفجر). وقال الضحاك: (إضاءة الصبح).

وعن ابن عباس: (يعني بالإصباح ، ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 64) وإسناده صحيح على شرطهما ، وجهالة الصحابي لا تضر. وأخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4084). وانظر تخريج مشكاة المصابيح (918) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (242).

قال ابن جرير: (﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ ، شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده).

والإصباح مصدر ، من قول القائل: أصبحنا إصباحاً.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ .

قال النسفي: (أي: ليسكن فيه الخلق عن كدّ المعيشة إلى نوم الغفلة ، أو عن وحشة الخلق إلى الأنس بالحق).

وقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ .

قال ابن عباس: (يعني عدد الأيام والشهور والسنين).

وقال: (يجريان إلى أجل جُعِل لهما). وقال الربيع: (الشمس والقمر في حساب ، فإذا خلت أيامهما فذاك آخر الدهر ، وأول الفزع الأكبر). وقال قتادة: (يدوران في حساب).

وفي التنزيل: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: 5]. ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يٰس: 40].

والحسبان في كلام العرب جمع حِساب ، والمقصود أن الشمس والقمر يمضيان بحساب ويدوران لمصالح العباد ، حتى يبلغا نهاية أمرهما وحد آجالهما. قال السيوطي: (فالآية أصل في الحساب والميقات).

وفي الموطأ عن يحيىٰ بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول: [اللهم فالقَ الإصباح وجاعلَ الليل سكناً والشمس والقمر حُسباناً اقض عني الدَّيْن وأغنني من الفقر وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك][(1)].

قلت: ويَشهد لبعض هذه المعاني ذلك الدعاء الجامع الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ عند النوم. ففي صحيح مسلم عن جرير عن سُهيل قال: [كان أبو صالح يأمُرُنا ، إذا أراد أحَدُنا أن ينامَ ، أن يضطجعَ على شِقِّهِ الأيمن ، ثم يقول: اللهمَّ! ربَّ السماوات وربَّ الأرض وربَّ العَرْشِ العظيم ، ربَّنا وَرَبَّ كُلِّ شيء ، فالِقَ الحَبِّ والنوىٰ ، ومُنْزِلَ التوراةِ والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شَرِّ كل شيءٍ أنت آخذٌ بناصِيَتِهِ ، اللهمَّ! أنت

(1) صحيح. أخرجه مالك في الموطأ (493) باب (8) ، وأخرجه ابن أبي شيبة (8/25/7) عن مسلم بن يسار ، وأورده القرطبي في التفسير ـ وقال المحقق عبد الرزاق المهدي: (وهذا مرسل يعضد مرسل يحيىٰ بن سعيد عند مالك). يعني حديث ابن أبي شيبة عن مسلم بن يسار ، ولبعضه شواهد.

الأول فليس قبلك شَيْء ، وأنت الآخر فليس بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وأنت الظاهرُ فليس فوقكَ شَيْءٌ ، وأنت الباطنُ فليس دونك شيءٌ ، اقْضِ عنا الدَّينَ وأغْنِنا من الفَقر. وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ][1] .

وفي رواية: عن سهيل عن أبيه ، عن أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ يأمُرُنا ، إذا أخذنا مضاجِعَنا أن نقولَ ، بمثل حديث جرير ، وقال: «من شرِّ كل دابة أنت آخِذٌ بناصيتَها»] .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ .

قال القاسمي: (﴿ذلك﴾ أي: التسيير بالحساب المعلوم ﴿ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ أي: الغالب على أمره ، ﴿العليم﴾ بتدبيرهما ، ومراعاة الحكمة في شأنهما).

وقال الرازي: (﴿العزيز﴾ إشارة إلى كمال قدرته، و﴿العليم﴾ إشارة إلى كمال علمه).

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ ﴾ .

قال ابن عباس: (يضل الرجل وهو في الظلمة والجور عن الطريق).

أي: فجعل الله النجوم يهتدي بها الضال في سبيله في البر أو في البحر، فيعدل مساره.

وفي صحيح البخاري عن قتادة قال: (خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلاماتٍ يُهتدىٰ بها. فمن تأول غير ذلك أخطأ ، وأضاع نصيبه ، وكلف ما لا عِلْمَ له به).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 5].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وقد أخبر سبحانه في كتابه من منافع النجوم ، فإنه يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر ، وأخبر أنها زينة للسماء الدنيا ، وأخبر أن الشياطين تُرجم بالنجوم).

قلت: فإن ثمة علماً صحيحاً يستنبط من دوران النجوم وحركة الشمس والكواكب ، وهو علم الفلك الثابت بالحسابات والجداول المعروفة عند أهل هذا التخصص ، وهذا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2713) ـ كتاب الذكر والدعاء ، باب الدعاء عند النوم.

علم مباح وفيه فوائد كثيرة ، وقد استعمله العرب قديماً وأقره الإسلام ، فقد كانوا يهتدون إلى الجهات في أسفارهم بما يعلمونه عن حركات الكواكب وظهور وأفول النجوم. ثم أثبت الله سبحانه أنه جعل هذه النجوم ترجُمُ الشياطين رحمة منه بعباده ، ليظهر لهم كذب هؤلاء الدجالين من السحرة والعرافين والمنجمين ، الذين لا يستطيعون إتمام استراق خبر كامل من السماء ، فيلجؤون إلى إكمال الخبر بالكذب ، والطلاسم والسحر.

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند قوي عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [من اقتبس شعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد](1).

وعند ابن عساكر ـ عن أبي محجن مرفوعاً: [أخاف على أمتي ثلاثاً: حيف السلطان ، وإيماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر](2).

وقوله: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: بيّنا هذه الحجج والدلالات لقوم يحبون معرفة الحق فلا يستمرون في الخوض في الباطل والشبهات.

98 - 99. قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يتابع الله تعالى بيان آلائه ونعمه على الجاحدين توحيده فيقول: وإلهكم ـ أيها المشركون العادلون بالله أوثانكم وآلهتكم ـ الذي أوجدكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، فخلقكم من صلب أبيكم آدم فتناسلتم وقد جعل المستقر في الأرحام والمستودع في الأصلاب فانحدرت الذرية المتتابعة فكان أجدادكم ثم آباؤكم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (277/1) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وسنده قوي كما جاء في تحقيق «فتح المجيد» ص (327).

(2) حديث صحيح. رواه ابن عساكر، وحسنه السيوطي ، انظر المرجع السابق ص (367).

ثم أوجدكم من بعدهم ، وقد بينا لكم الحجج وميزنا الأدلة والعبر لكم لعلكم تعتبرون. إن الله ربكم هو الذي أنزل لكم من السماء ماء فأخرج لكم به نباتكم ونبات أنعامكم وأرزاقكم المختلفة ، وأخرج منه رطباً من الزرع أخضر ، وأخرج من الخضر حباً في السنابل ، ومن النخل من طلعها قنوانه دانية لاصقة عُذوقها بالأرض تنعمون بقربها من أيديكم وسهولة تناولها ، وأخرج لكم جنات من أعناب ، وأخرج الزيتون والرمان مشتبهاً ورقه ، مختلفاً ثمره ، متاعاً لكم ، فانظروا إلى ثمر هذه الأشجار المختلفة ونضجه إذا نضج ، إن في كل ذلك لآيات لقوم يثبتون التعظيم لله وحده ، ويعظمون أوامره وينتهون عن محرماته.

فقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم ﴾.

قال ابن جرير: (يعني الذي ابتدأ خلقكم من غير شيء ، فأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً).

وعن السدي وقتادة: (﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ، قال: من آدم عليه السلام).

وقوله: ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ ـ فيه أقوال:

1 ـ **القول الأول**: هو الذي أنشاكم من نفس واحدة ، فمنكم مستقِرٌّ في الرحم ، ومنكم مستودع في القبر حتى يبعثه الله لنشر القيامة.

قال ابن مسعود: (مستقرها في الأرحام ، ومستودعها حيث تموت).

وقال إبراهيم: (مستقرها في الأرحام، ومستودعها في الأرض، حيث تموت فيها).

2 ـ **القول الثاني**: المستودع أصلاب الآباء ، والمستقر بطون النساء وبطون الأرض أو ظهورها.

فعن سعيد بن جبير: (﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ ، قال: مستودعون ، ما كان في أصلاب الرجال. فإذا قرّوا في أرحام النساء أو على ظهر الأرض أو في بطنها ، فقد استقروا).

3 ـ **القول الثالث**: قيل بل المعنىٰ: فمستقر في الأرض على ظهورها ، ومستودع عند الله.

قال مجاهد: (المستقر في الأرض ، والمستودع عند ربك).

وقال إبراهيم ، قال عبد الله: (مستقرها في الدنيا ، ومستودعها في الآخرة).

4 ـ **القول الرابع**: فمستقر في الرحم ، ومستودع في الصلب.

قال ابن عباس: (﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾: مستقر في الرحم، ومستودع في صلب، لم يخلق سَيُخْلق). وقال: (المستقر في الأرحام، والمستودع في الصلب، لم يخلق وهو خالقه). وقال عكرمة: (المستقر الذي قد استقر في الرحم، والمستودع الذي قد استودع في الصلب).

قلت: والراجح القول الرابع، فهو أقرب للسياق، واختاره الحافظ ابن كثير، في حين اعتبر شيخ المفسرين كل التأويلات السابقة واردة، والله تعالى أعلم. وقد رأىٰ آدم عليه الصلاة والسلام كل ذريته التي أخرجها الله من صلبه أمامه بنعمان قريب من عرفات.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، بإسناد حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: 172 ـ 173]][1].

وقوله: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.

قال قتادة: (﴿فصلنا﴾ بينا وقررنا). وقال ابن جرير: (قد بينا الحجج، وميزنا الأدلة والأعلام وأحكمناها ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ مواقعَ الحجج ومواضع العبر، ويفهمون الآيات والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نبّهتهم عليه من إنشائي من نفس واحدة ما عاينوا من البشر، وخلقي ما خلقت منها من عجائب الألوان والصور، علموا أن ذلك من فعل من ليس له مثل ولا شريك فيشركوه في عبادتهم إياه).

وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

أي: وإن من آياته العظيمة الدالة على وجوب إفراده بالعبادة والتعظيم أنه أنزل الماء بأمره من السماء فأخرج به بقدرته العجيبة بدائع من النبات من غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش وأقوات بني آدم ومطاعمهم وما يتغذون به فينبتون عليه وينمون).

وقوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾.

قال الأخفش: (أي: أخضر). قال القرطبي: (والخَضِر رطب البقول).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (272/1)، والنسائي في «الكبرى» (11191)، وأخرجه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً. وانظر الروايات المختلفة في بحث «الميثاق» من كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (66/1).

وقوله: ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ .

أي: السنابل التي حبُّها يركب بعضه بعضاً.

قال ابن عباس: (يريد القمح والشعير والسُّلت[1] والذرة والأرز وسائر الحبوب).

وقال السدي: (فهذا السنبل). والمقصود أنه يركب بعضه على بعض كالسنبلة.

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ .

أي: عذوق قريبة متهدلة.

قال ابن عباس: (يعني بـ «القنوان الدانية»، قصار النخل، لاصقة عُذُوقها بالأرض).

وقال قتادة: (عذوق متهدلة). وقال البراء: (قريبة). وقال الضحاك: (يعني النخل القصار الملتزقة بالأرض، و«القنوان» طلعه).

والمقصود: أنها دانية قريبة المنال، لتهدّل العُذوق من الطلع.

والقِنْوان: جمع قِنْو أو قُنْو، وهو العِذْق.

وقوله: ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ .

أي: وأخرجنا كذلك بساتين من أعناب.

وقوله: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ .

أي: متشابهاً في الأوراق، أو النظر، مختلفاً في المذاق والطعم.

قال قتادة: (مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره). وقال ابن جرير: (مشتبهاً في النظر، وغيرَ متشابه في الطعم، مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف).

قال القرطبي: (وخصّ الرمان والزيتون بالذكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم. وهو كقوله: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾. ردّهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه).

وقوله: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ .

أي: تدبروا في صنع الله سبحانه إذ أخرجه لكم من العدم ثماراً مختلفة الألوان والأشكال والروائح والطعوم، وبعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً، فإذا أنتم تنعمون به عند نضجه وبلوغه حين ينضج ويبلغ.

قال ابن عباس: (﴿ينعه﴾ نضجه). وقال: (يعني: إذا نضج).

---

(1) السُّلت: ضرب من الشعير أبيض لا قشر له.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

فخص بالذكر المؤمنين، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله وآياته ومواعظه، دون غيرهم ممن طبع الله على قلبه، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه.

100 - 103. قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) ﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: ومن آثام هؤلاء المشركين بربهم وشركهم به أن جعلوا لله الجن شركاء، وهو خالقهم، واختلقوا له بنين وبنات افتراء على الله وسوء أدب منهم مع جلاله وعظمته سبحانه وتعالى عما يصفون. إنه ـ جلت عظمته ـ مبتدع هذه السماوات وهذه الأرض ومحدثها وموجدها بعد أن لم تكن، وخلق ما في هذا الكون الفسيح من مخلوقات ولم تكن قبله شيئاً، أفبعد هذا يكون لله ولد، والولد إنما يكون من الذكر والأنثى، وجلّ الله وعزّ عن اتخاذ صاحبة، فهذا يكون للمخلوق الضعيف الذي يحتاج إلى ذلك، أمَا والله تعالىٰ هو الذي خلق كل شيء وهو به عليم فإنه ـ جل ذكره ـ يتنزه عن تلك النعوت التي يُطلقها المشركون، ولا يتأدبون ولا يخجلون. إن الذي خلق كل شيء، وعلم كل ما كان وما يكون وما سيكون هو الله الواحد الأحد المستحق للعبادة، وهو على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ، وإليه التدبير والتصريف وتقسيم الأرزاق والأقوات، ولا تحيط به الأبصار، وهو يحيط بها وهو اللطيف الخبير.

قال قتادة: (﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ كذبوا، ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، عما يكذبون. أما العرب فجعلوا له البنات، ولهم ما يشتهون من الغلمان، وأما اليهود فجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون).

وعن السدي: (﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾، يقول: قطعوا له بنين وبنات، قالت العرب: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود والنصارى: المسيح وعزير ابنا الله).

وقال ابن زيد: (فكل خرقوا الكذب ، و«خرقوا» ، اخترقوا). وقال مجاهد: («خرقوا»: كذبوا).

فالمعنى كما قال ابن جرير: (وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه ، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير ، ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ ، يقول: وتخرصوا لله كذباً ، فافتعلوا له بنين وبنات ، بغير علم منهم بحقيقة ما يقولون ، ولكن جهلاً بالله وبعظمته ، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة ، ولا أن يشركه في خلقه شريك).

وقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

قال قتادة: (عما يكذبون).

وقوله: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.

قال ابن زيد: (هو الذي ابتدع خلقهما جل جلاله ، فخلقهما ولم يكونا شيئاً قبله).

وقوله: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: كيف يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولدُ إنما يكون متولِّداً عن شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يُشابهه شيء من خلقه ، لأنه خالقُ كل شيء ، فلا صاحبة له ولا وَلَد ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ ، إلى قوله: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم]).

وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

أي: هو الله سبحانه الذي أبدع الجنّ والإنس ـ الولد والذكر والأنثى ، البنين والبنات والصاحبة ـ وكل شيء في هذا الكون الفسيح ، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وهو وحده الذي يعلم كل شيء ، ولا يخفىٰ عليه شيء.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة يس: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: كذبني ابنُ آدم، ولَمْ يَكُنْ له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيايَ فزعم أني لا أقدِر أن أعيدَه كما كان، وأما شَتْمُهُ إيايَ، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخِذَ صاحبة أو ولداً].

وله لفظ مقارب عنده أيضاً ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: [قال الله تعالىٰ: كذبني ابنُ آدم ولم يكنْ له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبُهُ إيّاي فقَوْلُه: لن يعيدني كما بدأني، وليس أوَّلُ الخلق بأهْوَنَ عليَّ من إعادتِه، وأما شتمُهُ إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصَّمدُ، لم ألِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكن لي كُفُواً أحد][1].

قال البخاري: (والعرب تُسَمِّي أشرافَها الصَّمَد. قال أبو وائِلٍ: هو السَّيِّدُ الذي انتهى سُؤددُهُ).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾.

أي: إن الموصوف بما سبق من صفات الجمال والكمال، البعيد رتبته عن مراتب من يشارك أو ينسب إليه الولادة، الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة هو الله ربكم ورب كل شيء، فأفردوه بالإلهية والعبادة والتعظيم، فإن من جمع تلك الصفات استحق العبادة وحده.

وقوله: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

أي: رقيب وحفيظ، وكل شيء من تدبيره وتحت تصريفه. قال القاسمي: (يدبر كلَّ ما سواه، ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار).

وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾.

قال ابن عباس: (لا يحيط بصر أحدٍ بالمَلِكِ). وقال قتادة: (وهو أعظم من أن تدركه الأبصار). وقال إسماعيل بن عُلَيّة: (هذا في الدنيا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4974)، كتاب التفسير، وكذلك نحوه (4975)، باب قوله: ﴿الله الصمد﴾، وأخرجه في كتاب بدء الخلق (3193)، وانظر صحيح الجامع الصغير (4203) للرواية الأولىٰ، وكذلك (4199) من حديث أبي هريرة.

قلت: لقد أثبت الله سبحانه الرؤيا للمؤمنين يوم القيامة ، ينظرون إلى وجه ربهم عز وجل، فما أعطوا في الدنيا ولا في الآخرة نعمة هي أعظم من تلك النعمة ولا أقر لأعينهم، وأما في الدنيا فلا أحد كتب الله له ذلك ، فهذا نبي الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام من أولي العزم من الرسل ما استطاع رؤية تجلي الله سبحانه للجبل حتى خر صعقاً.

قال الله في سورة الأعراف: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي موسىٰ قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القِسْطَ ويرفَعُه ، ويُرفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه](1).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: [سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: نورٌ أنّىٰ أراه](2). وفي لفظ: (رأيت نوراً).

فإذا كان يوم القيامة هيأ الله سبحانه المؤمنين لرؤيته وأذن لهم بذلك:

قل جل ثناؤه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: 22 ـ 23].

وأما الكفار فيحرمهم ربهم من هذه النعمة العظيمة فلا يبصرون إلا ما يخزيهم: قال جل ذكره: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: 15].

قال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: [حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حُجب هؤلاء في السخط ، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضىٰ](3). وفي رواية: (ما حجب الفجار إلا وقد عَلِمَ أن الأبرار يرونه عز وجل).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (179) ـ كتاب الإيمان. وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان(206/1) ـ بحث ـ رؤية الله يوم القيامة ـ لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (178) ـ كتاب الإيمان. باب في قوله عليه السلام: (نور أنىٰ أراه).

(3) انظر كتابي: أصل الدين والإيمان (10 ـ رؤية الله يوم القيامة) (206/1 - 207).

وفي التنزيل أيضاً: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: 26]. والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

ففي صحيح مسلم عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيرفَعُ الحجاب فينظرون إلى وجه الله، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾][1].

وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه: [إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك][2].

يعني في عرصات القيامة ـ مما يدل أن المؤمنين ينظرون إليه سبحانه في العرصات وفي روضات الجنات.

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إنكم سترون ربكم عِياناً. وفي رواية: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾][3].

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [وجنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن][4].

وقوله: ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾.

قال السدي: (لا يراه شيء، وهو يرى الخلائق). أي: يحيط بها ويعلمها ـ كما قال جل ذكره: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك].

وقوله: ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾.

قال أبو العالية: (اللطيف باستخراجها، الخبير بمكانها). وفي التنزيل: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (181)، وأخرجه الترمذي (2552)، وأخرجه أحمد (333/4).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (191) في صحيحه ـ في أثناء حديث مطول.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (573)، وأخرجه مسلم في الصحيح (362/4).
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4878)، وأخرجه مسلم (180)، وأحمد (411/4).

﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان].

قال ابن جرير: (فلطف بقدرته فهيأ أبصار خلقه هيئة لا تدركه، وخبرَ بعلمه كيف تدبيرها وشؤونها وما هو أصلح بخلقه).

وقال النسفي: (﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ أي: العالم بدقائق الأمور ومشكلاتها. ﴿الخبير﴾ العليم بظواهر الأشياء وخفياتها، وهو من قبيل اللف والنشر).

104 - 107. قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرٌ من الله تعالى لنبيّه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين المكذبين بالله ورسوله: إنه قد جاءكم ما تبصرون به الهدى من الضلال، والحق من الباطل، فمن تبيّن هذه الحجج فآمن بالله وصدّق رسوله فإنما يختار حظ نفسه وسبيل سعادتها، ومن تنكر لهذه البراهين والدلالات فهو يضر نفسه ويوردها سبيل هلاكها، وما أنا بالذي يحصي عليكم أعمالكم إنما هو ربكم عز وجل، الذي لا يخفىٰ عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم. وهذه الآيات نتابع تصريفها وبيانها ولئلا يقولوا: درست ـ أي: قرأت أنت يا محمد، من كتب أهل الكتاب ـ وإنما هي آيات الله وحججه يوضحها لقوم يفهمون ويعقلون. اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه ودع أمر المعاندين المكذبين، فإنه لا معبود يستحق العبادة وإخلاص التعظيم إلا الله، فأعرض عنهم واترك مجادلتهم وخصومتهم، فلو أراد ربك هدايتهم لكان ما أراد وإنما هو سبحانه أعلم بالشاكرين، وما أنت بقيم عليهم بل أرزاقهم وأقواتهم وآجالهم بيد الله خالقهم وهو على كل شيء حفيظ رقيب.

فقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

قال قتادة: (﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي: بينة).

وقوله: ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾.

قال القرطبي: (الإبصار: هو الإدراك بحاسة البصر، أي: فمن استدل وتعرّف فنفسه نفع).

وقوله: ﴿ وَمَنْ عَمِىَ ﴾.

قال القاسمي: (أي: ضل عن الحق. والتعبير عنه بـ«العمىٰ» للتقبيح له، والتنفير عنه، ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ أي: فعلىٰ نفسه عمىٰ، وإياها ضر بالعمىٰ).

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

قال النسفي: (أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم).

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾.

قال السدي: (﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾، لهؤلاء العادلين بربهم، كما صرفتها في هذه السورة، ولئلا يقولوا: درست). وقال ابن عباس: (قالوا: قرأت وتعلمت. تقول ذلك قريش).

قال ابن جرير: (﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾، يا محمد، بمعنىٰ: تعلمت من أهل الكتاب).

وهناك قراءة ثانية: ﴿دارست﴾. قال ابن عباس: (قالوا: دارست أهل الكتاب، وقرأت الكتب وتعلمتها). وقراءة ثالثة: «دُرِسَتْ». قال قتادة: (أي: قرئت وتعلمت).

وقراءة رابعة: «دَرَسَتْ». قال الحسن: (أي: انمحت) ـ بمعنى تقادمت. واختار ابن جرير القراءة الأولى «دَرَسْتَ» ـ أي: تعلمت من أهل الكتاب. كما في التنزيل: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: 103].

وقوله: ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ولنوضِّحَهُ لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه).

وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

قال القرطبي: (يعني القرآن، أي: لا تشغل قلبك وخاطرك بهم، بل اشتغل بعبادة الله). وقال القاسمي: (وقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ اعتراض أكّد به إيجاب الاتباع، أو

حال مؤكدة من ﴿ربك﴾ ، بمعنى: منفرداً في الألوهية).

وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

قال أبو مسلم: (أريد بالإعراض الهجران لهم دون الإنذار ، وترك الموعظة). وقال المهايمي: (أي: لا تحزن عليهم إذا أصرّوا على الشرك والعمى مع هذه البصائر. فإنه تعالى أراد بقاءهم على الشرك والعمى ، لاقتضاء استعدادهم ذلك).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: 26].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: 82].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: 44].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: 53 ـ 54].

أخرج الترمذي في جامعه بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم نوراً من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله عز وجل][(1)].

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ ﴾ ، يقول سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين).

وقال القرطبي: (﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ ﴾ نصّ على أن الشرك بمشيئته ، وهو إبطال

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (107/2) ، وابن حبان (1812) ، والحاكم (30/1) ، وأحمد(176/2). وأخرجه الآجُرّي في «الشريعة» (ص 175) ، وأحمد (197/2) من طرق أخرى. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1076). قال الألباني: رجاله كلهم ثقات.

لمذهب القدرية. ثم قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي: لا يمكنك حفظهم من عذاب الله).

وقال ابن كثير: ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾: أي: حافظاً يحفظ أعمالهم وأقوالهم).

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولست عليهم بقيِّم تقوم بأرزاقهم وأقواتهم ولا بحفظهم، فيما لم يُجْعَل إليك حفظه من أمرهم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [الشورى: 48].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: 21 ـ 22].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: 40].

108. قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٠٨ ﴾.

في هذه الآية: توجيه من الله تعالى لنبيّه ﷺ وللمؤمنين بعدم التعرض لآلهة المشركين بالسَّب خشية أن يقعوا في سب الله جهلاً دون علم، واعتداءً وبغياً دون فهم، وكذلك زيّن الله لكل جماعة من الأمم ما اجتمعوا عليه من عمل، ثم مردهم إلى الله فيخبرهم بأعمالهم ويجازيهم بها.

قال قتادة: (كان السملمون يسبون أوثان الكفار، فيردّون ذلك عليهم، فنهاهم الله أن يستَسِبّوا لربهم، فإنهم قومٌ جهلة لا علم لهم بالله).

وقال ابن زيد: (﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، قال: إذا سببت إلٰهه سبَّ إلٰهك، فلا تسبوا آلهتهم).

قال القرطبي: (قال العلماء: حكمها باقٍ في هذه الأمة على كل حال، فمتىٰ كان الكافر في مَنَعة وخِيف أن يَسُبَّ الإسلام أو النبي عليه السلام أو الله عز وجل، فلا يحلّ لمسلم أن يَسُبَّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدّي إلى

ذلك ، لأنه بمنزلة البعث على المعصية ، وعبّر عن الأصنام وهي لا تعقل بـ ﴿الذين﴾ على معتقد الكفرة فيها).

وهذه الآية دليل على وجوب الحكم بسدّ الذرائع ، والأخذ بفقه الموازنات ، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ قال: [من الكبائر شتم الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه][1].

وقوله: ﴿ عَدْوًا ﴾.

من الاعتداء. تقول العرب: عدا فلان على فلان إذا ظلمه واعتدىٰ عليه.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: وكما زيّنا لهؤلاء القوم حُبَّ أصنامهم والمحاماةَ لها والانتصار ، كذلك زيّنا لكل أمة أي من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختار).

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل]. فالإضلال والتزيين بحكمة الله وعدله.

قال ابن عباس: (زينا لأهل الطاعة الطاعة ، ولأهل الكفر الكفر).

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: ثم مصيرهم ومعادهم إلى ربهم ، ويومئذ يكشف لهم سجلات أعمالهم ويعرضها على الميزان للحساب والجزاء. قال ابن جرير: (فيُوقفهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا ، ثم يجازيهم بها ، إن كان خيراً فخيراً ، وإن كان شراً فشراً ، أو يعفو بفضله ، ما لم يكن شركاً أو كفراً).

109 - 110. قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (5973) ، وأخرجه مسلم (90) ، وأبو داود في السنن (5141) ، والترمذي في الجامع (1902).

وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: أقسم هؤلاء المشركون العادلون بربهم أوثانهم وأصنامهم، فحلفوا بالله أَوْكَدَ الحلف وأَشَدَّ الأَيْمان، لئن جاءتهم آية تُصدق ما يقول محمد كما جاءت الأمم قبلهم ليؤمنن بها وأن محمداً رسول من عند الله، فأجابهم ربهم سبحانه: هوالقادر على إرسال ذلك دون كل أحد من خلقه، ولكن ما يدريكم أنها إذا جاءت سوف يؤمنون. إنه سبحانه هو يقلب أفئدتهم وأبصارهم ويصرفها كيف يشاء، وأن قلوبهم بيد الله لو شاء أقامها ولو شاء أزاغها، وأبصارهم بيده فلو شاء أعماها عن رؤية الحق ومعرفة مواضع الحجة، كما لم يؤمنوا ـ بتقليب الله لها قبل ذلك، ومن ثمّ نذرهم في تمردهم وشكهم واعتدائهم يترددون ولا يهتدون.

فقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾.

أي: حلفوا بالله غاية أيمانهم التي بلغها علمهم، وانتهت إليها قدرتهم. وجَهْدُ اليمين أشدها. وهو بالله.

قال القاسمي: (﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ مصدر في موقع الحال. أي: أقسموا به تعالىٰ جاهدين في أيمانهم، باذلين في توثيقها طاقتهم).

وقال القرطبي: (وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظناً منهم أنها تقربهم إلى الله زلفىٰ، كما أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر]. وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك، كانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يسمّونه جَهْد اليمين إذا كان اليمين بالله).

وقوله: ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾.

أي: معجزة وخارق، ليصدقنّها.

قال ابن جرير: (قالوا نقسم بالله لئن جاءتنا آية تصدق ما تقول، يا محمد، مثل الذين جاء مَنْ قبلنا من الأمم، ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾، يقول: قالوا: لنصدقن بمجيئها بك، وأنك لله رسولٌ مرسل، وأنّ ما جئتنا به حقٌّ من عند الله).

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تَعَنُّتاً وكفراً

وعِناداً ، لا على سبيلِ الهُدى والاسترشاد: إنما تَرْجِعُ هذه الآياتُ إلى الله ، إن شاء أجابَكُم ، وإن شاء تَرَكَكُم).

وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال مجاهد: (ما يدريكم. قال: ثم أخبر عنهم أنهم لا يؤمنون).

وفي لفظ قال: (وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت. ثم استقبل يخبر عنهم فقال: إذا جاءت لا يؤمنون). وهذا على قراءة بعض أهل مكة والبصرة: ﴿إنها﴾. والقراءة الأشهر والتي عليها قراء الأمصار من أهل المدينة والكوفة وغيرهم: «أنها» ـ على سبيل الخطاب من الله لنبيّه ﷺ وأصحابه. قال ابن جرير: (وإنما معنىٰ الكلام: وما يدريكم ، أيها المؤمنون ، لعل الآيات إذ جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون ، فيعاجلوا بالنقمة والعذاب عند ذلك ، ولا يؤخَّروا به).

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

قال ابن عباس: (لما جحد المشركون ما أنزل الله ، لم تثبت قلوبهم على شيء ، ورُدَّت عن كل أمر). وقال مجاهد: (نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية ، فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة). وقال ابن زيد: (نمنعهم من ذلك ، كما فعلنا بهم أول مرة).

وفي التنزيل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24].

وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

المعنى: أي: نتركهم في بغيهم وتنطعهم وكبرهم يتحيرون ويترددون ، فلا يؤمنون حتىٰ يروا العذاب الأليم.

قال ابن عباس: (﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ في كفرهم). وقال أبو العالية: (في ضلالهم). وقال الأعمش: (﴿يعمهون﴾: يلعبون). وقال مجاهد: (في كفرهم يترددون).

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أُشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتىٰ يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة

ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][1] .

111 - 115 . قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تَفْهيمٌ من الله سبحانه لنبيه ﷺ عن طبيعة هؤلاء المشركين المعاندين. يقول: فلو نزلنا إليهم ـ يا محمد ـ الملائكة حتى يروها وكلمهم الموتىٰ بإحيائنا إياهم ـ آية من عندنا ـ لإثبات نبوتك ، وأخبروهم أنك صادق محق فيما جئت به من الوحي ، وحشرنا عليهم كل شيء قبيلة قبيلة ، وجماعة جماعة ، مقابلة ومواجهة ، يكفلون أنك على الحق وأن ما تعدهم به هو الحق ، ما آمنوا ولا صدّقوك ولا اتبعوك ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون حقائق الإيمان والهداية والتوفيق لذلك من عند الله سبحانه. ثم إخْبارٌ من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عن سنته سبحانه في الابتلاء ، بأن جعل لكل الأنبياء والرسل أعداءً من أقوامهم يؤذونهم بالجدال والخصومات بإيحاء من شياطين الجن واشتراك معهم بتزيين الباطل ، ولو شاء الله لآمن الناس جميعاً وآمنت الشياطين وتركوا المكر والإجرام ، فلا تأبه لهم ـ يا محمد ـ فدعهم وما يفترون ويكذبون. إنما تميل لتزيينهم قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة فيرضونه وليكتسبوا ما هم مكتسبون. قل لهم ـ يا محمد ـ أفغير الله أختار حكماً وهو أحكم الحاكمين ، وقد أنزل إليكم القرآن فيه بيان كل حكم وكل فصل أو قضاء ، وأهل التوراة

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (1/ 89 ـ 90). وانظر مختصر صحيح مسلم (1990). وكتابي: أصل الدين والإيمان (904/2) لتفصيل مراتب الضلال.

والإنجيل يعلمون أن القرآن حق منزل من عند الله ، فلا تكونن ـ يا محمد ـ من الشاكّين فيما جاءك واثبت على الحق ، فإنه قد كملت كلمة ربك من الصدق والعدل ولا تبديل لكلماته ، وهو السميع لما يقوله هؤلاء ، العليم بمصائرهم وما تؤول إليه أحوالهم في العاقبة والآخرة.

فقوله: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ . أي: لتخبرهم بأن الرسل على الحق وَوَجَبَ الإيمان بهم. ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ـ بإحيائنا إياهم. ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ سألوه من الآيات والمعجزات ﴿قبلاً﴾ مقابلة ومعاينة. ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ ـ قال ابن عباس: (وهم أهل الشقاء ، ثم قال: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، وهم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أن يدخلوا في الإيمان).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ . . ﴾ [الأنعام: 124].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: 21].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 92].

وقرأ قراء المدينة «قِبَلاً» بكسر القاف وفتح الباء ، بمعنى: معاينة.

وقرأ عامة أهل الكوفة والبصرة «قُبُلاً» بضم القاف والباء. وفي ذلك ثلاثة أوجه من التأويل ذكرها ابن جرير.

التأويل الأول: وحشرنا عليهم كل شيء كُفلاء يكفلون لهم بأن الذي نعدهم على إيمانهم بالله إن آمنوا ، أو نوعدهم على كفرهم بالله إن هلكوا على كفرهم ، ما آمنوا إلا أن يشاء الله. فيكون «القبل» جمع «قبيل». والقبل هنا الضمناء والكفلاء.

التأويل الثاني: «القبل» بمعنىٰ المقابلة والمواجهة. قال ابن عباس: (يقول: لو استقبلهم ذلك كله ، لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله). وقال ابن زيد: (حشروا إليهم جميعاً ، فقابلوهم وواجهوهم). وقال عبد الله بن يزيد: (قرأ عيسىٰ: «قُبُلًا» ومعناه عياناً).

التأويل الثالث: «القبل» جمع «قبيل» ، الذي هو جمع «قبيلة» ، فيكون «القبل» جمع الجمع. قال مجاهد: (﴿قُبُلًا﴾ ، أفواجاً ، قبيلاً قبيلاً).

وخلاصة المعنىٰ: لو عرضت عليهم كل أمة بعد أمة ، فتخبرهم بِصدق الرسل فيما

جاؤوهم به ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾. فالهداية والقلوب بيد الله سبحانه وهو أعلم بمن يستحقها، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾. وكما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: 96 ـ 97].

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾.

أي: هذه الحقائق عن القلوب وأمر الإيمان، واصطفاء الله من يشاء لعبادته والقيام بحمل لواء دينه، دون غيرهم من أعدائه وأعداء شرعه وأوليائه.

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾.

قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: وكما جعلنا لك ـ يا محمد ـ أعداءً يخالِفونك ويعانِدُونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداءً، فلا يَهيدَنَّكَ ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر: 4]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا ﴾ [الأنعام: 34]. . . الآية، وقال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت: 43]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: 31]. الآية).

قال قتادة: (﴿ شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، يوحي بعضهم إلى بعض).

أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: [يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن. فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: نعم][1].

قال ابن جرير: (وشياطين كل شيء مردته، ويكون الشيطان من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك

---

(1) يرقى للحسن. أخرجه أحمد (178/5 - 179)، (265/5)، والنسائي (275/8)، وله طرق مختلفة يقوىٰ بها، انظر تخريج تفسير ابن كثير ـ المهدي، سورة الأنعام (112-113).

يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير][1].

وعن ابن عباس: (﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال: حَسَّنَ بعضهم لبعض القولَ ليتّبعوهم في فتنتهم).

وعن عكرمة: (﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، قال: تزيين الباطل بالألسنة).

وعن السدي: (﴿غروراً﴾، قال: يغرون به الناسَ والجنّ).

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: لو شاء الله ما فعلوا إيحاء القول بالغرور فدعهم في غيهم وما يختلقون من إفك وزور. قال القاسمي: (﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما فعلوا ذلك، يعني: معاداة الأنبياء، وإيحاء الزخارف. وهو أيضاً دليل على المعتزلة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: من الكفر، فسوف يعلمون).

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾.

قال ابن عباس: (﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ﴾، يقول: تزيغ إليه أفئدة). أو قال: (لتميل).

وقال السدي: (يقول: تميل إليه قلوب الكفار، ويحبونه، ويرضون به).

وقوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

قال ابن عباس: (وليكتسبوا ما هم مكتسبون). وقال السدي: (ليعملوا ما هم عاملون).

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

قال ابن جرير: (أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام، القائلين لك: «كفَّ عن آلهتنا، ونكف عن إلهك»، إن الله قد حكم عليَّ بذكر آلهتكم بما يكون صدّاً عن عبادتها، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾، أي: قل فليس لي أن أتعدّى حكمه وأتجاوزه، لأنه لا حكم أعدل منه، ولا قائل أصدق منه، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾، يعني القرآن، ﴿مفصلاً﴾، يعني: مبيناً فيه الحكم فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2814) ـ كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾.

أي: إن اليهود والنصارىٰ يعلمون في كتبهم أن هذا القرآن منزل بالحق، ويجدون عندهم من البشارات بنبوة محمد ﷺ، ومما أخبرهم به رسلهم وتناقلته الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أخرج البخاري في صحيحه عن عطاء بن يسار قالت: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: [أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً][1].

ويروي ابن عساكر بإسناد جيد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا دعوة إبراهيم، وكان آخرَ من بَشَّرَ بي عيسىٰ بن مريم][2].

وقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾.

قال الربيع: (يقول: لا تكونن في شك مما قصصنا عليك).

وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾.

قال قتادة: (صدقاً فيما وَعَد، وعدلاً فيما حَكَم). قال ابن جرير: (وكملت: ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ يعني القرآن، سماه ﴿كلمة﴾، كما تقول العرب للقصيدة من الشعر يقولها الشاعر: «هذه كلمة فلان»). وقال ابن كثير: (يقول: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فحقٌّ لا مِرْيَةَ فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عَدْلَ سواه، وكل ما نهىٰ عنه فباطلٌ، فإنه لا ينهىٰ إلا عن مَفْسَدَة، كما قال تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف: 157]).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح، ورواه الدارمي نحوه بتفصيل أكبر، انظر تخريج المشكاة (5771) وكذلك (5752) كتاب الفضائل والشمائل. باب فضائل سيد المرسلين.

(2) أخرجه ابن عساكر في «التاريخ» (2/265/1)، وأخرجه أحمد (262/5)، وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (102/1) وله شواهد تقويه. وحسّن إسناده الألباني في الصحيحة (1546).

قال القرطبي: (﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾: ودلت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن، لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لا يخفىٰ عليه شيء من الأمور كلها).

وقال القاشاني: (أي: تمّ قضاؤه تعالىٰ في الأزل بما قضىٰ وقدر من إسلام من أسلم، وكفر من كفر، ومحبة من أحب، وعداوة من عادىٰ، قضاءً مبرماً، وحكماً صادقاً، مطابقاً لما يقع، عادلاً بمناسبة كل قول وكل كمال وحال، لاستعداد من يصدر عنه واقتضائه له. ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾: أي: لا مبدل لأحكامه الأزلية) ذكره القاسمي.

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

أي: السميع لما يصدر عنهم من الأقوال، العليم بما يخفون وبما يصدر عنهم من الأفعال. فلا يخفىٰ عليه شيء من كلام عباده وسرائرهم وأعمالهم.

116 - 117. قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: لا تطع ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين العادلين بربهم أوثانهم وأصنامهم وأهواءهم، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن الدين الحق، فهم إنْ يتبعون إلا الظن وما هم إلا متخرصون كاذبون في منهاج التلقي حيث لا يقين ولا علم. وربك يا محمد هو أعلم بما اختار عباده من السبل: بما سلكوا من طرق الاعوجاج والغواية، أو بما سلكوا من سبيل النجاة والهداية، فهو مطلع على سبيل الفريقين وهو أعلم بالمهتدين.

فقوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ـ من الناس.

قال القرطبي: (أي: الكفار. ﴿ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: عن الطريق التي تؤدي إلى ثواب الله).

وقوله: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾.

أي: ما يتبعون إلا الظن. ﴿إنْ﴾ بمعنىٰ ما. والخرص: الحَزْرُ والتخمين. قال

القاسمي: (وقد يعبر به عن الكذب والافتراء، وأصله القول بالظن، وقول ما لا يستيقن ويتحقق ـ قاله الأزهري ـ). والمقصود: إن دين هؤلاء المكذبين المشركين يقوم على الحدس والظن والخرص لا على العلم والحق واليقين فاحذرهم.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

قال النسفي: (أي: هو يعلم الكفار والمؤمنين).

والمعنىٰ: فرغ الله تعالى من أمور العباد وأحوالهم وأعمالهم ومستقبلهم بين يديه قبل أن يخلقهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، فقد جفت الأقلام ورفعت الصحف.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة](1).

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة](2).

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: [فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد](3).

وفي رواية: [من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه].

وله شاهد عند ابن عساكر بسند جيد عن أنس ولفظه: [فرغ الله من أربع: من الخَلق والخُلُق والرزق والأجل](4).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد والطبراني. انظر مسند أحمد (317/5)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4256). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو. انظر تخريج الطحاوية (78). وكتابي أصل الدين والإيمان (813/2) لتفصيل الروايات.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (197/5). وقال الهيثمي (195/7): (رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات).

(4) أخرجه ابن عساكر (17/ 493/ 2). انظر تخريج «كتاب السنة» ـ لابن أبي عاصم. (303) ـ الألباني.

118 - 119. قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إباحة الله سبحانه لنبيه محمد ﷺ والمؤمنين أكل الذبائح التي ذكر اسم الله عليها، وما يمنعكم أن تأكلوا مما ذبحه المؤمنون وذكروا اسم الله عليه، أو ذبحه من دان بتوحيد الله من أهل الكتاب، وقد فصل الله لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون، وأجاز لكم عند الاضطرار ما حرّم عليكم حتى تزول الضرورة، وإن المشركين أهل جهالة في آرائهم وأهوائهم ومنهاجهم في استحلال الميتات وما ذُكر عليه غير اسم الله تعالى، والله أعلم باعتدائهم وافترائهم وكذبهم وتنطعهم.

فعن ابن جريج قال: قلت لعطاء قوله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾، قال: (يأمر بذكر اسمه على الشراب والطعام والذبح. وكل شيء يدلّ على ذكره يأمر به).

وعن قتادة: (﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ يقول: قد بين لكم ما حرم عليكم).

وقوله: ﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾.

قال قتادة: (من الميتة). وقال ابن جرير: (يعني تعالىٰ ذكره: أن ما اضطررنا إليه من المطاعم المحرّمة التي بيّنَ تحريمها لنا في غير حال الضرورة، لنا حلال ما كنا إليه مضطرين، حتىٰ تزول الضرورة).

وقوله: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

قال النسفي: (أي: يضلون فيحرمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم من غير تعلق بشريعة).

قلت: ويدخل في مفهوم الآية أهل الابتداع في الدين والقول على الله ورسوله دون علم.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾.

تحذير من الاعتداء في الدين.

قال القاسمي: (أي: المتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام).

وقال الرازي: (دلت هذه الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوىٰ والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بالنهي عن الكلام في الدين دون علم أو الإحداث والابتداع فيه:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن جابر قال: [كان رسول الله ﷺ إذا خطب احْمَرَّت عيناه وعلا صوتُه واشتدَّ غضبه ، حتى كأنه منذرُ جيشٍ يقول: صبّحكم ومسّاكم. ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين. ويقرن بين أصبعيه ، السبابة والوسطىٰ ، ويقول: أما بعد ، فإن خيرَ الحديث كتاب الله ، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ ، وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكلَّ بدعة ضلالة][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: [كنا عند النبي ﷺ فخطَّ خطّاً ، وخطَّ خطَّين عن يمينه. وخط خطَّين عن يساره. ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال: هذا سبيل الله. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: 153)][3].

وفي لفظ من طريق ابن مسعود: [خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ، وقال: هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال: هذه سبل ، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. ثم قرأ الآية].

120 - 121. قوله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرٌ من الله تعالى عباده ـ يقول: ودعوا أيها الناس علانية الإثم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (221/5) في الصلح ، وأخرجه مسلم (1718) ، في الأقضية.
(2) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (867) ، كتاب الجمعة ، ورواه أهل السنن.
(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (11) ـ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. ورواه الترمذي.

وسرّه ، إن الذين يعملون السوء ويأتون ما يسخط الله سيجازيهم على معصيتهم بما كانوا يقترفون. ولا تأكلوا ، أيها المؤمنون ، مما ذبح فلم يذكر اسم الله عليه من ذبيحة المشركين ، أو أُهِلَّ لأوثانهم فإن أكله فسق ـ معصية وإثم ـ وإن الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم معشر المؤمنين في أكل الميتة وما حرم الله ، وإن أطعمتموهم فقد تركتم أمر ربكم وأشركتم به كالمشركين.

وعن قتادة: (﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ ، أي: قليله وكثيره، وسرّه وعلانيته).

وعن الربيع بن أنس قال: (نهىٰ الله عن ظاهر الإثم وباطنه ، أن يعمل به سراً أو علانية ، وذلك ظاهره وباطنه). وقال مجاهد: (﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ : معصية الله في السر والعلانية).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ، ويركبون معاصي الله ، ويأتون ما حرم الله ، ﴿سيجزون﴾ ، يقول: سيثيبهم الله يوم القيامة بما كانوا في الدنيا يعملون من معاصيه).

وبعض المفسرين ذهب إلى تخصيص ظاهر الإثم هنا بنكاح حلائل الآباء والأمهات والبنات أو الطواف بالبيت عرياناً ، أو معاهرة أهل الرايات وأولات الأخدان ، أو علانية الزنا دون سرّه. والصحيح أن الإثم لفظ عام يشمل كل ما عُصي الله به من محارمه ، والآية تدل على جميع ما ظهر من الإثم وعلن وجميع ما خفي منه وبطن. وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الحلال بيّنٌ ، وإن الحرام بيّنٌ ، وبين ذلك أمور مشتبهات ، فمن اتقىٰ الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يَرْعَىٰ حول الحِمىٰ يوشك أن يرتعَ فيه][1].

الحديث الثاني: أخرج الطيالسي والترمذي والنسائي بسند حسن ، عن الحسن بن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2051) ، وأخرجه مسلم (1599) ، وأخرجه أبو داود (3329).

علي رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [دع ما يريبك إلى ما لا يريبك][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم والترمذي وأحمد عن النَّواس بن سَمْعَانَ الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن البِرِّ والإثم؟ فقال: [البِرُّ حُسْنُ الخُلْقِ، والإِثْمُ ما حاكَ في صدرك، وكرهت أن يَطَّلِعَ عليه الناس][2].

وله شاهد في المسند من حديث أبي ثعلبة بلفظ: [البِرُّ ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تَسْكُنْ إليه النَّفْسُ، ولم يطمئنَّ إليه القلب، وإن أفتاك المفتون].

وقوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾.

فيه مسائل:

1 ـ إذا كان مذكي الأنعام أو الطيور غير كتابي ـ كالبوذيين والهندوس وغيرهم من الملحدين الذين لا يؤمنون بالرسالات السماوية فلا تؤكل ذبيحته سواء أذكر اسم الله أم لا، لأن الأصل حل ذبائح المسلمين فقط، واستثني ذبائح أهل الكتاب بالنص.

2 ـ إذا كان المذكي من أهل الكتاب من اليهود أو النصارىٰ، وكانت تذكيته بأن ذبح رقبتها أو نَحَرَهَا في لبَّتهَا وهي حية، أُكِلَتْ سواء ذكر اسم الله عليها أو لم يذكر، لعموم قوله تعالى: ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾. أما إن ذكر الكتابي اسم غير الله عليها لم تؤكل وهي ميتة لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾.

3 ـ إن ضربها بمسدس أو سلّط عليها تياراً كهربائياً فماتت من ذلك فهي موقوذة حتىٰ ولو قطع رقبتها بعد ذلك، فقد حرّمها الله بقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾. إلا إذا أدركها حية بعد ضرب رأسها فذكاها، لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾.

4 ـ المسلم لا بد له من التسمية عند الذبح، فهي واجبة بحقه.

ففي الصحيحين عن أبي ثعلبة الخشني قال: [قلت يا رسول الله، إنا بأرض صيد

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطيالسي (1178)، والترمذي (2518)، والنسائي (227/8)، وابن حبان (722)، وأخرجه الحاكم(13/2)، (99/4)، وصححه، ووافقه الذهبي ـ وله شواهد.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2553) ـ كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم. وأخرجه الترمذي (2389)، وأحمد (182/4)، وابن حبان (397)، وانظر للشاهد: صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2878).

أصيد بقوسي وبكلبي المعلَّم وبكلبي الذي ليس بمعلَّم، فما يصلح لي؟ فقال: ما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل][1].

وذهب أحمد إلى أن التسمية شرط في الإباحة ، وقال أبو حنيفة: هي شرط في حال الذكر فإن تركها ناسياً حل الصيد ، وهو المشهور عن مالك. وقال الشافعي: التسمية سنة ، فإن تركها ولو عامداً لم يحرم الصيد ويحل أكله.

قلت: والحق أن تركها عامداً إن كان من كتابي تؤكل لأن الآية لم تضع ذلك الشرط، وأما من مسلم فلا تؤكل لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ .

وأما حديث «سموا الله وكلوا» فهو في ذبائح قوم أسلموا لكن حديثو عهد بجاهلية ولم يعلم أذكر اسم الله عليها أم لا.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: [أن ناساً قالوا: يا رسول الله ، إن قوماً يأتوننا باللحم لا نَدْري: أَذُكِرَ اسمُ الله عليه أم لا؟ قال: سَمُّوا عليه أنتم وكلوا. قالت: وكانوا حديثي عَهْدٍ بالكفر][2].

وأما آلة الذبح: فإنه لا بد من إنهار الدم بآلة ليست سناً ولا ظفراً. ولا بد من قطع الحلقوم وهو مجرىٰ النفس ، والمري وهو مجرىٰ الطعام والشراب ، سواء كان القطع فوق الغلصمة وهو العظم الناتئ من الحلق أو دونها.

ففي الصحيحين من حديث رافع بن خديج قال: [قلت: يا رسول الله! إنا لاقو العدو غداً وليس معنا مُدىً ، أفنذبح بالقَصَب؟ قال: ما أنهر الدمَ وذُكِرَ اسم الله عليه فكلوه ، ليسَ السِّنَ والظُّفر، وسأحدثكم عن ذلك، أما السِّنُ فعظم، وأما الظفر فمدىٰ الحبشة][3].

وأما الصعق بالكهرباء أو الإلقاء في ماء حار حتى يموت الحيوان فهذا ميتة لا يؤكل.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

أخرج أبو داود في السنن ، بإسناد صحيح ، عن ابن عباس: [في قوله:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5478) ، (5488) ، وأخرجه مسلم برقم (1930) ، وأبو داود (2855) ، وغيرهم. من حديث أبي ثعلبة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2057) ، (5507) ، وأبو داود (2829) ، والنسائي (237/7) ، وغيرهم. من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2507) ، ومسلم (1968) ، والترمذي (1491) ، وأحمد (463/3) ، وغيرهم. من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوا وما ذبحتم أنتم فكلوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾][1].

وقولهم: «ما ذبح الله» يقصدون الميتة ويستهزئون بأن ذبحها الله ولا تأكلوها، وتأكلون ما ذبحتم أنتم!

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عباس قال: [أتىٰ ناس النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله: أنأكل ما نقتل، ولانأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾][2].

والخلاصـــة: الآية في مجادلة قوم من المشركين النبي ﷺ في تحليل الميتة بذلك الجدال السابق، وبتلك الفلسفة العقلية الباردة، فردّها الله وقبّحها من فلسفة، فلا رأي أمام كلامه الحق ووحيه العظيم.

وقوله: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾.

قال القاسمي: (أي: لهم مع الله، فيما يختص به من التحليل والتحريم). وقال النسفي: (﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في استحلال ما حرمه الله ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾. لأن من اتبع غير الله في دينه فقد أشرك به).

وقال القرطبي: (فدلّت الآية على أن من استحل شيئاً مما حرّم الله تعالىٰ صار به مشركاً. وقد حرّم الله سبحانه الميتة نصّاً، فإذا قَبِل تحليلها من غيره فقد أشرك).

وفي جامع الترمذي بسند حسن: [أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ـ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ . . . ﴾ [التوبة: 31] ـ على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. قال: أليس يحلّون لكم ما حرّم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلىٰ. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2818) ـ باب في ذبائح أهل الكتاب. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2444). ورواه ابن ماجة بلفظ: [كانوا يقولون: ماذُكر عليه اسم الله فلا تأكلوا. وما لم يذكر اسم الله عليه فكلوه. فقال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾]. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (2569).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3277) ـ في التفسير ـ سورة الأنعام ـ انظر صحيح سنن الترمذي (2454). من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(3) رواه الترمذي (3094) في التفسير، ويتقوى بما أخرجه الطبري رقم (16634) عن حذيفة موقوفاً.

122 - 124. **قوله تعالى:** ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: نَهْيٌ من الله سبحانه للمؤمنين برسوله ﷺ عن طاعة المشركين وقبول أحكامهم. أو من كان ميتاً ـ أي: كافراً ـ فهديناه وأنعشناه بالإسلام وجعلنا له بذلك حياة ونوراً وهدىً بعد موت وظلام وضلال، كمن هو غارق في متاهات الظلمات لا يبصر طريق الحق والنجاة. إن الله قد خذل الكافرين فزُينت لهم سوء أعمالهم ليستوجبوا بذلك من فعلهم سخط الله وسوء العذاب ونزول النكال. وكذلك جعلنا في كل قرية عظماءها مجرميها ـ حين أسرف أهلها ـ ليمكروا فيها بإشاعة الكفر والفواحش والمعصية، ثم هم لا يدرون ما قد أعدّ الله لهم من الخزي وأليم العقاب مقابل غيّهم وعتوهم وتحاكمهم للأهواء والشهوات. وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة من الله على صدق نبوة محمد ﷺ وما يوحىٰ إليه من الإيمان وشرائع الإسلام تنطعوا برفض التصديق حتى يعطيهم الله مثل معجزات الرسل، قل لهم يا محمد: الله أعلم بمواضع رسالته، وليس لأحد أن يشترط على الله في قبوله الإيمان، ثم ينتظر هؤلاء المستكبرين عذاب وذلة وهوان بما كانوا يمكرون.

فقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

قال ابن عباس: (﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، يعني: من كان كافراً فهديناه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، يعني النور، القرآن، من صدّق به وعمل به، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، يعني: بالظلمات، الكفر والضلالة). وقال: (فهو الكافر يهديه الله للإسلام. يقول: كان مشركاً فهديناه).

وقال قتادة: (﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، هذا المؤمن معه من الله نور وبيّنة يعمل

بها ويأخذ ، وإليها ينتهي ، كتاب الله ، ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ، وهذا مثل الكافر في الضلالة ، متحيّر فيها متسكع ، لا يجد مخرجاً ولا منفذاً).

أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال:

[إن الله تعالىٰ خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقىٰ عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضل][1].

والظلمة: هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات.

والنور: هو نور الوحي ونور السنة، نور النبوة والرسالات. نور الفطرة والميثاق مع الله ، الذي أخذه سبحانه على عباده بنعمان ـ وهو واد إلى جنب عرفات. فالله سبحانه خلق خلقه في تلك الظلمة ، ثم ألقىٰ عليهم من نوره لئلا يبقوا في الظلمة ، بل ليستضيئوا بنور الوحي والنبوة ، فكادتهم الشياطين عند ذلك.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، من حديث عياض مرفوعاً: [قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كُلَّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحْلَلْتُ لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزِل به سلطاناً][2].

وفي التنزيل: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 257].

قال ابن القيم: (فأولياؤهم يعيدوهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم ، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدّوهم فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات).

---

(1) إسناده جيد. أخرجه أحمد (176/2) ، وابن حبان (6169) ، والحاكم (30/1) ، وصححه الحاكم ، وقال الهيثمي في «المجمع» (193/7 - 194): رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني ، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات. وأخرجه الترمذي (2642) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (241). وانظر صحيح الجامع الصغير (1760) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1076/3).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2865) ، وأحمد في المسند (4/ 266).

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : 22].

2 ـ وقال تعالى : ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : 24].

3 ـ وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 23].

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : حَسَّنَّا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة ، قَدَراً من الله وحكمة بالغة ، لا إله إلا هو ، ولا ربَّ سواه).

وقال القاسمي : (﴿ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : من فنون الكفر والمعاصي ، ولذا جادلوا بها الحق ، وأصروا عليها).

وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ ﴾ .

قال ابن عباس : (سلّطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب).

وقال مجاهد : (﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ : عظماءها). وقال النسفي : (﴿ لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ ﴾ : ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي). قال : (وخصّ الأكابر وهم الرؤساء لأن ما فيهم من الرياسة والسعة أدعىٰ لهم إلى المكر والكفر من غيرهم).

قال ابن كثير : (والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، كما قال تعالىٰ إخباراً عن قوم نوح : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح : 22]. وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ . . . ﴾ [سبأ : 31 ـ 33]).

وقوله: ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

تسلية من الله تعالى لنبيه ﷺ عما يلقىٰ من تكذيب قومه وعنادهم. أي: إن هؤلاء يحفرون لأنفسهم ليقعوا في حياض المهالك، ولن يعود وبال مكرهم إلا على أنفسهم. ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾: قال ابن جرير: (يقول: لا يدرون ما قد أعدّ الله لهم من أليم عذابه، فهم في غيِّهم وَعُتُوِّهِم على الله يتمادَوْن).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت: 13].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: 25].

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾.

قال القرطبي: (بيّن شيئاً آخر من جهلهم، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتىٰ نكون أنبياء، فنؤتىٰ مثل ما أوتي موسىٰ وعيسى من الآيات، ونظيره: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر: 52]. والكناية في «جاءتهم» ترجع إلى الأكابر الذين جرىٰ ذكرهم. قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولىٰ بها منك، لأني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً. وقال أبو جهل: والله لا نرضىٰ به ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وَحْيٌ كما يأتيه، فنزلت الآية).

فأجابهم سبحانه: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾.

قال القاسمي: (كلام مستأنف للإنكار عليهم، وأن لا يصطفىٰ للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها، فيليق للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيره انكشافه له، لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا الاصطفاء من الله للنبوة وحمل رسالته، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده عن واثلةَ بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

[إن الله اصطفىٰ من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفىٰ من بني إسماعيل بني كنانة،

واصطفىٰ من بني كنانة قريشاً ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [بعثت من خير قرون بني آدم قَرْناً فَقَرناً ، حتىٰ كنت من القَرْن الذي كنت منه][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند حسن عن المطلب بن أبي وَدَاعَةَ قال: [قال العباس: بلغه ـ ﷺ ـ بعضُ ما يقول الناسُ ، فصعد المنبر فقال: من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله. قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل ، فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً ، فجعلني في خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً ، وأنا خيركم نفساً][3] .

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم ومالك والترمذي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [إنّ لي خمسةَ أسماء: أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر ، الذي يُحشَرُ الناس على قدمي ، وأنا الماحي ، الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب][4] .

وفي رواية لمسلم وأحمد من حديث أبي موسىٰ بلفظ: [أنا محمد وأحمد والمقفّىٰ والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة]. زاد الطبراني في رواية: (ونبي الملحمة).

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن عبد الله بن مسعود قال: [إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ـ ﷺ ـ خَيْرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فابتعثَه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ـ ﷺ ـ فوجد

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2276) ، والترمذي في الجامع (3610) ، وأحمد في المسند (107/4) ، وأبو يعلى (7485).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3557) ـ كتاب المناقب.

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (210/1) ، والترمذي (3532) ، (3608) ، وله شواهد في المسند (165/4-166) ، وعند الطبراني في «الكبير» (286/20). وقال الهيثمي في «المجمع» (214/8-215): رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح.

(4) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2354) ـ كتاب الفضائل ـ باب في أسمائه ﷺ. وصحيح الجامع (2185) ، (1486) لبقية الروايات.

قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وُزَراء نبيِّه ، يقاتلون على دينه ، فما رأىٰ المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيِّئ][1] .

وقوله : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

قال السدي : (الصغار : الذلة) . وقال النسفي : (﴿صغار﴾ ذل وهوان ﴿عند الله﴾ في القيامة ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ ﴾ في الدارين من القتل والأسر وعذاب النار ﴿ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ في الدنيا) .

وقال ابن كثير : (هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيدٌ ، لمن تكبر عن اتباع رُسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﴿صغار﴾ وهو الذلة الدائمة ، كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : 60] ، أي : صاغرين حقيرين . وقوله تعالى : ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ ، لما كان المكر غالباً إنما يكون خَفِيّاً ، وهو التَلَطُّفُ في التحيُّل والخديعة ، قُوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفِاقاً ، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : 49] ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق : 9] ، أي : تظهر المستترات والمكنونات والضمائر) .

قال : (وجاء في الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يُنْصبُ لكل غادر لواءٌ عند اسْتِهِ يوم القيامة ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان»[2] . والحكمةُ في هذا أنه لما كان الغَدْرُ خفياً لا يَطَّلِعُ عليه الناسُ، فيوم القيامة يصير عَلَماً منشوراً على صاحبه بما فعَل) .

قلت : وقد حفلت السنة الصحيحة بوصف ألوان ذلك الصغار الذي سيصيب المجرمين والمتكبرين يوم القيامة .

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في السنن ، بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ

(1) حديث موقوف. أخرجه أحمد في المسند (379/1) ، والطبراني في «الكبير» (8583) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (177/1-178) : (ورجاله موثوقون).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3186) ، ومسلم (1736) ، وابن ماجة (2872) ، وأخرجه ابن حبان (7341) ، والبيهقي (160/9) من حديث ابن مسعود.

بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقون من عُصارة أهل النار ، طينة الخبال][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أنس: [أن رجلاً قال: يانبي الله ! كيف يحشر الكافرعلى وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة][2] . قال قتادة: (بلىٰ وعزة ربنا) .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة. وقال: اقرؤوا ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾][3] .

125 - 127. قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: يشرح الله صدر من أراد هدايته للحق والإيمان ، فيوفقه لسلوك سبيل الهداية والرشاد ، ويضيق ـ جلت عظمته ـ صدر من أراد أن يضله ، نتيجة استهتاره وتهاونه وتعظيمه شهواته فوق أمر الله عز وجل ، كأنه في ضيقه يرتفع في طبقات السماء حيث يضيق نفسه وصدره مع الارتفاع ، كذلك يسلط الله الشيطان على من أبىٰ الإيمان بالله وجحد رسالة نبيّه ﷺ والوحي الذي أنزل إليه ، فيصده عن سبيل الهدى والحق. إن الذي بينا لك يا محمد هو صراط ربك المستقيم ، ومنهاج الدين القويم ، يظهر ذلك جلياً لأهل الفهم والإدراك والتمييز ، الذين ينتفعون بهذه الذكرىٰ

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025). ورواه أحمد. انظر تخريج المشكاة (5112) ، وصحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (7896) .

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4760) ، كتاب التفسير ، وكذلك (6523) ، كتاب الرقاق ، ورواه مسلم في الصحيح (2806) ـ كتاب صفات المنافقين.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4729) ، كتاب التفسير. سورة الكهف ـ آية (105) ، ورواه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2785) ، من حديث أبي هريرة.

وتنتظرهم دار السلام والأمان ، إنهم في جنة عدن يوم القيامة ، فالله ناصرهم ومؤيدهم في الدنيا والآخرة .

قال السدي : (أما ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، فيوسع صدره للإسلام) .

وقال ابن جريج : (﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ بلا إله إلا الله ، يجعل لها في صدره مُتَّسعاً) .

وعن ابن عباس : (﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ ، يقول : من أراد الله أن يضله يضيق عليه صدره حتى يجعل الإسلام عليه ضيقاً . والإسلام واسع . وذلك حين يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] ، يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق) . وعَنْ مجاهد : (﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ ، قال شاكاً) . وقال قتادة : (ضيقاً ملتبساً) . وقال سعيد بن جبير : (لا يجد مسلكاً إلا صُعُداً) . وقال عطاء الخراساني : (ليس للخير فيه منفَذٌ) . وقال ابن جريج : (﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ ، بلا إله إلا الله ، لا يجد لها في صدره مَسَاغاً) . أو قال : (حتى تستطيع أن تدخله) .

وقوله : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

قال عطاء : (مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء) .

وقال السدي : (من ضيق صدره) . وقال ابن جريج : (من شدة ذلك عليه) .

قلت : وقد أثبت العلم الحديث ضيق النَّفَس والصدر بالإنسان كلما صعد في طبقات السماء وارتفع فيها حيث تقل الجاذبية والأوكسجين اللازم للتنفس .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فيه أقوال :

1 ـ عن مجاهد : (﴿الرجس﴾ ، قال : ما لا خير فيه) .

2 ـ عن ابن زيد قال : (الرجس عذاب الله) .

3 ـ عن ابن عباس قال : (الرجس : الشيطان) .

واختار ابن جرير القول الثالث حيث قال : (كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد في السماء من ضيقه عن الإيمان فيجزيه بذلك ، كذلك

يسلّط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبىٰ الإيمان بالله ورسوله ، فيغويه ويصدّه عن سبيل الحق) .

قلت: والآية تشمل أكثر من ذلك ، فالمعاناة والاكتئاب والقلق وكافة الأمراض النفسية إضافة إلى عذاب الله ووساوس الشيطان ، كل ذلك داخل في مفهوم الآية .

وقوله: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ ﴾ .

قال ابن عباس: (﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ ﴾ ، يعني به الإسلام) .

ونصب «مستقيماً» على الحال. قال ابن كثير: (أي: هذا الدين الذي شرعناه لك ـ يا محمد ـ بما أوحينا إليك هذا القرآن ، هو صراط الله المستقيم) .

وقوله: ﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

أي: قد بينا الحجج والدلالات لقوم لهم فَهْمٌ ووعي ويعقلون عن الله ورسوله .

وقوله: ﴿ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ ﴾ .

قال السدي: (الله هو السلام ، والدار الجنة) .

وقوله: ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

أي: ناصرهم ومؤيدهم لقاء عملهم بطاعة الله واتباع رضوانه .

128 - 132 . **قوله تعالى:** ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: ويوم يحشر ربك ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين ، العادلين بالله

أوثانهم وأصنامهم والمعظمين شهواتهم فوق منهج الله تعالى ، مع أوليائهم من الشياطين فيجمعهم في موقف المحشر ، ثم يقول للجن: لقد استكثرتم من إضلال الإنس وإغوائهم ، فيجيب أولياء الجن من الإنس: ربنا لقد تبادلنا المنافع فيما بيننا فأدركنا الشهوات بتعظيم المردة وطاعتهم حتى وافانا الأجل وحال بيننا الموت! قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا ما كان من مدة الحشر ، إن ربك ـ يا محمد ـ حكيم بتدبير أمور خلقه ، عليم بعواقب الأمور وبمصير كل فرد من الجن والإنس يوم القيامة. وكذلك نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس بأعمالهم. ويوم القيامة يناديهم: يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يعرفونكم آياتي ونعمي لديكم ، ويبيّنون لكم ما يجب عليكم تجاه بارئكم من التعظيم والعبادة والاستعداد للقائه ، فأجابوا: بلىٰ شهدنا على أنفسنا ببلاغ الرسل ووضوح الآيات والحجج ، ولكن غرتنا الحياة الدنيا وشهواتها ووقعنا في الكفر والآثام. فاعلم ـ يا محمد ـ أنه إنما نرسل الرسل لإقامة الحجة على الناس ، فما كان الله ليرسل العذاب على أمة حتى يقيم عليهم حجته البالغة ، ومن ثم فلكل عامل في طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب يبلغها يوم يوضع الميزان ليزن الأعمال وما ربك بغافل عما يعملون.

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾.

قرأ ذلك نافع: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ وهي في محل نصب بفعل محذوف تقديره: نقول. أي: «ويوم نحشرهم جميعاً نقول. . ». وأما جميعاً فهي في محل نصب على الحال ، والمراد حشر جميع الخلق في موقف القيامة.

وأما قوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ ﴾ فهو منادىٰ مضاف.

وقوله: ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾.

قال ابن عباس: (يعني أضللتم منهم كثيراً). وقال مجاهد: (كثر من أغويتم). فحكىٰ الله إجابتهم بقوله: ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾. والتقدير في العربية: استمتع بعضنا بعضاً. قال القرطبي: (فاستمتاع الجن من الإنس أن تلذذوا بطاعة الإنس إياهم ، وتلذذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم). وقال ابن جريج في هذه الآية: (كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي ، فذلك استمتاعهم فاعتذروا يوم القيامة). وفي

التنزيل ـ قوله سبحانه في سورة [الجن]: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

وقيل: وأما استمتاع الجن بالإنس فبما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر.

وقيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجن يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون.

ثم قال سبحانه يحكي قولهم يوم القيامة، وقد اصطفوا أمامه خزاياً نادمين:

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

قال السدي: (أما قوله: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ فالموت).

أي: فاستمتع بعضنا ببعض أيام حياتنا إلى حال موتنا وانقضاء الأجل.

فأجابهم سبحانه إجابة مؤلمة مخزية: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

فيه أكثر من تأويل يحتمله السياق:

التأويل الأول: يقول: لابثين فيها إلا ما شاء الله، من قدر مدة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلك هي المدة المستثناة من خلودهم.

التأويل الثاني: قيل بل المراد: إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب.

التأويل الثالث: قيل بل المعنىٰ: أن الله قد جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابه إياهم إلى مشيئته، كقوله تعالى في سورة [هود]: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾.

قال ابن عباس: (إن هذه الآية آيةٌ لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، لا ينزلهم جنة ولا ناراً).

ثم سطّر سبحانه في كتابه في هذه السورة سنة عظيمة من سننه في الأمم، إذا ما تعاطوا ما يسخط الله ويغضبه، وإذا ما استباحوا بعض ما حرَّمَ عليهم، أو استهتروا

في حمل الأمانة ولم يعظموا شعائره وأوامره، فقال جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

وفيه أكثر من تفسير:

التفسير الأول: نولي بين الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن والكافر ولي الكافر.

قال قتادة: (وإنما يولي الله بين الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولي الكافر أين كان وحيث كان. ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي).

التفسير الثاني: قيل بل معناه: نُتْبعُ بعضهم بعضاً في النار، من الموالاة التي هي المتابعة بين الشيء والشيء. فعَن معمر: (﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا ﴾: قال: في النار يتبع بعضهم بعضاً).

التفسير الثالث: قيل بل المراد نسلط بعض الظلمة على بعض.

قال ابن زيد: (﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا ﴾: ظالمي الجن وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾. قال: نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس).

وجملة القول: إن الله عز وجل قد يسلِّط مردة الجن على عصاة المسلمين الذين يتجاوزون بعض ما حرم الله تكاسلاً أو تجاهلاً، فيسومونهم سوء العذاب، إذ يشاركونهم حياتهم وطعامهم وشرابهم، وينغِّصُون عليهم معيشتهم حتى يذوقوا الضنك الذي وعد الله به المعرضين عن ذكره وهديه بقوله في سورة [طه]: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا . ﴿١٢٤﴾ ﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتىٰ فرقت بينه وبين أهله، فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت][1].

وله شاهد عند ابن حبان بإسناد صحيح من حديث أبي موسىٰ الأشعري، عن النبي ﷺ قال: [إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده، فيقول: من أضَلَّ اليوم مسلماً ألبستُه التاج، فيخرجُ هذا فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج.

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (7106) ـ طبعة دار السلام ـ الرياض، كتاب صفات المنافقين.

ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عق والديه، فيقول: يوشك أن يَبَرَّهما. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت أنت ويُلْبِسُه التاج][1].

وقوله: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾.

خطاب الله لهم يوم القيامة، وقد وقفوا بين يديه أذلاء صاغرين. أي: ألم يأتكم في الدنيا ـ يا معشر الجن والإنس ـ رسل من بينكم ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ بالأمر والنهي ﴿وينذرونكم﴾ أي: يحذرونكم ويخوفونكم ﴿ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾ ـ قال القاسمي: (وهو يوم الحشر الذي قد عاينوا فيه أفانين الأهوال).

فأجابوه سبحانه: ﴿ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ ﴾.

قال القرطبي: (أي: شهدنا أنهم بلغوا).

أي: أقررنا بمجيء الرسل وإقامتهم حجة الحق والوحي البالغة، وبتكذيب دعوتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

قال ابن كثير: (أي: وقد فرَّطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغترُّوا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها).

وقوله: ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾.

أي: شهدوا على أنفسهم أمام ربهم عز وجل في أرض المحشر، أنهم كانوا كافرين بالرسل وبما جاؤوا به من وحي الله العظيم.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾.

أي: إن أمر الله بهلاك الأمم التي أهلكها لم يكن إلا بعد إعذارها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإقامة حجة الوحي البالغة عليها، فإنه سبحانه لا يعاقب عباده إلا بعد بلوغهم دعوة الحق. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: 15].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (65)، بإسناد رجاله ثقات رجال البخاري، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1280).

وكما قال جل ثناؤه: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا . . ﴾ [الملك: 8 ـ 9]. وكقوله جل ذكره: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ . . ﴾ [النساء: 165].

أخرج ابن أبي عاصم في السنة ـ بسند صحيح على شرط الشيخين ـ عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا شخص أغير من الله تعالى، ولا شخص أحب إليه العذر من الله عز وجل، ولأجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدح من الله تعالى، ومن أجل ذلك وعد الجنة][1].

وأصله في الصحيحين من طريق أبي وائل، ولفظ البخاري ـ عن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال ـ: [لا أحدَ أغيرُ من الله، ولذلك حرَّم الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، ولا شَيْءَ أحبُّ إليه المَدْحُ من الله، ولذلك مَدَحَ نَفْسَه، قلت: سمعتَه من عبدِ الله؟ قال: نعم، قلت: ورَفَعَهُ؟ قال: نعم][2].

ويحتمل قوله تعالى: ﴿بظلم﴾ وجهين ـ كما ذكر شيخ المفسرين أبو جعفر بن جرير رحمه الله ـ **أحدهما**: ذلك من أجل أن ربك لم يكن ليهلك القرىٰ بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم غافلون، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولاً يُنَبِّهُهُم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يومَ معادهم، ولم يكن بالذي يؤاخِذهم غفلةً فيقولوا: ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة].

والوجه الثاني: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾، يقول: لم يكن ربك لِيُهْلِكَهُم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلّام لعبيده.

والوجه الأول من التأويل أقوىٰ، ورجّحه ابن جرير، والحافظ ابن كثير، وغيرهم من المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

قال القرطبي: (أي: ولكل عامل بطاعة درجاتٌ في الثواب. ولكل عامل بمعصية دركاتٌ في العقاب. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ ﴾ أي: ليس بلاهٍ ولا ساهٍ. والغفلة أن يذهب

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (522)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4634) ـ كتاب التفسير، وكذلك (5220) ـ كتاب النكاح.

الشيء عنك لاشتغالك بغيره). والآية تشمل الجن والإنس معاً.

وفي التنزيل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩﴾ [الأحقاف].

أي: لكل عامل من الثقلين ثواب عمله، فمطيع الجن في الجنة، وعاصي الجن في النار، شأنهم في ذلك شأن الإنس.

133 - 135. **قوله تعالى**: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١٣٥﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: وربك ـ يا محمد ـ الذي يأمر بإفراده بالطاعة والتعظيم والعبادة، هو الغني عن عباده وعن عبادتهم واجتهادهم في طاعته، فهم المحتاجون إليه وإلى رحمته، ولو شاء لأهلك خلقه هؤلاء من ولد آدم واستبدلهم بخلق جديد يكونون أمماً تخلف أولئك في الأرض، كما أحدثكم من بعد خلق آخرين مضوا وَقد كانوا قبلكم. إن الذي يعدكم ربكم من العقاب على الكفر به ورسله واقع لا محالة وما أنتم بهاربين. فقل يا محمد لقومك من قريش الذين يصرون على طريقة آبائهم في الشرك بالله: اعملوا على ناحيتكم وحيالكم فسوف تعلمون عند حلول نقمة الله بكم من كان المحق من المبطل، إنه لا فلاح ولا سعادة للظالمين.

قال القاسمي: (﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم. ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ أي: يترحم عليهم بالتكليف، تكميلاً لهم، ويمهلهم على المعاصي. وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه سبحانه، بل لترحمه على العباد).

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

قال النسفي: (﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الظلمة ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق المطيع).

وقوله: ﴿ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم. قال: لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين، ولكن معنىٰ ذلك ما ذكرنا من أنهم أنشئوا مكان خَلْقٍ خلَف قوم آخرين قد هلكوا قبلهم).

وقوله: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾.

أي: أخبرهم يا محمد ـ إن الذي وعدكم به ربكم من النكال والعقاب لِمَنْ تمرّد على طاعته وعاند واستكبر وصدّ عن دينه الحق، واقع لا محالة، ولا طريقة للفرار حينئذ من عقاب الله وعذابه في الآخرة.

أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح، عن جُبَيْر بن نُفَيْر عن بُسْر بن جَحَّاشٍ القُرَشي، أن النبي ﷺ بصق يوماً في كفّه فوضع عليها أَصْبُعَهُ ثم قال: [قال الله: ابنَ آدم أنّىٰ تُعْجِزُني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سَوَّيْتُكَ وعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بين بُردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومَنَعْتَ حتى إذا بَلَغَتِ التراقِيَ قُلْتَ أتصدقُ وأنّىٰ أوانُ الصدقة][1].

وقوله: ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾. قال ابن عباس: (يعني: على ناحيتكم).

وقوله: ﴿ إِنِّي عَامِلٞۖ ﴾. قال ابن كثير: (هذا تهديدٌ شديد، ووعيدٌ أكيدٌ، أي: استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنّون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقي ومَنْهَجي، كما قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود: 121 ـ 122]).

وقوله: ﴿ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

قال: (أي: أتكونُ لي أَوْ لَكُم. وقد أنجز مَوْعودَهُ له ـ صلوات الله عليه ـ فإنه تعالىٰ مَكَّنَ له في البلاد، وحَكَّمَهُ في نواصي مخالفيه من العباد، وفتحَ له مكة، وأظهرهُ على من كَذَّبَهُ من قومه وعاداه وناوأه، واستقرّ أمرُه على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكلُّ ذلك في حياته. ثم فُتِحَت الأمصار والأقاليم والرَّساتيقُ بعد وفاته في أيام خُلفائه، ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين. كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (210/4)، من حديث بسر بن جحاش القرشي.

وَرُسُلِيٓۚ . . ﴾ [المجادلة: 21] . وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر: 51 ـ 52] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: 105] ، وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: 13 ـ 14]. وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ . . . ﴾ الآية [النور: 55] ، وقد فعل الله تعالى ذلك بهذه الأمة المحمدية ، وله الحمد والمنّةُ أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً) انتهىٰ.

قلت: وقد سخّر الله الطبيعة والملائكة وجنوده المختلفة لنصر نبيّه ﷺ تعظيماً لقدره وجهاده ، وتسلية له عما أصابه به أعداؤه. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، أن أبا بكر حدثه قال: [قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه! فقال: يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: [لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: [قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل نعم. فقال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب. قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: لو دنا لاختطفته الملائكة عضواً عضواً][3] .

---

(1) حديث صحيح. وفي رواية: (اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما). صحيح البخاري (فتح الباري 257/7). من حديث أنس رضي الله عنه. ورواه مسلم في الصحيح (2381).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (83/8) ، ورواه البخاري وغيره من أهل السنن.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2154/4) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن رفاعة ، عن النبي ﷺ قال: [جاء جبريل فقال: ما تعدون من شهد بدراً فيكم؟قلت: خيارنا ، قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة][1] .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وقد بسطت أكثرها في كتابي: السيرة النبوية على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ، وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فلله الحمد والمنة.

136 - 140. **قوله تعالى**: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: وجعل هؤلاء المشركون ـ العادلون بربهم الأوثان والأصنام ـ لربهم قِسماً وجزءاً مما خلق من الحرث والأنعام ، والقِسم الآخر لشركائهم

(1) حديث صحيح. رواه أحمد وابن ماجة وابن حبان من طريق رافع بن خديج ، وأصله في صحيح الإمام البخاري (3992) ـ كتاب المغازي ، وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3081).

لا يكون لله أبداً ، وأما قسم الله فيمكن أن يكون لشركائهم ، فعدلوا بمن خلقهم وأنعم عليهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم وفَضَّلوه بالقَسْم قلة أدب منهم ، وسوء حكم وضلالة وجهالة. وقد زين لهم الشياطين ـ إضافة إلى ذلك القَسْم الفاسد وسوء الأدب مع الله تعالى ـ وأد البنات ، ليهلكوهم وليشوهوا عليهم دينهم ولو شاء الله لردّهم عن تلك الأفعال القبيحة المشينة ، ولكنه سبحانه خذلهم عن الرشاد ، فقتلوا الأولاد ، وخضعوا لأهواء الشياطين. ثم كان من هؤلاء المشركين أن حلَّلوا من قبل أنفسهم وحرّموا ما لم يأذن به الله ، فجعلوا السائبة والبحيرة والوصيلة وغيرها مما سمّوا لآلهتهم فقالوا نحرم أكلها وظهورها والانتفاع بِرِسْلِها ونِتاجها ونجعلها وقفاً للأصنام ، وكذلك حرموا أنعاماً أخر فلا يحجون عليها ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها بحال ، ولا إن حلبوها ، ولا إن حملوا عليها ، والله تعالى سيثيبهم جزاء ما كانوا يكذبون. وكذلك قالوا: ما في بطون تلك الأنعام من لبن وجنين حِلٌّ لذكورهم ، خالصة ، دون إناثهم ، فإن كان الذي في بطونها ميتة اشترك في أكله الرجال والنساء ، سيجزيهم وصفهم وافتراءهم إنه تعالى حكيم بما سيصنع بهم ، عليم باجترائهم التشريع الكذب وتنحية شرعه الحكيم. إن الذين قتلوا أولادهم ظلماً وسفهاً وتعظيماً لعادات القوم الجاهلية ، وأحلوا وحرموا من عند أنفسهم قد ضلوا وخسروا وما كانوا مهتدين.

فقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾.

ذمٌّ وتوبيخٌ من الله تعالى للمشركين الذين اختلقوا تشريعاً كذباً كفراً وشركاً بالله تعالى. ﴿ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أي: خلق وبرأ. ﴿نصيباً﴾ يعني: قسماً وجزءاً. ﴿من الحرث﴾ أي: من الزروع والثمار ، ﴿والأنعام﴾.

وقوله: ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾.

قال قتادة: (عَمدَ ناس من أهل الضلالة فجزؤوا من حروثهم ومواشيهم جزءاً لله وجزءاً لشركائهم. وكانوا إذا خالط شيء مما جزؤوا لله فيما جزؤوا لشركائهم خلَّوه. فإذا خالط شيء مما جزؤوا لشركائهم فيما جزؤوا لله ردّوه على شركائهم. وكانوا إذا أصابتهم السَّنَةُ استعانوا بما جزؤوا لله ، وأقروا ما جزؤوا لشركائهم ، قال الله: ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾). ـ أي: ساء ما يقسمون.

وقال ابن عباس: (إن أعداء الله كانوا إذا حَرَثوا حَرْثاً ، أو كانت لهم ثمرةٌ ، جعلُوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان

حفِظوه وأحصَوه. وإن سقطَ منه شيء فيما سُمِّيَ للصَّمد رَدُّوه إلى ما جَعَلوه للوَثَنِ. وإن سَبَقَهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقىٰ شيئاً جَعَلُوه لله جعلوا ذلك للوثن. وإن سَقَطَ شيءٌ من الحَرْثِ والثَّمَرِ التي جعلوا لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير. ولم يَرُدوه إلى ما جعلوه لله. وإن سبقهم الماءُ الذي جعلوه لله، فسقىٰ ما سُمِّيَ للوثن، ترَكوه للوثن. وكانوا يُحَرِّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلةَ والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يُحَرِّمُونه قربة لله، فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ . . الآية).

قال ابن كثير: (﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾. أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطؤوا أولاً في القسمة، فإن الله تعالى هو ربُّ كلِّ شيء ومليكه وخالقُه، وله الملك، وكل شيء له وفي تَصَرُّفِه وتحت قُدْرَتِه ومشيئته، لا إله غيره، ولا ربّ سواه. ثم لما قَسَموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التي هي فاسدة، بل جارُوا فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: 57]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف: 15]. وقال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: 21 ـ 22]).

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾.

توبيخ آخر، وذم متتابع من الله تعالىٰ، لهؤلاء المشركين الذين صدرت منهم تلك القسمة الفاسدة في الحرث والأنعام ـ تجاه ربهم وخالقهم وخالق حرثهم وأنعامهم، وقد زيّن لهم الشيطان بعد ذلك قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار.

قال ابن عباس: (زينوا لهم، من قَتْلِ أولادهم). وقال مجاهد: (﴿ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾: شياطينهم، يأمرونهم أن يئدِوا أولادهم خيفة العَيْلة). وقال السدي: (أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات. وأما ﴿ليردوهم﴾، فيهلكوهم. وأما ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾، فيخلطوا عليهم دينهم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ . . . ﴾ [النحل: 58 ـ 59].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: 8 ـ 9].

قلت: وهذا الظلم الذي كان يقع على الأولاد والبنات في الجاهلية ، قد أبكىٰ النبي ﷺ.

يروي الدارمي في أول «سننه» عن الوَضين: [أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا كنا أهل جاهلية وعبادةِ أوثان ، فكنا نقتل الأولاد ، وكانت عندي ابنة لي ، فلما أجابت ، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها ، فدعوتها يوماً ، فاتبعتني ، فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد ، فأخذت بيدها فرديت بها في البئر ، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه! يا أبتاه! فبكىٰ رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه ، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أَحْزَنْتَ رسول الله ﷺ! فقال له: كُفَّ ، فإنه يسأل عما أَهَمَّهُ. ثم قال له: أعد عليَّ حديثك ، فأعاده ، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ، ثم قال له: إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا ، فاستأنف العمل][1].

وله شاهد عند الطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن أبي ذر ، قال: قال رسول الله ﷺ: [من أحسن فيما بقي ، غُفِرَ له ما مضىٰ. ومن أساء فيما بقي ، أُخِذَ بما مضىٰ وما بقي][2].

وأصله في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: [قال رجل يا رسول الله! أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر][3].

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾.

قال ابن جرير: (ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه ، بأن كان يهديهم للحق ، ويوفقهم للسداد ، فكانوا لا يقتلونهم ، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم ، وأطاعوا الشياطين التي أغوتهم).

وقوله: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾.

أي: فذرهم يا محمد وما كان من قسمهم الفاسد ، وقتل أولادهم وتقوّلهم على الله

---

(1) حديث له شواهد. أخرجه الدارمي في أول «سننه» (1/3-4). وانظر تاريخ دمشق لابن عساكر (18/377) ما يشهد له ، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة (3389).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (7/413/6802) . وانظر المرجع السابق .

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6921) ، ومسلم (1/77-78) ، وابن ماجة (4242) ، وأخرجه أحمد (1/409 ، 431) ، وأخرجه البيهقي في «السنن» (9/123) ، وغيرهم.

الكذب والزور، فإن ربهم لهم بالمرصاد، وينتظرهم عذاب موجع أليم فيه خزيهم وهوانهم ومذلتهم.

وقوله: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾.

قال ابن عباس: (الحِجْرُ: الحرامُ، ماحَرَّموا من الوصيلة، وتحريم ما حَرَّموا).

وقال قتادة: (تحريمٌ كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليظٌ وتشديد، وكان ذلك من الشياطين، ولم يكن من الله تعالى). وقال ابن زيد: (﴿ حِجْرٌ ﴾، إنما احتجروها لآلهتهم). وقال السدّي: (﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾، يقولون: حَرَام أن نُطْعِمَ إلا من شِئْنَا). وقال: (أما أنعامٌ حُرمت ظهورها فهي البحيرة والسائبة والحام. وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها، قال: لا إذا أولدوها، ولا إن نحروها). وقال مجاهد: (كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حَلبُوا، ولا إن حَمَلوا، ولا إن سَحَبُوا، ولا إن عملوا شيئاً). وقال أبو وائل: (هي البحيرة، كانوا لا يحجون عليها).

والآية تشبه ما في التنزيل من قوله تعالى:

1 ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: 59].

2 ـ ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: 103].

3 ـ ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: 116].

وقوله: ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾.

أي: افتراء وكذباً على الله في إقحامهم الجاهلية في دين الله وشرعه، مما لم يأذن الله به ولم يرضه بل عابه وحرّمه.

وقوله: ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

أي: سيثيبهم ربهم وسيحاسبهم على ما أسندوا إليه من التشريع الجاهلي المفترىٰ، فإن أكذب الكذب وأشد الافتراء هو ما كان تجاه شرع الله ودينه الحنيف.

وقوله: ﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾.

قال ابن عباس: (فهو اللبن ، كانوا يحرِّمُونه على إناثهم ، ويشرَبه ذُكْرانهم. وكانت الشاةُ إذا ولدت ولداً ذكراً ذَبَحوه ، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثىٰ تُرِكت فلم تُذْبح ، وإن كانت مَيْتَةً فهم فيه شركاء. فنهى الله عن ذلك).

وقال الشعبي: (البحيرةُ لا يأْكُلُ من لَبَنِها إلا الرجال ، وإن ماتَ منها شيءٌ أكَلَهُ الرجال والنساء). وقال مجاهد: (﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾: هي السائبة والبحيرة).

وقوله: ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾.

قال مجاهد: (أي: قَوْلَهم الكَذِبَ في ذلك).

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

أي: حكيم في شرعه سبحانه وفي كل أقواله وأفعاله. عليم بكل شيء ، وبما يجترئ عباده عليه من مخالفته ، وبما سيقابل ذلك في الدنيا والآخرة من الخزي والشقاء.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [إذا سَرَّك أنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئةٍ في سورة الأنعام: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾][1].

قال قتادة: (هذا صنيع أهل الجاهلية. كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السِّباء والفاقة ، ويغذو كلبه ، وقوله: ﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، الآية ، وهم أهل الجاهلية. جعلوا بحيرةً وسائبة ووصيلةً وحامياً ، تحكماً من الشياطين في أموالهم).

وقال الشهاب: (وفي قوله: ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ بعد قوله: ﴿قد ضلوا﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم (3524) ـ كتاب المناقب. باب قِصَّةِ زمزم وَجَهْلِ العرب. من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مبالغة في نفي الهداية عنهم ، لأن صيغة الفعل تقتضي حدوث الضلال ، بعد أن لم يكن. فلذا أردف بهذه الحال ، لبيان عراقتهم في الضلال ، وإنما ضلالهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض) ـ ذكره القاسمي .

141 - 142 . **قوله تعالى : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ﴾** .

في هذه الآيات : إعلام من الله سبحانه لهم ولكل خلقه عن جميل نعمه عليهم ، في خلق الزروع والثمار والأنعام ، ومما عَرَشَ الناس من الكروم أو رفعه الله وبناه ، ومما أنشأ لهم سبحانه من النخل والزرع مختلفاً أكله وألوانه ، ثم هم يقسمونه بأهوائهم ويجعلون منه حراماً وحلالاً بعقولهم الفاسدة ويشركون بالله في التشريع ، والله أحل لكم أكله والتمتع بثمره وما أمر بإخراج إلا الصدقة يوم حصاده ، ونهىٰ عن الإسراف وأخبر أنه لا يحب المسرفين. وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشاً ، كبار الإبل وصغاره ، وأحل لكم ثمرات حروثكم وغروسكم ولحوم أنعامكم ، فكلوا مما رزقكم سبحانه ، ولا تخوضوا في متاهات القول على الله بغير علم ، أو التشريع بوحي من الشيطان ، فإنه لكم عدو مبين .

فقوله : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ ﴾ .

أي : أحدث بساتين من الكروم المعروشة التي ترفعونها ، أو غير المعروشة التي يَبْنيها الله وينميها وينبتها في البر والجبال .

قال ابن عباس : (المعروشات : ما عرش الناس ، وغير المعروشات : ما خرج في البر والجبال من الثمرات). وقال السدي : (أما ﴿جنات﴾ ، فالبساتين ، وأما ﴿المعروشات﴾ ، فما عرش كهيئة الكَرْم). وعن عطاء : (﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ ﴾ ، قال : ما يُعْرَشُ من الكروم ، ﴿ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ ﴾ ، قال : ما لا يعرش من الكرم) .

وقوله: ﴿ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾.

قال ابن جرير: (وخلق النخل والزرع مختلفاً ما يخرج منه مما يؤكل من الثمر والحب، ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾، في الطعم، منه الحلو، والحامض، والمزّ).

وقال ابن جريج: («متشابهاً»، في المنظر، و«غير متشابه»، في الطعم).

وقوله: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾.

قال محمد بن كعب: (من رُطبه وعنبه).

وقوله: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾.

1 ـ قال ابن عباس: (العشر ونصف العشر). وقال الحسن: (الزكاة. وقال: هي الصدقة من الحب والثمار). وقال سعيد بن المسيب: (الصدقة المفروضة). وقال ابن عباس: (وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده، وهو أن يعلم ما كيله وحقّه، فيخرج من كل عشرة واحداً، وما يَلْقُط الناس من سنبله).

2 ـ قال قتادة: (وحقه يوم حصاده: الصدقة المفروضة. ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ سَنَّ فيما سقت السماء أو العين السائحة، أو سقاه الطل ـ و«الطل»، الندىٰ ـ أو كان بَعْلاً، العشرَ كاملاً. وإن سقي برشاء نصفَ العشر. قال قتادة: وهذا فيما يكال من الثمرة. وكان هذا إذا بلغت الثمرة خمسةُ أوسق، وذلك ثلاث مئة صاع، فقد حق فيها الزكاة. وكانوا يستحبون أن يعطوا مما لا يكال من الثمرة على قدر ذلك).

3 ـ قال عطاء: (﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾: من النخل والعنب والحب كله). وقال: (يعطي من حُضور يومئذ ما تيسر، وليس بالزكاة). وقال: (ليس بالزكاة، ولكن يُطعم من حَضَره ساعتئذٍ حَصيده). وقال مجاهد: (سوىٰ الفريضة).

قلت: الزكاة في الزروع والثمار واجبة في أربعة أصناف: التمر والزبيب والحنطة والشعير. وفي ذلك حديثان:

الحديث الأول: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي بردة: عن أبي موسىٰ ومعاذ: [أن رسول الله ﷺ بعثهما إلى اليمن يعلمان الناس أمر دينهم، فأمرهم أن

لا يأخذوا الصدقة إلا من هذه الأربعة: الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب][1] .

الحديث الثاني: أخرج الدارقطني بسند صحيح لغيره عن موسىٰ بن طلحة عن عمر بن الخطاب قال: [إنما سَنَّ رسول الله ﷺ الزكاة في هذه الأربعة: الحنطة والشعير والزبيب والتمر][2] .

ويشترط لوجوب الزكاة في الزروع والثمار أن تبلغ النصاب ـ خمسة أوسق.

والأوسق: جمع وِسْق ، بفتح الواو أو كسرها ، وهو ستون صاعاً بالاتفاق.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس فيما دون خمس ذَودٍ صدقة من الإبل ، وليس فيما دون خمس أواق صدقة ، وليس فيما دون خمسة أوسُقٍ صدقة][3] .

والأواق: جمع أوقية. قال ابن حجر: (ومقدار الأوقية في هذا الحديث أربعون درهماً بالاتفاق ، والمراد بالدرهم الخالص من الفضة).

وأما المقدار الواجب إخراجه في زكاة الزروع والثمار: العشر فيما سقت السماء والعيون ، ونصف العشر فيما سُقي بالناضح أو السانية.

ففي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: [فيما سقت الأنهار والغيم العشور ، وفيما سقي بالسانية نصف العشور][4] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر ، أن النبي ﷺ قال: [فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثَرِيّاً العشر ، وفيما سقي بالنضح نصف العشر][5] .

والعشور: جمع عشر. والغيم: المطر. والسانية: هو البعير الذي يسقىٰ به الماء من البئر ، ويقال له الناضح. و«عَثَرِيّاً»: هو المستنقع في بركة ونحوها يصب إليه من ماء

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (401/1) ، والبيهقي (125/4) ، وإسناده صحيح.

(2) صحيح لغيره. أخرجه الدارقطني (201) ، ويشهد له ما قبله. انظر السلسلة الصحيحة (879).

(3) متفق عليه. أخرجه البخاري (1447) ، واللفظ له ، ومسلم (979) ، والنسائي (17/5) ، وأخرجه الترمذي (622) ، وأخرجه ابن ماجة في السنن (1793) ، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (981) ، وأبوداود (1582) ، والنسائي (42/5) ، وغيرهم.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1483) ، وأخرجه أبو داود (1581) ، والترمذي (635) ، وأخرجه النسائي (41/5) ، وابن ماجة (1817) ، وغيرهم.

المطر في سواق تشق له. واشتق من العاثور: الساقية التي يجري فيها الماء، لأن الماشي يعثر فيها[1].

قلت: وأما بقية الأصناف من الزروع والثمار غير الأربعة ففيها صدقة سوىٰ الزكاة، تسع الأقارب والجيران، والأهل والأرحام، متروك مقدارها لمنزلة الإحسان. تدخل في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ ﴾. وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267].

أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر بن عبد الله: [أن النبي ﷺ: أمر من كل جاد[2] عشرة أوسق من التمر، بقنو يعلق في المسجد للمساكين][3].

قال ابن سِيرين: (كانوا يعطون شيئاً سوىٰ الزكاة)، وبنحوه قال مجاهد.

وقوله: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾.

فيه أقوال متكاملة.

1 ـ قال أبو العالية: (كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً، ثم تبارَوا فيه وأسرفوا، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾).

2 ـ قال ابن جريج، عن عطاء: (ينهىٰ عن السَّرَف في كل شيء). وقال إياس بن معاوية: (ما جاوَزْتَ به أمرَ الله فهو سَرَف).

3 ـ وقال السدي: (﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾: لا تعطوا أموالكم، فتقعدوا فقراء).

4 ـ وقال سعيد بن المسيب: (﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾: لاتمنعوا الصدقةَ فتعصوا ربكم).

واختار ابن جرير قول عطاء: نهي عن الإسراف في كل شي. واختار ابن كثير: لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مَضَرّة العقل والبدن، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ . . ﴾ [الأعراف: 31].

---

(1) انظر فتح الباري (ج 3 ص 408 ـ دار الريان). وكتاب: الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز (220).

(2) الجاد: هو المجدود (المجذوذ ـ المقطوع) من النخل، يتصدق من كل عشرة أوسق. بقنو يعلق في المسجد، وهذا عندما يكون رطباً، قبل أن ييبس التمر، ليأكل الفقير، كما يأكل صاحب النخل رطبه في العرايا. انظر صحيح سنن أبي داود ص (313).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (1662) ـ باب في حقوق الأموال. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1464).

قلت: والآية عامة تشمل التنبيه ضد المبالغة في الإنفاق والصدقة على حساب الأهل ومن يلزمه نفقتهم، كما تشمل التحذير من الإسراف في الأكل والشرب، كما تشمل الترهيب من مجاوزة أوامر الله في كل حال. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: [إنك أَنْ تذرَ ورثتك أغنياء خير من أن تَذَرهم عالةً يتكفّفون الناس](1).

الحديث الثاني: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى يرضىٰ لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً: فيرضىٰ لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم: قِيلَ وقال، وكثرة السؤال، وإضاعةَ المال](2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري تعليقاً: [كُلوا واشربوا والبَسُوا وتَصَدَّقوا، في غير إسرافٍ ولا مَخيلةٍ](3).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾.

الحمولة: ما حمل عليه من الإبل وغيرها، والفرش: صغار الإبل التي لم يُحْمَل عليها بعد.

1 ـ قال ابن عباس: (الحمولة هي الكبار، والفرش: الصغار من الإبل).

2 ـ قال الحسن: (الحمولة: ما حمل عليه، والفرش: حواشيها، يعني صغارها).

3 ـ قال قتادة: (أما «الحمولة»، فالإبل والبقر. وأما «الفرش»، فالغنم). وقال ابن عباس: (فأما «الحمولة» فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما «الفرش»، فالغنم).

4 ـ قال ابن زيد: («الحمولة» ما تركبون، و«الفرش»، ما تأكلون وتحلبون، شاة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (132/3)، وأخرجه مسلم (1628) ـ في أثناء حديث أطول.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم (1715). وله شواهد كثيرة.
(3) حديث حسن. ذكره البخاري قبل ح (5783) معلقاً بصيغة الجزم، ووصله الطيالسي (2261) فقال: حدثنا همام عن رجل عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً، وزاد: «فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وفيه رجل لم يسم، لكن أسنده البيهقي في الشعب عن همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب. وإسناده حسن. انظر تخريج ـ المهدي ـ على تفسير ابن كثير (3/ ص 100).

لا تحمل ، تأكلون لحمها ، وتتخذون من أصوافها لحافاً وفرشاً).

وقال السدي: (أما «الحمولة» ، فالإبل ، وأما «الفرش» فالفُصْلان والعَجاجيل والغنم. وما حمل عليه فهو «حمولة»).

قلت: والقول الثالث أشملها ، فكل ما حمل عليه من الإبل والخيل والبغال والحمير وغير ذلك من الأنعام فهو حمولة ، واختاره ابن جرير. ثم قال: (وكذلك «الفرش» ، إنما هو صفة لما لطف فقرب من الأرض جسمه ، ويقال له: «الفرش». وأحسبها سميت بذلك تمثيلاً لها في استواء أسنانها ولطفها بالفَرْش من الأرض ، وهي الأرض المستوية التي يتوطَّؤها الناس).

وفي التنزيل ما يشهد لهذا المعنى:

1 ـ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر: 79 ـ 80].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: 71 ـ 72].

3 ـ وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل: 66 ـ 80].

وقوله: ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾.

أي: كلوا من طيبات ما رزقكم الله معشر المؤمنين ، فقد أحل لكم ثمرات زروعكم وغروسكم وحروثكم ، ولحوم أنعامكم ، ولا تقلدوا المشركين الذين اتبعوا خطوات الشيطان، فحرموا طيبات أحلت لهم، وشرعوا ما لم يأذن به الله.

قال ابن زيد: (﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾: لا تتبعوا طاعته ، هي ذنوب لكم ، وهي طاعة للخبيث).

قلت: ومن خطوات الشيطان اكتساب الرزق من أي طريق ، ولو كان في إشاعة منكر في الأرض من طعام أو شراب أو لباس أو علم فاسد المنهج أو غير ذلك ، مما يعين على نشر الفواحش والمعازف في الأرض.

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالىٰ لا يُنال ما عنده إلا بطاعته][1].

وأخرج ابن ماجة في سننه بسند صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده ، لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صباً ، حتى لا يزيغَ قلب أحدكم إن أزاغه إلا هي ، وايم الله ، لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء][2].

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

قال ابن جرير: (إن الشيطان لكم عدو يبغي هلاككم وصدكم عن سبيل ربكم ، ﴿مبين﴾ ، قد أبان لكم عداوته ، بمناصبته أباكم العداوة ، حتى أخرجه من الجنة بكيده ، وخَدَعه حسداً منه له ، وبغْياً عليه).

وآيات القرآن كثيرة في مظاهرة العداوة مع هذا الشيطان اللعين وأعوانه:

1 ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: 50].

3 ـ وقال سبحانه: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ . . . ﴾ [الأعراف: 27].

وقد حفلت السنة الصحيحة كذلك بالحث على مخالفته ومبادلته العداوة ـ في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ

---

(1) حديث حسن. انظر تخريج مشكاة المصابيح (15) ، وتخريج فقه السيرة (96) ـ الألباني.
(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (5). وانظر صحيح الجامع الصغير (9) ، وتفصيل بحث الرزق في كتابي: أصل الدين والإيمان (833/2).

قال: [إذا قرأ ابنُ آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول: يا ويله أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمِرتُ بالسجود فعصيت فليَ النار][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن سبرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد بطريق الإسلام فقال: تُسلِمُ وتذرُ دينك ودينَ آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجرُ وتدع أرضك وسماءك. . فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتُقتل فتُنْكَحُ المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد][3] .

143 - 146. **قوله تعالى**: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (369) ـ باب: من سجد لله فله الجنة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 138). وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1804) ـ باب: في تحريش الشيطان بين المصلين.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 483) ، والنسائي في السنن (6/ 21 ـ 22) ، وابن حبان في صحيحه (4593) من حديث سبرةَ بن أبي فاكه ، وإسناده لا بأس به. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث (1648). وتفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1341).

كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: وأنشأ لكم ـ أيها الناس ـ من الأنعام ثمانية أزواج ، من الضأن اثنين ـ ذكر وأنثى ـ فذلك أربعة ، ومن المعز اثنين ـ ذكر وأنثى ـ فذلك أربعة ، لأن الذكر زوج الأنثى والأنثى زوج الذكر ـ فقل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الكذبة على الله: آلذكرين حرم ربكم من الضأن والمعز ـ فإن أقروا فقد ناقضوا أنفسهم وهم يستمتعون بلحوم الذكران منها وظهورها ـ أم حرّم الأنثيين؟ فإن أقروا فقد ناقضوا أنفسهم مرة أخرى ، فهم يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره! أم حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ـ أنثى الضأن وأنثى المعز؟ فإن أقروا فقد كذبوا باستمتاعهم ببعض ذلك! قل لهم: خبروني بعلم عن مذهبكم الذي شرعتموه وأشركتم بالله في التشريع. والأمر نفسه بالنسبة للإبل والبقر. قل لهم يا محمد: كيف حرمتم وأحللتم ـ هل شهدتم ربكم فوصاكم بهذا أم تفترون عليه الكذب ، فمن أظلم ممن كذب على الله ليصد الناس عن سبيله ، إن الله لا يوفق الكاذبين المفترين. قل لهؤلاء المفترين: إني لا أجد فيما أوحي إلي من كتاب الله وشرعه محرّماً على آكل يأكله ـ مما تصفون ـ إلا ميتة ماتت دون تذكية أو دماً انصبّ أو لحم خنزير ـ فذلك رجس ـ أو فسقاً ـ كذبح عبدة الأوثان والمشركين ـ فما سبق لا يجوز أكله إلا عند الضرورة وخشية الهلاك والله غفور رحيم. لقد حرمنا فيما مضىٰ على اليهود كل ذي ظفر من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع ـ كالإبل والنَّعام والإوز والبط ، ومن البقر والغنم حرم شحومهما إلا شحومَ الجَنْب وما علق بالظهر ، أوما حملت الحوايا ـ وهو ما تحوّىٰ من البطن فاجتمع واستدار ـ وإلا ما اختلط بعظم عقوبة على تنطعهم وبغيهم ونحن الصادقون في تشريعنا وأخبارنا عنهم ، وهم الكاذبون في ادعائهم أن ذلك مما حرمه إسرائيل على نفسه فحرموه على أنفسهم.

قال ابن عباس: (﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ ﴾ فهذه أزواج أربعة).

وقال الضحاك: (﴿ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ، ذكر وأنثىٰ ، ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ ﴾ ، ذكر وأنثىٰ ، ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ، ذكر وأنثىٰ).

قال ابن كثير: (بَيّنَ أصنافَ الأنعام إلى غَنَمٍ وهو بياض وهو الضأن ، وسواد وهو

المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك. وأنه تعالىٰ لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كُلُّها مخلوقةٌ لبني آدم، أكلاً، وركوباً، وحمولة، وحَلْباً، وغير ذلك من وُجوه المنافع، كما قال: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ... ﴾ الآية [الزمر]. وقوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾، رَدٌّ عليهم في قولهم: ﴿ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾. وقوله تعالى: ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، أي: أخبروني عن يقين: كيف حَرَّمَ الله عليكم ما زعمتمُ تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلةِ والحامِ ونحو ذلك).

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لم أُحَرِّم شيئاً من ذلك).

وقوله: ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾.

قال ابن عباس: (يعني هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم تحرمون بعضاً وتحلون بعضاً).

وقوله: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ ﴾.

توبيخ لصنيعهم وابتداعهم تشريعاً كاذباً لم يأذن به الله.

وقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾.

قال السدي: (كانوا يقولون ـ يعني الذين كانوا يتخذون البحائر والسوائب ـ: إن الله أمر بهذا. فقال الله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ﴾).

قلت: وأول من دخل بهذا التهديد والوعيد من سَنَّ ذلك التشريع الكاذب في أمة العرب ـ عمرو بن لحي.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [إنّ أول من سَيَّبَ السوائب وَعَبَدَ الأصنام أبو خزاعة عمرو بنُ عامر، وإني رأيته في النار يَجُرُّ أمعاءَه فيها][1].

وله شاهد عن ابن أبي عاصم، بسند حسن عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: [يا أكثم! رأيت عَمْرَو بن لُحَيٍّ بن قمعة بنِ خَنْدَف

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (446/1)، وبنحوه (275/2)، ومسلم (155/8).

يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار ، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا بك منه. فقال أكثم: عسىٰ أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غَيَّرَ دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وبَحَرَ البحيرة ، وسَيَّبَ السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمىٰ الحامي][1].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: لا يوفق الله للرشد من افترى على الله وقال عليه الزُّور والكذب ، وأضاف إليه تحريم ما لم يحّرم ، كفراً بالله ، وجحوداً لنبوة نبيه محمد ﷺ).

وقوله: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ ﴾.

قال طاووس: (كان أهل الجاهلية يستحلون أشياء ويحرّمون أشياء ، فقال الله لنبيه: قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً مما كنتم تستحلون إلا هذا ، وكانت أشياء يحرّمونها ، فهي حرام الآن).

وقال عكرمة: (﴿ أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا ﴾: لولا هذه الآية لتتبعَ المسلمون من العروق ما تتبعت اليهود). والدم المسفوح: هو الدم المُسال المُهراق.

فعن عمران بن حدير ، عن أبي مجلز ، قال: سألته عن الدم وما يتلطّخ بالمذْبح من الرأس ، وعن القدر يرىٰ فيها الحُمرة؟ قال: (إنما نهىٰ الله عن الدم المسفوح).

وقال قتادة: (حُرِّم الدم ما كان مسفوحاً. وأما لحم خالطه دم ، فلا بأس به).

أخرج البخاري في صحيحه عن سفيان: قال عمرو: قلتُ لجابرِ بنِ زَيْدٍ: [يزعمون أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن حُمُرِ الأهلية ، فقال: قد كان يقول ذاكَ الحَكَمُ بن عَمْرٍو الغِفاري عِنْدَنا بالبصرة ، ولكن أبىٰ ذلك البَحْرُ ابنُ عباس وقرأ: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا. . . ﴿١٤٥﴾ ﴾][2].

قلت: لكن ثبتَ أن رسول الله ﷺ حرَّم لحوم الحمر الأهلية في أحاديث:

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن أبي عاصم (ق 1/20) ، والحاكم (605/4) ، وابن هشام في السيرة (78/1) من حديث أبي هريرة ، وإسناده حسن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5529) ـ كتاب الذبائح والصيد. باب لحوم الحمر الإنسية.

الحديث الأول: أخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: [أن النبي ﷺ رأىٰ نيراناً توقد يوم خيبر، قال: على ماتوقدُ هذه النيران؟ قالوا: على الحمر الإنسية. قال: اكسِروها وأهرقوها. قالوا: ألا نُهْرِيقُها ونَغْسِلُها؟ قال: اغسلوا][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس ـ يوم خيبر ـ قال: [وأصبنا حُمُراً فطبخناها فنادىٰ منادي النبي ﷺ: إنّ الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحُمُر فإنها رجس، قال: فأكفئت القدور بما فيها][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن جابر قال: [نهىٰ النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر ورَخَّصَ في لحوم الخيل][3].

قلت: فهذا تخصيص للآية السابقة، وكذلك كل تخصيص آخر جاء في تحريم بعض اللحوم. وعليه يحمل قول ابن عباس: [كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء، ويتركون أشياء تَقَذُّراً، فبعث الله تعالى نبيه، وأنزل كتابه، وأحل حلاله، وحرَّم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا. . . ﴿١٤٥﴾ ﴾ إلى آخر الآية][4].

ومن ذلك أيضاً ما أخرج الإمام أحمد والبخاري ـ واللفظ لأحمد ـ عن ابن عباس قال: [ماتت شاةٌ لسودةَ بنت زَمَعَة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانةُ ـ تعني الشاة ـ قال: فلولا أخَذْتم مَسْكها؟ قالت: نأخذ مَسْك شاةٍ قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ: إنما قال الله: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾، وإنكم لا تَطعَمُونه، أَنْ تَدْبَغوه فَتَنْتَفِعُوا به. فأرسَلَت فَسَلَخَت مَسْكها فَدَبَغَتْه، فاتَّخَذَتْ منه قِرْبَةً، حتىٰ تَخَرَّقَت عندها][5].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2477) ـ كتاب المظالم. من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه. وانظر تفصيل هذا البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة. غزوة خيبر (1094-1104).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4199) ـ كتاب المغازي. وانظر المرجع السابق ص (1094).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري(4219) ـ كتاب المغازي. وانظر المرجع السابق ص (1095).

(4) صحيح الإسناد. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (3800) ـ باب ما لم يذكر تحريمه. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3225).

(5) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (5531)، (5532) ـ كتاب الذبائح والصيد ـ باب جلود الميتة. وانظر حديث رقم (2991) ـ تفسير ابن كثير ـ لرواية أحمد.

وقوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ ﴾.

يعني في أكلها لا في لمسها، فالنجاسة هنا معنوية، وليست حسية، فإن لحم الخنزير حرم أكله وبيعه، وعطف على الأنصاب والأزلام في الآية الأخرى، مما يدل على نجاسة الأكل، كما شبه اللعب بالنردشير في غمس اليد في لحم الخنزير أكلاً أو بيعاً. فهو تشبيه محرم بمحرم وليس تشبيه نجس بنجس.

ففي المسند عن بريدة مرفوعاً: [من لعب بالنردشير، فكأنما غمس يده في لحم الخنزير ودمه](1).

وقوله: ﴿ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ ﴾.

قال القاسمي: (﴿ أَوۡ فِسۡقًا ﴾ أي: خُروجاً عن الدين الذي هو كالحياة المطهرة ﴿ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ ﴾ أي: ذبح على اسم الأصنام ورفع الصوت على ذبحه باسم غير الله. وإنما سمي ما ﴿ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ ﴾ فسقاً، لتوغله في باب الفسق، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ ﴾).

وقال النسفي: (﴿ أَوۡ فِسۡقًا ﴾ عطف على المنصوب قبله. وقوله ﴿ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه).

وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

أي: من وقع في الضرورة إلى تناول شيء مما ذكر، غير متلبِّس ببغي على مضطر مثله، أو عدوان في تجاوزه قدر حاجته من تناوله، فالله تعالى لا يؤاخذه رحمة منه.

وقوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ ﴾.

فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (البعير والنعامة ونحو ذلك من الدَّواب). وقال مجاهد: (النعامة والبعير).

2 ـ قال سعيد بن جبير: (هو الذي ليس بمنفرج الأصابع). قال: (كل شيء متفرق الأصابع، ومنه الديك).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2260) بلفظ: «من لعب بالنردشير فكأنما صَبَغَ يده في لحم خنزير ودمه» ـ كتاب الشعر ـ باب تحريم اللعب بالنردشير. وصحيح الجامع (6404) للفظ أحمد.

3 ـ قال قتادة: (البعير والنعامة وأشباهه من الطير والحيتان). وقال: (﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾: الإبل والنعام، ظفر يد البعير ورجله، والنعام أيضاً كذلك. وحرم عليهم أيضاً من الطير البط وشبهه، وكل شيء ليس بمشقوق الأصابع).

4 ـ وقال مجاهد: (﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾، قال: النعامة والبعير، شقّاً شقّاً. قيل: ما «شقاً شقاً»؟ قال: كل ما لم تفرج قوائمه لم يأكله اليهود، والبعير والنعامة. والدجاج والعصافير تأكلها اليهود، لأنها قد فُرِجَت).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وَحرّمنا على اليهود، ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾، وهو من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنَّعام والإوز والبط).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾.

قال السدي: (﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾: الثرب وشحم الكليتين. وكانت اليهود تقول: إنما حرمه إسرائيل، فنحن نُحَرِّمُه. قال: أما ﴿مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾، فالألْيات).

وعن ابن عباس: (﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾، يعني: ما علق بالظهر من الشحوم).

وقال أبو صالح: (الألية، مما حملت ظهورهما).

وقوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾.

جمع حاوِياء، وحاوية، وحَوِيّة. قال ابن جرير: (وهي ما تحوَّىٰ من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي «المباعر»، وتسمىٰ «المرابض»، وفيها الأمعاء). ومن أقوال المفسرين:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾، وهي المبعر). وقال سعيد بن جبير: (المباعر).

2 ـ وقال مجاهد: (﴿ٱلْحَوَايَآ﴾: المبعر والمرْبَض). وبنحوه قال قتادة.

3 ـ وقال الضحاك: (﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾، يعني البطون غير الثروب).

4 ـ وقال ابن زيد: (الحوايا: المرابض التي تكون فيها الأمعاء، تكون وسطها، وهي «بنات اللبن»، وهي في كلام العرب تدعىٰ «المرابض»).

وقوله: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

شحم الألية والجنب وما شابهه.

قال ابن جريج: (﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: شحم الألية بالعُصْعُص، فهو حلال. وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين قد اختلط بعظم، فهو حلال).

وقال السدي: (﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، مما كان من شحم على عظم).

فيكون المعنى: ومن البقر والغنم حرمنا على الذين هادوا شحومهما، واستثني من ذلك ما حملت ظهورهما أو حواياهما أو ما اختلط بعظم فذلك حلال.

وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

قال قتادة: (إنما حرم ذلك عليهم عقوبة ببغيهم). وقال ابن زيد: (فعلنا ذلك بهم ببغيهم).

قال الحافظ ابن كثير: (﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، أي: وإنا لعادلون فيما جازيناهم به).

وقال ابن جرير: (﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم من الشحوم ولحوم الأنعام والطير التي ذكرنا أنّا حرمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه).

والخلاصة: إن الله جلت عظمته إنما ضيق على هؤلاء اليهود ما ضيق مجازاة لهم على تنطعهم وبغيهم.

وفي التنزيل: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى ـ في أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس قال: [بلغَ عُمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن سَمُرَةَ باعَ خمراً، فقال: قاتل الله سَمُرَة! ألم يَعْلَمْ أن رسول الله ﷺ قال: لَعَنَ الله اليهود، حُرِّمَتْ عليهم الشحوم فَجَملوها فباعوها][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2223)، ومسلم (1582) ـ واللفظ له ـ وأخرجه أحمد (25/1)، والنسائي (177/7). من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قال: [قاتل الله يهوداً ، حُرِّمت عليهم الشُّحوم فباعوها وأكلوا أثمانها][1].

قال أبو عبد الله: قَاتَلَهم الله: لَعَنَهُم. «قُتِلَ»: لُعِنَ «الخراصون»: الكذابون.

الحديث الثالث: أخرج الجماعة وأحمد وأبو يعلى وابن حبان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: [أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو بمكة عام الفتح: إن الله ورسولَه حرّم بيع الخمر والمَيْتَةِ والخِنزيرِ والأصنام. فقيل: يا رسول الله ، أرأيت شحومَ الميتةِ فإنها يُطلىٰ بها السُّفُنُ ويُدهن بها الجلودُ ، ويَسْتَصبحُ بها الناسُ ، فقال: لا ، هو حرام. ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: قاتل الله اليهود ، إن الله لمّا حَرَّمَ شحومَها جَمَلوهُ ثم باعوه فأكلوا ثمنه][2].

147 - 150. قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

في هذه الآيات: فإن كذبك المشركون وهؤلاء اليهود ـ يا محمد ـ فيما أخبرك الله مما كان من فساد منهجهم وافترائهم فقل ربكم واسع الرحمة بالمؤمنين خاصة وبجميع خلقه عامة لا يعاجلهم عقوبته بل يعطيهم فرصة ليستعتبوا ، فإذا حان الأجل عنده أنزل غضبه بمن تمرّد على دينه وطاعته ثم لا راد لبأسه. سيحتج المشركون مبررين شركهم بالقدر ومشيئة الله ، وبأن الله لو أراد لهم الإيمان ولآبائهم لكان ما أراد ، وهذه المتاهة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2224) ـ كتاب البيوع. باب لا يُذاب شحم المَيْتَة ولا يُباعُ وَدَكُه. وأخرجه مسلم في الصحيح (1583) ، وأخرجه أحمد في المسند (247/1) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2236) ـ كتاب البيوع ، باب بيع الميتة والأصنام. وأخرجه مسلم (1581) ، وأبو داود (3486) ، والترمذي (1297) ، والنسائي (309/7) ، وابن ماجة (2167) ، وأخرجه أحمد (324/3) ، وأخرجه أبو يعلى (1873) ، وابن حبان (4937) من حديث جابر.

في التعامل مع الحق قد سبقهم بها أقوام كذبوا من قبل فدكهم عذاب الله ، قل لهم ـ يا محمد ـ هل عندكم على دعواكم عن رضا الله بشرككم ، أوتحريمكم بأهوائكم ، حجة من العلم ، وإنما أنتم تفترون على الله الكذب ولا برهان ولا علم ولا حجة لديكم. إن الحجة البالغة لله سبحانه فقد أعذر عباده وأنذر ولو شاء لألزمكم الهداية ولكنه ما أراد ذلك. ثم قل لهم يا محمد ـ هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرّم عليكم ما تدّعون ، فإن فعلوا يا محمد ـ وأتوا بالشهداء فلا تشهد معهم فإنهم شهود زور وكذب ، فاحذر أن تصدق قوماً يتبعون أهواءهم ولا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يشركون.

فعن مجاهد: (﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ ـ قال اليهود). قال السدي: (كانت اليهود يقولون: إنما حرّمه إسرائيل ـ يعني الثَّرْبَ وشحم الكليتين ـ فنحن نحرمه ، فذلك قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾).

والآية ترغيب للمشركين واليهود في التماس رحمة الله الواسعة ، بعد الترهيب من مغبة الكذب على الله والشرك به. والقرآن مليء بهذا المنهج الفريد الذي يتودد الله به إلى عباده رغم سوء صنيعهم وظلمهم علهم يرجعون إلىٰ التماس عفوه ومغفرته.

1 ـ قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾. ختم بها هذه السورة.

2 ـ وقال سبحانه في سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

3 ـ وقال جل ذكره في سورة الحجر: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

4 ـ وقال جلت عظمته في سورة البروج: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله تعالى: يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عَنانَ السماء ثم استغفرتني

غفرت لك. يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خَطَايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة][1].

وقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾.

قال ابن كثير: (هذه مناظرة ذَكَرها الله تعالى، وشُبْهةٌ تَشَبَّثَ بها المشركون في شِرْكِهم وتحريم ما حَرَّموا: فإن الله مُطَّلِعٌ على ما هُم فيه من الشِّرك والتحريم لما حَرَّموه، وهو قادر على تغييره بأن يُلهمَنا الإيمان، أو يحولَ بيننا وبين الكفر، فلم يُغَيِّره، فدل على أنه بمشيئته وإرادتِهِ ورضاه مِنّا ذلك).

وفي التنزيل ما يشبه هذه الدعوة الباطلة: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف].

قلت: وفرق بين الإرادة والمحبة، أو المشيئة والرضا، فإن الله خلق إبليس وأراده ولا يحبه، وخلق الكفر ولا يرضاه، فقال سبحانه: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴾.

أخرج أبو نعيم في الحلية، بسند حسن، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إن الله لو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس][2].

وله شاهد عند البيهقي بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال النبي ﷺ لأبي بكر: [يا أبا بكر: لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس][3].

وقوله: ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ ﴾.

قال مجاهد: (قول قريش بغير يقين: إن الله حرم هذه البحيرة والسائبة).

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

قال النسفي: (أي: كتكذيبهم إياك كان تكذيب المتقدمين رسلهم وتشبثوا بمثل هذا

---

(1) عنان السماء: ما عَنَّ منها، أي ظهر إذا رفعت رأسك، وقيل هو السحاب. وقُراب الأرض: بضم القاف وكسرها وهو ما يُقارب مِلأها. والحديث أخرجه أحمد والترمذي، وكذلك رواه الدارمي (2/ 322). انظر كتابي: أصل الدين والإيمان (101/1)، (240/1).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في الحلية (92/6). وحسنه الألباني في الصحيحة (1642).

(3) حديث حسن. أخرجه البيهقي في «الأسماء» (157)، وانظر مسند البزار (229).

فلم ينفعهم ذلك إذ لم يقولوه عن اعتقاد بل قالوا ذلك استهزاء ، ولأنهم جعلوا مشيئته حجة لهم على أنهم معذورون به وهذا مردود).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

أي: حتى أنزلنا بهم النكال والعذاب.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾.

أي: هل لديكم من خبر صحيح عن الله تعالىٰ أنه راض عنكم فيما ذهبتم إليه فتظهروه لنا وتبرزوه.

وقوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.

أي: الوهم والغرور والخيال والافتراء. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ـ أي: تكذبون وتفترون وتدّعون باطلاً.

وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾.

قال الربيع بن أنس: (لا حجة لأحد عصىٰ الله ، ولكن لله الحجة البالغة على عباده).

وقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: لو أراد سبحانه لجمع عباده على دين الحق والهدىٰ ، ولألزمهم توحيده وتعظيمه ، ولكنه تعالىٰ بيّن طريق الحق وطريق الغواية ، وترك لعباده الاختيار.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23].

2 ـ وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13].

3 ـ وقال جلت عظمته: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118 ـ 119].

4 ـ وقال جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99].

5 ـ وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 35].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ

مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

المعنى: قل هاتوا شهداءكم ـ أيها المشركون ـ الذين يشهدون ما زعمتم من التحليل والتحريم أن الله شرعه لكم. فإن فعلوا فاحذر ـ يا محمد ـ تصديقهم. ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ ﴾ ـ قال ابن جرير: (فإنم كذبة وشهود زور في شهادتهم بما شهدوا به من ذلك على الله). ثم احذر من اتباع أهواء قوم كذبوا بآيات الله ولقائه، وأسرفوا على أنفسهم بعبادة غيره من الأنداد والطواغيت وعدلوهم بربهم ظلماً وعدوانا.

151 - 153. **قوله تعالى:** ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: قل يا محمد ـ لهؤلاء المتجرئين على ربهم بالتشريع ـ تعالوا أيها القوم فاسمعوا ما حرّم ربكم عليكم حقاً، إنه حرّم أول ما حرّم عليكم الشرك به في العبادة أو التشريع، كما حرّم عليكم العقوق فأوصىٰ بالوالدين إحساناً، وحرّم قتل الأولاد ووأدهم خشية الفقر والضيق، وبشر برزقهم وإياكم، وحرم الفواحش الظاهرة والباطنة مما تخفون أو تعلنون، وحرّم قتل النفس وسفك الدماء إلا بالحق، هذه وصية ربكم إليكم لعلكم تعقلون. ثم نهىٰ عن العبث في مال اليتيم، بل أمر بحفظه واستثماره بالتي هي أحسن حتىٰ يبلغ اليتيم فيستفيد منه، وأمر بالوفاء في الكيل والميزان ونبذ التلاعب والاحتكار، والأصل بذلك العدل فمن أحسن فله، ولكن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ثم إذا حكمتم بين الناس بقول أو فعل فانصبوا الإنصاف والعدل سبيلاً

لكم ، واحذروا الجور والظلم فإنه ساء طريقاً ومنهجاً ، ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق على الانحراف عن منهاج العدل والحق، وأوفوا بعهد الله فالزموا طاعته واحذروا ما نهاكم عنه، وهذه وصية ربكم لكم لعلكم تتذكرون عواقب الأمور ونهاية الدهور ومشهد الحساب يوم القيامة. إن هذا الذي أوضحه لكم ربكم عز وجل هو صراطه المستقيم الذي فيه النجاة والعبور بسلام فوق الصراط إلى الجنات في دار الخلود، فالتزموه واحذروا سبل الشياطين الكثيرة التي تحرفكم عن سبيل النجاة إلى دار الشقاء والأهوال ، وهذه وصية ربكم سبحانه إليكم لعلكم تحذرون وتتقون.

فقوله: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ . . الآية.

هذه هي الوصايا العشر التي قيل إنها وردت في التوراة والإنجيل والقرآن. قال القرطبي: (وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزلة على موسىٰ).

قال ابن عباس: (إن في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب،ثم قرأ: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ . . . الآيات) أخرجه الحاكم. وقال ابن عباس: (هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة «آل عمران» أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملة).

وقال ابن مسعود: (من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ إلى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾).

والمقصود: قل يا محمد ـ لهؤلاء المتطاولين على ربهم في التشريع ـ تقدموا واقرؤوا حقاً ويقيناً ما أوحىٰ الله مما حرّم على عباده ، لا ظناً ولا كذباً ولا زعماً ولا افتراء.

وقوله: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾.

هو أصل الدين ، ومفهوم شهادة التوحيد: ﴿لا إله إلا الله﴾. فإن الشرك يهدم العمل ولو كان حسنات كالجبال ، فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتا.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

2 ـ وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

3 ـ وقال جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ . . ﴿٤٨﴾﴾.

ومن السنة الصحيحة في ذلك أحاديث كثيرة، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: [أتيت النبي ﷺ وعليه ثَوْبٌ أبيضُ وهو نائمٌ، ثم أَتَيْتُهُ وقد استيقظ فقال: ما من عَبْدٍ قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. قلت: وإن زنىٰ وإنْ سَرَقَ؟ قال: وإنْ زنىٰ وإنْ سَرَقَ. قلت: وإنْ زنىٰ وإنْ سَرَقَ؟ قال: وإِنْ زَنَىٰ وإِنْ سَرَقَ. قلت: وإن زنىٰ وإن سَرَقَ؟ قال: وإن زنىٰ وإن سَرَقَ، على رَغْمِ أنفِ أبي ذر. وكان أبو ذر إذا حدّث بهذا قال: وإِنْ رَغِمَ أنف أبي ذر][1].

قال أبو عبد الله: (هذا عند الموت أو قَبْلَهُ إذا تاب ونَدِمَ وقال: لا إله إلا الله، غُفِرَ له).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار][2]. وله شاهد عنده من حديث عثمان ـ بلفظ: [من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن عتبان بن مالك، عن النبي ﷺ قال: [إن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل][3].

الحديث الرابع: أخرج البخاري في الأدب المفرد ـ بإسناد حسن ـ عن أبي الدرداء قال: [أوصاني رسول الله ﷺ بتسع: لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5827) ـ واللفظ له، وأخرجه مسلم (94) ح (154)، وأحمد (166/5). من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (93) ـ كتاب الإيمان ـ باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار. والشاهد رواه مسلم وأحمد. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6428).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (206/11)، وأخرجه مسلم في الصحيح (33) ـ كتاب الإيمان.

ولا تتركنَّ الصلاة المكتوبة متعمداً ، ومن تركها متعمداً برئت منه الذمة[1] ، ولا تشربَنَّ الخمرَ ، فإنها مفتاح كل شر ، وأطع والديك ، وإن أمراك أن تخرجَ من دنياك ، فاخرج لهما ، ولا تُنازعنَّ ولاة الأمر ، وإن رأيت أنَّك أنت[2] ، ولا تفِرَّ من الزَّحف ، وإن هلكت وفرَّ أصحابك ، وأنفق من طَوْلك على أهلك ، ولا ترفع عصاك عن أهلك ، وأخِفْهم في الله عز وجل][3] .

وقوله: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ .

وصية بالإحسان إلى الوالدين ومجانبة عقوقهما.

وآيات القرآن وفيرة في الأمر بذلك:

1 ـ قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ .

2 ـ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا. . . ﴿٨٣﴾ ﴾ .

3 ـ وقال تعالى في سورة لقمان: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا . . . ﴿١٥﴾ ﴾ .

ومن السنة الصحيحة ، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه: [قلت: يا رسول الله ، أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله][4] .

---

(1) أي: أن لكل أحد من الله عهداً بالحفظ والكلاءة ، فإذا ألقى بيده إلى التهلكة ، أو فعل ما حرم عليه ، أو خالف ما أُمِرَ به خذلته ذمة الله. «النهاية». انظر صحيح الأدب المفرد. ص (38).

(2) أي: أنت وحدك على الحق.

(3) حديث حسن. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (18) ـ باب: يبر والديه ما لم يكن معصية. ورواه ابن ماجة ـ في الفتن. حديث (4034) ، مختصرا. في الصبر على البلاء. انظر: «صحيح الأدب المفرد» ـ حديث رقم (14) ، وصحيح سنن ابن ماجة (3259).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (527) ، (5970) ، ومسلم (85) ، وأحمد (451/1) ، وأخرجه الترمذي (173) ، والنسائي (292/1) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ـ رقم (1477).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَجْزِي وَلَدٌ والداً إلا أنْ يَجِدَهُ مَمْلوكاً فَيَشْتَرِيَه فَيُعْتِقَه][1].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله مَنْ أحَقُّ الناس بِحُسْنِ صَحَابتي؟ قال: أُمُّكَ. قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: أمُّكَ. قال: ثم مَنْ؟ قال: أمُّك. قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: أبوكَ][2].

قال أهل العلم: ومقتضىٰ الحديث أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، وكأن ذلك لصعوبة الحمل، ثم الوضع، ثم الإرضاع.

وقال القرطبي: (إن الأم تستحق الحظ الأوفر من البر، وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاحمة).

الحديث الرابع: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح عن ابن عباس، أنه أتاه رجل فقال: إني خَطَبْتُ امرأةً فأَبَتْ أن تنكِحَني، وخَطَبها غيري فأحبت أن تَنْكِحَه، فغِرتُ عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: أُمُّك حيَّة؟ قال: لا، قال: تب إلى الله عز وجل، وتقرَّب إليه ما استطعت. قال عطاء بن يسار: فذهبت فسألت ابن عباس: لِمَ سألته عن حياة أمه؟ فقال: [إني لا أعلمُ عَمَلاً أقربُ إلى الله عز وجل من بِرِّ الوالدة][3].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾.

قال ابن عباس: (الإملاق الفقر، قتلوا أولادهم خشية الفقر). وقال قتادة: (أي: خشية الفاقة).

وقال ابن جريج: (﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ ـ قال: شياطينهم، يأمرونهم أن يئِدوا أولادهم خيفة العَيْلة).

وقال ابن كثير: (وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يَئِدون البناتِ خشيةَ العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1510)، وأخرجه أبو داود (5137)، وأخرجه الترمذي (1907).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (336/10)، ومسلم (2548)، وغيرهما. من حديث أبي هريرة.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ـ (4) ـ باب برّ الأم. من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2799).

أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: [قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعلَ لله نِدّاً وهو خلقك. قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولَدكَ خشية أن يَطْعَمَ معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تُزانيَ حَليلة جارِك. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾... الآية][1].

وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ...﴾ [الإسراء: 31].

وهذه الآية تتكلم على خشية الفقر الآجل في المستقبل، فطمأنهم الله وبدأ الكلام عن رزق الأولاد قبل الآباء، أي: لا تخشوا فقركم بسببهم، فإن رزقهم على الله. وأما آية الأنعام ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فكأنها تتحدث عن الفقر الحاصل بهم، فعزّاهم ربهم وبدأ بتطمينهم بِسَوْق الرزق إليهم ثم لأولادهم من بعدهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

قال قتادة: (سرَّها وعلانيتها).

قال ابن عباس: (كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرّم الله الزنا في السر والعلانية).

وقال الضحاك: (﴿ما ظهر﴾، الخمر، ﴿وما بطن﴾: الزنا).

قلت: والآية عامة في كل الفواحش الظاهرة والخفية ـ كما قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ولا تقربوا الظاهرَ من الأشياء المحرّمة عليكم، التي هي علانية بينكم لا تناكرون ركوبها، والباطنَ منها الذي تأتونه سرّاً في خفاء لا تجاهرون به، فإن كل ذلك حرام).

أخرج البخاري ومسلم عن ورَّادٍ كاتبِ المغيرة، عن المغيرة قال: قال سعدُ بن عُبادة: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضرَبْتُهُ بالسيف غَيْرَ مُصْفَحٍ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: [تَعْجَبُون من غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ والله لأنا أَغْيَرُ منه، واللهُ أَغْيَرُ منِّي، ومن أجل غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الفواحِشَ ما ظهرَ منها وما بَطَن، ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذْرُ من الله، ومن أَجْل ذلك بعث المنذِرينَ والمبشِّرينَ، ولا أحدَ أحبُّ إليه المِدْحَةُ من الله، ومن أجْل ذلك

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4477)، و(4520)، ومسلم (76)، وأحمد (434/1)، وأخرجه النسائي (90/7)، وأخرجه الترمذي (3183)، وابن حبان (4414)، وغيرهم.

وَعَد الله الجنة][1] . وقال عُبيد الله بن عمرٍو عن عَبْد الملك : «لا شخصَ أغْيَرُ من الله» .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً : [لا أَحَدَ أَغْيَرُ من الله ، ولذلك حَرَّم الفواحِشَ ، ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ ، ولا شيءَ أَحَبُّ إليه المَدْحُ من الله ، ولذلك مَدَحَ نَفْسَه][2] . ولفظ مسلم : [ليس أَحَدٌ أَحَبَّ إليه المَدْحُ من الله عز وجل ، من أجْل ذلك مَدَحَ نَفْسَه ، وليس أحدٌ أغْيَرَ من الله ، من أجْل ذلك حَرَّم الفواحشَ ، وليس أحدٌ أحبَّ إليه العُذْرُ من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

إفراد لهذه الجريمة البشعة في الذكر والتنبيه ، وإلا فهي داخلة في عموم مسمىٰ الفواحش . ولكن لكونها أعظم الذنب بعد الشرك بالله ، جرىٰ إفرادها .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [لا يزال العبد في فُسْحَةٍ من دينه ما لم يُصِبْ دماً حراماً][3] .

وله شاهد في سنن أبي داود ـ بإسناد صحيح ـ عن أبي الدرداء : أن رسول الله ﷺ قال : [لا يزال المؤمن مُعْنِقاً صالحاً مالم يُصِبْ دَماً حراماً ، فإذا أصابَ دماً حراماً بَلَّحَ][4] . والمُعْنِق : طويل العنق ، الذي له سوابق في الخير . وقوله : «بَلَّحَ» أي : أعيا وانقطع ، ووقع في عظيم الذنب وأشده عند الله .

وفي التنزيل : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ . . ﴾ [الفرقان : 68] .

قلت : ولقد جاء النهي في السنة الصحيحة عن الإشارة إلى مسلم بسلاح أو حديدة ،

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في كتاب التوحيد (7416) ـ باب قول النبي ﷺ : «لا شَخْصَ أغْيَرُ من الله» . وأخرجه مسلم في الصحيح (1499) ، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (630) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4634) ـ كتاب التفسير . باب قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ . وأخرجه مسلم (2760) ـ كتاب التوبة ـ باب غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد بسند صحيح . من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما انظر صحيح الجامع الصغير (7568) ، وأصله في صحيح البخاري .

(4) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (2/4270) ـ باب في تعظيم قتل المؤمن .

فإن المرء إذا فعل ذلك ربما أكمل الشيطان مشوار الإثم وأعانه على الوقوع في الدم الحرام.

وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: [لا يُشِرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان يَنْزِعُ في يده، فيقع في حفرة من النار](1).

ويَنزِع وينزَغُ روايتان، بمعنى يرمي ويفسِد.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [من أشارَ إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتىٰ يَدَعَه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه](2).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود في السنن بسند حسن من حديث جابر قال: [نهىٰ رسول الله ﷺ أن يُتَعاطىٰ السيفُ مسلولاً](3).

وأما الأحاديث التي تعظم دم المسلم وتحرم البغي عليه بالقتل فكثيرة جداً، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّمَ الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات](4).

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلمٍ يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله، وأني رسولُ الله إلا بإحدىٰ ثلاث: النفس بالنَّفْسِ، والثَّيِّبُ الزاني، والمفارِقُ لدينه التارِكُ للجماعة](5).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والنسائي بسند جيد، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (20/13، 21)، وأخرجه مسلم (2617).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2616) ـ كتاب البر والصلة. باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2588)، وأخرجه الترمذي (2164)، ورجاله ثقات.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (294/5) في الوصايا، وأخرجه مسلم (89) ـ في الإيمان.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6878) ـ كتاب الديات. باب قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة: 45].

أن رسولَ الله قال: [لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زانٍ مُحصَن يُرْجَمُ، ورجُلٌ قتلَ رجلاً مُتعَمِّداً فيُقْتَلُ، ورجلٌ يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله، فيُقتَلُ أو يُصْلَبُ أو يُنْفَىٰ من الأرض][1].

وله شاهد عند الترمذي عن أمير المؤمنين عثمانَ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال وهو محصورٌ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يحل دمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجلٌ كفَرَ بعد إسلامه، أو زنىٰ بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس. فوالله ما زنيتُ في جاهلية ولا إسلام، ولا تَمنَّيْتُ أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلتُ نفساً، فبِمَ تقتلونني][2].

فإن كان المقتول مُعَاهَداً ـ وهو المستأمن من أهل الحرب ـ فقد جاء الوعيد الشديد للقاتل. ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: [مَنْ قَتَلَ مُعَاهَداً لم يرَحْ رائحةَ الجنَّة، وإن ريحها توجَدُ من مسيرة أربعين عاماً][3].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: تلك وصية الله لكم فاعقلوها واحذروا مخالفتها.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

قال ابن جرير: (يعني: ولاتقربوا ماله إلا بما فيه صلاحه وتثميره). ثم ذكر من أقوال المفسرين:

1 ـ قال مجاهد: (﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، قال: التجارة فيه).

2 ـ قال السدي: (فليثمر مالَه). قال: (أما ﴿أشده﴾، فثلاثون سنة). وقال غيره: (أربعون سنة).

---

(1) إسناده جيد. أخرجه أبو داود (4353)، والنسائي (90/7) ـ واللفظ له، وأخرجه أحمد في المسند من حديث عائشة من طريقين (181/6)، وله شاهد عنده (205/6).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2158)، والنسائي في «الكبرىٰ» (3482)، وابن ماجة (2533)، وأخرجه أحمد في المسند (65/1)، وصححه الحاكم (350/4) على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3166)، والنسائي (25/8)، وابن ماجة (2686)، وأحمد (186/2). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

3 ـ قال الضحاك بن مزاحم: (يبتغي له فيه، ولا يأخذ من ربحه شيئاً).

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10].

قلت: وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾. يعني حتىٰ يحتلم، كما ذكر الإمام مالك والشعبي وغير واحد من السلف، والأقوال الأخرىٰ بعيدة.

أخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: [صعد رسول الله ﷺ المنبر فقال: لا أقسم، لا أقسم، لا أقسم. ثم نزل فقال: أَبْشِروا، أَبْشِروا، إنه من صلَّىٰ الصلوات الخَمْسَ، واجتنَبَ الكبائر، دخَلَ من أي أبواب الجنة شاء: عقوقَ الوالدين، والشرك بالله، وقَتْلَ النَّفْسِ، وقَذْفَ المُحْصَنات، وأَكْلَ مالِ اليتيمِ، والفِرارَ من الزَّحفِ، وأكلَ الربا][1].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾.

أمر بالوفاء في المكيال والميزان وإقامة العدل في الأخذ والإعطاء. وقد عاب الله سبحانه على مَدْين ـ قوم شعيب ـ لعبهم بالكيل والميزان، وانتشار هذه الصفة الذميمة بينهم حتى دَمَّرهم العذاب فيما دَمَّرهم.

فقال تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقال في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وتوعّد الله هذه الأمة إن سلكت سبيل مَنْ قبلها في ذلك الخلق المشين فقال جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: 1 ـ 6].

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (3/9-8/13)، من طرق، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3451) ـ قال الألباني: وهذا إسناد حسن إن شاء الله تعالىٰ.

وفي سنن ابن ماجة بإسناد حسن من حديث عبد الله بن عمر ، قال: [أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: يا معشر المهاجرين! خَمْسٌ إذا ابتليتُم بِهِنَّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهُنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تكن مضَتْ في أسلافهم الذين مَضَوا.

ولم ينقُصوا المِكيال والميزان ، إلا أُخِذوا بالسنينَ وشِدَّةِ المؤونة وجَوْر السُّلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم ، إلا مُنعوا القَطْرَ من السماء ، ولولا البهائم لَمْ يُمطروا.

ولم ينقضوا عَهْدَ الله وعَهْدَ رسوله ، إلا سَلَّطَ الله عليهم عَدُوّاً من غَيْرهم ، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم.

وما لم تَحْكم أئمتُهم بكتاب الله ، ويتخيّروا مما أنزل الله ، إلا جَعَل الله بأسهم بينهم][1].

وقوله: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

قال ابن كثير: (أي: مَن اجتهد في أداء الحق وأخْذَه ، فإن أخطأ بعدَ استفراغ وُسْعِهِ وبِذْلِ جُهْدِه فلا حرج عليه).

وقوله: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾.

قال ابن زيد: (قولوا الحق).

أي: قولوا الحق ولا يحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق على الجور أو الحكم بغير العدل ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا ، وإيفاء ذلك: أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم ، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ ، وذلك هوالوفاء بعهد الله).

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4018) ـ باب العقوبات. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3245).

وقد مضىٰ في الحديث السابق: [ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ، إلا سَلّطَ الله عليهم عدواً من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم].

وله شاهد عند الطبراني من حديث ابن عباس بلفظ: [خمسٌ بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سُلِّطَ عليهم عدوهم][1].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: هذه وصية الله لكم أيها الناس ، لعلكم تتذكرون عواقب الأمور ، وانحراف مناهجكم لتنهضوا لإصلاحها ، وتلتمسوا طاعة ربكم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

وصية من الله بلزوم منهاج النبوة والحذر من رايات الفتن والبدع والدخن.

قال مجاهد: (﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾: البدع والشبهات).

وقال ابن عباس: (أمر الله المؤمنين بالجماعة ، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله). قال: (﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ ، يقول: لا تتبعوا الضلالات).

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند جيد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [خطَّ رسول الله ﷺ خطّاً بيده ، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً ، وخطَّ عن يمينه وشماله ، ثم قال: هذه السُّبُلُ ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه. ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾][2].

قال ابن كثير: (وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ ، إنما وَحَّدَ سبيله لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتَشَعُّبها ، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3235) ، في أثناء حديث أطول.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (465/1) ، والحاكم (239/2) ، والنسائي في «الكبرى» (11174) ، والطيالسي (244) ، وابن حبان (6-7) ، والدارمي (67/1-68) ، وغيرهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي: هذه وصية الله لكم لعلها تحدث في حياتكم التقوىٰ وتعظيم أمر الله واجتناب نهيه، ولتنهضوا بقوة لحمل الأمانة وإقامة هذا الدين.

154 - 158. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

في هذه الآيات: ثم آتىٰ ربك ـ يا محمد ـ رسوله موسىٰ الكتاب تماماً لنعمه عنده، لما سلف له من صالح عمل وحسن طاعة وقيام بأمر الله، وتبييناً لكل شيء من أمر الدين الذي أمره به وتفصيلاً لأحكامه وحلاله وحرامه، وتقويماً لأتباعه المؤمنين على الطريق المستقيم، ورحمة لمن ضل منهم لعله يعود ويتعظ بهدى ربه ويسلك سبيل المؤمنين. وهذا القرآن الذي أنزله الله إليك يامحمد كتاب مبارك فاجعلوه إماماً واعملوا بما فيه، واحذروا تجاوز حدود الله ومحارمه التي فصّلها لكم فيه، لتفوزوا بالنجاة يوم القيامة. إنما أنزل الله القرآن لئلا يقول المشركون من قومك ـ يا محمد ـ إنما أقيمت الحجة بالتنزيل على الطائفتين ـ من أهل الكتاب ـ قبلنا، ولم ينزل علينا، وقد كنا عن تلاوة كتبهم غافلين، ليست بلساننا، ولا ندري ما كتب فيها. أو لئلا يقول هؤلاء المشركون: لو أنزل علينا الكتاب كما أنزل على اليهود والنصارىٰ قبلنا لكنا أحسن عملاً منهم، وأقوم اتباعاً للكتاب من سبيلهم. فها قد جاءكم كتاب بلسانكم عربي مبين، فيه الحجة البالغة عليكم، وفيه البيان والتفصيل لما أمرتم به، فمن أشد ظلماً ممن كذّب

به وحادَ عنه وأعرض عن هديه ، إنّا سنجازي الذين يعرضون عنه سوء العذاب بما كانوا يعرضون. هل ينتظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام والشهوات والطواغيت إلا مجيء الملائكة لقبض أرواحهم أو مجيء الله تعالى للفصل يوم القيامة ، أو خروج بعض آياته العظمىٰ قبل ذلك ، حين لا تنفع التوبة ، فإنه إذا طلعت الشمس من مغربها لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت في إيمانها خيراً ، قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المستكبرين عن الإيمان بالوحي والنبوة واليوم الآخر: انتظروا بعض ما يباغتكم به ربكم من تلك الأهوال ، إنا منتظرو ذلك ، ليثيبنا ربنا على طاعته وإفرادنا له بالألوهية والتعظيم، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين.

فقوله: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾.

قال مجاهد: (تماماً على المحسن المؤمن).

وقال محمد بن يزيد: (أي: تماماً على الذي أحسنه الله عز وجل إلى موسىٰ عليه السلام من الرسالة وغيرها). وقال الربيع بن أنس: (تماماً على إحسان موسىٰ من طاعته لله عز وجل). وقال قتادة: (من أحسن في الدنيا تمَّم له ذلك في الآخرة).

قال ابن كثير: (﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا ﴾ ، أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يُحتاج إليه في شريعته ، كما قال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ . . . ﴾ الآية [الأعراف: 145]. وقوله: ﴿ عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾. أي: جزاءً على إحسانه في العمل ، وقيامِه بأوامرنا وطاعتنا ، كقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: 60] ، وكقوله: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . . . ﴾ [البقرة: 124] ، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24]).

ونصب ﴿تماماً﴾ على أنه مصدر ، أو على أنه مفعول لأجله ـ حكاه القرطبي وغيره.

وقوله: ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾.

أي: من أمر الشرائع ، وما فيها من بيان الحلال والحرام.

قال قتادة: (﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، فيه حلاله وحرامه).

وقوله: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

يعني: تقويماً لهم على الطريق المستقيم، وبياناً لهم سُبل الرشاد والهدي المبين ،

ورحمة بهم لئلا يقعوا في الضلالة والهلاك ومصير المعاندين والمجرمين. قال ابن جرير: (﴿ لَعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾: وليؤمن بلقاء ربه إذا سمع مواعظ الله التي وعظ بها خلقه فيه، فيرتدع عما هو عليه مقيمٌ من الكفر به، وبلقائه بعد مماته، فيطيع ربه، ويصدِّق بما جاءه به نبيّه موسىٰ ﷺ).

وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

قال قتادة: (وهو القرآن الذي أنزله الله على محمد عليه السلام. فاتبعوا حلاله، وحرّموا حرامه). ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي: لترحموا وتنالوا شفاعة الله بالنجاة من عذابه وأليم عقابه يوم القيامة.

وقوله: ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾.

أي: لئلا تقولوا بهذا الاحتجاج: إنه أنزل الكتاب على اليهود والنصارى ولم ينزل علينا.

قال مجاهد: (اليهود والنصارىٰ. يُخاف أن تقوله قريش).

وقوله: ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: وإن كنا عن تلاوتهم لغافلين). وقال السدي: (يقول: وإن كنا عن قراءتهم لغافلين، لا نعلم ما هي). وقال ابن زيد: (الدراسة: القراءة والعلم. وقرأ: ﴿ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾. قال: علموا ما فيه، لم يأتوه بجهالة).

وقوله: ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾.

قال قتادة: (﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ ﴾: فهذا قول كفار العرب).

وقال السدي: (يقول: قد جاءكم بينة، لسانٌ عربي مبين، حين لم تعرفوا دراسة الطائفتين، وحين قلتم: لو جاءنا كتاب لكنا أهدىٰ منهم).

وقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ ﴾.

قال ابن جرير: (فمن أخطأ فعلاً وأشد عدواناً منكم، أيها المشركون المكذبون بحجج الله وأدلته ـ وهي آياته ـ، ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ ﴾، يقول: وأعرض عنها بعدما أتته، فلم يؤمن بها، ولم يصدق بحقيقتها).

قال ابن عباس: (﴿ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ ﴾ ، يقول: أعرض عنها). وقال السدي: (﴿ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ ﴾ : فَصَدّ عنها). وقال مجاهد: (الصدف الإعراض).

وقوله: ﴿ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ .

أي: سنعاقب من أعرض عن دين الله وصدّ الناس عنه وصرفهم عن تعظيمه أليم العقاب ونكال العذاب مقابل إعراضهم وصدهم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ . . ﴾ [النحل: 88].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [الأنعام: 26].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: 31 ـ 32].

أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند حسن، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذَّرِّ في صُور الرجال، يغشاهم الذُّلُ من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يُسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من عُصارة أهل النار، طينة الخبال][(1)].

وقوله: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾ .

قال مجاهد: (﴿ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ، يقول: عند الموت حين توفَّاهم، ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ ﴾، ذلك يوم القيامة، ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾ ، طلوع الشمس من مغربها).

وقال قتادة: (﴿ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ، بالموت، ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ ﴾ ، يوم القيامة، ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾، قال: آية موجبة، طلوع الشمس من مغربها، أو ما شاء الله).

وفي السنة الصحيحة أحاديث تدل على آفاق هذا المعنىٰ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تقوم الساعةُ حتى تطلعَ الشمسُ من مَغْرِبها، فإذا طلعت من مغرِبها آمن

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2623) ـ انظر صحيح الترمذي (2025)، وأخرجه أحمد في المسند، انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896). وتخريج مشكاة المصابيح (5112).

الناس كلهم أجمعون ، فيومئذ : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في الجامع ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثٌ إذا خَرَجْنَ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ : طلوعُ الشمس من مَغْرِبها ، والدَّجَّال ، ودابَّةُ الأرض][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن أبي ذر: [أن النبي ﷺ قال يوماً: أَتَدْرون أين تَذْهَبُ هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إنّ هذه تَجْري حتى تَنْتَهِيَ إلى مُسْتَقَرِّهَا تحت العرش ، فَتَخِرُّ ساجدة ، فلا تزال كذلك حتىٰ يُقال لها: ارتفعي ، ارْجِعي من حيثُ جِئتِ فَتَرْجِعُ ، فَتُصْبِحُ طالعة من مَطْلَعِها ، ثم تجري حتى تنتهِيَ إلى مُسْتَقَرِّها تحت العرش، فَتَخِرُّ ساجِدَةً، فلا تزال كذلك حتى يُقالَ لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جِئْتِ ، فترجِعُ فتُصْبحُ طالعة من مَطْلَعِها ، ثم تجري لا يَسْتنكِرُ الناسُ منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرِّها ذلك تحت العرش فيقال لها: ارتفعي، أصبحي طالعةً من مَغْربكِ ، فَتصبح طالعةً مِنْ مَغْرِبها. فقال رسول الله ﷺ: أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾][3] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من تاب قبل أن تطلع الشمسُ من مغربها ، قُبِلَ منه][4] .

وله شاهد عند الترمذي من حديث زر بن حبيش عن صفوان بن عسال ـ في جوابه ﷺ للأعرابي: «المرء مع مَنْ أَحَبّ». قال زر: فما برح يحدثني حتى حدثني: أن الله عز وجل جعل بالمغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً ، للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله ، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا ﴾ الآية][5] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (157) ـ كتاب الإيمان. باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (158) ـ كتاب الإيمان ـ الباب السابق ، وأخرجه أحمد في المسند (107/1) ، والترمذي في السنن (3074) ، وأبو يعلىٰ (6172) ، وابن جرير (14252).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (159) ـ كتاب الإيمان ـ والنسائي في «الكبرى» (11176) ، وأحمد (177/5) ، والترمذي (2186) ، وابن حبان (6153) ، وانظر صحيح الإمام البخاري (3199) ، وكذلك ابن حبان (6154) ، من طريق الأعمش.

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (275/2) ، والطبري (14225) ، وابن حبان (629).

(5) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2801) وما بعده، وسنده حسن.

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ ﴾.

أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح، عن عبد الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها، وخروج الدابة ضُحىً، فأيَّهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها. ثم قال عبد الله ـ وكان يقرأ الكتُب ـ: وأظن أُولاها خروجاً طلوعَ الشمس من مَغْربها، وذلك أنها كلما غَرَبَتْ أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فَأُذِنَ لها في الرجوع، حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فَعَلت كما كانت تَـفْـعَلُ، أتت تحت العرش فَسَجَدَت واستأذَنَتْ في الرجوع، فلم يَرُدَّ عليها شيءٌ، ثم تستأذنُ في الرجوع فلا يرد عليها شيء، ثم تستأذِنُ فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهبَ من الليل ما شاء أن يذهب، وعَرَفت أنه إنْ أُذِنَ لها في الرجوع لم تدرك المشرق، قالت: ربي، ما أبعد المشرق! من لي بالناس؟ حتى إذا صار الأفقُ كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيُقال لها: من مكانك فاطْلعي. فطَلَعت علىٰ الناس من مَغْرِبها. ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ . . . الآية][1].

والمعنى: إذا كانت هذه الآية ورآها الناس فيومئذ لا يقبل الله من الكافر إيماناً لو أنشأه، ولا يقبل من المسلم توبة يستأنفها، وإنما مصيره على ما كان منه من العمل، فلا سبيل لكسب عمل صالح جديد إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك.

وقوله: ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (تهديد شديد للكافرين، ووعيدٌ أكيدٌ لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقتٍ لا ينفعه ذلك. وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها، لاقتراب وقت القيامة، وظهور أشراطها، كما قال: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [محمد: 18]. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ . . . ﴾ الآية [غافر: 84 ـ 85]).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 201) بتمامه. والمرفوع منه أخرجه مسلم (2941)، وكذلك أخرجه أبو داود في السنن (4310)، وابن ماجة أيضاً (4069).

159 - 165. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالى نبيّه ﷺ عن براءته ممن فارق دينه ـ دين الحق ـ وفرقه، وكانوا فرقاً وشيعاً فيه وأحزاباً، وأنه ليس من هؤلاء في ابتداعهم وضلالهم، ولاهم منه، وأن مردهم إلى الله فينبئهم بما كانوا يفعلون. الحسنة عنده سبحانه بعشر أمثالها والسيئة بمثلها وهم لا يظلمون. قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المتكبرين على عبادة ربهم وإفراده سبحانه بالتعظيم ـ إنني أرشدني ربي إلى الدين القويم، والصراط المستقيم، دين الحنيفية السمحة دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. إنني أتوجه بصلاتي وذبحي ونسكي ومحياي ومماتي وفي كل أعمالي لله رب العالمين، وحده لا شريك له وقد أمرني بذلك ربي وأنا أول المسلمين المطيعين. وكيف أبغي رباً سواه وهو رب كل شيء ومليكه، ومن ثم فلا تكسب نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ، والمرجع إليه تعالى ليحكم في أعمال عباده وبما كانوا فيه يختلفون. وهو سبحانه ـ جلت عظمته ـ الذي جعلكم تخلفون بعضكم بعضاً في الأرض، يغادر جيل فيعقبه جيل آخر، ثم رفع بعضكم على بعض درجات وفضل بينكم بالأرزاق والأعمال، ليختبركم فيما قضاه لكم، إنه تعالى سريع العقاب وإنه سبحانه لغفور رحيم.

قرأ علي وقتادة وحمزة والكسائي ﴿إن الذين فارقوا دينهم﴾، في حين قرأها الجمهور على قراءة حفص ﴿فرّقوا﴾ وهي الأشهر. قال مجاهد: (نزلت هذه الآية في اليهود والنصارىٰ). وقال ابن عباس: (وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يُبعث

محمد ﷺ فتفرقوا. فلما بعث محمد ﷺ أُنزِلَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ الآية).

قلت: والآية عامة فلا تقتصر على أهل الكتاب ـ إن صحّ الخبر فيهم ـ وإنما تشمل أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة.

وقوله: ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾. أي: فرقاً وأحزاباً شتىٰ.

أخرج الإمام أحمد في المسند، بإسناد صحيح عن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [أكرموا أصحابي فإنهم خياركم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب، حتى إنّ الرجل ليحلف ولا يستحلف، ويشهد ولا يستشهد، ألا مَنْ سَرَّه بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهم، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن][1].

وأخرج الترمذي وابن ماجة وابن حبان بسند صحيح، عن العرباض بن سارية قال: [وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وَجِلت منها القلوب وذَرَفَت منها العيون، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مُوَدِّعٍ فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوىٰ الله والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة][2].

وقوله: ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾.

قال أبو الأحوص: (برئ نبيكم ﷺ منهم).

وقال الفراء: (المعنىٰ: لست من عقابهم في شيء، وإنما عليك الإنذار).

وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

تهديد ووعيد، وتحذير من يوم العرض والحساب.

قال القرطبي: (﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ تعزية للنبي ﷺ).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (177/1) من حديث عمر مرفوعاً، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (431) بلفظ «أحسنوا».

(2) حديث صحيح. انظر تخريج الإرواء (2521)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2546).

وقوله: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾.

نص من الله تعالى بواسع كرمه على عباده، فإنه يضاعف الحسنة عشر مرات وأكثر إلى سبع مئة ضعف.

وقوله: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾.

نص من الله تعالى بواسع رحمته بعباده، فإن زلّ العبد أو وقع كتبت زلته سيئة واحدة ما لم يستعتب فيغفرها الله تعالى.

قال مجاهد: (﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾، قالوا: لا إله إلا الله، كلمة الإخلاص. ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾، قالوا: بالشرك والكفر). وهو قول ابن عباس والضحاك والحسن وغيرهم.

قال القرطبي: (والحسنة هنا: الإيمان. أي: من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب).

قلت: فالحسنة تشمل كل ذلك، فهي تدل على كل قول أو عمل يحبه الله ورسوله، والسيئة تشمل كذلك كل عمل أو قول يسخط الله ورسوله.

وقد جاءت السنة الصحيحة بتضاعف أجور الحسنات وتخفيف آثار السيئات رحمة من الله تعالى لصاحبها ليتجاوزها بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح. وفي هذا أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: قال: [إن الله عزَّ وجل كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّنَ ذلك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلم يَعْمَلها كَتَبَها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن هَمَّ بها وعَمِلَها كتبها الله له عنده عشرَ حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومَنْ هَمَّ بسيئة فلمْ يَعْمَلْها كتبَها الله له عنده حسنةً كامِلةً، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول الله عَزَّ وجَلَّ: مَنْ جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالِها وأزيدُ، ومن جاء بالسيئة،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6491)، كتاب الرقاق، وأخرجه مسلم (131)، وأحمد (279/1)، وغيرهم. من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فجزاءُ سيئة مِثْلُها ، أَوْ أَغْفِرُ ، ومن تَقَرَّبَ مني شبراً ، تقربت مِنْه ذِراعاً، ومن تقرَّب مني ذِراعاً، تقرَّبت مِنْه باعاً، ومن أتاني يَمْشي، أتيتُه هَرْوَلَةً ، ومَنْ لقِيَني بقُراب الأرض خطيئـةً لا يشرك بي شيئاً ، لقيته بِمثلها مَغْفِرَة][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربّه ـ عز وجل ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ ربكم رحيم ، من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنة ، فإن عملها كتبت له عَشْراً إلى سبع مئة ، إلى أضعاف كثيرة. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كُتِبَت له حَسَنَة ، فإن عملها كُتبت له واحدة ، أو يمحوها الله ـ عز وجل ـ ولا يهلِكُ على الله إلا هالِكٌ][2].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة والنسائي بسند صحيح عن ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ ، عن رسول الله ﷺ قال: [من صام ستة أيام بعد الفطر ، كان تمامَ السنة ، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾][3].

وفي لفظ النسائي: [جعل الله الحسنة بعشر أمثالها ، فشَهْرٌ بعشرة أشهر ، وصيامُ ستة أيام بعد الفطر تمام السنة].

ورواه ابن خزيمة في «صحيحه» ولفظه: [صيام شهر رمضان بعشرة أشهر ، وصيام ستة أيام بشهرين ، فذلك صيام السنة].

وله شاهد عند ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ صامَ ثلاثة أيام من كل شهر ، فذلك صومُ الدهر. فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك في كتابه: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾. فاليوم بعشرة أيام].

قال الحافظ ابن كثير في التفسير: (واعلم أن تاركَ السيِّئَةِ التي لا يَعْمَلُها على ثلاثة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2687) ـ كتاب الذكر والدعاء. وأخرجه أحمد (153/5) ، وابن ماجة (3821). من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (279/1) من حديث عبد الله بن عباس ، والنسائي في «الكبرى» (7670) ـ وأصله في الصحيحين.

(3) حديث حسن. انظر سنن الترمذي (762) ، وسنن ابن ماجة (1708) من حديث أبي ذر ، وأخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (2717) ، وانظر مسند أحمد (154/5) وابن حبان (3652). وانظر الروايات المختلفة في «صحيح الترغيب» (996-999) ـ كتاب الصوم ـ الترغيب في صوم ست من شوال ، وكذلك صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3696) ـ (3698).

أقسام: تارة يتركها لله ، فهذا تكتب له حسنة على كَفِّه عنها لله تعالى ، وهذا عَمَلٌ ونيَّةٌ . ولهذا جاء أنه يُكْتَبُ له حسنةٌ . كما جاء في بعض ألفاظ الصَّحيح: «فإنما تركها من جَرَّائي ، أو: من أجلي»[1] . وتارة يترُكها نِسياناً وذُهولاً عنها ، فهذا لا لَهُ ولا عَلَيْه ، لأنه لم يَنْوِ خيراً ولا فَعَلَ شرّاً. وتارةً يتركها عَجْزاً وكسلاً عنها بعد السَّعي في أسبابها والتَّلَبُّس بما يَقْرُبُ منها ، فهذا يتنزَّلُ منزلة فاعِلها ، كما جاء في الحديث ، في الصحيحين: «إذا تواجَهَ المسلمان بسيفيهما فالقاتلِ والمقتولُ في النار . قالوا: يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كانَ حريصاً على قَتْلِ صاحبه»[2]).

وقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (ولا يظلم الله الفريقين ، لا فريق الإحسان ، ولا فريق الإساءة ، بأن يجازي المحسن بالإساءة ، والمسيء بالإحسان ، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له ، لأنه جل ثناؤه حكيمٌ لا يضع شيئاً إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه ، ولا يجازي أحداً إلا بما يستحق من الجزاء) .

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قرأها قراء المدينة وبعض قرّاء البصرة ﴿قَيِّماً﴾ ـ كقوله تعالى في سورة التوبة ويوسف والروم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ ﴾ . وكقوله في سورة البينة: ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ . في حين قرأها قراء الكوفة: ﴿دينا قِيَماً﴾ بالتخفيف. قال أهل اللغة: (القَيِّمُ والقِيَمُ بمعنىٰ واحد) ، والمراد الدين المستقيم.

ومن ثم فيكون قوله: ﴿ دِينًا ﴾ ـ قد نصب على الحال ، أو نصب بهداني ، أو يكون بدلاً من الصراط . والتأويل: هداني صراطاً مستقيماً ديناً ، وهو الدين الحق ، ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وفي التنزيل: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ

---

(1) حديث صحيح . وهو قطعة من حديث أبي هريرة ، أخرجه الإمام مسلم في الصحيح (129) .

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (31) ، (7083) ، ومسلم (2888) ، وأبو داود (4268) ، وأخرجه النسائي (125/7) ، وأحمد (7/46-47 ، 51) ، وابن حبان (5945)، وأخرجه البيهقي (8/ 190) ـ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى : 13].

وعن مجاهد : (﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ ، قال : ما أوصاك به وأنبياءه كلهم دين واحد).

وقال قتادة : (بعث نوح حين بعث بالشريعة بتحليل الحلال وتحريم الحرام).

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند حسن ، من حديث ابن أَبْزَىٰ ، عن أبيه قال: [كان رسول الله ﷺ ـ إذا أصبح قال: أصبحنا على مِلّةِ الإسلام ، وكلمةِ الإخلاص ، ودين نبيّنا محمد ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين][1].

وأخرج الإمام أحمد والطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس قال: [قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديان أحبُّ إلى الله؟ قال: الحنيفيّة السَّمْحَة][2].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

قال مجاهد: (النسك: الذبائح في الحج والعمرة). وقال الضحاك: (﴿الصلاة﴾ ، الصلاة. و«النسك» ، الذبح). وقال الحسن: (نسكي ديني). وقال الزجاج: (عبادتي ، ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة). وقال قوم: (النسك في هذه الآية جميع أعمال البر والطاعات ، من قولك نسك فلان فهو ناسك ، إذا تعبد) ـ ذكره القرطبي. ثم قال: (﴿ومحياي﴾: أي: ما أعمله في حياتي ﴿ومماتي﴾ أي: ما أوصي به بعد وفاتي. ﴿ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي: أفرده بالتقرب بها إليه. وقيل: ﴿ وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ ﴾ أي: حياتي وموتي له).

قلت: والآية إنكار على المشركين الذين كانوا يعبدون غير الله أو يشركون بعبادته أوثانهم وشهواتهم وطواغيتهم ويذبحون لغير اسمه ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يخاطب هؤلاء القوم أنه مخالف لهم في عبادتهم وذبائحهم وشركهم ، وإنما أمره الله تعالى بإفراده بالتعظيم والعبادة والنسك والتقرب ، فلا يدعو إلا الله ، ولا يستغيث إلا بالله ، ولا يذبح لغير الله ، ولا يسأل غير الله ، ولا ينذر لغير الله ، ولا يستعيذ بغير الله.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (406/3) ، وابن السني (33) ، والنسائي (1) كلاهما في اليوم والليلة ، من حديث عبد الله بن أبزىٰ ، وحسنه الحافظ ابن حجر ، وصححه الحافظ العراقي في «الإحياء» (327/1).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (236/1) ، والطبراني في «الكبير» (11572) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وذكره البخاري في عنوان باب.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: [حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لَعَنَ والديه ، لعنَ الله من آوىٰ محدثاً ، لعن الله من غيّر منار الأرض][1].

بل جاء النهي عن الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله ، لقطع كل أوصال الجاهلية . فقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: [نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة ـ موضع أسفل مكة ـ فسأل النبي ﷺ ، فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ قالوا: لا . قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا . فقال رسول الله ﷺ: أَوْفِ بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم][2].

وقوله تعالى: ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

قال قتادة: (﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾: أول المسلمين في هذه الأمة).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب ، عن رسول الله ﷺ ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: [وَجَّهْتُ وَجْهيَ للذي فَطَرَ السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . اللهم! أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سَيِّئَها ، لا يصْرِفُ عني سيئها إلا أنت . .][3] الحديث .

ولفظ أحمد: [أن رسول الله ﷺ كان إذا كبّر استفتح ثم قال: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 79]. ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت . . .] الحديث .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم (1978) ـ (43) ـ كتاب الأضاحي .

(2) حديث صحيح . انظر سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3313) من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (459/1) لتفصيل البحث .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (771) ـ كتاب صلاة المسافرين . وأخرجه أحمد (102/1) ، وأبو داود (760) ، والترمذي (3422) ، والنسائي (1292) ، وابن حبان (1771) .

وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

دعوة لإخلاص العبادة لله وحده، فهو رب هذا الكون وما فيه، وكلهم آتيه يوم القيامة عبداً.

قال القاسمي: (﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ فأشركه في عبادته. وهو جواب عن دعائهم له عليه الصلاة والسلام إلى عبادة آلهتهم، وفي إيثار نفي البغية والطلب، على نفي العبادة، أبلغيّة لا تخفىٰ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ حال في موضع العلة للإنكار والدليل له. أي: وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية، فلا أكون عبداً لعبده).

وفي التنزيل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾. ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا...﴾ [الملك: 29]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 9].

قال السيوطي في «الإكليل»: (﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ـ هذه الآية أصل في أنه لا يؤاخذ أحد بفعل أحد. وقد ردت عائشة به على من قال: إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه. أخرجه البخاري، وأخرج ابن أبي حاتم عنها، أنها سئلت عن ولد الزنىٰ؟ فقالت: ليس عليه من خطيئة أبويه شيء. وتلت هذه الآية).

قلت: أما حديث: [إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه]. وفي رواية: [في قبره بما نيح عليه]. وفي لفظ: [إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه]. وفي لفظ مفسِّر للبكاء المنهي عنه ـ ألا وهو النياحة ـ: [من يُنَح عليه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة][1]. فهو حديث صحيح. واعتراض عائشة بالآية عليه لا يعني عدم ثبوته عن النبي ﷺ، فهو مبلغ علم عائشة. وإنما المقصود به الإقرار من الميت بهذا الفعل المنكر وهو النياحة وعدم التحذير منه أهله قبل موته. وكذلك حديث: [ولد الزنا شر الثلاثة][2]، حديث صحيح، وهو كذلك إنما يحمل على الإقرار، فلو مضىٰ الولد ـ ولد الزنا ـ على

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (126/3)، ومسلم (45/3)، والبيهقي (72/4)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند في مواضع: (245/4)، (252/4)، (255/4) من حديث أنس وابن عمر.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3963)، والحاكم (214/2)، وأحمد (311/2)، وغيرهم.

طريقة أبويه لكان شر الثلاثة ، وإلا فإنه : ﴿لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ .

قال القرطبي : (أي : لا تحمل حاملة ثِقْل أخرى ، أي : لاتؤخذ نفس بذنب غيرها ، بل كل نفس مأخوذة بجُرْمها ومعاقبة بإثمها . وأصل الوِزْر الثِّقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ﴾ [الأنعام : 31]) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

قال النسفي : (من الأديان التي فرقتموها) .

وقال القاسمي : (﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ أي : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة . ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ بتمييز الحق من الباطل . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ .

خلائف : جمع خليفة . أي : جعلكم قروناً وأجيالاً يخلف بعضكم بعضاً .

قال القرطبي : (وكل من جاء بعد من مضىٰ فهو خليفة . أي : جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة) . وقال ابن كثير : (أي : جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل ، وقَرْناً بعد قَرْن ، وخلفاً بعد سَلَف . قاله ابن زيد وغيره) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾ [البقرة : 30] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف : 60] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ . . . ﴾ [النمل : 62] .

4 ـ وقال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : 129] .

وقوله : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ .

قال السدي : (في الرزق) .

وقال النسفي: (في الشرف والرزق وغير ذلك). وقال القرطبي: (في الخلق والرزق والقوة والبَسْطة والفضل والعلم). وقال ابن كثير: (أي: فاوت بينكم في الأرزاق والآجال، والمحاسن والمساوئ، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 21].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا. . . ﴾ [الزخرف: 32].

قال قتادة: (فتلقاه ضعيف الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه. قال الله جل ثناؤه: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كما قسم بينهم صورهم وأخلاقهم تبارك ربنا وتعالىٰ).

وقوله: ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾.

أي: ليختبركم فيما أعطاكم وأنعم عليكم، فالغني في محل اختبار في سعة رزقه، والفقير في موضع اختبار في ضيق أمره، والمريض في شأن اختبار في مرضه، والعاجز كذلك في بلائه ومصيبته، والله عنده حسن الثواب، وجميل الخلود مع راحة النفس والبال.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرة، وإن الله مُسْتَخْلِفُكم فيها لينظُرَ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساء][1].

وأخرج الترمذي في السنن بسند حسن لغيره عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: [لَيَوَدَّنَ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2742)، والترمذي (2191)، وابن ماجة (4000)، وأحمد (19/3). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أهْلُ العافية يومَ القيامة أنَّ جلودهم قُرِضَتْ بالمقاريض ، ممّا يرون من ثواب أهل البلاء][1] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

ترهيب وترغيب . فرهّب سبحانه من معصيته وعقابه ، ورغّبَ في طاعته ومغفرته وجنته .

قال القاضي : (وصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه ، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة ، وأتىٰ ببناء المبالغة واللام المؤكدة ـ تنبيهاً على أنه سبحانه وتعالىٰ غفور بالذات ، معاقب بالعرض ، كثير الرحمة مبالغ فيها ، قليل العقوبة مسامح فيها) .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : 49 ـ 50] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد : 6] .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى ـ في أحاديث ـ منها :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : [لمّا خَلَقَ الله الخَلْقَ ، كتبَ في كتابِهِ ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي][2] . وفي لفظ : [قال الله عز وجل : سبقت رحمتي غضبي] .

الحديث الثاني : أخرج البخاري ومسلم عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [جَعَلَ الله الرحمة مئةَ جُزْءٍ ، فأمسكَ عنده تسعةً

---

(1) حسن لغيره . أخرجه الترمذي (2404) ، وابن عساكر (1/9/9) من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً . وله شواهد . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2206) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2751) ـ كتاب التوبة ـ باب في سعة رحمة الله تعالىٰ وأنها تغلب غضبه . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وتسعين ، وأنزل في الأرض جُزءاً واحداً ، فَمِنْ ذلك الجُزْءِ يتراحمُ الخلائقُ ، حتى تَـرْفَـعَ الدَّابـةُ حافِرَها عَنْ وَلَدِها ، خَشْيَةَ أن تُصيبَه][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سَلْمان قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله خَلَقَ ، يومَ خلقَ السماوات والأرض ، مئةَ رحمة ، كُلُّ رحمة طِبَاقَ ما بين السماوات والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة ، فَبِها تَعْطِفُ الوالِدَةُ على وَلَدِها ، والوَحْشُ والطَّيْرُ بَعْضُها على بعض ، فإذا كان يومُ القيامة ، أَكْمَلَها بهذه الرَّحمة][2] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لو يَعْلَمُ المؤمنُ ما عند الله من العُقوبة ، ما طَمِعَ بجنته أحد ، ولو يَعْلَمُ الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قَنِطَ من جنته أحدٌ][3] .

الحديث الخامس: أخرج الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب أنه قال: [قَدِمَ على رسول الله ﷺ بِسَبْيٍ ، فإذا امْرأةٌ من السَّبْيِ ، تبتغي ، إذا وَجَدَت صبياً في السبي ، أَخَذَتْهُ فألصقَتْهُ بِبَطْنِها وأَرْضَعَتْه ، فقال لنا رسول الله ﷺ: أَتَرَوْنَ هذه المرأةَ طارِحَةً وَلَدَها في النار؟ قلنا: لا ، والله! وهي تَقْدِرُ علىٰ أن لا تَطْرَحَهُ ، فقال رسول الله ﷺ: للهُ أرحمُ بعباده من هذه بِولدها][4] .

قلت: ولكن من أحب رحمة الله أن تناله بحق فليرحم الناس كافة ، ولا يقتصر برحمته على من يحب وعلى من له في رحمته مصلحة .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6000) ، ومسلم (2752) ، وابن حبان (6148) ، والبيهقي في «الآداب» (35) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2753) ـ كتاب التوبة ـ الباب السابق ، وانظر الحديث بعده .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2755) ـ كتاب التوبة . الباب السابق . من حديث أبي هريرة مرفوعاً .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2754) ـ كتاب التوبة . من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقوله تبتغي (وفي رواية البخاري: تسعىٰ) من السعي . قال النووي: (كلاهما صواب . لا وهم فيه ، فهي ساعية وطالبة مبتغية لابنها ، والله أعلم) .

فقد أخرج الحافظ العراقي في «الأمالي» وابن المبارك في «الزهد» بسند صحيح عن أنس بن مالك مرفوعاً: [والذي نفسي بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيم ، قالوا: كلنا يرحم ، قال: ليس برحمة أحدكم صاحبه ، يرحم الناس كافة][1] .

تم تفسير سورة الأنعام
بعون الله وتوفيقه ، وواسع مَنِّهِ وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح . أخرجه العراقي في «المجلس 86 من الأمالي» (77/2) ، وله شاهد عند ابن المبارك ـ مرسل جيد ـ في «الزهد» (203/1) . وانظر السلسلة الصحيحة (167) .

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ الله تعالى هو الإله الحق المعبود في السماء وفي الأرض ، والقول بأن ذات الله في كل مكان ضلال وكفر دسهما اليهود ، وإنما الله على العرش فوق السماوات استوىٰ.

2 ـ نكال الدنيا والآخرة واقع لا محالة بالمعاندين للرسل المكذبين بالحق.

3 ـ الفوز هو الزحزحة عن النار ودخول الجنة ، وما الحياة الدُنيا إلا متاعُ الغرور.

4 ـ المشركون متأكدون من صدق محمد ﷺ ، ولكنهم معاندون مكابرون ، وسيحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم.

5 ـ عطاء الله تعالى العبد على معاصيه إنما هو استدراج.

6 ـ هل تنصرون إلا بضعفائكم ، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم!

7 ـ النوم أخو الموت ، ولا ينام أهل الجنة.

8 ـ ستفترق هذه الأمة شأن الأمم التي قبلها ، والفرقة الناجية: هي من كانوا على ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه.

9 ـ الولاء والبراء جزء من منهاج الإيمان عند المؤمنين ـ تحريم الاستمرار في الجلوس مع قومٍ يستهزئون بالدين ـ والله تعالى جامع المنافقين في جهنم جميعاً.

10 ـ آزر والد إبراهيم قطعاً ، لا عمه كما يزعمون.

11 ـ وحدة دين الأنبياء ، وهو الدين الحق دين الإسلام.

12 ـ النجوم: زينة للسماء ، ورجم للشياطين ، وهداية في الليل.

13 ـ المؤمنون يرون الله في الآخرةِ ، ويضحك إليهم ربهم ويخرون له سجداً.

14 ـ إنه للإنس شياطين كما للجن شياطين.

15 ـ الواجب ترك المعاصي ظاهراً وباطناً ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليهِ الناس ، ومن يتق الله يجعل في قلبهِ فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل.

16 ـ نسيان التسمية على الذبيحة لا يضر ، وتركها عمداً يحرم الذبيحة .

17 ـ لا يستوي من اتبع نور الإسلام ، ومن غرق في ظلمات الكفر .

18 ـ محمد ﷺ صفوة وسيد الخلق ، فهو أفضل وأعظم مخلوق .

19ـ المكلف مخير في الأمور التكليفية لا مسيّر ، ومن يرد الحق يهده الله إليه ، ومن يستكبر عنه يخذله الله جزاء وفاقاً .

20 ـ استمتاع الجن من الإنس أن تلذذوا بطاعة الإنس إياهم ، وتلذذ الإنس بقبولهم من الجن حتىٰ زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم .

21 ـ كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول : أعوذ بكبير هذا الوادي ، فذلكَ استمتاعهم فاعتذروا يوم القيامة .

22 ـ السحر كفر ، والسَّحرة كذبة ، وسورة البقرة لا تستطيعها البطلة .

23 ـ الرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل .

24 ـ تسليط الله تعالى ظلمة الجن على ظلمة الإنس بما كانوا يكسبون .

25 ـ الأمر بالصدقة من كل ما تنبت الأرض كان قبل الزكاة .

26 ـ لا أحد أظلم ممن يكذب على الله ليضل الناس بجهله .

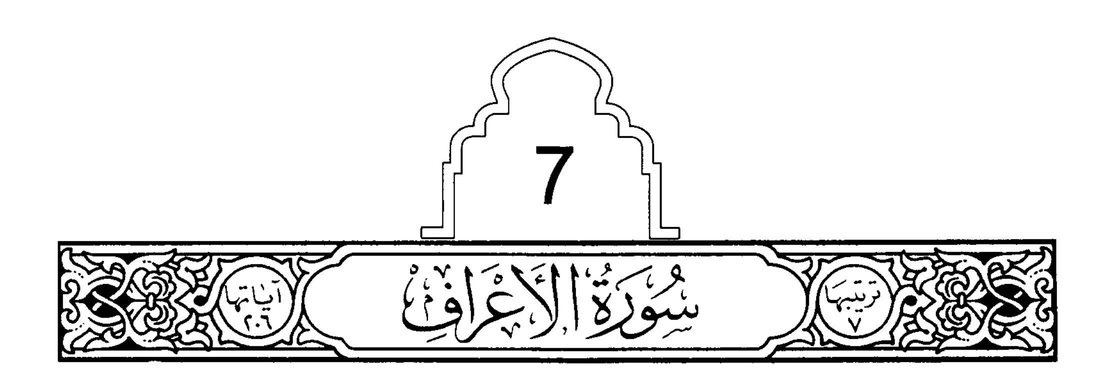
27 ـ أفضل الأعمال : الصلاة على وقتها ، ثم بر الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل الله .

28 ـ أشراط الساعة وعلاماتها بلَّغها رسول الله ﷺ ، وإذا ظهرت آيات الساعة فلا تنفع التوبة أحداً .

29 ـ براءة الله ورسوله من أهل البدع والزيغ والأهواء .

30 ـ جميع أنواع العبادة لله تعالى وحده لا شريك له ، ولا نعبد الله إلا بنص ، ولا يحمل أحد خطيئة أحد فكل نفس مرتهنة بعملها .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (206).

أخرج النسائي بسند حسن عن عائشة: [أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف ، فرّقها في ركعتين](1).

موضوع السورة

قصة الأعراف ووزن الأعمال واختبار اتباع المرسلين ، وقصة حوار المؤمنين مع الكافرين أهل الجحيم.

- منهاج السورة -

1 - تعظيمُ القرآن وأمر المؤمنين باتباع الوحي المنزل إليهم ، وذِكْرُ هلاك أقوام كذبوا الوحي والرسل فدكهم الله بالعذاب.

2 - سؤال الله العباد ماذا أجبتم المرسلين؟ وسؤاله المرسلين عن إبلاغ الرسالات.

3 - الوزن يوم القيامة للأعمال على الميزان ، فمن ثقلت موازين أعماله الصالحات كان من المفلحين ، ومن خفت موازينه كان من الخاسرين.

(1) حديث حسن. انظر ابن خزيمة (1/68/1) ، وسنن أبي داود والنسائي ، كما في صفة الصلاة (96).

4 ـ طرد الشيطان من رحمة الله تعالى لتكبره وعصيانه .

5 ـ معصية آدم وحواء بأكلهما من شجرة ثم تابا فتاب الله عليهما .

6 ـ الكلمات التي تلقاها آدم ، والهبوط إلى الأرض فالابتلاء فالموت فالبعث للحساب .

7 ـ التحذير من الشيطان الذي فتن الأبوين ، والتحذير من التقليد في الباطل أو الافتراء على الله ، والأمر بإقامة الدين واتباع الرسل وأخذ الزينة عند كل مسجد .

8 ـ تتابع الأمم في نار جهنم يوم القيامة ، وكلما دخلت أمة لعنت أختها .

9 ـ أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء ، بل تطرح في الأرض طرحاً لتقع في أجساد أصحابها لسؤال الملكين ، وكتاب الأعمال في سجين في الأرض السفلى ، والمصير إلى نار الجحيم يوم القيامة .

10 ـ المؤمنون تطهر صدورهم في الجنة من الغل والخصومات ، وتجري من تحتهم الأنهار ، وفي النعيم هم خالدون .

11 ـ حوار أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وقصة أصحاب الأعراف .

12 ـ الله تعالى له الخلق والأمر ، فادعوه تضرعاً وخفية ، واجتنبوا الفساد في الأرض ، واشكروه على نعمة الماء وتصريف الرياح وإخراج النبات والثمرات .

13 ـ أخبار المرسلين مع أقوامهم : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب . . . . ، دعوهم إلى الإيمان وترك المنكرات ، فأصرَّ الملأ الكافر على الكفر والكبر في الأرض ، فدكهم الله بالعذاب ، وأنجىٰ اللهُ المؤمنين مع المرسلين .

14 ـ تتابع إرسال الرسل من الله إلى أقوامهم ، وخبر فرعون مع موسىٰ ، وقصة إيمان السحرة ، وإغراق فرعون وجنوده ، وشفاء صدور قوم مؤمنين .

15 ـ تبديل بني إسرائيل الشكر لله على إنجائهم بالشرك به .

16 ـ قصة ذهاب موسىٰ إلى الميقات ، وتخليفه هارون على بني إسرائيل ، وعبادة القوم العجل ، وغضب موسىٰ عليهم الذي أداه لإلقاء الألواح ، ثم سَكَنُ الغضب عن موسىٰ وجمعهُ الألواح وفيها الهدىٰ والرحمة .

17 ـ سماع بني إسرائيل كلام الله ، فلم يؤمنوا حتىٰ يروا الله جهرة ، فصعقوا ، ثم ذِكْرُ استغفار موسىٰ لهم ، ورحمة الله التي وسعتهم ووسعت كل شيء .

18 ـ صفة محمد ﷺ في الكتب المنزلة السابقة ، كصفته في القرآن ، ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرسل إلى الناس كافة ، وبعث بالحنيفية السمحة .

19 ـ إن من قوم موسىٰ وقتئذ طائفة مهتدين .

20 ـ الذين لم ينتهوا عن المعصية من بني إسرائيل مسخوا قردة وخنازير .

21 ـ ملعون من لا يتناهىٰ عن المنكر .

22 ـ من بني إسرائيل قومٌ صالحون ، ثم كان منهم من بدّل وحرّف وركب الآثام ، وما آمنوا إلا بعد أن كاد الله أن يسقط الجبل عليهم .

23 ـ خبر الميثاق ، وإشهاد الله تعالى بني آدم على أنفسهم أنه ربهم فشهدوا ، فحذرهم الغفلة والاحتجاج بالتقليد .

24 ـ قصة بلعام بن باعوراء ، وانسلاخه من رضاء الله .

25 ـ الكفار أضل من الأنعام التي لا تنتفع بحواسها إلا فيما يقيتها .

26 ـ مفهوم الاستدراج : فتح أبواب الرزق والمعاش في الدنيا ثم الأخذ بغتة .

27 ـ الساعة لا تأتي إلا بغتة ، ولا يعلم موعدها أحدٌ من الخلق .

28 - الغيب لا يعلمه إلا الله ، ومن شاءه الله من الرسل .

29 ـ البشر مخلوقون جميعاً من نفس واحدة هي آدم عليهِ السلام .

30 ـ أتعبدون ما لا يخلق شيئاً ، وتتركون خلّاق السماوات والأرض .

31 ـ المشركون عبدوا تماثيل الصالحين ، ما ظنكم بأرباب صنعها عابدوها؟!

32ـ أمر الله بالعفو ، والأمر بالمعروف ، والإعراض عن الجاهلين .

33 ـ أمرٌ من الله ، بالاستعاذة بالله من نزغ الشيطان الرجيم .

34 ـ الإنصات واجب إذا قرأ الإمام جهراً ، والقراءة واجبة إذا أَسَرّ .

35 ـ الأصل في الذكر الخفاء ، ويشرع لتالي السجدة وسامعها السجود بالإجماع .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 - 9. **قوله تعالى:** ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾.

في هذه الآيات: هذا القرآن من جنس هذه الأحرف المقطعة التي تتخاطبون فيها، وهو كتاب عظيم أنزل إليك من ربك ـ يامحمد ـ فلا تشك أنه من عند ربك وامض فيما كلفك الله من النذارة وحمل أعباء النبوة، وَذَكِّر المؤمنين. ثم حَذِّر قومك الذين أشركوا فادعهم إلى الإيمان بما آمن به المؤمنون من الوحي الذي أنزل إليهم من ربهم، وأخبرهم عن سوء عاقبة اتباع أوليائهم ممن يضلونهم ويأمرونهم بالشرك بالله وقليلاً ما يَتَّعِظون. إنه كم من قرية عتت عن أمر ربها فجاءها العذاب ليلاً قبل أن يصبح القوم أو نهاراً في وقت قائلتهم. فما كان حينئذ منهم إلا أن اعترفوا أنهم كانوا ظالمين. فلنسألن الأمم الذين مضت فيهم الرسل ماذا أجبتم المرسلين، ولنسألن الرسل عن البلاغ المبين؟ فلنقصن على الرسل وأقوامهم بما كانوا عاملين، فقد أحصينا عليهم أعمالهم وما كانوا يفعلون. والوزن يوم الحساب العدل، فمن ثقلت أعماله على الميزان فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فطاشت الحسنات وثقلت السيئات فأولئك هم الخاسرون.

فقوله: ﴿المٓصٓ﴾.

مضىٰ نحوه في أوائل البقرة وآل عمران. وخلاصة المعنى: هذا القرآن هو من جنس هذه الأحرف المقطعة التي يتكلم بها العرب، وهو يتحدىٰ ببيانه وإعجازه العرب والعجم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

قال ابن جرير: (يعني تعالى ذكره: هذا القرآن، يا محمد، كتاب أنزله الله إليك. ورفع «الكتاب» بتأويل: هذا كتابٌ).

وقوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾.

قال ابن عباس: (لا تكن في شك منه). قال ابن كثير: (وقيل: فلا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به، واصبر كما صبر أولو العَزْم من الرسل).

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: لتنذر به الكافرين مغبة ما هم عليه من الشرك والاستهزاء بالتنزيل. ولتبشر المؤمنين بذكره وآياته ومعانيه لِيَثْبُتوا على الحق ويلقوا على ذلك ربهم عز وجل.

وقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾.

أي: الزموا ما جاءكم من ربكم من الوحي العظيم، وهدي رسوله الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، واحذروا اتباع ما خرج عن منهاجه ﷺ، فإن الحق في منهاجه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: قليلاً ما تتعظون وتسلكون سبيل نجاتكم وسعادتكم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ . . .﴾ [الأنعام: 116].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: 106].

وفي المسند وسنن ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد مرفوعاً: [يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بَلَّغْتَ قومك؟ فيقول: نعم..][1].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

قال ابن كثير: (أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خِزيَ الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة).

وقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فجاءتهم عقوبتنا ونقمتنا ليلاً قبل أن يصبحوا، أو جاءتهم «قائلين»، يعني: نهاراً في وقت القائلة[2]).

ولا شك أن المقصود بقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ سكان القرية دون بنيانها، فهم الذين استحقوا بأس الله وعذابه بلزومهم ما يسخط الله من الأقوال والأفعال، وإن كان قد نال بنيانها ومساكنها من البأس بالخراب والدمار، مثل ما نال سكانها.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: 11].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: 13].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: 45].

4 ـ وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: 58].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (573/2-574)، وأحمد (58/3)، وإسناده على شرط الشيخين.

(2) وهو من القيلولة، وهي الاستراحة وسطَ النهار، وكلا الوقتين الليل ووقت القيلولة وقت غفلة ولهو، ولذلك باغتهم سبحانه بالعذاب والدمار في هذين الوقتين.
وقوله: ﴿أو هم قائلون﴾ ـ حال معطوفة على بَياتاً، والتقدير: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين.

وأما اختيار الله سبحانه وقت زحمة النهار وهدأة الليل للانتقام من عباده المتكبرين على طاعته وعبادته ، فإنه وقت اللهو والخوض في اللعب وأشكال التلاعب على الشرع أثناء النهار ، أو وقت ركوب الموبقات والفواحش عند استقرار الليل للفجّار .

وفـي التنزيـل :

1 ـ قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : 97 ـ 98] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 45 ـ 47] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [بينما رجل يمشي في حلة تُعْجِبُهُ نفسُه ، مُرَجِّلٌ رأسَه ، يختال في مِشْيَتِهِ ، إذ خسف الله به ، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة][1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ .

أي : ما كان منهم حين رأوا العذاب ونزول البأس إلا أن أقروا بذنوبهم وبما كانوا يظلمون . قال النسفي : (اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك) .

أخرج الإمام أحمد في المسند ـ عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَير عن أبيه قال : [لما فتحت قبرس فُرِّق بين أهلها ، فبكىٰ بعضهم إلى بعض ، فرأيت أبا الدرداء ، جالساً وحده يبكي فقلت : يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال : ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره ، بينما هي أمة قاهرة ظالمة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترىٰ][2] .

وكذلك في المسند عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده ، فقلت : يا رسول الله أما فيهم يومئذ ناس

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (221/10) ، و(222/10) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (2088) . ويتجلجل : أي يغوص في الأرض حين يخسف به ، والجلجلة حركة مع صوت .

(2) أخرجه أحمد من حديث جبير بن نفير . انظر : «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» ـ ابن القيم ـ أثر الذنوب . وكتابي : تحصيل السعادتين (240) لتفصيل البحث .

صالحون؟ قال: بلى. قلت: كيف يصنع بأولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان][1].

وله شاهد عند البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث عائشة مرفوعاً: [إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله عز وجل بأسه بأهل الأرض، وإن كان فيهم صالحون، يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يرجعون إلى رحمة الله][2].

وشاهد آخر عند الحاكم بسند صحيح من حديث ابن عباس مرفوعاً: [إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذابَ الله][3].

والخلاصة: فإن للذنوب آثاراً جسيمة إن تُركت وأطلقت، وهي سبب فساد العالم، وسبب قلق النفوس وتمزق قلوب الناس، ويعكس الله آثارها أحزاناً ومصائب في واقع الحياة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قال ابن عباس: (يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا).

وقال السدي: (يقول: فلنسألن الأمم: ما عملوا فيما جاءت به الرسل؟ ولنسألن الرسل: هل بلغوا ما أرسلوا به). وقال مجاهد: (﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، الأمم، ولنسألن الذين أرسلنا إليهم عما ائتمناهم عليه: هل بلغوا؟).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 65].

2 ـ وقال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109].

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [يجيء النبيُّ

(1) حسن لشواهده. أخرجه أحمد (294/6)، وكذلك (304/6) ـ من طريق أم سلمة رضي الله عنها.

(2) حديث صحيح. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/441/2)، وانظر المسند (41/6)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ برقم (1372)، وانظر صحيح الجامع (693).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم بإسناد صحيح من حديث ابن عباس مرفوعاً. انظر المرجع السابق (692)، وتخريج فقه السيرة (370)، وتخريج الحلال (340).

ومعه الرجلان. ويجيء النبيُّ ومعه الثلاثة. وأكثر من ذلك وأقلُّ. فَيُقَالُ له: هلْ بَلَّغْتَ قومَكَ؟ فيقول: نعم. فيدعى قَوْمُهُ، فيقال: هل بَلَّغَكُمْ؟ فيقولون: لا. فيقال: مَنْ شَهِدَ لكَ؟ فيقول: محمدٌ وأمَّتُهُ. فَتُدْعَى أمَّةُ محمد فيقال: هل بَلَّغَ هذا؟ فيقولون: نَعَم. فيقول: وما عِلْمُكُم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبيّنا بذلك أن الرسل قد بَلَّغوا، فصدَّقْناه. قال: فذلكم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴿١٤٣﴾ ﴾][1].

ولا شك أن السؤال واقع يوم القيامة على كل من استرعاه الله رعية، سواء أكان إماماً أم والداً أم والدة أم والياً ولي أي شأن من شؤون الخلق ومصالحهم.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كُلُّكُم راع، وكُلُّكُم مسؤول عن رَعِيَّتِهِ: الإمام راعٍ ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رَعِيَّتِهِ، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسؤولة عن رَعيَّتِها، والخادمُ راعٍ في مال سَيِّده ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ. قال: وحسبتُ أنْ قَدْ قال: والرجل راعٍ في مالِ أبيه وهو مسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ][2].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

قال ابن عباس: (ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمالهم).

قال القرطبي: (﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ أي: كنا شاهدين لأعمالهم. ودلت الآية على أن الله تعالى عالمٌ بعلم). وقال النسفي: (﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ عنهم وعما وجد منهم. ومعنىٰ السؤال التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم).

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: [كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: هل تدرون مِمَّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربَّه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفىٰ بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فَيُخْتَمُ على

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4284) ـ باب صفة أمة محمد ﷺ. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3457). ورَوىٰ البخاري نحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (893) ـ كتاب الجمعة، ومسلم (20)، وأخرجه أبو داود في السنن (2928)، وكذلك الترمذي (1705)، وابن حبان (4472)، والبيهقي (287/6).

فيه ، ويقال لأركانه انطُقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخَلّىٰ بينه وبين الكلام ، فيقول: بعداً لَكُنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل](1).

وقوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

قال مجاهد: (﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ﴾ ، القضاء. ﴿الحق﴾ ، قال: العدل).

وقال السدي: (﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ : توزن الأعمال).

وقال عبيد بن عمير: (يؤتىٰ بالرجل العظيم الطويل الأكول الشَّروب ، فلا يزن جناح بعوضة).

وفي التنزيل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

وفي صحيح الحاكم ـ بسند جيد ـ عن سلمان ، عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب: لِمَنْ يَزِنُ هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. ويوضع الصراط مثل حد الموسى فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك](2).

قال ابن جريج: (قال لي عمرو بن دينار قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ ، قال: إنا نرى ميزاناً وكفتين).

وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

أي: تقرأ النتائج من سجلات وقراءات الميزان ، فمن رجحت حسناته فقد فاز ، ومن طاشت فقد خسر.

قال مجاهد: (﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قال: حسناته. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ، قال: حسناته).

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1933). وأناضل: أي أجادل وأدافع وأخاصم.

(2) إسناده جيد في الشواهد. أخرجه الحاكم (586/4) ، والآجري في «الشريعة» (382) ، وانظر لجملة الصراط مستدرك الحاكم (589/4-592). والحديث في «الصحيحة» برقم (941).

وقال عبيد بن عمير: (يجعل الرجل العظيم الطويل في الميزان، ثم لا يقوم بجناح ذباب).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ ـ في أحاديث ـ منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ـ بإسناد حسن ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه: [أنه كان يجني سِواكاً من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: ممَّ تضحكون؟ قالوا: يا نبيَّ الله من دقة ساقيه فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد][3].

الحديث الرابع: يروي ابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [يُصاح برجلٍ من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر له تسعةٌ وتسعون سِجلاً، كل سجلٍّ مدُّ البصر، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل تُنْكِرُ من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أظَلَمَكَ كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، ثم يقول: ألك عذرٌ، ألك حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، فيقول: بلىٰ، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليكَ اليوم، فتُخرجُ له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4729)، وأخرجه مسلم في الصحيح برقم (2785) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (2134)، كتاب التوحيد، وصحيح مسلم (2694) ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة.

(3) إسناده حسن. أخرجه أحمد (420/1)، والطيالسي (2561)، وأبو يعلى (5310)، وغيرهم.

إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة][1] .

10 - 25 . **قوله تعالى** : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

في هذه الآيات : يخبر تعالى ممتناً على عباده فيما مَكَّنَ لهم في الأرض ووطأها لهم وجعلها لهم قراراً ومهاداً ، وفراشاً يفترشونها يقضون عليها أيام حياتهم ، وقد

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (4300) ، والترمذي في الجامع (2639) ، وأحمد في المسند (213/2) ، والحاكم (6/1) ، وأخرجه ابن حبان (225) ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني ـ انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7951) .

جعل لها رواسي وأنهاراً ، وسخر لهم الرياح والسحاب فأجرىٰ الأنهار ، وأنبت الزرع والثمار ، وجعل لهم منازل وبيوتاً ، وذلّل لهم المكاسب والمعايش والمنافع وقليل منهم الشاكرون. ثم نبّه سبحانه على شرف أبيهم آدم ، وأمر الملائكة بالسجود له تكريماً ، خلقه سبحانه بيده من طين ، ثم صوركم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ، فأبى الشيطان السجود لأبيكم حسداً وكبراً ، واغتر بخلقه من نار ، واستخف خلق الصلصال ، فأهبطه الله من دار النعيم ، فكان من الصاغرين ، فسأل الله النظرة إلى يوم الدين ، فأعطاه الله النظرة ، استحقاقاً للسخطة ، واستتماماً للبلية ، فتوعد اللعينُ بإغواء الذرية ، ليصرفهم عن مقام خير البرية ، فتوعده الله تعالى هو ومن تبعه جهنم صاغرين. ثم أمر سبحانه آدم عليه الصلاة والسلام أن يسكن هو وزوجه الجنة ، وأن يتنعم فيها وأهله من كل شيء ، إلا من شجرة جعلها الله سبحانه موضع اختبار ، فوسوس اللعين بكل طريقة ليزلا في القرار ، وما زال يغويهما حتى أكلا منها فبدت سوآتهما فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ـ يلزقان بعضه على بعض ليواريا سوآتهما ـ وناداهما ربهما ألم أحذركم طاعة اللعين ، ووسواس الرجيم ، وأنه لكم عدو مبين. فأقرا بالذنب والسقوط والزلل ، وسألاه سبحانه المغفرة والرحمة فهو يجيب المضطر إذا سأل ، ثم قضى لهما الهبوط إلى دار الدنيا ، ووصاهما الحذر ثانية من هذا العدو الرجيم ، وكتب لهما الحياة فيها والموت فيها إلى أن يأذن الله بالخروج من القبور ، في يوم النشور ، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

قال ابن كثير: (يقول تعالى مُمْتَنّاً على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل لها رواسي وأنهاراً ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً ، وأباحَ لهم منافعها ، وسخَّرَ لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم ﴿فيها معايش﴾ أي: مكاسب وأسباباً يتَّجرون فيها ، ويَتَسَبَّبُون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]).

قال القرطبي: (والمعايش جمع مَعيشة ، أي: ما يُتَعَيَّشُ به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة).

والخلاصـــة: لقد ذلل الله سبحانه أسباب الرزق والعافية لابن آدم ، ثم إن أكثرهم

لا يشكرون ، بل بعضهم يجحدون ويكفرون ، أو يتطاولون ويشركون.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسىٰ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ ـ أو ليسَ شيءٌ ـ أصبرَ على أذىً سمعه من الله ، إنهم ليدْعون له ولداً ، وإنه ليُعافيهم وَيَرْزُقهم][1].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾.

قال الضحاك: (أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية). وقال ابن عباس: (خُلِقوا في أصلاب الرجال ، وصوِّروا في أرحام النساء).

وقال: (﴿خلقناكم﴾ ، يعني آدم ، وأما ﴿صورناكم﴾ ، فذريته).

قال ابن جرير: (﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ ، ولقد خلقنا آدم ، ﴿ثم صورناكم﴾ ، بتصويرنا آدم).

وهذا تفسير قوي مناسب للسياق ، فالمراد آدم ، وقيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر ، فالكلام عليه ينسحب على كل ذريته من بعده.

وقوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

أي: فلما صورنا آدم ، فكان خلقاً متكاملاً ، ونفخنا فيه الروح ، قلنا للملائكة اسجدوا لهذا المخلوق السوي تكريماً له واختباراً لهم بالأمر ، فسجدوا طائعين ، إلا إبليس كان من العاصين ، ولم يكن من الملائكة بل من الجن ، وإنما أُلْحِق بهم تغليباً.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

قال ابن عباس: (فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر ، لما كان حدّث نفسه ، من كبره واغتراره ، فقال: لا أسجد له ، وأنا خير منه ، وأكبر سناً ، وأقوىٰ خلقاً ، خلقتني من نار وخلقته من طين! يقول: إن النار أقوىٰ من الطين) ـ ذكره ابن جرير.

وقال الحسن: (قاس إبليس ، وهو أول من قاس).

وفي صحيح مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: [خُلقت

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6099) ـ كتاب الأدب. باب الصبر في الأذى. من حديث أبي موسى رضي الله عنه. وانظر (7378) أيضاً.

الملائكة من نور ، وخُلِقَ إبليس من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وصف لكم][1] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ .

قال السدي : (والصغار : هو الذل). فأهبطه سبحانه بسبب عصيانه الأمر ، واستكباره عن الامتثال. قال ابن كثير : (قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة ـ يعني في قوله : ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ ـ ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلىٰ) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ .

فاستجاب الله سؤاله ، فأنظره إلى يوم البعث ، استكمالاً للبلية ، ولله الحكمة البالغة .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

يتوعد إبليس بالانتقام من ذرية آدم بكل وسيلة يستطيعها ـ بعدما استوثق في التأجيل ليوم البعث ـ وكان ذلك حسداً وكبراً. قال ابن عباس :(﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ : كما أضللتني). وقال مجاهد : (﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾. قال : سبيل الحق ، فلأضلنهم إلا قليلاً) .

وفي الآية بعدها أقوال :

1 ـ قال ابن عباس : (﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، يقول : أشككهم في آخرتهم ، ﴿ومن خلفهم﴾ ، أرغبهم في دنياهم ، ﴿وعن أيمانهم﴾ ، أشبِّه عليهم أمرَ دينهم ، ﴿وعن شمائلهم﴾ ، أشهِّي لهم المعاصي) .

2 ـ وفي رواية عنه : (أما ﴿ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، فمن قبلهم ـ يعني من الدنيا ـ ، وأما ﴿من خلفهم﴾ ، فأمر آخرتهم ، وأما ﴿عن أيمانهم﴾ فمن قبل حسناتهم ، وأما ﴿عن شمائلهم﴾ ، فمن قبل سيئاتهم) .

3 ـ وقال ابن جريج : (﴿ مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، من دنياهم ، أرغّبهم فيها ، ﴿ومن خلفهم﴾ ، آخرتهم ، أكفّرهم بها وأزهدهم فيها ، ﴿وعن أيمانهم﴾ ، حسناتهم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2996) ، وأخرجه أحمد في المسند (153/6) ، (168/6) ، ورواه البيهقي في «الصفات» (126/2) .

أزهدهم فيها ، ﴿وعن شمائلهم﴾ ، مساوي أعمالهم ، أُحَسِّنُها إليهم).

4 ـ وقال مجاهد: (قول الله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَـٰنِهِمۡ﴾ ، قال: حيث يبصرون ، ﴿ومن خلفهم﴾ ، ﴿وعن شمائلهم﴾ ، حيث لا يبصرون).

قلت: وكلها أقوال تحمل آفاقاً محتملة لتأويل الآية ، وتشترك جميعها بأن إبليس اللعين توعد إغواء ذرية آدم من جميع وجوه الباطل ليصدهم عن الحق. وفي ذلك أحاديث كثيرة في صحيح السنة المطهرة ، منها:

الحديث الأول: أخرج الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في «الأسماء» بسند صحيح في الشواهد ـ عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب تبارك وتعالىٰ: وعزتي وجلالي: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد حسن ، عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الشيطان قعد لابن آدم بِأَطْرُقِهِ ، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسْلِمُ وتذرُ دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل ، فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتُقتل فَتُنْكَحُ المرأة ويُقسم المال؟! فعصاه فجاهد..][3].

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند حسن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب

---

(1) حديث صحيح في الشواهد. أخرجه الحاكم (261/4) ، والبيهقي في «الأسماء» ص (134) ، وانظر مسند أحمد (29/3) ، (41/29/3) ، و«شرح السنة» للبغوي (146/1) وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (104) لشواهده الكثيرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 138). وانظر مختصر صحيح مسلم (1804) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1340/2) لتفصيل البحث.

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (483/3) ، وأخرجه النسائي (21/6) ، وابن حبان (4593) ، وغيرهم. من حديث سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه.

الناس في حجة الوداع فقال: [إن الشيطان قد يئِسَ أن يُعبد بأرضكم ، ولكن رضي أن يُطاعَ فيما سوىٰ ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، إني قدتركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتابَ الله ، وسنة نبيه..]. وأصله في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد[1].

وقوله: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (مُوَحِّدين).

وهذا الكلام من إبليس إنما كان عن ظن منه وتوهم ، فتحقق بسبب زلل ابن آدم وضعفه وانقياده لشهواته وأهوائه ، فتوافق ظن إبليس مع تفريط ابن آدم كما قال تعالى في آية سبأ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

وقد كان الله حذّر الذرية كما حذر الأبوين منه بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢ ﴾.

وكذلك إنما جاءت أوامر النبي ﷺ تحذر من موافقة اللعين، وتؤكد على مخالفة هذا الشيطان الرجيم، فإنه لا يضمر للإنسان إلا الشر المبين. ومن ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام البخاري عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: [هو اختلاس يختلِسُهُ الشيطان من صلاة العبد][3].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: [قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي يلبسها علي! فقال رسول الله ﷺ: ذلك شيطان يقال له خِنْزَب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتفل عن

(1) حديث حسن. انظر مسند أحمد (368/2) ، وكذلك (313/3) ، وجامع الترمذي (127/3) ، ومسند أبي يعلى (609/2) ، وقد مضىٰ نحوه في صحيح مسلم (138/8).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2019) ـ كتاب الأشربة. باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3291) ـ كتاب بدء الخلق. باب صفة إبليس وجنوده. من حديث عائشة رضي الله عنها. وانظر (751).

يسارك ثلاثاً. قال: فعلت ذلك فأذهبه الله تعالى عني][1].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند ـ بسند صحيح ـ من حديث الحارث الأشعري، عن النبي ﷺ قال: [وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعاً حتى إذا أتىٰ على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يَحْرِزُ نَفْسَه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى][2].

وقوله: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

المذؤوم: المعيب، والمدحور: المُقْصَى. قال قتادة: (يقول: اخرج منها لعيناً مَنْفِيّاً).

وقال ابن عباس: (﴿مذؤوماً﴾: ممقوتاً. قال: يقول: صغيراً منفياً).

وعن مجاهد: (﴿مذؤوماً﴾، قال: مَنْفِيّاً، ﴿مدحوراً﴾، قال: مطروداً). وعن التميمي: (سأل ابن عباس: ما ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، قال: مقيتاً). وقال الربيع بن أنس: (مذؤوماً: منفياً، والمدحور: المُصَغَّرُ).

وقوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

تَوَعُّدٌ من الله بالانتقام منه ومن أتباعه.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13].

2 ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 63 ـ 65].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2203) ـ كتاب السلام. باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 202)، والترمذي في الجامع (2867). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1720) ـ وهو جزء من حديث طويل.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة بعد أن أهبط منها إبليس بمعصيته وأخرجه منها، وأباح الله تعالى لهما كل ثمرات الجنة إلا شجرة بعينها جعلها سبحانه موضع الاختبار، فحذرهما من الزلل ومخالفة الأمر.

وقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (ومعنى الكلام: فجذب إبليس إلى آدم حوّاء، وألقى إليهما: ما نهاكما ربكما عن أكل ثمر هذه الشجرة، إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، ليبدي لهما ما واراه الله عنهما من عوراتهما فغطاه بستره الذي ستره عليهما).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

قال قتادة: (فحلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخْدَع المؤمن بالله، فقال: إني خُلِقْتُ قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما).

وقوله: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾.

أي: فخدعهما بغرور، فما زال بهما حتى خُدعا بكلامه ووسوسته.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

أي: فلما وقعا وذاقا ثمر الشجرة التي حرمها الله عليهما، أعراهما ربهما من الكسوة التي كان كساهما وتفضل عليهما، فهرعا إلى ورق الجنة لتغطية ما بدا من عوراتهما.

قال ابن عباس: (جعلا يأخذان من ورق الجنة، فيجعلان على سوآتهما).

وقوله: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

أي: نادى الله تعالى آدم وحواء: ألم أنهكما عن أكل ثمر تلك الشجرة وأحذركم عداوة إبليس ومحاولاته النيل من نَعيمكما، وأنه لكما عدو مبين، حاسد ظلوم.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

قال الضحاك: (هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

يقول جل ذكره لآدم وحواء وإبليس العدو: اهبطوا من السماء إلى الأرض، بعضكم لبعض عدو. قال ابن عباس: (﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾، قال: القبور. ﴿ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾، قال: إلى يوم القيامة، وإلى انقطاع الدنيا). وكذلك قال ابن عباس: (﴿مستقر﴾: وجه الأرض وتحتها).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾، قال: قرارٌ وأعمارٌ مضروبةٌ إلى آجال معلومة، قد جرىٰ بها القلم، وأحصاها القدرُ، وسطِّرت في الكتاب الأول).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾..

أي: حياتكم ثم مماتكم فيها ثم تبعثون منها ليوم الحساب.

وفي التنزيل: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: 55].

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح من حديث البراء ـ عند صعود الروح ـ قال رسول الله ﷺ: [فيستفتحون له، ـ أي: لروح المؤمن ـ فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتىٰ ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ. قال: فيُرَدُّ إلى الأرض، وتعاد روحه في جسده].

ثم قال في روح الكافر: [فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلىٰ، ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ. فتطرح روحه من السماء طرحاً حتى تقع في جسده][1].

26 - 36. قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (281/2)، وأحمد في المسند (287/4-288)، والحاكم في المستدرك (37/1) ـ ضمن حديث طويل.

ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ۞ .

في هذه الآيات: وصايا من الله سبحانه لذرية آدم بعدما حصل لأبويهم من فتنة الشيطان وما أعقبها من الهبوط إلى دار الدنيا والابتلاء والامتحان: يا بني آدم قد خلقنا لكم لباساً مما تلبسون من الثياب يستر عوراتكم، ولباس الإيمان والحياء والعمل الصالح هو زينة اللباس، إن كنتم تعتبرون. يا بني آدم، لا يخدعنكم الشيطان لكشف عوراتكم كما فعل بأبيكم آدم وأمكم حواء، ليسلبهما لباس التقوى والستر والحياء، إنه يراكم هو وجنسه دون أن تروهم، إنا جعلنا الشياطين نصراء الكفار والمتكبرين. وإذا فعل هؤلاء الكفرة قبيحاً ـ كالطواف بالبيت عرايا ـ فعوتبوا بذلك احتجوا بطريقة الآباء، وبأن الله أمرهم بذلك، قل ـ يا محمد ـ لهم: إن الله لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال، وإنما أنتم تكذبون. إنما أمر ربي بالعدل وإخلاص الدعاء والعبادة له

سبحانه ، وأن تَتَوجهوا إلى البيت الحرام ، ثم إليه تحشرون ، فكما بدأكم تعودون . إنه سبحانه قد هدى فريقاً استحقوا الهداية بتواضعهم لأمره ، وحرم الهداية فريقاً تمردوا على أمره وأظهروا الاستكبار والعناد ، وآثروا ولاية الشياطين ، وهم يحسبون أنهم مهتدون . يا بني آدم تجملوا باللباس عند كل مسجد فاختاروا أستره وأجمله ، وكذلك كلوا واشربوا من الطيبات واجتنبوا الإسراف والمحرمات ، إنه سبحانه لا يحب المسرفين . قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المنحرفين في منهاجهم : من حرّم عليكم ـ أيها القوم ـ زينة الله أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها ، والحلال من الرزق من أصناف الطيبات في المطاعم والمشارب ، قل ـ يا محمد ـ إذ أفلس القوم من الجواب : إنها زينة الله أخرجها لعباده وطيبات أحلها لهم ، ثم ينعمون بها وحدهم في الآخرة دون الكفار ، ونفصل التشريع الحق لقوم يفقهون . قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين : أيها القوم! إن الله لم يحرم ما تحرمونه ، بل أحل ذلك لعباده وطيّبه لهم ، إنما حرم القبائح وهي الفواحش ، سرّها وعلانيتها ، والمعاصي والاستطالة على الناس بظلم ، والشرك الذي هو أصل كل معصية وفاحشة وظلم ، والقول على الله بغير علم ، الذي هو أم كل جهل وأصله وسببه . ثم لكل أمة أجل هم بالغوه ، فإذا جاء يومهم مضوا دون أي تأخير أو تقديم . يا بني آدم إنه لا فلاح لكم إلا باتباع الرسل ، فمن صدق بهم ومضىٰ على منهاجهم فقد فاز ، ومن أبىٰ فالنار ستلفحه يوم القيامة وبئس المصير .

فقوله : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾ .

قال مجاهد : (كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة ، ولا يلبس أحدهم ثوباً طاف فيه) .

وقال ابن عباس : (الرياش : اللباس والعيش والنعيم) . وفي رواية : (﴿وريشاً﴾ يقول : مالاً) .

وقال ابن زيد : (الريش : الجمال) . قال ابن جرير : (و﴿الريش﴾ : إنما هو المتاع والأموال عندهم . وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال) .

وقوله : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ .

فيه أقوال متكاملة :

1 ـ قال قتادة : (﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ ، هو الإيمان) .

2 ـ وقال معبد الجهني: (﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، الذي ذكر الله في القرآن، هو الحياء).

3 ـ وقال ابن عباس: (﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: العمل الصالح). أو قال: (السمت الحسن في الوجه).

4 ـ وقال عروة بن الزبير: (﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: خشية الله).

5 ـ وقال ابن زيد: (يتقي الله، فيواري عورته، ذلك ﴿لباسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾).

قلت: وكلها أقوال متكاملة في معناها تزيد في توضيح آفاق الآية، فالإيمان والحياء وحسن السمت واللباس الساتر وخشية الله والعمل الصالح كل ذلك من لباس التقوى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: كل ما سبق ذكره من اللباس والرياش وخير اللباس ـ لباس التقوى ـ من حجج الله على من كفر بالله، علّه يعتبر وينيب إلى الحق ويترك ما هو عليه من الضلال.

وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾.

تحذير من الله عباده أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم آدم وحواء حتى جردهم من لباس الله ونزعه عنهما بغوايته لتظهر عوراتهما، وهذا من أخطر السبل التي يحاول بها الشيطان وأعوانه إضلال بني آدم، وما التعري وكشف العورات وأفلام الرذيلة وفشو الزنا بكل ألوان الشذوذ والإباحية اليوم في أرجاء الأرض إلا تصديق لهذه الآية.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ ـ إخبار من الله عن رؤية الجن للإنس دون العكس عموماً.

قال مجاهد: (الجن والشياطين). وقال ابن زيد: (قبيله: نسله).

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ أي: نصراء لهم يعينونهم على فشو المنكر.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت][1].

وأخرج ابن حبان في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: [إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده، فيقول: من أضَلَّ اليوم مسلماً ألبستُه التاج، فيخرجُ هذا فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عق والديه فيقول: يوشك أن يَبَرَّهما. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت أنت وَيُلبِسُه التاج][2].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

قال مجاهد: (كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسعة[3] أو الشيء، فتقول:

اليَوْمَ يَبْدو بَعْضُه أوْ كُلُّهُ فما بدا مِنْهُ فلا أُحِلُّهُ)

وقال ابن جريج: (كان نساؤهم يطفن بالبيت عراة، فتلك الفاحشة التي وجدوا عليها آباءهم).

فأمر الله نبيّه ﷺ أن يقول لهم: أيها الناس، إن ربكم سبحانه لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال، وإشاعة المنكر والفواحش، فكيف تكذبون على ربكم وتقولون عليه دون علم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (7106) ـ طبعة دار السلام ـ الرياض ـ كتاب صفات المنافقين. من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (65)، بإسناد صحيح، رجاله ثقات رجال البخاري. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1280).

(3) النسعة: هي قطعة من الجلد مضفورة عريضة تجعل على صدر البعير.

وقوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾.

قال مجاهد والسدي: (بالعدل). أي: بالعدل والاستقامة.

وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ـ فيه قولان محتملان:

1 ـ عن مجاهد: (﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، إلى الكعبة حيثما صليتم، في الكنيسة وغيرها).

2 ـ عن الربيع ـ قال فيها ـ: (في الإخلاص، أن لا تدعو غيره، وأن تخلصوا له الدين).

وقوله: ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾.

قال الربيع: (أن تخلصوا له الدين والدعوة والعمل، ثم توجِّهون إلى البيت الحرام).

وقوله: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾.

أما قوله: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ففيه أكثر من تأويل، وبعض ذلك مُفَسَّرٌ بقوله: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾.

1 ـ قال مجاهد: (﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾: يحييكم بعد موتكم).

2 ـ وقال الحسن: (كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء).

3 ـ وقال قتادة: (بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم). وقال ابن زيد: (بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخراً).

4 ـ وقال ابن عباس: (يبعث المؤمن مؤمناً، والكافر كافراً). وقال أبو العالية: (عادوا إلى علمه فيهم، ألم تسمع إلى قول الله فيهم: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾؟ ألم تسمع قوله: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾؟).

5 ـ وقال سعيد بن جبير: (كما كتب عليكم تكونون). وقال السدي: (يقول: كما بدأكم تعودون، كما خلقناكم، فريق مهتدون، وفريق ضال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم).

قلت: وكلها تفاسير يدل عليها السياق ، ويحتملها المعنىٰ ، وقد وردت السنة الصحيحة في ذلك ، ضمن أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: يا أيها الناس ، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً ، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 104]] الحديث(1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [إن العبد ليعمل ـ فيما يرىٰ الناس ـ بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل ـ فيما يرىٰ الناس ـ بعمل أهل النار ، وإنه من أهل الجنة. وإنما الأعمال بالخواتيم](2).

الحديث الثالث: أخرج الشيخان وأكثر أهل السنن عن علي مرفوعاً: [ما منكم مِنْ أَحَدٍ ، ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلا كُتِبَ مَكانُها من الجنة والنّار ، وإلا قد كُتِبَتْ شَقِيَّةً أو سعيدة. فقال رجلٌ: يا رسول الله ، أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا ونَدَعُ العمل؟ فمن كان مِنّا من أهل السعادة فسيصيرُ إلى عمل أهل السعادة ، وأما مَنْ كان منّا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. قال: أمّا أهلُ السعادة فَيُيَسَّرون لعمل السَّعادة ، وأما أَهْلُ الشقاوة فيُيَسَّرون لعمل الشقاوة. ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ ﴾](3).

وقوله: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠ ﴾.

تعليل لدخول الفريق الثاني في الشقاوة ، وتوضيح لمفهوم الكتابة في اللوح المحفوظ ، فهي كتابة علم لا كتابة جبر ، فالعبد اختار لنفسه الطريق وغداً تظهر النتائج.

قال ابن جرير: (وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يُعَذِّبُ أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4625) ، (4740) ، ومسلم (2860) ، والترمذي (1423) ، والنسائي (114/4) وأحمد (229/1). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2898) ، (4202) ، ومسلم (112) ، وأحمد (335/5) ، والبيهقي في الدلائل (252/4). من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1362) ـ كتاب الجنائز ـ واللفظ له ، وأخرجه مسلم (2647) ، وأبو داود (4694) ، والترمذي (2137) ، وابن ماجة (78) ، وأحمد (82/1) ، وغيرهم.

عناداً منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضَلَّ وهو يحسب أنه هاد ، وفريق الهدىٰ ، فرقٌ. وقد فَرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: [كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة فتقول: من يعيرني تِطْوَافاً تجعله على فرجها وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله. . فما بدا منه فلا أُحِلُّهُ. فنزلت هذه الآية: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾][1].

وأخرجه الحاكم من طريق شعبة به ، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينة الله ﴾.

قال ابن عباس: (كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة: اللباس ، وهو ما يُواري السَّوْأَة ، وما سوىٰ ذلك من جَيّد البزّ والمتاع ، فَأمِروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد). وقال: (﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، في الطعام والشراب). قال: (أحل الله الأكل والشرب ، ما لم يكن سَرَفاً أو مخيلة). والمخيلة: الاختيال والكبر.

قال بعض السلف: (جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه المعاني في اللباس والطعام والشراب ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبوداود والترمذي بسند حسن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [البسُوا من ثيابكم البياضَ ، فإنها من خير ثيابكم ، وكَفِّنوا فيها موتاكم ، وإن من خيرِ أكحالكم الإثمد ، فإنه يجلو البصر ، وينبتُ الشعر][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3028) ـ كتاب التفسير. باب في قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾. وانظر مستدرك الحاكم (ج 2) ص (319-320) ـ ولعل الآيتين نزلتا معاً لهذا السبب.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (3878) ـ باب في الأمر بالكحل ، وأخرجه الترمذي (994) ، وابن ماجة (1472) ، وأخرجه أحمد (328/1) ، والحاكم (354/1) ، وصححه ابن حبان (5423).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند جيد عن سَمُرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: [عليكم بالثياب البياض فالبسوها، فإنها أطهرُ وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: [كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرىٰ نعمته على عبده][2].

ورواه النسائي وابن ماجة بلفظ: [كلوا وتصدقوا والبَسُوا، في غير إسراف ولا مخيلة][3].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي والنسائي بسند جيد عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حَسْبُ ابن آدم أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنَفَسِه][4].

قال البخاري: (قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سَرَفٌ ومَخِيلةٌ).

الحديث الخامس: أخرج الترمذي والحاكم بسند حسن عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [من ترك اللباس تواضعاً لله، وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يُخَيَّرَ من أي حُلَلِ الإيمان شاء يلبسها][5]. وحسنه الترمذي وقال:

(ومعنىٰ قوله: «حلل الإيمان»: يعني ما يعطىٰ أهل الإيمان من حلل الجنة).

---

(1) حديث إسناده جيد. أخرجه أحمد (12/5)، (21/5)، والنسائي في «الكبرى» (9643)، وكذلك (9644)، وأخرجه الحاكم (185/4)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 181 ـ 182)، والحاكم (135/4)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(3) حديث حسن. أخرجه النسائي (79/5)، وابن ماجة (3605). وأورده الحافظ ابن كثير (3096).

(4) إسناده جيد. أخرجه الترمذي (2380)، والنسائي في «الكبرى» (6768)، وأحمد (132/4).

(5) حديث حسن. أخرجه الترمذي(79/2)، والحاكم (183/4)، وأحمد (439/3)، وأبو نعيم في «الحلية» (48/8)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (718).

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: إن الله لا يحب المتعدِّين حَدَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحلَّ الله أو حرَّم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحبّ أن يحلَّل ما أحل ويحرَّم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به).

وقوله: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾.

قال قتادة: (وهو ما حرّم أهل الجاهلية عليهم من أموالهم: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام).

وقال ابن زيد: (كانوا إذا حجُّوا أو اعتمروا، حرموا الشاة عليهم وما يخرج منها).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾، قال: إن الجاهلية كانوا يحرمون أشياءَ أحلها الله من الثياب وغيرها، وهو قول الله: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا ﴾، وهو هذا، فأنزل الله: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴾).

وقد أخرج أبو القاسم الطبراني بسنده، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: [كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراةٌ، يُصَفِّرون ويُصَفِّقُون، فأنزل الله: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾، فأمِرُوا بالثياب][(1)].

وقوله: ﴿ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾.

أي: هذه الطيبات من الطعام والشراب واللباس ستخلص للمؤمنين يوم القيامة في أشهىٰ وأجمل أحوالها، وإن شركهم بها الكفار في الدنيا مؤقتاً، ونبين هذه الحجج لقوم يفقهون.

قال ابن عباس: (يقول: شارك المسلمون الكفار في الطيبات، فأكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من خيار ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، وخلصوا بها يوم القيامة). وقال مرة أخرى: (يشارك المسلمون المشركين في الطيبات في الحياة الدنيا، ثم يُخْلصُ الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء).

---

(1) حسن لشواهده. انظر مستدرك الحاكم من طريق شعبة به (ج 2) (ص 319-320)، والصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ الأعراف (26). وتفسير ابن كثير (151/3).

وقال الضحاك: (المشركون يشاركون المؤمنين في الدنيا في اللباس والطعام والشراب، ويوم القيامة يَخْلُص اللباس والطعام والشراب للمؤمنين، وليس للمشركين في شيء من ذلك نَصيبٌ).

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾، طوافُ أهل الجاهلية عراة، ﴿وما بطن﴾، الزنا).

وقال السدي: (أما ﴿الإثم﴾ فالمعصية، و﴿البغي﴾، أن يبغيَ على الناس بغير الحق).

وقال مجاهد: (نهىٰ عن ﴿الإثم﴾، وهي المعاصي كلها، وأخبر أن الباغيَ بَغْيُهُ كائن على نفسه).

قلت: ولا شك أن لفظ الفواحش يشمل من الموبقات أكثر مما ذكره مجاهد، ومن ثمَّ فإن كل الأعمال المُفْرِطَةِ في القبح داخلة في مسمىٰ الفواحش. وكذلك فإن سرّها وعلانيتها يدخل في مفهوم قوله تعالى: ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾. ولفظ ﴿الإثم﴾ يدل على المعصية. ولفظ ﴿البغي﴾ يدل على الظلم وتجاوز الحدّ فيه. قال القرطبي: (وأخرج الإثم والبغي من الفواحش وهما منه لعظمهما وفحشهما، فنصَّ على ذكرهما تأكيداً لأمرهما وقصداً للزجر عنهما).

أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: [لا أحد أغْيَرُ من الله، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين][1]. وفي لفظ عند الإمام مسلم: [من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه][2].

وقوله: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾.

هذا أكبر الظلم، وكل الفواحش دونه في الإثم، فأعظم الظلم أن تدعو غير الله سبحانه الذي خلقك وسواك وعدلك وأغدق عليك نعمه ظاهرة وباطنة، أو تصرف

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4634)، (7403)، ومسلم (2760)، والترمذي (3530)، والنسائي في «الكبرى» (11173)، (11183)، وأحمد (381/1)، (436/1)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. هو رواية عند الإمام مسلم (2760) ح (35)، للحديث السابق.

عبادة لغيره تعالىٰ. ولذلك كان الكفر بالطواغيت من شروط ﴿لا إله إلا الله﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن والد أبي مالك الأشجعي عن النبي ﷺ قال: [من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعْبَدُ من دون الله حَرُمَ ماله ودمه. (وفي رواية: وحسابه على الله عز وجل)][(1)].

وفي لفظ: [من وَحَّدَ الله تعالى، وكفر بما يعبد من دونه، حَرُمَ ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل].

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

من الكذب في الدين، والافتراء دون علم، ونسب الولد لله، أو جعل الملائكة إناثاً، أو تحريم ما أحل الله، إلى غير ذلك من ألوان القول على الله بغير علم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي: لكل أمة مدة أو وقت لنزول العذاب بهم، أو انقضاء أمرهم ووجودهم، وتلك الأيام يداولها الله تعالى بين الناس. فإذا جاء ميقاتهم المقدر لهُم، ويومهم الموعود، فلا يتركون بعد الأجل قليلاً ولا يهلكون قبله كذلك. قال القاسمي: (والساعة مثل في غاية القلة من الزمان).

وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾.

قال القرطبي: (﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ شرط. ودخلت النون توكيداً لدخول ﴿ما﴾. وقيل: ما صلة، أي: إن يأتكم. أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب. والقصص إتباع الحديث بعضه بعضاً. ﴿آياتي﴾ أي: فرائضي وأحكامي).

وقوله: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال النسفي: (فمن اتقى الشرك وأصلح العمل منكم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وقال ابن كثير: (﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم برقم (23) ـ كتاب الإيمان ـ باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. من حديث والد أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

أي: أما من كذّب بحجج الله وآياته ورسله، وجحد الحق واستكبر عليه، فإن عذاب الجحيم ينتظره، ومصير الخزي سيفجعه، فلا أحد يمكنه التكبر على أمر الله وهدي نبيّه ﷺ دون أن ينال جزاءه من النكال والخزي والعذاب.

أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صُوَرِ الرجال، يغشاهم الذُّلُ من كل مكان، يُساقون إلى سجنٍ في جهنم يُسمىٰ بُولَسَ، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عُصَارة أهل النار طينة الخبال][1].

37 - 41. **قوله تعالى:** ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: فمن أكثر ظلماً وأجهل فعلاً وأبعد وأخطأ قولاً ممن اختلق على الله زوراً أو طعن بآياته وجحد صحتها، إن هؤلاء سيصل إليهم حظهم

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند، والترمذي في الجامع (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896).

مما كتب الله لهم في اللوح المحفوظ من الشقاوة والعذاب والوعيد ، حتى إذا جاءتهم رسلنا لقبض أرواحهم ـ ملك الموت وملائكة العذاب ـ قالت لهم الرسل: أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم ، ليدفعوا عنكم آلام النزع وما أنتم فيه من الكرب العظيم فينقذونكم؟ قالوا: تخلوا عنا وتركونا أحوج ما كنا إليهم ، وشهد القوم على أنفسهم حينئذ أنهم كانوا بالله كافرين. وقال لهم حين وردوا عليه يوم القيامة: ادخلوا ـ أيها المفترون على ربكم والمكذبون رسله ـ في جموع أمم سلفت قبلكم استحقت النار ـ من الجن والإنس ـ كلما دخلت أمة لعنت أمة أخرى من أهل ملتها ودينها ، حتى إذا تداركت الأمم في النار ـ أي: اجتمعت ـ قالت الأخرى من كل ملة لمن كانت سلفت قبلها في قيادة الضلال والكفر: ربنا هؤلاء أضلونا عن هديك وسبيلك فأوردهم اليوم عذاب الضعف بما شرعوا وسنوا لنا ، فقال الله مجيبهم: لكلكم ضعف ومكرّر من العذاب ولكنكم لا تعلمون حقيقة ما أعدّ الله لكم من الهوان والعذاب. وقالت أولاهم التي سنت الكفر ومنهاج الضلالة لأخراهم التي مضت على ذلك السبيل: فما كان لكم علينا من فضل ، فقد ضللتم كما ضللنا ، ومن ثم فقد نالكم ما نالنا من النكال والهوان ، وقال الله لجميعهم: فذوقوا جميعكم أيها الكفرة عذاب جهنم بما كنتم تكسبون من الذنوب والمعاصي والآثام. إن الذين كذبوا بآياتنا وحججنا واستكبروا عن عبادتنا لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا خرجت من أجسادهم ـ كما هو شأن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء حتى يستقبلهم ربهم ـ ثم لا يدخل هؤلاء ـ أهل التكذيب ـ الجنة أبداً ، كما لا يلج الجمل في ثقب الإبرة أبداً ـ وهذا جزاء المجرمين المشركين. يمهد لكم من فرش النار مضاجع وبسطاً ومقاعد ، ويظلهم لهب الجحيم من فوقهم ، وهذه هي منازل الظالمين في الآخرة.

فقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فمن أخطأ فعلاً ، وأجهلُ قولاً ، وأبعد ذهاباً عن الحق والصواب ، ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ، يقول: ممن اختلق على الله زُوراً من القول ، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها ، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾ ، يقول: أو كذب بأدلته وأعلامه الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه ، فجحد حقيقتها ودافع صحتها).

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال السدي: (ما كتب لهم من العذاب). وقال الحسن: (﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، قال: من العذاب).

2 ـ وقال سعيد: (من الشِّقوة والسعادة). وقال مجاهد: (كشقي وسعيد).

وقال أيضاً: (ما كتب لهم من الشقاوة والسعادة). وقال: (ما قد سبق من الكتاب). وقال: (قوم يعملون أعمالاً لا بُدَّ لهم من أن يعملوها).

3 ـ وقال ابن عباس: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يقول: نصيبهم من الأعمال، من عمل خيراً جُزِيَ به، ومن عمل شراً جزي به). وقال مجاهد: (من أحكام الكتاب، على قدر أعمالهم). وقال قتادة: (ينالهم نصيبهم في الآخرة من أعمالهم التي عملوا وأسلفوا).

4 ـ وقال الضحاك: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: ما وُعِدوا فيه من خير أو شر).

5 ـ وقال ابن عباس: (ينالهم ما كتب عليهم. يقول: قد كتب لمن يفتري على الله أن وجهه مسوَدٌّ).

6 ـ وقال الربيع بن أنس: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، مما كتب لهم من الرزق).

وقال القرظي: (عمله ورزقه وعمره). وقال ابن زيد: (من الأعمال والأرزاق والأعمار، فإذا فني هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم، وقد فرغوا من هذه الأشياء كلها).

قلت: وبالجمع بين هذه الأقوال يكون المعنى: أولئك ينالهم نصيبهم مما مضىٰ وسبق في علم الله وكتبه في اللوح المحفوظ من سيرهم على منهاج أهل الشقاوة، واستمتاعهم بما قسم لهم من الأرزاق والأيام بشهواتهم التي أطلقوها في الغي والضلال، ثم في الآخرة ينزل بهم نصيبهم من العذاب والنكال.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: إن لحظات الغرغرة وصعود الروح هي بداية نزول العذاب المكتوب عليهم بعد فوات الحياة الدنيا وضياع العمر في الكبر والضلال. فإذا ما نزلت ملائكة العذاب وتبعهم ملك الموت لقبض الروح أيقنوا ـ حين سألوهم أين ما كنتم تعبدون وتدعون من دون الله لينقذوكم من ورطتكم هذه وأليم ما أنتم قادمون عليه ـ أنهم كانوا كافرين وقد فات العمر ومضىٰ.

وقوله: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾.

يقول جل ذكره: ادخلوا مع أمم أمثالكم قد سلفت قبلكم من الجن والإنس هي اليوم في النار، فأنتم اليوم تشركونها في المصير كما شركتموها في السبيل، كلما دخلت النار جماعة شتمت من سبقها ومن سنَّ ذلك الضلال من أهل ملتها.

قال السدي: (﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾، يقول: كلما دخل أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك الدين، يلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارىٰ، والصابئون الصابئين، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: 166 ـ 167].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [العنكبوت: 25].

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾.

أي: اجتمع فيها أهل الملة الواحدة من ملل الكفر ـ أولهم وآخرهم.

وقوله: ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾.

قال السدي: (﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ ﴾، الذين كانوا في آخر الزمان، ﴿لأولاهم﴾، الذين شرعوا لهم ذلك الدين، ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾).

وقال مجاهد: (﴿ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾، مُضَعَّف). وقال السدي: (﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾، للأولىٰ، وللآخرة ضعف).

وقوله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: قدْر ما أعدّ الله لكم من الهوان والنكال والعذاب.

وقوله: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

قال السدي: (فقد ضللتم كما ضللنا).

وقال أبو مجلز: (يقول: فما فضْلكم علينا، وقد بين لكم ما صنع بنا، وحُذِّرتم).

وقال مجاهد: (﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، قال: من التخفيف من العذاب).

قلت: فيُحمل قول مجاهد على قول السدي وأبي مجلز ويُجْمَعُ بين القولين: بأن أولاهم قد صرحت لأخراهم ـ أثناء المحاورة بين أهل الأحزاب والملل الكافرة في النار ـ بأنه لم يكن لكم أي سبق أو فضل علينا وقد أشركتمونا في سبيل الضلال، ومضيتم عليه كما مضينا، وقد كان يسعكم أن تعتبروا بما نالنا وتستأنفوا حياة جديدة في طاعة الله وحده لا شريك له، وفي ركل منهاج الآباء في الشرك والضلال، أمَا ولم تفعلوا، فأنتم ونحن في مصير واحد، ولِمَ يُخَفَّفُ عنكم من العذاب!. ولذلك أجاب الله الفريقين بقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

في مفهوم الآية أقوال:

1 ـ قال ابن عباس: (عُني بها الكفار، أنّ السماء لا تفتح لأرواحهم، وتفتح لأرواح المؤمنين).

2 ـ وقال ابن جريج: (لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم).

3 ـ وقال مجاهد: (لا يصعد لهم كلام ولا عمل). والأول أرجح.

فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: [خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حَنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان.

قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخَذَها لم يَدَعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحَنُوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجِدَت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عِلّيين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحُه: فيأتيه مَلَكان فيجلسانه فيقولان له: من ربُّك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتابَ الله فآمنتُ به وصدَّقتُ. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مَدّ بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك ، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر ، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مَدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتُفَرق في جسده ، فينتزعها كما يُنْتَزَعُ السَّفُودُ[1] من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمىٰ بها في الدنيا ، حتى يُنْتَهىٰ به إلى السماء الدنيا ، فَيُسْتَفْتَحُ له ، فلا يُفْتَحُ. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ ، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض

(1) السفود: السِّيخ ، حديدة يشوىٰ بها.

السفلىٰ. فتُطرَحُ روحُه طَرْحاً ، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ . فتُعاد روحُه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري. فينادي منادٍ من السماء: أن كذب ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها ، ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعُه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، مُنْتِنُ الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك. هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث ، فيقول: رب لا تُقِم الساعة][1].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ .

قال الحسن البصري: (حتى يدخل البعير في خُرْق الإبرة). وهذه قراءة الجمهور ، وهناك قراءة: «الجُمَّلُ» ـ يعني الحبل الغليظ في خُرم الإبرة ، والقراءة الأولى أشهر وهي قراءة قراء الأمصار.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: وكذلك نثيب الذين أجرموا في الدنيا ما استحقوا به من الله العذاب الأليم في الآخرة).

وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ .

قال الضحاك: (المهاد: الفرش ، والغواشي: اللُّحُف). وقال السدي: (أما ﴿المهاد﴾ كهيئة الفراش ، و﴿الغواشي﴾ ، تتغشاهم من فوقهم). أي: فرشهم من النار ، وأغطيتهم من النار ، والعياذ بالله من حال أهل النار.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

أي: كذلك نثيبهم في مستقرهم لقاء تكذيبهم الرسل وجحود الحق.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد(4/287-288) ، (4/295-296) ، وأخرجه أبو داود في السنن (4753) ، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (20-27) ، وصححه الحاكم (1/37-40) ووافقه الذهبي. وأقره الألباني. انظر «أحكام الجنائز» ص (157) لرواياته المفصلة المختلفة.

42 - 43. **قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: والذين أقاموا منهج الإيمان والعمل الصالح ـ ولا نكلف نفساً من الأعمال إلا ما يسعها ـ أولئك هم أهل الخلود في جنات النعيم. وقد أذهبنا من صدورهم يومئذ كل ما اعتراها من حقد أو عداوة أو حظ نفس، فهم اليوم تغمرهم الأخوة والمحبة على سرر متقابلين تجري من تحتهم الأنهار، وقد حمدوا الله سبحانه على ما وفقهم له من الكرامة والفضل الذي ما كانوا ليهتدوا له لولا فضل الله عليهم ومنّه وكرمه، وأقروا بمجيء الرسل للناس بالحق فآمن المؤمنون وكذب الكافرون، وناداهم مناد يومئذ: هذه الجنة التي أورثكموها ربكم بإيمانكم وطاعتكم وإحسانكم.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قال القرطبي: (﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ كلام معترض. أي: والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

قال ابن جرير: (﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾، يقول: لا نكلف نفساً من الأعمال إلا ما يسعها فلا تحرج فيه).

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

إخبار بتصفية ما في نفوسهم، والأنهار تجري من تحتهم.

قال الضحاك: (﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، قال: العداوة). وقال قتادة: (هي الإِحَن).

قال القاسمي: (أي: نخرج من قلوبهم أسباب الحقد والحسد والعداوة، أو نطهّرها

منها ، حتى لا يكون بينهم إلا التوادّ والتعاطف. وصيغة الماضي للإيذان بتحققه وتقرّره).

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: [إذا خَلَصَ المؤمنون من النار حُبِسوا بِقَنْطَرَةٍ بين الجنة والنار ، فيتقاصُّون مظالمَ كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نُقُّوا وَهُذِّبوا أُذِنَ لهم بدخول الجنة ، فوالذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده ، لأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ في الجنة أدَلُّ بمنزله كان في الدنيا][1].

وقوله: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾.

أخرج الإمام أحمد والنسائي والحاكم ـ بسند حسن ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كلُّ أهل الجنة يرىٰ مَقْعَدَه من النار ، فيقول: لولا أنّ الله هداني ، فيكون له شُكرٌ ، وكُلُّ أهل النار يرىٰ مقعَدَه من الجنةِ ، فيقول: لو أنَّ الله هداني ، فيكونُ عليه حسرة][2].

وقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾.

قال النسفي: (﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ فكان لطفاً لنا وتنبيهاً على الاهتداء فأهدينا ، يقولون ذلك سروراً بما نالوا وإظهاراً لما اعتقدوا).

وقوله: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

قال القرطبي: (أي: قيل لهم: ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ ﴾ لأنهم وعدوا بها في الدنيا ، أي: قيل لهم: هذه تلكم الجنة التي وعدتم بها ، أو يقال لهم ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بعد. قال: ومعنى ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله. كما قال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: 70]. وقال: ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ [النساء: 175]).

قال ابن كثير: (أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منزلكم بحسب أعمالكم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2440) ـ كتاب المظالم. باب قِصاص المظالم ، وأخرجه الحاكم (354/2) ، وأبو يعلى (1186) ، وابن حبان (7434) ، والبغوي في «التفسير» (921).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (512/2) ، والحاكم (435/2) ، والنسائي في «الكبرى» (11454).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا كان يومُ القيامة، دَفَعَ الله عزَّ وجلَّ إلى كُلِّ مُسْلِمٍ، يَهودياً أو نصرانِيّاً، فيقول: هذا فِكاكُكَ من النار][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة في السنن بسند صحيح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْكُم مِنْ أحَـدٍ إلا له مَنْزِلان: مَنْـزِلٌ في الجنة، ومَنْـزِلٌ في النار. فإذا مات، فَدَخَلَ النارَ، وَرِثَ أهل الجنة مَنْزِلَه. فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لن يُنَجِّيَ أحداً منكم عَمَلُهُ. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمَّدَني الله برَحْمَةٍ. سَدِّدُوا وقاربوا، واغْدوا وروحوا، وشيئاً من الدُّلْجَةِ، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلغُوا]. هذا لفظ البخاري، وفي لفظ مسلم: [لن يُدْخِلَ أحداً منكم عَمَلُهُ الجنة. قالوا: ولا أنت؟ يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بِفَضْلٍ ورحْمة][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً. وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً. وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً. وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبداً. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾][4].

44 - 45. قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2767) ـ كتاب التوبة. وأخرجه ابن حبان (630)، والطيالسي (499). من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4341) ـ باب صفة الجنة ـ وهو آخر حديث صحيح في سننه. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3503)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (265/1).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6463)، ومسلم (2816)، وأحمد (386/2)، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2140) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأعراف، آية (43).

حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45)﴾ .

في هذه الآيات: يخبر الله تعالى أن أهل الجنة ينادون أهل النار بعد دخولهموها: يا أهل النار إنا وجدنا صدق ما وُعدنا به في الدنيا في التنزيل وعلى لسان الرسل، من جزيل الثواب على الإيمان بالله والتصديق برسله واتباعهم، فهل وجدتم أنتم ما وعد ربكم على ألسنة رسله على الكفر والمعصية من العقاب وأليم العذاب؟ فأجابهم أهل النار: بأنْ نعم، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فنادىٰ مناد بينهم أن غضب الله وسخطه وعقوبته على من كفر به، وصد عن سبيله، وحاول تحريف استقامة شرعه وتشويه معالم الحق والدين الحنيف، ثم هم لقيام الساعة والبعث والحشر والثواب والعقاب فيها جاحدون.

فعن السدي: (﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾، قال: وجد أهل الجنة ما وُعدوا من ثواب، وأهلُ النار ما وُعِدوا من عقاب).

و«أنْ» في الآية للتفسير، فهي مفسّرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، والتقدير: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. والخطاب على وجه التقريع والتوبيخ، وهو أحد أشكال شفاء الله صدور المؤمنين في الآخرة، مما لاقوه من إجرام الطغاة في الدنيا.

وقد وَرَدَ نحو هذا اللفظ في كلام النبي ﷺ لأهل بدر من قتلىٰ المشركين، الذين آذوه بمكة والمؤمنين، وبسطوا ألسنتهم وأيديهم بالسوء أيام الكبر والغرور بمكة.

ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك: [أنّ رسول الله ﷺ تَرَكَ قَتْلَىٰ بَدْرٍ ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: يا أبا جَهْلِ بنَ هشام! يا أميَّة بنَ خَلَف! يا عتبة بن ربيعة! يا شَيْبَة بنَ ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعَدَكم ربُّكم حَقّاً؟ فإني قد وجدت ما وعَدَني ربي حقاً. فسمع عُمَرُ قولَ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! كيفَ يَسْمَعوا وأنّى يُجيبوا وَقَدْ جَيَّفُوا؟ قال: والذي نفسي بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم

لا يقدرون أن يُجيبوا. ثم أُمِرَ بهم فَسُحِبوا ، فَأُلْقُوا في قليب بَدْر][1] .

قال قتادة: (أحياهم الله حتى أسمعهم قوله ، توبيخاً وتصغيراً ونِقْمَةً وحسرة وندماً)[2] .

وبنحو هذا الحوار بين أهل الجنة وأهل النار ، ذكر الله تعالى أخباراً أخرىٰ مشابهة تكون بعد دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى في سورة الصافات ـ عن الرجل الذي كان له قرينٌ من الكفار ـ: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ ﴾ . ينكر عليه مقالته التي كان عليها ، ويقرعه على المصير الذي آل إليه ونجاه الله منه.

2 ـ وقال تعالى في سورة الطور ـ عن تقريع الملائكة الكفار ـ: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ .

وقوله: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: فنادىٰ مناد ، وأعلم مُعْلِمٌ بينهم ، ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، يقول: غضب الله وسخطه وعقوبته على من كفر به).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ .

هو وصف لحال أولئك الظالمين.

قال ابن كثير: (أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله ورسوله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة ، حتى لا يتبعها أحد. ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ ، أي: وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون ، أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكرٍ من القول والعمل ، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2874) ـ كتاب الجنة ونعيمها. وأخرجه ابن حبان (6498).

(2) رواه البخاري. انظر صحيح البخاري (3976) ـ كتاب المغازي. وكتابي: السيرة النبوية (595/1-596) لمزيد من التفصيل في شأن قتلى المشركين يوم بدر.

46 - 49. **قوله تعالى:** ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ عن سور أو حاجز بين الجنة والنار وهو الأعراف، يقف عليه يوم الحساب رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم أو خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهم يعرفون رجالاً مشهورين من أهل النار، ومن أهل الجنة، فإذا رأوا أهل الجنة نادوهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وهم محبوسون بأعمالهم المختلفة، ويطمعون بدخول الجنة. وإذا ذهبت أبصارهم نحو أصحاب النار استعاذوا بالله من اشتراكهم في ذلك المصير. ثم نادى أصحاب الأعراف رجالاً طغاة استقروا في النار وعرفوهم بسيماهم فقالوا: ما الذي نفعكم مما كنتم عليه في الدنيا من الطغيان والجند والأبهة والعظمة المصطنعة والكبر؟ أهؤلاء ـ أهل الإيمان الذين كانوا غرباء مستضعفين في الدنيا ـ الذين زعمتم أنهم مطرودون من رحمة الله؟ فإذا هم اليوم ينعمون في جنات النعيم، وأنتم أهل الملك والرياسة والحكم والطغيان تشقون اليوم في دركات الجحيم. فلما سمع الله هذا الحوار امتن على أصحاب الأعراف برحمته فقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

فقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾.

قال السدي: (وهو السور، وهو الأعراف).

وقوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾.

قال مجاهد: (الأعراف: حجاب بين الجنة والنار).

وفي التنزيل: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13].

والأعراف لغة: جمع عُرْف. وهو كل مرتفع من الأرض، وإنما قيل لعُرْفِ الديك «عرف» لارتفاعه على ما سواه من جسده. وبنحوه قال أهل التفسير:

1 ـ فعن ابن عباس: (يقول: «الأعراف»، هو الشيء المشرف). وقال: (سور كعرف الديك).

2 ـ وعن مجاهد: (الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب).

3 ـ وعن عبيد الله بن أبي يزيد: أنه سمع ابن عباس يقول: (إن الأعراف تَلٌّ بين الجنة والنار، حُبِسَ عليه ناسٌ من أهل الذنوب بين الجنة والنار).

وكان السدي يقول: (إنما سمي «الأعراف» أعرافاً، لأن أصحابه يعرفون الناس). والتأويل الأول أشهر عند المفسرين، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وفي تحديد أهل الأعراف أقوال عند المفسرين:

1 ـ **القول الأول**: هم قوم من بني آدم، استوت حسناتهم وسيئاتهم، فجعلوا هنالك إلى أن يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته إياهم.

فعن الشعبي، عن حذيفة: أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: (هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلّفت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوُقِفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم) ـ ذكره بسنده ابن جرير.

وفي رواية: (أصحاب الأعراف، قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار، وهم آخر من يدخل الجنة، قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار).

وفي رواية أخرى: قال حذيفة: (أصحاب الأعراف، قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فهم على سور بين الجنة والنار: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾).

2 ـ **القول الثاني**: هم قوم كانوا قتلوا في سبيل الله عصاة لآبائهم في الدنيا. فعن شرحبيل بن سعد قال: (هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم).

3 ـ **القول الثالث**: قيل: بل هم قوم صالحون فقهاء علماء.

فعن مجاهد قال: (أصحاب الأعراف، قوم صالحون فقهاء علماء).

4 ـ **القول الرابع**: قيل: بل هم ملائكة، وليسوا ببني آدم.

فعن أبي مجلز قال: (أصحاب الأعراف، الملائكة).

قلت: أما القول الرابع فمرفوض، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. ولو كان المراد الملائكة لصُرّح بذلك. والقول الثالث والثاني تخالفه السنة الصحيحة، ويبقىٰ القول الأول هو المشهور عند المفسرين.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾.

قال ابن عباس: (يعرفون أهل النار بسواد الوجوه، وأهل الجنة ببياض الوجوه). وقال مجاهد: (الكفار بسواد الوجوه وزرقة العيون، وسيما أهل الجنة مبيَضَّة وجوههم).

وقوله: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

قال ابن عباس: (وإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم: ﴿أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، قال الله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

وقال الحسن: (والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم).

وقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

قال ابن عباس: (إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قال ابن جرير: (﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾، من أهل الأرض، ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾، سيما أهل النار، ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾، ما كنتم تجمعون من الأموال والعَدَد في الدنيا، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، يقول: وتكبُّركم الذي كنتم تتكبرون فيها).

وقوله: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

قال القرطبي: (﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ﴾ إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء، كبِلال

وسَلْمان وخبّاب وغيرهم. ﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ في الدنيا. ﴿ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ ﴾ في الآخرة. ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ يوبخونهم بذلك).

وقوله: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (إن الله أدخل أصحاب الأعراف الجنة لقوله: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾).

وقيل غير ذلك، والراجح ما ذكرت، وهو متناسب مع السياق، والله تعالى أعلم.

50 - 51. **قوله تعالى:** ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر الله جلت عظمته عن استغاثة أهل النار بأهل الجنة عند اشتداد الألم والعطش والجوع بهم من هول ما نزل بهم مقابل شركهم بالله وكفرهم بدينه وتحكيم شهواتهم وأهوائهم، ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا ﴾ شيئاً من الطعام والشراب مما رزقكم الله، فأجابهم المؤمنون: إن الله قد حرّم ذلك على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً واستهزؤوا وسخروا بالإيمان وأهل الإيمان، وعاشوا في غرور تلك الحياة الدنيا الفانية، يقول الله: فاليوم نتركهم في العذاب كما تركوا الدين الحق وأنكروا يومهم هذا وكانوا بآياتنا كافرين.

قال ابن زيد: (﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾، قال: يستطعمونهم ويستسقونهم).

وقال السدي: (﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾: من الطعام).

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا أبي، عن سفيان، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾، قال: ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول: قد احترقت، أفض

علي من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم! فيقولون: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾).
قال ابن زيد: (طعام أهل الجنة وشرابُها).

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا واستهزؤوا، وخدعهم عاجل ما هم فيه من العيش والرخاء وتداعي الحياة الدنيا عليهم بزينتها.

قال ابن عباس: (﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾، الآية، قال: وذلك أنهم كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان سخِروا ممن دعاهم إليه وهزئوا به، اغتراراً بالله).

وقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ ﴾.

قال مجاهد: (نسوا في العذاب). وقال: (نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا). وقال أيضاً: (نتركهم في النار).

وقوله: ﴿ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾.

قال ابن عباس: (نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا). وقال: (نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر). وقال مجاهد: (نؤخرهم في النار).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: [قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تُضَارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة، لَيْسَتْ في سَحَابة؟ قالوا: لا، قال: فهل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلةَ البَدْر، ليس في سحابة؟ قالوا: لا، قال: فوالذي نفسي بيده! لا تضارُّون في رؤية ربكم إلا كما تُضارُّون في رؤية أحدهما. قال: فَيَلْقَىٰ العَبْدَ فيقول: أي فُلْ[1]! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لكَ الخَيْلَ والإبلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلىٰ، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أنك مُلَاقِيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أَنْسَاكَ كما نسيتني[2]، ثم يَلْقَى الثاني فيقول: أيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لك الخَيْلَ والإِبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلىٰ، يا رب! فيقول: أَفَظَنَنْتَ أنك ملاقِيَّ؟ قال: فيقول: لا، فيقول: إني أَنْسَاكَ كما نسيتني، ثم يلقىٰ الثالثَ فيقول له مِثْلَ ذلكَ، فيقولُ: يا رب! آمَنْتُ بِكَ

(1) معناه يا فلان، وهو ترخيم على خلاف القياس. وقيل: هي لغة بمعنىٰ فلان حكاها القاضي.
(2) وفي رواية أخرى. «فاليوم أنساك كما نسيتني».

وبكتابِكَ وبِرُسُلِكَ وصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ ، ويُثْني بِخَيْر ما استطاع ، فيقول: هاهنا إذن. قال: ثمُ يقال له: الآن نَبْعَثُ شاهِدَنا عليكَ ، وَيَتَفَكَّرُ في نفسه: مَنْ ذا الذي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ على فيه ، وَيُقال لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وعِظامه: انطِقي ، فتنطِقُ فَخِذُهُ ولَحْمُهُ وعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ ، وذلك لِيُعْذِرَ من نفسه. وذلك المنافق ، وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه][1] .

وقوله: ﴿ وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

أي: يكذبون وينكرون ولا يصدقون.

52 - 53. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: ولقد جئنا هؤلاء الكفار ـ يا محمد ـ بالقرآن أنزلناه إليك مفصلاً على علم منا بحقٍّ فصلناه فيه لنميز به الباطل ، ليكون هداية ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينتظر هؤلاء المشركون ما يؤول إليه أمرهم من ورودهم العذاب ، فإنه يوم يجيء ما يؤول إليه أمرهم من عقاب الله يقول الذين فرطوا وضيعوا من قبل ذلك في الدنيا ، لقد أتتنا رسل الله بالرسالة والنذارة ، فهل لنا من أصدقاء وأولياء ليشفعوا لنا اليوم للنجاة من أهوال ما نرىٰ من العذاب ، أو نرد إلى الدنيا لنصلح العمل والمنهج ونعبد الله لا نشرك به شيئاً ، لقد أفلسوا اليوم وخسروا الصفقة ، وَأُهينت أنفسهم بالعذاب ، وحاد عنهم أولياؤهم الذين كانوا يزعمون افتراء أنهم أربابهم من دون الله.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

يعني القرآن بيناه ليعرفه من تدبره ، فهو كتاب مفصَّل مبين. فيه بيان لكل ما يتعلق بالإنسان والكون والحياة ، وفيه خبر قصة الخلود في الآخرة ـ فريق في الجنة وفريق في

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2968) ـ كتاب الزهد. وأحمد (492/2) ، وابن حبان (7446).

السعير. ليكون بمنهاجه المتكامل إعذاراً من الله تعالى إلى الناس بالكتاب والرسل. وقيل: ﴿فصلناه﴾ أنزلناه متفرقاً. والأول أرجح ويشمل الثاني.

كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

وقوله: ﴿على علم﴾.

أي: على علم منا بما فصلناه به. كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ . . .﴾ [النساء: 166]. فهو كتاب محكم التفصيل لم يقع فيه سهو ولا لغط.

وقوله: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال الزجاج: (أي: هادياً وذا رحمة). قال القرطبي: (فجعله حالاً من الهاء التي في ﴿فصلناه﴾). ثم قال: (﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، خُصَّ المؤمنون لأنهم المنتفعون به).

وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾.

أي: هل ينتظرون إلا تحقق وعده ووعيده، ونزول العقاب وفتح الحساب. ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ ـ أي: يوم يجيء مايؤول إليه حالهم من حلول النقمة والعذاب. ومن أقوال المفسرين:

1 ـ قال مجاهد: (﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، قال: جزاءه، ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾، قال: جزاؤه).

2 ـ وقال قتادة: (﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، أي: ثوابه، ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾، أي: ثوابه). أو قال: (عاقبته).

3 ـ وقال السدي: (أما ﴿تأويله﴾، فعواقبه، مثل وقعة بدر، والقيامة، وما وعد فيها من موعد).

4 ـ وقال الربيع بن أنس: (فلا يزال يقع من تأويله أمرٌ بعد أمر، حتى يتم تأويله يوم القيامة).

وقوله: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾.

فعن مجاهد: (﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾، قال: أعرضوا عنه). وقال السدي: (أما

﴿ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ ، فتركوه ، فلما رأوا ما وعدهم أنبياؤهم ، استيقنوا فقالوا: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾).

وقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

استفهام فيه معنى التمني. ﴿فيشفعوا﴾ نصب لأنه جواب الاستفهام ـ ذكره القرطبي.

قال ابن جرير: (قال هذا القول المساكين هنالك ، لأنهم كانوا عهدوا في الدنيا أنفسهم لها شفعاء تشفع لهم في حاجاتهم ، فيذكروا ذلك في وقت لا خُلة فيه لهم ولا شفاعة).

وأما تمنيهم الرجعة إلى الدنيا لاستئناف العمل الصالح وما يرضي الله فقد كذبهم الله في نياتهم في موضع من القرآن ، وأكد قضاءه بعدم الرجوع بعدما حصل الإعذار في موضع آخر:

1 ـ قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

2 ـ وقال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

قال القاسمي رحمه الله: (﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ، بصرف أعمالهم في الكفر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يفترون من أن معبوديهم شفعاؤهم عند الله ، وعلموا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين).

54 - 58. قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا

وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يقول جلت عظمته: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن في ستة أيام ثم علا على العرش، يتابع على عباده ويعاقب بين الليل والنهار، يطلب كل واحد منهما الآخر على إثره سريعاً، والشمس والقمر والنجوم تحت تسخيره وتصريفه، وهي مقهورة بأمره، ألا له الخلق والتصرف، فتعالىٰ الله رب العالمين. ادعوا ربكم أيها الناس تذللاً واستكانة لطاعته سراً لا جهاراً إنه ـ تعالى ـ لا يحب الاعتداء في الدعاء بصياح أو نداء. واحذروا الفساد في الأرض وإلحاق الضرر بعد إصلاحها، وتوجهوا بكل أموركم إلى ربكم خوفاً منه وطمعاً في رحمته وجنته، وَرَحمتُهُ سبحانه مرصدة للمحسنين. والله سبحانه هو الذي يرسل الرياح مبشرات بين يدي المطر، حتىٰ إذا حملت الرياح سحاباً ـ ثقيلةً قريبة من الأرض لكثرة ما فيها من الماء ـ ساقه الله لأرض مجدبة فأحيا بها النبات وأخرجه، وكذلك يخرج سبحانه الأجساد من قبورها يوم القيامة ـ لعلكم تتفكرون. إن الأرض السبخة لا يخرج نباتها إلا نكداً ـ قليلاً لا ينفع ـ وأما الأرض الطيبة فتعطي ألوان الثمار والنبات والأزهار المختلفة، وكذلك القلوب: فالقلب المؤمن انتفع بالقرآن فأصدر أشعة الإيمان والإحسان، والقلب الكافر لم ينتفع بالقرآن فخبث وأصدر أشعة المكر والسوء والإجرام. وهذه المواعظ لا ينتفع بها إلا القوم الشاكرون.

فقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن أبي هريرة قال: [أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبَثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخرِ

الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل][1] .

قال الحافظ ابن كثير في صفة هذه الأيام : (فالجمهور على أنها كأيامنا هذه) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ .

أي : علا واستعلىٰ فله العلو والفوقية .

والاستواء في كلام العرب هو العلو والاستقرار . والعرش : أعظم مخلوقات الله عز وجل . قال ابن جرير : (﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ . . ﴾ [فصلت : 11] : ثم ارتفع إلى السماء) . أي : بلا تكييف ولا تمثيل . وأدلة العلو في القرآن كثيرة ، منها :

1 ـ قال سبحانه في سورة يونس : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ . قال مجاهد : (استوىٰ : علا) .

2 ـ قال تعالىٰ في سورة طه : ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ .

3 ـ قال جل ذكره في سورة فصلت : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ .

4 ـ وقال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ . . ﴾ .

5 ـ وقال في سورة النحل : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ .

6 ـ وقال في سورة السجدة : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

7 ـ وقال في سورة فاطر : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ .

8 ـ وقال في سورة الملك : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2789) ـ كتاب صفات المنافقين ، باب ابتداء الخلق ، وخلق آدم عليه السلام . والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 275-276) ، ورواه أبو يعلى في مسنده (288/1) ، وأخرجه أحمد في المسند (327/2) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1833) لرد شبه من تكلم فيه وحاول إعلاله . وأنه يكفي في صحته أن ابن معين رواه ولم يُعله بشيء .

﴿أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ .

9 ـ وقال في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ .

10 ـ وقال في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كاذبا . . .﴾ .

قلت: ومن ثمَّ فمن شك أن الله في السماء اليوم ، فقد تشبه بطريقة فرعون .

قال ابن جرير ـ شيخ المفسرين ـ رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي: وإني لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعي من أن له في السماء رباً أرسله إلينا) .

وقال الإمام الجويني ـ أبو محمد والد إمام الحرمين ـ: (وهذا يدل على أن موسىٰ أخبره بأن ربه تعالى فوق السماء ، ولهذا قال: وإني لأظنه كاذباً)(1) .

وقال الإمام مالك رحمه الله: (الاستواء معلوم ـ يعني في اللغة ، والكَيْفُ مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة) .

قال ابن كثير: (وإنما يُسلك في هذا المقام مذهبُ السلف الصالح: مالك ، والأوزاعي ، والثوري ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، بل الأمر كما قال الأئمة ـ منهم نُعيم بن حَمَّاد الخزاعي شيخُ البخاري ـ: من شَبَّهَ الله بخلقه فقد كفر ، ومن جَحَدَ ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسولُه تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وَرَدَتْ به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ، ونَفَىٰ عن الله تعالىٰ النقائص ، فقد سَلَك سبيل الهدىٰ) .

قلت: وفي السنة الصحيحة إثبات علو الله على عرشه في أحاديث كثيرة ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أنس: أن زينب بنت جحش كانت تفخر على

(1) انظر مختصر العلو ص (80). وكتابي: أصل الدين والإيمان (173/1-205) لتفصيل البحث.

أزواج النبي ﷺ تقول: [زَوَّجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات].

وفي لفظ: [إن الله أنكحني في السماء].

وفي لفظ: [زوجنيك الرحمن من فوق عرشه][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند جيد من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ ـ في حديث الشفاعة ـ: [فنأتي باب الجنة فآخذ بحلقة الباب فأقرع الباب ، فيقال: من أنت؟ فأقول: أنا محمد ، فيفتح لي فآتي ربي عز وجل على كرسيه أو سريره فأخر له ساجداً ، فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي][2].

وبنحوه في الصحيح للبخاري من حديث أنس ، وفي غير الصحيح بلفظ: [فأدخل على ربي وهو على عرشه تبارك وتعالى].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لما خلق الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو مرفوع فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي][3]. ولأصله شواهد في الصحيحين.

وفي رواية: (فهو عنده فوق العرش).

قلت: لقد أثبت الله سبحانه لنفسه الاستواء على العرش ، وهو استواء يليق بجلاله وكماله ، وهو سبحانه غير محتاج إلى العرش ولا إلى الكرسي ، وإنما ذكر العرش في القرآن وهو أعظم مخلوقاته ، وكذلك جاء في السنة الصحيحة.

أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][4].

شبه ورد:

1 ـ بطلان تأويل «استوى» بـ(استولىٰ):

---

(1) حديث صحيح. ذكره البخاري في «التوحيد» ، والترمذي (210/2) ، وأحمد (226/3) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. انظر مسند الإمام أحمد (281/1-282) ، ومختصر «العلو» للذهبي ـ ص (88).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (271/2) ، وأخرجه أحمد (433/2) ، وابن ماجة (4295).

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (114/1) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (290). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (109).

قال الإمام عبد العزيز بن يحيىٰ الكنانيّ ، صاحب الشافعي رحمهما الله تعالى ، في كتاب «الرد على الجهمية»: (زعمت الجهمية أن معنىٰ استوى «استولىٰ» من قول العرب: استوىٰ فلان على مصر ، يريدون استولىٰ عليها. قال: فيقال له: هل يكون خلقٌ من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه؟ فإذا قال لا ، قيل له: فمن زعم ذلك فهو كافر ، فيقال له: يلزمك أن تقول: إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل السماوات والأرض ، ثم استولىٰ عليه بعد خلقهن ، فيلزمك أن تقول: المدة التي كان العرش قبل خلق السماوات والأرض ليس الله بمستولٍ عليه فيها).

2 ـ بطلان دعوى الجهمية ـ الله في كل مكان ـ:

قال الإمام أحمد ـ في كتابه الرد على الجهمية ـ: (وقلنا للجهمية: زعمتم أن الله في كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، فقلنا لهم: أخبرونا عن قولِ الله جل ثناؤه: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا . . . ﴾ [الأعراف: 143]. لِمَ تَجَلّى ، إذا كان فيه بزعمكم؟ ولو كان فيه ، كما تزعمون ، لم يكن يتجلىٰ لشيء. لكن الله تعالى على العرش ، وتجلى لشيء لم يكن فيه ، ورأىٰ الجبل شيئاً لم يكن يراه قط قبل ذلك.

وقلنا للجهمية: الله نور؟ فقالوا: نور كله. فقلنا: قال الله عز وجل: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا. . . ﴾ [الزمر: 69]. فقد أخبر جل ثناؤه أن له نوراً ، قلنا: أخبرونا ، حين زعمتم أن الله في كل مكان ، وهو نور ، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذي هو فيه إذا زعمتم أن الله في كل مكان؟ وما بال السراج إذا أدخل البيت المظلم يضيء؟ فعند ذلك تبين كذبهم على الله. فرحم الله من عقل عن الله ، ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء ، وهو قول المهاجرين والأنصار ، وتَرَك دين الشيطان ، ودين جهم وشيعته).

3 ـ مفهوم قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ. . . ﴾ [الأنعام: 3]. أي: إلٰه من في السماوات ، وإلٰه من في الأرض.

قال الإمام أحمد ـ في الرد على الجهمية ـ: (ومما أنكرت الجهمية الضُّلال أن يكون الله سبحانه على العرش ، فقلنا: لِمَ أنكرتم ذلك؟ إن الله سبحانه على العرش ، وقد قال سبحانه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: 5]. وقال: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: 59]. قالوا: هو تحت الأرضين السابعة كما هو على

العرش ، فهو على العرش ، وفي السماوات ، وفي الأرض ، وفي كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان. وتلوا آيات من القرآن ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾. فقلنا: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ، وليس فيها من عظمة الله شيء ، فقالوا: أي مكان؟ فقلنا: أحشاؤكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب سبحانه شيء ، وقد أخبرنا أنه في السماء ، فقال سبحانه: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ . ﴿١٦﴾ ﴾ الآية ـ وقال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ، وقال: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ ، وقال: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ ، وقال: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ ، وقال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ ، وقال: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ ، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ـ فهذا أخبر الله أنه في السماء ، ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾. وقلنا لهم: أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه ، والشياطين مكانَهم؟ فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس ، ولكن إنما معنىٰ قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يقول: هو إلٰه من في السماوات ، وإله من في الأرض ، وهو على العرش! وقد أحاط بعلمه ما دون العرش ، لا يخلو من علم الله مكان ، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان ، وذلك قوله: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

قال: ومن الاعتبار في ذلك: لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صافٍ ، وفيه شيء ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح ، فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون في شيء من خلقه. وخصلة أخرى: لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها وخرج منها ، كان ابن آدم لا يخفىٰ عليه كم بيتاً في داره ، وكم سعة كل بيت ، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار. فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه ، وقد علم كيف هو ، وما هو ، من غير أن يكون في شيء مما خلق).

وقوله: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ ، يقول: سريعاً). وقال السدي: (﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ ، قال: يغشي الليل النهار فيذهب بضوئه ، ويطلبه سريعاً حتى يدركه). قال ابن كثير: (أي: يَذْهب ظلامُ هذا بضياء هذا ، وضياءُ هذا بظلام هذا ،

وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، أي: سريعاً لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب هذا).

وفي التنزيل: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: 37 ـ 40].

وقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾.

أي: كل هذه المخلوقات العظيمة تحت تصرفه وتسخيره وهي مقهورة بأمره.

وقوله: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾.

أي: له الملك والتصرف سبحانه وتعالى.

قال القرطبي: (وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بين على فساد قول من قال بخلق القرآن ، إذ لو كان كلامه الذي هو أمر مخلوقاً لكان قد قال: ألا له الخلق والخلق. وذلك عِيٌّ من الكلام ومستهجن ومُسْتَغَثٌ. والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه). وقال: (فالخلق المخلوق ، والأمر كلامه الذي هو غير مخلوق وهو قوله: ﴿كُنْ﴾. ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82]).

وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قال الأزهري: (﴿تبارك﴾ تعالىٰ وتعاظم وارتفع).

وقيل: إن باسمه يُتَبَرَّكُ ويُتَيَمَّن.

أخرج الطبراني والحاكم بسند صحيح عن عامر بن ربيعة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأىٰ أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدعُ لهُ بالبركة ، فإن العين حق][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 447) ، وأبو يعلى (7195) ، والحاكم. انظر صحيح الجامع (570) ، وكتابي: منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن (336) ـ لتفصيل روايات هذا الحديث. وفي بعض الروايات: (علام يقتل أحدكم أخاه ، هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت).

وقوله: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾.

قال ابن عباس: (السر).

قال ابن جرير: (﴿تضرعاً﴾، يقول: تذلُّلاً واستكانة لطاعته. ﴿وخفية﴾، يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاةً، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته، فعل أهل النفاق والخداع لله ولرسوله).

وفي التنزيل: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 205].

قال عبد الله بن المبارك: عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: (إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر جارُه. وإن كان الرجل لقد فَقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّورُ، وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً! ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً فرضي فعله فقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: 3]).

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (في الدعاء ولا في غيره).

وقال ابن جريج: (إن من الدعاء اعتداء، يكره رفع الصوتِ والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ ـ في أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج أبو داود في السنن ـ بسند صحيح ـ عن أبي سعيد، قال: [اعتكف رسول الله ﷺ، في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف السِّتْرَ

وقال: «ألا إنَّ كُلّكُم مُنَاجٍ رَبَّهُ فلا يُؤْذِيَنَّ بعضُكم بَعْضاً ، ولا يَرْفَع بعضكم على بَعْضٍ في القراءة». أو قال: «في الصلاة»][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن أبي موسىٰ قال: [كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فجعل الناس يَجْهرون بالتكبير ، فقال النبي ﷺ: أيها الناس! ارْبَعُوا على أنفسكم ، إنكم ليس تَدْعون أَصَمَّ ولا غائباً ، إنكم تَدْعونَه سميعاً قريباً وهو معكم][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ [الجاهِرُ بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمُسِرُّ بالقرآن كالمُسِرِّ بالصدقة][3].

وفي الباب عن ابن عباس قال: (كانت قراءة النبي ﷺ ، على قَدْر ما يَسْمَعهُ مَنْ في الحجرة ، وهو في البيت).

قال الشافعي في الأم: (وأختار للإمام والمأموم أن يذكر الله بعد الانصراف من الصلاة ويخفيان الذكر ، إلا أن يكون إماماً يجب أن يُتَعلَّم منه فيجهر حتىٰ يرى أنه قد تُعلّم منه ، ثم يُسر ، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ يعني: والله تعالى أعلم ، بالدعاء ، ولا تجهر: ولا ترفع ، ولا تخافت حتى لا تسمع نفسك. وأحسب ما روىٰ ابن الزبير رضي الله عنهما من تهليل النبي ﷺ. وما روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما من تكبيره ، كما رويناه. قال الشافعي: وأحسبه إنما جهر قليلاً ليتعلم الناس منه ، وذلك أن عامة الرواية التي كتبناها مع هذا وغيرها ليس يذكر فيها بعد التسليم تهليل ولا تكبيرٌ، وقد يذكر أنه ذكر بعد الصلاة بما وصفت ، ويذكر انصرافه بلا ذكر)[4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبوداود في السنن ـ حديث رقم ـ (1332) ـ باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل. انظر صحيح سنن أبي داود (1183). وانظر «شعب الإيمان» للبيهقي (543/2) ، رقم (2658) ، وموطأ مالك (80/1) (29).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2704) ـ كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها كالتلبية وغيرها. وقوله: «اربعوا»: أي ارفقوا بها.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1333) ـ الباب السابق. وانظر صحيح سنن أبي داود (1184).

(4) انظر كتاب «الأم» للشافعي (127/1)، وكتاب «إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر» ـ للبقاعي (47-50). ومسند الشافعي (99/1) ، والمدخل لابن الحاج (105/1-107).

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبو داود في السنن ـ بسند حسن ـ عن أبي نَعامة عن ابن لسعد: أنه قال: [سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبَهْجَتَها ، وكذا وكذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، وكذا وكذا ، فقال: يا بُنَيّ: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون قوم يَعْتَدون في الدعاء». فإياك أن تكون منهم ، إنْ أُعطيت الجنة ، أعطيتها وما فيها ، وإن أُعِذْتَ من النار ، أُعِذْت منها وما فيها من الشر](1).

وله شاهد في سنن أبي داود عن أبي نعامة: [عن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: أي بني ، سل الله الجنة ، وتعوذ به من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون في هذه الأمة قَوْمٌ يَعْتَدون في الطّهور والدُّعاء](2).

وقوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾.

نهي عن الفساد في الأرض وإلحاق الضرر بعد الإصلاح. قال ابن كثير: (فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ، ثم وقع الإفساد بعد ذلك ، كان أضر ما يكون على العباد. فنهىٰ تعالى عن ذلك).

وقوله: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

أمرٌ بعبادته سبحانه على الوجه الأمثل والأعدل ، وهو التقلب بين الخوف والرجاء ـ كما في التنزيل: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: 16].﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: 90]. فإن كان العبد في آخر ساعة من حياته كذلك كان له الأمن من الله في الآخرة.

أخرج الترمذي بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت ، فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله ، وإني أخاف ذنوبي ، فقال

(1) حسن صحيح. أخرجه أحمد (172/1) ، وأبو داود (1480) ـ باب الدعاء.
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (96) ـ باب الإسراف في الماء. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (87).

رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف][1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أي : إن رحمته تعالىٰ مرصدة للمحسنين ، الذين يخافونه بصدق فيمتثلون أوامره ، ويتركون زواجره ، ويدعونه خوفاً وطمعاً. قال مطر الوَّراق : (تَنَجَّزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضىٰ أن رحمته قريب من المحسنين) ـ رواه ابن أبي حاتم .

وذكر القرطبي سبعة أوجه لقوله «قريب» وليس «قريبة» ، وذكر ابن كثير أشهرها : وهو تضمن الرحمة معنىٰ الثواب ، أو لأنها مضافة إلى الله ـ والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال السدي : (إن الله يرسل الريح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين ، طرف السماء والأرض من حيث يلتقيان ، فيخرجه من ثمَّ ، ثم ينشره فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ثم يفتح أبواب السماء ، فيسيل الماء على السحاب ، ثم يمطر السحاب بعد ذلك . وأما ﴿رحمته﴾ فهو المطر . قال : ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وكذلك تخرجون ، وكذلك النشور ، كما نخرج الزرع بالماء) . قلت : وقرأ عامة قراء الكوفة ﴿نُشُراً﴾ . قال البخاري : (نُشُراً : متفرقة) . والأولى ﴿بشراً﴾ هي الأشهر .

فالله سبحانه يرسل الرياح مبشرات بين يدي المطر ، حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي : ثقيلة قريبة من الأرض لكثرة ما فيها من الماء ، ساقه الله لأرض ميتة مجدبة فأحيا بها النبات وأخرجه ، وكذلك يخرج الله الأجساد من قبورها يوم القيامة ، أفلا تتذكرون ـ أيها الناس ـ وتتفكرون .

وقوله : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ ﴾ .

قال ابن عباس : (فهذا مثل ضربه الله للمؤمن . يقول : هو طيب ، وعمله طيب ،

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي ، وابن ماجة ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» ص (24-25) ، وأخرجه ابن أبي الدنيا كما في «الترغيب» (141/4) . وانظر أحكام الجنائز ص (3) .

كما البلد الطيب ثمره طيب. ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السَّبِخة المالحة التي يخرج منها النز، فالكافر هو الخبيث، وعمله خبيث).

وقال مجاهد: (الطيب ينفعه المطر فينبت، ﴿والذي خبث﴾ السباخُ، لا ينفعه المطر، لا يخرج نباته إلا نكداً. قال: هذا مثل ضربه الله لآدم وذريته كلهم، إنما خلقوا من نفس واحدة، فمنهم من آمن بالله وكتابه، فطاب. ومنهم من كفر بالله وكتابه، فخبث).

وقال السدي: (﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾، هي السبخة لا يخرج نباتها إلا نكداً، و«النكد» الشيء القليل الذي لا ينفع، فكذلك القلوب لما نزل القرآن، فالمؤمن لما دخله القرآن آمن به وثبت الإيمان فيه، والقلب الكافر لما دخله القرآن لم يتعلق منه بشيء ينفعه، ولم يثبت فيه من الإيمان شيء إلا ما لا ينفع، كما لم يخرج هذا البلد إلا ما لا ينفع من النبات).

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَثَلُ ما بعثني الله به من الهُدَىٰ والعلم، كَمَثَلِ الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير، وكانت منها أجادبُ أمْسَكَت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسَقَوا وزَرَعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِمَ وعَلَّم، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أُرْسِلتُ به][1].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

تخصيص للشاكرين فإنهم هم المنتفعون بهذه الآيات والمواعظ والذكرىٰ، فقليل من عباد الله الشكور.

59 - 64. **قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا**

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (79)، وأخرجه مسلم (2282)، وأخرجه أبو يعلىٰ (7311).

لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

في هذه الآيات: شرع الله تعالىٰ ـ بعد ذكر قصة آدم عليه السلام أول السورة ـ في ذكر قصص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الأول فالأول. فلقد أرسل نوحاً إلى قومه، منذرهم بأسه ومخوِّفهم سخطه، على عبادتهم غيره: يا قوم، أفردوا الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، فإنه لا إله لكم غيره يستوجب عليكم عبادته، إني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك عذاب يوم عظيم الأهوال والشدائد والعقاب. فأجابه الملأ المستكبرون من قومه: إنا نراك يا نوح في ضلال مبين. قال نوح: يا قوم ليس بي ضلالة أو جهالة عن الحق وإنما أنا رسول رب العالمين. أبلغكم ما أرسلني به ربي إليكم وأنصح لكم بتحذيري إياكم مغبة الاستهزاء في الدين الحق ما لا يحمد عقباه لديكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون عن بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين. هل تعجبون أن يأتيكم إنذار ربكم على لسان رجل منكم لينذركم بأسه تعالىٰ ولتتقوا سخطه وعقابه بإفراده بالتعظيم ولتنالوا رحمته بذلك. ولكن ما كان من الملأ الكافر إلا أن أظهر التكذيب والعناد، فأنجىٰ الله تعالى نوحاً والمؤمنين معه في الفلك وأغرق الباقين الذين كانوا قوماً عمين عن الحق بالطوفان الهائل فكانوا كأمس الذاهب.

قال محمد بن إسحاق: (ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبيٌّ قُتل).

وقال يزيد الرَّقاشي: (إنما سُمِّيَ نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه). وقد كان بين آدم إلى زمان نوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام ـ ذكره ابن كثير.

يروي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]. قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم

التي كانوا يجلسون فيها أنصَاباً ، وسمّوها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تعبد. حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم عُبِدَت)[1].

قال ابن القيم: (قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صَوَّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم)[2].

وقال القرطبي: (وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها).

والخلاصة: لقد بعث الله نوحاً ﷺ لانتشال قومه من مستنقع الشرك والجاهلية ، ويأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ويحذرهم عذابه يوم القيامة. فتدخل الملأ منهم أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم متهمين نبيّهم بالضلالة. فقال نوح ﷺ لهم: يا قوم ما أنا بضال ، وإنما أنا رسول من رب العالمين ـ رب كل شيء وبارئه ومصوره ـ وقد أرسلني الله مبلغاً رسالته لكم ، ناصحاً بالله لا إرب لي بدعوتي لكم إلا الإخلاص لله وحده في إنقاذكم مما أنتم عليه من مخالفة أمره واتباع ما يسخطه في عباداتكم ومعاملاتكم.

قال القرطبي: (النُّصح: إخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة ، بخلاف الغشِّ).

وقال القاسمي: (﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا من طريق الوحي ، أشياء لا علم لكم بها ، أو أعلم من قدرته الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه).

قال ابن كثير: (وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات. كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ ـ قال لأصحابه يوم عَرفة ، وهم أوفرُ ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس ، إنكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع

---

(1) صحيح. انظر صحيح الإمام البخاري (511/8) ، (512/8) ، كتاب التفسير ـ تفسير سورة نوح.

(2) انظر كتاب «فتح المجيد» (245) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (468/1) لتفصيل البحث.

أصبعه إلى السماء وينكتُها عليهم ويقول: اللهم اشْهد ، اللهم اشْهد»).

وقوله تعالى: ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

قال النسفي: (﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف ، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم ﴿ أَن جَاءَكُمْ ﴾ مِنْ أنْ جاءكم ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ على لسان رجل منكم أي: من جنسكم ، وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، يعنون إرسال البشر ، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿لينذركم﴾ ليحذركم عاقبة الكفر ﴿ولتتقوا﴾ ولتوجد منكم التقوىٰ وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ولترحموا بالتقوىٰ إن وجدت منكم).

وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾.

الفلك: السفينة ، وكان نوح ﷺ قد حمل معه في الفلك من كل زوجين اثنين ، وقد نجاهم الله وأهلك القوم الذين كذبوا الحق وتكبروا على اتباع رسوله ، بالغرق أثناء الطوفان الذي أرسله الله عليهم.

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قال مجاهد: (عن الحق). وقال ابن زيد: (العَمَىٰ ، العامي عن الحق).

65 - 72. **قوله تعالى**: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ

ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: ولقد أرسلنا هوداً ﷺ إلى قومه ـ عاد ـ كما أرسلنا نوحاً ﷺ إلى قومه من قبل، أن اعبدوا الله تعالى وحده وأفردوه بالتعظيم، فما لكم من إله غيره، أفلا تخافون بطشه وعذابه لمن تمرد على أمره. فأجابه الذين جحدوا: إنا نَرَاكَ في ضلالة عن الحق بتركك عبادة آلهتنا. قال يا قوم ما بي سفاهة وإنما أنا رسول الله تعالى إليكم، أبلغكم رسالته وأنصح لكم، أوعجبتم أن أنزل الله وحيه على بشر منكم لينذركم، فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا قوم نوح قبلكم إذ أهلكهم الله بتكذيبهم، وأنتم اليوم تخلفونهم في الأرض وقد زادكم من نعمه سبحانه بطول في الأجسام وقوة في الأجساد والأعضاء، أفلا تشكرون. فأجابوه: أجئتنا ياهود لنعبد الله وحده ونترك ما كان عليه الآباء، وتَتَوَعَّدنا على ذلك بالعذاب إن لم نهجر هذه الأصنام والآلهة التي مضى على عبادتها وتعظيمها أجدادنا!! فائتنا بما تعدنا إن كنت صادقاً. قال هود لقومه: قد حَلَّ بكم عذاب وغضب من الله، أتخاصمونني في أسماء لا تضر ولا تنفع من أصنامكم أنتم سميتموها وآباؤكم من قبل، ولا حجة لكم من الله في عبادتها ولا عذر، فارتقبوا وعيد الله وحكمه فيكم. يقول تعالى ذكره: فأنجينا هوداً ومن آمن معه، وأنزلنا العذاب بمن كذّب فكانوا كأمس الذاهب.

فقوله: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ ﴾.

أي: أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً. قال ابن عباس: (أي: ابن أبيهم). وقيل: (أخاهم في القبيلة)[1].

قال محمد بن إسحاق: (هم ـ أي عاد ـ ولد عاد بن إرَم بن عَوْص بن سام بن نوح).

(1) وقيل: أي بشراً من بني أبيهم آدم. وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هوداً أي صاحبهم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: 6 ـ 8].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: 15].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: 50].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل، وكانوا قد شُدِّدَ خلقهم فهم أصحاب أجسام عظيمة وقوة، وكان بداخلها ـ للأسف ـ قلوب فيها قسوة. وكانت بلادهم أخصب البلاد، فيها بساتين وزروع وعمارة، فأسخطوا الله بشركهم وتكذيب رسولهم فجعلها مفاوز.

وقد ردّ الملأ منهم ـ وهم السادة والقادة فيهم ـ على هود ﷺ بالتكذيب، حين دعاهم لإفراد الله تعالى بالعبادة فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾. قال القرطبي: (أي في حمق وخفة عقل). ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ـ أي: في ادعائك الرسالة والنبوة.

فأجابهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ ـ في دعوتي لكم، وبلاغي حرصاً عليكم ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أقول لكم.

قال النسفي: (وإنما قال هنا وأنا لكم ناصح أمين لقولهم وإنا لنظنك من الكاذبين، أي: ليقال الاسم الاسم، وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم، وإخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسلبون أذيالهم على ما يكون منهم).

وقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

قال ابن كثير: (أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله و لقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم).

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

أي: كنتم سُكّانَ الأرض بعد قوم نوح، وقد أهلك الله ـ كما تعلمون ـ أهل الأرض حين خالفوه وكذبوه.

قال السدي: (يقول: ذهب بقوم نوح، واستخلفكم من بعدهم).

وقوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

قال القرطبي: (ويجوز ﴿بصطة﴾ بالصاد لأن بعدها طاء، أي: طولاً في الخلق وعظم الجسم).

وقوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: اذكروا نعمه سبحانه ومننه عليكم كي تنالوا الفلاح وسعادة الدارين.

قال ابن زيد: (آلاؤه، نعمه). وقال قتادة: (أي: نعم الله).

أخرج الطبراني «في الأوسط» بسند حسن في الشواهد عن سالم بن عبد الله عن أبيه مرفوعاً: [تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله][1].

فأجابوه: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

تمَرَّدَ القوم وطغوا واستكبروا وأصروا على تقاليد الآباء الجاهلية، واستعجلوا العذاب والوعيد، شأن قوم نوح من قبلهم، واجهوا الإنذار بالكبر والاستهزاء حتى نزل بهم ما أهلكهم.

وقوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

المعنىٰ: قد وجب عليكم بتكذيبكم ربكم ﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾. وفي معنى «الرجس» أقوال:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿رجس﴾، يقول: سخط) ـ ذكره ابن جرير.

2 ـ قيل: عني بالرجس الرَّيْن على القلب بزيادة الكفر ـ ذكره القرطبي.

3 ـ وقيل: الرِّجسُ: العذاب. وقيل هو مقلوب من رجز ـ ذكره ابن كثير.

---

(1) حسن لغيره. رواه الطبراني في «الأوسط» (6456)، والبيهقي في «الشُعَب» (75/1)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1788) ـ الأمر بالتفكر في خلق الله.

قلت: الرجس في لغة العرب: القذَر. وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 100] إنه العقاب والغضب، وهو مضارع لقوله الرِّجز). ومن ثَمَّ فالمعاني السابقة كلها واردة ويحتملها البيان الإلهي الكريم.

وقوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

يعني بذلك الأصنام التي كانوا يعبدونها ولها أسماء مختلفة، سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، فالاسم هنا بمعنى المسمّى. ومن هذه الأسماء العُزّى ـ من العِزّ والأعز ـ واللات، وفي حقيقتها لا تملك من العز والإلـهية شيء ولا حجة لكم من الله بعبادتها.

وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فانتظروا حكم الله فينا وفيكم، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾، حكمَه وفصل قضائه فينا وفيكم).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: كانت النجاة لهود عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه، وكان الهلاك والعذاب على من كذب وتولىٰ وأعرض عن الإيمان بالله ورسوله. قال ابن زيد: (﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، قال: استأصلناهم).

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [نُصِرْتُ بالصَّبا، وَأُهْلِكَت عادٌ بالدَّبور][1].

73 - 79. قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3205) ـ كتاب بدء الخلق. ورواه مسلم وأحمد وغيرهما.

سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: يخبر تعالى ذكره أنه أرسل إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ـ كما أرسل إخوته الرسل من قبل إلى أقوامهم ـ يحثهم على إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم والدعاء، فما من إله إلا الله، وقد اختبرهم سبحانه بناقة لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، أن يذروها تأكل من أرض الله دون أن يمسوها بسوء فينالهم عذاب الله الأليم. وذكرهم سبحانه كيف أهلك قوم عاد قبلهم لما طغوا وتكبروا على رسولهم واستخلفهم بعدهم في الأرض يتخذون البيوت العالية في سهولها كالقصور ينعمون بها صيفاً، والبيوت المنحوتة في الجبال يسكنونها شتاء، وكذلك بنعم وآلاء كثيرة وَجَبَ أن تحجبهم عن الفساد في الأرض أو اتباع ما يسخط الله تعالى. فما كان من الملأ الكافر ـ إذ أَعْلن المستضعفون المؤمنون إيمانهم برسول الله صالح عليه الصلاة والسلام ـ إلاأن أظهروا الكفر به وتجرؤوا فانبعث أشقاهم برضاهم فعقروا الناقة وتمردوا على أمر الله لهم واستعجلوا العذاب استهزاء وكبراً. فعاجلهم ربهم عز وجل بعقوبته الكبرىٰ في هذه الحياة الدنيا فأخذهم بصيحة زلزلتهم وحركتهم للهلاك فأصبحوا ميتين. فتولىٰ عنهم صالح ـ حين أمره الله باعتزالهم وقد آن حلول نقمته تعالى بهم ـ وصرّح لهم: لقد أديت إليكم رسالة ربي وبذلت النصح الخالص لنجاتكم من عذابه وسخطه، فركبتم أهواءكم وتنكرتم للنصيحة حتىٰ أصبحتم هالكين.

فقوله: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾.

أي: وكذلك فقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً. وثمود ـ كما ذكر أهل التفسير والعلم بالأنساب ـ: هو ثمودُ بن عاثِرِ بن إرم بن سام بن نوح، وقد جاءت ثمود

بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة معلومة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله. وقد مرّ النبي ﷺ بديار ثمود مرجعه من تبوك ، وهو قافل إلى المدينة ، على القول الراجح ـ كما حققت في كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة .

فلما وصل جيش المسلمين القافل من تبوك ديار ثمود ، تسارع بعض الأصحاب لدخول تلك المساكن الخاوية ، فنهاهم النبي ﷺ .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي كبشة الأنماري قال : [لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ : فنادىٰ في الناس : الصلاة جامعة ، قال : فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول : ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ، فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله! قال : أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟! رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتي قوم لا يَدْفعون عن أنفسهم بشيء][1] .

ثم أمرهم بعدم عبور تلك المساكن إلا باكين ، مسرعين في السير غير مبطئين ، فهي ديار قوم دمَّر الله عليهم بيوتهم بذنوبهم واستهتارهم .

ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ـ يعني لما وصلوا الحِجْر : وهي ديار ثمود فيما بين المدينة والشام ـ : [لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يُصيبكم ما أصابهم] . وفي رواية لمسلم : (حَذَراً أن يصيبكم مِثلُ ما أصابهم) .

وفي رواية لهما بلفظ : [لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أَنْ يُصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ، ثم قَنَّعَ رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي] .

وفي لفظ للبخاري مِنْ حديث سالم بن عبد الله عن أبيه : (ثم تَقَنَّعَ بردائه وهو على الرحل) . وفي لفظ لمسلم : (ثم زَجَرَ فأسرع حتى خلّفها)[2] .

---

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (231/4) ، وانظر كتابي : السيرة النبوية (1532/3) .

(2) حديث صحيح . انظر الروايات السابقة في صحيح البخاري (3381) ـ كتاب الأنبياء ، وكذلك في صحيح مسلم (2980) ـ كتاب الزهد والرقائق ، وكذلك في مسند الإمام أحمد (2/ 9) ، (2/ 58) .

فإن ذلك من أماكن العذاب التي تركها الله في الأرض ليعتبر البشر ، فلا ينبغي المشي فيها والسياحة خلال آثارها ، بل الأليق بها أن يمر المسلم فيها مسرعاً خائفاً من الله أن يُنْزِلَ بأمته ما أنزل بتلك الأمم ، من المصائب والدمار والنقم.

وكان بعضهم قد تسارعوا إلى آبار ثمود ليشربوا منها أو ليتوضؤوا بمائها ، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك أشد النهي ، وأمرهم أن يهريقوا ما استقوا منها ، وأن يعلفوا إبلهم العجين الذي عجنوه بمائها ، وأن يستقوا بدلاً عن ذلك من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه الصلاة والسلام.

أخرج ذلك الإمام مسلم في صحيحه ، عن نافع أن عبدَ الله بن عمر أخبره: [أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر أرضِ ثمود فاستقوا من آبارها ، وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا ، ويَعْلِفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة](1).

ورواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر بلفظ: [أن رسول الله ﷺ لما نزل الحِجْرَ في غزوة تبوك ، أمرهم أن لا يشربوا من بِئرها ، ولا يستقوا منها ، فقالوا: قد عَجَنّا منها واستقينا ، فأمرهم أن يطرَحوا ذلك العجين ، ويُهريقوا ذلك الماء. قال: ويُروىٰ عن سَبْرة بن مَعْبَدٍ وأبي الشّموس أن النبي ﷺ أمر بإلقاء الطعام](2).

وفي رواية ابن إسحاق: (أن النبي ﷺ قال لهم: لا تشربوا من مائها شيئاً ، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه ، فاعلِفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً)(3).

وقوله: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

هو قول الرسل جميعاً لأقوامهم ، وهي رسالة التوحيد التي بعث بها جميعهم ، وهي تتلخص بشهادة أنّ «لا إله إلا الله». كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم (2980) ـ كتاب الزهد والرقائق.

(2) حديث صحيح. أخرجه الإمام البخاري (3381) ـ كتاب الأنبياء. وانظر تفصيل هذا البحث في كتابي: السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ـ (1532/3-1534).

(3) رواه ابن إسحاق في السيرة. وانظر البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ (11/5) بسند حسن مرسل.

وقوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: قد جاءتكم آية وحجة من ربكم تثبت لكم صدق نبوتي لكم، وكانوا قد سألوه بينة من قبل. فقال لهم نبيُّهم صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود: 64].

وكانت الناقة قد أقامت ـ وفصيلها بعدما وضعته ـ بين أظهرهم مدة، تشرب ماء بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً. وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [القمر: 28].

وكذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: 155].

قال الحافظ ابن كثير: (وكانت تسرَحُ في بعض تلك الأودية ترد من فَجّ وتصدرُ من غيره ليسعها، لأنها كانت تتضلَّع من الماء، وكانت ـ على ما ذكر ـ خَلْقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مَرَّت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي ـ عليه السلام ـ عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلّهم على قتلها. قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كُلّهم، أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضاً. قلت: وهذا هو الظاهر لأن الله تعالى يقول: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: 14]، وقال: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا . . . ﴾ [الإسراء: 59]، وقال: ﴿فعقروا الناقة﴾. فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدَلَّ على رِضا جميعهم بذلك، والله أعلم).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

قال الشهاب: (﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾ ـ لم يقل: خلفاء عاد، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً. ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أنزلكم في أرض الحجر. والمباءة المنزل. ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أي: تبنون في سهولها قصوراً

لتسكنوها أيام الصيف. قال: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي: لتسكنوها أيام الشتاء).

وقال القرطبي: (﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه. وهذا يدلّ على أن الكفار منعم عليهم).

وقال قتادة: (﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. يقول: لا تسيروا في الأرض مفسدين).

قلت: وفي الآية دلالة على جواز البناء الرفيع والاعتناء بالمسكن المتسع المليء بالمرافق، فإن المسكن الواسع الكثير المرافق من سعادة المسلم في هذه الحياة الدنيا. وفي ذلك أحاديث من السنة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج الحاكم بسند حسن عن سعد مرفوعاً: [ثلاث من السعادة، وثلاث من الشقاوة، فمن السعادة: المرأة تراها تعجبك، وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعةً كثيرة المرافق. ومن الشقاوة المرأة تراها فتسوؤك، وتحمل لسانها عليك، وإن غِبْتَ عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفاً، فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تُلْحِقْكَ بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن حبان في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: [أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: [إذا أنعم الله على عبدٍ أحبَّ أن يُرى أثر النعمة عليه][3].

وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (162/2)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1047).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1232)، والخطيب في «التاريخ» (99/12)، وأخرجه أحمد (168/1) ـ قال المنذري: رواه أحمد بإسناد صحيح ـ وأخرجه الطبراني في «الكبير» (1/19/1)، و«الأوسط» (1/163/1). وانظر الصحيحة (282). ورواه الحاكم والبيهقي وفيه: [وأربع من الشقاء: المرأة السوء، والجار السوء، والمركب السوء، والمسكنُ الضيق].

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2819)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحَسَّنَه.

قال القرطبي: (ذُكر أن ابناً لمحمد بن سيرين بنىٰ داراً وأنفق فيها مالاً كثيراً ، فَذُكِرَ ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ماأرىٰ بأساً أن يبني الرجل بناء ينفعه. ثم ذكر القرطبي الحديث السابق ، وقال: ومن آثار النعمة البناء الحسن ، والثياب الحسنة. ألا ترى لو أنه اشترىٰ جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك ، فكذلك البناء).

قلت: وأما حديث: [أما إن كلَّ بناءٍ وبالٌ على صاحبه ، إلا ما لا ، إلا ما لا ، يعني: ما لا بد منه][1].

وحديث: [إنّ الرجل يؤجرُ في نفقته كلِّها إلا في هذا التراب][2]. فالمراد منهما صرف المسلم عن الاهتمام بالبناء والتشييد إلا ما له به حاجة. قال الألباني رحمه الله: (وإن مما لا شكِ فيه أن الحاجة تختلف باختلاف عائلة الباني قلة وكثرة ، ومن يكون مضيافاً ، ومن ليس كذلك ، فهو من هذه الحيثية يلتقي تماماً مع الحديث الصحيح: «فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، والثالث للضيف ، والرابع للشيطان» رواه مسلم (146/6) وغيره).

وقال الحافظ ـ في الحديث السابق ـ: (وهذا كله محمول على ما لا تمس الحاجة إليه ، مما لا بد منه للتوطن وما يقي البرد والحر).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: استكبر الملأ الكافر واستهزؤوا بنبوة صالح ﷺ ، فأثبت المؤمنون النبوة وإيمانهم بها ، واتباعهم نبي الله صالحاً عليه الصلاة والسلام. وأظهر المتكبرون كفرهم. قال القاسمي: (وإنما لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون ، إظهاراً لمخالفتهم إياها ، وردّاً لمقالتهم). فالمقصود بقولهم: ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ـ أنهم أبَوْا تقليد المؤمنين بقولهم: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ حذراً مما يكون في ظاهره إثبات رسالة صالح ﷺ ، وهم يجحدونها. ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ

---

(1) حديث إسناده جيد. أخرجه أبو داود (347/2) ، وأبو يعلى (1952/308/7) عن أنس مرفوعاً.

(2) سنده صحيح. أخرجه ابن حبان (5/99-100) ، وأحمد (110/5)من حديث خبّاب. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2830) ـ (2831) ، وتفصيل الروايات المختلفة.

رَبِّهِمْ ﴾. قال مجاهد: (عتوا في الباطل، وتركوا الحق). وقال: (علوا عن الحق، لا يبصرون). وقال: (علوا في الباطل). ثم قالوا: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

وقوله: تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

هو جواب طلبهم وتنطعهم.

قال مجاهد: (الرجفة: الصيحة). وقال ابن زيد: (﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾: ميتين). فأهلكوا بالصيحة التي زلزلتهم وزعزعتهم وحركتهم للهلاك فكانوا كأمس الذاهب.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

قال لهم صالح ﷺ ـ بعدما أمره الله تعالى باعتزالهم وقد أوشك حلول نقمته بهم ـ: لقد أديت إليكم ما أمرت به من تحذيركم بطش ربكم وعذابه إن اخترتم البقاء على شرككم وكفركم ولكنكم لا تحبون الناصحين لكم بترك شهواتكم وأهوائكم وعاداتكم وتقاليدكم الفاسدة الجاهلية.

80 - 84. **قوله تعالى**: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: واذكر يا محمد لوطاً حين واجه انحراف قومه في إشباع غرائزهم وشهواتهم بطريقة قبيحة فاسدة، إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة بطريقة خبيثة ما سبقكم بها أحد من قبلكم. إنكم لتأتون الرجال بدل النساء، وتسرفون فيما حرّم الله عليكم فكذبوه وردّوه، فأنجاه الله وأهله المؤمنين إلا امرأته، فإنها كانت للوط خائنة، وبالله كافرة. فأمطر الله تعالى قوم لوط حجارة من سجيل فأهلكهم بكفرهم

وبغيهم وإفسادهم فانظروا إلى أي شيء صار مصير هؤلاء المجرمين.

فقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

لوط: هو لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وكان قد آمن مع إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سَدُوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويحذرهم مغبة تلك الفواحش التي اخترعوها ولم يسبقهم إليها أحد من بني آدم أو غيرهم، وهي إتيان الرجال الرجال. قال عمرو بن دينار: (﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: ما نزا ذَكَرٌ على ذكر، حتى كان قوم لوط).

وفي لفظ: (ما رُئِيَ ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

قال ابن جرير: (إنكم، أيها القوم، لتأتون الرجال في أدبارهم، شهوة منكم لذلك، من دون الذي أباحه الله لكم وأحلّه من النساء، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، يقول: إنكم لقوم تأتون ما حرَّم الله عليكم، وتعصونه بفعلكم هذا. وذلك هو «الإسراف» في هذا الموضع). قلت: فالإسراف وضع الشيء في غير محله، وفعلهم هذا في غاية الإسراف والجهل. قال الوليد بن عبد الملك ـ الخليفة الأموي باني جامع دمشق: (لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: 165 ـ 166].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: 54 ـ 55].

فأجابوه: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: 167 ـ 169].

3 ـ وقال تعالى يصف حوار لوط معهم: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: 71].

فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا بأنهم لا يشتهونهن: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: 79].

قال ابن كثير: (أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك. وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى بعضهن ببعض أيضاً).

فقد حذرهم لوط عليه الصلاة والسلام من مغبة التهاون بأمر الفواحش وهذا الانحراف الذي ما سبقهم إليه أحد من العالمين. وقد جمع لهم من حجة الوحي وقوة الحق، ما يبين لهم نتيجة هذا الاسترسال بالشهوة وإتيان الرجال دون النساء، حتى إذا أعجزوه بإصرارهم على منكرهم لجأ إلى الله العظيم، ليريح الواقع منهم ومن رجسهم، فاستجاب الله له فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: 73 ـ 74].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

قال قتادة: (عابوهم بغير عَيْب، وذمُّوهم بغير ذمّ).

والمعنى: أنهم أجابوا لوطاً ﷺ حينما وبّخهم على قبيح ما هم عليه من الفعل، والإصرار على العمل الخبيث، ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. أي: إن لوطاً ومن معه يتنزهون عما نفعله من إتيان الرجال في الأدبار. قال مجاهد: (﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال: من أدبار الرجال وأدبار النساء). وقال السدي: (يتحرَّجون).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

أي: الباقين.

فإنه لم يؤمن بلوط ﷺ سوىٰ أهل بيته كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 35 ـ 36]. إلا امرأته بقيت على دين قومها تمالئهم عليه وتُعْلِمُهُم بمن يَقْدُم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ـ كما

ذكر المفسرون. فلما أوحىٰ الله إلى لوط بمغادرة المكان لحلول العذاب خرج بأهله ـ وبقيت ولم يُعلمها ـ فكانت معهم من الهالكين.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

فقد أمطرهم الله حجارة من سجيل كان فيها هلاكهم، وتلك عاقبة المصرين على ارتكاب الفواحش والموبقات وركوب معصية الله: البوار والهلاك.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: 82 ـ 83].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: 58].

فوائد هامة من ذكر قوم لوط وانحرافهم:

1 ـ **الفائدة الأولى**: تحريم الإسلام النظر إلى الأمرد الحسن لغير حاجة شرعية. فإن ذلك داخل تحت قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: 19].

وتحت قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: 30].

قال ابن الجوزي رحمه الله: (والفقهاء يقولون من ثارت شهوته عند النظر إلى الأمرد حرم عليه أن ينظر إليه، ومتى ادعىٰ الإنسان أنه لا تثور شهوته عند النظر إلى الأمرد المستحسن فهو كاذب، وإنما أبيح على الإطلاق لئلا يقع الحرج في كثرة المخالطة بالمنع، فإذا وقع الإلحاح في النظر دل على العمل بمقتضىٰ ثوران الهوىٰ).

وقال سعيد بن المسيب: (إذا رأيتم الرجل يلح النظر إلى غلام أمرد فاتهموه).

وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [الحلال بَيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهات، لا يعلمُها كثير من الناس، فمن اتقىٰ الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعىٰ حول الحِمىٰ يوشِكُ أن يواقِعَهُ، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حِمىٰ الله تعالى في أرضه محارمُه، ألا وإن في الجسد مُضغة، إذا صلحت صلح الجسدُ كُلُّه، وإذا

فسدت فَسَدَ الجسدُ كله ، ألا وهي القلب][1] .

وفي المعجم الأوسط للطبراني بسند حسن من حديث عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [الحلالُ بَيِّنٌ ، والحرامُ بَيِّنٌ ، فدعْ ما يريبُك إلى ما لا يريبُك][2] .

2 ـ **الفائدة الثانية**: تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة ، أو المبيت تحت غطاء يجمع ويقرب بينهما .

ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [لاينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولايُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد][3] .

3 ـ **الفائدة الثالثة**: تغليظ عقوبة من يعمل عمل قوم لوط .

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة بسند حسن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به][4] .

وإما إتيان النساء في أدبارهن فهو اللوطية الصغرىٰ ، ملعون صاحبها .

فقد أخرج الإمام أحمد وأبوداود بسند صحيح عن أبي هريرة،عن النبي ﷺ قال: [ملعونٌ من أتىٰ امرأة في دبرها][5] . وله شاهد عندهما بلفظ: [من أتىٰ حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد] .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (52) ـ كتاب الإيمـان ، وكذلك (2051) ـ في البيوع . ورواه مسلم . في الصحيح (1599) ـ كتاب المساقاة ، من حديث النعمان بن بشير .
(2) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «الأوسط». انظر صحيح الجامع الصغير ـ برقم (3189) .
(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (338) ـ في الحيض ـ باب تحريم النظر إلى العورات .
(4) حديث حسن . أخرجه أبو داود (4462) ، والترمذي (1456) ، وابن ماجة (2561) ، وأحمد (300/1) . من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .
(5) حديث صحيح . أخرجه أحمد (444/2) ، (479/2) ، وأخرجه أبو داود (2162) ، وأخرجه ابن عدي (211/1) بلفظ: (ملعون من يأتي النساء في محاشهن . يعني: أدبارهن) . وانظر للشاهد مسند أحمد (408/2) ، (476/2) ، وآداب الزفاف ص (31) .

85 - 93. قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر الله تعالى أنه أرسل إلى قبيلة مدين نبيّه شعيباً منهم، فدعاهم إلى إفراد الله بالتوحيد والعبادة والتعظيم، وقد جاءتهم علامة وحجة من الله على صدقه، وحذرهم من الخيانة ومغبة التلاعب بالكيل والوزن وحقوق العباد، أو الإفساد في الأرض بالكفر والظلم بعدما أصلح أمرها الرسل وأتباعهم الصالحون، فهو خير لهم إن كانوا صادقين في إيمانهم بالله العظيم. ثم حذرهم من قطع طريق الناس في أموالهم أو في دينهم، وذكّرهم إذ كانوا قلة فقراء فكثَّر عددهم وأغناهم، وأمرهم بالنظر فيما

آل إليه من قبلهم من المفسدين. ثم أخبرهم أنه وإن اختلفتم في أمر الرسالة والنبوة وتصديقها فكنتم فريقين: فإن العاقبة للمؤمنين. فما كان من سادة الكفر في القوم إلا أن هدّدوا شعيباً ومن معه بالإبعاد من القرية أو العودة إلى دين الآباء! فأجابوهم: أولو كنا كارهين. إننا نكون من المفترين على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ودينكم بعد أن أنعم الله علينا بالهداية إلى الحق، والأمر كله بمشيئة الله، فالهداية والضلال أمران بيده سبحانه، وإنما نحن نتوكل على ربنا ليفصل بيننا وهو خير الفاصلين. فقال الملأ الكافر حينئذ في عجرفة وكبر: لئن اتبعتم شعيباً فأنتم عندئذ الخاسرون، فعاجلهم الله تعالىٰ برجفة من عنده وصيحة أخمدتهم فصاروا كأمس الذاهب وكانوا هم الخاسرين. وكان قد أدبر شعيب عنهم مغادراً حين أيقن نزول عذاب الله فيهم وقال ـ وهو يحزنه كيف أمسىٰ حالهم ـ: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فكيف أحزن على قوم كافرين.

فقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

قال محمد بن إسحاق: (هم من سُلالة مدين بن مديان بن إبراهيم). وزعم كذلك ابن إسحاق في شعيب: أنه ابن ميكيل بن يشجن، واسمه بالسريانية «يثرون».

قال ابن كثير: (وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة ـ وهي التي بقرب مَعَان من طريق الحجاز، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ...﴾ [القصص: 23]، وهم أصحاب الأيكة).

وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

هذه دعوة الرسل جميعاً وهي منهاجهم.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه).

وقوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

تحذير من الخيانة والتلاعب بالكيل والوزن وحقوق العباد.

وفي الحديث: [ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان][1].

وقوله: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾.

قال القرطبي: (البخس النقص. وهو يكون في السِّلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيّد في الكيل والنقصان منه. وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك مَنْهِيٌّ عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم).

وقال قتادة: (﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾، قال: لا تظلموا الناس أشياءهم).

وقوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾.

قال القاسمي: (﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: بالكفر والظلم ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ أي: بعدما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون العاملون بشرائعهم من وضع الكيل والوزن والحدود والأحكام).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

قال النسفي: (﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل وترك البخس والإفساد في الأرض ﴿خير لكم﴾ في الإنسانية وحسن الأحدوثة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدقين لي في قولي).

وقوله: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾.

فيه نهي من شعيب ﷺ قومه عن قطع الطريق المادي والمعنوي: طريق الناس وطريق الحق.

قال ابن عباس: (﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، قال: و«الصراط» الطريق، يُخوِّفون الناس أن يأتوا شعيباً. قال: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون من أتى عليهم: أن شعيباً عليه السلام كذاب، فلا يفتنكم في دينكم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4019). وأخرجه البزار والبيهقي من حديث ابن عمر، وقد مضى بتمامه. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3246).

وقال السدي: (كانوا يقعدون على كل طريق يوعدون المؤمنين). وفي لفظ: (كانوا عشارين، أي: يتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوهم أموالهم). وعن مجاهد: (﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾: تلتمسون لها الزيغ).

وقوله: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾.

قال القرطبي: (أي: كثّر عددكم، أو كثركم بالغنىٰ بعد الفقر. أي: كنتم فقراء فأغناكم).

وقوله: ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

قال النسفي: (أي: آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم كقوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

قال القاسمي: (يعني: وإن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين مؤمنة وكافرة ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ أي: بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين).

وقوله: ﴿ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾.

إخبار من الله تعالى عن طريقة الملأ الكافر الذين واجهوا نبي الله شعيباً ومن آمن معه بالتهديد والوعيد: بالنفي من القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم.

وقوله: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾.

قال القرطبي: (أي: ولو كنا كارهين تجبروننا عليه، أي: على الخروج من الوطن أو العود في ملتكم. أي: إن فعلتم هذا أتيتم عظيماً).

وقوله: ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾.

قال السدي: (يقول: ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله منها، إلا أن يشاء الله ربنا، فالله لا يشاء الشرك، ولكن نقول: إلا أن يكون الله قد علم شيئاً، فإنه

وسع كل شيء علماً). وقال ابن كثير: (وهذا ردّ إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علماً).

وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

أي: ما توكلنا إلا على الله ربنا في أمورنا جميعاً ما نأتي منها وما نذر. قال ابن عباس: (﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾، يقول: اقض بيننا وبين قومنا). وقال قتادة: (اقض بيننا وبين قومنا بالحق). وقال السدي: (احكم بيننا). وقال النسفي: (﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ كقوله: وهو خير الحاكمين).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

أي: هالكون.

وقال النسفي: (أي: مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتباعه لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية).

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أخبر تعالى ها هنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجَفُوا شعيباً وأصحابه وتوعَّدهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾. والمناسبة في ذلك ـ والله أعلم ـ أنهم لما تَهَكَّموا بنبي الله شعيب في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، فجاءت الصيحة أسكتتهم. وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ.. ﴿١٨٧﴾﴾.. الآية، فأخبر أنهم أصابهم عذاب يومِ الظُّلَّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كلُّه ـ أصابهم عذابُ يوم الظلة، وهي سحابة أظلَّتهم فيها شَرَرٌ من نار ولَهَب ووَهج عظيم، ثم جاءتهم صيحةٌ من السماء، ورجفةٌ من الأرض شديدة من أسفلَ منهم، فزهَقَتِ الأرواحُ، وفاضت النفوسُ، وخمدت الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾، يقول: كأن لم يعيشوا فيها). وقال قتادة: (كأن لم يعيشوا، كأن لم ينعموا). وقال ابن زيد: (﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ كأن لم يكونوا فيها قط).

قال القرطبي: (﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ابتداء خطاب، وهو مبالغة في الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه. ولما قالوا: من اتبع شعيباً خاسِر قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول).

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: لقد أدبر شعيب عنهم مغادراً من بين أظهرهم حين أيقن أن عذاب الله ونقمته لا محالة واقع بهم ـ وهو يقول ـ: يا قوم لقد أديت إليكم ما بعثني الله به إليكم وحذرتكم غضبه ومغبة الاستمرار على معصيته وبذلت لكم غاية النصح، فكيف أحزن على قوم كفروا بالله وأمره ووعده ووعيده.

قال ابن عباس: (﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾، يعني: فكيف أحزن).

وقال ابن إسحاق: (أصاب شعيباً على قومه حُزْن، لما يرىٰ بهم من نقمة الله، ثم قال يعزي نفسه، فيما ذكر الله عنه: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾).

94 - 102. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ

ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر الله تعالى عن سنته في أهل القرى الذين يستبيحون معصيته ـ إنه ما أرسلنا في قرية من نبي فكذبه أهلها إلا سلطنا عليهم الضيق والبؤس والأمراض والأسقام لعلهم إلى ربهم يتضرعون. ثم بدلنا مكان الشدة رخاء حتى كثروا وكثرت أموالهم وتمتعوا بالعافية والنعيم، فنسبوا ذلك إلى تقلبات الدهر كما حصل للآباء في أيامهم، فالدهر تارات وتارات، فباغتهم الله حينئذ بالعذاب والهلاك من حيث لا يشعرون. إنه لو آمن أهل القرى واتقوا ربهم وشكروه حق شكره لأرسل عليهم السماء مدراراً، ولأَنْبَتَ لهم في أرجاء أراضيهم نباتاً وثماراً وأزهاراً، ولكنهم أصروا على تعظيم شهواتهم فعاجلهم سبحانه بعذابه ولم يُبْقِ على الأرض من الكافرين ديّاراً. هل أمن الناس وهم يصرون على ما يسخط ربهم أن يفاجئهم ربهم بالعذاب وهم نيام في ليلهم، أو وَهُم في النهار يسرحون في أعمالهم؟ هل يأمنون مكر ربهم مقابل مكرهم؟ إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. أم لم يتبيّن للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ـ وهم يشركون بالله كسابقيهم من الأمم ـ أن الله لو شاء عاجلهم بعقاب مقابل ما اجترحوه من آثام، أو ختم على قلوبهم فلا يسمعون موعظة ولا ينتفعون هدىً ولا تبصيراً. هذه القرى ـ يا محمد ـ التي أهلكناها من الأمم التي سبقت قد جاءهم البلاغ المبين، من إخوتك الرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، فما كانوا ليختاروا الإيمان وهم يشركون، وقد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، فيختم عليها عقوبة لأصحابها فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. وقد نقضوا عهد الله عليهم وميثاقه فما حملوا الأمانة بل كانوا أهل خيانة وأكثرهم كانوا فاسقين.

فقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

قال السدي: (يقول: بالفقر والجوع). والتقدير: ما أرسلنا في قرية من نبي فكذبه

أهلها إلا سلطنا عليهم البؤس وشظف المعيشة وضيقها ، وسوء الأحوال في معيشتهم ودنياهم. قال ابن كثير: (يعني ﴿بالبأساء﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام. ﴿والضراء﴾ ما يصيبهم من فقرٍ وحاجة ونحو ذلك).

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ .

أي: يتضرعون. قال ابن جرير: (ولكن أدغمت التاء في الضاد لتقارب مخرجهما). والمعنى: أي امتحنهم الله تعالىٰ بالشدة ليتضرعوا ويبتهلوا إليه سبحانه ويدعوه لكشف ما نزل بهم ، إلا أنهم تكبروا فاختبرهم عندئذ بالرخاء.

وهو قوله: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ .

قال قتادة: (مكان الشدة رخاء). وقال مجاهد: (﴿السيئة﴾، الشر، و﴿الحسنة﴾، الرخاء والمالُ والولد). أو قال: (﴿السيئة﴾ ، الشر ، و﴿الحسنة﴾ ، الخير).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ .

قال ابن عباس: (يقول: حتى كثروا وكثرت أموالهم). وقال: (﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ ، قال: جَمُّوا). وقال مجاهد: (كثرت أموالهم وأولادهم). وقال السدي: (حتى كثروا). وقال إبراهيم: (حتى جَمُّوا وكثروا). وقال ابن زيد: (كثروا كما يكثر النبات والرّيش ، ثم أخذهم عند ذلك بغتة وهم لا يشعرون).

قال القرطبي: (أعلم الله تعالى أنه أخذهم بالشدة والرخاء فلم يزدجروا ولم يشكروا).

وقوله: ﴿ وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ .

أي: فنحن مثلهم في تقلب الأيام والأحوال ، وهكذا الدهر تاراتٌ وتاراتٌ ، فيوم لنا ويوم علينا ، ويوم نُساء ويوم نُسَرّ ، وما استشعروا بغفلتهم ابتلاء الله لهم واختباره في الحالتين.

قال ابن جرير: (وجهل المساكين شكرَ نعمة الله ، وأغفلوا من جهلهم استدامةَ فضله بالإنابة إلى طاعته ، والمسارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة ، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بتوضيح آلية الابتلاء ، في الشدة والرَخاء ، وكيف ينجو العبد وينجح في الاختبارين ، ومن ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَثَلُ المؤمن مَثَلُ الزرعِ ، لا تزال الريح تُمِيلُهُ ، ولا يزال المؤمن يصيبُهُ البلاء ، ومَثَلُ المنافق كمثلِ شجرة الأَرْزِ ، لا تَهْتَزُّ حتى تُسْتَحْصَد][1] .

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن ماجة وابن حبان بسند جيد ، من حديث مصعب بن سعد عن أبيه قال: [قلت لرسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: فقال: أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلىٰ الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ، ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة][2] .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة والحاكم بسند صحيح على شرط مسلم من حديث أبي سعيد الخدري: [أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلىٰ بالفقر ، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة التي يحويها ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء][3] .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن عظم الجزاء من عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط][4] .

الحديث الخامس: أخرج الدارمي وأحمد بسند صحيح عن صهيب قال: [بينا رسول الله ﷺ قاعدٌ مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][5] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم(2809) ـ كتاب صفات المنافقين. باب مثل المؤمن كالزرع ، والمنافق والكافر كالأرزة. وانظر الحديث (2810) ـ من الباب نفسه ، وكذلك ما بعده.

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (64/2) ، وابن ماجة (4023) ، وابن حبان (699) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (4024) ، وابن سعد (208/2) ، والحاكم (307/4) ، وغيرهم.

(4) حديث حسن. أخرجه الترمذي (64/2) ، وابن ماجة (4031) ، والبزار (227/2) ، وغيرهم.

(5) حديث صحيح. أخرجه الدارمي (318/2) ، وأحمد (16/6) ، وسنده صحيح على شرط مسلم ـ كما ذكر الألباني في السلسلة الصحيحة (147). وأصله في صحيح مسلم (227/8).

الحديث السادس: أخرج أبو يعلىٰ في «المسند» ، والحاكم في «المستدرك» بسند حسن ، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ:[إن الرَّجل ليكونُ له عند الله المَنْزِلَةُ ، فما يَبْلُغُها بعمل ، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يُبَلِّغَهُ إيّاها][1].

الحديث السابع: أخرج الترمذي بسند حسن في الشواهد عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: [لَيَوَدَّن أهلُ العافية يومَ القيامة أنَّ جلودَهُم قُرِضَتْ بالمقاريض ، مما يَرَوْنَ من ثواب أهلِ البلاء][2].

وقوله: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فأخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة ، أتاهم على غِرّة منهم بمجيئه ، وهم لا يدرون ولا يعلمون أنه يجيئهم ، بل هُمْ بأنه آتيهم مكذّبون حتىٰ يعاينوه ويرَوه).

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبيد بن خالد السلمي ـ رجل من أصحاب النبي ﷺ ـ قال مرة: عن النبي ﷺ: [مَوْتُ الفَجْأَةِ أَخْذَةُ أسفٍ][3].

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

قال القرطبي: (يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها. من قريت الماء إذا جمعته. ﴿آمنوا﴾ أي: صدقوا. ﴿واتقوا﴾ أي: الشرك. ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يعني: المطر والنبات). قلت: (ويدخل في البركات كل وجوه الخير المختلفة).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: 10 ـ 12].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو يعلىٰ (1447/4-1448) ، والحاكم (344/1) ، وابن حبان (693) ، وغيرهم. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث حسن ـ في الشواهد. أخرجه الترمذي (2404) ، والطبراني في «الكبير» ـ نحوه ـ (2/178/3) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2206).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3110) ـ باب موت الفجأة. انظر صحيح سنن أبي داود (2667).

وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود].

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أي: أخذناهم بالعذاب بتكذيبهم الرسل، وكفرهم وسوء كسبهم وما كانوا يعملون.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

أي: هل أمن أهل القرى التي أرسل فيها الرسل أن ينزل بهم نكال الله وعذابه ليلاً وقت بياتهم وهم نائمون غافلون في كمال غفلتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

أي: وهل أمن أهل هذه القرى أن يباغتهم عذاب الله نهاراً وهم يخوضون في الباطل ويلهون ويلعبون.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: هل يأمن هؤلاء المسرفون في غيهم وضلالهم عذاب الله وجزاءه مقابل مكرهم، أو استدراجه لهم بالنعمة والصحة وسعة الرزق، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الهالكون.

قال الحسن البصري: (المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق، وَجِلٌ خائف. والفاجر يعمل بالمعاصي وهو امن).

أخرج الطبراني ورجاله ثقات عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله، واليأسُ من رَوْح الله، والأَمْنُ من مكر الله][1].

وروىٰ عبد الرزاق عن ابن مسعود قال: [أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأسُ من رَوْح الله][2].

(1) إسناده صحيح. أخرجه البزار والطبراني كما ذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد» (1/ 104)، وقال: رجاله موثقون. انظر تحقيق فتح المجيد (422)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (492/1).

(2) صحيح. أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (1/ 104) انظر فتح المجيد (424)، وكذلك المرجع السابق (492/1) لمزيد من التفصيل.

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾: قال: يُبَيِّن). وقال ابن عباس: (أو لم يبيّن).

وقال السدي: (﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾، يقول: أو لم يتبين للذين يرثون الأرض من بعد أهلها، هم المشركون).

وقال ابن زيد: (﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾، أو لم نُبَيِّن لهم، ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾، قال: و«الهدى»، البيان الذي بُعث هادياً لهم، مُبَيّناً لهم حتى يعرفوا. لولا البيان لم يعرفُوا).

وقوله: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

أي: ونختم على قلوبهم فلا يسمعون عندئذ موعظة ولا ينتفعون تذكيراً.

وقوله: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: هذه القرى التي أهلكناها ـ كما قصصنا عليك من أخبارها ـ كقرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب وغيرهم، قد جاءهم البلاغ المبين من رسلهم وحجة الله البالغة. وهذا فيه تسلية لنبينا محمد ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه.

وقوله: ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ ﴾.

فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال مجاهد: (أي: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم).

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ... ﴾ [الأنعام: 28].

2 ـ قال ابن عباس والربيع: (كان في علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل).

3 ـ قيل: سألوا المعجزات، فلما رأوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤية المعجزة.

واختار ابن جرير القول الثاني وقال: (سبق في علم الله تبارك وتعالى لمن هلك من الأمم التي قصّ نبأهم في هذه السورة، أنه لا يؤمن أبداً، فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم لم

يكونوا ليؤمنوا بما هم به مكذبون في سابق علمه ، قبل مجيء الرسل عند مجيئهم إليهم).

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

قال القرطبي: (أي: مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ).

وقوله: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾.

مِنْ زائدة ، تدل على معنىٰ الجنس. ومن أقوال المفسرين:

1 ـ قال ابن عباس: (يريد العهد المأخوذ عليهم وقت الذَّرِّ).

وقال أبي بن كعب: (في الميثاق الذي أخذه في ظهر آدم عليه السلام).

وقال مجاهد: (﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ ، الآية ، قال: القرون الماضية. و«عهده» ، الذي أخذه من بني آدم في ظهر آدم ولم يفوا به).

2 ـ وقال الحسن: (العهد الذي عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً).

وقال ابن عباس: (وذلك أن الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما أوصاهم به).

3 ـ وقيل: أراد أن الكفار منقسمون ، فالأكثرون منهم من لا أمانة له ولاوفاء ، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلوا ، روي عن أبي عبيدة ـ ذكره القرطبي.

قلت: وكل ما ذكر يدخل في مفهوم تأويل هذه الآية ، فإن خيانة العهد متأصلة في أهل الكفر وقد علم الله ذلك فيهم قبل أن يخلقهم ، ثم مضىٰ ذلك في سلوكهم أثناء حياتهم ، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾. قال مجاهد: (القرون الماضية).

103 - 112. **قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن**

رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر الله تعالى عن تتابع الرسل في الأرض بالمهمة نفسها ، فبعث موسىٰ عليه الصلاة والسلام بالحجج والأدلة إلى فرعون وقومه فكذبوا بها. فانظر يا محمد بعين قلبك كيف أغرق الله فرعون وقومه المفسدين. وكان موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد حذره من قبل ، وأنذره بأنه رسول رب العالمين. فحق عليه أن لا يتكلم إلا بالحق وقد جاءهم ببرهان من ربه ليرسل معه بني إسرائيل. فقال له فرعون: إن كنت صادقاً بأنك تحمل بينة فأت بها ، فألقىٰ موسىٰ عصاه حينئذ فتحولت إلى حية عظيمة ، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء أشد من اللبن ، من غير برص ، فنسب إليه ـ عند ذلك ـ فرعون وملأه السحر وإتقان الخفة ، وحذّر قومه من قصده وما يبغي بذلك ، وأنه يريد إخراجهم من البلاد واستذلالهم بذلك. فقالوا أخّره وابعث في مدائن ملكك إلى السحرة يأتوك مجموعين جاهزين ليكشفوا بمهارتهم وحيلتهم سحر موسىٰ ويغلبوه حتى يخسر الجولة.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: ثم بَعَثْنا مِنْ بعد الرسل الذين سبق ذكرهم موسىٰ عليه وعليهم الصلاة والسلام ، بحججنا ودلائلنا الواضحة إلى فرعون ـ ملك مصر آنذاك ـ وإلى قومه ، فجحدوا تلك الآيات وأنكروها كبراً وظلماً وبغياً وعلواً في الأرض. كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]. أي: انظر ـ يا محمد ـ بعين قلبك ، كيف أغرق الله فرعون ومن طغىٰ معه في البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

هكذا ناظر موسىٰ عليه السلام ـ فرعون الطاغية ـ فقال له: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أي: أرسلني الله تعالى الذي هو خالق كل شيء، وقد دانت المخلوقات جميعاً لجبروته.

وقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قرأ نافع وجماعة من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ أي: واجب علي. والمعنىٰ: حق عليَّ أن لا أقول على الله إلا الحق.

وقرأ بعض قراء المدينة والبصرة ومكة والكوفة: ﴿حَقِيقٌ علىٰ﴾. والمعنى: حريص على ألا أقول. وهما قراءتان مشهورتان.

قال ابن جرير: (﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يقول: قال موسىٰ لفرعون وملئه: قد جئتكم ببرهان من ربكم، يشهدُ، أيها القوم، على صحة ما أقول، وصدق ما أذكر لكم من إرسال الله إياي إليكم رسولاً، فأرسل يا فرعون معي بني إسرائيل).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: أجاب فرعون: إن كنت يا موسىٰ قد جئت بحجة وبينة تشهد على صدق ما تقول فائتِ بها إن كنت صادقاً في دعواك.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

قال قتادة: (تحولت حية عظيمة). قال القرطبي: (والثعبان: الحية الضخم الذكر، وهو أعظم الحيات. ﴿مبين﴾ أي: حية لا لبس فيها).

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

قال ابن عباس: (أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء. قال: من غير برص).

وقال مجاهد: (نزع يده من جيبه بيضاء من غير برص). وقال: (وكان موسىٰ رجلاً آدم، فأخرج يده فإذا هي بيضاء، أشد بياضاً من اللبن، ﴿من غير سوء﴾، قال: من غير برص، آيةً لفرعون).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ وهم الجمهور والسادة ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتُهم في إطفاء نُوره وإخماد كلمته، وظهور كذِبه وافترائه، وتَخوَّفوا أن يستميل الناسَ بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: 6]. فلما تشاوروا في شأنه، وائتمروا فيه، اتفق رأيُهم على ما حكاه الله ـ تعالىٰ ـ عنهم):

في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾.

أرجه: يعني أرجئه، أي: أخِّره.

قال ابن عباس: (﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ قال: أخّره. ﴿ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾، قال: الشُّرَط).

وقال قتادة: (﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾، أي: احبسه وأخاه).

والمقصود: قال الملأ من قوم فرعون مقترحين مشيرين على ملكهم فرعون: ابعث في الأقاليم ومدائن ملكك الشُّرَط، ليحشروا إليك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم لديك، ليكونوا على جاهزية لكشف سحر موسىٰ. كما قال تعالى في سورة طه ـ يحكي قول فرعون لموسى: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾.

113 - 126. **قوله تعالى:** ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ

وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: يخبر الله تعالى عن مسارعة سحرة فرعون لمبارزة موسىٰ بسحرهم طمعاً في جائزة فرعون وتقريبه لهم ، وقد سألوه ذلك فأعطاهم العهد على ذلك ، فلما التقوا سألوا موسىٰ إن كان يحب أن يبدأ بعرض ما عنده ، فأجابهم: بل أنتم ألقوا قبلي ، وذلك أبلغ إذ يرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من استعراضهم ألقىٰ موسى عصاه لتبتلع سحرهم وأدواتهم. وبالفعل ، فقد أرهبوا الناس بحبالهم حين ألقوها وخيّلوا إلى أبصارهم أن ما يجري حقيقة ، فلما ألقىٰ موسى عصاه انقلبت بإذن الله حية فابتلعت ما يكذبون. فظهر الحق وانكشف الباطل والخداع وظهر فرعون وجنوده أذلاء مبهوتين مقهورين. وخرّ السحرة ساجدين ، يشهدون أن لا إله إلا الله رب العالمين. رب موسىٰ وهارون. ففزع فرعون من خشية السقوط أمام الناس فتوعد وهدّد ، وأخذ يصطنع التدليس والمكر: أن ما كان مؤامرة قد أُعِدَّ لها بين موسىٰ والسحرة ـ مع أن موسىٰ لم يلقهم ولم يعرفهم قبل ـ وحاول إخافة القوم بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم مخالفة مع التصليب والنكال ، فقابلوه بإيمان كالجبال ، قال له السحرة: إنا إلى ربنا منقلبون ـ أي: آيبون راجعون ـ. وإنما تنقم منا أنا آمنا بالله العظيم ، وقد أكرمنا برؤية بعض آياته يذكرنا بعظمته إنه هو الجبار الحكيم ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين.

فقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ .

قال القرطبي: (﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ وَحُذِف ذِكر الإرسال لعلم السامع. ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾[1] أي: جائزة ومالاً).

وقال ابن جرير: (قال فرعون للسحرة، إذ قالوا له: إن لنا عندك ثواباً إن نحن غلبنا موسىٰ؟ قال: نعم، لكم ذلك، وإنكم لممن أقرِّبه وأدْنيه مني).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۝١١٥ قَالَ أَلْقُواْ ﴾.

قال ابن كثير: (هذه مبارزة من السحرة لموسىٰ عليه السلام في قوله: ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾، أي: قَبْلك. كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ [طه: 65]، فقال لهم موسىٰ عليه السلام: ﴿ألقوا﴾ أي: أنتم أولاً قبلي. والحكمة في هذا ـ والله أعلم ـ ليرىٰ الناس صَنيعَهم ويتأمَّلُوه، فإذا فَرَغُوا من بَهْرَجِهِم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تَطَلُّب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان).

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.

قال ابن عباس: (ألقوا حبالاً غلاظاً طوالاً وخَشباً طوالاً. قال: فأقبلت يخَيَّلُ إليه من سحرهم أنها تسعىٰ).

وكان أن استرهبوا الناس بصنيعهم، وخيّلوا إلى أبصارهم أن ما يجري أمامهم حقيقة، فاختطفوا بسحرهم بصر موسىٰ وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

قال قتادة: (فألقى موسىٰ عصاه، فتحولت حية، فأكلت سحرهم كله).

وقال ابن عباس: (فألقىٰ عصاه فإذا هي حية تلقف ما يأفكون، لا تمر بشيء من حبالهم وخُشُبهم التي ألقوها إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمرٌ من السماء، وليس هذا بسحر، فخرّوا سجّداً وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾).
وعن مجاهد: (﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾، قال: يكذبون).

---

(1) قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر «إنَّ لنا»، وقرأ الباقون «أئن لنا».

وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

قال مجاهد: (ظهر الحق، وذهب الإفك الذي كانوا يعملون). وفي رواية عنه قال: (﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾، ظهر موسىٰ).

وقوله تعالى: ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾.

أي: غُلب فرعون وجنوده والسحرة وصاروا أذلاء مقهورين مبهوتين بتغلب موسىٰ ﷺ عليهم ودحضه كذبهم وألاعيبهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر، فخروا سجداً، وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾).

قال الجشميّ: (دلت الآية على أن السحرة عرفوا أن أمر العصا ليس من جنس السحر، فآمنوا في الحال).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

قال القرطبي: (﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ إنكار منه عليهم. ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ أي: جرت بينكم وبينه مُواطأة في هذا لتستولوا على مصر، أي: كان هذا منكم في مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد لهم).

ولا شك أن هذا الذي قاله فرعون من أبطل الباطل. قال ابن كثير: (فإن موسىٰ ـ عليه السلام ـ بمجرد ما جاء من مَدْين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صِدْق ما جاء به، فعند ذلك أرسلَ فرعونُ في مدائن ملكه ومُعاملة سَلْطَنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون. وموسىٰ عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رَعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: 54]، فإن قوماً صدقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، من أجْهل خلق الله وأضلهم).

وقوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال ابن عباس: (أوّل من صلّب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون).

قال ابن جرير: (وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنىٰ ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنىٰ، فيخالف بين العضوين في القَطْع، فمخالفته في ذلك بينهما هو «القطع من خلاف»). قال: (﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وإنما قال هذا فرعون، لما رأىٰ من خذلان الله إياه، وغلبة موسىٰ عليه السلام وقهره له).

وقال القاسمي: (﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: تفضيحاً لكم، وتنكيلاً لأمثالكم).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

قال ابن كثير: (﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله مما تدعونا إليه اليوم ومما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: عُمَّنا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسىٰ عليه السلام).

قال مجاهد: (﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، قال: كانوا أول النهار سحرة، وآخره شهداء).

وقد حكىٰ الله سبحانه في سورة طه مواجهة السحرة فرعون بعد تهديده، فقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: 72 ـ 75].

قلت: والصبر من أنفع الأعمال للعبد، فهو حبس اللسان والقلب والنفس والجوارح عن التشكي والجزع والتسخط والتذمر. وقيل: (هو الثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والسعة).

ومنه قول سحرة فرعون لما آمنوا وقد توقعوا البلاء من غضب فرعون وقومه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

قال الجنيد: (المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن. وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس إلى الله صعب شديد والصبر مع الله أشد. وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرّع المرارة من غير تعبّس).

وقال الإمام أحمد: (الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً). قال ابن القيم: (وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ...﴾ [النحل: 127].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾ [الأحقاف: 35].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: [ما يصيب المسلمَ من نصَب ولا وصب ولا همٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غمٍّ حتىٰ الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهُم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نَفِدَ ما عِنْدَه، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: ما يكن عندي من خيرٍ فلن أدَّخِرَه عنكم، ومن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّه الله، ومن يستغن يُغْنِه الله، ومن يَتَصَبَّر يُصَبِّرْهُ الله. وما أعطيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 16) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة. انظر مختصر صحيح مسلم (1798). والنصب: التعب. والوصب: المرض.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (265/3)، (260/11)، ومسلم (1053)، وانظر مختصر صحيح مسلم (555). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الحديث الثالث: أخرج الحاكم والبيهقي بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المُؤْنَة ، وإن الصبرَ يأتي من الله على قدر المصيبة][1] . وفي لفظ: [على قدْر البلاء].

127 - 129. **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: يخبر الله تعالى عن تدخل بعض قادة فرعون ووجهائه من الملأ مشيرين عليه أنْ كيف يترك موسىٰ ومن سار معه من بني إسرائيل يفسدوا بذلك الخدم والعبيد ودين الرعية الذي استعبدهم به فرعون ، فقال لهم فرعون: سنقتل الذكور من أبنائهم ونستبقي الإناث منهم وإننا قاهرون لهم بالحكم والقرار والسلطان. فقال موسىٰ لقومه يصبرهم ويأمرهم بالاستعانة بالله العظيم ، ثم بالصبر على البلوىٰ والمحن ، فإن الأرض لله يستخلف عليها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين خير في الدارين. فقالوا يا موسىٰ: لقد أصابنا الأذى من فرعون بقتل الأبناء قبل مجيئك إلينا بالرسالة ، وكذلك اليوم بعد مجيئك يشتد علينا البلاء والإيذاء ، فقال لهم: عسىٰ الله أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض من بعده فينظر كيف يكون شكركم وكيف تكون طاعتكم وعبادتكم.

فقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وقالت جماعة رجال من قوم فرعون لفرعون: أتدع موسىٰ وقومه من بني إسرائيل ، ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، يقول: كي يفسدوا

(1) حديث حسن. أخرجه البزار في «مسنده» (ص 156) ، وابن عدي في «الكامل» (206/1) ، ورواه الحاكم والبيهقي ، وكذلك الديلمي (246/2/1). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1664).

خدمك وعبيدك عليك في أرضك من مصر ، ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ ، يقول: ﴿ويذرك﴾ ويدع خِدْمتك موسىٰ و عبادتك وعبادة آلهتك).

وقوله: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ .

أي: قال فرعون: سنقتل الذكور من أبنائهم ـ من أولاد بني إسرائيل ـ ونستبقي الإناث منهم ، وإنا قاهرون لهم بالملك والسلطان ، عالون عليهم بالحكم والقرار.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

أَمْرٌ بالصبر والتقوى ، فالعاقبة للمتقين في الدارين.

قال القرطبي: (أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر. ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: الجنة لمن اتقى وعاقبة كل شيء: آخره. ولكنها إذا أطلقت فقيل: العاقبة لفلان فُهِمَ منه في العُرْف الخير).

وقوله: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . . . ﴾ الآية.

قال ابن جرير: (﴿ قَالُوا أُوذِينَا ﴾ بقتل أبنائنا ، ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ ، يقول: من قبل أن تأتينا برسالة الله إلينا ، لأن فرعون كان يقتل أولادهم الذكور حين أظلَّهُ زمان موسىٰ).

وقال السدي: (فلما تراءىٰ الجمعان فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد رَدِفَهم ، قالوا: «إنا لمدركون» ، وقالوا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ ، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ، ﴿ وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ، اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا ، إنا لمدركون).

وعن ابن عباس قال: (سار موسىٰ ببني إسرائيل حتى هجموا على البحر ، فالتفتوا فإذا هم بِرَهَج دَوَّابِ فرعون ، فقالوا: يا موسىٰ ـ ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ، هذا البحر أمامنا ، وهذا فرعون بمن معه! قال: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾). قلت: و«عسىٰ» من الله واجب ، وقد حقّق الله لهم الوعد[1].

---

(1) فكان أن استخلفهم سبحانه في مصر زمان داود وسليمان عليهما السلام ، وفتحوا بيت المقدس مع يُوشَعَ بن نون ، وأكثر عليهم سبحانه من نعمه وآلائه.

قال القرطبي: (﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. أي يرىٰ ذلك العمل الذي يجب به الجزاء، لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، إنما يجازيهم على ما يقع منهم).

والمقصود: إن الله تعالى جدّد لهم الوعد وحقّقه، فيرىٰ سبحانه ما يعملون بعد استخلافهم، من تسابق للطاعة أو تثاقل عنها.

130 - 137. **قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ عن تسليطه القحط والجوع وقلة الزروع على آل فرعون لعلهم يتعظون. فإنهم كانوا إذا لمسوا العافية والرخاء قالوا نحن أحق بها، وإذا نزل بهم بلاء وعقوبة تشاءموا بموسىٰ وأنزلوا المصائب الحاصلة به، وإنما الأمر كله لله لو كانوا يعلمون، ولكن أكثرهم يجهلون. وقد تطاولوا حتى قالوا لموسىٰ: إنا لن نقبل منك أي آية أو حجة فما نحن لك بمؤمنين. فأرسل الله عليهم عندئذ المطر الشديد المهلك، والجراد المنتشر يسحق الزروع والثمار، وكذلك السوس ينخر في الطعام والمدخرات، والضفادع تقع في طعامهم وشرابهم فتفسدها عليهم، ثم الدم يعكر مياههم وآبارهم وأنهارهم وأوعيتهم جزاء بما كانوا يفسدون. ثم إنهم لما نزل بهم البلاء

سألوا موسىٰ أن يدعو ربه بما عهد له من النبوة لئن رفعت عنا الرجز لنصدقن بك وبدعوتك ولنقرن لك بالطاعة ، وَلنخلين معك بني إسرائيل. فلما رفع الله عنهم ذلك العذاب ـ إلى حين موعد هلاكهم الأخير بالغرق ـ إذا هم ينقضون العهد والمواثيق ، فما كان بعد هذه السلسلة من التكذيب والمكر إلا أن أنزل الله بهم نقمته وانتصر منهم فأغرقهم في البحر فكانوا كأمس الذاهب. ثم أورث الله المؤمنين من بني إسرائيل أرض الشام ومصر ، وجميع جهات المشرق والمغرب التي بارك سبحانه فيها بإخراج الزروع والثمار وجريان الأنهار ، وكونها مهد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتمت كلمة الله الحسنى أن استحقوا وعده ونصره بعد طول جهاد وصبر ، وأهلك الله فرعون وقومه ، ودَمَّرَ ما عمروه وصنعوه ، وما بنوه طمعاً في البقاء في منصة الحكم والكبر والعلو في الأرض.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾.

قال أبو إسحاق ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله: (سني الجوع). وقال مجاهد: (الجائحة). أي: ابتليناهم وامتحناهم بسني الجوع بسبب القحط والجدب وقلة الزروع. وفي الحديث: [اللهم اجعلها عليهم سنين كسِني يوسف][1].

وقوله: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

قال رجاء بن حيوة: (حيث لا تحمل النخلة إلا ثمرة واحدة).

وقال قتادة: (أخذهم الله بالسنين ، بالجوع ، عاماً فعاماً ، ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ، فأما «السنين» فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيهم ، وأما ﴿بنقصٍ من الثمرات﴾ ، فكان ذلك في أمصارهم وقراهم).

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أي: ليرعووا ويتعظوا وترق قلوبهم.

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ ، العافية والرخاء ، ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ ، نحن أحق بها ، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ ، بلاء وعقوبة ، ﴿ يَطَّيَّرُواْ ﴾ ، يتشاءموا بموسىٰ).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (2932) ، وأخرجه الإمام مسلم (675) ، وغيرهما.

وقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، يقول: الأمر من قبل الله. قال: مصائبهم عند الله. قال الله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾).

وقولــه تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: يقولون: إنه لن نقبل منك أي آية تأتي بها أو حجّة تقيمها علينا، فما نحن لك بمؤمنين. قال ابن جرير: (قال آل فرعون لموسىٰ: يا موسىٰ، مهما تأتنا به من علامة ودلالة، ﴿لتسحرنا﴾، يقول: لتلفتنا بها عما نحن عليه من دين فرعون، ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، يقول: فما نحن لك في ذلك بمصدقين على أنك محق فيما تدعونا إليه).

وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾.

الطوفان: هو المطر الشديد حتى الفيض وخشية الغرق. قال ابن عباس: (لما جاء موسىٰ بالآيات، كان أول الآيات الطوفان، فأرسل الله عليهم السماء. قال الضحاك: (﴿الطوفان﴾، الماء).

وقال أيضاً: (﴿الطوفان﴾، الغرق). وقيل: (الطوفان: كثرة الموت). وقيل: (الطاعون). والأول أرجح، كما قال ابن عباس في الرواية المشهورة: (كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار). وهو اختيار القرطبي رحمه الله ـ حيث قال: (﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ أي: المطر الشديد حتى عامُوا فيه).

والجراد: حيوان معروف، جمع جرادة في المذكر والمؤنث، قيل: بعثه الله عليهم حتى أكل زروعهم وثمارهم، حتى أنها كانت تأكل السقوف والأبواب حتى تنهدِمَ ديارهم. ولم يدخل دُور بني إسرائيل منها شيء. والجراد حلال أكله كما ثبت في السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وابن ماجة بسند صحيح، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [أحلت لنا ميتتان ودمان، أما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال](1).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/255/96)، والبيهقي (254/1)، وأخرجه ابن ماجة (3314)، وابن عدي (229/1)، والبغوي في «شرح السنة» (2/185/3).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي يَعفُور قال: [سألت عبد الله بن أبي أوفىٰ عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد][1].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي زهير، عن النبي ﷺ قال: [لا تقتلوا الجراد، فإنه من جند الله الأعظم][2].

قلت: الراجح أنه النهي عن قتله لغير الحاجة لأكله، أما إن كان الجراد بكميات كبيرة تؤذي الزرع ولا سبيل لطرده دون قتله، جاز قتله واستخدام المبيدات ضده، فإنه لا ضرر ولا ضرار.

وأما ﴿القمّل﴾ في معناه أقوال:

1 ـ قال ابن عباس: (هو السوس الذي يخرج من الحنطة).

2 ـ وقال السدي: (الدَّبىٰ، القمّل). والدّبىٰ: صغار الجراد الذي لا أجنحة له.

3 ـ وقال سعيد بن جبير: (القمّل: : دواب سود صغار).

4 ـ وقال ابن زيد: (زعم بعض الناس في القمل أنها البراغيث).

5 ـ وقال عطاء الخراساني: (القُمَّل: القَمْل).

6 ـ وقال أبو عبيدة: (القمّل: الحَمْنَان). وهو ضرب من القُراد، واحدها حَمْنانة. فأكلت دوابَّهم وزروعهم، ولزمت جلودهم كأنها الجُدري عليهم ومنعتهم النوم والقرار.

7 ـ وقال حبيب بن أبي ثابت: (القمّل الجِعلان). وهو دابة سوداء من دواب الأرض.

قلت: لما عاهد القوم موسىٰ أن يؤمنوا لو كشف عنهم الجراد، فدعا فكشف وقد بقي من زروعهم شيء فاعتبروها كافية، وجحدوا مرة أخرىٰ، فسلط الله عليهم القُمّل، وهي أصغر من الجراد على ما مضىٰ، حتى رأوا العنت والهلاك، فتضرعوا فلما كشف عنهم لم يؤمنوا، فسلط الله عليهم الضفادع.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5495)، ومسلم (1952)، وأبو داود (3812)، والترمذي (1822)، وأخرجه أحمد (357/4)، والنسائي (210/7)، وابن حبان (5257)، والبيهقي (257/9). من حديث أبي يعفور عن عبد الله أبي أوفى رضي الله عنه.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني (297/22)، وفي مسند الشاميين (1656)، والأوسط (159).

فقوله: ﴿ وَٱلضَّفَادِعَ ﴾.

جمع ضفدع ، وهي المعروفة التي تكون في الماء. وقد ورد النهي عن قتلها وبالتالي أكلها ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة وأبو داود وأحمد ـ واللفظ لابن ماجة ـ عن أبي هريرة قال: [نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصُرَد والضفدع والنملة والهدهد][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الرحمن بن عثمان: [أن طبيباً سأل النبي ﷺ ، عن ضِفْدَعٍ يجعلها في دواء ، فنهاه النبي ﷺ عن قتلها][2].

الحديث الثالث: يروي النسائي بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقتلوا الضفادع][3].

والخلاصة في معنى هذه الآية: لقد سلّط الله عليهم الضفادع حتى كانت تقع في طعامهم وشرابهم ، وإذا تكلم الرجل تقع في فيه.

يروي ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير قال: (لما أتىٰ موسىٰ فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل! فأبىٰ عليه ، فأرسل الله عليهم الطوفان ـ وهو المطر ـ فصبّ عليهم منه شيئاً ، فخافوا أن يكون عذاباً ، فقالوا لموسىٰ: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنَّى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلَّطه على الكلأ ، فلما رأوا أثَره في الكلأ عرفوا أنه لا يُبقي الزرع. فقالوا: يا موسى ، ادْعُ لنا ربك فيكشف عنا الجرادَ فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه ، فكشف عنهم الجرادَ ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل! فداسُوا وأحرزُوا في البيوت ، فقالوا: قد أحرزْنا! فأرسل الله عليهم القُمَّل ـ وهو السُّوس الذي يخرج منه ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجرِبةٍ إلى

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (3223) ـ باب ما ينهى عن قتله ، وانظر سنن أبي داود (5267) ، ومسند أحمد (332/1) ، وسنن الدارمي (88/2) ، والبيهقي (317/9) ، وصححه ابن حبان (5646).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (5269) ـ باب في قتل الضفدع ، وأخرجه النسائي (210/7).

(3) حديث صحيح. أخرجه النسائي ـ انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7267).

الرحىٰ ، فلا يردّ منها ثلاثة أقفزة. فقالوا: يا موسىٰ ، ادع لنا ربك يكشف عنا القمَّل ، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربَّه فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينا هو جالس عند فرعون ، إذ سمع نقيق ضِفْدَع فقال فرعون: ما تلقىٰ أنت وقومك من هذا! فقال: وما عسىٰ أن يكون كيدُ هذا! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذَقْنِهِ في الضفادع ، ويهمُّ أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه. فقالوا لموسىٰ: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع ، فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فكشف عنهم فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار ، أو ما كان في أوعيتهم ، وجدُوه دماً عَبِطاً[1] فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدّم ، وليس لنا شراب! فقال: إنه قد سحركم! فقالوا: من أين سحرنا ، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فأتوه فقالوا: يا موسىٰ ، ادعُ لنا ربك يكشف عنا هذا الدم ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرئيل).

وقوله: ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾.

قال النسفي: (أي: الرعاف ، وقيل مياههم انقلبت دماً حتى إن القبطي والإسرائيلي إذا اجتمعا على إناء فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء ، وما يلي القبطي دماً ، وقيل سال عليهم النيل دماً).

والخلاصة: لقد سلّط الله عليهم الدم عندما نقضوا العهد مرة بعد مرة ، حتى اختلط الدم بمياه أنهارهم وآبارهم وأوعيتهم ، وتعطل شرابهم وفسد لعلهم بذلك يتوبون إلى الله ويتذكرون.

وقوله: ﴿ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾.

قال ابن إسحاق: (أي: آية بعد آية ، يتبع بعضها بعضاً). وقال مجاهد: (﴿ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ ، قال: معلومات) أي: واضحات دالات.

وقوله: ﴿ ءَايَٰتٍ ﴾.

هو في محل نصب حال من المنصوبات قبل.

---

(1) العَبِطُ والعبيط: الطريّ.

وقوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾.

قال القاسمي: (﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي: عن الإيمان، فلم يؤمنوا لموسىٰ، ويرسلوا معه بني إسرائيل ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ أي: عاصين كافرين. قال الجشميّ: تدل الآية على عناد القوم، وإصرارهم على الكفر وجهلهم، حيث عاهدوا في كل آية يأتي بها علىٰ صدقه وإثبات العهد، أنهم لا يؤمنون بها. وليس هذا عادة مَنْ غَرَضُه الحق. وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها. وتدل على وجوب التدبر في الآيات).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾، قال: الطاعون). وقال مجاهد: (﴿الرجز﴾: العذاب).

وقيل المراد بالرجز ما تقدم من الآيات، وقيل هو العذاب الأخير وهو الدم. وكلها واردة محتملة في المعنى.

وفي قوله: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ ـ ما مصدرية، أي: بعهده عندك وهو النبوة. قال النسفي: (والباء تتعلق بادع أي: ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك). وقال الشهاب: (سميت النبوة عهداً، لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها، أو لأن لها حقوقاً تحفظ، كما تحفظ العهود. أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى). والخلاصة: لقد عاهدوا موسىٰ ـ عليه السلام ـ لئن رفعت عنا الرجز لنصدق بك وبدعوتك ولنقرن لك.

قال ابن جرير: (﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، يقول: ولتُخَلِّيَنَّ معك بني إسرائيل، فلا نمنعهم أن يذهبوا حيث شاؤوا).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾.

أي: فلما رفع الله عنهم العذاب ـ بدعاء موسىٰ عليه الصلاة والسلام ـ ليستوفوا أياماً في هذه الحياة إلى أن يحين وقت هلاكهم وغرقهم ـ إذا هم ينقضون العهود ويرجعون إلى كفرهم ومكرهم.

قال مجاهد: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، قال: عدد مسمّى لهم من أيامهم).

وقال القرطبي: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ يعني أجلهم الذي ضرب لهم في التغريق).

وقوله تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾.

أي: فلما حان أجلهم أنزلنا بهم النقمة وانتصرنا منهم بإحلال العذاب فيهم، فأغرقناهم في البحر بما كذبوا بآيات الله ورسوله وجحدوا حججه سبحانه البالغة.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾.

قال قتادة والحسن: (الأرض التي باركنا فيها: الشأم).

والمعنى: لقد أورث الله تعالى بني إسرائيل الذين كانوا يُستذلون بالخدمة أرض الشام ومصر ـ بعد هلاك فرعون وقومه ـ وجميع جهات المشرق والمغرب فيها، ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بإخراج الزروع والثمار والأنهار، وكونها مهد الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾.

مفسّر بقوله تعالى في آية القصص: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ ﴾.

فبصبرهم على أذىٰ فرعون ومكره هو وجنوده، وبصبرهم على أمر الله بعد أن آمنوا بموسىٰ ﷺ، استحقوا عند الله ذلك الوعد الأكيد، وهو وعد الله للمؤمنين الصابرين المرابطين على الحق في كل زمان ومكان.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: 21].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 40].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: 51].

أخرج الديلمي ـ بسند صحيح في الشواهد ـ عن أنس مرفوعاً: [النَّصر مع الصَّبر،

والفَرَجُ مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً ، وإنَّ مع العسر يُسْراً][1] .

والخلاصـــة: كما قال مجاهد: (ظهر قوم موسى على فرعون ، «وتمكين الله له في الأرض» ، ما وَرَّثهم منها).

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العِمارات والمزارع ، ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ ، يقول: وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور ، وأخرجناهم من ذلك كله ، وخَرَّبنا جميع ذلك).

وقوله: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ . بكسر الراء ـ قراءة قراء الحجاز والعراق. وقرأه عاصم بن أبي النجود ﴿يعرُشون﴾ بضمها. وكلاهما قراءتان مشهورتان. قال ابن عباس: (يعرشون: يبنون) وقال مجاهد: (﴿يعرشون﴾: يبنون البيوت والمساكن ما بلغت).

ومضىٰ الطاغية فرعون إلى غير رجعة ، وورث تلك البلاد والكنوز المؤمنون من بني إسرائيل مع موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، سنة الله في عباده ، ولن تجد لسنته تبديلاً .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في الجامع ـ بسند صحيح ـ عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [لما أغرق الله فرعون ، قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. قال جبريل: يا محمد ، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة][2] .

138 - 147. قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الديلمي (4/111-112) ، والخطيب في «التاريخ» (10/287) ، وانظر بعضه في مسند أحمد (1/307) ، وفي «تخريج السنة» (316). وهو في «الصحيحة» برقم (2382).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3107). ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع الصغير (5082) ـ وتفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (1/707).

ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ۞ .

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ عن افتتان بعض بني إسرائيل ـ بعد أن جاوزوا البحر ـ بقوم على أصنامهم يعكفون ، فسألوا موسىٰ تقليدهم ـ ضعفاً منهم في دينهم وقلة رسوخ ويقين ـ بأن يجعل لهم صورة آلهة كما لأولئك القوم ، قال إنكم قوم تجهلون أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا مثيل ولا شبيه ، وإنما هؤلاء على خسران في عملهم وعبادتهم وانحراف دينهم . وكيف أبغيكم إلٰهاً من دونه تعالى وهو سبحانه الذي فضلكم على عالمي زمانكم . أليس هو أنجاكم من بأس فرعون وجنوده يذيقونكم أسوأ العذاب فيقتلون الذكور منكم ويستبقون الإناث وفي ذلك ما ذقتم من البلاء العظيم . وإذ واعد ربكم تعالىٰ موسىٰ ﷺ لمناجاته ثلاثين ليلة ، ثم أكملها بعشر حتى الأربعين ، وكان موسىٰ قد استخلف على قومه هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأوصاه بالحرص على سلامة دين بني إسرائيل وحذّره من سبيل المفسدين المبتدعين . ولما قدم موسىٰ لميعاد ربه وكلّمه الله تعالى حدثته نفسه أن ينظر إلى ربه عز وجل ، فسأله ذلك ، فأخبره أن هذا

لا يكون في دار الدينا ، فانظر إلى الجبل هل يستقر أمام نور الله العظيم إذا كشف حجابه ، فلما كشف الله الحجاب نحو الجبل تحطم الجبل وخرّ موسىٰ مغشياً عليه ، فلما أفاق التجأ إلى الله تعالى منزهاً ومسبحاً وتائباً مسرعاً إليه سبحانه كأول المؤمنين. فقال الله له: يا موسى! إني اخترتك على أهل زمانك بالرسالة والتكليم فخذ هذا الوحي بقوة واشكر ربك على ما اختصك به ، وهذه الألواح فيها من كل ما تحتاج إليه أنت وقومك من بيان الحق: في التوحيد والأحكام والمعاملات والمواعظ وغير ذلك ، فاحمل الأمانة بقوة واؤْمُرْ قومك بالعمل بأحسن الأعمال وأعلىٰ القربات واختيار سبيل المعالي دون سفساف الأمور ، سترون في هذه الدنيا مصير من قبلكم وفي الآخرة منازل العصاة الآثمين. إن من عقوبات الله العظيمة أن يصرف قلوب المتكبرين على دينه وشرعه عن الحق حتى تصبح قلوبهم مفتونة لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً ، وإنما هي الشبهات تعمرها ، والشهوات تحركها ، إن المكذبين بآيات الله ولقائه قد بطلت أعمالهم ، وخسروا أنفسهم ، جزاء بما كانوا يصرون عليه من الكبر والتكذيب وبما كانوا يجترحون.

فقوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾.

إخبارٌ من الله سبحانه عن قصور إيمان بعض بني إسرائيل ، وقلة رسوخ دينهم ويقينهم بالله تعالى ، حتى تجرأ بعض الجهلة منهم ـ بعد أن جاوزوا البحر وأراهم الله من عظيم قدرته وكبير سلطانه وجبروته ـ على سؤال موسىٰ تقليد قوم ـ وقد مرّوا بهم ـ يعبدون أصناماً على صور البقر. قيل: كانوا من الكنعانيين ، وقيل: من لخم. قال ابن جريج: (﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾: تماثيل بقر. فلما كان عجل السامري شبّه لهم أنه من تلك البقر ، فذلك كان أوّل شأن العجل: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾).

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن أبي واقد الليثي قال: [خرجنا مع رسول الله ﷺ ـ قبل حنين ، فمررنا بسدرة ، فقلت: يا نبي الله ، اجعل لنا هذه ذات أنواط ، كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينوطون سلاحَهم بسدرة ، ويعكفون حولهم. فقال النبي ﷺ: الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سَنَنَ من قبلكم][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (218/5) ، والترمذي (2180) ، والنسائي في «الكبرى» (11185) ،=

ورواه ابن جرير في التفسير ـ بسند صحيح ـ من حديث محمد بن إسحاق ومعمر ، عن الزهري ، عن سنان بن أبي سنان ، عن أبي واقد الليثي : [أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى حنين ، قال : وكان للكفار سِدْرَةٌ يعكفون عندها ، ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط ، قال : فمررنا بسدرةٍ خضراء عظيمة ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : قلتم ، والذي نفسي بيده ، كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾][1] .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ .

أي : تجهلون صفات الله وعظمته وجلاله ، وتجهلون تنزيهه عن المثيل والشريك وعن كل شيء ، فهو تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ .

قال ابن عباس : (يقول : خُسْران) . وقال السدي : (مُهْلَكٌ ما هم فيه) . أي : إن هؤلاء بعكوفهم على هذه الأصنام ، الله مهلك عملهم ، ومخسرهم فيه .

وقوله : ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

أي : ذاهب مضمحل . وهو سبب لشقائهم وهلاكهم يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

أي : أسوىٰ الله ألتمسكم إلٰهاً تعبدونه ، وهو الله خالقكم وقد فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم ، وفضلكم بإهلاك عدوكم ! فأي جهل أنتم فيه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

قال ابن كثير : (يذكِّرُهم موسىٰ ـ عليه السلام ـ بنعمة الله عليهم ، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة

= وأخرجه ابن أبي شيبة (101/15) ، وأبو يعلى (1441) ، وابن حبان (6702) ، وغيرهم .

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبري (15065) من طريق معمر ، وكذلك (15067) من طريق محمد بن إسحاق ، وكذلك (15068) من طريق عقيل عن الزهري به ، وإسناده على شرط الصحيح .

والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه ، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها في البقرة).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

يتابع الله ممتناً بنعمه الجليلة على بني إسرائيل يذكرهم بها: إذ واعد موسىٰ لمناجاته ثلاثين ليلة. قال ابن جريج: (يقول: إن ذلك بعدما فرغ من فرعون وقبل الطور ، لما نجىٰ الله موسىٰ عليه السلام من البحر وغرّق آل فرعون ، وخلص إلى الأرض الطيبة ، أنزل الله عليهم فيها المنّ والسلوى ، وأمره ربه أن يلقاه ، فلما أراد لقاء ربه ، استخلف هارون على قومه ، وواعدهم أن يأتيهم إلى ثلاثين ليلة ، ميعاداً من قِبله ، من غير أمر ربه ولا ميعاده. فتوجه ليلقىٰ ربه فلما تمت ثلاثون ليلة ، قال عدو الله السامريُّ: ليس يأتيكم موسىٰ ، وما يصلحكم إلا إلـه تعبدونه! فناشدهم هارون وقال: لا تفعلوا ، انظروا ليلتكم هذه ويومكم هذا ، فإن جاء وإلا فعلتم ما بدا لكم! فقالوا: نعم! فلما أصبحوا من غد ولم يروا موسىٰ ، عاد السامري لمثل قوله بالأمس. قال: وأحدث الله الأجل بعد الأجل الذي جعله نبيهم عشراً ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة).

قال الحافظ ابن كثير: (فلما تم الميقات عزم موسىٰ على الذهاب إلى الطور ، كما قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ... ﴿٨٠﴾ ﴾ الآية ، فحينئذ استخلف موسىٰ على بني إسرائيل أخاه هارون ، وأوصاه بالإصلاح وعدم الفساد ، وهذا تنبيه وتذكير ـ وإلا فهارون ـ عليه السلام ـ نبي شريف كريم على الله ، وله وجاهة وجلالة ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء).

قال ابن جريج: (﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ ، وكان من إصلاحه أن لا يدع العجل يُعْبد).

وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾.

هذه الآية فيها إثباتان:

1 ـ إثبات كلام الرب تبارك وتعالى ، فقدنصت الآية بصراحة أنه تعالى كلّم موسىٰ ، ومن ثمّ فإنه سبحانه يتكلم متى شاء ، وكيف شاء ، وأين شاء ، ومع من شاء.

2 ـ إثبات عدم إمكانية رؤية الله تعالى في دار الدنيا لأي أحد ، وإمكانية الرؤية للمؤمنين يوم القيامة.

ففي المسألة الأولى: إثبات الكلام لله تعالى. والآية ردّ على الفلاسفة والمعتزلة وأهل الكلام.

1 ـ قالت الصابئة والمتفلسفة: (كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معان إما من العقل الفعال أو غيره).

2 ـ وقالت المعتزلة: (هو مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه).

3 ـ وقالت طائفة من أهل الكلام: (هو حروف وأصوات أزلية).

وكذبوا جميعاً فيما قالوا وفيما تصوّروا وذهبوا إليه ، والفصل في المسألة هو الذي ثبت عليه العلماء الراسخون في صدر الإسلام من أن القرآن كلام الله على الحقيقة ، فهومن صفاته سبحانه وليس من مخلوقاته.

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي ـ في عقيدته المدوّنة ـ: (وإن القرآن كلام الله تعالى بدأ بلا كيفية قولاً ، وأنزله على نبيِّه وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً. وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة. ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذَمَّهُ الله تعالى وعابه ، وأوعده عذابه، حيث قال: ﴿سأصليه سقر﴾. فلما أوعد الله سقر لمن قال: ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ علمنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر).

لقد أثبت الله سبحانه الكلام لنفسه فقال: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: 164]. قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء ـ أحد القراء السبعة ـ: أريد أن تقرأ: وكلم اللهَ موسى ، بنصب اسم الله ، ليكون موسىٰ هو المتكلم لا الله. فقال أبو عمرو: (هب أني قرأت هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾؟) فبهت المعتزلي.

يريدون أن ينفوا الكلام عن الله ، وينفوا أن القرآن كلامه وصفة من صفاته ـ هكذا استذلهم الشيطان بفكر أجنبي دخيل ـ والله يقول: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يٓس: 58]. ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [آل عمران:

77]. ويقول: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: 108]. أي: لا يكلمهم تكليم تشريف، بل يخرسهم وأما المؤمنون فيكلمهم.

وأما **المسألة الثانية**: إثبات رؤية الله تعالى ـ للمؤمنين ـ يوم القيامة.

فقد أشكل حرف «لن» في الآية ـ قيد التفسير ـ ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ على بعض أهل العلم، فظنوها للنفي المؤبد، واستدل بها المعتزلة[1] على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وغفلوا عن الآيات المحكمات الأخرى التي تثبت الرؤية، وكذلك عن أحاديث صحيحة في صرح السنة العظيم.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: 22 ـ 23].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: 15].

قال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: [حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حُجِبَ هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضىٰ]. وفي رواية: (ما حجب الفجار إلا وقد عَلِمَ أن الأبرار يَرَونه عز وجل)[2].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... ﴾ [يونس: 26]. والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

ففي صحيح مسلم عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيرفَعُ الحجاب فينظرون إلى وجه الله، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾][3].

(1) المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة، ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.

(2) انظر تفسير ابن كثير، سورة القيامة (22-23). وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (206/1) ـ بحث الرؤية ـ لمزيد من التفصيل.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (181)، وأخرجه الترمذي (2552)، وأخرجه أحمد (333/4).

ومن كنوز السنة الصحيحة في إثبات الرؤية في الآخرة أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن جابر في حديثه: [إن الله يتجلىٰ للمؤمنين يضحك][1].

أي: في عرصات القيامة، مما يدل أن المؤمنين ينظرون إليه سبحانه في العرصات وفي روضات الجنات.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إنكم سترون ربكم عِياناً. وفي رواية: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه: [أن أناساً قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صَحْواً ليس معها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله! قال: ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما][3].

فوائد هامة:

1 ـ قوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ دليل على ثبوت رؤيته من وجوه ـ عند أهل العلم ـ:

أ ـ لا يجوز أن يظن بكليم الله ورسوله وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز له.

ب ـ إن الله لم ينكر عليه سؤاله. فحين سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

ج ـ إنه سبحانه قال: ﴿لن تراني﴾، ولم يقل: «إني لا أُرىٰ» أو «لا تجوز رؤيتي» أو «لست بمرئي».

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (191)، في أثناء حديث مطول.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (573)، وأحمد (362/4)، وانظر صحيح مسلم (182).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (7437)، ومسلم (182)، وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (206-216) ج(1).

2 ـ قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ دليل واضح على ثبوت الرؤية.

فقد سئل الإمام مالك عن هذه الآية، فقيل: قوم يقولون: إلى ثوابه. فقال مالك: (كذبوا، فأين هم عن قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾؟ قال مالك: الناس ينظرون إلى الله يوم القيامة بأعينهم، وقال: لو لم يرَ المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعيِّر الله الكفار بالحجاب، فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾) رواه في شرح السنة.

3 ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾.

إعلام أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذا الدار، فكيف بالبشر؟!

وقوله: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾.

فيه جواز تجلّيه سبحانه للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلىٰ لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكنه سبحانه أعلم موسىٰ أن الجبل إذ لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

وقوله: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾.

أي: مغشياً عليه.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس: [أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾. قال حماد: هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنىٰ، قال: فساخ الجبل وخر موسىٰ صعقاً][1].

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: لما أفـاق من الغشي التجأ إلى الله تعالىٰ منزهاً ومسبحاً ومعظماً، ومُجِلاًّ لله أن يراه أحد في هذه الحياة الدنيا إلا مـات أو صعـق، ثم سأل التوبة بقوله: ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾.

قال مجاهد: (أن أسألك الرؤية). ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. قال ابن عباس ومجاهد: (من بني إسرائيل).

وقال ابن عباس ـ في رواية أخرىٰ ـ: (أنه لا يراك أحد). وقيل: (يقول: أنا أول من

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (3282) ـ أبواب تفسير القرآن ـ سورة الأعراف. وانظر صحيح سنن الترمذي (2458).

آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة).

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: [جاء رجُلٌ من اليهود إلى النبي ﷺ قد لُطِمَ وَجْهُه وقال: يا مُحَمّدُ، إن رَجُلاً من أصحابك من الأنصار لَطَمَ في وَجْهي، قال: ادْعوه، فدَعَوْهُ قال: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قال: يارسول الله، إني مَرَرْتُ باليهود فسمعتُه يقول: والذي اصطفىٰ موسىٰ على البشر، فقلت: وعلى مُحَمّد؟ وأخذَتْني غَضْبة فَلطَمْتُه. قال: لا تخيِّروني من بين الأنبياء، فإن الناس يُصْعقون يوم القيامة فأكونُ أوّل من يُفِيقُ، فإذا أنا بموسىٰ آخِذٌ بقائمةٍ مِنْ قوائمِ العَرْش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُزِيَ بِصَعْقَةِ الطور؟][1].

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [استَبَّ رجلان، رجُلٌ من المسلمين ورجلٌ من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفىٰ محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفىٰ موسىٰ على العالمين، فَرَفَعَ المسلمُ يَدَهُ عند ذلك فَلَطَمَ وَجْهَ اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخْبَرَهُ بما كان من أمْرِه وأمْرِ المسلم، فدعا النبي ﷺ المُسْلِمَ فسأله عن ذلك فأخْبَرَه، فقال النبي ﷺ: لا تخيِّروني على موسىٰ، فإن الناس يصْعَقون يوم القيامة فأصْعَقُ معهم فأكون أوَّلَ من يُفيق، فإذا موسى باطِشٌ جانِبَ العرش، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله][2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

الاصطفاء: الاجتباء. والمقصود: تفضيل موسىٰ ﷺ على الناس المرسل إليهم، فقد اصطفاه الله على عالَمي زمانه برسالاته وكلامه ـ جل ذكره ـ، وقد جاء ذلك في حديث احتجاج آدم وموسىٰ، عليهما الصلاة والسلام.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [احتج آدم وموسىٰ، فقال موسىٰ: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4638)، كتاب التفسير ـ آية الأعراف (143) ـ وأخرجه مسلم في صحيحه (2374)، وغيرهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2411)، كتاب الخصومات، وأخرجه مسلم (2373)، ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (304). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ملائكته ، وأسكنك جنته ، أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم! قال آدم: يا موسى ، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة ، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني؟ فَحَجَّ آدم موسىٰ][1].

وأما رسولنا محمد ﷺ فلا شك أنه سيد ولدِ آدم ـ جميعاً ـ من الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين والمرسلين ، وشريعته ناسخة لكل شرائع الأنبياء والمرسلين.

ففي الصحيحين والمسند من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [أنا سيد الناس يوم القيامة][2]. وفي لفظ لمسلم: [أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأولُ شافع ، وأول مشفع].

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ: [أنا سيد ولدِ آدم يوم القيامة ولا فخرَ ، وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخرَ ، وما من نبي يومئذٍ آدمُ فَمَنْ سواهُ إلا تحت لوائي ، وأنا أول شافع ، وأَولُ مشفَّع ، ولا فخر][3].

وقوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ .

أي: من الكلام والمناجاة واعمل بما لديك من هذا الوحي العظيم ، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما آتاك الله من رسالته ، وما اختصك به من الكلام والنجوى على أهل زمانك وعلى كثير من الخلق ، فاعمل بطاعته والتزم ذكره وشكره ورضاه.

وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ .

أي: لقد كتب الله تبارك وتعالى لموسىٰ في ألواحه من كل ما يجب معرفته عن الله تعالى من التوحيد والتعظيم والتشريع موعظة لقومه وتبييناً لكل ما يخصهم من أمر الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3409) ، (6614) ، (7515) ، وأخرجه مسلم في صحيحه (2652) (13) ، وكذلك الأرقام بعده (14) (15) ـ كتاب القدر ـ باب حجاج آدم وموسىٰ صلى الله عليهما وسلم. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/127-129) ، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (92). ورواه البخاري وأحمد ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (3/2) ، وجامع الترمذي (4/140) ، وسنن ابن ماجة (2/581) ، وقال الترمذي: حديث حسن. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1571) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1481).

ونهيه وحلاله وحرامه. قيل الألواح تشتمل على التوراة، وقيل: الألواح أعطيها موسىٰ قبل التوراة.

وقال سعيد بن جبير: (﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾: قال: ما أمروا به ونهوا عنه). وقال السدي: (من الحلال والحرام).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: [احتج آدمُ وموسىٰ، فقال: موسىٰ: يا آدم! أنت أبونا، أنت خَيَّبْتَنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسىٰ، اصطفاك الله بكلامه، وخَطَّ لك بيده، أتلومني على أمر قَدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي ﷺ: فحجَّ آدم موسىٰ، فحجَّ آدم موسى].

وفي لفظ: [فقال آدم: أنت الذي أعطاه الله عِلْمَ كُلِّ شيء، واصطفاه على الناس برسالته؟].

وفي لفظ: [قال آدم عليه السلام: أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تِبْيانُ كُلِّ شيء، وقرّبك نجيّاً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أُخْلَق؟ قال موسىٰ: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طٰه]؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملْتُ عَمَلاً كتبه الله عليَّ أن أعْمَلَهُ، قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدم موسىٰ][1].

وقوله: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾.

قال ابن عباس: (بجدّ). وقال السدي: (بجد واجتهاد).

وقال الربيع بن أنس: (﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾، قال: بالطاعة). قلت: أي خذ الألواح بقوة، فعظم ما فيها من الأوامر والأحكام، واعمل بطاعة الله والدعوة إليها.

وقوله: ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ ﴾.

قال ابن عباس: (أمر موسىٰ أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه). وقال السدي: (﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ ﴾، بأحسن ما يجدون فيها).

قال ابن جرير: (كان فيها أمرٌ ونهيٌ، فأمرهم الله أن يعملوا بما أمرهم بعمله، ويتركوا ما نهاهم عنه، فالعمل بالمأمور به، أحسنُ من العمل بالمنهي عنه).

---

(1) حديث صحيح. انظر الروايات المختلفة في صحيح مسلم (2652) ح (13) (14) (15) ـ كتاب القدر ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قلت: ويمكن أن يكون المعنىٰ: وأمر قومك ياموسىٰ أن يعملوا بأحسن ما استطاعوا من العمل ، وأن يبذلوا قصارى جهدهم في التمسك بما تمكنوا إلى ذلك سبيلاً. كقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾. وكما جاء في هذين الحديثين من كلام نبينا ﷺ:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وابن ماجة بسند صحيح عن ثوبان ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال: [استقيموا ولن تُحصوا ، واعلموا أن خيرَ أعمالكم الصلاةُ ، ولا يحافظُ على الوضوء إلا مؤمن][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة عن أبي أمامة ، والطبراني عن عبادة بن الصامت ، بإسناد صحيح ، عن النبي ﷺ قال: [استقيموا ، ونِعِمّا إن استقمتم ، وخيرُ أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظَ على الوضوء إلا مؤمن][2].

وقوله: ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾.

قال مجاهد: (مصيرهم في الآخرة).

وقال الحسن: (جهنم). وقال قتادة: (منازلهم). وقال الكلبي: (﴿ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود ، والقرون التي أهلكوا). وقال قتادة: (المعْنَىٰ: سأريكم منازل الكفار التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها ، يعني الشأم).

قلت: ولا شك أن الآية تهديد ووعيد وتبصير بما يؤول إليه حال المتكبرين عن أوامر الله وتعظيمها كما حدث للأمم التي دكّها الله من قبل حين تمادت ، وتذكير بما ينتظرهم من سعير جهنم في الآخرة.

وقوله: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

قال ابن عيينة: (يقول: أنزع عنهم فهم القرآن ، وأصرفهم عن آياتي).

وقال ابن جريج: (﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ﴾ ، عن خلق السماوات والأرض والآيات فيها ، سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد وابن ماجة والحاكم والبيهقي عن ثوبان رضي الله عنه ، والطبراني عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، انظر تخريج المشكاة (292) ، والإرواء (411) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (963).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة والطبراني. انظر المرجع السابق ـ حديث رقم ـ (964).

وقال ذو النون: (أبىٰ الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن).

قلت: والآية سرٌّ عظيم من أسرار القدر، فإن الله سبحانه يطلع على القلوب ويُصَرِّفُها كيف شاء، ومن كمال عدله سبحانه أن يَصْرِفَها عن فهم قرآنه ودينه إذا ظهر من صاحبها تكبرٌ عن أمره وغرور بالباطل وتحد للحق. كما قال تعالى في سورة طه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾. وكقوله في سورة الصف: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . . . ﴿٥﴾ ﴾. وكقوله في سورة الأنعام: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . . ﴿١١٠﴾ ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تَعْنُونَ فتنة الرجل في أهله وماله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تِلْكَ تُكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيُّكُم سمع رسول الله ﷺ يذكر التي تَمُوجُ موجَ البحر؟ قال حذيفة: فَأَسْكَتَ القومُ، فقلتُ: أنا. قال: أنت لله أبوك؟ قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [تُعرض الفِتنُ كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاء، حتى يصير على قلبين: على أبيضَ مثل الصفا فلا تَضُرُّه فتنةٌ ما دامت السماوات والأرضُ، والآخر أسودُ مُرْباداً كالكوز مُجَخِّياً، لا يَعرِفُ معروفاً ولا يُنْكِرُ مُنكراً، إلا ما أُشْرِبَ من هواه][1].

وقال النسفي: (﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ يتطاولون على الخلق ويأنفون عن قبول الحق. وحقيقته التكلف للكبرياء التي اختصت بالباري عزت قدرته ﴿ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ هو حال، أي: يتكبرون غير محقين، لأن التكبر بالحق لله وحده).

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾.

أي: إن يروا كل حجة على وجوب الإذعان لوحدانية الله ودينه وشرعه يجحدونها. كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 89 ـ 90)، كتاب الفتن. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1990) ـ باب عرض الفتن على القلوب ونكتها فيها. وقوله: «أسود مرباداً»: شدة البياض في سواد. «مجخياً»: منكوساً.

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾.

قال ابن كثير: (أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾.

قال القاسمي: (أي: لاهين لا يتفكرون فيها، ولا يتعظون بها. أو غافلين عما ينزل بهم من مخالفة الرسل). وقال النسفي: (غفلة عناد وإعراض، لا غفلة سهو وجهل).

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

تأكيد على بطلان الربح لمن كذب بحجج الله وكلامه ولقائه. وسميت الآخرة «آخرة» لتأخرها عن الدنيا. فمن عمل خيراً في هذه الدنيا وكفر بالله ولقائه فلا ينفعه عمله في الآخرة.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزىٰ بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزىٰ بها][1].

وفي لفظ: [إن الكافر إذا عَمِلَ حسنةً أُطْعِمَ بها طُعْمَةً من الدنيا، وأما المؤمنُ فإن الله يَدَّخِرُ له حسناتِهِ في الآخرة ويُعْقِبُهُ رِزْقاً في الدنيا على طاعته].

قال ابن جرير: (﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، يقول: هل يثابون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثواب أعمالهم الخلودَ في نار أحاطَ بهم سرادقها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، دون طاعة الرحمـٰن، نعوذ بالله من غضبه).

148 - 153. قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2808) ـ كتاب صفات المنافقين. باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا.

ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ .

في **هذه الآيات**: يخبر تعالى ذكره: لقد اتخذ بنو إسرائيل بعد ذهاب موسىٰ إلى الطور لموعد ربه ومناجاته عجلاً صنعه لهم السامري من حُليّ القبط ، الذي كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلاً مجوفاً لا روح فيه ، وإنما احتال عليهم بإدخال الريح فيه حتى صار يُسمع في جوفه صوتٌ كخوار البقر ، فعبدوه حين استأخر عليهم موسىٰ ـ بسبب ضعف يقينهم بالله. وقد قرعهم الله في هذه الآيات بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ـ أن ما صنعه لهم السامري ـ لا يقدر أن يكلمهم أو يرشدهم إلى هدىٰ ، أو إلى خير ، ومع ذلك اتخذوه إلٰهاً وظلموا أنفسهم بصنيعهم هذا. ثم إنهم ندموا على ما فعلوا ، وعرفوا أنهم قد جاروا عن سواء السبيل ، فسألوا الله تعالى المغفرة والرحمة وإلا كانوا خاسرين. ولما رجع موسىٰ عليه الصلاة والسلام من مناجاة ربه ورآهم على حالهم تلك من عبادة العجل ظهر الغضب عليه ، وكان شديد الغضب فألقىٰ الألواح من يديه وأخذ يجر رأس أخيه ولحيته وكأنه يُحَمِّلُهُ بذلك مسؤولية ما حدث ، فاعتذر هارون عليه السلام إليه بأنهم تخلوا عن أمره وطاعته وقاربوا قتله ، فهو يخشى من فعل موسىٰ ذلك شماتة الأعداء ولم يقصر هو في أمرهم ونهيهم ، ويسأل موسىٰ ألا يخلطه مع القوم الظالمين الذين اتخذوا العجل وألا يسوقه مساقهم. وهنا تدارك موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمره ، وشعر بعذر أخيه فاستغفر لنفسه ولأخيه وسأل الله أن يدخلهما برحمته وهو أرحم الراحمين. أما الذين اتخذوا العجل وأشركوا بعبادة الله تعالى سينالهم غضب الله ومذلة في الحياة الدنيا ، فلم يقبل الله توبتهم حتى قتل بعضهم بعضاً ، وأصابهم من

الذل ما وعد الله به كل مبتدع في الدين متطاول على ربه عز وجل. وأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فإن الله غفور رحيم.

فقوله: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾.

أي: اتَّخَذَ بنو إسرائيل ـ قوم موسىٰ ـ بعد خروجه إلى الطور لمناجاة ربه عجلاً عبدوه، وكان السامريّ قد اتخذه لهم من حُليّ القبطِ بشكل عجل، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خُوَار، والخُوار صوت البقر. كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ [طٰه].

قال ابن جرير: (وفي «الحلي» لغتان: ضم «الحاء» وهو الأصل، وكسرها، وكذلك ذلك في كل ما شاكله من مثل «صليّ»، و«جثيّ»، و«عتيّ»، وبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب، لاستفاضة القراءة بهما في القرأة، ولاتفاق معنييهما).

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾.

قال ابن كثير: (ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذُهولهم عن خالق السماوات والأرض وربّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خُوار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَطّىٰ على أعين بصائرهم عمىٰ الجهل والضلال).

وفي التنزيل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طٰه: 89].

ومن ثمّ فإنهم باتخاذهم العجل إلٰهاً، وصرفهم له العبادة قد ظلموا أنفسهم واختاروا لها سوء السبيل. وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

العرب تقول لكل نادم على أمر فات منه أو سلف، وعاجز عن شيء: «قد سُقِط في يديه» أو «أسقط في يديه». قال ابن جرير: (وأصله من الاستئسار، وذلك أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرعه، فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره، فيكتفه. فالمرميّ به مسقوط في يدي الساقط به. فقيل لكل عاجز عن شيء، وضارع لعجزه، متندِّمٍ على ما قاله: «سقط في يديه» و«أسقط»).

فالمقصود عندئذ من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما فعلوا وصدر منهم. ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ حين عدلوا عن قصد السبيل في العبادة، فجأروا إلى ربهم عز وجل منيبين إليه تائبين: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ـ أي: من الهالكين الذين خسروا التجارة في أعمالهم، وفقدوا الصفقة، وحبطت أعمالهم وما كانوا فائزين.

وقوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

قال ابن عباس: (﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، يقول: ﴿أسفاً﴾، حزيناً، وقال في «الزخرف»: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا ۝٥٥﴾، يقول: أغضبونا. و«الأسف» على وجهين: الغضب، والحزن). وقال الحسن: (﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾: غضبان حزيناً). وقال أبو الدرداء: (والأسف: أشد الغضب).

وكان موسىٰ ﷺ قد رجع مغضباً حزيناً لأن الله تعالى أخبره أنه فتن قومه، وأن السامري قد أضلَّهم. فقال لهم موسىٰ: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ أي: بئس الصنيع ما فعلتم، إذ رضيتم لأنفسكم عبادة العجل من دون الله تعالى. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾. قال القرطبي: (أي: سبقتموه. والعجلة: التقدم بالشيء قبل وقته، وهي مذمومة. والسرعة: عمل الشيء في أول أوقاته، وهي محمودة). وقيل: أي تعجّلتم سخط ربكم. وقيل: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أَمْرٌ من ربكم. وقال ابن كثير: (يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالىٰ).

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾.

قال ابن عباس: (لما رجع موسىٰ إلى قومه غضبان أسفاً، فأخذ برأس أخيه يجرّه إليه، وألقىٰ الألواح من الغضب).

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعاً: [ليس الخبر كالمعاينة. قال الله لموسىٰ: إنَّ قومك صنعوا كذا وكذا، فلم يبال ـ وفي رواية: فلم يلق الألواح ـ، فلما عاين ألقىٰ الألواح][1].

---

(1) حسن صحيح. أخرجه أحمد في المسند (271/1)، وصححه ابن حبان (6213)، (6214)، ورواه الحاكم (321/2) وقال: على شرطهما، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» (153/1): رجاله رجال الصحيح.

قال ابن إسحاق: (لما انتهىٰ موسىٰ إلى قومه فرأىٰ ما هم عليه من عبادة العجل، ألقىٰ الألواح من يده، ثم أخذ برأس أخيه ولحيته، ويقول: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾).

قيل: كانت الألواح من زُمُرّد. وقيل: من ياقوت. وقيل: من بَرَدٍ[1]. والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

هو كقوله تعالى في سورة طه: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

والمقصود بالقوم في الآية: الذين عكفوا على عبادة العجل، وقوله: ﴿ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾ أي: بتركهم طاعتي واتباع أمري. ﴿ وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى ﴾ ـ أي: قاربوا ولم يفعلوا. ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾: قال القرطبي: (لا تفعل بي ما تشمت من أجله الأعداء). وقال ابن كثير: (﴿ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي: لا تَسُقني مَسَاقهم، ولا تخلطني معهم، وإنما قال: ﴿ابن أم﴾ ليكون أرأف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه).

قلت: وأصل الشماتة في لغة العرب: الفرح ببلية العدو. وقد كان النبي ﷺ يتعوذ منها ويأمر أصحابه بالتعوذ منها، فإن شماتة الأعداء على النفس مؤلمة.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء][2].

وأخرج النسائي والحاكم بسند حسن عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [كان يدعو بهؤلاء الكلمات: اللهم إني أعوذ بك من غَلَبَة الدَّيْنِ، وغَلَبَةِ العَدُوّ، وشماتة الأعداء][3].

---

(1) قال أبو العالية: (كانت ألواح موسى عليه السلام من برد). وقال ابن جريج، عن ابن عباس: (أن الألواح من زبرجد وزمرد من الجنة). وقال سعيد بن جبير: (كانت من ياقوتة، كتابة الذهب، كتبها الرحمن بيده، فسمع أهل السماوات صريف القلم وهو يكتبها) ـ ذكره وما قبله ابن جرير.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (256/4)، وانظر كذلك (200/4) من حديث أنس.

(3) حديث حسن. أخرجه النسائي (316/2، 317)، والحاكم (104/1)، وأحمد (173/2). وانظر صحيح مسلم (76/8) للجملة الأخيرة، والحديث في السلسلة الصحيحة برقم (1541).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

قال الزمخشري: (لما اعتذر إليه أخوه، وذكر له شماتة الأعداء قال: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى ﴾ ليرضيَ أخاه، ويظهرَ لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا تتم لهم شماتتهم. واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسىٰ فرَّط في حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

قال ابن كثير: (أما الغضب الذي نالَ بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى ـ لَمْ يقْبَل لهم توبةً، حتى قتل بعضُهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾. وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصَغاراً في الحياة الدنيا. وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه علىٰ كتفيه، كما قال الحسن البصري: إنَّ ذلَّ البِدْعَةِ على أكتافهم، وإنْ هَمْلَجَت[1] بهم البَغَلاتُ، وطَقْطَقَتْ بهم البراذين).

وعند أبي قِلابَةَ الجَرْمِيِّ: (أنه قرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾، قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة). وقال سفيان بن عيينة: (كل صاحب بدعة ذليل).

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: [من عَمِل عملاً ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ][2]. وفي لفظ: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ]. وفي سنن الدارمي بسندصحيح عن حسان بن عطية[3] قال: (ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلَها ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي: إنه تعالى يقبل توبة عباده من كل ذنب، حتى الكفر والشرك، ما لم يغرغر

---

(1) هملجت: سارت سيراً حسناً في سرعة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1718) ـ كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة، وردّ محدثات الأمور، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) تابعي جليل ـ توفي سنة (130). وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (269/1) ـ لتفصيل البحث.

العبد ، فمن تاب ـ يا محمد ـ من بعد الفعلة ـ إثماً كانت أم معصية أم شركاً ـ فإن ربك يا محمد من بعد التوبة غفور رحيم.

أخرج الطبراني بسند جيد عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له][1].

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرَ][2].

154 - 156. قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالى أن موسىٰ ـ عليه السلام ـ تناول الألواح التي ألقاها حين غضب من رؤية قومه على عبادة العجل بعدما رجع إليهم من مناجاة ربه ، وفي الألواح بيان للحق وهدىٰ من الله سبحانه لقوم يخافونه ويعظمون شرعه ودينه. ثم اختار موسىٰ من قومه سبعين رجلاً ـ كما أمره الله ـ ليعتذروا عما صدر من قومهم من عبادة العجل ، أو لِيُعاتبوا بالرجفة أنهم لم يَنْهوا قومهم عن ذلك ، وقيل سألوا موسىٰ رؤية الله جهرة. فلما أخذتهم الرجفة لجأ موسىٰ ﷺ إلى ربه عز وجل: أتهلكنا بما فعل بعض السفهاء منا ، وإنما هو اختبارك وامتحانك ، والحكم لك ، تضل من تشاء ، وتهدي

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الكبير» ، وأبو نعيم في «الحلية». انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6678) ، (6679).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي في الجامع (3784). وابن ماجة في السنن (4253) ، انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2802).

من تشاء ، أنت ناصرنا فاستر علينا ذنوبنا وارحمنا إنك أنت خير من غفر وستر. واكتب لنا في دنيانا هذه مغفرة ووفقنا لصالح الأعمال ، وكذلك أكرمنا في الآخرة بجزاء الحسنات إنا تبنا إليك ـ قال الله لموسىٰ: إن ما نزل بقومك من الرجفة إنما هو عذابي أنزله بمن أشاء ، وقد عمت رحمتي كل شيء ، فسأكتبها للمتقين الذين يفردون ربهم عز وجل بالتعظيم ، ويؤدون زكاة إيمانهم ونفوسهم وأموالهم ، وهم بآياتنا يؤمنون ويصدقون وبها يعملون.

فقوله: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾.

يعني كفّ عنه وسكن.

وقوله: ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾.

أي: التي ألقاها أثناء غضبه ـ وقد ثار حينما رأىٰ قومه بعده قد أقاموا على عبادة العجل ـ فأخذها بعدما ألقاها ، وقد ذهب منها ما ذهب ، أو تكسر.

وقوله: ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وفيما نسخ فيها ، أي: كتب فيها ، ﴿هدىٰ﴾ بيان للحق ، ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ، يقول: للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه).

وقوله: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾.

قال السدي: (إن الله أمر موسىٰ أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل ، يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً ، فاختار موسىٰ من قومه سبعين رجلاً على عينه ، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسىٰ حتى نرىٰ الله جهرة ، فإنك قد كلمته ، فأرِنَاهُ. فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسىٰ يبكي ويدعو الله ويقول: رب ، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾).

وقال وهب: (ما ماتوا ، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة حتى كادت أن تبينَ مفاصلُهم ، وخاف موسىٰ عليهم الموت).

قلت: وقد مضىٰ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴿٥٥﴾﴾. وقيل: هؤلاء السبعون غَيْرُ من قالوا أرنا الله جهرة، والله تعالى أعلم.

وقال ابن عباس: (إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يَنْهَوا من عبد العجل، ولم يَرْضَوا عبادته).

وقال مجاهد وقتادة: (إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل، ولا نهوهم).

قال الحافظ ابن كثير: (ويتوجه هـذا القول بقـول موسىٰ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾. وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانُك[1]. يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر).

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: أنت ناصرنا. فاستر علينا ذنوبنا بتركك عقابنا عليها، ﴿وارحمنا﴾، تعطف علينا برحمتك، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، يقول: خيرُ من صَفَحَ عن جُرْم، وستر على ذنب).

وقوله: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

قال ابن جريج: (مغفرة). وقال القرطبي: (أي: وَفِّقْنا للأعمال الصالحة التي تكتب لنا بها الحسنات).

وقوله: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: أكرمنا بجزاء تلك الحسنات من الفوز والنعيم.

وقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾. أي: تبنا وأنبنا ورجعنا إليك.

قال ابن عباس وقتادة: (﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾، أي: إنا تبنا إليك).

---

(1) قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقوله: ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾.

أي: قال الله لموسىٰ: إن ما نزل بقومك من الرجفة أو بغيرهم من البأس هو عذابي أصيب به من أشاء من خلقي، ورحمتي عَمَّت جميع خلقي. كما قال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠ ﴾.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق سعة رحمته جل ثناؤه، ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [جَعَلَ اللهُ الرحمة مئةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عنده تِسْعَةً وتِسْعِينَ، وأنزل في الأرض جُزْءاً واحداً، فَمِنْ ذلك الجُزْءِ يتراحَمُ الخلائِقُ، حتىٰ ترفعَ الدابَّةُ حَافِرَها عن وَلَدِها، خَشْيَةَ أن تصيبَهُ][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، واللفظ لمسلم عن سَلْمان قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله خَلَقَ، يَوْمَ خلق السماوات والأرضَ، مِئَةَ رحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ طِباقَ ما بين السماوات والأرض، فجعل منها في الأرض رحْمَةً، فبها تَعْطِفُ الوالِدَةُ على ولدها، والوَحْشُ والطَّيْرُ بعضُها على بعض، فإذا كان يومُ القيامة، أكْمَلَهَا بهذه الرحمة][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة في السنن بسند صحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [لله مئة رحمة، فقسم منها جُزْءاً واحداً بين الخلق، فبه يتراحم الناس والوحش والطير][3].

الحديث الرابع: أخرج البزار، وابن أبي الدنيا، بسند حسن في الشواهد عن ابن عمر مرفوعاً: [لَوْ تَعْلَمونَ قَدْرَ رَحْمَةِ الله عَزَّ وجلَّ، لاتَّكَلْتُمْ وما عَمِلْتُم مِنْ عَمَلٍ، ولو

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2752) ـ كتاب التوبة ـ باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها تَغْلب غضبه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2753) ـ كتاب التوبة ح (21). الباب السابق، وأخرجه أحمد في المسند (439/5)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6146)، والطبراني (6126).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4294)، وأحمد في المسند (55/3)، وأبو يعلى (1098) من حديث أبي سعيد مرفوعاً، وإسناده صحيح.

عَلِمْتُمْ قَدْرَ غَضَبِهِ ما نفعكم شيءٌ][1]. وفي لفظ: [لو تعلمون قَدْرَ رحمةِ الله لاتكلتم عليها].

وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، يعني الشرك). وقال قتادة: (معاصي الله).

وقال علي، عن ابن عباس: (﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾، قال: يطيعون الله ورسولَه). وكأنه يعني تزكية النفس وتطهيرها بالأعمال الصالحات، والقربات والصدقات. قال ابن كثير: (قيل: زكاة النفوس. وقيل: الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون).

157 - 159. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

في هذه الآيات: وَصْفُ النبي ﷺ ببعض أوصافه التي وردت في الكتب السابقة، ونَعْتُ أتباعه ومن سار على منهاجه، فهو خاتم الرسل والنبيين، بعثه الله رحمة للعالمين، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل ما كانوا حرّموه على أنفسهم

(1) حديث حسن لشواهده. أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (1/193/2)، وقال الهيثمي (213/10): «رواه البزار، وإسناده حسن»، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2167)، وكذلك صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5136) للفظ الآخر.

من الطيبات ، ويحرم عليهم ما استحلوه من المآكل المحرمة الخبيثة الضارة والموبقات ، ويضع عنهم ما كان عليهم من التشديد في دينهم ، فالذين صدقوه ونصروه وعظموا منهاجه أولئك هم المفلحون في الدنيا والآخرة.

فقل للناس جميعاً ـ يا محمد ـ إني قد أرسلت إليكم كافة لتفردوا الله تعالى بالعبادة والتعظيم لعلكم تهتدون. وقد مضىٰ على هذا المنهاج طائفة الحق التي آمنت بموسىٰ من قبلكم فكانوا من المهتدين.

فقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾.

في هذه الآية: إثبات نعت رسول الله ـ محمد ﷺ ـ في كتب الأنبياء قبله ، فقد بشروا أممهم ببعثته، وأمروهم بمتابعته، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وشريعته ناسخة لكل الشرائع قبله، وهو موصوف هو وأمته وأصحابه في التوراة والإنجيل ، ولم تزل صفاته مذكورة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم رغم ما اعتراها من التحريف ، فإنه لكثرة نسخ التوراة والإنجيل في الأرض يكشف بعضها بعضاً.

وقد حفلت السنة الصحيحة بكنوز من بعض ما جاء في التوراة والإنجيل في صفة رسول الله ﷺ وأصحابه وأمته ، في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ ، عنْ عَبْدِ الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: [أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ قال: في التوراة ، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومُبَشراً ونذيراً وَحِرْزاً للأمّيينَ ، أنت عبدي ورسولي ، سمَّيْتُكَ المُتَوكِّل ، ليس بِفَظٍّ ولا غَليظٍ ولا سَخّاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكنْ يعفو ويصفح ، ولن يقبضَهُ حتى يُقيم به المِلّةَ العوجاءَ بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله ، فَيَفْتَحُ بها أعْيُناً عُمْياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن أبي صخر العُقيلي: حدثني رجل من الأعراب قال: [جلبْتُ جَلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعتي ، قلتُ: لألقَيَنَّ هذا الرجل ، فلأسمعن منه. قال: فتلقاني

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4838) ، كتاب التفسير ، والطبري (15236) ، وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (271/1) ، والبغوي في «التفسير» (946) من طرق عن فليح به.

بين أبي بكر وعمر، يمشون، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها، ويعزي بها نفسه على ابن له في الموت، كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: أنشُدُكَ بالذي أنزل التوراة! هل تجد في كتابك صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة! إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال: أقيموا اليهوديَّ عن أخيكم. ثم وَلي كَفَنَهَ وحَنَّطَه وصلىٰ عليه][1].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [مكتوبٌ في الإنجيل: لا فظٌّ، ولا غليظٌ، ولا سَخَّابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلَها، بل يعفو ويصفح][2].

وأما لفظ ﴿ ٱلْأُمِّيَّ ﴾.

فهو من النسبة إلى الأمة الأمية، التي هي على أصل ولادتها، لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ـ ذكره ابن عزيز أحد علماء المالكية. وقال ابن عباس رضي الله عنه: (كان نبيكم ﷺ أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ . . ﴾ [العنكبوت: 48]).

قلت: وهذه الصفة لنبينا ﷺ هي من كمال نبوته وصدق ما جاء به، فقد سَدَّ الله تعالى بهذه الصفة الباب على من حاول اتهامه بكتابة القرآن من عنده إذ كان عبقرياً، وهذا لا يعني أن لا تتعلم أمته القراءة والكتابة، فقد كان يأمر بالعلم والقراءة والكتابة، ففي التنزيل: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾.

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث صفوان بن عسال

---

(1) أخرجه أحمد (411/5)، ورجال إسناده ثقات. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (3269)، وجهالة الصحابي لا تضر، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ـ سورة الأعراف ـ (251/2) وقال: «هذا حديث جيد قوي، له شاهد في «الصحيح» عن أنس».

(2) رواه الحاكم (614/2)، وابن عساكر (2/264/1)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (2458). وقد مضىٰ نحوه ـ عند البخاري ـ من حديث عبد الله بن عمرو عن التوراة.

مرفوعاً: [ما مِنْ خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رِضاً بما يصنَعُ][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي والنسائي بسند حسن من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [تعلموا القرآن واقرؤوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أُوكِي على مسك][2].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم وابن عبد البر بسند صحيح لغيره عن عبد الله بن عمرو قال: [قلت: يا رسول الله أُقَيِّدُ العلمَ؟ قال: نعم. قلت: وما تقييده؟ قال: الكتاب][3]. وفي لفظ عند ابن عبد البر: [قَيِّدوا العلم بالكِتاب] ـ يعني الأمر بكتابة العلم.

وقوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

قال عطاء: (﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام، وقطع الأرحام).

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: يُحل لهم ما كانوا حَرّموه على أنفسهم من البَحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك، مما كانوا ضَيّقوا به على أنفسهم).

وذهب الإمام مالك أن الطيبات هي المحلّلات، فوصفها بالطيب يتضمن مدحاً وتشريفاً.

وقوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.

قال ابن عباس: (كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى).

---

(1) حديث حسن. انظر تخريج الترغيب (69/1) ـ كتاب العلم. باب الترغيب في العلم وطلبه.

(2) حديث حسن. انظر سنن الترمذي (2876)، وسنن ابن ماجة (217)، وصححه ابن حبان (2126)، وابن خزيمة (1509). وأورده ابن كثير في التفسير (142/1).

(3) صحيح لغيره. أخرجه الحاكم والخطيب في «التقييد» ص (68). وانظر مستدرك الحاكم (106/1). وابن عبد البر في «جامع العلم» (72/1)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ رقم (2026).

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

الإصر: الثقل. ذكره مجاهد. والإصر: العهد. قاله ابن عباس. وكلا المعنيين حق. والأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال. حكاه القرطبي. والإصر مفرد بمعنىٰ الجمع، فهو مصدر يقع على الكثرة فعطف الأغلال عليه بانسجام واتفاق.

فعن ابن عباس: (﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قال: عهدهم). وقال الحسن: (العهود التي أعطوها من أنفسهم). وقال السدي: (يضع عنهم عهودهم ومواثيقهم التي أخذت عليهم في التوراة والإنجيل). وقال مجاهد: (﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، قال: من اتبع محمداً ودينه من أهل الكتاب، وُضِعَ عنهم ما كان عليهم من التشديد في دينهم).

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿وعزروه﴾، يقول: حموه، وقَّروه). وقال مجاهد: (﴿عزّروه﴾، سدَّدوا أمره، وأعانوا رسولَه).

وقال قتادة: (فما نقموا ـ يعني اليهود ـ إلا أن حسدوا نبيَّ الله، فقال الله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾، فأما نصره وتعزيرُه، فقد سبقتم به، ولكن خياركم من آمن بالله واتّبع النور الذي أنزل معه).

وأما ﴿النور﴾ فهو القرآن. والفلاح: هو الظفر والفوز والنجاة. فيكون المعنىٰ: إن الذين صدّقوا بهذا النبي وتابعوه وعظموه وحموه والتزموا هديه: من القرآن الكريم الذي أوحي إليه، ومن السنة العطرة ـ الوحي الثاني ـ هم أهل الظفر والفوز والنجاة يوم القيامة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [والذي نفسُ محمد بيده، لا يَسْمَعُ بي أَحَدٌ من هذه الأمة، يهودي، ولا نصراني، ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرْسِلتُ به، إلا كان من أصحاب النار][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (153) ـ كتاب الإيمان. باب وجوب الإيمان برسالة نبيّنا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم (20).

وقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾.

أي: قل ـ يا محمد ـ للناس جميعهم، إني قد أرسلت إليكم جميعاً فختمت بي الرسالة والنبوة، أرسلني إليكم الله ربكم الذي له سلطان السماوات والأرض وما فيهن لا إله غيره، فالعبادة لا تكون إلا له ولا تصلح لسواه، فهو وحده الذي يملك الحياة والموت، وهو الحي الذي لا يموت.

وفي السنة الصحيحة آفاق هذا المعنى، في أحاديث ـ منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن أبي الدرداء يقول: [كانت بينَ أبي بكرٍ وعُمَرَ مُحاوَرَةٌ، فأغضبَ أبو بكرٍ عُمَرَ، فانصرف عنه عمر مُغْضباً، فاتّبعه أبو بكر يسألُهُ أن يَسْتَغْفِرَ لهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ، حتى أغلقَ بابَهُ في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ـ فقال أبو الدرداء: ونحْنُ عنده ـ فقال رسول الله ﷺ: أمّا صاحِبُكم هذا فقد غامر، وقال: ونَدِمَ عُمَرُ على ما كان منه، فأقبل حتى سَلَّم وجلس إلى النبي ﷺ، وقصَّ على رسول الله ﷺ الخَبَرَ، قال أبو الدرداء: وغَضِبَ رسول الله ﷺ، وجعَل أبو بكر يقول: واللهِ يا رسول الله لأنا كنتُ أظلمَ، فقال رسول الله ﷺ: هل أنتم تاركُو لي صاحِبي؟ هل أنتم تارِكو لي صاحبي؟ إني قلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، فقلتم: كَذَبْتَ، وقال أبو بكر: صَدَقْتَ][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ورجاله رجال الصحيح عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: [أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ نبيٌّ قبلي ـ ولا أقوله فخراً ـ: بُعثت إلى الناس كافة، الأحمر والأسود، ونُصرت بالرعب مسيرة شهر، وأُحِلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وجُعلت لي الأرض مَسْجداً وطَهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخَّرْتُها لأمتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند صحيح ـ عن السائب بن يزيد مرفوعاً:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4640) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأعراف، آية (158).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (301/1) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه البزار (3460)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (658/8) وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد، وهو حسن الحديث. وللحديث شواهد كثيرة.

[فُضِّلْتُ على الأنبياء بخمس: بعثتُ إلى الناس كافة، وادَّخرتُ شفاعتي لأمتي، ونُصِرْت بالرعب شهراً أمامي، وشهراً خلفي، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحِلّت لي الغنائم، ولم تحِلَّ لأحد قبلي][1].

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

قال قتادة: (قوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، يقول: آياته). وقيل: كلماته عيسىٰ بن مريم ـ ذكره مجاهد. والأول أرجح وهو يشمل الثاني.

قال ابن جرير: (وأما قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، فاهتدوا به، أيها الناس، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحق في اتباعكم إياه).

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

قال القاسمي رحمه الله: (﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: موقنين ثابتين، يهدون الناس بكلمة الحق، ويدلونهم على الاستقامة، ويرشدونهم ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يعدلون بينهم في الحكم، ولا يجورون. والآية سيقت لدفع ما عسىٰ يوهمه تخصيصُ كَتْبِ الرحمة والتقوىٰ والإيمان بمتبعي رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسىٰ عليه السلام، من كل خير، وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم. وقيل هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ. ويأباه أنه قد مرّ ذكرهم فيما سلف. أفاده أبو السعود).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199].

وفي صحيح مسلم عن أبي بردة بن أبي موسىٰ عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال:

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني وبنحوه البيهقي من حديث أبي أمامة. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4097)، وحديث رقم (4096)، وأصله في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة.

[ثلاثةٌ يُؤْتَون أجْرَهُم مَرَّتين: رجُلٌ من أهل الكتاب آمن بِنَبِيِّه وأدْرَكَ النبي ﷺ فآمَنَ به واتّبعَهُ وصَدَّقه فله أجْران، وعبدٌ مملوك أدَّىٰ حقَّ الله تعالى عليه وحقَّ سيده فله أجْرَانِ، ورجلٌ كانت له أمَةٌ فغذاها فأحسن غِذَاءَها، ثم أدَّبها فأحسن أدبها، ثم أعتقها وتزوَّجها، فله أَجْرانِ][1].

160 - 162. قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

في هذه الآيات: يعدد الله تعالى نعمه على بني إسرائيل، إذ جعلهم أسباطاً ـ أي: قبائل شتىٰ ـ ليكونوا اثنتي عشرة قبيلة أو فرقة، ليكون أمر كل سبط معروفاً من جهة رئيسهم، فيخف الأمر بذلك على موسىٰ ـ كما قال تعالى:

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ...﴾ [المائدة: 12]. فلما فرّقهم الله إلى تلك الفرق وتيّههم في التيه، فاستسقوا موسىٰ من العطش وغَوْر الماء، أوحىٰ الله إلى موسىٰ أن اضرب بعصاك الحجر فانصبت وانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء، وقد علم كل أناس من الأسباط الاثنتي عشرة مشربهم الخاص بهم، فلا يدخل سبط على غيره في مشربه، ثم ظللنا عليهم الغمام يكنّهم من حر الشمس وأذاها وأنزلنا عليهم رزقاً طيباً لذيذ الطعم هو المن والسلوىٰ وقلنا لهم: كلوا من حلال ما رزقناكم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (154) ـ كتاب الإيمان. باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

وتمتعوا بنعم ربكم ، فَمَلُّوا ذلك ، وتنطعوا وقالوا: لن نصبر على طعام واحد ، فاستبدلوا الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير ، وما ظلمونا بذلك ، فَمُلْكُ الله لا يدخله النقص وسلطانه لا يعتريه الضعف ، فإن سؤالهم ذلك وفعلهم ذلك انعكس على حظوظهم ونفوسهم بالسوء فانقلبت النعمة التي جحدوها إلى نقمة. واذكر أيضاً يا محمد إذ قيل لهم اسكنوا بيت المقدس فكلوا من ثمارها وحبوبها ونباتها أنّىٰ شئتم وقولوا: هذه الفعلة «حِطّة» تحطُّ ما أسلفنا من ذنوبنا ، يتغمدّ الله ذلك الذي كان منكم من المعصية والذنوب برحمته ، ويتجاوز عنه بكرمه وصفحه وعفوه ، ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ، فدخلوا متورّكين على أستاههم ، ولو فعلوا ما أمروا به لحظوا بمغفرة الله وكرمه على التائبين المحسنين. فلما غيّر القوم ما قيل لهم ، وقالوا استهزاء «حنطة في شعيرة» ، فبعث الله عليهم عذاباً من عنده أهلكهم فيه وجعلهم عبرة لغيرهم بما كانوا يظلمون.

وقد بسطت في ذلك القول عند تفسير نظائر هذه الآيات في سورة البقرة بما أغنىٰ عن إعادته.

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن مَعْمَر ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾. فدخلوا يزحفون على أستاههم ، فبدّلوا وقالوا: حِطّة:حَبَّةٌ في شَعَرة][1].

163 - 167. قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4479) ، وأخرجه النسائي في «التفسير» (9) (10) ، وأخرجه الطبري في «التفسير» (1023).

تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

في هذه الآيات: توجيه الله تعالى نبيّه في أسلوب محاججة معاندي بني إسرائيل ، فاسأل ـ يا محمد ـ هؤلاء اليهود الذين حولك عن قصة أجدادهم في عصيان الله يوم السبت ، وكيف انقسموا ثلاثة أقسام: قسم انتهك المحذور وركب المعصية واحتالوا على صيد السمك يوم السبت ، وقسم نهىٰ عن ذلك ، وقسم قالوا لمن أنكر عليهم: لم تنهون هؤلاء وقد استحقوا الهلاك ولا فائدة من نهيهم ، فأجابوهم: إنما نفعل ذلك امتثالاً لما عهد علينا ربنا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولعلهم يرجعون.

فلما أهمل العصاة موعظة المؤمنين لهم ، استحقوا العذاب من الله ، واستحق المؤمنون النجاة والثواب. ولما مَرَدَ العصاة وتطاولوا أكثر وأكثر ، نزل بهم الأسوأ من العقاب والأبشع ، فصيّرهم الله قردة لها أذناب تعاوىٰ. وكتب عليهم المذلة إلى يوم القيامة: سواء في الدنيا مما ينال أحفادهم الذين ساروا على منهاجهم من الخزي في الأرض ، أو مما ينال من مات منهم على الكفر من عذاب القبر إلى يوم الحساب والعرض ، إن الله سريع العقاب بالمجرمين ، غفور رحيم بالمؤمنين.

فقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: اسأل هؤلاء اليهود الذين حولك عن قصة أجدادهم إذ عصوا الله في السبت. قال ابن جرير: (هي قرية حاضرة البحر[1] ـ ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ ، يعني به أهله ، إذ يعتدون في السبت أمر الله ، ويتجاوزونه إلى ما حرم الله عليهم. وكان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرّم عليهم السبت ، فكانوا يصطادون فيه السمك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ، يقول: إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم الذي نهوا فيه عن العمل ، ﴿شرّعا﴾ ، يقول: شارعة ظاهرة على الماء من كل طريق وناحية ، كشوارع الطرق).

(1) قيل: هي أيلة ـ ذكره ابن عباس ومجاهد. وقيل هي ساحل مدين ـ ذكره قتادة. وقيل: هي مَقْنا بين مدينة وعَيْنونَىٰ. والله أعلم بذلك ، والصواب إطلاق ذلك كما فعل ابن جرير.

وعن ابن عباس: (﴿شرعاً﴾، قال: من كل مكان). وقال: (يقول: ظاهرة على الماء).

قال القاسمي: (أي: تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء، قريبة من الساحل، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم أصلاً إلى السبت المقبل).

وقال ابن كثير: (﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾، أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المُحَرَّم عليهم صيدُه، وإخفائه عنهم في اليوم المُحَلَّلِ لهم صيدُه، ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾: نختبرهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، يقول: بفسقهم عن طاعة الله، وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام).

ثم ذكر حديثاً رواه الإمام أبو عبد الله بن بطَّة بسند حسن عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: [لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارمَ الله بأدنىٰ الحيل][1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قال ابن كثير: (يُخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فِرَق: فرقةٌ ارتكبت المحذورَ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت. قال: وفرقة نهت عن ذلك، واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ أي: لِمَ تَنْهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم. قالت له المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ـ قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا معذرةٌ. وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم).

وعن ابن عباس: (﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، لسخطنا أعمالهم. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾،

(1) قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسناد جيد. انظر تفسير ابن كثير ـ سورة الأعراف ـ آية (163).

أي: ينزعون عمّا هُمْ عليه). وقال ابن زيد: (﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ، قال: يتركون هذا العمل الذي هم عليه).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ .

قال ابن جريج: (﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ ، قال: فلما نسُوا موعظة المؤمنين إياهم ، الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾). قال القرطبي: (﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: تركوه عن قصد ، ومنه ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ . .﴾ [التوبة: 67]). قال ابن جرير: (أنجىٰ الله الذين ينهون منهم عن ﴿السوء﴾ ، يعني عن معصية الله واستحلال حِرْمه).

وعن ابن عباس: (﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ ، أليم موجع). وقال مجاهد: (﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ ، قال: شديد). أو قال: (أليم شديد). وذلك بما كانوا يخالفون ويتجرؤون من استحلال معصية الله والتحايل للوقوع بها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ .

قال قتادة: (يقول: لما مَرَد القوم على المعصية ، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ ، فصاروا قردةً لها أذناب تعاوى ، بعدما كانوا رجالاً ونساءً).

وفي لغة العرب: يقال: خسأته فخسأ ، أي: باعدته وطردته. قال القرطبي: (ودلّ على أن المعاصي سبب النقمة ، وهذا لا خفاء به. فقيل: قال لهم ذلك بكلام يُسمع ، فكانوا كذلك. وقيل: المعنىٰ كوّناهم قردة).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

قال مجاهد: (﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ ، قال أمر ربك). وقال ابن عباس: (﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ ، قال: هي الجزية ، والذين يسومونهم: محمد ﷺ وأمته ، إلى يوم القيامة). وقال أيضاً: (هي المسكنة ، وأخذ الجزية منهم). وقال قتادة: (فبعث الله عليهم هذا الحي من العرب ، فهم في عذاب منهم إلى يوم القيامة). وقال سعيد: (﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ ، قال: العرب ، ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ ، قال: الخراج. قال: وأول من وضع الخراج موسىٰ ، فجبىٰ الخراج سبعَ

سنين). وقال سعيد أيضاً: (هم أهل الكتاب ، بعث الله عليهم العرب يجبُونهم الخراجَ إلى يوم القيامة ، فهو سوء العذاب. ولم يجب نبيٌّ الخراجَ قطُّ إلا موسىٰ ﷺ ثلاث عشرة سنةً ، ثم أمسك ، وإلا النبي ﷺ).

والخلاصــة: لقد بعث الله تعالى ـ أو أقسم بأن يبعث ـ على اليهود من أهل العصيان والمخالفة والاحتيال على أوامره ودينه وشرعه ، من يذيقهم سوء العذاب ببأس أو جزية أو إذلال أو قهر وغير ذلك ، فضرب موسىٰ عليهم الخراج ، كما ذُكر ، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكُشْدانيين والكُلْدانيين ، ثم صاروا في قهر النصارىٰ وإذلالهم إياهم ، وأَخْذِهم منهم الجزية والخراج. ثم كانوا تحت سلطان النبي محمد ﷺ ، فكانوا تحت خُفَارته وذِمّته يؤدّون الخراج والجزية ، وقد أجلىٰ منهم بني قينقاع وبني النضير ، وقتل بني قريظة في قصص من الذل كتبها الله عليهم ، ويبقىٰ الإذلال الأكبر في آخر الزمان حين يأتمرون بقائدهم الدجال وينزلون تحت لوائه ، فيبعث الله لهم جيشاً يقوده المهدي ـ عليه السلام ـ آخر خلفاء هذه الأمة ـ مع عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حين ينزل في دمشق ، فيَفِرّون نحو بيت المقدس ، فيلحقهم جيش الإسلام ويقتل عيسىٰ ﷺ المسيح الدجال بباب لدّ ، وينطق الحجر والشجر إكراماً من الله للمؤمنين لكشف مخابئ اليهود ، فتشترك الطبيعة بإذن الله في فرحة النصر وإذلال يهود المكر وسحقهم إلى غير رجعة.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تقوم الساعةُ حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يَخْتَبِئَ اليهودي من وراء الحجَر أو الشجر ، فيقول الحَجَرُ أو الشَّجَرُ: يا مسلمُ! يا عَبْد الله! هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقْتُله ، إلا الغَرْقَدَ ، فإنه من شجَر اليهود][1].

قلت: والآية تحتمل في دلالتها الدلالة على عذاب القبر أيضاً ، فهو عذاب على العصاة الذين ماتوا على معصيتهم ولم يتوبوا منها ، وربما كانوا في ذلك إلى يوم القيامة ، ومن لم يقض ما عليه ربما تلفحه نار جهنم والعياذ بالله ، ولا شك أن المشركين والكفار يبدأ عذابهم بعد دفنهم في قبورهم ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2922) ـ كتاب الفتن. والحديث علامة قادمة من علامات الساعة.

أخرج ابن ماجة والطبراني بسند صحيح عن عامر بن سعد عن أبيه مرفوعاً: [حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار](1).

وقد ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ، تأكيداً لِيَحْذَرَ من عصاه وأصرّ على ركوب مخالفة أمره ، ثم عقب بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ليبعثَ الأمل في قلوب المسرفين على أنفسهم بالذنوب والآثام ، بأن باب التوبة مفتوح لا يغلق إلى قرب يوم القيامة ـ حيث تطلع الشمس من مغربها ـ فقرن جل ثناؤه بين الترغيب والترهيب ، والخوف والطمع ، وهو منهج عبادة المؤمنين ، فهم يجمعون بين خوفهم من ذنوبهم وعذاب ربهم ، وبين طمعهم في مغفرته ونعيمه وجنته ورضوانه.

وفي التنزيل: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: 50].

أخرج أبو نعيم والبزار بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمَّنْتَه يوم أجمع عبادي](2).

168 - 171. قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا

(1) حديث صحيح. رواه الطبراني (1/19/1) ، وابن ماجة (1573) من حديث عامر بن سعد عن أبيه مرفوعا. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (18).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (98/6) ، وتابعه البزار ، وأورده الهيثمي في المجمع (308/10) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وسنده حسن.

نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره ـ لقد فرقنا بني إسرائيل ومزقناهم إلى طوائف وفرق في الأرض، منهم قوم صالحون ، ومنهم قوم دون ذلك ، واختبرناهم بعسر الأيام ويسرها ، وتقلب أحوالها ، لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم وتعظيم أوامره. فخلف ذلك الجيل منهم جيل آخر ، ورثوا دراسة التوراة ، وهم ينغمسون في ملذات هذه الدنيا الفانية ، وَيُسَوِّفُون التوبة ويؤخرون الإنابة ، فإن عرض لهم ذلك المتاع بعد الاستغفار انغمسوا فيه مرة أخرىٰ ، يعدهم الشيطان بذلك وَيُمَنِّيهم ، وكان الله قد أخذ عليهم العهود بإقامة التوراة والعمل بما فيها ، وأن الدار الآخرة بنعيمها وزينتها خير من هذا العرض الخسيس لو كانوا يعقلون. وأن الذين يمسكون بالكتاب ويعظمون ما فيه فإن الله لا يضيع أجر المصلحين. ألم يذكروا يوم رفع الله الطور فوق آبائهم وأمرهم بأخذ التوراة بقوة وَجدّ ، وإلا خرّ عليهم الجبل فأهلكهم ، وكان ذلك امتحاناً من الله لهم ، عسىٰ أن يردهم ذلك عن بغيهم ، فينيبوا إلى بارئهم ويحمِلوا الأمانة بقوة وحزم ، ويخشوا الله ويتقوه حق تقاته.

فقوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾.

أي: فرقنا بني إسرائيل في الأرض إلى جماعات شتىٰ ، وطوائف وفرق. قال ابن عباس: (في كل أرض يدخلها قومٌ من اليهود). وقال مجاهد: (﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ ، قال: يهود). وفي التنزيل: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: 104].

وقوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: منهم قوم صالحون يؤمنون بالله ورسوله ويعملون الصالحات ، ومنهم قوم دون ذلك أو غير ذلك ، كما قال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: 11].

وقوله: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: اختبرناهم بتقلب الأحوال: يسرها وعسرها. قال ابن كثير: (أي: بالرخاء والشدة ، والرغبة والرهبة ، والعافية والبلاء).

قال ابن جرير: (يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي «الحسنات» التي ذكرها جل ثناؤه، ويعني بـ «السيئات»، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال).

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

أي: إلى طاعة الله، فيكفون عن معصيته وينيبون إليه.

وقوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾، قال: النصارى) ـ والآية أعمّ من ذلك، فهي تفيد أن قوماً خلفوا ذلك الجيل الذي كان فيهم الصالحون ودون ذلك، فجاء جيل آخر، ورثوا دراسة التوراة، وهم يعملون الذنوب، ويعتاضون عن بذل الحق والدعوة إليه بعرض هذه الحياة الفانية ومتاعها وزينتها، ويؤخرون التوبة وَيُسَوِّفُون الاستغفار، ويتقلبون في ذلك، فإن عرض لهم ذلك المتاع بعد الاستغفار وقعوا فيه مرة أخرى. ومن أقوال المفسرين في ذلك:

1 ـ قال سعيد بن جبير: (﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾، قال: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه). أو قال: (ذنب آخر، يعملون به).

2 ـ وقال مجاهد: (﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾، قال: ما أشرف لهم من شيء في اليوم من الدنيا حلالٌ أو حرام يشتهونه أخذوه ويبتغون المغفرة، فإن يجدوا الغد مثله يأخذوه).

3 ـ وقال ابن عباس: (يقول: يأخذون ما أصابوا ويتركون ما شاؤوا من حلال أو حرام، ويقولون: ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾).

4 ـ وقال قتادة: (﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾، إيْ والله، لَخَلْفُ سَوْءٍ، ﴿ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم، وَرَّثهم الله وعَهِدَ إليهم، وقال الله في آية أخرى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ .. ﴾ [مريم: 59]، قال: ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾، تمنوا على الله أماني، وغِرَّةٌ يغترون بها، ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾، لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هَفَّ

لهم شيء من الدنيا أكلوه ، ولا يبالون حلالاً كان أو حراماً).

وقوله: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾.

قال ابن عباس: (فيما يوجبون على الله من غُفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها).

وقال ابن جرير: (وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل ، بإقامة التوراة ، والعمل بما فيها).

وفي التنزيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: 187].

وقوله: ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾.

قال ابن زيد: (علّموه ، علّموا ما في الكتاب الذي ذكر الله ، وقرأ: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: 79]).

والمعنىٰ: قرؤوا ما في الكتاب ودرسوا ما فيه من العهود والمواثيق فعلموها وعلّموها ثم نقضوها.

وقوله: ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: والدار الآخرة ونعيمها وزينتها خير من ذلك العرض الخسيس للذين يتقون الرشا والمحرمات وتحكيم الشهوات ويحذرون عقاب الله ووعيده. قال ابن كثير: (﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، يقول: أفليس لهؤلاء ـ الذين اعتاضوا بعَرض الدنيا عما عندي ـ عَقل يردعهم عما هم فيه من السَّفَه والتبذير).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

قال ابن زيد: (﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، قال: كتاب الله الذي جاء به موسىٰ عليه السلام).

وقال مجاهد: (﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، من يهود أو نصارىٰ ، ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ ، يقول: رفعناه ، وهو قوله: ﴿ وَرَفَعْنَا

فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ . . ﴾ [النساء: 154]). قال: (فقال لهم موسىٰ: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ، يقول: من العمل بالكتاب ، وإلا خرَّ عليكم الجبل فأهلككم! فقالوا: بل نأخذ ما آتانا الله بقوة ، ثم نكثوا بعد ذلك).

يروي النسائي عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: (ثم سار بهم موسىٰ ـ عليه السلام ـ متوجهاً نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمره الله تعالى أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم ، وأبوا أن يقروا بها حتى يَنْتُقَ الله الجبل فوقهم ﴿ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ ، قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم) ـ ذكره ابن كثير.

وقال الحسن البصري: (لما نظروا إلى الجبل خرَّ كلٌّ ساجداً على حاجبه الأيسر ، ونظر بعينه اليُمْنَىٰ إلى الجبل ، فرَقاً من أن يسقط عليه ، فلذلك ليس في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، يقولون: هذه السجدة التي رُفعت عنا بها العقوبة).

قلت: وأصل النتق في لغة العرب الزّعزعة والنقض ، فقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ ﴾ أي: زعزعناه فرفعناه حتى كان فوقهم ، تهديداً من الله بإسقاطه عليهم إن لم يأخذوا الدين بجد وقوة. وهذه آية عظيمة من بين الآيات الكثيرة التي امتحن الله بها بني إسرائيل ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ـ أي: عسى أن يردهم هذا عن بغيهم ، وينيبوا إلى ربهم بتعظيم أوامره واجتناب نواهيه.

172 - 174. قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر الله تعالى عن الميثاق بينه وبين عباده ، فقد استخرج سبحانه ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أمام أبيهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، وذلك في نعمان ـ واد قرب عرفات ـ وقد نثرهم بين يدي أبيهم كالذر ثم كلمهم قبلاً ، ألست بربكم قالوا بلىٰ ، وشهدوا له تعالى بالربوبية التي احتج بها عليهم للقيام بمقتضىٰ الألوهية ، وحذرهم من أمرين اثنين: الأول ـ هو ادعاء الغفلة

والاحتجاج بها. الثاني ـ هو مغبة التقليد الأعمى لدين الآباء دون عرض على موازين الوحي والحق. وبين سبحانه المصير الشقي للمشركين ، وهذه الآيات يفصلها سبحانه لقوم يتفكرون ويعتبرون لعلهم يصلحون ما مضىٰ ويعدّلون المسار ويرجعون. قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم عليه السلام وذريته حق)[1].

وقد حفلت السنة الصحيحة بتفصيل آفاق هذا المعنى ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ (وفي رواية: يوم عرفة) ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾][2].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال: أي ربّ ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك ، فرأىٰ رجلاً منهم فأعجبه وبيصُ ما بين عينيه ، فقال: أي رب ، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، قال: ربّ كم عمره؟ قال: ستون سنة ، قال: أي رب ، زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم ، جاء ملك الموت ، قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد! فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته][3].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [أنه سُئِل عن هذه الآية[4] فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم

(1) متن العقيدة الحاوية (42) ـ للإمام أبي جعفر الطحاوي رحمه الله.
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (272/1) ، والنسائي في «الكبرى» (11191) ، والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1623) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (66/1) ـ بحث الميثاق.
(3) حديث حسن. أخرجه الحاكم ، والترمذي (3076) بسند حسن ، وانظر المرجع السابق (67/1).
(4) آية الأعراف السابقة (172) ، (173).

عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتىٰ يموت على عمل من أعمال الجنة ، فيدخل به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخل به النار][1].

ثم إنه سبحانه قد احتج بهذا الميثاق على أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة:

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع ، فيقال له: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم ، فيقول: كذبت ، قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم (وفي رواية: ظهر آدم) أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك ، فيؤمر به إلى النار][2].

وقد كان هذا الميثاق نوراً قذفه الله في حياة الإنسان بعد أن خلقه في ظلمة ، فأضاء له سبحانه به طريق النجاة وعرفه سبل السلام ، وحذره به من مغبة الاسترسال والمضي في الظلمة ، وما يعقب ذلك من مصائب وأسقام وآلام ، وبصره بذلك العهد نتيجة اتباع الشهوات وفتح نار الغرائز التي يمكن أن تدمره عبر الليالي والأيام ، إن لم يوازن في مشيه وبنائه بين السمو بالروح والعقل ، وبين حاجات الجسد والغرائز بشكل تمام.

ففي المسند وصحيح ابن حبان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال: [إن الله تعالى خلقَ خَلقه في ظلمة ، ثم ألقىٰ عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ومن أخطأه ضل][3].

قلت: والظلمة: هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات ، والنور: هو نور الوحي ونور السنة ، نور النبوة والرسالات ، نور الفطرة والميثاق مع الله ، الذي أخذه سبحانه على عباده بنعمان وهو واد إلى جنب عرفات.

---

(1) قال الألباني: صحيح لغيره إلا مسح الظهر فلم أجد له شاهداً. تخريج الطحاوية ـ فقرة (42).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3334) ، وأخرجه مسلم (2805) ، وأحمد (3/ 127 ، 129).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (1812)، وأحمد (2/ 176 ، 197) ، ونحوه الترمذي (107/2).

فاحتج سبحانه كما مضى على أهون أهل النار عذاباً بذلك الميثاق وما تبعه من الفطرة ، كما قال الحسن البصري حين روىٰ عن الأسود بن سريع مرفوعاً: (ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة. قال الحسن: ولقد قال الله ذلك في كتابه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾)[1].

فخلق الله الخلق في ظلمة ، وهي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات ، ثم ألقىٰ عليهم من نوره: نور الوحي ونور السنة ، نور النبوة ونور الفطرة ، نور الميثاق ونور الرسالات ، ثم إن الشياطين قد استخفوهم من بعد ذلك فحملوهم على اجتراح الموبقات والسيئات.

خَبَرُ النبي ﷺ رواه مسلم عن عياض: [قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً][2].

وفي التنزيل: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 257].

قال ابن القيم رحمه الله: (فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم ، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم ، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات)[3].

وخلاصة القول: لقد استخرج الله ذرية آدم من صلبه ، وميز بعلمه بين أهل النار وأهل الجنة ، وقد أشهدهم أمام أبيهم على ربوبيته المقتضية إفراده بالألوهية ، فأقروا على توحيده ، وبقيت الفطرة تشهد بذلك ، وإنما قامت الحجة عليهم بالرسل والفطرة معاً ، ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾.

---

(1) انظر السلسلة الصحيحة (1623/4) ، ص (163) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (68/1). قال الألباني: (فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها والتي تشهد فعلاً بأن الله هو الرب وحده لا شريك له ، إنما هي أثر ذلك الميثاق). (السلسلة الصحيحة (1623/4 ـ ص 163).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2865) ، وأخرجه أحمد في المسند (266/4).

(3) انظر «اجتماع الجيوش الإسلامية» ـ ص (5) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (69/1).

وأما قوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ففيه أمران يحذرهم:

1 ـ ألاّ يدّعوا الغفلة.

2 ـ ألاّ يدّعوا التقليد.

فلو كان الآباء مهتدين كيوسف الصديق مع آبائه فنعم، حيث قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ . . .﴾ [يوسف: 38].

فقد صح اتباعهم لأنهم أثبتوا الألوهية لله سبحانه وعليه كان الاتباع، ومثله قول بني يعقوب له: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]. وأما إن كانوا مخالفين الرسل، فوجب على الابن اتباع الرسل كما قال جل ثناؤه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ . . .﴾ [العنكبوت: 8].

وكقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

وأما قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾.

فهو بدل اشتمال من قوله ﴿من بني آدم﴾. وقرأ أهل الكوفة وابن كثير ﴿ذريتَهم﴾، في حين قرأها الباقون ﴿ذرياتِهم﴾ بالجمع. قيل: لأن ظهور بني آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله، فجمع لهذا المعنى. قال السدي: (﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ أي: اقتدينا بهم).

وقوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

قال القرطبي: (بمعنىٰ: لست تفعل هذا، ولا عذر للمقلِّد في التوحيد).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال النسفي: (﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ لهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم).

175 - 178. قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا

فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: واتل ـ يا محمد ـ على قومك، وعلى يهود قصة ما عرفوه في كتابهم، عن نبأ رجل آتاه الله من العلم والمعرفة والفهم في آياته وكتابه، فلما صار عالماً بذلك انتكس على عقبه وتابع شيطانه وركن إلى دنياه وشهواته فكان من الضالين الهالكين. ولو شاء الله لرفع ذكره وشأنه بهذه الآيات، ولكنه ركن إلى الدنايا والشهوات والهوىٰ، فهو بذلك كمثل الكلب يلهث بكل حال، لأنه استوى عنده العلم والجهل، ومعرفة الآيات واتباع الشهوات، وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن عرف الحق ثم تنكر له، فاقصص ـ يا محمد ـ مثل هذه الأخبار على قومك وعلى يهود، وكذلك من أخبار الأمم التي طغت ومضت لعلهم يتفكرون. إنه ساء مثلاً مثل الذين جحدوا آيات الله وظلموا أنفسهم بإيرادها مستقبل الخزي والشقاء. فمن يوفقه الله للهداية فهو المهتدي، ومن يخذله بذنوبه وتمرده فهؤلاء هم الخاسرون، ولا وسيلة لربحهم بعد ذلك.

قال ابن عباس: (﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ـ قال: كان الله آتاه آياته فتركها). وقال: (نزع منه العلم).

وقوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فصيَّره لنفسه تابعاً ينتهي إلى أمره في معصية الله، ويخالف أمر ربه في معصية الشيطان وطاعة الرحمن).

وقوله: ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾.

أي: الهالكين الضالين، هلك بضلاله وانحرافه.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾.

قال ابن عباس: (لرفعه الله تعالى بعلمه). وقيل: (لرفَعْنا عنه الحال التي صار إليها

من الكفر بالله ، بآياتنا). قال مجاهد: (﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ ، لدفعناه عنه). وقال ابن زيد: (﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ ، بتلك الآيات).

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾.

قال سعيد بن جبير: (يعني: ركن إلى الأرض) ، أو: (نزع إلى الأرض).

وقال مجاهد: (سكن). وقال السدي: (فاتبع الدنيا وركن إليها). وقال ابن زيد: (﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ ـ كان هواه مع القوم).

قال ابن عباس: (كان في بني إسرائيل بلعام بن باعر ، أوتي كتاباً ، فأخلد إلى شهوات الأرض ولذتها وأموالها ، لم ينتفع بما جاء به الكتاب).

قال القاسمي رحمه الله: (﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على قومك أو على اليهود ﴿ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي: علم الكتاب ، فلطف به حتى تعلم وفهم المعاني ، وصار عالماً بها ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ بأن نزع العلم عنه ، فكفر بها ، وخرج منها خروج الحية من جلدها ، ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: فلحقه وأدركه وصار قريناً له حتى أضله ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾. قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ أي: لعظمناه بالعمل بها ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: مال إلى الدنيا ، ورغب فيها ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ وذلك لأنه استوىٰ في حقه إيتاء الآيات ، والتكليف بها ، والتعظيم من أجلها ، وعدم ذلك. كالكلب يدلع لسانه بكل حال ، إن تحمل عليه ، أي: تشدّ عليه وتهيجه ، أو تتركه غير متعرض له بالحمل عليه ، فلهثه موجود في الحالتين جميعاً ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي في التوراة أو غيرها ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾).

وعن مجاهد: (﴿ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ ، قال: تطرده ، هو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به).

وقال ابن جريج: (الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له ، إن حملت عليه يلهث ، أو تتركه يلهث. قال: مثل الذي يترك الهدىٰ لا فؤاد له ، إنما فؤاده منقطع). وقال ابن عباس: (﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ ، إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير ، كالكلب إن كان رابضاً لهث ، وإن طرد لَهَث).

قال النسفي رحمه الله: (والمعنى فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به سواء حمل عليه أي شد عليه

وهيج فطرد أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه ، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حرك ، أما الكلب فيلهث في الحالين).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: من اليهود الذين يعرفون صفة رسول الله ﷺ في التوراة ويجحدون نبوته ويكذبون ويحرفون.

وقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾.

أي ـ يا محمد ـ من مثل نبأ الذي انسلخ من آيات الله ولم ينتفع بعلمه كيف كان مصيره ، وكذلك الأمم التي دكّها الله من قبل لما طغت وعتت وتمردت ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ـ أي: اليهود والمنافقون والمشركون.

وقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: ساءَ مثلاً مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أي: ساء مثلُهم أن شُبِّهوا بالكلاب التي لا هِمَّة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حَيِّزِ العلم والهدىٰ ، وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله. وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ ، أي: ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم ، بإعراضِهم عن اتباع الهدىٰ ، وطاعة المولىٰ ، إلى الركون إلى دار البلىٰ ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوىٰ).

وقد حفلت السنة الصحيحة بذم الكلب وتشبيه بعض أفعال وخصال السوء بخصاله وطباعه.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: [ليس لنا مَثَلُ السَّوْء ، الذي يعودُ في هِبَتِهِ كالكلب يَرْجِعُ في قَيْئِه][1].

وأخرج البخاري عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال: سمعت عُمَرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه يقول: [حَمَلْتُ على فرَسٍ في سبيل الله فأضاعَهُ الذي كان عندَه ، فأردْتُ أن أشْتَرِيَهُ فَظَنَنْتُ أنَّهُ يبيعُهُ بِرُخْصٍ ، فسألت النبي ﷺ فقال: لا تَشْتَرِ ولا تَعُدْ في

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2622) ، والترمذي في الجامع (1298) ، والنسائي في السنن (267/6) ، وأحمد في المسند (217/1).

صدقتك ، وإن أَعْطاكَهُ بِدِرهم ، فإن العائدَ في صدقته كالعائدِ في قَيْئِهِ][1] .

وقوله : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ .

أي : من هداه الله سبحانه وأنار له السبيل فقد حظي بخير عظيم ، فإنه من يهد الله فلا مضل له .

وقوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

أي : من تخلّىٰ الله عنه فتركه في ضلاله ـ عدلاً منه سبحانه وحكمة ـ فقد خسر لا محالة ، وضل وخاب وهلك .

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الله ، قال : [علمنا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة : أنِ الحمد لله ، نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . .] الحديث[2] .

قلت : والهداية الواردة في الآية ، هي هداية التوفيق والإلهام ، والضلال المذكور هو الخذلان والضياع والحرمان . قال النسفي : (ولو كان الهدىٰ من الله البيان كما قالت المعتزلة لاستوى الكافر والمؤمن ، إذ البيان ثابت في حق الفريقين ، فدل أنه من الله تعالى التوفيق والعصمة والمعونة ، ولو كان ذلك للكافر لاهتدىٰ كما اهتدىٰ المؤمن) .

179 - 186 . قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1490) ـ كتاب الزكاة ، وكذلك (2623) ـ كتاب الهبة وفضلها .
(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2118) ـ باب في خطبة النكاح ، وأخرجه الترمذي (1105) ، والنسائي (89/6) ، وابن ماجة (1892) ، وأحمد (432/1) ، والبيهقي (214/3) ، وغيرهم .

مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تقرير الله تعالى لحقيقة امتلاء جهنم يوم القيامة من أقوام قد خُلقوا لها من الجن والإنس استحقّوها بعمىٰ أبصارهم وقلوبهم وصمم آذانهم عن قبول استماع الحق، فهم في ذلك كالبهائم بل البهائم أحسن حالاً منهم في سرعة انتهائها وانقراضها يوم القيامة.

إن أسماء الله تعالى كلها حسنىٰ فادعوه بأيها شئتم، واجتنبوا الذين يشركون في أسمائه وصفاته بتشبيه أو تعطيل أو انتقاص، فهم سيجزون على فساد منهاجهم ذلك سوء الجزاء. وفي مقابلهم فئة مؤمنة من أتباع الرسل صدقوا الله التنزيه والعبادة وأقاموا الدين الحق فهم موضع الصدارة والأسوة على مدار الأزمان، والذين كذبوا يستدرجهم الله بالنعم ويملي لهم ويؤخرهم إلى حين مجيء وقت عذابهم.

لقد كان أولىٰ بهؤلاء المكذبين من العرب أن يتفكروا بما جاءهم به محمد ﷺ من الحق والنور والصدق ليعلموا أنه ما به خبل ولا جنون، وإنما يحمل لهم الإنذار المبين. فهلاّ نظروا في هذا الكون الفسيح نظر استدلال واعتبار، ثم تفكروا أنهم ربما قد قرب ميعاد هلاكهم أو رحيلهم، فماذا بعد هذا القرآن العظيم الذي أضاعوه من كتاب مبين. إنه من يضلل الله ـ انتقاماً منه ـ فلا هادي له، ويتركهم في غيّهم وضلالهم يتخبطون، ثم يقبضهم على أسوأ حال والعياذ بالله رب العالمين.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾.

قال الحسن: (مما خلقنا).

وقال السدي: (﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾، يقول: خلقنا).

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾، أي: خلقنا وجعلنا ﴿ لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾، أي: هيَّأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلُقَ الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عَمْرو أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله قَدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات

والأرض بخمسين ألفَ سنة ، وكان عرشه على الماء»[(1)]) .

وقال ابن جرير : (﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ ، لنفاد علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربهم) .

قلت : فالكتابة في اللوح المحفوظ ـ فيما يخص ذلك ـ كتابة علم لا كتابة جبر ، فإن الله سبحانه أعلم بأعمال عباده ومصيرهم قبل أن يخلقهم ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ، ولو لم يعلم ذلك لما استحق اسم الخالق واسم العليم ، وأن يوصف بعلام الغيوب ، والآية ردّ على القدرية والجبرية ونسف لمنهاجهم وأصولهم. وقد حفل القرآن الكريم والسنة المطهرة بآفاق هذا المعنىٰ :

أولاً ـ في التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 2 ـ 3] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء : 108] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم : 1 ـ 4].

ثانياً ـ في كنوز السنة الصحيحة :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال : [كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقَعَدْنا حوله ومعه مخْصَرةٌ[(2)] فنَكَّسَ ، فجعل ينكتُ بِمخصرته ، ثم قال : ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنّة والنار ، وإلا وقد كتِبت شقيّةً أو سعيدةً. قال : فقال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2653) ، والترمذي في الجامع (2156) ، وأحمد في المسند (169/2) ، وابن حبان في صحيحه (6138).

(2) المخصرة : هي ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا لطيفة وعكاز لطيف ونحو ذلك .

رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندَع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، فقال: اعملوا فكلٌّ ميسر ، أما أهل السعادة فَيُيَسّرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسّرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن حذيفة بن أَسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: [يدخلُ المَلكُ على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يا ربِّ أشقيٌ أو سعيدٌ؟ فَيُكتَبانِ ، فيقول: أيْ ربِّ أذكرٌ أو أنثى؟ فيكتبان ، ويُكْتَبُ عمله ، وأثره ، وأجله ، ورزقه ، ثم تُطوىٰ الصحف ، فلا يزاد فيها ولا يُنقَصُ][2] .

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال: [فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد]. وفي رواية: (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه).

وله شاهد عند ابن عساكر بسند جيد عن أنس ، بلفظ: [فرغ الله من أربع: من الخَلق والخُلق والرزق والأجل][3] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح ، وأبو داود وابن ماجة في السنن ، عن عائشة رضي الله عنها ـ أنها قالت: [دُعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت: يا رسول الله ، طُوبى له ، عُصفورٌ من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال: أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة ، وخَلَق لها أهلاً ، وهم في أصلاب آبائهم ، وخَلَقَ النار ، وخلق لها أهلاً ، وهم في أصلاب آبائهم][4] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/46-47). وانظر مختصر صحيح مسلم (1844) ـ كتاب القدر ـ باب: في القدر والشقاوة والسعادة ـ. وكذلك حديث رقم (1845).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/45) . انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1848) ـ باب: في الخلق والشقاوة والسعادة.

(3) حديث صحيح. انظر الروايات المختلفة في صحيح الجامع (4078) (4079) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (2/813) ، بحث القدر.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2662) ، وأحمد (6/41) ، وأخرجه أبو داود (4713) ، وأخرجه=

وقوله: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾.

فيه أن القلب هو مركز الفقه لا الدماغ، بل الدماغ متأثر بفهم القلب وحركته وفقهه، والعلم الحديث يثبت ذلك. فالقلب هو مركز حياة الأبدان ومُوَجِّه حركتها وبتعطله تتعطل الحياة ـ هذا من جهة، ومن جهة ثانية: فهو مركز الفكر والعقل والفهم والفقه، كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾. وكقوله جل ذكره في السورة هذه: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾.

وفي صحيح البخاري من حديث النعمان بن بشير مرفوعاً:

[ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كُلُّهُ، وإذا فسدت فسد الجسدُ كله، ألا وهي القلب][1].

فمعنىٰ الآية: إن لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه، قلوباً لا تتفكر في آيات الله، ولا تتدبر في عظمته سبحانه ووجوب إفراده بالتوحيد والتعظيم والكبرياء، كما لهم أعين لا تنظر بصدق في ملكوت السماوات والأرض لتستدل بذلك على صدق التنزيل وصحة دعوة الرسل، كما لهم آذان لا تسمع آيات الله تتلى لتعتبر بها، فهم يعرضون عنها وإنما يردون بذلك حياض هلاكهم. كما قال تعالى:

1 ـ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 171].

2 ـ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: 26].

3 ـ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: 23].

فما كان صممهم وبكمهم وعميهم إلا عن الهدى، فعاقبهم الله بحرمانهم من الهدىٰ والرشاد.

= النسائي (57/4)، وابن ماجة (82)، وأبو يعلىٰ (4553)، وغيرهم.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (52)، كتاب الإيمان، وكذلك (2051)، ضمن حديث أطول، ورواه مسلم في الصحيح (1599)، كتاب المساقاة، من حديث النعمان.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

قال مجاهد: (﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾، قال: لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة، ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾، الهدىٰ، ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾، الحق. ثم جعلهم كالأنعام سواء، ثم جعلهم شرّاً من الأنعام، فقال: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾، ثم أخبر أنهم هم الغافلون).

قال الحافظ ابن كثير: (أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يَعُونه ولا يبصرون الهدىٰ كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُعَيِّشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ...﴾ [البقرة: 171]، أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾، أي: من الدواب، لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَبَسَّ بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؟ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به).

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾، ومن أسمائه: ﴿العزيز الجبار﴾، وكل أسمائه حسن).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخَلَ الجنة، وهو وِتْرٌ يحبُّ الوِتْر] ـ ورواه البخاري(1).

قلت: وإحصاءُ هذه الأسماء يقتضي الحياة في ظلها وامتثال لوازمها من العلم والعمل وتأثر الجوارح، وإلا فالإحصاء العددي وحده لا يكفي، وقد استأثر الله تعالىٰ ببعض أسمائه الحسنى في علم الغيب عنده.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند جيد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6410)، ومسلم (2677)، والترمذي (3506)، وابن ماجة (3860)، وأخرجه أحمد (267/2)، وابن حبان (807)، والبغوي في «التفسير» (954).

عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [ما أصابَ أحداً قطُّ همٌّ ولا حُزْنٌ فقال: اللهم ، إني عبدُك ، ابن عبدك ، ابن أَمَتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيَّ حكمك ، عَدلٌ فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيْتَ به نفسَك ، أو أنزلته في كتابك ، أو أعلمتَهُ أحداً من خلقك ، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندَك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيعَ قلبي ، ونورَ صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب هَمِّي ـ إلا أذهب الله هَمَّهُ وحَزَنَه ، وأبدله مكانه فَرَجاً. فقيل: يا رسولَ الله ، أفلا نتعلّمها؟ فقال: بلىٰ ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها](1).

وقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾.

قال قتادة: (﴿يلحدون﴾ ، يشركون).

قال ابن عباس: (إلحاد الملحدين: أن دعَوا «اللات» في أسماء الله). وقال: (الإلحاد: التكذيب).

وقال ابن جريج عن مجاهد: (﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ ، قال: اشتقوا «اللات» من الله ، واشتقوا «العُزَّىٰ» من العزيز).

قال ابن كثير: (وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدلُ عن القصد ، والميلُ والجورُ والانحراف ، ومنه اللحدُ في القبر ، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر).

وقال القاسمي: (﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعني في الآخرة ، من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها).

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

قال ابن جريج: (ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: هذه أمتي! قال: بالحق يأخُذون ويعطون ويَقْضون).

قلت: ولا شك أن المقصود بهذه الآية هو هذه الأمة المحمدية التي هي خير أمة أخرجت للناس كما قال جل ذكره: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110].

(1) حديث إسناده جيد. أخرجه أحمد في المسند (391/1) ، (452/1) ، وأبو يعلىٰ (5297) ، والحاكم في المستدرك (509/1) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (972) من طرق عن فضيل بن مرزوق به ، وإسناده صحيح.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند جيد ، عن عبد الرحمن بن الحضرمي يقول: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: [إنَّ من أمتي قوماً يُعْطَوْن مِثْلَ أجورِ أَوَّلهم ، يُنْكرون المنكر][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرّهم من خَذَلهم ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة][2]. وفي رواية: (حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك). وفي رواية: (قال معاذ: وهم بالشام).

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تزال طائفةٌ من أمتي قَوَّامةً على أمر الله لا يضرُّها مَنْ خالَفَها][3].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

قال الضحاك: (كلما جدّدوا لنا معصية جدّدنا لهم نعمة). وقيل لذي النون: ما أقصىٰ ما يخدع به العبد؟ قال: (بالألطاف والكرامات ، لذلك قال سبحانه: ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر) ـ ذكره القرطبي.

قلت: والاستدراج هو من مكر الله بالعبد المتمرد في عصيانه ، فإنه سبحانه يفتح له آفاق الرزق والرخاء ، ووجوه المعاش ووفرة المال والبسط والسعة حتى يقترب أخذه ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: 44 ـ 45].

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (62/4) ، (375/5) ، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (1700) وقال: وهذا إسناد جيد رجاله كلهم رجال الصحيح ، وفي زيد بن الحباب كلام لا يضر إن شاء الله تعالى ، وأما جهالة الصحابي فلا تضر قطعاً لأنهم عدول.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3641) ، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم (156) من حديث جابر وغيره ، وأخرجه أهل السنن.

(3) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (7). باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. وانظر صحيح ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (7).

عن النبي ﷺ قال: [إذا رأيت الله تعالى يُعطي العبد من الدنيا ما يحب ، وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك منه استدراج][(1)].

وقوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾.

قال القرطبي: (﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي: أطيل لهم المدة وأمهلهم وأُؤَخِّرُ عقوبتهم. ﴿ إِنَّ كَيْدِي ﴾ أي: مكري. ﴿ مَتِينٌ ﴾ أي: شديد قوي. وأصله من المتن ، وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب).

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قال النسفي: (﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ محمد عليه السلام ، وما نافية بعد وقف ، أي: أولم يتفكروا في قولهم ، ثم نفىٰ عنه الجنون بقوله ما بصاحبهم ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ جنون ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ منذر من الله موضح إنذاره). فالمعنىٰ: هل تفكروا فيما جاءهم به محمد ﷺ ، ليعلموا أنه ما به خَبل ولا جنون ، وإنما هو إنذار مبين ، ودعوة صادقة إلى الدين القويم. ومن هنا كان الوقف على ﴿ يَتَفَكَّرُوا ﴾ حسناً عند القراء.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾.

أي: هلاّ نظروا في هذا الكون الفسيح نظر اعتبار واستدلال ، وفي كل ما خلق الله من شيء. قال القاسمي: (والملكوت: الملك العظيم. ﴿ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ عطف على ﴿ملكوت﴾. أي: في احتمال أن يهلكوا عما قريب ، فيفارقوا الدنيا ، وهم على أتعس الأحوال ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ أي: القرآن ﴿يؤمنون﴾ أي: إذا لم يؤمنوا به ، وهو المعجز الجامع لكل ما يفيد الهداية. وفي هذا قطع لاحتمال إيمانهم رأساً ، ونفي له بالكلية).

فالشمس والقمر والنجوم والسحاب بعض ملكوت السماوات ، والبحار والجبال والدواب والشجر بعض ملكوت الأرض ، وكل ذلك يقلبه الله سبحانه ويغير أحواله كما هو شأن كل خلقه ، والناس جزء من هذا الخلق يمضون ويغادرون الحياة في أي

(1) سنده قوي. أخرجه أحمد (145/4) ، وابن جرير في «التفسير» (115/7) ، وهو حديث صحيح بالمتابعات. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (414).

لحظة ، فهَلاّ كان اعتبار المعاندين المستكبرين باحتمال اقتراب نهايتهم ، وحين الغرغرة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

وقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

المعنىٰ: إنه من كتب الله عليه الضلالة والشقاء ـ نتيجة إصراره على الكبر والشرك والظلم ـ فلا سبيل إلىٰ تنوير قلبه بالهداية ـ ثم الله ـ تعالى ـ يذرهم في غيهم وتخبطهم وبغيهم يتحيّرون.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا. . .﴾ [المائدة: 41].

2 ـ وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5].

أخرج الترمذي والحاكم بسند صحيح عن أنس مرفوعاً: [إذا أراد الله بعبد خيراً عجَّل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد شراً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافيه يوم القيامة][1].

187 - 188. قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالى نبيّه عن سؤال قومه قريش له عن ميعاد الساعة ، فقل لهم ـ يا محمد ـ إن علمها محكوم بأمر الله لا يُظهر أمرها وعلاماتها إلا هو سبحانه ،

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (64/2) ، والبيهقي في «الأسماء» (ص154) ، من حديث أنس بن مالك مرفوعاً ، ورواه حبان (2455) نحوه.

كَبُرَت في شأنها وخَفِيت في السماوات والأرض فلم يعلم قيامها ملك مقرّب ولا نبي مرسل ، فهي تأتي على غفلة ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ثم قل لهم ـ يا محمد ـ: إنني لا أملك جلب النفع لنفسي أو دفع الضرر عنها ، شأني بذلك كسائر البشر ، ولو كنت أعلم الخير أو ما يكون من الغيب منه لاستبقت إليه ، ولدافعت ما كان من الشر القادم منه ، ولكني بشر يصيبني الخير وينزل بي الابتلاء وإنما أنا نذير للكافرين المعاندين ، وبشير للمؤمنين المخبتين.

فقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾. قال السدي: (يقول: متى قيامها؟).

وقال ابن عباس: (يعني: منتهاها) ـ أي: متى حصولها وأيان آخر ساعة من ساعات هذه الحياة الدنيا لتبدأ أول ساعة من ساعات الآخرة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: علمها إلى الله ، ولا يعلم جلية أمرها وتحديد وقتها إلا الله تعالى. قال قتادة: (يقول: علمها عند الله ، هو يجليها لوقتها ، لا يعلم ذلك إلا الله). وعن مجاهد: (﴿لا يجليها﴾ ، يأتي بها). أو قال: (لا يأتي بها إلا هو). وقال السدي: (يقول: لا يرسلها لوقتها إلا هو).

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن حذيفة قال: [سئل رسول الله ﷺ عن الساعة؟ فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ولكنْ أخبركم بمشاريطِها ، وما يكون بين يَدَيْها: إنَّ بينَ يديها فتنةً وهرَجاً. قالوا: يا رسول الله! الفتنةُ قد عرفناها فالهرجُ ما هو؟ قال: بلسان الحبشة: القتل ، ويلقىٰ بين الناس التناكرُ فلا يكاد أحدٌ أن يعرفَ أحداً][1].

وقوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. **فيه أقوال متكاملة:**

1 ـ **القول الأول**: ثقلت الساعة على أهل السماوات والأرض أن يعرفوا مجيئها ووقتها ، لخفائها عنهم، واستئثار الله بعلمها. قال السدي: (يقول: خفيت في السماوات والأرض ، فلم يعلم قيامها متىٰ تقوم مَلَكٌ مقرَّبٌ ، ولا نبيٌّ مرسل). وعن معمر ، عن بعض أهل التأويل: (ثقل علمها على أهل السماوات وأهل الأرض ، إنهم لا يعلمون).

2 ـ **القول الثاني**: كبرت عند مجيئها على أهل السماوات والأرض.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 389) بسند على شرط مسلم. وانظر: «الصحيحة» (2771).

قال الحسن: (يعني: إذا جاءت ثقلت على أهل السماء وأهل الأرض. يقول: كبرت عليهم). وقال ابن جريج: (﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، قال: إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم، وكُوِّرَت الشمس، وسُيِّرَت الجبال، وكان ما قال الله. فذلك ثقلها). وقال السدي: (﴿ثقلت﴾: عظمت).

3 ـ **القول الثالث**: معنى قوله: ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، على السماوات والأرض. فعن قتادة: (﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أي: على السماوات والأرض).

قلت: ولا مانع من اجتماع هذه الأقوال في مفهوم الآية، فإن الإعجاز القرآني يحتمل هذا، فالساعة ثقيلة عند مجيئها على أهل السماوات والأرض، كما هو ثقيل علمها ومعرفة وقتها. وإن كان القول الأول منسجماً أكثر مع بقية آيات القرآن عن الساعة، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات: 42 ـ 44]. وكقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: 63].

وقوله: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾.

قال السدي: (يقول: يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة).

وقد دلّت السنة الصحيحة على آفاق هذا المعنى، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتى تطلعَ الشمس من مَغْربها، فإذا طَلَعَتْ فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسَبت في إيمانها خيراً، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجلان ثَوْبَهُما بينهما، فلا يَتَبايعانه ولا يطويانه. ولتقومَنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجل بلبنِ لِقْحَتِهِ فلا يَطْعَمهُ. ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يَليطُ حَوْضَهُ فلا يَسْقي فيه. ولتقومَنَّ الساعةُ والرجل قد رَفَعَ أَكْلَتَهُ إلى فيه فلا يَطْعَمها][1].
وقوله: «يليط حوضه» ـ أي: يصلحه.

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ يبلغُ به النبي ﷺ ـ قال: [تقوم الساعةُ والرجل يَحلُبُ اللِّقْحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6506)، (7121)، وأحمد في المسند (369/2)، وأبو يعلىٰ (6271)، وغيرهم.

والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يَلُوطُ حوضه فما يصدُرُ حتى تقوم][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند حسن ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها][2] . والفَسِيلة: نخلة صغيرة.

وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ .

فيه أقوال:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ ، يقول: كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم). قال ابن عباس: (لما سأل الناس محمداً ـ ﷺ ـ عن الساعة ، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم ، فأوحىٰ الله إليه: إنما علمها عنده ، استأثر بعلمها ، فلم يطلع عليها ملكاً مُقرباً ولا رسولاً).

2 ـ قال قتادة: (قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابةً ، فأسِرَّ إلينا متىٰ الساعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾).

3 ـ قال مجاهد: (﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ ، قال: استَحْفَيت عنها السؤال ، حتى عَلمت وقتها). وقال الضحاك: (يقول: كأنك عالم بها ، لست تعلمها).

4 ـ قال ابن زيد: (﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ ، كأنك عالم بها ، وقد أخفىٰ الله علمها على خلقه ، وقرأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . . . ﴿٣٤﴾ ﴾ الآية).

قلت: وقول مجاهد وابن زيد أقرب للسياق وأرجح للتأويل ، ويناسب خاتمة الآية: وهو قوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ ، في أحاديث كثيرة ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتابه ولقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر. قال: يا رسول

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2954) ، وانظر الحديث السابق.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (183/3) ، (184/3) ، (191/3) ، وكذا الطيالسي (رقم 2068) ، والبخاري في الأدب المفرد (479) ، وانظر السلسلة الصحيحة (9).

الله ما الإسلام؟ قال: الإسلامُ أن تعبدُ الله ولا تشركَ به شيئاً، وتُقيمَ الصلاةَ المكتوبةَ، وتؤدي الزكاةَ المفروضة، وتصوم رمضان. قال: يا رسول الله ما الإحسانُ؟ قال: أن تعبدَ الله كأنك تراه فإنك إن لا تراهُ، فإنه يراك. قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل، ولكن سأحَدِّثك عن أشراطها: إذا وَلدتِ الأمة ربَّها[1] فذاك من أشراطها، وإذا كانت العراةُ الحفاةُ رؤوسَ الناس[2] فذاك من أشراطها، وإذا تطاول (رِعَاءُ البَهْم[3]) في البنيان فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾، ثم أدبر الرجلُ، فقال رسول الله ﷺ: ردُّوا عليَّ الرجلَ، فأخذوا ليردُّوه فلم يروا شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: هذا جبريلُ جاء ليعَلِّمَ الناس دينهم][4].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن حبان بسند حسن ـ من حديث زر بن حبيش، عن صفوان بن عسال المرادي: [ـ وقد سأل أعرابي النبي ﷺ وناداه بصوت جَهْوَريّ ـ فقال: يا محمد! قال له رسول الله ﷺ: هاؤم ـ على نحو من صوته ـ قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: المرء مع من أحب][5]. فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة قالت: [كان رجالٌ من الأعراب جُفاةً يأتون النبي ﷺ فيسألونَهُ: متى الساعَةُ؟ فكان يَنْظُرُ إلى أصغرهم فيقول: إن يَعِشْ هذا لا يُدْرِكهُ الهَرَمُ حتى تقومَ عَلَيْكُم ساعَتُكُم][6]. قال هشام: يعني موتَهم.

الحديث الرابع: أخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله يقول: سمعت

---

(1) أي سيدها، إخبارٌ عن كثرة السراري وأولادهن، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها.
(2) أي ملوك الأرض، وهو رواية لمسلم.
(3) البَهْم: الصغار من أولاد الغنم الضأن والمعز جميعاً.
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (30/1) ـ كتاب الإيمان ـ باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2).
(5) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3536)، والطيالسي (1167)، وابن حبان (562)، وغيرهم.
(6) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6511)، عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها. كتاب الرقاق. باب سكرات الموت.

النبي ﷺ يقول ، قبل أن يموت بشهر: [تسألوني عن الساعة؟ وإنما عِلْمُها عند الله ، وأُقْسِمُ بالله! ما على الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مئةُ سنةٍ][1].

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ ـ فيه أقوال:

1 ـ قال ابن جريج: (قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ ، قال: الهدىٰ والضلالة ، ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ ، قال: ﴿أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ ، متى أموت ، لاستكثرت من العمل الصالح)[2].

2 ـ قال ابن زيد: (﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ ، قال: لاجتنبت ما يكون من الشرّ واتَّقيتُه).

3 ـ وقيل: (﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ ، لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ، ولعرفت الغلاء من الرُّخْص ، واستعددت له في الرُّخص).

4 ـ قال الضحاك ـ عن ابن عباس ـ: (﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ ، أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ ، قال: ولا يصيبني الفقر).

قلت: والراجح القول الثاني والثالث والرابع ، فهو يرجع على الأول في معناه ، فكأن المعنىٰ: لو كنت أعلم الغيب لحرصت على الإكثار من متاع الدنيا وخيراتها ، وابتعدت عن آلامها ومطباتها ما استطعت. وأما في أمر الآخرة فكان رسول الله ﷺ أسبق الناس إليه ، لا يفتر في عبادته ولا تضعف همته ، وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن علقمةَ: [قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها: هَلْ كانَ رسولُ الله ﷺ يَخْتَصُّ من الأيام شيئاً؟ قالت: لا ، كان عَمَلُهُ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2538) ـ كتاب فضائل الصحابة ، والترمذي في الجامع (2250) ، وأحمد في المسند (322/3).

(2) ذكره ابن جرير ، واستبعده ابن كثير وقال: (وفيه نظر. لأن «عمل رسول الله ﷺ كان ديمةً» ـ وفي رواية: «كان إذا عمل عملاً أثبته» فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله ـ عز وجل ـ في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المرادُ أن يرشدَ غيره إلى الاستعداد لذلك ، والله أعلم).

ديمَةً ، وَأَيُّكُم يُطيق ما كان رسول الله ﷺ يُطيق؟][1] .

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه عن عائشة أنها قالت: [كان لرسول الله ﷺ حَصيرٌ ، وكان يُحَجِّرُهُ[2] من الليل فيصلِّي فيه ، فجعل الناس يُصَلُّون بِصَلاتِهِ ، ويَبْسُطُهُ بالنهار ، فثابوا[3] ذات ليلة فقال: يا أيها الناس! عليكم منَ الأعمال ما تُطيقون ، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلّوا ، وإن أحبَّ الأعمالِ إلى الله ما دُووِمَ عليه وإن قَلَّ ، وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه][4] .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة ـ أيضاً ـ ، أن رسول الله ﷺ قال: [اكْلفُوا من العمل ما تُطيقون ، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا ، وإن أحبَّ العمل إلى الله أَدْوَمُهُ وإن قَلَّ . وكان إذا عمل عملاً أثبته][5] .

وقوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

أي: نذير من عذاب الله وبأسه وغضبه ، بشير للمؤمنين بجنات النعيم ورضوان الله الكريم .

وفي التنزيل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: 97] .

189 - 198 . قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1987) ـ كتاب الصوم ، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم (783) ـ كتاب صلاة المسافرين.

(2) أي يتخذه حجرة ، كما في الرواية الأخرى.

(3) أي اجتمعوا. وقيل: فثابوا ـ أي رجعوا للصلاة.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (782) ـ كتاب صلاة المسافرين ، وانظر سنن أبي داود (1370) ، ومسند أحمد (43/6) ، وصحيح ابن حبان (322) ـ مما يوافق هذا المعنى.

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (1368) ـ باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1219) ـ وهو في الصحيحين نحوه.

يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالى أنه خلق الناس من أبيهم آدم وزوجته حواء المخلوقة من ضلع منه ليطمئن إليها ، فلما تدثر الرجل أهله ووطئها وحملت منه عاهد ربه لئن رزقتنا بشراً سوياً لنكونن ممن يشكرك ولا يكفرك. حتى إذا صدقهم الله الأمنية بغلام سوي نسيا نعمته وأغفلا شكره وانغمسا في الكبر والشرك وتعظيم النفس والشيطان والشهوات والأوثان.

كيف يشركون مَنْ لا يخلقُ ولا يملك الضر والنفع والنصر ، ولا يستجيبون لهدىٰ لجمودهم وعجزهم عن النطق والكلام. إن ما يدعون من دون الله عبيد مثل عابديها ، ومخلوقات مثلهم ، بل إن عابديها أكمل خلقاً منها إذ تسمع وتبصر وتتحرك وتبطش وتلك جامدة لا حراك لها.

إن الله تعالى هو المعبود وحده لا شريك له وهو ناصر المتقين ومؤيد الصالحين ، وتلك الآلهة من الشيطان والشهوات والطواغيت عاجزة عن تقديم المدد والعون وإنزال النصر أو قبول الهدىٰ ، بل هي موصوفة بالصمم والعمىٰ كعابديها.

فقوله: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾.

قال مجاهد: (آدم عليه السلام).

وقال قتادة: (هو الذي خلقكم من نفس واحدة من آدم).

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾.

قال قتادة: (حواء، فجعلت من ضلع من أضلاعه، ليسكن إليها). وفي التنزيل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: 1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ المرأة خُلِقَتْ من ضِلع، لن تستقيمَ لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها، وبها عِوَجٌ، وإن ذَهَبْتَ تُقيمها كَسَرْتَها، وكَسْرُها طلاقُها](1).

وله شاهد في مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان من حديث سمرة بلفظ: [إن المرأة خلقت من ضلع، وإنك إن ترد إقامةَ الضِّلعِ تكسرها، فدارِها تعشْ بها] وسنده صحيح.

وقوله: ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾. قال ابن جرير: (ليأوي إليها، لقضاء حاجته ولذته).

وقال ابن كثير: (أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً... ﴾ [الروم: 21]، فلا ألفة بين رُوحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه).

قلت: وهذا كلام بديع من الحافظ ابن كثير رحمه الله، فإن غاية السكن والألفة والمودة بين الخلق جعلها الله سبحانه بين الرجل وزوجته، ليجعل الله بذلك بيت الزوجية متماسكاً متيناً لا تهزه رياح التمزيق والتفريق، فإن حصل شيء من ذلك فهو بتمكن الشياطين من التسلل إلى داخل البيت لإحداث الفتن، وهذا لا يكون إلا بإذن الله بسبب بعض المخالفات الشرعية.

فقد أخرج ابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [لم يُرَ للمتحابَّيْن مثل النكاح](2).

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند حسن عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1466) ـ كتاب الرضاع ـ باب الوصية بالنساء. وانظر للشاهد بعده، صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (1940)، ورواه الحاكم، وسنده صحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (1847)، والحاكم (160/2)، والبيهقي (78/7)، وغيرهم.

[ما توادَّ اثنان في الله عز وجل ، أو في الإسلام . فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما][1] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ .

أي : فلما تدثرها ووطئها ليقضي حاجته منها حملت ماء زوجها ـ آدم عليه السلام ـ وهو حمل خفيف عليها في أول أطواره. وفي الكلام محذوف ـ كما قال ابن جرير ـ والتقدير : فلما تغشاها فقضى حاجته منها حملت. قال : (يعني بـ «خفة الحمل» ، الماء الذي حملته حواء في رَحمها من آدم ، أنه كان حملاً خفيفاً ، وكذلك هو حملُ المرأة ماءَ الرجل ، خفيفٌ عليها). وقال ابن كثير : (وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هي النُّطفة ، ثم العَلَقة ، ثم المُضغة) .

وقوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ .

فيه أقوال :

1 ـ قال مجاهد : (﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ ، قال : استمرّ حملها) .

2 ـ وقال السدي : (يقول : استمرت به). وقال أيوب : (سألت الحسن عن قوله : ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ ، قال : لو كنت امرأً عربياً لعرفت ما هي ، إنما هي : فاستمرت به). وقال قتادة : (واستبان حملها) .

3 ـ وقال ابن عباس : (﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ ، قال : فشكت ، أحملت أم لا؟) .

4 ـ وقال ميمون بن مهران ، عن أبيه : (استخفته) .

قلت : وخلاصة المعنىٰ كما ذكر مجاهد والحسن وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير ـ شيخ المفسرين رحمه الله ـ قال : (استمرت بالماء ، قامت به وقعدت) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ .

أي : ظهر الحمل وترعرع في بطنها واقترب حين ولادتها. كما قال السدي : (كبر الولد في بطنها). قال ابن كثير : (أي : صارت ذات ثِقَل بحملها) .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري «في الأدب المفرد» (401) ، وأخرجه أحمد(68/2) ، من حديث ابن عمر. وانظر صحيح الأدب المفرد ـ حديث رقم ـ (310) ، والسلسلة الصحيحة (637) .

وقوله: ﴿دَعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: لئن آتيتنا بشراً سوياً لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت.

ومن أقوال المفسرين في هذه الآية:

1 ـ قال ابن عباس: (أشفقا أن يكون بهيمة). وعن أبي البختري قال: (أشفقا أن يكون شيئاً دون الإنسان). أو قال: (أشفقا أن لا يكون إنساناً).

2 ـ عن أبي صالح قال: (لما حملت امرأة آدم فأثقلت، كانا يشفقان أن يكون بهيمة. فدعوا ربهما: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، الآية).

3 ـ قال الحسن البصري: (لئن آتيتنا غلاماً).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال الحسن: (كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم) ـ ذكره ابن جرير بسنده عنه، ثم قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: (عَنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده. يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾).

ثم قال: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: (كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهوّدوا ونصّروا).

قال الحافظ ابن كثير: (وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ـ رحمه الله ـ أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولىٰ ما حملت عليه الآية).

قلت: وأما ما أورده ابن جرير بسنده عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: (كانت حوّاء لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه «عبد الحارث»، فعاش لها ولد، فسمته «عبد الحارث»، وإنما كان ذلك عن وحي الشيطان) ـ فلا يصح عن النبي ﷺ، بل هو ضعيف منكر[1]. ويبقى ما ذكره الحسن واستحسنه ابن كثير، هو

(1) لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ. قال الذهبي في الميزان (6042) في ترجمة أحد رواته عمر بن إبراهيم، فقال: صححه الحاكم، وهو منكر. وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال الدارقطني: ليّن يترك. وذكر الخبر السدي ومجاهد ويبدو أنه متلقىٰ عن أهل الكتاب. وفي الحديث: [إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم] ـ إسناده جيد. أخرجه أبو داود (3644)، وأحمد (136/4).

الأقرب للتأويل الصحيح والأنسب لمقام نبوة أبينا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.

إنكار من الله على المشركين عبادتهم آلهة مخلوقة ـ من الأنداد والأصنام والأوثان ـ خلقها الله كما خلقهم وهي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، بل هم عابدوها أكمل منها بما أودعهم الله تعالىٰ من الصفات.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: 95 ـ 96].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: 20].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 73 ـ 74].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: 54].

قال الجشميّ: (تدل الآية على صحة الحجاج في الدين، لأن قوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ ﴾ الآية ـ حجاج. وتدل على أن المستحق للعبادة الذي يخلقُ وينعمُ ويقدر على النفع والضر هو الله تعالى).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾.

أي: إن هذه الآلهة التي اتخذها القوم من دون الله لا تنصر ولا تنتصر. فهي لا تملك لعبدتها نصراً إذا حَزَبَهُم أمر، بجلب نفع أو دفع ضر. ولا تستطيع الدفاع عن نفسها إذا اعتراها حادث من الحوادث.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دَحاها، كما قال إبراهيم: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: 42]).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

إخبار من الله تعالى أن ما يدعون من دونه عبيد مثل عابديها ، ومخلوقات مثلهم ، بل إن عابديها أكمل خلقاً منها إذ تسمع وتبصر وتتحرك وتبطش وتِلك جامدة لا حراك لها.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾.

المعنى: ألأوثانكم أيها الناس أرجل فهم يسعون معكم ولكم في حوائجكم ، أم لهم أيد يدفعون بها عنكم شر ما تلقونه من مكر عدوكم ، أم لهم أعين يبصرون بها ما خفي عنكم لتحذروه ، أم لهم آذان يسمعون بها ما خفي عنكم لتعوه وتكونوا منه على حذر وبصيرة. قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الجاهلين من قومك: ادعوا شركاءكم وثابروا في ذلك الغي والضلال ، ثم تآمروا أنتم وهم على إنزال المكيدة والمكر فيّ ، فإن الله ناصري وهو يخزي المشركين.

قال ابن جرير: (﴿ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ، يقول: فلا تؤخرون بالكيد والمكر ، ولكن عجّلوا بذلك. يُعْلِمُهُ جل ثناؤه بذلك أنهم لن يضروه ، وأنه قد عصمه منهم ، ويُعَرِّف الكفرة به عجز أوثانهم عن نصرة من بغى أولياءهم بسوء).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

قال القاسمي: (تعليل لعدم المبالاة ، المنفهم من السوق انفهاماً جليّاً. أي: الذي يتولىٰ حفظي ونصرتي هو الله الذي أنزل الكتاب ، المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة. قال: وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ تذييل مقرر لما قبله. أي: ومن عادته أن يتولىٰ الصالحين من عباده ، وينصرهم ولا يخذلهم. وفيه تَعْرِيضٌ ، لمن فقد الصلاح ، بالخذلان والمَحْق).

وفي التنزيل ـ لما قال قوم هود له ـ: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ ﴾ فأجابهم: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم . . . ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.
قال القرطبي: (كرره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

قال السدي: (هؤلاء المشركون). وقال مجاهد: (﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، ما تدعوهم إلى الهدىٰ). قال ابن كثير: (أي: يقابلونك بعيون مُصَوَّرة كأنها ناظرة، وهي جماد ولهذا عاملهم مُعامَلة من يعقِلُ، لأنها على صُوَر مصورة كالإنسان، ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾، فعبر عنها بضمير من يعقل) واختاره ابن جرير، وقاله قتادة.

قلت: فالسياق يدل أن الخطاب إلى المشركين في نعت ضعف آلهتهم ـ كما ذهب إليه شيخ المفسرين.

وقد أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح عن أبي تميمة قال: [شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال أنت محمد؟ فقال: نعم، قال: فإلامَ تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده، مَنْ إذا كان بك ضرٌّ فدعوته كشفه عنك، ومن إذا أصابك عامُ سنة فدعوته أنبت لك، ومن إذا كنت في أرض قَفْرٍ فأضللت فدعوته ردّ عليك][(1)].

وفي لفظ: [أدعو إلى ربك الذي إن مَسَّكَ ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض قفرٍ فدعوته ردّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك].

199 - 206. قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود. انظر صحيح سنن أبي داود (3442). وانظر تخريج المشكاة (918)، وصحيح الجامع الصغير (242).

فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: توجيه الله تعالى نبيّه ﷺ لأخذ العفو والإعراض عن سلوك الجاهلين. وإلى الاستعاذة به من شر وساوس الشيطان الرجيم. وتلك صفة ملازمة للقوم المتقين ، كلما مسّهم نزغ من الشيطان اللعين. وأما شياطين الإنس فهم إخوان الشياطين ، تمدهم شياطين الجن بالغي والضلال فهم لهم منقادون طائعون. وإذا دُعوا إلى الإيمان طالبوا بالمعجزات والخوارق شأن الأمم قبلهم ، ثم استكبروا بعد ظهورها وبيانها ، فقل لهم ـ يا محمد ـ إن هذا القرآن هو أكبر معجزة إلى قيام الساعة ، وقد أمر تعالى بالإصغاء لآياته إذا تليت ، والإنصات الجميل لتدبر معانيه إذا سمعت ، كما أمر بإخفاء الذكر والدعاء ، وعدم الاعتداء في التوسل والرجاء ، وحث على العبادة أوائل النهار وأواخره ، والاقتداء بالملائكة الكرام في عبادتهم المستمرة وسجودهم وركوعهم وتعظيمهم لله رب العالمين.

فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ـ فيه أقوال:

1 ـ عن مجاهد: (﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ، قال: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسس).

وقال: (﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ، قال: عفو أخلاق الناس ، وعفوَ أمورهم). وقال عروة: (أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس). وعن ابن الزبير قال: (ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ ، الآية).

2 ـ عن ابن عباس: (قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ، يعني خذ ما عفا لك من أموالهم ، وما أتوك به من شيء فخذه. فكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها ، وما انتهت الصدقات إليه). وقال السدي: (أما ﴿العفو﴾ ، فالفضل من المال ، نسختها الزكاة). وقال الضحاك: (﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: أَنْفِق الفَضْل).

3 ـ قال ابن زيد: (﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ، قال: أمره فأعرض عنهم عشر سنين بمكة. قال: ثم أمره بالغلظة عليهم ، وأن يقعد لهم كل مَرْصد ، وأن يحصرهم). واختاره ابن جرير.

قلت: والراجح ما أخرج البخاري في صحيحه، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: (إنما أنزل: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ من أخلاق الناس). وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن الزبير: (﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم).

قال النسفي: (﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ هو ضد الجهد، أي: ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا).

ومن كنوز السنة الصحيحة في هذا المعنى، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس، عن النبي ﷺ قال: [يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا][1].

وفي لفظ: [يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والشيخان عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده، أن النبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال: [يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند حسن عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: [لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال؟ فقال: يا عقبةُ، صِلْ من قطعكَ، وأعطِ من حَرَمَكَ، وأعرض عمن ظلمك][3].

فدخل في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين المخبتين.

وقوله: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

قال البخاري: (العرف: المعروف). وهو قول عروة وقتادة وابن جرير.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (101/7)، ومسلم (141/5)، وأخرجه أحمد (131/3).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (26/4)، (108/5)، (101/7)، (114/8)، وأخرجه مسلم (141/5)، وأخرجه أحمد (412/4)، (417/4)، وأخرجه الطيالسي (496).

(3) حسن صحيح. أخرجه أحمد (148/4)، والطبراني (269/17)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (19) (20)، وله شاهد عند الحاكم (518/1) وأحمد (4/ 148)، (4/ 158 ـ 159).

ولا شك أنه يدخل بهذا كل الطاعات وأعمال البر ، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغض الأبصار ، والاستعداد لدار القرار.

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس قال: [قدم عُيينة بن حصن بن حُذيفة ، فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس ـ وكان من النفر الذين يُدنيهم عُمَر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمرَ ومشاورته ـ كُهولاً كانوا أو شباناً ـ فقال عُيينة لابن أخيه: يا ابن أخي ، لك وَجْهٌ عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعُيَيْنة ، فأذن له عمر، فلما دخل قال: هِيْ يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجَـزْل ، ولا تحكـم بينـنا بالعـدل. فغضب عمر حتى هـمَّ أن يُوقِعَ به. فقال لـه الحـرّ: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عُمَرَ حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل][1].

وعن قتادة: (قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، قال: أخلاقٌ أمر الله بها نبيّه ﷺ ودلّه عليها).

قال ابن جرير: (وأما قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، فإنه أمر من الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يعرض عمن جهل. وذلك وإن كان أمراً من الله نبيّه ، فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدىٰ عليهم ، لا بالإعراض عمن جهل الواجبَ عليه من حق الله ، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين حَرْب).

وقال القرطبي: (وفي قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الحضُّ على التعلق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة).

وقال ابن كثير: (وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسنٌ ، فخذ ما عفا لك من إحسانه ، ولا تُكَلِّفه فوق طاقته ولا ما يحرجه ، وإما مسيءٌ فَمُرْهُ بالمعروف ، فإن تمادىٰ على ضلاله واستعصى عليك واستمرَّ في جهله ، فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يردّ كيدَه ، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: 96 ـ 98].
وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4642) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأعراف، آية (199).

عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ ـ أي: هذه الوصية ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: 34 ـ 36]. وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ ﴾ ، فهذه الآيات الثلاث في «الأعراف» ، «والمؤمنون» ، «وحم السجدة» ، لا رابع لهن ، فإنه تعالى يُرشِدُ فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ، ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34].

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» ، وأبو داود في السنن ، بسند صحيح لغيره ، عن سُليم بن جابر الهُجَيمي قال: [أتيت النبي ﷺ وهو محتبٍ في بُردة ، وإنّ هُدّابها[1] لعلىٰ قَدَميه. فقلت: يا رسول الله ، أوصني ، قال: عليك باتقاء الله ، ولا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تُفْرغَ للمستقي من دلوك في إنائه ، أو تكلم أخاك ووجهك منبسط ، وإياكَ وإسبال الإزار فإنَّها من المخيلة ، ولا يحبها الله ، وإن امرؤ عَيَّرك بشيء يعلمه منك فلا تُعَيِّره بشيء تعلمه منه ، دعه يكون وباله عليه ، وأجره لك ، ولا تسبن شيئاً. قال: فما سَبَبْتُ بعدُ دابةً ولا إنساناً][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذَرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقىٰ أخاك بِوَجْهٍ طليق][3].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن عديّ بن حاتمٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [اتقوا النار ولو بشِقِّ تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة][4].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والبخاري في «الأدب المفرد»

---

(1) وفي سنن أبي داود: هدبها. وهدب الثوب ، وهدبته ، وهدابه: طرف الثوب مما يلي طُرّته.

(2) صحيح لغيره. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ـ حديث رقم ـ (1182) ـ باب الاحتباء. وأخرجه الطيالسي (1208) ، وصححه ابن حبان (521). وانظر مسند أحمد (64/5) ، وصحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3442).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2626). وقوله: «بوجه طليق» ـ أي: متهلل بالبشر والابتسام.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (375/10) ، وأخرجه مسلم (1016) (68) ، وغيرهما.

بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق][1]. وفي لفظ: (صالح الأخلاق).

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إن أصابك غضب أو وسوسة من الشيطان باقتراب ما لا يحل فاطلب النجاة من ذلك بالله، والتجئ إليه سبحانه، إنه سميع لنداء عبده ودعائه، عليم بوسوسة الشياطين وما تخفي الصدور، وبما يذهب وسوسة اللعين ونزغه.

والنَّزْغُ والنَّغْز والهَمْزُ والوسوسة سواء، وأصل النزغ الفساد، وقيل: النزغ الإغواء والإغراء، والمفهوم واحد. وفي التنزيل:

1 ـ قال الله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي..﴾ [يوسف: 100].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: 97].

3 ـ وقال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: 4].

ومن كنوز السنة في هذا المعنى:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا، حتى يقول له من خلق ربك! فإذا بلغ فليستعذ بالله ولِيَنْتَهِ][2].

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه عن عَلْقَمة، عن عبد الله قال: [سُئِلَ النبي ﷺ عن الوَسْوَسة، قال: تلك مَحْضُ الإيمان][3].

الحديث الثالث: أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: [جاء ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحَدُنا أن يتكلم به، قال: أو قَدْ وجدتموه؟ قال: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان][4].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (318/2)، والبخاري في «الأدب المفرد» (273)، والحاكم (613/2). وإسناده حسن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3276)، وأخرجه مسلم (134) ح (214) من حديث أبي هريرة.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (133) ـ كتاب الإيمان. باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (132) ـ كتاب الإيمان ـ الباب السابق.

قال القرطبي ـ وقد ذكر هذا الحديث ـ: (والصريح الخالص. وهذا ليس على ظاهره، إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان، لأن الإيمان اليقين، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يعاقبوا على ما وقع في أنفسهم. فكأنه قال: جَزَعُكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه، لصحة إيمانكم، وعلمكم بفسادها. فسمّى الوسوسة إيماناً لما كان دفعها والإعراض عنها والردّ لها وعدم قبولها والجزعُ منها صادراً عن الإيمان).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

أي: إن الذين يخافون الله سبحانه ويعظمون أمره إذا ألَمَّ بهم لمَمٌ أو زلل من الشيطان من غضب أو غفلة أو جهل عارض أو غير ذلك مما يصدّ عن القيام بواجب الإيمان والتقوى، تذكروا عقاب الله ووعده ووعيده، فحملهم ذلك على الانسحاب السريع من المعصية والنهوض من الوقوع إلى التوبة والإنابة والاستغفار.

وللمفسرين في الآية تأويلان متقاربان:

1 ـ عن مجاهد: (﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، قال: هو الغضب). وقال سعيد: (الطيف: الغضب). وقد قرأ بعض المكيين والبصريين والكوفيين: ﴿طيفٌ من الشيطان﴾، في حين قرأها عامة قراء المدينة والكوفة ﴿طائف﴾ ـ وهو الأرجح والأشهر.

2 ـ عن ابن عباس: («الطائف» اللَّمَّة من الشيطان. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، يقول: نزغٌ من الشيطان، ﴿تذكروا﴾).

وقال السدي: (يقول: إذا زلّوا تابوا).

فبعد الذكرى يصبحون في حال أحسن، إذ عادوا إلى حال التقوى وقد نزع الله عنهم وسواس الشيطان، فانتصروا بعد عراك ومجاهدة فإذا هم على هدىً من الله وبصيرة ونور.

وعن ابن عباس: (﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، يقول: إذا هم منتهون عن المعصية، آخذون بأمر الله، عاصون للشيطان).

ومن كنوز السنة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن سُليمانَ بن صُرَد رضي الله عنه قال: [كنت جالساً مع النبي ﷺ ، ورجلان يَسْتَبَّان وأحدهما قد احمَرَّ وجْهُه ، وانتفخت أوداجهُ. فقال رسول الله ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد. فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوّذ بالله من الشيطان الرجيم][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي العلاء: [أن عثمانَ بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي ، يُلَبِّسُها عَلَيَّ ، فقال رسول الله ﷺ: ذاك شيطانٌ يُقال له خِنْزَبٌ ، فإذا أحْسَسْتَهُ فتعوَّذْ بالله منه ، واتفُلْ على يسارك ثلاثاً. قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد ، والحاكم ، وابن حبان ، والحافظ أبو بكر ابن مَرْدَوَيه ـ واللفظ له ـ بسند حسن ـ عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طَيْفٌ فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يشفيني. فقال: إن شئت دعوتُ الله فشفاك وإن شئت فاصبري ولا حسابَ عليك. فقالت: بل أصبر ، ولا حساب عليّ].

ولفظ أحمد وغيره من أهل السنن: [قالت: يا رسول الله ، إني أُصْرَعُ وأَتكَشَّفُ ، فادعُ الله أن يشفيني. فقال: إن شئت دعوت الله أن يشفيك ، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟ فقالت: بل أصبر ، ولي الجنة ، ولكن ادع الله أن لا أتكشَّف ، فدعا لها ، فكانت لا تتكشَّفُ][3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

المعنىٰ: إن إخوان الشياطين ـ وهم شياطين الإنس ـ تمدهم شياطين الجن في الغيّ والضلال ، ثم هم بعد ذلك منقادون طائعون لأوامر شياطينهم.

قال ابن عباس: (﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ، قال: لا الإنس

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3282) ، كتاب بدء الخلق ، وانظر (6115) ، ورواه مسلم.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2203) ـ كتاب السلام. باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة.
(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (441/2) ، والحاكم (218/4) ، وابن حبان (2909) ، وغيرهم.

يقصرون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين تُمْسِك عنهم). وقال أيضاً: (هم الجن ، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ ، يقول: لا يسأمون). وقال ابن جريج ، قال عبد الله بن كثير: (وإخوانهم من الجن يمدون إخوانهم من الإنس ، ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ ، يقول: ثم لا يقصر الإنسان. قال: و«المد» الزيادة ، يعني أهل الشرك. يقول: لا يُقصر أهله الشرك كما يقصر الذين اتقوا ، لا يرعَوُون ، لا يحجزهم الإيمان). وقال مجاهد: (﴿ وَإِخْوَانُهُمْ ﴾ من الشياطين ، ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ﴾ ، استجهالاً).

والخلاصة في قوله: ﴿ثم لَا يُقْصِرُونَ﴾ أحد تأويلين متكاملين:

1 ـ **التأويل الأول**: الشياطين تمد ، والإنس لا تقصر في الامتثال ، وركوب سبيل الغي والضلال. كما ذكر ابن عباس: (لا الإنس يُقصِرون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم).

2 ـ **التأويل الثاني**: الشياطين يمدون أولياءهم من الإنسان دون كلال أو ملل أو تقصير. قال ابن عباس ـ في رواية العوفي عنه ـ: (هم الجن ، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ، ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ ، يقول: لا يسأمون).

وفي التنزيل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83]. قال ابن عباس وغيره: (تُزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً). وقال ابن كثير: (يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ ، لا تفتر فيه ولا تَبْطُل عنه).

وقوله: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾.

أي: هَلاّ أتينا بها من عندك!

المقصود: هم يريدون رؤية معجزة أو خارق كما هو شأن الأمم من قبل ، سألوا الخوارق والمعجزات ، فلما أتتهم استكبروا وأصروا على العناد والبغي. ومن أقوال المفسرين:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ ، يقول: لولا تلقّيتها). وقال: (لولا أحدثتها فأنشأتها).

2 ـ وقال مجاهد: (﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، قال: لولا اقتضبتها، قالوا: تخرجها من نفسك).

3 ـ قال الضحاك: (﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء).

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبعُ ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداءً إياها، إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم. ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أمْرٌ من الله تعالى بالإصغاء لكتابه العظيم إذا تليت آياته، والإنصات الجميل لتدبر معانيه وتفهم مواعظه وَحِكَمه، فإن في ذلك مظنة نزول رحمة الله على الممتثلين الطائعين. وتفصيل ذلك:

1 ـ هذه الصفة التي يأمر الله تعالى المؤمنين بالتحلي بها، هي مضادة لسلوك الكافرين حين سماعهم القرآن، إذ يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: 26].

2 ـ يتأكد امتثال هذا النعت أثناء صلاة الجماعة حين يجهر الإمام بالقراءة.

ففي صحيح مسلم عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما جُعل الإمام ليؤتمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا][1].

وفي مسند أحمد عن أبي هريرة: [أن رسول الله ـ ﷺ ـ انصرف في صلاة جَهَرَ فيها بالقراءة، فقال: هل قرأ أحد منكم معي آنفاً؟ قال رجل: نعم يا رسول الله. فقال: إني أقول: ما لي أنازعُ القرآنَ؟! قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (404) ـ كتاب الصلاة. باب التشهد في الصلاة.

فيه رسولُ الله ﷺ بالقراءة من الصلوات ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ][1] .

قال عبد الله بن عباس : (قوله : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ ، يعني : في الصلاة المفروضة). وعن مجاهد قال : (في الصلاة). وعن ابن زيد : (أن المراد بذلك في الصلاة). وقال الحسن : (في الصلاة وعند الذكر).

ومن أقوال الفقهاء :

قال عبد الله بن المبارك ، عن يونس ، عن الزهري ، قال : (لا يقرأ مَنْ وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يُسمعهم صوته ، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾).

قال الحافظ ابن كثير : (هذا هو مذهب طائفة من العلماء : أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولي الشافعي ، وهو القديم كمذهب مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل. قال : وقال في الجديد : يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام ، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم).

قلت : لا شك أن الأمر استقر على النهي عن القراءة مع الإمام في الجهرية ، حتى ولو كان بفاتحة الكتاب للحديث السابق وقوله ﷺ : «ما لي أنازع» ، وقول أبي هريرة : (فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ) ، وفي رواية : (وقرؤوا في أنفسهم سراً فيما لا يجهر فيه الإمام)[2] . وهناك إضافة إلى ذلك حديثان :

الحديث الأول : أخرج البيهقي من حديث عمر مرفوعاً ـ وفي آخره ـ : [مالي أنازع

---

(1) إسناده جيد. أخرجه البخاري في «القراءة خلف الإمام» (96) ، وأبو داود (826) ، والترمذي (312) ، والنسائي (140/2) (141/2) ، وابن ماجة (849) ، وأحمد (284/2) ، وابن حبان في صحيحه (1849) من طرق عن الزهري به ، وإسناده جيد.

(2) أخرجه مالك والحميدي وأبو داود والمحاملي (1/139/6) وحسنه الترمذي. وانظر صفة الصلاة ـ ص (80) ـ الألباني ، وقال : وصححه أبو حاتم الرازي وابن حبان وابن القيم.

القرآن؟! أما يكفي أحدكم قراءة إمامه؟! إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا قرأ فأنصتوا] وسنده حسن[1] .

الحديث الثاني: أخرج ابن أبي شيبة والدارقطني وأحمد عن جابر مرفوعاً: [من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة][2] .

3 ـ والآية تشمل مجالس العلم والذكر والعيدين والجمعة وحيث يُقرأ القرآن أثناء لقاء مشروع غير مبتدع .

فعن مجاهد: (﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ ، قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة). وعن الحسن قال: (في الصلاة وعند الذكر). وقال: (إذا جلست إلى القرآن فأنصت له).

وقال سعيد بن جبير: (﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ ، قال: الإنصات يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، ويوم الجمعة ، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة).

واختار ابن جرير ـ شيخ المفسرين ـ أن المراد بالآية الإنصات في الصلاة وفي الخطبة ، لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة .

قلت: وأما القراءة المبتدعة فلا يجب الإنصات لها ، كأن يوضع القرآن على المنائر قبيل الصلوات في المساجد ، أو يوضع على المكبرات في تعازي الناس ومآتمهم ، أو يرفع الصوت ليسمع في السوق من بعض المحلات ، فلا يجب على المارة الإنصات لذلك .

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ .

أَمْرٌ من الله تعالى بإخفاء الذكر والدعاء وعدم الاعتداء في ذلك ، وحثٌ على العبادة في هذين الوقتين ﴿بالغدو﴾ أوائل النهار ، ﴿والآصال﴾ أواخر النهار وفي العشيات .

قال مجاهد: (﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ، الآية ،

---

(1) رواه البيهقي في «كتاب وجوب القراءة في الصلاة» كما في «الجامع الكبير» (2/344/3) .

(2) أخرجه ابن أبي شيبة(1/97/1) ، والدارقطني وابن ماجة والطحاوي وأحمد من طرق كثيرة ، مسندة ومرسلة ، وقواه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «الفروع» لابن عبد الهادي (ق 2/28). وصحَّحَ بعض طرقه البوصيري. وانظر صفة الصلاة ـ الألباني ص (81) ، والإرواء (حديث ـ 500).

قال: أمروا أن يذكروه في الصدور تضرعاً وخيفة). وقال ابن جريج: (يؤمر بالتضرع في الدعاء والاستكانة ، ويكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء).

قال ابن جرير: (وأما قوله: ﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ ، فإنه يعني: بالبُكَر والعَشِيَّات).

والآصال جمع أصيل ، كما الأيمان جمع يمين ـ هكذا في كلام العرب. والآصال هي وقت ما بين العصر إلى المغرب. قال ابن زيد: (﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾: بالبكر والعشي).

وقال مجاهد: («الغدو» آخر الفجر ، صلاة الصبح ، و«الآصال» ، آخر العشي ، صلاة العصر. قال: وكل ذلك لها وقت ، أو الفجر وآخره. وذلك مثل قوله في سورة آل عمران: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾. وقيل: «العشي» مَيْل الشمس إلى أن تغيب ، و«الإبكار» ، أول الفجر).

والخلاصـــة: في الآية نهي صريح عن رفع الصوت بالذكر والدعاء ، أو التشويش على المؤمنين. وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مالك في الصلاة ، من حديث البياضي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ـ وقد خرج على أصحابه وهم يرفعون أصواتهم بالقرآن ، فكره ذلك ـ وقال: [لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: [اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال: ألا كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضاً ، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: [كنا مع رسول الله ﷺ فكُنّا إذا أشرفنا على وادٍ هَلَّلْنا وكَبَّرْنا ارتَفَعَتْ أصواتُنا ،

---

(1) حديث صحيح. رواه مالك في الصلاة ، باب العمل في القراءة (80/1) ـ رقم (29).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في الصلاة ، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل ، رقم (1332) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (543/2) ، رقم (2658).

فقال النبي ﷺ: يا أيها الناس! ارْبَعُوا على أنْفُسكم ، فإنكم لا تَدْعون أَصَمَّ ولا غائباً ، إنه معكم ، إنه سميع قريب][1] .

وأما ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد رسول الله ﷺ)[2] . فالجواب عنه كما قال الشافعي في الأم (127/1): (وأحسبه إنما جهر قليلاً ليتعلم الناس منه). قال ابن الحاج: (فهذا الإمام الشافعي حمل ذلك على سبيل التعليم ، فإن حصل التعليم أمسك).

قال ابن جرير: (وأما قوله: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ ، فإنه يقول: ولا تكن من اللاَّهين إذا قرئ القرآن عن عظاته وعبره وما فيه من عجائبه ، ولكن تدبر ذلك وتفهمه ، وأشعره قلبك بذكرٍ لله ، وخضوع له ، وخوفٍ من قدرة الله عليك إن أنت غفلت عن ذلك).

وقال قتادة: (أمر الله بذكره ، ونهىٰ عن الغفلة).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ .

قال القاسمي: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني الملائكة الذين هم في أعلى مقامات القرب ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ أي: لا يتعظمون عنها. وقوله: ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ أي: فينبغي أن يقتدىٰ بهم فيما ذكر عنهم ، ففيه حث ولطف مرغب في ذلك. لأنه إذا كان أولئك ـ وهم ما هم في قرب المنزلة والعصمة ـ حالهم في عبادته تعالى وتسبيحه ما ذكر ، فكيف ينبغي أن يكون غيرهم).

قال ابن كثير: (وإنما ذكرهم بهذا ليُتَشَبَّه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم. ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله ـ عز وجل ـ. كما جاء في الحديث: «ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكة عند ربها ، يُتِمُّون الصفوفَ الأوَل ، ويتراصون في الصف». وهذه أول سجدة في القرآن ، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بالحث والترغيب على سجود التلاوة ، في أحاديث:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2992) ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب ما يُكرَهُ من رَفع الصوت في التكبير.

(2) رواه البخاري في الأذان (841) ، ورواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (583) (122).

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويلتا! أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرتُ بالسجود فأبيت فلي النار][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر: [أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن ، فيقرأ سورة فيها سجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته ، في غير وقت صلاة][2] .

الحديث الثالث: روىٰ مسلم عن ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ فقال: [عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة][3] .

تم تفسير سورة الأعراف
بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في ـ كتاب الإيمان ـ حديث رقم ـ (81). وفي رواية: (فعصيت فليَ النار). وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1079) ـ كتاب سجود القرآن ، وانظر (1075) ، ورواه مسلم.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (488) ـ كتاب الصلاة. باب فضل السجود والحث عليه، من حديث ثوبان رضي الله عنه ـ مولىٰ رسول الله ﷺ.

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ الأعمال تمثل أجساماً توزن بالحق مع صاحب العمل.

2 ـ أول من قاسَ إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

3 ـ الصراط المستقيم هو منهاج الخير المؤدي للجواز على الصراط فوق جهنم إلى الجنة.

4 ـ الكبر سبب شقاء إبليس وطرده من رحمة الله ، وكذلكَ مصير بعض بني آدم.

5 ـ الكلمات التي تلقاها آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

6 ـ عدوك الذي يراك ولا تراه ، يكون أشد مكراً بك ووقيعة.

7 ـ العمل المقبول ما وافق الشريعة وكان خالصاً من الشرك.

8 ـ لم يحرم الله الطيبات ، إنما حرّم الفواحش الظاهرة والباطنة.

9 ـ لكل أمة أجل ، ولا أحد أظلم ممن كذب على الله ، ورؤوس الكفر والضلال يحملون يوم القيامةِ أثقالهم وأثقال من أضلوهم.

10 ـ لا يدخل الكافر الجنة ، حتىٰ يدخل الجملُ في سمّ الخياط.

11 ـ أصحاب النار يجدون حقاً ما وعدهم الله من العذاب المقيم.

12 ـ أحيا الله لرسوله ﷺ أهل قليب بدر ، فأسمعهم تقريعه لهم.

13 ـ الحسنة بعشر ، والسيئة بواحدة ، ويل لمن غلبت آحاده عشراته.

14 ـ الأعراف: رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم.

15 ـ الكفار يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً ، ولكن هيهات.

16 ـ الاستواء: العلو والارتفاع ، والرحمن على العرش استوىٰ.

17 ـ الخلق لله والأمر ، والدعاء يجب أن يكون خافتاً بذل واستكانة .

18 ـ العبادة يجب أن يرافقها الخوف والطمع : خوف غضب الله وعذابه ، وطمع في رحمته ومغفرته وجنته .

19 ـ ينبت الله الموتىٰ من قبورهم للقيام إلى أرض المحشر .

20 ـ أول من عبد الأصنام قوم نوح ، وأنجىٰ الله نوحاً والمؤمنين وأغرق الكافرين .

21 ـ ذكر النعم يؤدي إلى شكر المنعم بتوحيده وعبادته وطاعته .

22 ـ كفرت عاد فاستأصلها الله . . . إلا هوداً ومن آمن معه .

23 ـ نهىٰ رسول الله ﷺ المسلمين أن يشربوا من ماء ثمود ، وأمرهم بورود الماء الذي كانت تشرب منه الناقة .

24 ـ سألت ثمودُ إخراج ناقة من الصخرة فاستجاب الله لهم ، فتمادوا فعقروها فاستأصلهم الله بصيحة من السماء .

25 ـ قوم لوط أول من ابتدعوا إتيان الرجال دون النساء .

26 ـ حد عمل قوم لوط قتل الفاعل والمفعول به .

27 ـ التلاعب بالمكيال والميزان عمل قوم شعيب ، دمرّهم الله بكفرهم وأفعالهم .

28 ـ ابتلاء الله بالشدة والرخاء ، والعاقبة للصابرين والشاكرين .

29 ـ الإيمان سبب النعمة لأولياء الله ، والكفر سبب النقمة من أعدائه .

30 ـ ذُعِرَ فرعون من المعجزة ، وَوَعدَ بالإيمان ثم نَكَلَ وَكَفَرَ ، وقطع أيدي وأرجل السحرة المؤمنين ، وصلبهم وهم صابرون .

31 ـ أَمْر الله بني إسرائيل أن يأخذوا بأشد ما في التوراة .

32 ـ رحمة الله وسعت كل شيء ، ومن توكل على رحمة الله كفاه الله .

33 ـ محمد رسول الله إلى الناس كافة ، بالشريعة الحنيفية السمحة ، وكل من سمع به من أهل الكتابين وجب عليهم الإيمان به .

34 ـ الميثاق حق ، أخذه الله على بني آدم أمام أبيهم بنعمان قرب عرفة .

35 ـ الإيمان بالربوبية يقتضي الإيمان بالألوهية ولوازم الأسماء والصفات .

36 ـ ادعاء الغفلة وتقليد الآباء مرفوضان يوم القيامة .

37 ـ إن لله تسعةً وتسعين اسماً ، من فهمها وآمن بها وعمل بمقتضاها وحفظها ضمنت له الجنة .

38 ـ الساعة لا تأتي بغتة ، ولا يعلم موعدها أو الغيب إلا الله .

39 ـ الاستعاذة خير ما يُدفع به الشيطان ويتصدىٰ لوساوسه ونزغه .

40 ـ الإنصات لقراءة الإمام واجبة ، والقراءة فيما أسر واجبة .

41 ـ ذكر الله تعالى يجب أن يكون خفياً وقوراً ، لا صراخاً ورقصاً .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (75)

أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: [قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر][1].

موضوع السورة

غزوة بدر وأحكام القتال ، وتشريع قسمة الغنائم والأنفال ، وأحكام خاصة في السياسة الشرعية والعلاقات الدولية

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تدخل الوحي لحل الخصام في الأنفال وإعطائها لرسول الله ﷺ يقسمها.
2 ـ بيانُ أوجه النفل الذي ينفله الإمام ، ووجل قلوب المؤمنين عند الذكر ، وحقيقة مفهوم التوكل على الله تعالىٰ.
3 ـ اشتباك المسلمين والمشركين ببدر على غير ميعاد لأمر يريده الله تعالى.
4 ـ إمداد الله المسلمين بألف من الملائكة مردفين ، وإرساله النعاس على المؤمنين ببدر أماناً من الخوف ، وضرب الملائكة كل بنان من المشركين لتعطيل أكفهم عن حمل السيوف.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4645) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأنفال ، آية (1).

5 ـ المولي دبره عند الزحف يبوء بغضب من الله تعالىٰ.
6 ـ دعاء النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض أبداً»، واستجابة الله دعاء أبي جهل بإنزال الهزيمة به وبقومه، ونصر المؤمنين مع نبيهم.
7 ـ الكفار هم شر الدواب عند الله وأضل منها سبيلاً.
8 ـ دعوة الله المؤمنين الاستجابة له ولرسوله، وتحذيره إياهم من الفتن المترتبة على مخالفة الأمر وتضييع الأمانة والانشغال بالمال والولد.
9 ـ أثر صدق الإيمان والتقوىٰ نور في القلب يميز به المؤمن بين الحق والباطل.
10 ـ مؤامرة قريش على قتل رسول الله ﷺ والإذن له بالهجرة.
11 ـ ادعاء قريش أنها لو شاءت لأتت مثل هذا القرآن.
12 ـ ما أولياء الله، وما أهل مسجده، إلا المتقون.
13 ـ الكفار ينفقون أموالهم لحرب محمد والمسلمين، ولكنها ستكون عليهم حسرة.
14 ـ الأمر بقتال الكفار حتىٰ لا يفتن المسلمون عن دينهم.
15 ـ تشريع قسمة الغنائم، والخمس يتصرف به إمام المسلمين في مصلحتهم.
16 ـ المؤمنون والمشركون كل رأوا خصومهم أقلاء في أعينهم.
17 ـ فرار الشيطان وجيشه يوم بدر حين رأىٰ الملائكة تساند المسلمين.
18 ـ أرواح الكفار لا تخرج إلا بضرب من ملائكة الموت.
19 ـ مفهوم الإعداد وحشد الطاقات لقتال الأعداء، ومفهوم الجنوح للسلم وضوابط ذلك.
20 ـ على مئة المسلم، أن لا يفروا من لقاء مئتين من الكفار.
21 ـ استشارة الرسول ﷺ أصحابه في أسارىٰ بدر، وموافقة الوحي عمر.
22 ـ المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض.
23 ـ من آمن ولم يهاجر فليس له في الغنائم من نصيب.
24 ـ الرسول ﷺ بريء من كلِّ مسلم يبقىٰ بين المشركين.
25 ـ أولو الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض في الإرث.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1. **قوله تعالىٰ:** ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾.

في هذه الآية: يعالج الله تبارك وتعالىٰ الخلاف والشجار الذي صدر من بعض المؤمنين يوم بدر بشأن بعض المغانم، ويؤكد المرجعية في التحاكم والقَسْم لله والرسول، فيأمر بالتقوى والإصلاح، وترك التخاصم والتظالم، فإن طاعة الله ورسوله أعلى من كل عرض هذه الحياة الدنيا للمؤمنين الصادقين.

قال البخاري: (قال ابن عباس: الأنفال: المغانِم. قال قتادة: «ريحكم»: الحرب. يُقال: نافِلة: عَطِية).

ثم قال: حدثني محمد بن عبد الرحيم: حدثنا سعيد بن سُلَيمان: أخْبرنا هُشَيْم: أخبرنا أبو بِشْرٍ عن سعيد بن جبير قال: (قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بَدْر)[1].

وفي أسباب نزول هذه الآية أحاديث صحيحة:

الحديث الأول: أخرج الترمذي وأبو داود والحاكم بسند صحيح عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: [لما كان يومُ بدر جئت بسيف فقلت: يا رسول الله، إن الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا، هب لي هذا السيف، فقال: هذا ليس لي ولا لك، فقلت: عسىٰ أن يعطىٰ هذا من لا يبلي بلائي، فجاءني الرسول ﷺ فقال: إنك سألتني وليس لي وإنه قد صار لي وهو لك. قال: فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4645) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأنفال، آية (1).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 178)، (1/ 181)، وأخرجه أبو داود في السنن (2740)، والترمذي (3079)، والنسائي في «التفسير» (216)، وغيرهم.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك، بسند رجاله ثقات، عن عبادة بن الصامت قال: [خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقىٰ الناس، فهزم الله تبارك وتعالىٰ العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، فأكبت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرَّة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ على وفاق بين المسلمين][1].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم وابن حبان بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، أما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأمَّا الشُّبان فتسارعوا إلى الغنائم. فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا ردءاً لكم ولو كان شيء لجئتم إلينا، فأبوا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾][2].

وقد ذكر ابن جرير بسنده عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: (سمعتُ رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال؟ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الفرس من النَّفْل، والسلب من النفل، ثم عاد لِمَسْأَلَتِهِ، فقال ابن عباس ذلك أيضاً، ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه، ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتىٰ كاد يُحرِجُه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مَثَلُ هذا؟ مثلُ صَبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب).

وله شاهد أخرجه عبد الرَّزاق، قال: أخبرنا مَعْمَر، عن الزُّهريّ، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: (كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا سُئِلَ عن شيء

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 323)، (5/ 324)، والحاكم (2/ 135)، وابن حبان (4857)، وأخرجه البيهقي (6/ 292)، وانظر سنن ابن ماجة (2852)، وسنن الترمذي (1561).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 131 ـ 132)، وابن حبان (5093)، وانظر سنن أبي داود (2737)، (2738)، (2739)، والنسائي في «التفسير» (217)، والطبري (15662).

قال: لا آمرك ولا أنهاك ، ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نَبِيّه ـ ﷺ ـ إلا زاجراً آمراً مُحلاً محرماً. قال القاسم: فَسُلِّطَ على ابن عباس رجلٌ يسأله عن الأنفال ، فقال ابن عباس: كان يُنَفَّلُ فرس الرجل وسلاحه ، فأعاد عليه الرجل ، فقال له مثل ذلك ، ثم أعاد عليه حتىٰ أغضبه ، فقال ابن عباس: أتدرون ما مَثَل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب ، حتىٰ سالت الدماء على عقبيه ـ أو على: رجليه ـ فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك).

وقد ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ثم قال: (وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فَسَّر النَّفَل بما يُنَفِّله الإمام لبعض الأشخاص من سَلَب أو نحوه بعد قَسْم أصل المغنم ، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل ، والله أعلم).

ومن أقوال المفسرين في (الأنفال):

1 ـ عن عكرمة ومجاهد: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ، قال: (الأنفال: الغنائم).

2 ـ عن علي بن صالح بن حيّ قال: بلغني في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ، قال: (السرايا).

3 ـ وعن عطاء قال: (هو ما شذَّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال ، دابّة أو عبدٌ أو متاعٌ ، ذلك للنبي ﷺ يصنع فيه ما شاء).

4 ـ عن ابن عباس قال: (ويقال «الأنفال»: ما أخذ مما سقط من المتاع بعدما تُقَسَّم الغنائم ، فهي نَفْلٌ لله ولرسوله) ، وسئل مرة عن الأنفالِ فقال: (السَّلب والفرس). أو قال: (الفَرَس والدِّرع والرمحُ). وقال: (كان يُنَفِّل الرجل سلَبَ الرجل وفرسه).

5 ـ وعن مجاهد: (﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ، قال هو الخمس. قال المهاجرون: لِمَ يُرْفَع عنا هذا الخمس ، لم يُخْرج منا؟ فقال الله: هو لله والرسول).

والراجح ما ذكره شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير رحمه الله ـ حيث قال: (هي زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش أو جميعهم ، إما من سَهْمه على حقوقهم من القسمة ، وإما مما وصل إليه بالنفل أو ببعض أسبابه ، ترغيباً له ، وتحريضاً لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين ، أو صلاح أحد الفريقين. وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من أنه الفرس والدرع ونحو ذلك ، ويدخل فيه ما قاله عطاء من أن ذلك ما عاد من المشركين إلى المسلمين من عبد أو فرس ، لأن ذلك أمره

إلى الإمام ، إذا لم يكن ما وصلوا إليه بغلبة وقهر ، يفعل ما فيه صلاح أهل الإسلام ، وقد يدخل فيه ما غلب عليه الجيش بقهر).

والخلاصة: الأنفال هي الزيادات على القَسْم ، ويشهد لهذا المعنى أسباب نزول الآية كما سبق.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. قال ابن جريج: (مَلَّكَه الله رسوله ، يقسمه كما أراه الله).

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. قال القرطبي: (أمر بالتقوىٰ والإصلاح ، أي كونوا مجتمعين على أمر الله في الدعاء: اللَّهُمَّ أصلح ذات البَيْنِ ، أي الحال التي يقع بها الاجتماع. فدل هذا علىٰ التصريح بأنه شَجَر بينهم اختلاف. أو مالَت النفوس إلى التَّشاحّ ، كما هو منصوص في الحديث). وعن السدي: (﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لا تستبّوا).

قال ابن عباس: (هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم).

وقال ابن كثير: (أي: اتقوا الله في أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه).

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن زيد: (فسلموا لله ولرسوله ، يحكمان فيها بما شاءا ، ويضعانها حيث أرادا).

قال ابن جرير: (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مصدقين رسول الله فيما آتاكم من عند ربكم).

2 ـ 4. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

في هذه الآيات: إن علامة صدق الإيمان في حياة المؤمنين خوف قلوبهم وخشية أفئدتهم إذا ذكر الله تعالىٰ ، ثم إذا تليت آياته ازدادت قلوبهم إيماناً ، وهم لا يرجون

في كشف حوائجهم غيره ، ولا يدعون سواه ، ولا يلوذون إلا بجانبه ، ولا يرغبون إلا إليه. ثم إنهم يقيمون صلاتهم بوضوئها وركوعها وسجودها وبالمحافظة على مواقيتها وينفقون ما وجب عليهم في أموالهم من الصدقات المفروضة والنفقات الواجبة والمستحبة. إنهم بهذه الصفات الكبيرة هم أهل الإيمان والصدق حقاً ، لهم الدرجات العلا عند ربهم ، وقد تجاوز الله عن ذنوبهم وستر عيوبهم ، ووعدهم على صدق الإيمان نعيم الآخرة وسرور الجنة ونعيمها ولذاتها.

فقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية.

قال مجاهد: (فرِقت). وقال السدي: (إذا ذكر الله وَجِل قلبه). وقال: (هو الرجل يريد أن يظلم ـ أو قال: يهمّ بمعصية ـ أحسبه قال: فينزع عنه). وقال قتادة: (فرقاً من الله تبارك وتعالىٰ ، ووجلاً من الله ، وخوفاً من الله تبارك وتعالىٰ).

قلت: وهذه الصفة علامة فارقة بين المؤمنين والمنافقين ، فقد تميز المؤمنون عن المنافقين بالخوف من الله وامتلاء القلوب بالوجل والخشية عند ذكره سبحانه ، عكس المنافقين الذين يظهرون خوفاً مصطنعاً ويراؤون ويخشون على دنياهم ومناصبهم وشهواتهم. قال ابن عباس: (المنافقون ، لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلّون إذا غابوا ، ولا يؤدّون زكاة أموالهم. فأخبر الله سبحانه أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، فأدوا فرائضه ، ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ، يقول تصديقاً ، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، يقول: لا يرجون غيره).

وعن الربيع: (﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ، قال: خشية).

وعن قتادة: (﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، قال: هذا نعت أهل الإيمان ، فأثبت نَعْتَهم ووصفهم ، فأثبت صفتهم).

وهذه الآية تدل صراحة على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، وهو مذهب جمهور الأمة ، وقد حكىٰ الإجماع على ذلك أعلام الأئمة كالشافعي وأحمد وأبي عبيد ، وبوّب الإمام البخاري في صحيحه باباً في (كتاب الإيمان) سماه: «باب: قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس» ـ وهو قول وفعل ، ويزيد وينقص.

وقد دلت نصوص القرآن والسنة على ذلك:

أولاً: في التنزيل الكريم:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: 173].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: 167].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: 4].

5 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: 31].

6 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: 76].

ثانياً: في السنة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه][2].

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [لا تؤمنوا حتى تحابوا][3].

وقد ذكر البخاري في الباب آثاراً طيبة عن الصحابة الكرام في ذلك، منها:

1 ـ قال معاذ: (اجلس بنا نؤمن ساعة).

2 ـ وقال ابن مسعود: (اليقين: الإيمان كله).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (15) ـ كتاب الإيمان، باب: حبُّ الرسول ﷺ من الإيمان. وأخرجه مسلم في صحيحه (1/ 49)، وانظر مختصر صحيح مسلم (23) ـ كتاب الإيمان.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (13)، وانظر مختصر صحيح البخاري (13) ـ كتاب الإيمان، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. وهو جزء من حديث أطول. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (42).

3 ـ وقال ابن عمر: (لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يدع ما حاك في الصدر).

4 ـ وقال عمار: (ثلاث من جمعهنّ فقد جمع الإيمان، الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالَم، والإنفاق من الإقتار).

وجاء في شرح العقيدة الطحاوية ـ لابن أبي العز الحنفي ـ في الأثر عن عمر أنه كان يقول لأصحابه: (هلموا نزدد إيماناً).

قلت: وقد وصف الحديث النساء بأنهن ناقصات عقل ودين، وجاء في حديث الشفاعة خروج من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنى مثقال ذرة من إيمان من النار، وغير ذلك مما ثبت في القرآن والسنة الصحيحة، فكيف يقال بعدها إن إيمان أهل السماوات والأرض سواء؟!.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. أي: لا يرجون سواه، ولا يلوذون إلا بجانبه، ولا يلجؤون ولا يرغبون ولا يقصدون ولا يطلبون حوائجهم إلا منه سبحانه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يقول: الصلوات الخمس، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، يقول: زكاة أموالهم).

وقال قتادة: (إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها).

وقال مقاتل بن حيان: (إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ ـ هذا إقامتها).

وعن قتادة: (﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ـ قال: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عَواريُّ وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها).

قال ابن كثير: (والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب).

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

قال ابن عباس: (يقول: برئوا من الكفر).

وقال قتادة: (استحقُّوا الإيمان بحق، فأحقه الله لهم).

وقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قال مجاهد: (﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قال: أعمال رفيعة).

وعن قتادة: (﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، قال: لذنوبهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، قال: الجنة).

وعن الضحاك: (﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرىٰ الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرىٰ الذي هو أسفلُ أنه فُضِّل عليه أحد).

قلت: ولا شك أن الدرجات هي منازل ومقامات ومراتب يتفاوت بها المؤمنون في الجنة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: 75].

وكقوله جل ذكره: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 163].

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق ذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة وأحمد بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [إن الرجل لتُرْفَعُ درجتُهُ في الجنة، فَيقول: أنّىٰ لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك][(1)].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: [إنّ أهل الجنة ليتراءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كما تتراءَوْنَ الكوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ، لِتَفاضُل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله! تلك منازِلُ الأنبياء، لا يَبْلُغُها غيرُهم، قال: بلىٰ، والذي نفسي بيده! رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المُرْسلين][(2)].

الحديث الثالث: أخرج أبو يعلىٰ في «مسنده»، والحاكم في «مستدركه» بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الرجل ليكون له عند الله المنزلةُ،

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (3660)، وأحمد (2/ 509)، والبغوي في «شرح السنة» (2/ 84/ 2)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 44/ 1)، وانظر السلسلة الصحيحة (1598).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256)، ومسلم (2831) ـ واللفظ له ـ كتاب الجنة ونعيمها، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (7393) من حديث أبي سعيد الخدري.

فما يَبْلُغُها بعملٍ ، فما يزال اللهُ يبتليه بما يكره حتىٰ يبلغه إياها][1].

وفي قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ، قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ، يقول: وعفو عن ذنوبهم ، وتغطية عليها ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ، قيل: الجنة. وهو عندي: ما أعدّ الله في الجنة لهم من مزيد المآكل والمشارب وهنيء العيش).

5 ـ 8. قوله تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: يقول تعالىٰ ذكره لنبيّه ﷺ: كما أخرجك ربك من بيتك في المدينة ليوم عظيم من أيام الله ليفصل به سبحانه بين الحق والباطل ، كذلك يجادلونك في الحق وهو القتال الذي أراده الله بين فئة الإيمان وفئة الشيطان ، وبعض المؤمنين كارهون للقاء ، وما زالت في قلوبهم بقية أثر بالاستيلاء على العير والغنائم. إنهم يجادلون في ذلك كراهة للقاء القوم وكأنما يساقون إلى الموت كراهية لا طواعية وهم ينظرون.

وإذ يعدكم ـ يا محمد ـ الله تعالىٰ إحدى الطائفتين: العير أو ذات الشوكة والقتال ، وتودون طائفة العير بأموالها ومتاعها دون تعب وعناء ، والله تعالىٰ يحب لكم أن تلقوا عدوكم وتكسروا شوكته بصدق جهادكم ومجالدتكم وصبركم عند الالتحام ليعلي كلمة الحق بصدق أهلها ويخزي فئة الكافرين. ليحق الحق والوحي ومنهاج النبوة ويبطل الباطل والكبر في الأرض والعلو بغير الحق ولو كره المجرمون.

فقوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾. قال مجاهد: (كذلك يجادلونك في الحق ، القتال).

وقوله: ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾. يعني: من المدينة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾. قال القرطبي: (أي لكارهون ترك مكة

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو يعلىٰ (4/ 1447) ، وابن حبان (693) ، والحاكم(1/ 344).

وترك أموالهم وديارهم). وقال السدي: (لطلب المشركين).

وأما قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾. قيل: قول بعضهم للنبي ﷺ يوم بدر: (أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له).

قال ابن جرير: (كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحق بعدما تبيّن ـ وهو لقاء العدو ـ).

ثم قال سبحانه: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾. قال ابن إسحاق: (أي كراهة للقاء القوم، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم).

ثم قال جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾. قال قتادة: (الطائفتان، إحداهما: أبو سفيان بن حرب إذ أقبل بالعير من الشام، والطائفة الأخرى: أبو جهل معه نفر من قريش، فكره المسلمون الشوكة والقتال، وأحبوا أن يلقوا العير، وأراد الله ما أراد).

وقال ابن إسحاق: (قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾: أي الغنيمة دون الحرب).

ثم قال عز وجل: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال ابن جرير: (ويريد الله أن يحق الإسلام ويعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأمره إياكم أيها المؤمنون بقتال الكفار، وأنتم تريدون الغنيمة والمال، ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: يريد أن يَجُبَّ أصل الجاحدين توحيدَ الله).

وقال ابن إسحاق: (أي الوقعة التي أوقع بصناديد قريش وقادتهم يوم بدر).

فالله سبحانه أيها المؤمنون يحب المعالي والقوة والشوكة، وذلك هو الجهاد في سبيله لقهر عدوه ونصر دينه وكلمته، وأن تلتقي السيوف بالسيوف، سيوف الحق التي تقهر سيوف الباطل، وأنت تحبون ما هو دون ذلك من المال ومتاع الحياة الدنيا.

قال سبحانه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. قال قتادة: (هم المشركون).

9 ـ 14. قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ

إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: يعرج سبحانه على ما جرىٰ في أرض المعركة ، إذا اصطف الفريقان وأيقنا أن القتال واقع لا محالة ، وقد تغيّرت معالم الأمر الذي كان الصحابة رضي الله عنهم يرغبونه وقد خرجوا من أجله ، وانصرف التفكير إلى القتل والنصر أو الشهادة ، وهنا استقبل النبي ﷺ القبلة ثم مدّ يديه يستغيث ربه ويسأله نصر عصابة المؤمنين ، وأن ينزل مدده وينجز وعده بكسر شوكة الكافرين ، فاستجاب الله تعالىٰ دعاءه ووعد بالإمداد بألف من الملائكة متتابعين. وأراد بذلك سبحانه تبشير نبيّه والمؤمنين ، وطمأنة قلوب هؤلاء المجاهدين ، فلا نصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. وقد أنزل سبحانه المطر الخفيف أثناء نوم فئة الإيمان ، وجعله طمأنينة تنعش صدورهم وتثبت قلوبهم وتغسل عنهم وسواس الشيطان ومحاولات مكره وتثبيطه ، وتشد أقدامهم إذا وقفوا للقتال على أرض المعركة وقد اختلط ترابها بالماء فأمسكت. لقد أوحى الله تعالىٰ إلى الملائكة بالنزول السريع إلى أرض الميدان ، وبث الرعب في قلوب المشركين ، وضرب رقاب الكفرة ، وأصابعهم من تحت قبضة السيف. ذلك ليخزيهم ربهم بسبب كفرهم وشقاقهم الله ورسوله والله شديد العقاب. ذلك ليذوقوا وبال أمرهم ويوم الحساب ينتظرهم عذاب النار.

قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال: [لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مدّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال: اللهم أين ما وعدتني ، اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل

الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً. قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتىٰ سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾][1].

قال ابن عباس: (مردفين: متتابعين، قال: وراء كل ملك ملك).

وقال مجاهد: (ما مدّ النبي ﷺ مما ذكر الله غيرُ ألف من الملائكة مردفين، وذكر الثلاثة والخمسة بشرىٰ).

أي لو احتجتم أكثر من ذلك لأسعفناكم ولزودناكم بالمدد بعد المدد، فاطمئنوا ولتسْتبشر قلوبكم، ولا سبيل لنصر في هذه الحياة الدنيا إلا من عند الله، إنه وحده العزيز الحكيم، ولذلك قال تعالى بعدها:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم قال جل ذكره: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

لقد قضى المسلمون ليلاً هادئاً ـ قبل المعركة ـ بات فيه رسول الله ﷺ يحرسهم، وهذه قيادة عظيمة لا مثيل لها في التاريخ، إذ يقوم القائد ليله في حراسة جنده، وتساقطت أمطار خفيفة أنعشت صدورهم وطمأنت قلوبهم وتماسكت بها الأرض لتشهد في الغد قتال الرجال.

قال ابن إسحاق: (﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، أي: أنزلت عليكم الأمنة حتىٰ نمتم لا تخافون).

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن علي رضي الله عنه ـ يصف كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر ـ قال: [لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ، فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتىٰ أصبح. . ثم إنه أصابنا من الليل طَشّ من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف[2] نستظل تحتها من المطر،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1763) ـ كتاب الجهاد. وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 583) لتفصيل البحث.

(2) الحجف: التروس.

وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تعبد. فلما طلع الفجر نادىٰ: الصلاة، عبادالله. فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلّىٰ بنا رسول الله ﷺ وحرَّض على القتال][1].

وعن مجاهد: (﴿ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾، قال: المطر، أنزله عليهم قبل النعاس، ﴿ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾، قال: وسوسته. قال: فأطفأ بالمطر الغبار، والتبدت به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم).

وقال ابن زيد: (﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾، الذي ألقىٰ في قلوبكم: ليس لكم بهؤلاء طاقة!).

وعن السدي: (﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾، حين تشتدون على الرمل، وهو كهيئة الأرض).

ثم قال جل ثناؤه: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ ﴾. أي: أنصركم، ﴿ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. أي: قووا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين. قيل: تثبيتهم كان حضورهم الحرب معهم. وقيل: بل معونتهم بقتال أعدائهم.

ففي شرح النووي على صحيح مسلم، قال ابن عباس: [بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم ـ وهو اسم فرس الملك ـ فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك مدد من السماء الثالثة][2].

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حُدِّثَ عن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار، قال: (أقبلت أنا وابن عمّ لي حتىٰ أصْعدنا في جبل يشرف بنا على بَدْر، ونحن مُشْركان، ننتظر الوقعة علىٰ من تكون الدّبْرة ـ الدائرة ـ، فننتهب مع من ينتهب، قال: فبينا نحن في الجبل، إذ دنتْ منّا سحابة، فسمعنا فيها حَمْحَمة الخيل،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 117) بإسناد صحيح من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وانظر المرجع السابق (1/ 547).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1763) ـ كتاب الجهاد. وكتابي: السيرة النبوية (1/ 584).

فسمعت قائلاً يقول: أقدِمْ حَيْزوم ، فأما ابنُ عمي فانكشف قِناع قلبه ، فمات مكانَه ، وأما أنا فَكِدْتُ أهلِك ، ثم تماسكت).

وروى الإمام أحمد بسند حسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال ـ في يوم بدر ـ: [فقتلنا منهم سبعين وأسرنا سبعين ، فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً ، فقال العباس: يا رسول الله! إنَّ هذا والله ما أسرني ، لقد أسرني رجل أجْلَحُ ـ أي: منحسر الشعر على جانبي رأسه ـ من أحسن الناس وجهاً على فرسٍ أبلقَ ما أُراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أَسَرْتُهُ يا رسول الله. فقال: اسكت فقد أيدك الله تعالىٰ بملك كريم][1].

ورواه ابن جرير من حديث ابن عباس قال: (كان الذي أسرَ العباس أبو اليَسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة ، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً ، وكان العباس رجلاً جسيماً ، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر ، كيف أسرت العباس أبا اليسر؟ قال: يا رسول الله ، لقد أعانني عليه رجل ما رأيتهُ قبل ذلك ولا بعده ، هيئته كذا وكذا!. قال رسول الله ﷺ: لقد أعانك عليه ملك كريم).

وقال ابن إسحاق: (وحدثني أبي إسحاق بن يسار ، عن رجال من بني مازن بن النجار ، عن أبي داود المازني ، وكان شهد بدراً ، قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقعَ رأسُه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفت أنه قد قتله غيري)[2].

وهذه الآثار يقوي بعضها بعضاً ، وهي عادة مما تشتهر بين الناس أكثر من غيرها ، وأمر مشاركة الملائكة يوم بدر ثابت في نص القرآن الكريم وكذلك ببعض ما في السنة الصحيحة المتواترة.

فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي ، عن النبي ﷺ قال: [جاء جبريل فقال: ما تعدّون من شهِدَ بدراً فيكم؟ قلت: خيارنا ، قال: وكذلك من

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 194) ، وصححه أحمد شاكر ، وانظر كتاب «السيرة النبوية الصحيحة» ـ د. عمري ـ (2/ 365) ، وكتابي: السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 585) ، (1/ 594) ـ لمزيد من الروايات.

(2) حديث حسن. انظر سيرة ابن هشام (1/ 633) ، ورواه أحمد في المسند (4/ 450) بإسناد حسن. وانظر صحيح السيرة ـ إبراهيم العلي ـ ص (181).

شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيارُ الملائكة»][1].

وقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

أي: سأرعب قلوب الذين كفروا بي ـ أيها المؤمنون ـ منكم، وقد تولت الملائكة المهمة إضافة لضرب الرؤوس وكل بنان.

لقد ثبتت مشاركة الملائكة يوم بدر في فصل رؤوس المشركين وإلقائها، وقطع أعضائهم ورميها، إضافة إلى بث الهلع والذعر في نفوس الطغاة والمتكبرين.

يروي ابن سعد عن عكرمة قال: (كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدري من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدري من ضربها).

قال ابن إسحاق: (وحدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة، عن أُسيد مالك بن ربيعة، وكان شهد بدراً، قال بعد أن ذهب بَصَرُه: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشِّعبَ الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارىٰ).

قال الضحاك: (﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾: اضربوا الأعناق).

وقال عكرمة: (الرؤوس).

وقال ابن جرير: (إن الله أمر المؤمنين مُعَلِّمَهُم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف، أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل).

ومن المفسرين من أرجع الضمير في ﴿وَاضْرِبُوا﴾ إلى المؤمنين، ومنهم من أرجعه إلى الملائكة ليكون بذلك أمرٌ من الله لهم.

قال القرطبي: (والضرب على الرأس أبلغ، لأنه أدنى شيء يؤثر في الدماغ. قال فإذا ضربت البنان ـ وهي الأصابع وغيرها من الأعضاء ـ تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء).

وقال الربيع بن أنس: (كان الناس يوم بدر يعرفون قتلىٰ الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أحرق به).

قلت: والآية تدل على إعجاز عملي ظهر في أرض المعركة للعيان، فإن الله سبحانه

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم (3992)، وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3081).

قد دلَّ على حضور الملائكة وشهودها القتال يوم بدر بهذه الآية المعجزة في آفاقها وبيانها وخبرها ، فكان ضرب الرقاب من الخلف لتقطع مع أن المواجهة كانت من الأمام من قبل المؤمنين علامة مشاركة الملائكة في قتل المشركين ، أضف إلىٰ ذلك أن الضربَ فوق البنان صعب عادة في أثناء المسايفة ، لوجود قبضة السيف التي تحمي اليد والأصابع ، فكان ظهور البنان من الكفار مقطعاً في نهاية المعركة هو بحدّ ذاته دليل آخر على حضور الملائكة أكّده الله تعالىٰ للمؤمنين بقوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

قال ابن جرير: (يعني تعالىٰ ذكره بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ ، هذا الفعل من ضرب هؤلاء الكفرة فوق الأعناق وضرب كل بنان منهم ، جزاءٌ لهم بشقاقهم الله ورسوله ، وعقاب لهم عليه. ومعنى قوله: ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ، فارقوا أمرَ الله ورسوله وعصوهما ، وأطاعوا أمرَ الشيطان. ومعنىٰ قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ، ومن يخالف أمرَ الله وأمر رسوله ففارق طاعتهما ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ، له. وشدة عقابه له: في الدنيا ، إحلالُه به ما كان يحلّ بأعدائه من النقم ، وفي الآخرة ، الخلودُ في نار جهنم ، وحذف «له» من الكلام ، لدلالة الكلام عليها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ .

قال النسفي: (أي ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة).

وقال القرطبي: (ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين).

والمقصود: هذا العذاب في الدنيا بأيدي الملائكة والمؤمنين من الضرب فوق الأعناق منكم ومن ضرب الأيدي والأعضاء وكل بنان ، هو عذاب عاجل ، له متابعة في خزي وعذاب ونكال آجل ، أعدّه الله للكافرين في نار جهنم وبئس المصير.

15 ـ 18. قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ

ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: توجيه الباري عز وجل الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم من الفرار من ساحة القتال، ويخبرهم أن ذلك من أكبر الكبائر، وأنه لا حجة لأحد بذلك إلا أن يكون متحرفاً لقتال ضمن خطة مدبرة للإجهاز على العدو أو ضمن عمليات كرٍّ وفرٍّ، وإلا فإن عذاب الفرار من البأس عند الله شديد.

ثم إنكم لم تقتلوهم أنتم بقوتكم وشجاعتكم ولكن الله قضىٰ قتلهم فأعانكم ورضي منكم الامتثال فأظهر ذلك كرامة منه لكم على أيديكم، وكذلك ما كان من أثر الرمي فإن إصابة الهدف كان بعون الله وتوفيقه وليختبر سبحانه المؤمنين، إنه سميع عليم.

وكل ما حصل لكم من توفيق الله ونصرٍ كان من الله تعالىٰ ليوهن كيد الكافرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾.

قال القرطبي: (الزحف: الدنوّ قليلاً قليلاً. يقول: إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفِرّوا عنهم ولا تعطوهم أدباركم. حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار. قال ابن عطية: والأدبار جمع دُبُر. والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة، لأنها بشعة على الفارّ، ذامّة له).

ثم قال: (أمر الله عز وجل في هذه الآية ألا يولي المؤمنون أمام الكفار. وهذا الأمر مُقَيَّد بالشريطة المنصوصة في مِثْلَي المؤمنين، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضِعْفُ المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يَفِرّوا أمامهم. فمن فرّ من اثنين فهو فارٌّ من الزحف، ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف، ولا يتوجّه عليه الوعيد).

وقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

أخرج أبو داود والحاكم بسند صحيح عن أبي سعيد قال: [نزلت في يوم بدر: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾][1].

قال الضحاك: («المتحرف»، المتقدم من أصحابه ليرىٰ غِرَّة من العدو فيصيبها.

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (2306). وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي. سورة الأنفال، آية (16).

قال: و«المتحيز» ، الفار إلى النبي ﷺ وأصحابه. وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره وأصحابه. قال: وإنما هذا وعيد من الله لأصحاب محمد ﷺ ، أن لا يفروا ، وإنما كان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه فئتهم).

وقال السدي: (أما «المتحرف» ، يقول: إلا مستطرداً يريد العودة ، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ ، قال: «المتحيز» ، إلى الإمام وجنده إن هو كرّ فلم يكن له بهم طاقة ، ولا يُعذَر الناس وإن كثروا أن يُوَلُّوا عن الإمام).

قال الحافظ ابن كثير: (﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ ، أي: يفر بين يدي قِرْنِهِ مَكِيدة ، ليريه أنه خاف منه فيتبعه ، ثم يَكُرّ عليه فيقتله ، فلا بأس عليه في ذلك ، نص عليه سعيد بن جبير والسُّدِّي.

قال: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ ، أي: فرَّ من هاهنا إلى فئة أخرىٰ من المسلمين ، يعاونهم ويعاونوه ، فيجوز له ذلك ، حتىٰ لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة).

وقوله: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: فقد رجع بغضب من الله وسخط مقابل فراره وتعريض الأمة لاستقبال الهلاك ، ثم معاده عذاب جهنم في الآخرة وبئس المستقر والموضع والمنزل يصير إليه.

وقد حفلت السنة المطهرة بكنوز من جوامع الكلم في آفاق هذا المعنى ، في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا: يا رسول الله ، وما هن؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة في السنن ، والبخاري في الأدب المفرد ـ واللفظ له ـ بسند حسن عن أبي الدرداء قال: [أوصاني رسول الله ﷺ بتسع: لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ ، ولا تتركن الصلاة المكتوبة متعمداً ، ومَنْ تَرَكَها متعمداً برئت منه الذمة ، ولا تشربن الخمر ، فإنها مفتاحُ كل شر ، وأطع والديك ، وإن أمراك أن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5/ 294) ـ في الوصايا ، وأخرجه مسلم (89) ـ في الإيمان.

تخرج من دنياك ، فاخرج لهما ، ولا تُنازعنَّ ولاة الأمر ، وإن رأيت أنَّك أنت ، ولا تفِرَّ من الزَّحف ، وإن هلكت وفرَّ أصحابك ، وأنْفق من طَوْلك على أهلك ، ولا ترفع عصاك عن أهلك ، وأخِفْهم في الله عز وجل][1].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والترمذي بسند حسن ، عن بلال بن يسار بن زيد ـ مولىٰ النبي ﷺ ـ قال: سمعت أبي يحدثنيه عن جدي: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فرَّ من الزحف][2].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن بشير بن مَعْبد ـ ابن الخصاصية ـ قال: [أتيت النبي ﷺ لأبايعه، فاشترط عَلَيَّ: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن أؤدِّي الزكاة ، وان أحُجَّ حجّة الإسلام ، وأن أصومَ شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد ، فإنهم زعموا أنه من وَلّىٰ الدُّبُر فقد باء بِغَضَبٍ من الله ، فأخاف إن حضرتُ ذلك جَشِعَت نفسي وكَرِهْتُ الموت ـ والصدقة ، فوالله مالي إلا غُنَيْمَةٌ وعَشْرُ ذُودٍ هُنَّ رَسلُ أهلي وحَمُولتهم. فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرّك يده ، ثم قال: فلا جهادَ ولا صدقة ، فبم تدخل الجنة إذن؟! فقلت: يا رسول الله ، أنا أبايعك. فبايعتُه عليهنَّ كُلهنَّ][3].

وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾.

قال النسفي: (والفاء جواب لشرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ولما قال جبريل للنبي ﷺ: خذ قبضة من تراب فارمهم بها فرمىٰ بها في وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه»، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا.

---

(1) حديث حسن. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (18) ـ باب يبرُّ والديه ما لم يكن معصية ، وانظر «صحيح الأدب المفرد» (14) ، وصحيح سنن ابن ماجة (3259) ـ باب الصبر على البلاء.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1517) ـ باب في الاستغفار. انظر صحيح سنن أبي داود (1343). وأخرجه الترمذي في الجامع (3577) ، والطبراني (4670) ، وأخرجه الحاكم (2/ 118) من حديث ابن مسعود نحوه.

(3) أخرجه أحمد (5/ 224) ، والطبراني في «الكبير» (1233) ، و«الأوسط» (1148) ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (1/ 42) ، وقال: (ورجال أحمد موثوقون).

قيل ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ يعني أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسباً وإلى الله تعالىٰ خلقاً لا كما تقول الجبرية والمعتزلة لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله: إذ رميت ، ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالىٰ بقوله: ولكن الله رمىٰ ، ولكن الله قتلهم).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بأسباب نزول هذه الآية في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الطبراني بسند حسن لغيره، عن حكيم بن حزام ، قال: [لما كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصباء فاستقبلنا به فرمانا بها وقال: شاهت الوجوه ، فانهزمنا ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني ـ ورجاله رجال الصحيح ـ عن ابن عباس: [أن النبي ﷺ قال لعلي: ناولني كفاً من حصىٰ ، فناوله فرمىٰ به وجوه القوم ، فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾][2].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنها: [نزلت لما رمىٰ النبي ﷺ أبي بن خلف][3].

وقوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

قال ابن إسحاق: (أي: ليعَرِّفَ المؤمنين من نعمه عليهم ، في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقّه ، وليشكروا بذلك نعمته).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال ابن كثير: (أي: سميع الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغَلَب).

---

(1) حسن لغيره. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأنفال ، آية (17).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وانظر سيرة ابن هشام (2/ 199) ، والواحدي في «أسباب النزول» (473) ، والطبري (15835)(15836) ، والدر المنثور (3/ 317) ، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة الأنفال ، آية (17).

(3) أخرجه الحاكم (2/ 327/ 3263) ، وأخرجه الواحدي (471) عن سعيد بن المسيب عن أبيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: واعلموا أن الله مع ذلك مُضْعِفُ، ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يعني: مكرهم، حتىٰ يَذِلُّوا وينقادوا للحق، أو يُهْلَكوا).

وقال النسفي: (﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، ومحله الرفع، أي الأمر ذلكم). واختار شيخ المفسرين أن ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ تشمل قتل المشركين، ورميهم حتىٰ انهزموا، وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم، وإمكانهم من قتلهم وأسرهم.

19 ـ 25. قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الله تعالىٰ المشركين يوم بدر: إن تطلبوا القضاء أو تستنصروا وترغبوا في الفصل فقد جاءكم ما سألتم، من الذل الذي كتبه الله عليكم بكفركم، وإن تنتهوا عن الكفر والتكذيب فهو خير لكم في دنياكم وأخراكم، وإن تعودوا إلى العناد والكفر نعد عليكم بوقعة مشابهة في الخزي والألم ولن تغني عنكم جموع الدنيا حينئذ، فإن من كان الله في نصره لا تغلبه فئة ولو كثرت.

يا أيها الذين آمنوا التزموا طاعة الله ورسوله واحذروا الفرار والتولي عن نبيّه وأنتم تسمعون ما يتلىٰ عليكم من البراهين والحجج وآيات الذكر الكريم.

وإياكم من ترك العمل بالعلم أو فصل القول عن العمل، شأن المنافقين أو

المشركين المستهزئين ، فإن شرَّ الخلق والخليقة هو هذا الضرب من بني آدم يعاندون العلم بعد الفهم ويكابرون الحق بعد العقل ، وقد علم الله أنه لا خير فيهم فحرمهم من الهداية وأطفأ نور قلوبهم جزاء بما كانوا يكسبون. يا معشر المؤمنين أجيبوا ربكم ونبيكم إذا دعاكم لما فيه نفعكم وصلاحكم واعلموا أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان ، فمن شاء أقامه ومن شاء أزاغه ثم إلى ربكم تحشرون. واحذروا امتحاناً من الله يشمل المسيء وغيره ، والعاصي وسواه ، إذ إنّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يترتب عليه كل شر ، وتذكروا أن الله شديد العقاب.

فقوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال الضحاك: (إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء).

2 ـ قال ابن عباس: (يعني بذلك المشركين: إن تستنصروا فقد جاءكم المدد).

3 ـ قال الزهري: (استفتح أبو جهل فقال: اللهم ـ يعني محمداً ونفسه ـ أينا كان أفجرَ لك ، اللهم وأقطعَ للرحم ، فأحِنْه اليوم! قال الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾).

4 ـ قال قتادة: (قد كانت بدرٌ قضاءً وعِبْرَةً لمن اعتبر).

فالمعنىٰ: إن تستقضوا الله أو تستنصروه أو تستحكموه ـ معشر الكفار يوم بدر ـ أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم ما سألتم.

أخرج الحاكم وابن جرير بسند صحيح عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير قال: [كان المستفتح يوم بدر أبا جهل ، قال: اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لم نعرف ، فَأَحِنْهُ الغداة ، فأنزل الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾][(1)].

وقوله: ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾. أي: إن تنتهوا عن الكفر والتكذيب وحرب النبي ﷺ فهو خير لكم في دنياكم ومعادكم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 328) ، وأحمد في المسند (5/ 431) ، والنسائي في «التفسير» (221) ، وأخرجه الطبري في «التفسير» (15852) ، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأنفال ، آية (19).

وقوله: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾. أي: إن تعودوا إلى العناد والكفر نعد لكم بوقعة مشابهة فيها ذُلُّكم وصغاركم وهزيمتكم.

وقال السدي: (﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ إلى الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه).

والأول أقوىٰ ولا مانع من المعنىٰ الآخر، وفي التنزيل: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: 8]، وتحمل معنىٰ مشابهاً.

وقوله: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾. قال ابن كثير: (أي: ولو جَمعتم من الجموع ما عسىٰ أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالبَ له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزبُ النبويُّ، والجنابُ المصطَفويُّ).

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال القرطبي: (أي من كان الله في نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت).

وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن إسحاق: (أي: لا تخالفوا أمره، وأنتم تسمعون لقوله، وتزعمون أنكم منه).

أي: هو أمر بطاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله ﷺ وعدم التولي عنه وأنتم تسمعون ما يتلىٰ عليكم من حجج القرآن العظيم وبراهين الوحي الكريم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ـ على قولين عند المفسرين:

1 ـ قال ابن إسحاق: (أي: كالمنافقين الذين يظهرون له الطاعة، ويُسِرّون المعصية).

وعن مجاهد: (﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، قال: عاصون).

2 ـ قال ابن جرير: (يقول: لا تكونوا، أيها المؤمنين، في مخالفة رسول الله ﷺ، كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلىٰ عليهم قالوا: ﴿قد سمعنا﴾، بآذاننا، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه).

قلت: والبيان الإلهي يشمل المنافقين والكافرين ومن مضىٰ على منهاجهم في ترك العمل بالعلم، أو فصل القول عن العمل.

قال القرطبي: (فدلّت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله. فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي فاقتحمها فأي سمع عنده وأي طاعة! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان، ويسر الكفر).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ أن شر الخلق والخليقة هو هذا النوع من بني آدم، وهذا الصنف من الناس، الذين يعلمون الحق ثم هم يعاندونه بعد الفهم ويكابرون بعد العقل.

قال ابن زيد: (الدواب: الخلق).

وقال مجاهد: (﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: الذين لا يتبعون الحق).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: إن شر ما دبَّ على الأرض من خلق الله عند الله، الذين يصغون عن الحق لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكصُون عنه إن نطقوا به، الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم).

وفي التنزيل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]، وكذلك قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: قد علم الله أنه لا خير فيهم فلم يدع المواعظ تؤثر في قلوبهم، لشدة الران عليهامن ازدحام المعاصي والآثام.

ثم إن حالهم يشهد بذلك ـ الذي قضاه الله وكتبه بعلمه ـ فإنه لو أسمعهم آياته تتلىٰ وحججه البينات تقرع لولوا معرضين كارهين.

قال ابن زيد: (﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾، بعد أن يعلم أن لا خير فيهم، ما نفعهم بعد أن نفذ علمه بأنهم لا ينتفعون به)، وقال: (لو أسمعهم بعد أن يعلم أن لا خير فيهم، ما انتفعوا بذلك، ولتولوا وهم معرضون).

أخرج الترمذي في جامعه بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: [إن الله تعالىٰ خلق خلقه في ظلمة فألقىٰ عليهم نوراً من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول: جفّ القلم على علم الله عز وجل][1] .

وأخرج ابن أبي عاصم في كتاب السنة ، ورجاله رجال الشيخين ، عن أبي هريرة: [أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أنعمل في أمر نأْتَنِفُهُ ، أم في أمر قد فرغ منه؟ قال: بل في أمر قد فرغ منه. فقال: ففيم العمل؟. فقال: يا عمر ، كلا لا يدرك إلا بعمل. قال: فالآن نجتهد يا رسول الله] وأصله في الصحيحين[2] .

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

أي: يا معشر المؤمنين أجيبوا ربكم ونبيكم إذا دعاكم لما فيه مصلحتكم وحياتكم ونفعكم. وفيه أقوال:

1 ـ قال السدي: (أما ﴿مَا يُحْيِيكُمْ﴾ ، فهو الإسلام ، أحياهم بعد موتهم ، بعد كفرهم).

2 ـ قال مجاهد: (قول الله: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، قال: الحق).

3 ـ قال قتادة: (هو هذا القرآن ، فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة).

4 ـ قال ابن إسحاق: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، أي: للحرب الذي أعزكم الله بها بعد الذل ، وقوّاكم بعد الضعف ، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم).

قلت: وكل ما سبق داخل تحت مفهوم قوله تعالىٰ: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

قال البخاري: (﴿ ٱسْتَجِيبُواْ ﴾: أجيبوا. ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾: لما يُصْلِحُكم).

ثم ذكر البخاري في كتاب التفسير من صحيحه تحت هذه الآية حديث أبي سعيد بن

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2/ 107) ، وأحمد (2/ 176 ، 197) ، وابن حبان (1812).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم (165) ، والآجري (ص170). وانظر مختصر صحيح مسلم (1843) ، وصحيح مسلم (8/ 48 ـ 49) و(8/ 46 ـ 47).

المُعَلَّى رضي الله عنه قال: [كنتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بي رسول الله ﷺ فَدَعاني، فَلَمْ آتِه حتىٰ صَلَّيْتُ، ثم أتيتُه، فقال: ما مَنَعَكَ أن تَأتيَ؟ أَلَمْ يَقُل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾. ثم قال: لأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سورةٍ في القرآن قبل أن أخرج، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرتُ له. قال: هي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، السَّبعُ المثاني].

وفي لفظ: [ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأُعَلِّمَنَّكَ سورةً هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه][1].

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال سعيد بن جبير: (﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾، قال: بين الكافر أن يؤمن، وبين المؤمن أن يكفر). أو قال: (يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان).

2 ـ قال ابن عباس: (يحول بين الكافر والإيمان وطاعة الله).

قال النَسفي: (﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ أي يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب، فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله. أو بينه وبين ما تمناه بقلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه).

3 ـ قال الضحاك: (يحول بين الكافر وطاعته، وبين المؤمن ومعصيته).

4 ـ قال مجاهد: (يحول بين المؤمن وعقله)، وقال: (حتىٰ يتركه لا يعقل).

وقال: (إذا حال بينك وبين قلبك، كيف تعمل؟). وقال: (يحول بين قلب الكافر وأن يعمل خيراً).

5 ـ قال السدي: (يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه).

6 ـ قال قتادة: (قوله: ﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾، هي كقوله: ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16]).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4474) ـ كتاب التفسير، وكذلك (4647)، عند تفسير سورة الأنفال، آية (24).

قلت: ولا شك أن كل الأقوال السابقة تدخل في مفهوم الآية ، وقد جاءت السنة المطهرة بأحاديث في آفاق هذا المعنىٰ:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إن قلوبَ بني آدمَ كُلَّها بَيْن إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصابعِ الرحمان ، كَقَلْبٍ واحد ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يشاء ، ثم قال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ! مُصَرِّفَ القلوب صَرِّفْ قُلوبَنا على طاعتك][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وأحمد وأبو يعلىٰ بسند صحيح عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: [كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: يا مُقَلِّبَ القلوب ، ثبت قلبي على دينك. قال: فقلنا: يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به. فهل تخاف علينا ، فقال: نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالىٰ يُقَلِّبها][2].

الحديث الثالث: أخرج النسائي في «الكبرىٰ» وابن ماجة في السنن بسند صحيح عن النَّوَّاس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يُزيغه أزاغه ، وكان يقول: يا مقلب القلوب ، ثبت قلوبنا على دينك. قال: والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه][3].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [مثل القلب مثل الريشة تقلبُها الرياح بفلاة][4].

وفي لفظ غيره: (مثل القلب في تقلبه كالقِدْرِ إذا استجمعت غلياناً).

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

أي: ومع تقليبه سبحانه قلوبكم فإن مصيركم إليه ، ومآلكم الوقوف بين يديه ،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2654) ـ كتاب القدر. باب تصريف الله تعالىٰ القلوب كيف شاء.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (2141) ، وأحمد في المسند (3/ 112) ، و(3/ 257) ، وأبو يعلىٰ (3687).

(3) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (7738) ، وابن ماجة في السنن (199) ، وأحمد في المسند (4/ 182) ، وغيرهم وإسناده صحيح.

(4) حديث صحيح. رواه ابن ماجة بإسناد صحيح من حديث أبي موسى مرفوعاً. انظر تخريج مشكاة المصابيح (103) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5709).

فيوفيكم أعمالكم ، فمن أحسن جازاه بإحسانه ، ومن أساء حاسبه على إساءته .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عز وجل : [يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه][1] .

وقوله : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ .

قال ابن عباس : (أمر الله المؤمنين أن لا يقرُّوا المنكر بين أظهرهم ، فيعمَّهم الله بالعذاب) .

وقال ابن زيد : (الفتنة : الضلالة) .

قلت : ولا شك أن الفتنة : الاختبار والامتحان ، ومفهوم الآية : إن ترك دفع المنكر والتهاون في الأمر بالمعروف قد يعقبه الفتن لتشمل المسيء وغيره . وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث .

الحديث الأول : أخرج الإمام أحمد والبخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [مثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة ، فأصاب بعضُهم أسفلَها وَأَوْعَرَها وشَرَّها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مَرُّوا على من فوقهم فآذَوهُم ، فقالوا : لو خَرَقنا في نصيبنا خرقاً ، فاستقينا منه ، ولم نُؤْذِ من فوقنا ، فإن تركوهم وأمرهم هلكُوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا جميعاً][2] .

الحديث الثاني : أخرج ابن ماجة والبيهقي بسند حسن عن عبيد الله بن جرير ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : [مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فيهمْ بِالمَعَاصِي ، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُم وأَمْنَعُ ، لا يُغَيِّرون ، إلا عَمَّهُم الله بعقاب][3] .

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن حُذيفة بن اليمان ، أن النبي

---

(1) حديث صحيح . وهو جزء من حديث طويل رواه مسلم (8/ 17) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، ورواه أحمد في المسند (5/ 160) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (2686) ، والترمذي في الجامع (2173) ، وأحمد في المسند (4/ 268) ، ورواه ابن حبان في صحيحه (297) .

(3) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة (4009) ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ، وأخرجه أحمد (4/ 364) ، (4/ 366) ، والبيهقي (10/ 91) ، وابن حبان (300) ، والطبراني (2380) .

ﷺ قال: [والذي نفسي بيده، لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عِقاباً من عنده، ثم لتدْعُنَّهُ فلا يستجيبُ لكم][1].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري: [أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: ألا، لا يَمْنَعَنَّ رجُلاً، هَيْبَةُ الناسِ، أن يقولَ بحقٍّ، إذا عَلِمَهُ. قال: فبكىٰ أبو سعيد، وقال: قد والله! رأينا أشياء، فهبنا][2].

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا ظهرت المعاصي في أمَّتي، عَمَّهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناسٌ صالحون؟ قال: بلىٰ. قالت: فكيف يَصْنع أولئك؟. قال: يصيبهم ما أصاب الناسَ، ثم يصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان][3].

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. أي: إذا عاقب، وهو تهديد ووعيد على الاستهانة في حمل هذه الأمانة، أو التغاضي عن المنكر يتفشىٰ وينتشر في الأرض.

26 ـ 29. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآيات: يُذكِّرُ الله تعالىٰ المؤمنين أصحاب النبي ﷺ أيام الضعف التي أبدلها

---

(1) صحيح بشواهده. أخرجه الترمذي (2169)، وأحمد (5/ 391)، وحسنه الترمذي وأقرّه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (2/ 308)، وله شواهد كثيرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4007) ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3237).

(3) جيد. أخرجه أحمد (6/ 294 ـ 295)، (6/ 304، 418)، وقال الهيثمي في «المجمع» (7/ 268): رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

الله عزة وشوكة بعد معركة بدر ، وأغدق عليهم من أموال المشركين ومغانمهم ومن مختلف الأرزاق والنعم لعلهم يشكرون.

ثم يحذرهم سبحانه الخيانة والغلول والتفريط بالأمانة ، ومن ذلك التفريط بفرائض الله ومنهاج النبوة وعقد الإيمان والإسلام.

ثم يحذر سبحانه عباده من فتنة المال والولد التي تدعو إلى اللهو والتفريط في إقامة أمر الله ودينه ، وأن ما عند الله خير وأبقىٰ وهو الثواب العظيم.

ثم يبين سبحانه سراً عظيماً جعله في قلوب عباده المؤمنين إن صدقوا ربهم التقوى ، بأن جعل لهم في قلوبهم ميزاناً يميزون به الحق من الباطل حين تشتبه عليهم الأمور ، ووعدهم كذلك على التقوىٰ مغفرة لذنوبهم وأجراً عظيماً.

فقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾.

قال عكرمة: (قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ ، قال: يعني بمكة ، مع النبي ﷺ ومن تبعه من قريش وحلفائها ومواليها قبل الهجرة).

وعن قتادة: (أنها نزلت في يوم بدر ، كانوا يومئذ يخافون أن يتخطفهم الناس ، فآواهم الله وأيدهم بنصره).

فنزلت هذه الآية إثر الفتح المبين ببدر ، الذي تَكَرَّمَ الله به بالنصر والتمكين لهم ، يذكرهم سبحانه بالضعف الذي حوّله بقدرته إلى عز وشوكة ، وكان من أجمل ما شرع في هذه الأثناء صلاة العيد في المصلىٰ ، فقد صلىٰ المسلمون أول صلاة عيد في شوال عقب الموقعة مباشرة سنة 2 هـ ، فما أروعه من عيد إثر النصر العظيم ببدر الذي تَوَّج الله به فرحهم ، وما أجمل خروجهم إلى صلاة العيد في المصلىٰ وهم يرفعون أصواتهم بالتكبير وقد فاضت قلوبهم بالحمد والإيمان ، وما أرهب صلاتهم وقد اصطفوا خلف رسول الله ﷺ صفوفاً منتظمة وكأنهم في ساحة القتال ، فنزلت آية الأنفال السابقة يذكرهم فيها سبحانه بالضعف الذي حَوَّلَهُ بقدرته إلى تمكين وعز وقوة وشوكة.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وأطعمكم غنيمتهم حلالاً طيباً ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ، يقول: لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

قال ابن زيد: (نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون).

وقال السدي: (فإنهم إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم).

وقال ابن إسحاق: (أي: لا تظهروا لله من الحق ما يرضىٰ به منكم، ثم تخالفوه في السِّر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم).

وقال ابن عباس: (والأمانة: الأعمال التي أمن الله عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: ﴿ لَا تَخُونُواْ ﴾، يعني: لا تنقصوها).

وفي رواية: (﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ ﴾ بترك فرائضه، ﴿ وَٱلرَّسُولَ ﴾ بترك سنته وارتكاب معصيته).

قال القاسمي رحمه الله: (ويدخل في خيانة الله تعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده. وفي خيانة رسوله رفض سنته، وإفشاء سره للمشركين. وفي خيانة أمانتهم الغلول في المغانم، أي السرقة منها، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر، وكل ما تعبدوا به).

وفي الصحيحين من حديث علي ـ في قصة حاطب لما بعث الكتاب إلى المشركين يعلمهم بقصْدِ رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح فأطلع الله رسوله وبعث فاسترجع الكتاب ـ فقال عمر: [إنه قدْ خانَ الله ورسوله والمؤمنين فدَعْنِيْ فَلأِضْربْ عُنُقَه، فقال: أليس من أهل بدر؟ فقال: لعل الله اطَّلعَ على أهل بدر؟ فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم، فدَمَعَتْ عينا عُمَرَ وقال: الله ورسوله أعلم][1].

وقوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾. أي: تبعة ذلك ووباله، فإن الخيانة إثمها عظيم. وفيه دليل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم منه من غيره، وأن الظلم ذنب كبير.

وفي صحيح مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم، فإن الظلم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3983) ـ كتاب المغازي ـ باب فضل من شهد بدراً، وأخرجه كذلك برقم (3007)، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم (2494)، ورواه أبو داود (2650)، والترمذي (3302)، وأحمد (1/ 79).

ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][1] .

وفيه من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتىٰ يُقادَ للشاة الجَلْحَاء ـ التي لا قرن لها ـ من الشاة القَرْناء][2] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ .

قال الرازي: (ثم إنه لما كان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد ، نبّه تعالىٰ على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضارة المتولدة من ذلك الحب) .

قال ابن زيد: (﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ ، قال: ﴿ فِتۡنَةٞ ﴾ ، الاختبار ، اختبارهم. وقرأ: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: 35]) .

فالمال والولد امتحان من الله تعالىٰ ، وهو سبحانه مطلع على عبده هل يقع بسببهما في الخيانة أو اللهو ، أو يختار الاستجابة لله والرسول والنجاة من تلك الفتنة .

قال الحاكم: (قد أمر الله بالعلم بذلك ، وطريق العلم به التفكر في أحوالهما وزوالهما ، وقلة الانتفاع بهما ، وكثرة الضرر ، وأنه قد يعصي الله بسببهما) .

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن يَعْلَىٰ العامري ، أنه قال: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ. فضمهما إليه ، وقال: [إن الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَـةٌ][3] .

وفي لفظ عند الحاكم من حديث الأسود بن خلف: [إن الولد مبخلة مجبنة مَجْهلة محزنة] .

وفي لفظ عند ابن عدي من حديث أبي سعيد: [الولد ثمرةُ القلب ، وإنه مَجْـبَنَةٌ ، مَبْخَلَةٌ ، مَحْزَنَـةٌ] .

وقد كان من دعائه ﷺ ـ كما يروي أبو داود عن أبي هريرة ـ: [اللهم إني أعوذ بك

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في «صحيحه» برقم ـ (2578) ـ كتاب البر والصلة .
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2582) ـ الباب السابق .
(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3666) ـ كتاب الأدب ـ. وقوله: «مبخلة مجبنة» أي مظنة البخل والجبن. لأجله يبخل الإنسان ويجبن. وانظر لما بعده صحيح الجامع (1986) ، (7037) .

من الجوع ، فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة ، فإنها بئست البطانة][1] .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : 15] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : 9] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ ﴾ [التغابن : 14] .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . أي : فآثروا حقه على حقكم ، وابتاعوا ما يبقىٰ لكم بما يزول عنكم .

قال النسفي : (فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد) .

فإن ما عند الله من الثواب والعطاء ، والجنات والنعيم خير من المال والولد ، فإنه قد يوجد منهم عدو يورد إلى منازل الهلاك والعطب ، وثواب الله خير وأبقىٰ ، وسبيل ذلك محبة الله ومحبة رسوله ﷺ فوق كل متاع في هذه الحياة الفانية .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين][2] .

وفي الصحيحين من حديث أنس أيضاً عن رسول الله ﷺ : [ثلاث من كنَّ فيه وَجَدَ بهن حلاوةَ الإيمان : من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان أن يُلْقىٰ في النار أحبَّ إليه من أن يَرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه][3] .

(1) حديث حسن . أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1547) ـ باب في الاستعاذة ـ . وانظر صحيح سنن أبي داود (1368) .
(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (44) ـ كتاب الإيمان ـ ، والنسائي (8/ 115) ، وأحمد (3/ 177) .
(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (21) ، (6041) ، ومسلم (43) ، وأحمد (3/ 172) ، وأخرجه النسائي (8/ 96) ، وابن ماجة (4033) ، وابن حبان (237) من حديث أنس .

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ فُرْقَانًا ﴾: مخرجاً).

وقال مجاهد: (مخرجاً في الدنيا والآخرة).

وفي رواية عن ابن عباس: (﴿ فُرْقَانًا ﴾: نجاة).

وفي لفظ: (نصراً).

وقال محمد بن إسحاق: (﴿ فُرْقَانًا ﴾: أي: فصلاً بين الحق والباطل).

ذكر ذلك شيخ المفسرين ابن جرير، وعنه الحافظ ابن كثير.

قال ابن كثير: (وهذا التفسير من ابن إسحاق أعمّ مما تقدَّم، وقد يستلزم ذلك كلَّه، فإن من اتقىٰ الله بِفِعْل أوامره، وتَرْكِ زواجره، وُفِّقَ لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نَصْرِهِ وَنَجاته ومَخْرجه من أمور الدنيا، وسعادَته يوم القيامة. وتكفير ذنوبه، وهو محوُها. وغَفْرُها: سترها عن الناس ـ سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: 28]).

والخلاصة: إن الصدق في عبادة الله وتعظيمه يورث كرامة لا بد أن يراها المؤمن في حياته وربما يراها من حوله، فإن التقوىٰ مفتاح كثير من الخيرات التي يطمح بها المؤمن في حياته وآخرته، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ أي ميزاناً يفرق به المؤمن بين الحق والباطل، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: 4]، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: 5].

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث كثيرة، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالىٰ قال: مَنْ عادىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحِبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن

شيء أنا فاعله تردّدي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته][1] .

الحديث الثاني: أخرج البزار بسند حسن عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن لله تعالىٰ عباداً يعرِفون الناس بالتوسم][2] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري في «التاريخ» بسند حسن عن وابصة مرفوعاً: [استفت نفسك وإن أفتاك المفتون][3] .

والمقصود: أن يستفتي العبد المؤمن قلبه بعد سؤاله أهل العلم والذكر واختلاط الفتوى عليه أو اختلافها ، فإن الله قد جعل في قلب المؤمن بصيرة ونوراً وفرقاناً ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

30 ـ 35 . قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

في هذه الآيات: فَضْحُ الله تعالىٰ محاولات الكفار سَجْنَ النبي ﷺ أو إِخْراجه أو قَتْله والله محيط بكيدهم ومكرهم وهو خير الماكرين .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في «صحيحه» (6502) ـ كتاب الرقاق ـ ، باب التواضع .
(2) حديث حسن . أخرجه البزار وغيره ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (2164) .
(3) إسناده حسن . انظر تخريج المشكاة (2774) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (959) .

ثم يخبر الله تعالىٰ عن تنطع كفار قريش عند سماع آيات القرآن الواضحة الساطعة بنورها وحججها تُتلىٰ عليهم.

ثم يخبر سبحانه عن قول فرعون هذه الأمة ـ أبي جهل ـ يستعجل العذاب ، وأنّ الله لا يعذب قوماً وأنبياؤهم بين أظهرهم ، ثم يثبت تعالىٰ أن هؤلاء الكفار من قريش يستحقون العذاب وقد كفروا بالله وما كانت صلاتهم عند البيت إلا سخرية واستهزاء.

فقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ ﴾.

قال ابن عباس: (ليقيدوك) أو: (ليوثقوك).

وقال عطاء: (ليحبسوك) ، أو: (يَسْجنوك).

وقال السُّدي: (الإثبات هو الحبس والوثاق) ، وهذا القول أشمل.

وقال قتادة: (ليشدوك وثاقاً ، وأرادوا بذلك نبي الله ﷺ وهو يومئذ بمكة).

وقيل: ليسحروك.

وقول ابن عباس والسدي وقتادة أرجح.

لقد بدأت قريش تشعر أن أمر محمد ﷺ يزداد خطراً عليها يوماً بعد يوم ، وأدركت أن الرجل يخطط بدقة ليهاجر بأصحابه إلى حيث يشعر بالقوة والأمن وسهولة الحركة ، الأمر الذي زادها غيظاً وحنقاً ، فهي لا تستطيع أن تتصور هؤلاء الرجال حوله وقد أصبحوا مصدر قلق على أمنها ومصدر خوف على تجارتها واقتصادها ، وقد صارت لهم دولة وشوكة.

ومن هنا فكرت قريش ملياً في خطة محبوكة تُفْسِدُ على النبي ﷺ وأصحابه طُموحَاتِهم وأمانيهم وتهدد سبيل هجرتهم ، فنشأت فكرة التخلص منه بمحاولة قتله.

وقد أشار القرآن النازل أيام المدينة لما كان يجري في أواخر أيام الحياة بمكة ، يَمُنُّ الله بذلك على نبيه ﷺ أن حماه من سيوف المشركين ومن محاولات أولئك المجرمين.

فقال في آية الأنفال السابقة: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن ابن عباس قال: [إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر ، فتعاهدوا باللات والعزىٰ ومناةَ الثالثةِ الأخرىٰ ، لو قَدْ رأينا محمداً قمنا إليه قيامَ واحد ، فلم نفارقه حتىٰ نقتله. فأقبلت فاطمة تبكي حتىٰ دخلت

على أبيها فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك. قال: يا بُنَيَّة أدني وضوءاً. فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا هذا هو، فخفضوا أبصارهم، وعَقِروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم ولم يقم منهم رجل. فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: شاهت الوجوه. قال: فما أصابت رجلاً منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافراً][1].

لقد أبصر المشركون أصحاب رسول الله ﷺ وهم يتجهزون ويغادرون مكة، وقد ساقوا معهم نِسَاءهم وأطفالهم وذراريهم وأموالهم، وبقي محمد ﷺ لا بد مدرك بأصحابه بين اليوم والغد، فأثار ذلك قلاقلهم وحرك أحزانهم ومخاوفهم، وخاصة على طريق تجارتهم إلى الشام، فموقع المدينة حرج بالنسبة للقوافل وطريق التجارة عبر ساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام، فرأت قريش ضرورة عقد اجتماع قمة عاجل للقبائل، فكان من أبرز من حضره:

أبو جهل بن هاشم عن قبيلة بني مخزوم، وجبير بن مطعم والحارث بن عامر عن بني نوفل بن عبد مناف، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب عن بني عبد شمس بن عبد مناف، والنضر بن الحارث عن بني عبد الدار، وزمعة بن الأسود وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام عن بني أسد بن عبد العزىٰ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج عن بني سهم، وأمية بن خلف عن بني جمح.

يروي ابن جرير عن السدي وكذلك ابن إسحاق من طريق ابن عباس واللفظ له: (أنَّ نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم مني رأي ونُصح. قالوا: أجل، ادخل، فدخل معهم فقال: انظروا إلى شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أموركم بأمره).

وفي رواية السدي: (فقال بعضهم: خذوا محمداً إذا اضطجع على فراشه، فاجعلوه

---

(1) حديث صحيح. رواه أحمد في المسند (1/ 303، 368) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه أحمد شاكر برقم (2762)، وأخرجه الحاكم (1/ 163)، وابن حبان (6502)، والبيهقي في «الدلائل» (6/ 240)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في بيت نتربص به ريب المنون ـ والريب هو الموت والمنون هو الدهر ـ.

قال إبليس: بئسما قلت! تجعلونه في بيت، فيأتي أصحابه فيخرجونه، فيكون بينكم قتال! قالو: صدق الشيخ! . قال: أخرجوه من قريتكم! قال إبليس: بئسما قلت! تخرجونه من قريتكم، وقد أفسد سفهاءكم، فيأتي قرية أخرىٰ فيفسد سفهاءهم، فيأتيكم بالخيل والرجال! قالوا: صدق الشيخ! قال أبو جهل ـ وكان أولاهم بطاعة إبليس ـ: بل نعمد إلى كل بطن من بطون قريش فنخرج منهم رجلاً، فنعطيهم السلاح، فيشدّون على محمد جميعاً فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا يستطيع بنو عبد المطلب أن يقتلوا قريشاً، فليس لهم إلا الدية.

وفي لفظ آخر: (قال: أرىٰ أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً، ثم نعطي كل فتىٰ سيفاً صارماً، ثم يضربونه جميعاً ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقوون على حرب قريش كافة، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها).

قال إبليس: صدق، وهذا الفتى هو أجودكم رأياً!.

وفي لفظ: لله درّ هذا الفتىٰ، هذا والله الرأي. فقاموا على ذلك.

وأخبر الله رسوله ﷺ، فنام على الفراش، وجعلوا عليه العيون. فلما كان في بعض الليل، انطلق هو وأبو بكر إلى الغار ونام علي بن أبي طالب على الفراش، فذلك حين يقول الله: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ قال: والإثبات هو الحبس والوثاق، وهو قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول: يهلكهم)[1].

وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

فإنه من صفات الله العظيم، صفة المكر والكيد بالكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: 13].

وكقوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15 ـ 16].

وكقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 50].

---

(1) انظر تفسير الطبري ـ سورة الأنفال، آية (30)، وسورة الإسراء، آية (76)، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ـ (1/ 433 ـ 435)، وما بعدها.

وكقوله سبحانه: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 54].

وفي صحيح الترمذي عن أنس عن النبي قال: [إذا أراد الله بعبده الخير عجلَ له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة][1].

وفي صحيح أبي داود عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نَسِيَ ذَكَّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غيرَ ذلك جعل له وزيرَ سوء، إن نَسِيَ لم يُذَكِّره، وإن ذكر لم يُعِنْـهُ][2].

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ لَيُملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِته][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

يخبر تعالىٰ عن كفار قريش إذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الساطعة بنورها وبيانها وسحرها لكل صاحب فطرة أو عقل سديد تنطعوا فقالوا جهلاً منهم وكبراً وعناداً للحق ـ وهم موقنون أنهم كاذبون ـ لو نشاء لقلنا مثل هذا الذي تلي علينا ويزعمون أن ذلك من أساطير الأولين.

وفي التنزيل مثل ذلك، قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: 5 ـ 6].

أي يغفر لمن تاب وأناب وأقلع عن الكذب والافتراء والإثم.

والأساطير في كلام العرب جمع أسطورة، ويقصد المشركون أن ما جاء به محمد إنما هو مما سطّره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم، فهو يقتبس من تلك الكتب ويتعلم منها ويتلوها على الناس، وكَذَبوا فيما قالوا، بل هو وحي الله تعالىٰ أوحاه إليه.

---

(1) حديث صحيح. رواه الترمذي في الجامع (2/ 64)، والبيهقي في «الأسماء» (ص 154)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1220).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2932) ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء ـ باب في اتخاذ الوزير. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2544).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4686) ـ كتاب التفسير ـ، ورواه مسلم وابن ماجة والترمذي، وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (1818).

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: 110].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَر، وإنما كان الذي أوتيتُ وَحياً أوحىٰ الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الآية.

القول المشار إليه هو قول كبير جهلة هذه الأمة ـ أبي جهل لعنه الله ـ وهو فرعون هذه الأمة الذي أخزاه الله تعالىٰ يوم بدر، وفيه نزلت هذه الآيات.

أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: [(قال أبو جهل: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾][2].

قال البخاري: (قال ابن عُيَيْنَةَ: ما سمّىٰ الله مَطَراً في القرآن إلا عذاباً وتسميه العرب الغَيْثَ، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ [الشورى: 28]).

قال ابن عباس: (﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾، يقول: ما كان الله ليعذِّب قوماً وأنبياؤهم بين أظهرهم حتىٰ يخرجهم، ثم قال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخولُ في الإيمان، وهو الاستغفار ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة).

وقال الضحاك: (﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (152) ـ كتاب الإيمان ـ باب وجوب الإيمان برسالة نبيّنا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4648)، (4649) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأنفال، آية (32). وانظر صحيح مسلم (2796) من حديث أنس، فالثابت أن القول المذكور لأبي جهل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: [أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت يقولون: لبيك لا شريك لك لبيك، فيقول النبي ﷺ: قد قد، فيقولون: لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾][1].

ويؤيد هذا ما أخرج الإمام أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أُغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني][2].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾.

قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ أنهم أهل لأن يعذِّبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقُتل صناديدهم، وأُسرَت سَراتُهم. وأرشدهم تعالىٰ إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم مُتلبسون بها من الشرك والفساد. قال قتادة والسُّدي وغيرهما: لم يكن القومُ يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا. واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لأوقع بهم البأس الذي لا يُرَدّ، ولكن دُفِعَ عنهم بسبب أولئك، كما قال الله تعالىٰ في يوم الحديبية: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 25]).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أبزىٰ قال: (كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ

(1) رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، بسند رجاله رجال الصحيح إلا شيخيهما وهما ثقتان، وهو سبب آخر للنزول، ولا مانع من تعدد أسباب النزول للآية سواء بمكة أو بالمدينة أو مرة بمكة ومرة بالمدينة. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأنفال ـ آية (33).

(2) صحيح لشواهده. أخرجه أحمد(3/ 29)، والحاكم (4/ 261)، والبيهقي في «الأسماء» ص (134)، والبغوي في «شرح السنة» (1/ 146)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (104).

فِيهِمْۚ﴾ ، قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة ، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون ـ يعني بمكة ـ فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ ، قال: فأذن الله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي وعدهم).

قلت: والذي ذكره ابن جرير من رواية ابن أبزىٰ وذكر نحوه من رواية ابن عباس والضحاك أقرب لفهم الآيات ، فإن الله سبحانه أخّر عن قريش العذاب ما دام رسول الله ﷺ بين أظهرهم ، فلما هاجر وبقيت فئة مؤمنة مستغفرة أخّر العذاب عن أهل مكة مرة أخرىٰ ، وجَرّ الطغاة منهم إلى بدر لينالوا مصرعهم ومصيرهم الفاجع ، فلما خرج المؤمنون من مكة وأصر المشركون على إنكار الوحي والنبوة أنزل الله بهم عذابه بالخزي والذل يوم الفتح ، بعدما حصدوا من الذل والقتل ما حصدوه قبل ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾. أي: كيف لا يعذبهم الله تعالىٰ وهم يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام بمكة والطواف به والصلاة عنده ، فالمؤمنون أهله الحقيقيون ، وأما طغاة مكة فليسوا أهل المسجد الحرام ، بل أهله على الحقيقة: النبي ﷺ وأصحابه الكرام.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 17 ـ 18].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 217].

وقوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال محمد بن إسحاق: (﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾: هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم).

وقال مجاهد: (هم المجاهدون مَنْ كانوا ، وحيث كانوا).

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن معاذ ، عن النبي ﷺ قال: [إن أولىٰ الناس بي المتقون ، مَنْ كانوا وحيثُ كانوا][1] .

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي أمامة ، عن رسول الله ﷺ قال: [إنّ أولىٰ الناس بالله من بدأهم بالسلام][2] .

وفي معجم الطبراني بسند صحيح في الشواهد عن ابن عباس مرفوعاً: [أولياء الله تعالىٰ الذين إذا رُؤوا ذُكر الله تعالىٰ][3] .

والخلاصة: أولياء هذا البيت هم أهل الصلاة عنده والطواف به ، أهل تعظيم حرمات الله وشعائر الدين الحق ، وليس أهل الشرك والجاهلية ، وأولياء الله تعالىٰ الذين إذا حضروا ذُكر الله تعالىٰ ، وأولياء هذا النبي الكريم وأتباعه وأهل سنته ومنهاجه ، ليس المبتدعة ولا أهل الخرافة والفلسفة والشبهات .

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة :

1 ـ قال ابن عباس: (كانت قريش تطوف بالبيت عراة ، يصفقون ويصفّرون ، فكان ذلك عبادة في ظنهم) .

قال: (والمكاء: الصفير ، وإنما شبهوا بصفير الطير ، وتصدية: التصفيق) .

2 ـ قال ابن عمر: (المكاء: الصَّفير ، والتصدية: التصفيق) ـ ذكره ابن جرير .

3 ـ قال مجاهد: (المكاء: إدخال أصابعهم في أفواههم ، والتصدية: التصفيق ، يخلطون بذلك على محمد ﷺ صلاتَه) .

4 ـ قال قتادة: (المُكاء: ضرب الأيدي ، والتَّصدية: صياح) .

5 ـ قال السُّدي: (المُكاء: الصفير ، على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكَّاء) .

---

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (4/ 340) ، ومستدرك الحاكم (2/ 328) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2008) .

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (5197) ـ باب فضل من بدأ بالسلام ـ. انظر صحيح سنن أبي داود (4328) .

(3) حديث صحيح في الشواهد. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (12325) ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (1/ 231) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم (1733) .

وذكر القرطبي قول السدي وقتادة ثم قال: (وعلى التفسيرين ففيه ردٌّ على الجهال من الصوفية الذين يَرقصون وَيُصَفِّقُون ويصعقون.

وذلك كله منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت).

6 ـ وعن سعيد بن جبير: (﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ قال: صدّهم الناس عن سبيل الله عز وجل).

قلت: وفي لغة العرب المكو: أن يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح.

قال الرازي: (والمُكاءُ مُخَفَّفُ الصفير، وقد مكا صفر). ويقال: مكا يمكو مَكواً ومكاءً، ومَكَتْ است الدابة مكاء إذا نفخت بالريح.

وأما التصدية فهي التصفيق.

قال بعض أهل اللغة: الصَّدىٰ: الذي يجيبك بمثل صوتك في الجبال وغيرها.

قال شيخ الإسلام: (ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي... وهو سماع المشركين.. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾. قال ابن عباس وابن عمر وغيرهما: التصدية: التصفيق باليد، والمكاء: التصفير... فكان المشركون يتخذون هذا عبادة، وأما النبي ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك، ولم يجتمع النبي ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط لا بكف ولا بدف).

ثم قال عن مستمع الغناء: (وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوىٰ عند مزامير الشيطان فيرقص ليلاً طويلاً. فإذا جاءت الصلاة صلىٰ قاعداً أو ينقر الصلاة نقر الديك... وهو يبغض سماع القرآن وينفر منه ويتكلفه... ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد... فهذه أحوال شيطانية وهو من يتناوله قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾) انتهىٰ[1].

وقال ابن القيم في كتابه ـ «إغاثة اللهفان» ـ: (ومن مكايد عدو الله ومصايده التي كاد

(1) ومن شاء المزيد فليراجع كتاب: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، وكتابي: منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن. ص (48 ـ 74).

بها من قلّ نصيبه من العقل والعلم والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ، سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة الذي يصد القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. . . فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنىٰ ، كاد به الشيطان النفوس المبطلة وحَسَّنَهُ لها مكراً وغروراً ، وأوحىٰ إليها الشُبه الباطلة على حسنِه فقبلت وحيه واتخذت من أجله القرآن مهجوراً ، فلو رأيتهم عند ذياك السماع وقد خشعت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدة إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم أرأيت تكسر المخانيث والنسوان ، ويحق لهم ذلك وقد خالط خماره النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤوس ، فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق ، وأموال في غير طاعة الله تُنْفَق. . قضوا حياتهم لذة وطرباً ، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً. . . مزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سور القرآن. لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً ، ولا أزعج له قاطناً ، حتىٰ إذا تُلي عليه قُرآن الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد عن قلبه على عينيه فَجَرَتْ ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت. . .

فيا أيها الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان ، صفقة خاسر مغبون ، هلا كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد. . . ولكن كل امرئ يصبو إلى ما يناسبه ، ويميل إلى ما يشاكله. .) انتهى.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري ـ كما رجح الحافظ في الفتح ـ قول النبي ﷺ: [ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ ـ يعني الزنا ـ والحرير والخمر والمعازف][1].

وأخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن عبد الله بن عمرو ، أن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5590) ـ كتاب الأشربة ـ باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه. وانظر كتابي: منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن ص 57 ـ 68.

رسول الله ﷺ قال: [إن الله حرم على أمتي الخمر والميسر والمزر والكوبا والغبيراء، وزادني صلاة الوتر][1].

والكوبا: هي الطبل كما فسّرها العلماء.

قال سفيان: (قلت لعلي بن بذيمة ما الكوبة؟ قال: الطبل).

والمزر: شراب مسكر أصله من الذرة. والغبيراء: شراب مسكر من القمح والشعير كانوا يشربونه في اليمن وغيرها، وجاءت النصوص بتحريمه.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. قال الضحاك: (هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي) ـ واختاره ابن جرير.

وقال مجاهد: (عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة).

36 ـ 40. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ أنَّ الكفار يبذلون الأموال لِلمَكْرِ بدين الله وصد الناس عنه، وأن هذه الأموال ستكون عليهم حسرة وندامة في الدنيا ثم يوم يحشرون، ثم إنهم في النار يُطرحون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (165/2)، (167/2). ورواه الطبراني ـ انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1743).

إنما حقيقة الابتلاء التمحيص وتمييز الخبيث من الطيب ، لِيُراكِمَ اللهُ الخبيثَ على بعضه فيكدِّسَهُ في نار جهنم.

قل يا محمد للكفار المكرة بدين الله إن ينتهوا عما هم عليه من الكفر والمكر فإن فرصة التوبة والإنابة إلى الله قائمة ، وإلا فقد مضت سنة الله في إهلاك المستكبرين.

قاتلوا ـ معشر المؤمنين ـ الكفرة المعاندين لاستئصال فتنتهم من الأرض وليكون الدين كله لله ، فإن انتهوا عن الكفر والمعاصي ظاهراً فإن الله بصير ببواطنهم.

وإن أعرضوا عن الحق وأصروا على إشاعة الفتنة والمنكر فاستعينوا بالله عليهم فإنه ـ تعالىٰ ـ ناصركم ومؤيدكم وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾.

لقد احْتجز طغاة مكة العير التي نجا بها أبو سفيان والتي كانت سبباً لمعركة بدر ، لينفقوها على قتال المسلمين بأحد.

يروي ابن إسحاق بسند حسن من حديث عاصم بن عمر بن قتادة أنهم قالوا: (يا معشر قريش ، إن محمداً قد وترَكم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً)[1].

فلقد كانت قريش تحترق غيظاً كلما ذكرت مأساة بدر ، وتشتاط غضباً عند ذكرها لأبطالها الذين فقدتهم وصرعتهم أسياف المسلمين ، فكانت تخطط للثأر والانتقام في حرب شاملة ، يحرضها على ذلك عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وأبو سفيان بن حرب ، وعبد الله بن ربيعة وغيرهم ، وكان من أمرهم أن احتجزوا تلك العير للثأر لقتلاهم في قتال أحد.

فأجابت قريش لذلك فباعوها ، وكانت ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار ، فأشار القرآن النازل من سورة الأنفال إلى ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾.

---

(1) انظر سيرة ابن هشام (3/ 1) ، والواقدي: المغازي (1/ 200) ، وكتابي السيرة النبوية (2/ 655).

قال سعيد بن جبير: (نزلت في أبي سفيان بن حرب. استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة، فقاتل بهم النبي ﷺ).

ومع ذلك فالآية عامة تحكي سلوك الطغاة في كل زمان ومكان، في جمعهم لحرب الحق والإسلام، لتكون تلك الأموال عليهم حسرة وندامة وخزياً في الدنيا والآخرة، فإن نور الله لا يمكن إطفاؤه، والله غالب على أمره ولو كره الكافرون.

وقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

يشمل التمييز في الدنيا والآخرة.

أولاً ـ في دار الدنيا:

قال ابن عباس: (﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، فميَّز أهل السعادة من أهل الشقاوة).

وفي التنزيل من ذلك المعنىٰ كثير:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: 166 ـ 167].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: 142].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: 179].

فيكونُ قوله في آية الأنفال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ من نحو ذلك. فهو كما قال الحافظ ابن كثير: (ويحتملُ أن يكون هذا التمييزُ في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقونَه في الصد عن سبيل الله، أي: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، أي: من يُطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك).

ثانياً ـ في الدار الآخرة:

قال السدي: (ثم ذكر المشركين وما يصنع بهم يوم القيامة، فقال: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، يقول: يميز المؤمن من الكافر، فيجعل الخبيث بعضه على بعض).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 28].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: 14].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: 43].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: 59].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

قال ابن زيد: (﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾: فيجمعه جميعاً بعضهم على بعض).

أي: يُراكم بعضهم فوق بعض في نار جهنم، وأولئك هم الخاسرون صفقة الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

قال ابن العربي: (هذه لطيفة من الله سبحانه منّ بها على الخلق، وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصي والمآثم، فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لما استدركوا أبداً توبة، ولا نالتهم مغفرة. فيسّر الله تعالىٰ عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم، ليكون ذلك أقربَ لدخولهم في الدين، وأدعىٰ إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو علموا أنهم يؤاخذون لما تابوا ولا أسلموا) ـ حكاه القرطبي.

والمقصود أن الله تبارك وتعالىٰ يعطي الفرصة للعبد ليتوب ويستعتب من إساءته، ومن ذلك تشجيع الكفار على استئناف طاعة الله وتعظيمه وحده لا شريك له، وترك ما كانوا عليه من الكفر والخطايا والمكر بدينه والمؤمنين.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص ـ وهو في سِيَاقة الموت يبكي طويلاً وحوَّل وَجْهَهُ إلى الجدار ، فجعل ابنُهُ يقول: يا أبتاه! أما بَشَّرَكَ رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بَشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه ـ وقال: [إن أفْضَلَ ما نُعِدُّ شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إني قد كُنْتُ على أطباق ثلاثٍ ، لقد رأيتني وما أحدٌ أشدَّ بُغضاً لرسول الله ﷺ مِنِّي ، ولا أَحَبَّ إِليَّ أن أكونَ قد استمكنتُ منه فقَتَلْتُهُ منه ، فَلَوْ مُتُّ على تِلك الحال لكنتُ من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيتُ النبي ﷺ فقلت: ابْسُطْ يمينك فَلأُبَايِعْكَ فبسط يمينه ، قال: فَقَبضْتُ يدي ، قال: مالك يا عَمْرو؟ قال: قلت: أرَدْتُ أن أَشْتَرِطَ ، قال: تَشْتَرِطُ بماذا؟ قلتُ: أن يُغْفَرَ لي ، قال: أما عَلِمْتَ يا عَمْرو! أن الإسلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ؟ وأن الهجرة تَهْدِمُ ما كان قَبْلَها؟ وأن الحجَّ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ؟ وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عَيْني منه ، وما كنت أطيقُ أن أمْلأَ عَيْنَيَّ منه إجلالاً له ، ولو سُئِلْتُ أن أصِفَهُ ما أطَقْتُ ، لأني لم أكنْ أمْلأُ عَيْنَيَّ منه ، ولو مُتُّ على تلك الحال لرجَوْتُ أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا مُتُّ فلا تَصْحَبْني نائِحَةٌ ولا نارٌ ، فإذا دفنتموني فَسُنُّوا عَلَيَّ الترابَ سَنّاً ، ثم أقيموا حول قبري قَدْرَ ما تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُها حتىٰ أَسْتأنِسَ بكم ، وأَنْظُرَ ماذا أراجعُ بِهِ رُسُلَ ربي][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي وائل ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: [قال رجل: يا رسول الله ، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: من أحْسَنَ في الإسلام لم يُؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أُخِذَ بالأول والآخر][2] .

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند رجاله ثقات من حديث عمرو بن العاص مرفوعاً: [إن الإسلام يجبّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها][3] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (121) ـ كتاب الإيمان ـ باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6921) ـ كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ـ ، وأخرجه مسلم (120) ، وأخرجه ابن ماجة (4242) ، وأحمد (1/ 409 ـ 429) ، وابن حبان (396).

(3) أخرجه الطبراني (18/ 5 ـ 6) من حديث عمرو بن العاص مطولاً ، وقال الهيثمي في «المجمع» (9/ 351): (رواه أحمد والطبراني . . . ورجالهما ثقات). وانظر مسند أحمد (4/ 205) نحوه.

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجة من حديث أبي سعيد ـ واللفظ لمسلم ـ أن نبيّ الله ﷺ قال: [كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسعين نَفْساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب ، فأتاه فقال: إنه قتل تِسْعَةً وتسعين نَفْساً ، فهل له من توبة؟ فقال: لا ، فَقَتَلَهُ ، فكمَّلَ به مئة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالم ، فقال: إنه قتل مئة نَفْسٍ ، فَهل له من تَوْبة؟ فقال: نعم ، وَمَنْ يحول بينَهُ وبينَ التوبة؟ . .][1] الحديث.

قال القرطبي ـ يشير إلى الحديث السابق ـ: (فانظروا إلى قول العابد: لا توبة لك ، فلما علم أنه قد أَيْأَسَهُ قَتله ، فِعْلَ الآيس من الرحمة. فالتنفير مفسدة للخليقة ، والتيسير مصلحة لهم. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا جاء إليه رجل لم يقتل فسأله: هل لقاتلٍ من توبة؟ فيقول: لا توبة ، تخويفاً وتحذيراً. فإذا جاءه مَن قتل فسأله: هل لقاتلٍ من توبة؟ قال له: لك توبة ، تيسيراً وتأليفاً).

وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قال مجاهد: (في قريش وغيرها من الأمم قبل ذلك).

والآية تجمع بين الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم الماضية لما طغت فدكّها الله بالعذاب.

قال النسفي: (﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالإهلاك في الدنيا والعذاب في العقبىٰ).

والخلاصة في المعنى: أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما سلف من الكفر والمعاصي ، فإن عادوا إلى الكفر ثانية وإلى الإجرام والمكر فإن لهم بسالف الأمم التي دمّر الله عبرة وذكرىٰ للذاكرين.

وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة.

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

قال ابن عباس: (﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ، يعني: حتىٰ لا يكون شرك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3470) ، ومسلم (2766) ـ كتاب التوبة ـ ، باب قبول توبة القاتل ، وإن كثر قتله. ورواه أحمد (3/ 20) ، وابن ماجة (2622) ، وابن حبان (611)و(615).

وقال الحسن: (الفتنة: الشرك).

وقال قتادة: (﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، حتىٰ يقال: «لا إله إلا الله»، عليها قاتل نبي الله ﷺ، وإليها دَعا).

وقال ابن جريج: (﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: لا يفتن مؤمن عن دينه، ويكون التوحيد لله خالصاً ليس فيه شرك، ويُخلع ما دونه من الأنداد).

وقال ابن زيد: (﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، قال: حتىٰ لا يكون كفر، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، لا يكون مع دينكم كفر).

قلت: والآية في وجوب إقامة الدين في الأرض ومحاصرة الشرك والفساد، لِيُعْبَدَ الله وحده لا شريك له، ويكون منهاجه تعالىٰ هو الأعلىٰ، ومناهج الفساد والضلال هي السفلىٰ.

قال شيخ الإسلام: (فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتىٰ يكون الدين كله لله).

أخرج البخاري في صحيحه عن نافع، عن ابن عمرَ رضي الله عنهما: [أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه؟ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: 9] إلى آخر الآية، فما يَمْنَعُكَ أنْ لا تُقاتِلَ كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أُعَيَّرُ بهذه الآية ولا أُقاتِلُ، أَحَبَّ إليَّ مِنْ أَنْ أُعَيَّرَ بهذه الآية التي يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: 93] إلى آخرها، قال: فإن الله يقول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، قال ابن عمر: قد فَعَلْنا على عهد رسول الله ﷺ إذْ كان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يُفْتَنُ في دينه: إمّا يَقْتُلوهُ وإما يوثِقوه، حتىٰ كَثُرَ الإسلام فلم تكن فِتْنَةٌ، فلما رأىٰ أنه لا يوافِقُه فيما يريد قال: فما قَوْلُكَ في عَليٍّ وعثمان؟. قال ابن عمر: ما قَولي في عليٍّ وعثمان؟ أما عُثْمانُ فكان الله قد عفا عنه فكَرِهْتُم أن تَعْفُوا عَنْه، وأما عليٌّ فابنُ عَمِّ رسول الله ﷺ وخَتَنُهُ ـ وأشار بيده ـ وهذه ابنتُهُ، أو بِنْتُهُ حيث تَرَوْنَ][1].

وكذلك أخرج البخاري ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن سعيد بن جبير قال: [خرجَ علينا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4650) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأنفال، آية (39).

أو إلينا ابنُ عمرَ فقال رجل: كيف ترىٰ في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان مُحمَّدٌ ﷺ يُقاتِلُ المشركين، وكان الدخول عليهم فِتْنَةً، وليس كقِتالِكُمْ على المُلْكِ][1].

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قال القاسمي رحمه الله: (﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ أي عن الكفر والمعاصي ظاهراً، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي ببواطنهم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي فيجازيهم، وعليه حسابهم. فكفوا عنهم، وإن لم تعلموا ببواطنهم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: 5].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 11].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 193].

ومن السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنىٰ:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: [بَعَثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقَةِ فَصَبَّحْنا القومَ فَهَزَمْناهُم ولحِقْتُ أنا ورجُلٌ من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فَكَفَّ الأنصاريُّ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحي حتىٰ قَتَلْتُهُ، فلما قَدِمْنا بَلَغَ النبي ﷺ، فقال: يا أسامة، أَقَتَلْتَهُ بعدما قال: لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذاً، فما زال يكرِّرها حتىٰ تمنَّيْتُ أني لم أكُنْ أسلمتُ قبل ذلك اليوم][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: [لما تُوفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفَرَ من العرب، فقال عمر: فكيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أن أقاتِلَ الناس حتىٰ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4651) ـ كتاب التفسير ـ الآية السابقة، وانظر كذلك الحديث (3130).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4269) ـ كتاب المغازي ـ، وأخرجه أيضاً برقم (6872) ـ كتاب الديات ـ.

يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني مالَهُ ونفسَه إلا بحقِّه ، وحسابُه على الله][1] الحديث.

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه عن المقداد بن الأسود أنه قال: [يا رسول الله أرأيتَ إنْ لقيتُ رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدىٰ يديَّ بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: لا تقتله ، قال: فقلت: يا رسول الله إنه قد قطعَ يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

أي: إن أعرضوا عن الحق والإيمان ولم ينتهوا فاعلموا أن الله ناصركم ومعينكم ، فلا يضيع من تولاه ، ولا يغلب من نصره ، فاستمسكوا بعونه وثقوا بولايته ونصرته ، إنه تعالىٰ نعم المولى ونعم النصير.

41. قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

في هذه الآية: تَفْصيلٌ من الله تعالىٰ لشرع تقسيم المغانم ، وتشريع الخمس ، وَبَيَانٌ لمصارف هذا الخمس ، وأن إخراجه هو من أمر الصدق في الإيمان بالله واليوم الآخر وما أنزل الله تعالىٰ على رسوله ﷺ يوم بدر ، يوم الفرقان ، يوم فَرَّق الله بين الحق والباطل والله على كل شيء قدير.

لقد أخرج النبي ﷺ يوم بدر الخمس من الغنيمة ، ثم قسم أربعة الأخماس بين المقاتلين ، ونزلت الآية: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ، تبين كيفية تقسيم الغنائم بعد القتال.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1399) ـ كتاب الزكاة ـ ، باب وجوب الزكاة ، وكذلك (1457) ، (7284) ، ورواه مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 66 ـ 69) ـ كتاب الإيمان ـ . انظر مختصر صحيح مسلم (6).

قال ابن جريج: (أربعة أخماس لمن حضر البأس، والخمس الباقي لله وللرسول، خمسه يضعه حيث يرىٰ، وخمس لذوي القربىٰ، وخمس لليتامىٰ، وخمس للمساكين، ولابن السبيل خمسه).

وقال مجاهد: (كان آل محمد ﷺ لا تحل لهم الصدقة، فجعل لهم خمس الخمس).

والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، والفيءُ: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها أو يَتَوَفَّون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، وهو الراجح في الفرق بين الغنيمة والفيء، وهو مذهب الشافعي وطائفة من أهل العلم سلفاً وخلفاً.

أخرج البيهقي في «السنن» بسند صحيح عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بَلْقَيْنِ قال: [أتيتُ رسول الله ﷺ وهو بوادي القُرَىٰ، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش. قلت: فما أحد أولىٰ به من أحد؟ قال: لا، ولا السهم تستخرجه من جَنْبِكَ، ليس أنت أحق به، من أخيك المسلم][1].

قال عطاء: (خمسُ اللهِ والرسول واحدٌ، يَحْمِلُ منه ويَصْنَعُ فيه ما شاء. يعني النبي ﷺ).

قال ابن كثير: (وهذا أعمُّ وأشمل، وهو أن الرسول ﷺ يتصرَّف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، ويرُدُّهُ في أمته كيف شاء).

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عمرو بن عبسة: [أنَّ رسول الله ﷺ صَلَّىٰ بهم إلى بعير من المغنم، فلما سَلَّم أخذ وَبرة من هذا البعير ثم قال: ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمسَ، والخمسُ مردود فيكم][2].

وأما السلب فلا يخمس، وإنما يعطىٰ للقاتل، هكذا قضىٰ رسول الله ﷺ.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحافظ البيهقي في «السنن» (6/ 324 ـ 336)، وأبو يعلىٰ (7179). وقال الهيثمي في «المجمع» (1/ 48 ـ 49): رواه أبو يعلىٰ، وإسناده صحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (2755) من حديث عمرو بن عبسة مرفوعاً، وإسناده صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (2393).

ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود ـ واللفظ له ـ عن عوف بن مالك الأشجعي ، وخالد بن الوليد : [أن رسول الله ﷺ : قضىٰ بالسلب للقاتل ، ولم يخمس السلب][1] .

واختلف في الذي كان يناله ـ ﷺ ـ من الخُمس لمن يعطىٰ من بعده؟

القول الأول: يكون لمن يلي الأمر من بعده . وهو قول أبي بكر ، وعلي ، وقتادة ، وجماعة .

القول الثاني: يصرف في مصالح المسلمين . ذكره بعض السلف .

القول الثالث: يردّ على بقية الأصناف : ذوي القربى واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل ، واختاره ابن جرير .

قلت : والراجح أنه يبقىٰ تحت تصرف الخليفة من بعده أو الحاكم المسلم ، والله تعالىٰ أعلم .

وأما اليتامىٰ : فهم يتامىٰ المسلمين . والمساكين : هم المحاويج لا يجدون ما يكفيهم . وابن السبيل : هو المسافر انقطع بأرض السفر فليس له هناك ما ينفقه في سفره .

وقوله : ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ . قال مقاتل : (أي في القسمة) .

أي : أخرجوا الخمس كما شرع الله لكم في الغنائم ، إن كنتم صادقين في إيمانكم بالله واليوم الآخر وما أنزل الله على رسوله ﷺ .

أخرج البخاري عن ابن عباس قال : [قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ القَيْس على رسول الله ﷺ فقالوا : إنا مِنْ هذا الحيِّ من ربيعة ، ولسْنا نَصِلُ إليك إلا في الشهر الحرام ، فمُرْنا بشيء نأخذه عنك وندعو إليه مَنْ وَراءنا ، فقال : آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : الإيمان بالله ـ ثم فَسَّرَهَا لهم ـ شهادةُ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وإقامُ الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تُؤَدوا إليَّ خُمُسَ ما غنِمْتُم ، وأنهىٰ عن الدُّبَّاء والحَنْتم والمقيَّر والنَّقير][2] .

---

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم ـ حديث رقم (1753) ـ كتاب الجهاد ـ ، وصحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم (2363) ـ باب في السلب لا يخمس .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (523) ـ كتاب مواقيت الصلاة ـ ، وكذلك (1398) ، و(3095) ، وأخرجه مسلم (17) ، وأبو داود (3692) ، والترمذي (2611) ، وأحمد (1/ 228) ، والنسائي (8/ 120) ، وابن حبان (157) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

فجعل سبحانه أداء الخمس من الإيمان ، كما جاء كذلك في حديث النبي ﷺ لوفد عبد القيس ، وقد صنفه البخاري في الصحيح : «باب أداء الخمس من الإيمان» .

وقوله : ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قال ابن عباس : (﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل) .

وقال عروة بن الزبير : (﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ : يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، وكان رأسُ المشركين عتبةَ بن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرةَ ـ أو : سبع عشرة ـ مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون ما بين الألف والتسع مئة . فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك) .

وعن علي رضي الله عنه قال : (كانت ليلة الفرقان ليلة التقىٰ الجمعان ، في صبيحتها ليلةُ الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان) ـ رواه ابن مردويه ورجحه ابن كثير وقال : (وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير) .

قلت : والذي ذهب إليه ابن كثير هو الصواب إن شاء الله ، فلقد كانت موقعة بدر في السابع عشر من رمضان ووافقت يوم الجمعة ، وكانت في السنة الثانية من الهجرة .

فقد أخرج أبو داود مِنْ حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : [التمسوها ـ يعني ليلة القدر ـ في سبع عشرة ، وتلا هذه الآية : ﴿ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ يوم بدر ، أو تسع عشرة ، أو إحدىٰ وعشرين][1] .

وفي لفظ : [تحروها لإحدىٰ عشرة يبقين صبيحتها يوم بدر][2] .

ويبدو أن الموقعة كانت في السابع عشر ، وانتهاء الغزوة في التاسع عشر ، إذ كان رسول الله ﷺ يقيم بعرصة القوم الذين هزمهم ثلاث ليال ، وبذلك جمع بعض أهل العلم بين الأحاديث المختلفة في ظاهرها والله تعالىٰ أعلم .

42 ـ 44. قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ

(1) حديث صحيح . انظر سنن أبي داود (1384) في الصلاة ، وتفصيل البحث في كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة (1/ 566) .

(2) المرجع السابق . وانظر صحيح السيرة ـ إبراهيم العلي ـ ص (158) .

وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الله تعالىٰ المؤمنين ممتناً عليهم ببعض روائع القدر الذي قضاه لهم يوم بدر: إنكم نزلتم بشفير الوادي الأدنىٰ إلى المدينة وعدوكم من المشركين نازل بشفير الوادي الأقصىٰ إلى مكة وعير أبي سفيان في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ما لقيتموهم، ولكن الله قدّر هذا النزول وما يعقبه من لقاء الحسم الذي يعلي به راية الحق ويكسر أهل الكفر والباطل.

ولقد كان للرؤيا التي أراها الله نبيّه قبل المعركة أثرها في تثبيته ﷺ والمؤمنين معه، إنه ـ تعالىٰ ـ عليم بذات الصدور.

ثم كان الأثر الأكبر أثناء القتال حين قلّل الله عدد المشركين في أعين المؤمنين ليزدادوا ضراوة وشجاعة، وقلّل عدد المؤمنين في أعين المشركين ليتركوا الأهبة ويستخفوا بالقتال، فيهون على المؤمنين استئصالهم، إنه تعالىٰ هو الحكيم العليم، وإليه مرجع الأمور وجميع العالمين.

فقوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

قال ابن جرير: (﴿إِذْ أَنتُم﴾، حينئذ، ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾، يقول: بشفير الوادي الأدنىٰ إلى المدينة، ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾، يقول: وعدوكم من المشركين نزولٌ بشفير الوادي الأقصىٰ إلى مكة، ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، يقول: والعير فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر).

وعن قتادة: (﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾، وهما شفير الوادي. كان نبيّ الله بأعلىٰ الوادي، والمشركون أسفله، ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، يعني: أبا سفيان، انحدر بالعير على حوزته، حتىٰ قدم بها مكة).

وقوله: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾.

قال ابن إسحاق: (ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم، ﴿ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾، أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير مَلأٍ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه).

وعن عمير بن إسحاق قال: (أقبل أبو سفيان في الركب من الشأم، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتىٰ التقت السُّقاة. قال: ونَهَدَ الناس بعضهم لبعض) ـ ذكره ابن جرير بإسناده ـ.

وكان أبو سفيان قد بعث ضمضم بن عمرو الغفاري يستنفر أهل مكة لحماية أموالهم إذ شعر بمحاولة المسلمين الاستيلاء على القافلة، والاعتراض لطريقها.

وبينما هو كذلك إذ لقي مجدي بن عمرو في الطريق.

قال ابن إسحاق في السيرة: (وأقبل أبو سفيان بن حرب، حتىٰ تقدم العير حذراً، حتىٰ ورد الماء، فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحداً، فقال: ما رأيت أحداً أُنْكِره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شنّ لهما، ثم انطلقا. فأتىٰ أبو سفيان مُنَاخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، فَفَتَّهُ، فإذا فيه النّوىٰ، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى أصحابه سريعاً، فضرب وَجه عيره عن الطريق، فسَاحَلَ بها[1]، وترك بدراً بيسار، وانطلق حتىٰ أسرع)[2].

فمضىٰ أبو سفيان يشتد بالعير وهو يضرب وجهها عن الطريق شارداً نحو الساحل، تاركاً بدراً إلى يساره فنجا، وأرسل إلى قريش يقول: (إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجّاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجعُ حتىٰ نَرِدَ بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحرَ الجُزُرَ، ونُطعم الطعام، ونُسْقي الخمر، وتَعْزِفُ علينا القيان ـ أي الجواري ـ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضُوا).

---

(1) أي أخذ بها جهة الساحل.

(2) انظر «الدلائل» للبيهقي (3/ 31 ـ 33) من طريق ابن إسحاق، وكتابي: السيرة النبوية (1/ 538).

وهكذا ركب الأحمق أبو جهل حماقته ، وأصر على الخروج إلى حيث مصرعه ، ليجمع الله بينه وبين المسلمين على غير ميعاد.

ففي صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: [فندب رسول الله ﷺ الناس ، فانطلقوا حتىٰ نزلوا بدراً ، ووردت عليهم روايا قريش ، وفيهم غلام أسودُ لبني الحَجَّاج ، فأخذوه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه؟ فيقول: مالي علم بأبي سفيان ، ولكن هذا أبو جهل وعُتْبَةُ وشَيْبَةُ وأمية بن خلف ، فإذا قال ذلك ضربوه ، فقال: نعم ، أخبركم ، هذا أبو سفيان ، فإذا تركوه فسألوه ، فقال: مالي بأبي سفيان علم ، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في أناس ، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي . .] الحديث[1].

وفي رواية ابن إسحاق: (فأصابوا راوية لقريش فيها أسْلَم ، غلامُ بني الحجّاج ، وعَريضٌ أبو يسار ، غلام بني العاص بن سعيد ، فأتوا بهما فسألوهما ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فقالا: نحن سُقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما ، ورجَوْا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما ، فلما أذلقوهما ـ أي بَالَغُوا في ضربهما ـ قالا: نحن لأبي سفيان ، فتركوهما. وركع رسول الله ﷺ وسجد سَجْدَتَيْه ، ثم سَلَّم ، وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كَذباكم تَرَكْتُموهُما ، صَدَقا ، والله إنهما لقريش ، أخبراني عن قُريش؟ قال: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترىٰ بالعُدْوة القُصْوىٰ. فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير ، قال: ما عِدَّتُهم؟ قالا: لا نَدْرِي ، قال: كم يَنْحَرون كلَّ يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ: القومُ فيما بين التسع مئة والألف. ثم قال لهما: فَمَنْ فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عُتْبَةُ بن ربيعة ، وشَيْبَةُ بن ربيعة ، وأبو البخْتَرِيّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونَوْفل بن خُوَيلد ، والحارث بن عامر بن نَوْفَل ، وطُعَيمةُ بن عدي بن نوفل ، والنَّضْر بن الحارث ، وزَمْعَة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأميّة بن خلف ، ونُبيه ، ومنبه ابنا الحجّاج ، وسُهيل بن عمرو ، وعَمْرو بن عبد وُدّ ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذَ أكبادها)[2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1779) ـ كتاب الجهاد والسير ـ وانظر كتابي: السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 542 ـ 545) ـ لمزيد من تفصيل البحث.

(2) رواه ابن إسحاق في السيرة ، وانظر مسند أحمد (2/ 193) ، وصححه أحمد شاكر برقم (948).

وفي لفظ مسلم من حديث أنس: [فقال رسول الله ﷺ: هذا مصرع فلان. قال: ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا، قال: فما ماط أحدُهم عن موضع يدِ رسول الله ﷺ][1].

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال ابن إسحاق: (أي ليكفر من كفر بعد الحُجَّة، لما رأى من الآية والعِبْرة، ويُؤْمِنُ مَنْ آمن على مِثْل ذلك).

قال الحافظ ابن كثير: (يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصُرَكم عليهم، ويرفَعَ كلمةَ الحق على الباطل، ليصير الأمرُ ظاهراً، والحجةُ قاطعةً، والبراهينُ ساطعةً، ولا يبقىٰ لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي: يستمر في الكفر من استمرَّ فيه على بصيرة من أمره أنه مُبْطلٌ، لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾، أي: يؤمن من آمن، ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: 122].

وقالت عائشة في قصة الإفك: فَهَلَكَ فِيَّ من هَلَكَ أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾، أي: لدعائكم وتضرّعكم واستغاثتكم به، ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: بكم، فإنكم تَسْتَحِقّون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين).

وقوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾.

قال مجاهد: (﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، قال: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم).

وقال ابن إسحاق: (فكان أول ما أراه من ذلك نعمةً من نعمه عليهم، شجَّعهم بها على عدوهم، وكفَّ بها عنهم ما تُخُوِّف عليهم من ضعفهم، لعلمه بما فيهم).

فأرىٰ الله تعالىٰ نبيّه عدوه وعدو أصحابه في منامه قليلاً، فأخبر أصحابه فقويت

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1779) ـ كتاب الجهاد والسير ـ وهو جزء من حديث أطول.

عزائمهم ، ولو أراه إياهم كثيراً فأخبر أصحابه بذلك لَجَبُنوا وفَشِلوا عن لقائهم ، ولكن الله شجعهم برحمته وتأييده .

قال ابن عباس : (﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ ، يقول : سلَّمَ الله لهم أمرهم حتىٰ أَظْهَرَهُم على عدوهم) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ . أي : بما تجنّه وتخبئه وتنطوي عليه ، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفىٰ ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .

قال ابن مسعود : (لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر ، حتىٰ قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين؟ قال : أراهم مئة! قال : فأسرنا رجلاً منهم فقلنا : كم هم؟ قال : ألفاً) .

وقال ابن جرير : (﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ : يقلل المؤمنين في أعينهم ، ليتركوا الاستعداد لهم ، فتهون على المؤمنين شوكتهم) .

وقال القرطبي : (كان هذا في ابتداء القتال حتىٰ قال أبو جهل في ذلك اليوم : إنما هم أكلة جَزُور[1] ، خذوهم أخذاً واربطوهم بالحبال ، فلما أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعينهم فكثروا ، كما قال : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ [آل عمران : 13] . قال : ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ تكرر هذا ، لأن المعنىٰ في الأوّل من اللقاء ، وفي الثاني من قتل المشركين وإعزاز الدين ، وهو إتمام النعمة على المسلمين . ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي : مصيرها ومردّها إليه) .

45 ـ 49 . قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا

---

(1) أي يشبعهم لحم ناقة فهم قليل .

تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذه الآيات: يحثّ الله تعالىٰ المؤمنين على الثبات عند لقاء العدو والاستعانة بذكره عند النزال ، كما يأمر تعالىٰ المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويحذرهم من مغبة الشقاق والخلاف ، ويأمرهم بالصبر وعدم التأثر بمنهاج المبطلين. لقد زيّن الشيطان للمشركين يوم بدر خروجهم في معاداة الرسول والمؤمنين ، ووسوس لهم أنه لا غالب لكم اليوم ، وأنه مجير ومعين لهم ، فلما حمي الوطيس ظهر الشيطان على حقيقته فتقهقر أمام شدة بأس المؤمنين ، ونزول الملائكة مسومين ، وأعلن انسحابه وبراءته من العهد والجوار ، وخوفه من بأس الله وجنده وشدة عقابه. إنه لما دنا القوم بعضهم من بعض ، وقلَّلَ الله المسلمين في أعين المشركين ، قال المشركون: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك ، فثبت الله المؤمنين ودعاهم إلى صدق التوكل عليه إنه عزيز حكيم.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾.

أمر الله تعالىٰ بالثبات عند قتال الكفار ، كما نهىٰ عن الفرار عنهم في الآية السابقة.

قال القرطبي: (فالتقىٰ الأمر والنهي على سواء ، وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلّد له).

وفي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن عبد الله بن أبي أوفىٰ: [أن رسول الله ﷺ ، كان في بعض أيامه التي لقِيَ فيها العَدوَّ ، ينتظر حتىٰ إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «ياأيها الناس! لا تتمنّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قام النبي ﷺ وقال: اللهمَّ! مُنْزِلَ الكتاب ، ومُجْري السَّحاب ، وهازِمَ الأحزاب ، اهزِمْهُم وانْصُرنا عليهم][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في (56 ـ كتاب الجهاد) ، 112 ـ باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال حتىٰ تزول الشمس ، وأخرجه مسلم (1742) ـ كتاب الجهاد ـ باب كراهة تمني لقاء العدوّ ، والأمر بالصبر عند اللقاء.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال: [لا تَمَنَّوا لِقاءَ العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا][1] .

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ـ أمر بالذكر وترغيب في الدعاء عند اللقاء فإن في ذلك الفلاح .

قال قتادة: (افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون ، عند الضِّراب بالسيوف) .

وقال ابن إسحاق: (اذكروا الله الذي بذلتم له أنفسكم والوفاء بما أعطيتموه من بيعتكم) .

وقال ابن جرير: (﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم ، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم) .

وفي صحيح مسلم عن إسماعيلَ بنِ أبي خالدٍ ، عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: [دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهمَّ! مُنزِلَ الكتاب ، سريع الحساب ، اهزِمِ الأحزابَ ، اللهمَّ! اهزِمْهم وزلزِلْهُمْ][2] .

وكذلك في صحيح مسلم عن أنس: [أن رسول الله ﷺ كان يقول يوم أُحد: اللهمَّ! إنَّكَ إنْ تَشَأْ ، لا تُعْبَدْ في الأرض][3] .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ .

أَمْرٌ بطاعة الله ورسوله والحرص على الجماعة ووحدة الكلمة ، فإن التفرق ضعف وهوان ، وسبيل لتسلل الشيطان ، ثم الصبر على كل ذلك ، فإن الله مع الصابرين ، يؤيدهم وينصرهم ويجعل بعد العسر يسراً .

قال القاسمي: (﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾ أي باختلاف الآراء ، أو فيما أُمرتم به ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ ، أي تجبنوا ، إذ لا يتقوىٰ بعضكم ببعض) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1741) ـ كتاب الجهاد ـ الباب السابق .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1742) (21) ـ كتاب الجهاد ـ باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1743) ـ كتاب الجهاد ـ الباب السابق .

وقال مجاهد: (﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ، قال: نصركم. قال: وذهبت ريحُ أصحاب محمد ﷺ ، حين نازعوه يوم أحد).

وقال السدي: (﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ، قال: حَدُّكم وجِدُّكم).

وعن قتادة: (﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ قال: ريح الحرب).

وقال ابن زيد: (الفشل ، الضعف عن جهاد عدوه والانكسار لهم ، فذلك «الفشل»).

والخلاصة: إن التنازع تمزيق للجماعة ، خرق للمحبة ، سبيل إلى الهزيمة والضعف والهوان.

وفي التنزيل ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: 103].

قال ابن مسعود: (حبل الله ، الجماعة).

وقال قتادة: (إن الله عز وجل قد كره لكم الفُرقة ، وقدّم إليكم فيها ، وحذّركموها ، ونهاكم عنها ، ورضي لكم السمع والطاعة والألف والجماعة ، فارضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن استطعتم ، ولا قوة إلا بالله).

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ **قال:** [إن الله تعالىٰ لا يجمع أمتي على ضلالة ، ويدُ الله على الجماعة][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن حبان في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [آمركم بثلاث وأنهاكم عن ثلاث ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وتسمعوا وتطيعوا لمن وَلاَّهُ الله أمركم ، وأنهاكم عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي والطبراني والحاكم من حديث ابن عمر. انظر تخريج المشكاة (173) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1844).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (1543) ، وإسناده صحيح على شرط مسلم ، وانظر مسند الإمام أحمد (2/ 327) ، (2/ 360) ، (2/ 367) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (685).

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن الحارث الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [آمركم بخمس: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يُراجع، ومن دعا بدعوىٰ الجاهلية فهو من جثىٰ(1) جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم](2).

وختم الآية سبحانه بالحث على الصبر على شدائد الحرب، وعلى مخالفة الأهواء والحرص على وحدة المسلمين وشوكتهم، فالصبر مستلزم للنصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي: يؤيدهم بنصره ويعينهم بمدده وعونه وتوفيقه.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: 127].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125].

أخرج الخطيب في «التاريخ» والديلمي والحاكم ـ بإسناد صحيح ـ عن أنس مرفوعاً: [النَّصْرُ مع الصَّبْر، والفَرَجُ مع الكَرْبِ، وإنَّ مع العُسْر يُسْراً، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً](3).

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

قال قتادة: (هم قريش وأبو جهل وأصحابه، الذين خرجوا يوم بدر).

وقال الضحاك: (هم المشركون، خرجوا إلى بدر أشراً وبطراً).

---

(1) أي من حشو جهنم، ودعوىٰ الجاهلية هي كل دعوة إلى منهج جاهلي يخالف منهج الله سبحانه.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 202)، والترمذي في الجامع (2867)، (2868). وانظر مشكاة المصابيح (3694) (34) ـ كتاب الإمارة والقضاء ـ.

(3) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287)، والديلمي (4/ 111 ـ 112) من حديث أنس، وانظر مسند أحمد (1/ 307)، والحاكم (3/ 541 ـ 542)، والسلسلة الصحيحة (2382).

وقال محمد بن كعب: (لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف).

فقال أبو جهل: (والله لا نرجع حتىٰ نرد بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً) ـ ذكره ابن هشام.

والمقصود: تحذير الله سبحانه المؤمنين من التشبه بالمشركين في خُروجهم من ديارهم، ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعاً للحق، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مفاخرة وتكبراً عليهم، وصداً للناس عن الدخول في دين الله.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. أي: عالم بجميع ما كان من المشركين من البطر والرياء والكبر والصد عن سبيله، وهو سبحانه مجازيهم على ذلك ومعاقبهم.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾.

المعنىٰ: لقد زيّن الشيطان للمشركين يوم بدر خروجهم في معاداة الرسول والمؤمنين، ووسوس لهم أنه لا غالب لكم اليوم، وأنه مجير ومعين لهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: ظهر الشيطان على حقيقته عندما رأىٰ صدق المؤمنين عند الالتحام، ومدد الله بجنده من السماء، فتقهقر وأعلن انسحابه وبراءته من العهد والجوار، وخوفه من بأس الله وجنده وشدة عقابه.

قال القاسمي: (﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي تلاقتا، وتراءت كل واحدة صاحبتها، فرأىٰ الملائكة نازلة من السماء لإمداد المؤمنين ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي ولّىٰ هارباً على قفاه ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ أي من عهد جواركم ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ أي من الملائكة النازلة لإمداد المؤمنين ﴿مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي: أن يعذبني قبل يوم القيامة ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي فلا يبعد مع إمهالي إلى القيامة، أن يعذبني لشدة عقابه).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال ابن جريج: (لما دنا القوم بعضهم من بعض، فقلّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾).

قال ابن جرير: (وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، أن يفوِّضوا أمرهم إليه، ويسلموا لقضائه، كيما يكفيهم أعداءهم، ولا يستذلهم من ناوأهم، لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾ غير مغلوب، فجاره غير مقهور، ﴿حَكِيمٌ﴾، يقول: هو فيما يدبر من أمر خلقه حكيم، لا يدخل تدبيره خلل).

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: [حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل][1].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: [اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبْتُ وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني، أنت الحيُّ الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون][2].

50 ـ 59. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (8/ 172). وفي رواية له عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان آخر قول إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل».

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 80) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1866) ـ كتاب الدعاء ـ.

قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ مخاطباً نبيّه ﷺ: إنك يا محمد لو عاينت هول وفظاعة ما ينزل بالكفار، ساعة الفراق والمغادرة والاحتضار، لرأيت هولاً عجيباً، وأمراً فظيعاً، إذ الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم، وتمزق أعصابهم وشرايينهم، لتخرج أرواحهم من أعماق أجسادهم، ثم يبشرونهم بعذاب الحريق.

وكل ذلك بما كسبت أيديهم، فالله تعالىٰ ليس بظلام للعبيد.

وهؤلاء المكذبون من قريش قد سلكوا مع نبيّهم محمد ﷺ ما سلكت الأمم من قبلهم مع رسلها، فدمرهم الله بذنوبهم إنه قوي شديد العقاب.

فإنَّ من سنته سبحانه في عباده أن لا يغير نعمة أو يزيلها عن عباده حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، فها هي قريش قد كذبت بمحمد ﷺ، فأخرجه من بين ظهرانيهم وأنعم به على الأنصار، وكذلك كل نعمة تدوم بالشكر وتزول بالكفر، والله سميع عليم.

وهذا كصنع الله تعالىٰ بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، فأهلكهم بذنوبهم وسلبهم الجنات والعيون، والزروع والمقام الكريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم سبحانه بل كانوا هم الظالمين.

إن شرّ ما دبّ على الأرض عند الله الذين كفروا وكذبوا بالحق وهم يعلمون. والذين ينقضون العهود في كل مرة ويخونون ولا يخافون.

فإما ظفرت بهم في الحرب ـ يا محمد ـ فنكِّلْ بهم ليكونوا عبرة لمن خلفهم على مدار الزمان، وهو أمر من باب أوْلىٰ إلى الأئمة من بعد النبي ﷺ والخلفاء والحكام، وإما شعرت من قوم آخرين رائحة الغدر فانهض إليهم قبل أن يستفحل أمرهم وَأَظْهِرْ لهم معرفتك بغدرهم والله لا يحب الخائنين.

لا يحسبن الذين كفروا أنهم قد أفلتوا وفاتوا بل هم يَنْتَظِرُهُم خزي الدنيا من القتل والسبي والتشريد ، ثم هم في الآخرة لا يعجزون.

فقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ .

أي: ولو عاينت يا محمد هول ما يكون ، وفظاعة ما ينزل بالكفار عند الاحتضار ، حين يتوفىٰ الملائكة أرواحهم ويبشروهم بعذاب الحريق.

قال مجاهد: (﴿ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ قال: وأستاههم ، ولكن الله كريم يَكْني).

وقال أيضاً: (أستاههم ، يوم بدر).

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: (إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ، ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولّوا ، أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم).

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم من حديث البراء ـ في احتضار الكافر ـ قال رسول الله ﷺ: [ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه ، فيقول: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال: فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السّفود الكثير الشعب من الصوف المبلول ، فتقطع معها العروق والعصب ، فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء. . .] الحديث[1].

وقوله: ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ . أي: تقول ذلك لهم الملائكة مبشرين لهم بالنار ، وبالغضب من الجبار ، على ما أسرفوا على أنفسهم وأقوامهم وألحقوا بهم من الشقاء والدمار.

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ: [فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغسّاق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ تخرج][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 287 ـ 288) ، (4/ 295 ـ 296) ، وأبو داود في السنن (2/ 281) ، والحاكم (1/ 37).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (4262) بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر تخريج الترغيب (4/ 188 ـ 189) ، وكذلك صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1964) ـ وهو جزء من حديث طويل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

أي هذا العذاب لكم عند الاحتضار، والبشرىٰ بصلي النار، هو بسبب ما اجْتَرَحْتُم من الآثام والجرائم والأوزار، فإن الله لا يظلم أحداً أبداً وهو الحكيم الجبار.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر، عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا..

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه](1).

وفي صحيح أبي داود والنسائي عن هانئ بن يزيد، عن النبي ﷺ قال: [إن الله هو الحَكَمُ، وإليه الحُكمُ](2).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قال مجاهد: (﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، كفعل آل فرعون، كسُنَنِ آل فرعون).

أي: سلك هؤلاء المكذبون من مشركي قريش مع نبيهم محمد ﷺ إذ كذّبوه، كما سلكت الأمم الماضية المكذبة مع رسلها وأنبيائها فأهلكهم الله بذنوبهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يغلبه غالب، ولا يقف أمام قدرته أحد، ولا يرد قضاءه راد، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تمرد على طاعته وتكبر عن أمره ورسله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

هذه سنة عظيمة من سنن الله عز وجل في خلقه، فإن الله تبارك وتعالىٰ لا يغيِّر نعمة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2577)، والبخاري في «الأدب المفرد» (490)، والترمذي في الجامع (2495)، وابن ماجة في السنن (4257)، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160)، وابن حبان (619) من حديث أبي ذر مطوّلاً.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955)، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (4145)، وصحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (1841).

أنعمها على قوم إلا بما يكون منهم من التجرؤ على الذنوب والآثام ، ومعصية أوامر الرحمان.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: 11].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: 30].

أخرج الطبراني في «المعجم الصغير» بسند حسن عن البراء بن عازب مرفوعاً: [ما اخْتَلَجَ عِرْقٌ ولا عَيْنٌ إلا بِذَنْبٍ ، وما يَدْفَعُ الله عنه أكثرُ][1].

قال السدي: (﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، يقول: «نعمة الله» ، محمد ﷺ ، أنعم به على قريش ، وكفروا ، فنقله إلى الأنصار).

وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . أي: يسمع كل ناطق بخير أو شر ، ويعلم السر وأخفىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير في التفسير: (أي: كَصُنْعِهِ بآل فرعون وأمثالهم حين كَذَّبوا بآياته ، أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون ، وزروع وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك ، بل كانوا هم الظالمين).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: إن شر ما دبّ على الأرض عند الله ، الذين كفروا بربهم ، فَجحدوا وحدانيته ، وعبدوا غيره ، ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، يقول: فهم لا يصدِّقون رُسلَ الله ، ولا يقرّون بوحيه وتنزيله).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (رقم 1053) من حديث البراء بن عازب مرفوعاً ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2215).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

قال القرطبي: (أي لا يخافون الانتقام. «ومن» في قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ للتبعيض، لأن العهد إنما كان يجري مع أشرافهم ثم ينقضونه. والمعني بهم قُريظة والنضير، في قول مجاهد وغيره. نقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح، ثم اعتذروا فقالوا: نسينا، فعاهدهم عليه السلام ثانية فنقضوا يوم الخندق).

قلت: والآية عامة في وصف كل من نقض العهد بعد توكيده، وخان المواثيق بعد عقدها، فهي تنطبق على اليهود، والأعراب من لصوص الصحراء الذين كانوا يمكرون ويخونون العهود مع النبي ﷺ، وكذلك على المنافقين وأمثالهم في كل زمان.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: فإذا ظفرت بهم في الحرب وظهرت عليهم فنكِّلْ بهم وأغلظ في إيلامهم، ليكونوا عبرة لمن سواهم من الأعداء، وإنذاراً لمن بعدهم من الخونة والعملاء.

قال ابن عباس: (﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، يعني: نكِّل بهم من بعدهم).

أو قال: (نكِّل بهم من وراءهم).

وقال قتادة: (عظْ بهم من سواهم من الناس).

وقال السدي: (نكِّل بهم من خلفهم، مَنْ بعدهم من العدو، لعلهم يحذرون أن ينكثوا فتصنع بهم مثل ذلك).

وقال سعيد بن جبير: (أنذر بهم من خلفهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

قال القاسمي: (بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد، إثر بيان الناقضين له بالفعل. و«الخوف» مستعار للعلم. أي: وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتي، بما لاح لك منهم من دلائل الغدر، ومخايل الشر ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: فاطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على طريق مستوٍ قصدٍ، بأن تظهر لهم النقض، وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد، كي لا يكون من قِبَلِكَ شائبة خيانة أصلاً، وإن كانت في مقابلة خيانتهم) انتهىٰ.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن سليم بن عامر ـ رجل من حمير ـ قال: [كان بين معاوية ، وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ، حتىٰ إذا انقضىٰ العهد غزاهم ، فجاء رجل على فرس أو بِرْذَوْن وهو يقول: الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة. فأرسل إليه معاوية فسأله ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كانَ بينه وبين قوم عَهْدٌ فلا يَشُدُّ عُقدَةً ، ولا يَحُلُّها حتىٰ ينقضِيَ أَمَدُها أو يَنْبِذَ إليهم على سواء» فرجع معاوية][1].

واتفق الشراح على أن هذا الحديث عام في جميع العقود بين المتحاربين . وهو بين المتعاملين من المسلمين أوثق وآكد.

وقد أفاد أبو السعود: أن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ ، إما باعتبار استلزامه النهي عن مناجزة القتال ، لكونها خيانة ، فيكون تحذيراً له ﷺ منها ، وإما باعتبار استتباعه للقتال ، فيكون حثّاً له ﷺ على النبذ أولاً ، وعلى قتالهم ثانياً ، كأنه قيل: وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ، ثم قاتلهم ، إن الله لا يحب الخائنين ، وهم من جملتهم ، لما علمت من حالهم.

وقد فصّل ذلك شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير بقوله ـ: (﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ ، يقول: فناجزهم بالحرب ، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد نسخت العهد بينك وبينهم ، بما كان منهم من ظهور أمار الغدر والخيانة منهم ، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب ، فيأخذوا للحرب آلتها ، وتبرأ من الغدر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ، الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبين أن يغدر به فيحاربه ، قبل إعلامه إياه أنه له حرب ، وأنه قد فاسخه العقد).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ .

أي: لا يظنن الذين كفروا وغدروا أنهم قد أفلتوا من الظفر بهم ، فهم وإن فاتوا ، فإنهم لا يفلتون من عقاب الله يوم القيامة ، بل ربما أمكن منهم بالقتل والتشريد والخزي في الدنيا ، ثم يَنْتَظِرُهُم انتقام الله الشديد منهم في الآخرة.

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2759) ـ باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه ـ ، وانظر صحيح أبي داود (2397) ، وأخرجه الترمذي (1580) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (8732) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 111 ، 113) ، والبيهقي (9/ 231) ، وغيرهم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: 4].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: 57].

4 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196 ـ 197].

وفي السنة الصحيحة: إخبار من النبي ﷺ عن حال العتاة الطغاة وشدة ندمهم وبكائهم.

فقد أخرج ابن ماجة والحاكم ـ واللفظ له ـ عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: [إن أهل النار ليَبْكون، حتىٰ لو أُجْرِيت السُّفُنُ في دموعهم، لجرت، وإنهم ليبكون الدَّمَ ـ يعني ـ مكان الدمع][1].

ولفظ ابن ماجة من حديث أنس مرفوعاً: [يُرسَلُ البكاء على أهل النار فيبكون حتىٰ تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتىٰ يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيه السفن لجرت].

60 ـ 63. قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 605)، واللفظ بعده أخرجه ابن ماجة (4324)، باب صفة النار، وكذلك ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (ق 12/ 1). وانظر السلسلة الصحيحة (1679).

ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ عباده المؤمنين بالإعداد لأعدائهم من جميع أنواع القوة وآلات الحرب وما يكون فيه كسر شوكة الكفر في الأرض، والاهتمام بالخيل التي تربط في سبيل الله، فإنها لا تزال تحمل الخير للأمة إلى يوم القيامة: في الأجر والغنيمة، وكل ذلك كي تخزوا عدو الله وعدوكم، وترهبوا المنافقين الذين يتخللون بينكم، الله يعلمهم، وما تنفقوا في أعمال الجهاد والخير من نفقة فأجر ذلك عند الله كبير وأنتم لا تظلمون.

وإن جنح الأعداء للصلح والمهادنة ورأىٰ إمام المسلمين في ذلك مصلحة فليصالح وليتوكل على الله السميع العليم.

وإن أرادوا بذلك خدعة ومكراً فقد أيد الله نبيّه من قبل بالمهاجرين والأنصار، وألف بين قلوبهم، وقطع الحرب بين الأوس والخزرج بنور الإيمان، وبنبيه عليه الصلاة والسلام، ولو أنفقت أموال الدنيا بغير ذلك ما كان لهم أن يتحابوا، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم.

فعن عكرمة: (قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾، قال: الحصون).

وقال السدي: (من سلاح).

قلت: بل كل أنواع القوة داخل في مفهوم الأمر بالإعداد، فإن الحرب خدعة.

قال ابن جرير: (فليس في الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة،...، ومن القوة أيضاً السيف والرمح والحربة وكل ما كان معونة على قتال المشركين).

فيكون تأويلُ قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾، كما قال ابن كثير: (أمر تعالىٰ بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾، أي: مهما أمكنكم).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: [سمعت رسول الله ﷺ،

وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إنَّ القُوَّة الرَّمْيُ ، ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ ، ألا إن القوة الرَّمْيُ][1].

فجعل عليه الصلاة والسلام الرمي وإتقان التسديد من أعلى مراتب القوة.

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث كثيرة تحث على الرمي والجاهزية القتالية وإحكام التسديد لإصابة الهدف ، بل عدّ ذلك من اللهو المستحب.

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن شُماسَةَ ، أنَّ فُقَيْماً اللَّخْمِيَّ قال لعقبة بن عامر: تَخْتَلِفُ بينَ هٰذين الغَرَضَيْن ، وأنت كبير يَشُقُّ عليك ، قال عقبة: لوْلا كلامٌ سمِعْتُهُ من رسول الله ﷺ ، لمْ أُعَانِيه ، قال الحارث ـ أحد الرواة ـ فقلت لابن شُمَاسَةَ: وما ذاك؟ قال: إنه قال: [مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثم تَرَكَهُ ، فليس منا ، أو قد عصىٰ][2].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: [ارموا واركبوا ، وأن ترموا خيرٌ من أن تركبوا][3].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي نجيح السلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة ، فبلغت يومئذ عشرة أسهم ، وسمعته يقول: من رمىٰ بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة][4].

وله شاهد عِند ابن ماجة من حديث عمرو بن عبسة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ رَمَىٰ العدوَّ بسهم ، فَبَلَغَ سَهْمُهُ العدوَّ ، أصاب أو أخطأ ، فيعْدِلُ رقبةً].

الحديث الرابع: أخرج النسائي في «كتاب عشرة النساء» والطبراني في «المعجم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1917) ، وأحمد في المسند (4/ 157) ، وأبو يعلىٰ (1743) ، وأبو داود في السنن (2514) ، وأخرجه ابن ماجة (2813) ، والترمذي (3083) ، والطبري (16241) من حديث عقبة بن عامر.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1919) ـ كتاب الإمارة ـ باب فضل الرمي والحث عليه ، وذم من علمه ثم نسيه ، وقوله «أعانيه» في معظم النسخ ـ هكذا بالياء ـ وفي بعضها «لم أعانه» بحذفها وهو الأفصح ، ولكن الأول لغة معروفة أيضاً تفيد تأكيد المعاناة ومشقة الإعداد.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 148) ، والحاكم (2/ 95) ، وأبو داود (2513) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (4420) ، وانظر صحيح سنن النسائي (2947) ، باب ثواب من رمىٰ بسهم في سبيل الله.

(4) حديث صحيح. انظر تخريج المشكاة (3873) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6002) ، وانظر للشاهد صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (2268).

الكبير» بسند صحيح عن عطاء بن أبي رباح قال: رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصاريين يرتميان، فمل أحدهما فجلس، فقال له الآخر: كسلت؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو (لغو، و) لهو أو سهو إلا أربع خصال: مشي الرجل بين الغرضين، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعلم السباحة][1].

وقوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

قال النسفي: (﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ هو اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، أو هو جمع ربيط كفصيل وفصال، وخصّ الخيل من بين ما يتقوىٰ به كقوله جبريل وميكال).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، قال: تخزون به عدو الله وعدوكم).

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث كثيرة في آفاق هذا المعنى:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر مرفوعاً: [الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة][2].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عروة البارقي مرفوعاً: [الإبل عِزٌّ لأهلها، والغنم بركة، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة][3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في «التاريخ» بسند جيد عن سوادة بن الربيع عن النبي ﷺ قال: [عليك بالخيل فارتبطها، الخيل معقودٌ في نواصيها الخير][4].

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [الخيل لثلاثة: لرجل أجْر، ولِرَجُلٍ سِتْرٌ، وعلى رجل وِزْرٌ، فأما الذي له أَجْرٌ فرجُلٌ ربطها في سبيل الله فأطالَ في مرْجٍ أو رَوْضَةٍ فما

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «كتاب عشرة النساء» (ق 74/ 2)، والزيادة له، والطبراني في «المعجم الكبير» (1/ 89/ 2)، ورجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (315).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2849) ـ كتاب الجهاد والسير ـ. وانظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1873) ـ كتاب الإمارة ـ.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2305)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (4/ 1614) بسند صحيح.

(4) أخرجه البخاري في «التاريخ» (2/ 2/ 184) من حديث سوادة بن الربيع، وأحمد في المسند (3/ 484)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1936).

أصابت في طِيَلِها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حَسَنات ، ولو أنها قَطَعَت طِيَلَها فاستَنَّتْ شرفاً أوْ شَرَفينِ كانت أرواثُها وآثارها حسناتٍ له ، ولو أنها مَرَّت بِنَهْرٍ فَشربت منه ولم يُرِدْ أن يَسقِيَها كان ذلك حسناتٍ له ، وأما الرجل الذي هي عليه وِزْرٌ فهو رَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْراً ورياءً ونِواءً لأهل الإسلام فهيَ وِزْرٌ على ذلك][1].

وقوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾.

قال مجاهد: (من بني قريظة). وقال السدي: (هؤلاء أهل فارس).

وقال ابن زيد: (هؤلاء المنافقون ، لا تعلمونهم لأنهم معكم ، يقولون لا إله إلا الله ، ويغزون معكم).

وقيل: هم قوم من الجن ، وإن صهيل الخيل يرهب الجن ، وأن الجن لا تقرب داراً فيها فرس.

واختار ابن كثير قول ابن زيد أنهم المنافقون.

قال: (وهذا أشبهُ الأقوال ، ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ ﴾ [التوبة: 101]).

قلت: وهذا تفسير قوي يناسب السياق والنصوص.

وقوله: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

قال ابن إسحاق: (أي: لا يضيع لكم عند الله أجرُهُ في الآخرة ، وعاجل خَلَفه في الدنيا).

أي: كل ما أنفقتم في سبيل الله ـ في الجهاد وأسباب القوة والتمكين ـ فإنه ينالكم أجره على التمام والكمال ، ويضاعف الله الأجر أضعافاً مضاعفة لمن يشاء.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: [من أنْفَقَ نَفَقَةً في سبيل الله كُتِبَتْ له سَبْعُ مئة ضِعف][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2860) ـ كتاب الجهاد والسير ـ ، وأخرجه مسلم (987) ، والنسائي (6/ 216 ـ 217) ، ومالك (2/ 444) ، وابن حبان (4672) ، والبيهقي (4/ 119).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1691) ـ في أبواب فضائل الجهاد ـ باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله عز وجل ، وانظر صحيح سنن الترمذي (1326) ، وصحيح الجامع (5986).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قال السدي: (يقول: وإن أرادوا الصلح فأرده).

وقال ابن إسحاق: (أي: إن دعوك إلى السلم ـ إلى الإسلام ـ فصالحهم عليه).

قال ابن زيد: (﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾، قال: فصالحهم. قال: وهذا قد نسخه الجهاد).

وبنحوه قال قتادة: (﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ ﴾، قال: للصلح، ونسخها قوله: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾).

قلت: والحق أنه لا دليل على نسخ الآية، فإن آية براءة في الإجهاز على الشرك ومشركي العرب من عبدة الأوثان وعدم قبول الجزية منهم، بعدما استقر الإسلام وقامت دولة الحق في أرجاء الدنيا، وعلى هذه الوصية مات رسول الله ﷺ.

وأما آية الأنفال ـ موضع التفسير ـ ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ فإنه يمكن للإمام قبول الصلح والمهادنة أثناء قتاله وحربه لأعداء الإسلام، إن أظهروا المسالمة والمصالحة والمهادنة والتروي، إن رأىٰ ذلك بحكمته لمصلحة إسلامهم أو لمصلحة جيشه وتقويته لاستئناف مناجزتهم.

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ عام الحديبية فصالح القوم ووضع الحرب بينه وبينهم بحكمته، وكل ذلك يرجع إلى قرار الإمام.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إنما الإمام جُنَّـةٌ، يقاتَلُ مِنْ وَرَائِه، ويُتَّـقىٰ به، فإنْ أمَرَ بتقوىٰ الله عز وجل وعَدَلَ، كان له بذلك أجْرٌ، وإنْ يأمُرْ بغيره، كان عليه مِنْه][(1)].

وعن ابن إسحاق: (﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾، إن الله كافيك) ـ والخطاب للنبي ﷺ.

قال النسفي: (﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم، فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالك ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1841) ـ كتاب الإمارة ـ باب: الإمام جُنَّةٌ يقاتل من ورائه ويتقىٰ به.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قال مجاهد: (﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، قال: قريظة).

وقال ابن إسحاق: (﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، هو من وراء ذلك).

وعن السدي: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾، قال: بالأنصار).

وقال ابن جرير: (﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يعني بالأنصار).

وقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

قال السدي: (﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، قال: هؤلاء الأنصار، ألف بين قلوبهم من بعد حرب، فيما كان بينهم).

وقال ابن إسحاق: (﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، على الهدىٰ الذي بعثك به إليهم، ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، بدينه الذي جمعهم عليه، يعني الأوس والخزرج).

فالآية في الأنصار[1]، وما كان بينهم من حروب مستعرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وتسلسل من أعمال الثأر والانتقام والشر، ما تَوَقَّفَ بينهم إلا بنور الإيمان، وهداية الرحمن، على يد خير الأنام، محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي التنزيل: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

أخرج الإمام أحمد وابن إسحاق بسند صحيح من حديث أبي سعيد الخدري ـ في قسمة غنائم حنين وَوَجْد بعض الأنصار في نفوسهم إذْ قسم النبي ﷺ للمتألفين من قريش وسائر العرب دونهم ـ: [فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنىٰ

(1) وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار، والمعنىٰ متقارب. وقيل: ينسحب ذلك على المتحابين في الله.
قال ابن عباس: (قرابةُ الرّحم تُقطَعُ، ومِنَّةُ النعمة تُكفَرُ، ولم يُرَ مثل تقارُبِ القلوب، يقول الله تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾) ـ رواه الحاكم.

عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار! ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلىٰ. وفي رواية: قالوا: الله ورسوله أمَنُّ وأفضل][1].

ورواه البخاري من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم قال: [لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلَّفة قلوبُهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: يا معشرَ الأنصار ألم أَجِدْكُمْ ضُلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنُّ. .] الحديث[2].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عزيز الجناب، لا يقهره شيء، وأمره نافذ فلا راد لقضائه، حكيم في تدبير شؤون خلقه، وفي جميع أقواله وأفعاله وقدره وشرعه.

64 ـ 66. **قوله تعالىٰ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٦٦)﴾.

في هذه الآيات: يأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ وأصحابه بمناهضة الأعداء والله كافيهم ومؤيدهم بنصره وتمكينه، ويأمر نبيه بتحريض المؤمنين على قتال المشركين واقتحام الأهوال، فإنه يُفْتَرَضُ أن يثبت المؤمن أمام عشرة من الكفار لأنهم قوة خائرون، قد فسدت نياتهم وأعمالهم وعزائمهم، وجعل الله في قلوبهم الرعب والخوف على الدنيا.

ثم جاء التخفيف من الله سبحانه فوجب أن لا يفر المؤمن من رجلين من الكفار،

---

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (3/ 76 ـ 77)، (3/ 89، 246، 249)، وكتابي: السيرة النبوية على منهاج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (3/ 1408 ـ 1413)، لمزيد من الروايات.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4330) ـ كتاب المغازي ـ باب غزوة الطائف من حديث عبد الله بن زيد، في أثناء حديث طويل.

ولا يفر ألف من ألفين ، فإنهم إن صبروا وصمدوا لهم غلبوهم بإذن الله .

فقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال الشعبي : (حسبك الله ، وحسب من معك) . أو قال : (حسبك الله ، وحسب من شهد معك) .

وقال ابن زيد : (قال : يا أيها النبي حسبك الله ، وحسب من اتبعك من المؤمنين ، إن حسبك أنت وهم ، الله) .

قال ابن جرير : (يقول لهم جل ثناؤه : ناهضوا عدوكم ، فإن الله كافيكم أمرهم ، ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم ، فإن الله مؤيدكم بنصره) .

قلت : والحَسْب في كلام العرب الكافي .

قال الرازي : (و﴿ حَسْبُكَ ﴾ دِرْهم أي كفاك) .

وفي المسند ومعجم الطبراني بسند حسن عن سعيد بن زيد ، أن رسول الله ﷺ قال : [سيكون بعدي فتن يكون فيها ، ويكون . فقلنا : إن أدركنا ذلك هلكنا ، قال : بحسب أصحابي القتل](1) .

وقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ .

أي حُثّ أصحابك ومتبعيك على قتال المشركين الذين يصدون عن سبيل الله وذمِّرهم على ذلك .

قال النسفي : (التحريض المبالغة في الحث على الأمر ، من الحرض ، وهو أن ينهكه المرض حتىٰ يشفىٰ على الموت) .

وقد حفلت السنة الصحيحة بألوان من التحريض من رسول الله ﷺ لأصحابه على اقتحام الأهوال وإنزال الخزي والقتل في رقاب المشركين ، ومن ذلك :

الحديث الأول: في أثناء معركة بدر .

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : [فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جَنّـة عرضها السماوات والأرض ، قال : يقول عمير بن

---

(1) إسناده حسن . أخرجه أحمد (1/ 189) ، ورواه الطبراني بأسانيد ، رجال أحدها ثقات ، ورواه البزار كذلك ـ كما ذكر الهيثمي ـ في «المجمع» (7/ 223) . وانظر : «الصحيحة» (1346) .

الحمام الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله جَنّةٍ عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلاّ رجاءة أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تَمَرات من قَرَنِهِ[1] فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حَيِيتُ حتىٰ آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمىٰ بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتىٰ قتل][2].

الحديث الثاني: قبل اقتحام معركة أحد.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثابت، عن النبي ﷺ: [أنه أمسك يوم أحد بسيف ثم قال: من يأخذ مني هذا؟ فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا. قال: من يأخذه بحقه؟ قال: فأحجم القوم. فقال: أبو دجانة: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق به هام المشركين][3].

الحديث الثالث: قبيل غزوة تبوك.

أخرج البخاري في صحيحه عن عثمان رضي الله عنه: [أن النبي ﷺ قال: من جَهَّزَ جَيْشَ العسرة فله الجنة. قال: فجهَّزتُـهُ][4].

وقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

قال عطاء: (﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾، قال: كان الواحد لعشرة، ثم جعل باثنين، لا ينبغي له أن يفرّ منهما).

وقال الضحاك: (كان هذا واجباً: أن لا يفر واحد من عشرة).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: (لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعْظَموا أن يقاتل عشرون مئتين، ومئة ألفاً، فخفَّفَ الله عنهم. فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ

---

(1) أي جعبة النشاب.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1901) ـ كتاب الإمارة ـ.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2470) ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل أبي دجانة، من حديث ثابت مرفوعاً.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2778) ـ كتاب الوصايا ـ. وانظر مسند أحمد (5/ 63)، من حديث عثمان رضي الله عنه.

فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ . . الآية ، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عَدُوهم لم يَنْبَغِ لهم أن يَفِرُّوا من عدوِّهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم ، وجاز لهم أن يتحوَّزوا عنهم).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: [لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ ، شقَّ ذلك على المسلمين حين فُرض عليهم أنْ لا يَفرَّ واحِدٌ من عَشرة ، فجاء التخفيفُ فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾][1] .

قال ابن عباس: (فلما خفف الله تعالىٰ عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم)[2] .

وقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ . قال ابن إسحاق: (أي: لا يقاتلون على نِيَّةٍ ولا حقٍّ فيه ، ولا معرفة بخير ولا شر).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ .

قال مجاهد: (كان فرض عليهم إذا لقي عشرون مئتين أن لا يفروا ، فإنهم إن لم يفرّوا غَلَبوا. ثم خفف الله عنهم فقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ، فيقول: لا ينبغي أن يفرَّ ألف من ألفين ، فإنهم إن صبروا لهم غلبوهم).

67 ـ 69. قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ نبيّه ﷺ وأصحابه المؤمنين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4653) ـ كتاب التفسير ـ سورة الأنفال ، الآية (66).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2646) ـ باب في التولي يوم الزحف ـ. انظر صحيح أبي داود (2305) ، وكذلك أخرجه البخاري في إثر الحديث السابق (4653) من كتاب التفسير.

الدين ، عن سنة قضاها بين أوليائه وأعدائه ما ينبغي للمؤمن أن يغفل عنها ، وهي أن أئمة الكفر يجب قتلهم وتخليص الأرض من رجسهم ، وأن أسرىٰ المشركين ينبغي أن ينزل بهم القتل حتىٰ لا تكون لهم رجعة ، ومن ثم فإن غير ذلك هو من عرض الحياة الدنيا والله عزيز حكيم.

لولا ما سبق في كتاب الله من عفوه عن أهل بدر وإحلاله لهم الغنائم لنزل بهم فيما جَنَوْه على أنفسهم من قرار في الأسرىٰ عذاب عظيم.

ولكن إذا أخذتم الدرس واستفدتم من العتاب فانعموا بالغنائم وكلوا منها حلالاً طيباً واحرصوا على مرضاة ربكم وهو الغفور الرحيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أخرج الحاكم بسند صحيح على شرط مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: [استشار رسول الله ﷺ في الأسارىٰ أبا بكر فقال: قومك وعشيرتك فخلّ سبيلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، قال: ففداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾. قال: فلقي النبي ﷺ عمر رضي الله عنه فقال: كاد يصيبنا بلاء في خلافك][1].

وأخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث عمر قال: [.. فلما كان يومئذ والتقوا فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم، فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرىٰ أن تأخذَ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار وعسىٰ أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله ﷺ: ما ترىٰ يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: والله ما أرى ما رأىٰ أبو بكر، ولكن أرىٰ أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضربَ عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضربَ عنقه، حتىٰ يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 329) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه، وقال الذهبي: على شرط مسلم. وروىٰ أحمد وأبو داود ومسلم نحوه. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأنفال، آية (67).

وقادتهم.. قال: فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء.

فلما كان الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان! فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما! فقال رسول الله ﷺ: [للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء!! قد عُرِضَ عليَّ عذابكم أدنىٰ من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة ـ وأنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾][1].

قال سعيد بن جبير: (إذا أسرتموهم فلا تفادوهم حتىٰ تثخنوا فيهم القتل).

وقال مجاهد: (الإثخان: القتل).

وقال ابن إسحاق: (أي يثخن عدوه حتىٰ ينفيهم من الأرض، ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي المتاع والفداء بأخذ الرجال. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ بقتلهم، لظهور الدين الذي يريدون إطفاءه، الذي به تدرك الآخرة).

قال ابن جرير: (﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، يقول: إن أنتم أردتم الآخرة، لم يغلبكم عدوٌّ لكم، لأن الله عزيز لا يقهر ولا يغلب، وأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره أمر خلقه).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فيه سببان صحيحان من أسباب النزول:

السبب الأول: أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن خيثمة قال: [كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر فذكروا علياً فشتموه فقال سعد: مهلاً عن أصحاب رسول الله ﷺ، فإنّا أصبنا ذنباً مع رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. فأرجو أن تكون رحمة من عند الله سبقت لنا][2].

السبب الثاني: أخرج الإمام أحمد والطيالسي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [لما كان يوم بدر تعجل الناس إلى الغنائم فأصابوها. فقال رسول الله ﷺ: إن الغنيمة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 30 ـ 31) من حديث عمر رضي الله عنه، وبنحوه رواه مسلم (1763) ـ كتاب الجهاد ـ.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم وقال على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأنفال، آية رقم (68)، وإسناده صحيح.

لا تحل لأحد سود الرؤوس غيركم ، وكان النبي ﷺ وأصحابه إذا غنموا غنيمة جمعوها ونزلت نار فأكلتها ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾][1] .

قال ابن جرير : (قوله : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ ، بأن الله مُحِلٌّ لكم الغنيمة ، وأن الله قضىٰ فيما قضىٰ ألا يُضِلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتىٰ يبيِّنَ لهم ما يتقون ، وأنه لا يعذب أحداً شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصراً دينَ الله ، لنالكم من الله بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب عظيم) .

فاشتملت الآية على المعاني الآتية :

1 ـ قضاء الله عز وجل في اللوح المحفوظ ألا يعذب أهل بدر .

2 ـ قضاء الله تعالىٰ ألا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتىٰ يبين لهم ما يتقون .

3 ـ قضاء الله سبحانه الذي سبق بإحلال الغنيمة لأهل بدر ولهذه الأمة .

قال ابن عباس : (وكانت الغنائم قبل أن يبعث النبي ﷺ في الأمم إذا أصابوا مغنماً جعلوه للقربان وحرم الله عليهم أن يأكلوا منه قليلاً أو كثيراً) .

وقال الحسن : (وكان الله تبارك وتعالىٰ قد كتب في أم الكتاب : المغنم والأسارىٰ حلال لمحمد وأمته ، ولم يكن أحله لأمة قبلهم) .

وفي كنوز السنة الصحيحة آفاق هذا المعنى ، في أحاديث :

الحديث الأول : في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [فُضِّلْتُ على الأنبياء بست : أُعْطِيتُ جوامعَ الكلم ، ونُصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة ، وخُتِمَ بي النبيون][2] .

الحديث الثاني : يروي الطبراني بسند صحيح عن السائب بن يزيد قال : قال رسول الله ﷺ : [فضلتُ على الأنبياء بخمس : بُعِثْتُ إلى الناس كافة ، وادخرت شفاعتي لأمتي ، ونصرت بالرعب شهراً أمامي وشهراً خلفي ، وجُعلت لي الأرض

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد ، وأبو داود الطيالسي في مسنده (2/ 19) ، وانظر المرجع السابق .
(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في «صحيحه» ـ حديث رقم ـ (523) ـ كتاب الصلاة ـ .

مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي][1] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه من حديث علي ، أن النبي ﷺ قال: [لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم][2] .

ورواه مسلم بلفظ: [لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم].

ثم إنه سبحانه قد عفا عنهم وتجاوز برحمته وكرمه عما اعتراهم فقال: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

70 ـ 71. **قوله تعالىٰ**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ذكره مخاطباً نبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الأسرىٰ الذين أمسك الله بهم وأمكنك منهم ، إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء ، ويصفح عنكم جُرْمكم أن قاتلتم نبي الله وأصحابه وكفرتم وأشركتم ، وإن يريدوا غدراً وخداعاً بالقول فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم المؤمنين ببدر ، فإن الله محيط بهم لا محالة ، ولا يفلت منه أحد.

قال القرطبي: (﴿ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرًا ﴾ أي إسلاماً. ﴿ يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ ﴾ أي من الفِدية ، قيل في الدنيا ، وقيل في الآخرة).

وقد تباين فداء الأسرىٰ وتفاوت حسب حالهم ، وضيقهم وسعتهم ، فمن كان منهم ذا مال فقد أخذ منه أربعة آلاف درهم كما يروي الطبراني وغيره ، ومن لم يكن منهم له مال ، فقد جُعِلَ فداؤهم أن يُعَلِّمُوا أبناء الأنصار.

أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن ابن عباس قال: [كان ناس من الأسرىٰ يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة . فجاء

(1) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم (4097) ـ ، ويشهد له ما قبله.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3983) ـ كتاب المغازي ـ ، وروىٰ مسلم نحوه.

يوماً غلام يبكي إلى أبيه فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي. قال: الخبيث يطلب بِذَحْلٍ ـ أي بثأر ـ بدر، والله لا تأتيه أبداً][1].

ومع ذلك فقد عاملهم رسول الله ﷺ معاملة طيبة، عسىٰ أن يترك ذلك أثراً في نفوسهم فتلهف قلوبهم إلى الإسلام، وما كان هَمّ النبي ﷺ أخذ المال قدر ما هَمّهُ إذلال عتاة مكة وكسر شوكة قريش وكبريائها، وذلك فقد صرح عليه الصلاة والسلام معترفاً للمطعم بن عدي بفضل سابق أنه لو كان حياً لدفعهم إليه.

يروي البخاري في صحيحه عن محمد بن جبير عن أبيه: [أن النبي ﷺ قال في أسارىٰ بدر: لو كان المُطْعِمُ بن عَديٍّ حَيّاً ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له][2].

وقد أخذ النبي ﷺ الفداء من عمه العباس مثل غيره، وأبىٰ شفاعة أحد به أو وساطة، مع أنه أخبر أنه كان يكتم إسلامه.

يروي البخاري عن أنس: [أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فَلْنَتْرُكْ لابن أُخْتنا عباس فداءَه، قال: «والله لا تذرون منه درهماً»][3].

وفي ذلك قمة الإنصاف والعدل، فالكل تحت حكم الله، ولا أحد يرفع رأسه ليتجاوز أو يشفع في دولة الحق، وهذا سرّ قوة الإسلام ودولته، فإن العباس وإن كان كما قيل قد خرج مكرهاً ولكنه عليه أن يواجه ضريبة تكثير سواد المشركين على المسلمين، فدفع يومئذ مئة أوقية، ودفع عقيل ثمانين أوقية، في حين دفع غيرهم أربعين أوقية كما فصّل ذلك الحافظ في الفتح وغيره من أهل السير.

وأما العاص بن الربيع زوج زينب بنت النبي ﷺ ورضي الله عنها، فقد كان ضمن الأسرىٰ، فأرادَتْ زينب أن تفديه بقلادتها ومالها، فَعَزَّ ذلك على المسلمين أن تبذل زينب مالها وهي مسلمة لا ذنب لها، فأطلقوا أسيرها.

فقد أخرج أبو داود والحاكم بسند حسن من حديث عائشة قال: [لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رِقّةً شديدة

(1) أخرجه أحمد في المسند (47/4)، والحاكم (2/ 140) بإسناد يرقىٰ للحسن.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4024) ـ كتاب المغازي. وانظر (3139) ـ كتاب فرض الخمس.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4018) ـ كتاب المغازي. وانظر: كتاب السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ـ بحث 34 ـ (1/ 597 ـ 610) لمزيد من التفصيل.

وقال: إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذي لها؟ فقالوا: نعم. وكان النبي أخذ عليه أوْ وَعَده أن يُخَلّي سبيل زينب إليه..] الحديث[1].

وقوله: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي إن تبتم من شرككم وغَدركم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قال السدي: (يقول: قد كفروا بالله ونقضوا عهده، فأمكن منهم ببدر).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره لنبيه: وإن يرد هؤلاء الأسارىٰ الذين في أيديكم، ﴿ خِيَانَتَكَ ﴾، أي الغدر بك والمكر والخداع، بإظهارهم لك بالقول خلاف ما في نفوسهم، ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾، يقول: فقد خالفوا أمر الله من قبل وقعة بدر، وأمكن منهم ببدر المؤمنين، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾، بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تدبيرهم وتدبير أمور خلقه سواهم).

72 ـ 73. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) ﴾.

في هذه الآيات: تقرير الله تعالىٰ أن المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم والأنصار الذين استقبلوهم أحسن استقبال ونصروا هذا الدين أروع نصر أولئك بعضهم أولياء بعض.

ثم في مقابل ذلك الكافرون المعاندون، أهل الفتنة والمكر، بعضهم أولياء بعض، فإن اختل هذا المنهج الفريد في الولاء والبراء كانت الفتنة في الأرض والفساد الكبير.

فقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (2692)، والحاكم (4306) (3/ 23) من حديث عائشة.

﴿وَنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ الآية. قال ابن عباس: (يعني: في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام، قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾، يقول: مالكم من ميراثهم من شيء، وكانوا يعملون بذلك حتىٰ أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: 75]، [الأحزاب: 6]، في الميراث فنسخت التي قبلها، وصار الميراث لذوي الأرحام).

وذكر ابن جرير أيضاً بسنده إلى ابن عباس قال: (قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يقول: لا هجرة بعد الفتح، إنما هو الشهادة بعد ذلك، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾، وذلك أن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل: منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه في الهجرة، خرج إلى قوم مؤمنين في ديارهم وعقارهم وأموالهم، ﴿و ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، وشهروا السيوف على من كذّب وجحد، فهذان مؤمنان، جعل الله بعضهم أولياء بعض، فكانوا يتوارثون بينهم، إذا توفي المؤمن المهاجر ورثه الأنصاري بالولاية في الدين.

وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر، فبرّأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، وهي الولاية التي قال الله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾.

وكان حقاً على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قاتلوا، إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فلا نصر لهم عليهم، إلا على العدو الذي لا ميثاق لهم.

ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذي رحم برحمه من المؤمنين الذين هاجروا والذين آمنوا ولم يهاجروا، فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيباً مفروضاً بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال: 75]، وبقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: 71]).

أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: [المهاجرون

والأنصار أولياء ، بعضُهم لبعض ، والطلقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف ، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة][1] .

والخلاصـــة :

كان المؤمنون زمن النبوة ثلاثة أصناف :

1 ـ المهاجرون الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم لنصر دين الله وإقامة دينه وبذلوا لذلك أموالهم وأنفسهم .

2 ـ الأنصار ـ أهل المدينة الذين استقبلوا إخوانهم في منازلهم وآووهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض ـ آخىٰ رسول الله ﷺ بينهم ، كل اثنين أخَوان ، يرث أحدهما الآخر ، حتىٰ نسخ الله تعالىٰ ذلك بآية المواريث .

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : [كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رَحِمه ، للأخوة التي آخىٰ النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ نُسخت ، ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ من النصر والرِّفادة والنصيحة ، وقدْ ذهب الميراث ويوصي له][2] .

3 ـ الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل أقاموا بواديهم ، فهؤلاء لا نصيب لهم من المغانم أو الخمس إلا إن حضروا القتال .

وقرأ حمزة : ﴿وِلايتهم﴾ بالكسر ، والباقون بالفتح ، وكلاهما معروف ، كالدِّلالة والدَّلالة .

أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال : [كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش ، أوصاه في خاصَّة نفسه بتقوىٰ الله ومَنْ معه من المسلمين خيراً ، وقال اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدىٰ ثلاث خصال ـ أو : خلال ـ فأَيَّتهنَّ ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكفَّ عنهم . ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكفَّ عنهم . ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين ،

(1) جيد . أخرجه أحمد (4/ 363) ، والطبراني (2284) ، (2302) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (10/ 15) : (رواه أحمد والطبراني بأسانيد ، وأحد أسانيد الطبراني رجاله رجال الصحيح) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4580) ـ كتاب التفسير ـ ، وانظر (2292) ـ كتاب الكفالة ـ .

وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين ، **وأن عليهم ما على المهاجرين** . فإن أبَوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، **يجري عليهم حكم الله** الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبَوا فادعُهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم][1] .

قال ابن جرير (﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، يقول: والله بما تعملون فيما أمركم ونهاكم من ولاية بعضكم بعضاً ، أيها المهاجرون والأنصار ، وترك ولاية من آمن ولم يهاجر ونصرتكم إياهم عند استنصاركم في الدين ، وغير ذلك من فرائض الله التي فرضها عليكم ، ﴿ بَصِيرٌ ﴾ ، يراه ويبصره ، فلا يخفىٰ عليه من ذلك ولا من غيره شيء) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

قال ابن إسحاق: (حض الله المؤمنين على التواصل ، فجعل المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون سواهم ، وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض .

ثم قال: ﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ ، أي: إلا يوالِ المؤمن المؤمن من دون الكافر ، وإن كان ذا رحم به ، ﴿ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ، أي: شبهة في الحق والباطل ، وظهور الفساد في الأرض ، بتولي المؤمن الكافر دون المؤمن ، ثم ردّ المواريث إلى الأرحام) .

وقال ابن جريج: (﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ ، قال: إلا تعاونوا وتناصروا في الدين ، ﴿ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾) .

واختار ابن جرير ذلك بقوله: (معناه: أن بعضهم ـ أي الكفار ـ أنصار بعض دون المؤمنين ، وأنه دلالة على تحريم الله على المؤمن المقامَ في دار الحرب وترك الهجرة) .

وقال ابن كثير: (ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 352) ، وانظر صحيح مسلم (1731) ، ورواه أبو داود (2612) ، والترمذي (1408) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (8586) ، وابن ماجة (2858) .

كَبِيرٌ﴾ ، أي: إن لم تجانبوا المشركين ، وتوالوا المؤمنين ، وإلا وقعت الفتنة في الناس ، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر ، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض).

قلت: والأولىٰ أن يقال أن الآية عامة في الولاية والمواريث ، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض ، فلا نصرة ولا تأييد من المؤمنين للكفار ، بل كل النصرة والموالاة والتأييد والمحبة للمؤمنين ، ولا يرث المؤمن الكافر ولا الكافر المؤمن.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال: [لا يرث المُسْلِمُ الكافِرَ ، ولا الكافرُ المُسلِمَ][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يتوارث أهل ملتين شتّىٰ][2].

وله شاهد عند الحاكم من حديث أسامة ، عن النبي ﷺ قال: [لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ، ولا كافر مسلماً ، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند حسن لطرقه ، عن سمرة بن جندب مرفوعاً: [من جامَعَ المُشْرِكَ ، وسكنَ مَعَهُ ، فإنه مثله][3].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند جيد عن جرير بن عبد الله مرفوعاً: [أنا بريءٌ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6764) ، ومسلم (1614) ، وأبو داود (2909) ، والترمذي (2107) ، وأخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (6372) ، (6374) ، وأحمد (5/ 200) ، والبيهقي (6/ 317) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(2) جيد. أخرجه أبو داود (2911) ، وأحمد (2/ 178 ، 195) ، وابن ماجة (2731) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (6384) ، وانظر للشاهد مستدرك الحاكم (2/ 240) ، وسنده حسن.

(3) حسن لطرقه. أخرجه أبو داود في السنن (2787) ، وبنحوه الحاكم (2/ 141 ـ 142) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2330).

من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا: يا رسول الله: ولم؟ قال: لا تراءىٰ نارُهما][1] .

وله شاهد عند النسائي عن جرير قال: أتيت النبي ﷺ وهو يبايع فقلت: يا رسول الله ابسط يدك حتىٰ أبايعك ، واشترط عليّ فأنت أعلم ، قال: [أبايعك على أن تعبد الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتناصح المسلمين ، وتفارق المشرك].

الحديث الخامس: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوِّجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض][2] .

74 ـ 75. قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: بيان من الله تعالىٰ لرفيع درجات أهل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله ، وكذلك أهل التأييد والنصر ، لتشمل الآية المهاجرين والأنصار ، وَعَدَهُم سبحانه مغفرة ورزقاً كريماً.

ثم بثَّ سبحانه البشرىٰ لمن جاء من بعدهم وسار على منهاجهم أنه سيلحق بهم في المنزلة والشرف ورفيع المراتب ، وجعل التوارث بالنسب بعد أن كان بالأخوة والإيمان ، والله أعلم بمصالح عباده ، وهو بكل شيء عليم.

فقوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾ .

قال النسفي: (لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن

(1) أخرجه الترمذي (2/ 397) ، وانظر مسند أحمد (4/ 365) ، والبيهقي (9/ 12 ـ 13) ، وانظر للشاهد سنن النسائي (2/ 183) ، والبيهقي (9/ 13) ، والسلسلة الصحيحة (636).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي في الجامع (1/ 201) ، وابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (1967) ـ باب الأكفاء ـ ، وأخرجه الحاكم (2/ 165).

ومفارقة الأهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبىٰ).

قلت: ولا تكرار مع الآية قبلها، لأن الأولى بيان لإيجاب التواصل بينهم، والثانية لبيان رفيع درجاتهم وعظيم شرفهم.

وقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. أي: ثواب عظيم في الجنة، ونعيم مقيم لا تنغيص فيه ولا انقطاع.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾.

قال ابن كثير: (ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح، فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: 100].. الآية. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]).

قلت: ويدخل في عموم هذه الآية كل من جاء بعدهم من المؤمنين على مدار القرون المتتابعة وسلك منهاجهم في الإيمان والعمل الصالح، فهو معهم يوم القيامة في الأجر والمنزلة والشرف بإذن الله تعالىٰ.

وقد حفلت السنة الصحيحة بكنوز من الخير في آفاق هذا المعنى، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ قال: [من أحب الأنصار أحبه الله، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله](1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن البراء بن عازب مرفوعاً: [الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله](2).

وفي الصحيح أيضاً: [المرء مع من أحب]. رواه البخاري من حديث ابن مسعود.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (1/ 70)، وانظر مسند أحمد (2/ 501)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (991).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 223)، ومسلم (1/ 60)، وأحمد (4/ 292)، وغيرهم.

يا رسول الله ، كيف تقول في رجل أحبَّ قوماً ولم يَلْحَق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحبَّ][1].

الحديث الثالث: أخرج ابن نصر في «السنة» بسند صحيح عن عتبة بن غزوان ـ وكان من الصحابة ـ أن رسول الله ﷺ قال: [إن من ورائكم أيام الصبر ، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم ، قالوا: يا نبي الله أومنهم؟ قال: بل منكم][2].

وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

أخرج الطيالسي والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: [آخىٰ رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض حتىٰ نزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ، فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب][3].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: إن الله عالم بما يصلح عباده ، في توريثه بعضهم من بعض في القرابة والنسب ، دون الحلف بالعقد ، وبغير ذلك من الأمور كلها ، لا يخفىٰ عليه شيء منها).

تم تفسير سورة الأنفال
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه.

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6169) ـ كتاب الأدب ـ باب علامة الحب في الله ، ورواه مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن نصر في «السنة» (ص 9) ، وله شاهد عند الطبراني في «المعجم الكبير» (3/ 1/76) من طريقين ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (494).

(3) أخرجه الطيالسي والطبراني ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (رجاله رجال الصحيح). وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة الأنفال ، آية (75).

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ رزق هذه الأمة في الجهاد ، والأنفال يقسمها النبي ﷺ والقادة من بعده .
2 ـ المؤمنون توجل قلوبهم لذكر الله ، وهم واثقون بنصر الله وعلىٰ ربهم يتوكلون .
3 ـ القتال كريه إلى النفوس ، ولكن الله جعل فيه عزّ هذه الأمة .
4 ـ الملائكة والريح من جنود الله ، يُنصر بهما المؤمنون .
5 ـ الباطل أعور وقراراته حماقات تنعكس عليه .
6 ـ صلة القائد بالله وأثر الدعاء وقيام الليل في بنائه وصقله وشجاعته .
7 ـ التجسس على العدو جزء من الأخذ بالأسباب الواجب .
8 ـ أثر تواضع القائد المسلم واقترابه من نفوس جنوده .
9 ـ وجوب الإمارة في الحضر والسفر والسلم والحرب .
10 ـ عدم جواز الاستعانة بالمشركين إن لم تكن هناك حاجة ، فإن كان هناك حاجة فلا بد من تميز المسلمين وظهور شوكتهم .
11 ـ إن الذين حملوا إلينا هذا الدين رجال .
12 ـ عبقرية رسول الله ﷺ العسكرية .
13 ـ الشورىٰ واجبة وغير ملزمة .
14 ـ استحباب القتال بطريقة الصفوف .
15 ـ استحباب الدعاء أثناء القتال .
16 ـ أهمية الحفاظ على القيادة في الحرب .
17 ـ المولي دبره عند الزحف يبوء بغضب من الله تعالىٰ .
18 ـ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف شاء .
19 ـ إذا ظهرت المعاصي في الأمة عمّها الله ببلاء حتىٰ ترجع .
20 ـ الإسلام جعل العرب ملوكاً ، ولما تركوه صار حالهم في الذل كما ترىٰ .

21 ـ أولياء الله وأهل مسجده هم المتقون.

22 ـ الكفار ربحوا الخسارة بإنفاقهم الأموال للصد عن دين الله في الأرض.

23 ـ الغنيمة ما أخذ بعد الحرب، والفيء ما أخذ بغير ذلك.

24 ـ الغلول نار، وعار في الدنيا والآخرة، ولا يقبل الله صدقة من غلول.

25 ـ الخيانة حرام، حتى في حق الكفار، فالمسلم وفيّ لا غدّار.

26 ـ وجوب حشد الأمة كل إمكاناتها وطاقاتها ضد الأعداء، وثواب نفقة الجهاد والإعداد مضاعفة.

27 ـ رغبة المشرك المحارب المسالمة، يقابلها من المؤمن الاستجابة مع الحذر.

28 ـ المسلمون أول من أحل الله لهم الغنائم، وفداء الأسرىٰ.

29 ـ الوقوع في الأسر لا يعني صدور عفو عام عن الجرائم.

30 ـ الإثخان أجمل وأحب إلى الله من الفداء والمال.

31 ـ الذل والصغار عقاب الله للمجرمين في الدنيا قبل الآخرة.

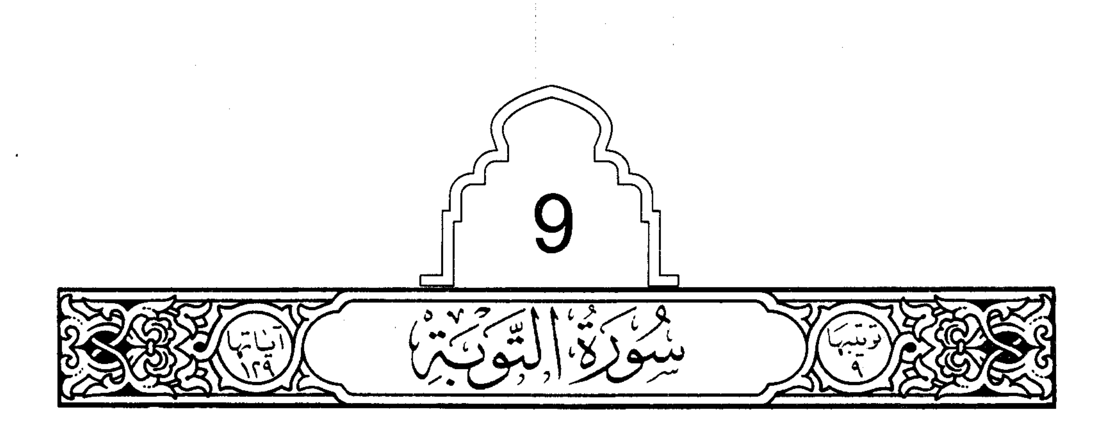
32 ـ تجاوز الله عن هفوات وزلل السابقين إلى الإسلام.

33 ـ لا واسطة ولا شفاعة أمام حكم الله، فالكل تحت الحق وقضاء الإسلام، ومن ذلك معاملة العباس كغيره من الأسرىٰ في الفداء.

34 ـ لا عُذر لأحد في البقاء في دار الحرب وتكثير سواد المشركين إلا الإكراه.

35 ـ أولو الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض في التوارث، والأخوة في الله أغلىٰ من المال.





وهي سورة مدنية باتفاق ، وعدد آياتها (129) .

فضائلها وما ورد في ذكرها :

لقد ورد في ذكر هذه السورة الكريمة حديثان من السنة الصحيحة :

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: [آخِرُ آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176] ، وآخِرُ سورةٍ نزلت براءة][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال: [قلت لابن عَبَّاسٍ: سورةُ التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة مازالت تنزل: ومِنْهمُ ومِنْهم ، حتىٰ ظَنُّوا أنها لم تُبْقِ أحداً منهم إلا ذُكِرَ فيها. قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. قال: قلت: سورةُ الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير][2] .

وقد ثبت سقوط البسملة من أول هذه السورة ، لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام ، والاقتداء بذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما قال الترمذي .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4654) ـ كتاب التفسير ـ ، سورة براءة .
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4882) ـ كتاب التفسير ـ، سورة الحشر . وانظر (4029) منه .

قال عبد الله بن عباس: (سألت علي بن أبي طالب لِمَ لمْ يُكْتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان).

وروي معناه عن المبرد قال: (ولذلك لم يجمع بينهما، فإن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة، وبراءة نزلت سخطة).

وبنحو ذلك ذكر سفيان بن عيينة: (إنما لم تكتب في صدر هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين).

قال القرطبي: (والصحيح أن التسمية لم تكتب، لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة، قاله القشيريّ.

وفي قول عثمان: قُبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها، دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله وتبيينه).

موضوع السورة

البراءة من المشركين، وفضح سبل المنافقين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ البراءة من الله والرسول إلى المشركين، فمن كان من أصحاب العهود المطلقة غير المؤقتة أو كان له عهد دون أربعة أشهر فله أن يكمل أربعة أشهر، وأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته. وأما من لا عهد له من المشركين فأجله إلى انسلاخ الأشهر الحرم.

2 ـ المشرك إذا استأمن فأمّنوه، حتىٰ يسمع كلام الله.

3 ـ المشركون لو ظهروا لم يراعوا في المسلمين عهداً ولا قرابة ولا حلفاً.

4 ـ تحريض الله المسلمين على قتال المشركين وعدم الخوف منهم.

5 ـ المشركون لا يعمرون مساجد الله، وما يعمرها إلا المؤمنون.

6 ـ لا سواء: (عمارة المسجد وسقاية الحاج) مع (الإيمان والجهاد).
7 ـ المؤمن لا يواد من حادّ الله ورسوله، والنصر من عند الله لا بكثرة العَدد والعُدد.
8 ـ الإعجاب بالكثرة يوم حنين قابله الانهزام، واستئناف التوكل الكامل على الله قابله النصر.
9 ـ إمداد الله بالملائكة، وانهزام هوازن، ثم إسلامهم، ورد سبيهم إليهم.
10 ـ تحريم دخول المشركين إلى المسجد الحرام، والله أغنى المسلمين من فضله.
11 ـ الأمر بقتال أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية صاغرين.
12 ـ اجتراء اليهود على الله بقولهم: عُزيرٌ ابن الله، والنصارى بقولهم المسيح ابن الله، واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.
13 ـ الكفار في مكرهم بدين الله كأنهم يطفئون نور الله الذي نوّر السماوات والأرض بأفواههم، والله متم نوره، ومظهر الحق ورسله.
14 ـ مانع الزكاة، يجعل ماله صفائح نار، تكوي جنبه وجبهته وظهره.
15 ـ الأمر بتعظيم حرمات الله، وفي الأشهر الحرم خاصة.
16 ـ النسيء زيادة في الكفر، وهو من أعمال الجاهلية.
17 ـ التخلف والتثاقل عن الجهاد عذابه أليم، واستثناء المريض والضعيف.
18 ـ ذكر بعض معالم الهجرة، وقول النبي ﷺ لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا، ومكر الله بالكافرين.
19 ـ الأمر بالنفير للجهاد وبذل الأموال والأنفس، والاعتذار الكاذب إنما هو سبيل المنافقين، وقد أقعدهم الله وعاقبهم على نفاقهم.
20 ـ المنافقون يحلفون بأنهم مسلمون، والله يعلم أنهم كافرون.
21 ـ مصارف الزكاة الثمانية، والمنافقون لا ينفقون إلا وهم كارهون.
22 ـ المنافقون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، وقد وعدهم الله نار جهنم، مقابل مكرهم وعدم اتعاظهم بأمثالهم من الكافرين في الأمم السالفة.
23 ـ المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، وقد وعدهم الله مساكن طيبة في جنات عدن.
24 ـ المنافقون يخلفون عهدهم مع الله، ويلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، ويفرحون بتخلفهم عن الجهاد في الحر، ونار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون.

25 ـ نهي الله تعالىٰ نبيّه ﷺ عن الصلاة على المنافقين بعد صلاته على رأس النفاق ابن سلول ، وكشف المنافقين أنهم أجبن الناس في الحرب ، وأصحاب ألسنة حداد في السلم .
26 ـ إذن الرسول ﷺ لأهل الأعذار ، ولا يعذر الأغنياء القادرون على الجهاد بتخلفهم عنه .
27 ـ جفاء الأعراب ، وكفر بعضهم ، والثناء على الأعراب المؤمنين المتصدقين .
28 ـ الثناء على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان .
29 ـ الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً أمرهم إلى الله ، والله تعالىٰ يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وينميها .
30 ـ شأن مسجد الضرار ، والنهي عن الصلاة فيه ، والأمر بتحريقه ، وكل مسجد لا يؤسس على التقوىٰ فهو مسجد ضرار .
31 ـ شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم مقابل الجنة ، والسياحة هي الجهاد في سبيل الله ، وهي ضمن صفات المؤمنين المبشرين بالجنة .
32 ـ النهي عن استغفار المؤمنين للمشركين ولوكانوا أولي قربىٰ .
33 ـ توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه ساعة العسرة .
34 ـ قصة كعب بن مالك والمتخلفين عن تبوك .
35 ـ النصب والظمأ والمخمصة في سبيل الله ، وإغاظة المشركين ، والنفقة لتجهيز جيش المؤمنين ، كل ذلك من أعظم القربات إلى الله .
36 ـ وجوب النفير مع المؤمنين في سبيل الله على طائفة ، والبقية في التفقه في الدين ، لينذروا قومهم بحجة البلاغ المبين .
37 ـ الأمر بجهاد الكفار والإغلاظ عليهم .
38 ـ الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان .
39 ـ الرسول ﷺ حريص على هداية أمته وهو بها رؤوف رحيم .
40 ـ الاستعانة بالله والتوكل عليه خير معين للمؤمنين على إعراض الناس عن دين الله ، فهو سبحانه الناصر لدينه المؤيد لأوليائه الممكّن لهم في الأرض .

❑ ❑ ❑

تفسير سورة التوبة

1 ـ 6. **قوله تعالى:** ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: براءة من الله ورسوله إلىٰ المعاهَدين من المشركين ، فمن كان من أصحاب العهود المطلقة غير المؤقتة أو كان له عهد دون أربعة أشهر فله إكمال أربعة أشهر ، ومن كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته ، وأما من لا عهد له من المشركين فإمهالهم ينتهي بانسلاخ الأشهر الحرم ، وليعلموا أنهم تحت قبضة الله وسلطانه ، لا سبيل للفرار من بأسه إلا بالتوبة والإنابة إليه ، والله مخزي الكافرين.

وإعلام من الله ورسوله إلى الناس يوم النحر أن الله ورسوله يبرآن من المشركين ، فإن تداركتم ـ أيها المشركون ـ أنفسكم بالتوبة وأعلنتم الإيمان بالله وأفردتموه بالتعظيم والعبادة نجوتم ، وإلا فالعذاب الأليم مَوْعدكم.

إنَّـهُ بانقضاء المُحَرَّم من الأشهر الحرم يحاصر المشركون بالقتل أو الأسر أو منع التصرف ببلاد الإسلام ، فإن رجعوا عن الشرك ، وأخلصوا التوحيد لله والإقرار بالنبوة وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة خُلِّي سبيلهم والله غفور رحيم.

وإن طَلَبَ المشرك أماناً يُمَكَّنُ مِنْ إبلاغه عهد الله وإقامة حجة الله البالغة عليه أُعطِيَ ذلك ، ويكون آمناً مستمر الأمان حتىٰ يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ، فهو الخير لإبلاغ دعوة الله إلى الناس في الأرض ليعلموا آفاق هذا الدين الحق عسىٰ أن يكونوا يوماً قريباً من أهله.

فإلى تفصيل ذلك:

لقد كان لغزوة تبوك أكبرُ الأثر في إظهار شوكة المسلمين وهيبة دولتهم ، فقد ظهر للأمم أن هذه القوة التي يزداد نفوذُها وتتسع رقعتُها كلَّ يوم مستعدةٌ لتحدي الدنيا بأسرها ، فدانت العرب جميعاً لسلطان الإسلام ، وعلم المنافقون في المدينة وما حولها أن الدائرة ستكون عليهم إذا ما أظهروا أي محاولة مكر أو خداع ، بعد أن خابت آمالهم التي كانوا عقدوها على دولة الرومان ، إذ دفع القوم الجزية عن يد وهم صاغرون.

وفي ذي الحجة من السنة التاسعة للهجرة ، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أميراً على الحج.

قال ابن إسحاق: (ثم أقام رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك بقية شهر رمضان وشوّالاً وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ، ليقيم للمسلمين حجَّهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حَجِّهم ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين)[1].

قال ابن سعد: (فخرج في ثلاث مئة رجل من المدينة ، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بَدَنة ، قَلَّدَها وأشعَرَها بيده ، عليها ناجيةُ بن جُنْدب الأسلمي ، وساق أبو بكر خمس بدنات)[2].

ولكن ما إن خرج أبو بكر بالناس من المدينة إلا نزل جبريل عليه السلام بسورة

(1) انظر سيرة ابن هاشم (2/ 543) ، وكتابي: السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين ـ (3/ 1602).
(2) انظر طبقات ابن سعد (2/ 168) ، والمرجع السابق ـ بحث(82) ـ حج أبي بكر بالناس 9 هـ.

براءة ، فأمر علياً رضي الله عنه باللحاق بأبي بكر ، وحمَّله صدر سورة براءة ليقرأها على الناس في الحج يوم النحر.

قال ابن إسحاق: (فنزلت براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه ، فخرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء)[1].

قال ابن سعد: (فلما كان بالعَرْج ، وابن عائذ يقول ـ بضَجْنَان ـ لحقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه على العَضْباء ، فلما رآه أبو بكر ، قال: أمير أو مأمور؟ قال: لا بل مأمور ، ثم مضيا).

وفي رواية: (فقال له أبو بكر: أستعملك رسول الله ﷺ على الحج؟ قال: لا ، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس ، وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده)[2].

وقد ذكر ابن إسحاق بإسناد حسن تفصيل هذا المشهد ، من حديث محمد بن علي رضوان الله عليه أنه قال: (لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج ، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلىٰ أبي بكر ، فقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي ، ثم دعا عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنىٰ ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مُدَّته ، فخرج علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله ﷺ العَضْباء ، حتىٰ أدرك أبا بكرَ بالطريق ، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور ، ثم مضيا.

فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج ، التي كانوا عليها في الجاهلية ، حتىٰ إذا كان يوم النحر ، قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأذّن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ ، فقال: أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مُشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عَهدٌ فهو إلىٰ مدته)[3].

---

(1) انظر تفصيل حج أبي بكر بالناس في سيرة ابن هشام (2/ 543 ـ 548) ، والمرجع السابق.
(2) انظر كامل تفاصيل ذلك الحج عند ابن سعد (2/ 168 ـ 169) ، وكتابي: السيرة النبوية (1602).
(3) حسن بشواهده. انظر سيرة ابن هشام (2/ 545 ـ 546). وكتابي: السيرة النبوية (3/ 1604).

و﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه) ، ومنهم من جعلها كالمعرفة بصلتها بما بعدها ، والتقدير: (البراءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) ، والأول أشهر في كلام العرب.

وقوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ الآية.

أي: مَنْ كان من أصحاب العهود المطلقة غير المؤقتة أو كان له عهد دون أربعة أشهر فله أن يكمل أربعة أشهر ، فأما مَنْ كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته ، لقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾. وأما من لا عهد له من المشركين فأمهلهم إلى انسلاخ الأشهر الحرم ، أي خمسين يوماً تنتهي بنهاية المحرّم.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: [بعثني أبو بكر في تلك الحِجّة في مؤذّنين بعثهم يومَ النحر يؤذنون بمنىٰ: ألاَّ يَحُجَّ بعد هذا العام مُشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ثم أردف النبي ﷺ أبا بكر بعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فأمره أن يُؤذن ببراءة ، قال: فأذن معنا علي في أهل مِنىٰ يومَ النحر ببراءة ، وألاَّ يحجَّ بعدَ العام مشرك ، ولا يطوفَ بالبيت عريان][1].

وله شاهد في مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي بسند قوي من حديث علي ، وكذلك في مسند الحميدي عن زيد بن يُثَيع ، قال: سألنا علياً ، بأي شيء بعثتَ في الحجّة؟ قال: [بُعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ولا يجتمع مُسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا ، ومَنْ كان بينَهُ وبين النبي ﷺ عهد ، فعهده إلى مُدَّته ، ومن لم يكن له عَهْدٌ ، فأجله إلى أربعة أشهر][2].

وأما قوله: ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ، قال ابن جرير: (فإنه يعني: فسيروا فيها مقبلين ومدبرين ، آمنين غير خائفين من رسول الله ﷺ وأتباعه).

ـ وهو في لغة العرب من ساحَ يسيحُ سياحةً ، وسُيوحاً وسَيَحاناً.

قال قتادة: (قوله: ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ، عشرون من ذي الحجة ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (369) ـ كتاب الصلاة ـ ، وكذلك (3177) ـ كتاب الحج ـ ، وأخرجه مسلم في الصحيح (1347) ـ كتاب الحج ـ ، وله شواهد كثيرة في السيرة والسنن.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 79) من حديث علي رضي الله عنه ، وأخرجه الحميدي (48) في مسنده ، وسنده صحيح.

والمحرم وصفر ، وربيع الأول ، وعشر من ربيع الآخر).

وقال ابن عباس: (حدّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر ، يسيحون فيها حيثما شاؤوا ، وحدّ أجل من ليس له عهد ، انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم ، فذلك خمسون ليلة . فإذا انسلخ الأشهر الحرم ، أمره أن يضع السيف فيمن عاهد).

ثم قال جل ذكره: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (قوله: ﴿ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ ، غير مُفِيتيه بأنفسكم ، لأنكم حيث ذهبتم وأين كنتم من الأرض ، ففي قبضته وسلطانه ، لا يمنعكم منه وزيرٌ ، ولا يحول بينكم وبينه إذا أرادكم بعذاب معقلٌ ولا موئل ، إلا الإيمان به وبرسوله ، والتوبة من معصيته.

يقول: فبادروا عقوبته بتوبة ، ودعوا السياحة التي لا تنفعكم. وأما قوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ ، يقول: واعلموا أن الله مُذِلُّ الكافرين ، ومورثهم العارَ في الدنيا ، والنار في الآخرة).

ثم قال سبحانه: ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾.

المعنىٰ: وإعلامٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم النحر.

قال ابن زيد: (قوله: ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال: إعلام من الله ورسوله).

وقال ابن عباس: (الحج الأكبر يوم النحر).

وعن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: (الحج الأكبر ، يوم تُهرَاقُ فيه الدماء ، ويحلق فيه الشعر ، ويَحِلُّ فيه الحرام).

وقيل: بل هو يوم عرفة ، ذكره عطاء ومجاهد ، والصواب الأول وبه جاء الخبر الصحيح.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: (ويوم الحج الأكبر يوم النحر ، وإنما قيل الأكبرُ من أجل قول الناس الحجُّ الأصغر)[1].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (4657) ـ كتاب التفسير ـ.

وفي التفاسير عن ابن جريج ، عن عطاء ، قال: (الحج الأكبر: الحج ، والحج الأصغر: العمرة).

فيقال للعمرة (الحج الأصغر) لأن عملها أقل من عمل الحج ، إذْ في أعمال الحج ما هو زيادة عليها.

وعن ابن إسحاق: (﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ ، أي: بعد هذه الحجة).

وقوله: «ورَسُولُهُ» أي: ورسوله بريء من المشركين ، فالخبر محذوف ، وهي جملة معطوفة على ما قبلها.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والمعنىٰ: أنكم إن تبتم أيها المشركون من كفركم ورجعتم إلى إفراد الله تعالىٰ بالتعظيم والعبادة فهو خيرٌ لكم من الإقامة على الشرك سواء في الدنيا أو في الآخرة ، وإن أعرضتم وأبيتم إلا دين الآباء وتقليدهم في عبادة الأوثان فأيقنوا أن الله سيأتي بكم لا محالة ، ولا سبيل لكم أن تفلتوا من قبضته سبحانه ، ثم الويل والوعيد الشديد يَنْتَظِرُكُم في صلي نيرانه.

ثم قال جل وعزَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قال قتادة: (هم مشركو قريش ، الذين عاهدهم رسول الله ﷺ زمن الحديبية ، وكان بقي من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر. فأمر الله نبيّه أن يوفِي لهم بعهدهم إلى مدتهم ، ومن لا عهد له إلى انسلاخ المحرم ، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده ، وأمر بقتالهم حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن لا يقبل منهم إلا ذلك).

ثم قال جل ذكره: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول جل ذكره: إذا انقضىٰ المحرّم من الأشهر الحرم (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم) عن الذين لا عهد لهم أو عمن كان لهم عهد فنقضوه بإعلانهم العداء

ومظاهرتهم الأعداء على المسلمين أو كان عهدهم إلى أجل غير معلوم ، فاقتلوا هؤلاء المشركين حيث لقيتموهم من الأرض في الحل والحرم وفي أي شهر ، وخذوهم أسرىٰ واحصروهم بمنعهم التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة واقعدوا لهم بالطلب كل طريق ومرقب ، فإن رجعوا عن الشرك وأخلصوا التوحيد والإقرار بالنبوة وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم.

قال أنَس: (توبتهم ، خلع الأوثان ، وعبادة ربهم ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة).

وكان قتادة يقول: (خلوا سبيل من أمركم الله أن تخلوا سبيله ، فإنما الناس ثلاثة: رهْط مسلم عليه الزكاة ، ومشرك عليه الجزية ، وصاحب حرب يأمن بتجارته في المسلمين إذا أعطىٰ عُشور ماله) ـ ذكرهما ابن جرير.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

قال مجاهد: (إنسان يأتيك فيسمع ما تقول ، ويسمع ما أنزل عليك ، فهو آمن حتىٰ يأتيك فيسمع كلام الله ، وحتىٰ يبلغ مأمنه ، حيث جاءه).

قال ابن كثير: (والغرضُ أن من قَدِمَ من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة ، أو طلب صُلْح أو مهادنة أو حمل جزية ، أو نحو ذلك من الأسباب ، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً ، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام ، وحتىٰ يرجع إلى مأمنه ووطنه.

لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان ، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء ، رحمهم الله).

وخلاصة القول: إنْ طَلَبَ المشرك أماناً يُمَكَّنُ من إبلاغه عهد الله وإقامة حجة الله البالغة عليه فإنه يُعطىٰ ذلك ويكون آمناً مستمر الأمان حتىٰ يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ، وقد شُرِّعَ ذلك ليعلموا دين الله ، وتصل دعوة الله سبحانه إلى الخلق.

وفي السنة الصحيحة آفاق هذا المعنىٰ ، في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن نعيم بن مسعود الأشجعي ، قال: [سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما ـ أي لرسولي مُسيلمة الكذاب ـ حين قرأ كتاب

مسيلمة: ما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، قال: أما والله! لولا أن الرُّسُلَ لا تقْتَلُ لضَرَبْتُ أعناقَكُما][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن حارثة بن مُضرب أنه أتى عبد الله فقال: [ما بيني وبين أحد من العرب حِنَةٌ[2] وإني مررت بمسجد لبني حنيفة، فإذا هم يؤمنون بمسيلمة، فأرسل إليهم عبد الله، فجيء بهم فاستتابهم، غير ابن النواحة قال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنك رسول لضربت عنقك» فأنت اليوم لست برسول، فأمر قَرظَة بن كعب فضرب عنقه في السوق، ثم قال: من أراد أن ينظر إلى ابن النواحة قتيلاً بالسوق][3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود ـ واللفظ له ـ عن أم هانئ بنت أبي طالب: [أنها أجارت رجلاً من المشركين يوم الفتح، فأتت النبي ﷺ، فذكرت له ذلك، فقال: قد أجرنا مَنْ أَجَرْتِ، وأمَّنا مَنْ أَمَّنْتِ][4].

7 ـ 15. قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (2761) ـ باب في الرسل ـ من حديث نعيم بن مسعود الأشجعي. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2399).

(2) «حنة»: هي الإحنة: الحقد والغضب المُضمر.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2762)، والنسائي في «الكبرىٰ» (8675)، وأحمد (1/ 383).

(4) حديث صحيح. أخرجه الشيخان دون قوله: «وأمنا..»، وأخرجه بتمامه أبو داود في السنن، حديث رقم (2763) ـ باب في أمان المرأة ـ. وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2401).

يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: خطاب الله تعالىٰ عباده المؤمنين: كيف يستقيم عهد المشركين وقد كفروا بالله وليس بعد الكفر ذنب! فإن تمسكوا بما عاهدتموهم يوم الحديبية فأوفوا لهم عهدهم والله يحب المتقين.

إنهم يجمعون في صدورهم المكر والغدر والخديعة والبغضاء ولا يراعون في الحقيقة عهداً ولا قرابة، فتنبَّهوا لذلك فإن أكثرهم فاسقون.

لقد استبدلوا بالقرآن متاع هذه الدنيا، ومنعوا المؤمنين من اتباع الحق، وأولئك هم المعتدون.

فإن تركوا الأوثان وأقبلوا على عبادة الرحمن، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فهم إخوانكم في الدين، وبذلك تحرم دماؤهم.

وإن نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم، وطعَنوا في دينكم، فقاتلوا رؤوس الكفر حتىٰ تنكسر أو تنفك من الكفر والعناد.

أتخشون قتال قوم أذاقُوكُم أَلَمَ المكر والطعن والغدر والتهجير من الديار، وهم الذين أعلنوا الحرب عليكم؟! إن الله أحق أن تخشوه إن كنتم صادقين.

فانفروا لقتالهم يعذبهم الله بأيديكم ويشف بنصركم عليهم صدوركم، ثم يتوب سبحانه على كل من تاب، فأقلع عن الظلم والإثم وأناب، والله عليم حكيم.

فقوله: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾، أي: لا يستقيم عهد القوم وهم مشركون بالله كافرون به وبرسله.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ الآية، قال ابن كثير: (يعني يوم الحديبية، كما قال تعالىٰ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [الفتح: 25] الآية، ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾، أي: مهما

تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ، ﴿ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمرّ العقد والهدنةُ مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست ، إلى أن نقضت قريشٌ العهد ومالؤوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريباً من ألفين ، ومن استمر على كفره وفَرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر ، يذهب حيث شاء : منهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله) .

وقوله : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ .

يذكر سبحانه في هذه الآية وما بعدها بعض صفات المشركين وما تنطوي عليه نفوسهم من المكر والغدر والبغضاء وعدم تفويت أية محاولة لإيقاع الأذىٰ بالمؤمنين .

وعن ابن عباس : (قوله : ﴿ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ ، قال : الإلّ : القرابة ، والذمة : العهد) .

وقال قتادة : (الإلّ : الحلف) .

وقال مجاهد : (الإلّ : العهد) .

وقوله : ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : يعطونكم بألسنتهم خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ، ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، أي : تأبىٰ عليهم قلوبهم أن يذعنوا لكم ، بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم .

يحذِّر جل ثناؤه أمرَهم المؤمنين ، ويشحذهم على قتلهم واجتياحهم حيث وجدوا من أرض الله ، وأن لا يقصِّروا في مكروههم بكل ما قدروا عليه ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ، يقول : وأكثرهم مخالفون عهدَكم ، ناقضون له ، كافرون بربهم ، خارجون عن طاعته) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

أي: استبدلوا بالقرآن متاع الدنيا ، فاعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهموا به من أمور الدنيا الخسيسة ، فمنعوا المؤمنين من اتباع الحق ، وقد ساء منهجهم إذ استبدلوا بالحق عرضاً زائفاً ، وكانوا عَثَرَةً في طريق الهدىٰ وما يحيي قلوب الناس ويوصلها بالله عز وجل.

وقد حفلت السنة الصحيحة بكنوز من جوامع الكلم في ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبو داود في السنن ، بسند حسن ، عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نقرأ القرآن ، وفينا الأعرابي والعجمي ، فقال: [اقرؤوا القرآن ، وابتغوا به الله تعالىٰ ، من قبل أن يأتيَ قومٌ يقيمونَه إقامة القِدْحِ ، يتعجَّلونَهُ ولا يتأجَّلونَهُ].

وفي رواية: [اقرؤوا فكل حسن، وسيجيء أقوامٌ يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه، ولا يتأجلونه][1]. والقِدْحُ: السهم قبل أن يُراش ويركب نصله ، وقِدْحُ الميسر أيضاً.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح عن عبد الرحمن بن شبل الأنصاري أن معاوية قال له: إذا أتيت فسطاطي فقم فأخبر ما سمعت من رسول الله ﷺ ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [اقرؤوا القرآن ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به ، ولا تجفوا عنه ، ولا تغلوا فيه][2].

وفي رواية: [اقرؤوا القرآن واعملوا به ، ولا تجفُوا عنه ، ولا تَغْلوا فيه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والطبراني والبيهقي بسند صحيح عن عمران بن حصين ، أنه مرّ على قارئ يقرأ ، ثم سأل ، فاسترجع ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من قرأ القرآن فليسأل الله به ، فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس][3].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (3/ 357) ، (3/ 397) ، وأبو داود (1/ 132) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ـ 1876) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث (259) ـ.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 428) ، (3/ 444) ، والطبراني في «الأوسط» (1/ 142/ 2) ، ورواه الطبراني في «الكبير» أيضاً كما في «المجمع» (4/ 73) ، وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1179).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 432 ـ 433) ، (4/ 439) ، والترمذي (4/ 55) ، وله شواهد=

وفي رواية: [اقرؤوا القرآن، وسلُوا الله به، قبل أن يأتيَ قومٌ يقرؤون القرآن فيسألون به الناس].

الحديث الرابع: أخرج الحاكم، وابن أبي حاتم بسند صحيح لشواهده، عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ يقول: [تعلموا القرآن، وسلوا الله به الجنة، قبل أن يتعلمه قوم، يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرؤه لله][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

قال النسفي: (ولا تكرار، لأن الأول على الخصوص حيث قال فيكم، والثاني على العموم لأنه قال في مؤمن، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن عباس: (حرَّمت هذه الآية دماء أهل القبلة).

وقال قتادة: (يقول: إن تركوا اللات والعزىٰ، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾).

قال ابن زيد: (افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يفرِّق بينهما. وقرأ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، وأبىٰ أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة. وقال: رحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

النكث هو النقض.

قال القرطبي: (وأصله في كل ما فُتِلَ ثم حُلّ. فهي في الأيمان والعهود مستعارة).

قال ابن عباس: (يعني أهل العهد من المشركين، سماهم ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ وهم

= عن جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (257).

(1) صحيح لشواهده. أخرجه ابن نصر في «قيام الليل» (ص 74)، والحاكم (4/ 547)، وانظر مسند أحمد (3/ 38 ـ 39)، ورواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (3/ 128).

كذلك. يقول الله لنبيه: وإن نكثوا العهد الذي بينك وبينهم، فقاتلهم، أئمةُ الكفر لا أيمان لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾).

وأصل الطعن في كلام العرب القدح. قال الرازي: (وطعنَ فيه أي قَدَحَ).

قال ابن كثير: (﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾، أي: عابوه وانتقصوه.

ومن هاهنا أُخِذَ قتلُ من سبّ الرسولَ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أو مَنْ طعن في دين الإسلام أو ذكره بِتَنَقُّصٍ، ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾، أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال).

قلت: وأكثر أهل العلم أنّ من سبّ الله تعالىٰ أو الدين أو الرسول ﷺ من أهل الذمة أو استخَفَّ بقدره أو وَصَفَهُ بغير الوجه الذي عُرِفَ به فإنه يقتل، فإنا لم نعطه الذمة أو العهد على هذا. واستدل بعضهم بأمره ﷺ بقتل كعب بن الأشرف وكان معاهداً. فإن ظهر السبّ من مسلم فإنه يخرج من ملة الإسلام ولا يستتاب بل حكمه القتل مباشرة.

قال الإمام محمد بن سمنون: (أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر)[1].

وفي سنن أبي داود والنسائي بإسناد صحيح عن ابن عباس: [أن أعمىٰ كانت له أم ولد، تشتم النبي ﷺ، وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر. قال: فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المغول[2] فوضعه في بطنها، واتكأ عليها فقتلها، فوقع بين رجليها طفل، فلطخت ما هناك بالدم، فلما أصبح ذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ، فجمع الناس فقال: «أنشد الله رجلاً فعل ما فعل، لي عليه حق، إلا قام» فقام الأعمى يتخطىٰ الناس، وهو يتزلزل حتىٰ قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كانت البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتكأت عليها

(1) انظر كتاب: «الصارم المسلول على شاتم الله والرسول»، وكتابي أصل الدين والإيمان (1/ 114).
(2) سيف قصير يشتمل به الرجل تحت ثيابه، فهو سلاح خفي يُغتال به الناس.

حتىٰ قتلتها ، فقال النبي ﷺ: ألا اشهدوا: أن دمها هدر][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

قال السدي: (قوله: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ ﴾ ، من بعد عهدهم ، ﴿ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ، يقول: هموا بإخراجه فأخرجوه ، ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، بالقتال).

وقال مجاهد: (﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، قال: قتال قريش حلفاءَ محمد ﷺ).

قال القاسمي: (﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ أي أتخافون أن ينالكم منهم مكروه حتىٰ تتركوا قتالهم ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ بمخالفة أمره وترك قتالهم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشىٰ المؤمن إلا ربه ، ولا يبالي بمن سواه ، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ـ قاله الزمخشري ـ وفيه من التشديد ما لا يخفىٰ).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾.

يعزم تعالىٰ بذلك على المؤمنين ويحرضهم على قتال المشركين وأعداء هذا الدين الناكثين لأيمانهم وعهودهم ومواثيقهم.

قال السدي: (﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، قال: خزاعة ، يشف صدورهم من بني بكر).

والآية عامة في كل زمان ومكان ، لمواجهة كل من نكث العهود وطعن في المواثيق وأظهر الغدر والإفساد ، فواجب على الحاكم المسلم أن ينبذ إليهم ويؤدبهم.

فخلاصة المعنىٰ: قاتلوهم ـ معشر المؤمنين ـ يعذبهم الله بآلام الجراحات والموت ويخزهم بالأسر والاسترقاق والقهر ويعطيكم الظفر والغلبة عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين صبروا حتىٰ أراهم الله تعالىٰ ذل عدوهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4361) ـ كتاب الحدود ـ باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ. انظر صحيح سنن أبي داود (3665) ، وسنن النسائي «الكبرىٰ» (3533) ، وأخرجه الدارقطني (3/ 112) ، (4/ 216). قال الحافظ في بلوغ المرام: رواته ثقات.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قال السدي: (﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ـ أي خزاعة ـ حين قتلهم بنو بكر، وأعانتهم قريش).

قال النسفي: (﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لما لقوا منهم من المكروه وقد حصل الله هذه المواعيد كلها فكان دليلاً على صحة نبوته).

قلت: والآية أيضاً عامة في كل زمان ومكان، فإن الله تعالىٰ يُنْزل الخزي والذل بأعداء دينه وينصر عليهم فئة المؤمنين الصادقين، فيذهب غيظ قلوبهم مما لاقوه منهم من ظلم وتجبر وعلو في الأرض بغير الحق ونشر للكفر والفساد، ثم الله جل وعلا يتوب برحمته على من تاب إليه من عباده فأقلع عن الإثم والظلم ورجع إلى جادة الحق، والله عليم بأفعال عباده الظاهرة والباطنة، حكيم في أقواله وأفعاله وتقديره وتشريعه.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله تبارك وتعالىٰ: يا ابن آدمَ إنك ما دَعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبُك عَنَان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تُشْرك بي شيئاً لأتيتُك بقُرابِها مَغْفِرَة][1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [لو يعلمُ المؤمن ما عِنْدَ الله من العقوبة، ما طَمِعَ بجنته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عِنْدَ الله من الرحمة، ما قَنِطَ من جَنَّتِهِ أحدٌ][2].

16 ـ 22. قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3789)، وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث (2805).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2755) ـ كتاب التوبة ـ باب في سعة رحمة الله تعالىٰ، وأنها تغلب غضبه، وأخرجه الترمذي (3791) في السنن، وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث (2807).

أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: خِطَابُ الله تعالىٰ عباده المؤمنين: هل ظننتم أن تمضوا دون اختبار يُظْهِرُ صِدْقَ جهادكم وولائكم لله تعالىٰ وبراءتكم من تقريب المشركين؟! إن الله خبير بأعمالكم وأحلافكم.

إنه لا يكون من المشركين عمارة لمساجد الله وهم قائمون على منهاج الكفر، بل إن أعمالهم قد بطلت وهم في النار يوم القيامة ماكثون.

إنما عُمّارُ المساجد على الحقيقة هم مَنْ أخْلص التوحيد لله وآمن باليوم الآخر وأقام الصلوات الخمس ولم يعبد إلا الله فأولئك بإذن الله من المفلحين.

هل جعلتم الافتخار بالسقاية وسدانة البيت كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله؟! كلا، لا تعتدل أحوال ومنازل الفريقين.

فالمؤمنون والمهاجرون والمجاهدون أعظم درجة من الذين افتخروا بالسقي والعمارة، لهم البشرىٰ من الله برحمته ورضوانه والقرار في النعيم المقيم، والخلود في الأجر العظيم.

فقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾.

الوليجة: الشيء يدخل في آخر غيره. والمقصود هنا البطانة من المشركين.

قال السدي: (﴿وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾، يتولَّجها، من الولاية للمشركين).

وقال الربيع: (﴿وَلِيجَةً﴾: دَخَلًا). وقال ابن زيد: (أبىٰ أن يدعهم دون التمحيص).

وقال الحسن: (﴿وَلِيجَةً﴾، قال: هو الكفر والنفاق، أو قال أحدَهما).

والمعنىٰ: هل حسبتم أن تتركوا بغير اختبار يتبين فيه صدق إيمانكم وصدق جهادكم عدو الله وعدوكم، وصدق ولائكم لله تعالىٰ ولرسوله وللمؤمنين، وتبرئكم من تقريب المشركين.

قال ابن جرير: (نهىٰ الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء، يفشون إليهم أسرارهم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 1 ـ 3].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: 179].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. أي: يعلم أعمالكم وأحلافكم ومَنْ توالون ومَنْ تُعادون، ثم هو سبحانه مجازيكم بأعمالكم إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

أي: ما ينبغي للمشركين إعمار مساجد الله التي أسست على التقوىٰ وعبادة الله وحده لا شريك له.

قال القاسمي: (﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: ما صحَّ لهم وما استقام ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، أي: التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، أي يعمروا شيئاً منها، فهو جمع مضاف في سياق النفي، ويدخل فيه المسجد الحرام دخولاً أولياً، إذ نفيُ الجمع يدل على النفي عن كل فرد، فيلزم نفيه عن الفرد المعين بطريق الكناية.

وقرئ ﴿مسجد الله﴾ بالتوحيد، تصريحاً بالمقصود، وهو المسجد الحرام،

أشرف المساجد في الأرض ، الذي بني من **أول يوم على عبادة الله** وحده ، لا شريك له ، وأسسه خليل الرحمن).

قال في «البصائر»: (ـ يعمر ـ: إما من العمارة التي هي حفظ البناء ، أو من العمرة التي هي الزيارة ، أو من قولهم: عمرت بمكان كذا أي أقمت به).

قال السدي: (﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ قال: يقول: ما كان ينبغي لهم أن يعمروها ، ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ ، قال: النصراني يقال له: ما أنت؟ فيقول: نصراني ، واليهودي يقال له: ما أنت؟ فيقول: يهودي ، والصابئ يقال له: ما أنت؟ فيقول: صابئ).

والخلاصة: لا يوصف المشركون بعمارة المساجد ، وما ينبغي لهم لا ببنائها خالصة لوجه الله تعالىٰ ، ولا بعمارتها وارتيادها لعبادته جل ثناؤه ، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر ، أي: بحالهم وقَالِهم.

وهؤلاء ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ، أي: بطلت وذهبت أجورها إذ لم تكن لله بل للرياء والمصلحة والكذب والنفاق والشيطان ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ، أي: ماكثون فيها أبداً ، لا أحياءً ولا أمواتاً.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مُؤْمِناً حَسَنَةً ، يُعطِي بها في الدنيا ويَجْزي بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة ، لم تكنْ له حسنةٌ يُجْزَىٰ بها][1].

وفي رواية: [إن الكافر إذا عمل حسنةً أُطْعِمَ بها طُعْمَةً من الدنيا ، وأما المؤمِنُ فإن الله يَدَّخِرُ له حسناتِه في الآخرة ويُعْقِبُهُ رِزقاً في الدنيا على طاعته].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

قال ابن عباس (﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ، يقول: مَنْ وحَّد الله ، وآمن باليوم الآخر. يقول: أَقَرَّ بما أنزل الله ، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ ، يعني

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا. وانظر ما بعده في الباب.

الصلوات الخمس ، ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ، يقول: ثم لم يعبد إلا الله ، قال: ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ، يقول: إن أولئك هم المفلحون ، كقوله لنبيه: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: 79]: يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً ، وهي الشفاعة ، وكل «عسى» ، في القرآن فهي موجبة).

وقال ابن إسحاق: (و ﴿ عَسَىٰٓ ﴾ من الله حق).

فعرّف سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية عمار المساجد على الحقيقة ، بعد أن نفىٰ ذلك عن المشركين.

وفي التنزيل: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 34].

وقد حفلت السنة الصحيحة بكنوز من الخير في آفاق هذا المعنىٰ:

الحديث الأول: أخرج الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» ـ بسند جيد ـ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لينادي يوم القيامة: أين جيراني ، أين جيراني؟ قال: فتقول الملائكةُ: ربنا! ومن ينبغي أن يجاورك؟ فيقول: أين عُمّار المساجد؟][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ راح إلى مسجد الجماعة ، فخطوة تمحو سيئة ، وخطوةٌ تكتبُ له حسنة ، ذاهباً وراجعاً][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن عثمان ، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: [من بنىٰ مسجداً يبتغي به وَجْه الله بنىٰ الله له مِثْلَهُ في الجنة][3].

وله شاهد عند ابن ماجة من حديث جابر مرفوعاً: [من بنىٰ لله مسجداً ، ولو كَمَفْحَصِ قطاة أو أصغر ، بنىٰ الله له بيتاً في الجنة].

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [سبعة يظلهم الله تعالىٰ في ظِله يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمام عَدْلٌ ، وشاب نشأ في عبادة

---

(1) إسناده جيد. أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (1/16) من حديث أنس رضي الله عنه ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2728).

(2) حديث حسن. رواه أحمد والطبراني وابن حبان. انظر صحيح الترغيب والترهيب (1/ 299) (3).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (450) ـ كتاب الصلاة ـ باب من بنىٰ مسجداً. وانظر للشاهد صحيح الجامع الصغير (6003) ، (6004) ، (6005) ، (6006) ، ورواه أحمد.

الله ، ورجل قلبه مُعَلَّقٌ في المساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرّقا عليه ، ورجل دعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنْصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله ، ورجلٌ تَصَدَّق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يمينُه ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه][1].

والخلاصة: إن مَنْ يعمر مساجد الله ببنائها والقيام بعبادة الله فيها من آمن بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته فأفرده بالعبادة والتعظيم ، وآمن باليوم الآخر يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فاستعد لذلك بإقامة الصلوات وإعطاء الزكاة والصدقات وإفراد الله بالخشية والعبادة كما شرع ، فهؤلاء لهم البشرىٰ يوم الدين بالفلاح والفوز العظيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (وهذا توبيخ من الله تعالىٰ ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت ، فأعلمهم جل ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله ، لا في الذي افتخروا به من السِّدانة والسقاية).

قال: (﴿ لَا يَسْتَوُۥنَ ﴾ هؤلاء ، وأولئك ، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما ، لأن الله تعالىٰ لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملاً ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، يقول: والله لا يُوفّق لصالح الأعمال من كان به كافراً ، ولتوحيده جاحداً).

قلت: وقد صحّ هذا المعنىٰ في نزول هذه الآية كما ورد في السنة الصحيحة:

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن النعمان بن بشير قال: [كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج ، وقال آخر: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ الآية إلى آخرها][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1423) ـ كتاب الزكاة ـ واللفظ له ، وأخرجه مسلم وغيره.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1879) ح (111) ، وأحمد في المسند (4/ 269) ، والطبري في «التفسير» (16557) ، وغيرهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

المعنىٰ: الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أعظم درجة من الذين افتخروا بالسقي والعمارة، فإن الفوز يوم القيامة لا يكون إلا على منهاج النبوة، لا في أعراف وتقاليد الجاهلية وما كان غايته الرياء والسمعة والشهرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: يعلمهم ربهم سبحانه بكريم ثوابه عليهم وجزيل رحمته بهم ورضوانه الذي هو أكبر من كل شيء، وأجل نعمة في هذا الوجود في الدنيا والآخرة، ثم يتوِّج كرمه عليهم بالخلود في دار السعادة في جنات النعيم.

أخرج ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، بسند صحيح على شرط الشيخين، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله عز وجل: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا وما فوق ما أعطيتنا؟ قال: فيقول: رضواني أكبر][1].

23 ـ 24. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: نَهْيُ الله المؤمنين عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن رضوا بالكفر

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في صحيحه (2647)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (2/ 141/ 1)، وأخرجه الحاكم (1/ 82)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأقره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1336).

وقدموه على الإيمان ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الظالمون.

قل ـ يا محمد ـ لأصحابك متوعداً: إن كنتم آثرتم الأهل والقرابة: من أب أو ابن أو أخ أو زوجة أو عشيرة ، أو المال والتجارة والمسكن وغير ذلك من متاع هذه الدنيا الفانية على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله فترقبوا حلول نقمة الله بكم ، والله لا يهدي من يؤثر هواه ودنياه ، على إعلاء كلمة الله ورضاه.

فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾.

نهي عن موالاة الكفار ، أبناء كانوا أو إخواناً أو آباء ، فإن الولاء والبراء جزء من منهج الإيمان عند المؤمنين.

وقد تألق في ذلك عبد الله ابن المنافق ابن سلول حين سجّل آنذاك رقماً عالمياً في الولاء والبراء ، ومفهوم الحب والبغض في الله ، وقد وقف على باب المدينة يمنع أباه من دخولها ، واستل سيفه مهدداً والده رأس النفاق ـ الذي أشعل حادثة الإفك وكثيراً من الفتن بين المسلمين ـ أن لا يدخلها إلا بإذن من رسول الله ﷺ.

روىٰ ذلك الإمام الترمذي بسند حسن عن جابر ، قال: [فقال له ابنُهُ عبد الله بن عبد الله: والله لا تَنْقَلِب حتىٰ تُقِرَّ أنك الذليل ورسولُ الله ﷺ العزيز ففعل][1].

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴾ [الممتحنة: 13].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ ﴾ [المجادلة: 22].

وفي الصحيحين والمسند عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقىٰ في النار][2].

فنهىٰ الله تعالىٰ المؤمنين عن موادة ونصرة وتأييد الكفار ، ولو كانوا إخواناً أو أبناء

---

(1) حديث صحيح. انظر سنن الترمذي (3315) ـ كتاب التفسير ـ ، وهو حديث حسن صحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (21) ـ كتاب الإيمان ـ ، وأخرجه مسلم (43) ـ كتاب الإيمان ـ.

أو آباء ، ما داموا استحبوا الكفر على الإيمان ، وتوعَّدَ سبحانه من يتخذهم بطانة من دون المؤمنين ، أو يؤثِرُ المقام معهم على الهجرة إلى رسول الله ﷺ أو دار الإسلام بأنه منهم ، وبأنهم بفعلهم ذلك مخالفون لأمر الله وظالمون لأنفسهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

يتوعد سبحانه من آثر أهله وقرابته ـ من أب أو ابن أو أخ أو زوجة أو عشيرة ـ أو مال أو تجارة أو مسكن أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا على محبة الله تعالىٰ ورسوله ﷺ ، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته ، بنزول نقمته وسخطه وغضبه ، والله لا يهدي من خرج عن منهاجه وآثر هواه.

قال ابن جرير: (﴿ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ ، يقول: اكتسبتموها ، ﴿ وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ بفراقكم بلدكم ، ﴿ وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ ، فسكنتموها).

وقال القرطبي: (﴿ وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ يقول: ومنازل تعجبكم الإقامة فيها. ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم ﴾ من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة).

قلت: والآية تعم كل زمان ومكان ، وقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ تهديد قائم لكل من آثر الحياة الدنيا وزينتها ، وتعني: «فانتظروا وارتقبوا» نزول النكال من الله والعذاب.

وقد حفلت السنة الصحيحة بكنوز من الخير وجوامع الكلم في آفاق هذا المعنىٰ ، ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين][1].

وفي لفظ آخر من حديث أبي هريرة: [والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والبخاري عن عبد الله بن هشام قال: [كنا مع

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (15) ـ كتاب الإيمان ـ باب حب الرسول الله ﷺ من الإيمان ، وانظر ـ حديث رقم ـ (14) للفظ بعده ، وأخرجه مسلم في الصحيح (44) ، وأحمد في المسند (3/ 177) ، والنسائي (114/8) وغيرهم.

النبي ﷺ وهو آخذٌ بيد عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ له: لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكونَ أحبَّ إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر][1].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والنسائي بسند حسن عن سبرة بن الفاكه، عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد بطريق الإسلام فقال: تُسْلِمُ وتذرُ دينك و دينَ آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلم، ثم قَعَدَ له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك.. فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتُقتل فتُنكح المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد..] الحديث[2].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، بسند جيد، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا تبايعتم بالعِيْنَةِ، وأخذتم بأذناب البقر، وَرَضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينْزِعُهُ حتىٰ ترجعوا إلى دينكم][3].

25 ـ 27. قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6632) ـ كتاب الأيمان والنذور ـ، وأخرجه أحمد (4/ 233).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (3/ 483)، والنسائي (6/ 21)، وفي «الكبرىٰ» (4342)، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (4593)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (4/ 188)، وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1648).

(3) إسناده جيد. أخرجه أحمد (4825)، وصححه أحمد شاكر، وأخرجه أبو داود (3462)، وانظر الحديث في جامع الأصول ـ حديث رقم ـ (9465)، وفي صحيح الجامع الصغير (416).

﴿ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٧﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالىٰ على عباده المؤمنين بنصره لهم في مشاهد كثيرة ، ثم يوم حنين كذلك كان النصر بعد استيعابكم الدرس البليغ : أن النصر من عند الله لا بكثرة العَدد والعُدد ، فهاهي الكثرة لم تغن عنكم شيئاً أول المعركة وقد وليتم هاربين.

فلما ثَبَّتَ الله رسوله وفئة الصدق حوله وأيَّـدَهُ بالملائكة اختلفَ تَوَجُّه المعركة ، فكان النصر للمؤمنين ، والعذاب على الكافرين ، ثم يتوب الله برحمته على التائبين ، والله هو الغفور الرحيم.

فقوله : ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾. قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : لقد نصركم الله أيها المؤمنون في أماكن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة).

وقوله : ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾.

أي : ويوم حنين أيضاً قد نصركم ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ، بعدما أعطاكم درساً بليغاً ، أن النصر من عنده وأن الكثرة لم تغن عنكم شيئاً ، بل إن كثيراً منكم ولوا على أعقابهم مدبرين منهزمين.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : [غزونا مع رسول الله ﷺ حُنَيْناً ، فلما واجهنا العدو ، تقدّمتُ فأعلو ثنيّة ، فاستقبلني رجل من العدو فأرميه بسهم ، فتوارىٰ عني ، فما دريت ما صنع ، ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرىٰ ، فالتقوا هم وصحابة النبي ﷺ ، فولّىٰ صحابة النبي ﷺ وأرجع منهزماً وعليّ بُرْدَتان مُتّزِرَاً بإحداهما مرتدياً بالأخرىٰ ، فاستطلق إزاري ، فجمعتهما جميعاً ، ومررت على رسول الله ﷺ منهزماً وهو على بغلته الشهباء ، فقال رسول الله ﷺ: لقد رأىٰ ابن الأكوع فزعاً][(1)].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1777) ـ كتاب الجهاد ـ من حديث سلمة بن الأكوع. وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة (بحث 72 ـ القرآن يتحدث عن معركة حنين) (3/ 1364) لتفصيل البحث.

قال ابن زيد: (﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ ، قال: كانوا اثني عشر ألفاً).

والباء في قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ بمعنىٰ في ، كما ذكر أهل اللغة ، والتقدير: وضاقت عليكم الأرض في رحبها وسعتها.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ، قال قتادة: (ذكر لنا أن رجلاً قال يومئذ: لن نغلب اليوم بكُثْرة ، وذُكِرَ لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس ـ أي فروا مسرعين ـ).

ثم قال جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

روىٰ مسلم في صحيحه عن سلمة قال: [فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تُراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال: شاهت الوجوه ، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة ، فولوا مدبرين ، فهزمهم الله عز وجل بذلك ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين][1].

وروىٰ أحمد في المسند عن أبي عبد الرحمن الفهري قال: [فصافقناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولىٰ المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل ، فقال رسول الله ﷺ: يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله ، ثم قال: يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله. قال: ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه فأخذ كفاً من تراب ، فأخبرني الذي كان أدنىٰ إليه مني ضرب به وجوههم وقال: شاهت الوجوه ، فهزمهم الله عز وجل. قال يحيىٰ بن عطاء ـ أحد الرواة ـ فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً][2].

وكذلك في المسند ، وسيرة ابن إسحاق ، بسند حسن عن جابر قال: [فلما رأىٰ رسول الله ﷺ أمر الناس قال: يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة ، فأجابوه: لبيك لبيك ، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت ، حتىٰ اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مئة ، فاستعرض الناس فاقتتلوا ، وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ، ثم جعلت آخراً بالخزرج ، وكانوا صبراء عند الحرب][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1777) ـ كتاب الجهاد ، وانظر المرجع السابق (3/ 1365).
(2) حديث حسن. انظر مسند أحمد (5/ 286) ، وكتابي: السيرة النبوية (3/ 1350) لتمام الحديث.
(3) حديث حسن. انظر سيرة ابن هشام (2/ 444 ـ 445) بسند حسن ، والمرجع السابق (3/ 1348).

ثم قال جل ثناؤه: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وهي الملائكة حمت رسول الله ﷺ يومئذ حين حمي الوطيس وحين غشيه المشركون، كما شاركت المؤمنين الذين صمدوا قتالهم.

يروي ابن جرير بإسناده إلى عبد الرحمن مولىٰ أم برثن قال: (حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين، قال: فلما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حَلْبَ شاة. قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقُهم في أدبارهم، حتىٰ انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ. قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسانُ الوجوه فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا. قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها)[1].

وروىٰ أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الفهري، قال يحيىٰ بن عطاء: (فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الحديد)[2].

ويروي ابن إسحاق عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: [إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجاد[3] الأسود يهوي من السماء حتىٰ وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة][4].

ويروي البيهقي وكذلك ابن سعد ـ واللفظ له ـ عن شيبة بن عثمان الحَجَبي قال: [لما كان عام الفتح، دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوة، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين، فعسىٰ إن اختلطوا أن أصيبَ من محمد غِرّة، فأثأر منه، فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كُلِّها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً، ما تبعته

---

(1) أخرجه الطبري في التفسير (3151). وانظر المرجع السابق (3/ 1366 ـ 1367).
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (5/ 286)، وهو جزء من حديث أطول.
(3) البجاد: الكساء.
(4) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (5/ 146) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، ورواه ابن إسحاق وفيه ضعف، لكن له شواهد. انظر تفسير ابن كثير ـ سورة التوبة، آية (26).

أبداً ، وكنتُ مُرْصداً لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة ، فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته ، فأصلت السيف ، فدنوت أريد ما أريد منه ، ورفعت سيفي حتىٰ كِدت أشعره إياه ، فرُفع لي شُواظ من نار كالبرق كاد يمحُشُني ، فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه ، فالتفتَ إليّ رسول الله ﷺ فناداني: يا شَيْبُ ادْنُ مني فدنوت منه ، فمسح صدري ، ثم قال: اللهم أعذه من الشيطان ، قال: فوالله لهو كان ساعتئذ أحبَّ إليَّ من سمعي وبصري ونفسي ، وأذهب الله ما كان في نفسي ، ثم قال: ادْنُ فقاتل ، فتقدمت أمامه أضربُ بسيفي ، الله يعلم أني أحب أن أقِيَه بنفسي كُلَّ شيء . .] الحديث[1] .

ثم قال جل ذكره: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ، أي: بالرعب والقتل والهزيمة.

قال الحافظ ابن كثير في التفسير: (وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حُنَيناً مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقىٰ الله في قلوب المشركين يوم حنين! قال: فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا)[2] .

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ، فقد سلط الله عليهم القتل والسبي والتشريد ، حتىٰ رُوي أن قتلىٰ هوازن قد بلغ خلال المعركة اثنين وسبعين قتيلاً من بني مالك من ثقيف وحدهم وقتيلين من الأحلاف.

قال ابن إسحاق: (فلما انهزمت هوازن استحرَّ[3] القتل من ثقيف في بني مالك ، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم ، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب ، وكانت رايتهم مع ذي الخِمار ـ وهو عوف بن الربيع ـ ، فلما قُتِلَ أخذها عثمان بن عبد الله ، فقاتل بها حتىٰ قتل. قال ابن إسحاق ، وأخبرني عامر بن وهب بن الأسود ، قال: لما بلغ رسول الله ﷺ قتلُه ، قال: أبعده الله! فإنه كان يُبْغِضُ قريشاً).

كما رُوي أنه خلال الهزيمة قتل ثلاث مئة رجل من بني مالك قتلهم المسلمون في

---

(1) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (5/ 145) وفي سنده ضعف. وانظر تمام الروايات في كتابي: السيرة النبوية (3/ 1367 ـ 1368) ـ لابن سعد ، وكذلك للبيهقي.

(2) أخرجه الطبراني في «الكبير» (22/ 237 ـ 238) رقم (623) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (6/ 183): رجاله ثقات. وانظر المرجع السابق (3/ 1369).

(3) استحرَّ: أي اشتد.

أوطاس بقيادة الزبير بن العوام أثناء فرارهم وانتشار الفوضىٰ في صفوف المنهزمين ، حتىٰ إن أبا طلحةَ وحده قتل عشرين رجلاً منهم وأخذ أسلابهم.

يروي أبو داود بسند حسن عن أنس بن مالك قال: [قال رسول الله ﷺ يومئذ ـ يعني يوم حنين ـ من قتل كافراً فله سلبه. فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابَهُم][1].

وكذلك فقد لقي المئات من بني نصر بن معاوية ومن بني رئاب مصرعهم وهما من أهم فروع هوازن ، وذلك حين اشتد فيهم القتل وسلط الله عليهم المؤمنين.

قال ابن إسحاق: (واستحرَّ القتل من بني نَصر في بني رئاب).

وقال ابن هشام: (فلما انتهىٰ الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم ، فَصَمَدَ لهم ، فلم يزل يُطاعنهم حتىٰ أزاحهم عنها).

وروي أن علياً قتل منهم يومئذ أربعين رجلاً.

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بتعقب الفارين لكسر شوكتهم ، وذلك بقتلهم وتشريدهم لئلا يعودوا ، وشجع رجاله يومئذ بأن سَلَبَ المشرك لقاتله.

يروي البخاري في صحيحه عن أبي قتادة قال: [وجلس النبي ﷺ فقال: من قتل قتيلاً ، له عليه بيِّنَة ، فله سلبه][2].

وهو عند أبي داود من حديث أنس بلفظ: [من قتل كافراً فله سلبه].

وفي لفظ الحاكم من طريق أنس: [فقتل أبو قتادة يومئذ عشرين رجلاً ، وأخذ أسلابهم. فقال أبو قتادة: يا رسول الله! ضربت رجلاً على حبل العاتق ، وعليه درع له ، فأعجلت عنه أن آخذ سلبه ، فانظر من هو يا رسول الله؟ فقال رجل: يا رسول الله! أنا أخذتها ، فأرضِهِ منها ، فأعطِنيها! فسكت النبي ﷺ ، وكان لا يُسْأَلُ شيئاً إلا أعطاه ، أو سكت ، فقال عمر: لا والله ، لا يفيء الله على أسد من أسده ويعطيكها! فضحك رسول الله ﷺ][3].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (2/ 65) ـ كتاب الجهاد ـ.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4321) ـ كتاب المغازي ـ باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.
(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 130) على شرط مسلم. وانظر السلسلة الصحيحة (2109).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قال ابن كثير: (قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مئةً مئةً من الإبل، وكان من جملة من أعطىٰ مئةً مالك بن عوف النَّصْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إن رَأيتُ ولا سمعت بمثله ... في الناس كلّهم بمثل محمد
أوفىٰ وأعْطىٰ للجزيل إذا اجتُدِي ... ومتىٰ تَشَأ يُخْبِركَ عمّا في غَدِ[1]
وإذا الكتيبة عَرّدت أنيابُها ... بالسُّمْهَرِيّ وضَرْب كُلّ مُهَنّد
فكأنه ليثٌ على أشباله ... وَسْطَ الهَبَاءة خادِرٌ في مَرْصد).

28 ـ 29. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾.

في هذه الآيات: تقريرٌ من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين أَنَّ المشركين بخس فلا يقربوا المسجد الحرام بطواف أو حج أو غير ذلك، فإن خفتم ـ معشر المؤمنين ـ فاقة أو فقراً بمنعهم الاقتراب فاعلموا أن فضل الله يَغْمركم، وهو سبحانه من نعمه ورزقه يزدكم، والله هو العليم بمصالحكم، الحكيم بما يشرعه لكم.

قاتلوا القوم المكذبين بالله واليوم الآخر المستهزئين بشرع الله وحلاله وحرامه، المستكبرين عن طاعته، من أهل الكتاب حتىٰ يبذلوا الجزية للمسلمين صاغرين.

---

(1) هذا لا يصح شرعاً، فلا يعلم ما في الغد إلا الله، وإنما كان مالك بن عوف حديث عهد بجاهلية.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ، هي نجاسة معنوية ، نجاسة الشرك والكفر. وليس المقصود نجاسة البدن ، فقد يكون بدنه طاهراً نظيفاً ، ولذلك جاء في الحديث: [المؤمن لا يَنْجُس] ، حتىٰ ولو كان جُنباً.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة: [أن النبي ﷺ لقِيَهُ في بعض طريق المدينة وهو جُنُبٌ ، فانْخَنَسْتُ مِنْهُ ، فذهب فاغتسل ثم جاء فقال: أينَ كنتَ يا أبا هريرة؟ قال: كنتُ جُنُباً فكَرِهْتُ أن أُجالِسَكَ وأنا على غير طهارة ، فقال: سُبْحانَ الله! إنّ المؤمنَ لا يَنْجُسُ][1].

وقوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: [بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذّنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنىٰ: ألا يَحُجَّ بعدَ هذا العام مُشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ثم أردف النبي ﷺ أبا بكر بعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فأمره أن يؤذِّن ببراءة ، قال: فأذن معنا علي في أهل منىٰ يومَ النحر ببراءة ، وألا يحجَّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفَ بالبيت عريان][2].

فأمر الله تعالىٰ عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين ، الذين هم نجس ديناً ، أن يقربوا بيته الحرام بعد نزول هذه الآية في السنة التاسعة للهجرة أثناء حج أبي بكر بالناس.

يروي ابن جرير بسنده عن الوليد بن مسلم قال: حدثنا أبو عمرو: (أن عمر بن عبد العزيز كتب: أن امنعوا اليهود والنصارىٰ من دخول مساجد المسلمين ، وأتبع في نهيه قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾).

قال عطاء: (الحرمُ كله قبلة ومسجد. قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ ، لم يعن المسجدَ وحده ، إنما عنىٰ مكة والحرم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (283) ـ كتاب الغسل ـ بابُ عَرَقِ الجُنُبِ وأنَّ المسلم لا يَنْجُسُ. وأخرجه مسلم (371) ، وأحمد (2/ 235) ، (2/ 382) ، وأبو داود (231) ، والترمذي (121) ، والنسائي (1/ 145) ، وابن حبان (1259) ، وابن أبي شيبة (1/ 173) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (369) ـ كتاب الصلاة ـ و(3177) ـ كتاب الحج ، وأخرجه مسلم في الصحيح (1347) ـ كتاب الحج ـ. وقد مضىٰ تفصيل حج أبي بكر بالناس سنة 9 هـ.

وقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾.

قال قتادة: (أغناهم الله بالجزية الجارية، شهراً فشهراً، وعاماً فعاماً).

وقال ابن إسحاق: (وذلك أن الناس قالوا: لتقطعنَّ عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبنَّ ما كنا نصيب فيها من المرافق! فقال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾، من وجه غير ذلك ﴿ إِن شَآءَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾، ففي هذا عِوَض مما تخوَّفتم من قطع تلك الأسواق، فعَوَّضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية).

وخلاصة المعنىٰ: إن خفتم ـ معشرالمؤمنين ـ فاقة وفقراً بمنع المشركين اقتراب المسجد الحرام فسيغنيكم ربكم عز وجل من فضله إن شاء والله ذو الفضل العظيم.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. أي: عليم بما فيه مصلحتكم وسداد أمركم، حكيم في أقواله وأفعاله وتشريعه لكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.

يأمر تعالىٰ المؤمنين به من أصحاب نبيه ﷺ بقتال القوم المكذبين بالله واليوم والآخر المستهزئين بتشريعه سبحانه وحلاله وحرامه، المتنكرين لطاعته طاعة الحق، من أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الخراجَ عن رقابهم، الذي يبذلونه للمسلمين دَفْعاً عنها. فإنهم بكفرهم بمحمد ﷺ ـ الذي يجدون صفاته مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل ـ تنكر لبقية الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، إذ أمروا جميعاً باتباع النبي أحمد صلوات الله وسلامه عليه، ومن ثمَّ أصبحوا بذلك لا يدينون الدين الحق، فوجب عليهم دفع الجزية مقابل حمايتهم وجلوسهم آمنين.

قال ابن كثير: (وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلما استقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارىٰ، وكان ذلك في سنة تسع، ولذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم) انتهى.

وبعض الفقهاء على جواز أخذ الجزية من المجوس، وهو مذهب الشافعي وأحمد ـ في المشهور عنه ـ.

واحتجوا بما أخرج البخاري عن عبد الرحمن بن عوف: [أن رسول الله ﷺ أخذها من مَجُوس هجَرَ][1].

ولا شك أن في أخذها من أهل الكتاب إشعاراً لهم أنهم تحت هيمنة دَوْلة الإسلام وسلطة الحق، ومن ثَمَّ فإنه يَحْظُرُ عليهم نشر الفساد أو المنكرات في بلاد المسلمين.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: [لا تبدؤوا اليهود والنصارىٰ بالسلام، وإذا لقيتُم أحدَهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه][2].

وقوله: ﴿عَن يَدٍ﴾. قال ابن عباس: (يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحداً).

وقال قتادة: (عن قهر)، وهو الأصح، فالمراد عن قهر لهم وغلبة، ولذلك قال بعدها ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أي: ذليلون مهانون.

ولهذا يذكر هنا الفقهاء ما اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من شروط فيها تحجيم أمرهم ومحاصرة انتشار فسادهم بالتصغير والإذلال.

ففي رواية الأئمة الحفاظ من طريق عبد الرحمن بن غَنَم الأشعري قال: (كتبتُ لعمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين صالح نصارىٰ من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارىٰ مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا، وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحْدِث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قَلايَة ولا صومعة راهب، ولا نجدِّد ما خَرِبَ منها، ولا نحيي منها ما كان خِطَط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مَرَّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نُؤْوِي في كنائسنا ولا منازلنا جاسُوساً، ولا نَكْتُم غشاً للمسلمين، ولا نُعَلِّم أَوْلادَنا القرآن، ولا نُظْهِرُ شركاً، ولا ندعو إليه أحد، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقِّر المسلمين، وأن نَقُوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشَبَّه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3157) ـ كتاب الجزية والموادعة ـ. وأخرجه أبو داود (3043)، وأبو يعلىٰ (861) ـ من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2167)، وأحمد في المسند (8542)، (9881)، وأبو داود في السنن (5205)، وغيرهم.

شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نكتني بكُنَاهم ، ولا نَرْكَب السروج ، ولا نتقلَّدُ السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش خواتمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمور . وأن نَجُزَّ مقاديم رؤوسنا ، وأن نَلْزم زيّنا حيثما كنا ، وأن نشُدَّ الزنانير على أوساطنا ، وألا نظهر الصليب على كنائسنا ، وألا نظهر صُلُبَنا ولا كُتُبنا في شيء من طريق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء ، من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانين ولا بعوثاً ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرىٰ عليه سهام المسلمين ، وأن نُرشِد المسلمين ، ولا نَطَّلِعَ عليهم في منازلهم.

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب ، زاد فيه: ولا نَضْرِب أحداً من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَوَظفْنا على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق) ـ ذكره الحافظ ابن كثير.

30 ـ 33. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

في هذه الآيات: ذَمُّ الله اليهود في قولهم الكذب: عزيز ابن الله ، وذمُّ النصارىٰ في قولهم السوء المسيح ابن الله ، وهم في ذلك مفترون آثمون.

لقد أطاعوا بذلك أحبارهم ورهبانهم في قولهم الإثم واستحلالهم الحرام وتحريمهم

الحلال ، وما أمروا إلا بإفراد الله تعالىٰ في التعظيم والعبادة والتشريع ، سبحانه وتعالىٰ عما يشركون.

إنما يريد المشركون تكذيب الحق والاستهزاء بالوحي ومنهاج الرسل ، وهم بذلك كمن يحاول إطفاء نور الشمس بنفخه ، والله يأبىٰ إلاّ أن يبهر إشعاع شرعه ودينه أرجاء المعمورة.

إنه هو الذي أرسل رسوله بهدي الوحي ونور النبوة ليعلن منهاجه ويرفعه فوق كل مناهج الأرض ولو كره المشركون.

فقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

قال القرطبي: (هذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص ، لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك).

وقد رُوي أن سبب ذلك القول أن الله تعالىٰ رفع التوراة ومحاها من قلوب اليهود حين قتلوا الأنبياء بعد موسىٰ عليه السلام ، فخرج عُزير يسيح في الأرض ، فأتاه جبريل فقال: «أين تذهب»؟ قال: أطلب العلم ، فعلمه التوراة كلها ، فجاء عزير بالتوراة إلى بني إسرائيل فعلمهم.

وقيل بل حفَّظها الله عزيراً كرامة منه له ، فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفظني التوراة ، فجعلوا يدرسونها من عنده.

وكانت التوراة مدفونة ، كان دفنها علماؤهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب ، وقتْل بُخْتَنَصَّر إياهم.

ثم إن التوراة المدفونة وُجدت مطابقة لما كان عُزير يدرس ، فهنالك ضلوا حين زعموا أن هذا لما يتهيأ لعزير إلا وهو ابن الله ـ حكاه ابن جرير.

وقرأها قراء المدينة وبعض قراءة الكوفة ومكة دون تنوين: «عزيرُ ابن الله» ، والقراءة بالتنوين أشهر. و«عزير» ينصرف عجمياً كان أو عربياً. وأصله «عزراء» ـ لفظة عبرانية ـ بمعنىٰ: (معين) ، أو أصله «عزريا» ـ بمعنى الله مساعد.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ، الظاهر أنهم أرادوا بنوّة النَّسل ، كما قالت العرب في الملائكة. وهذا أشنع الكفر.

قال أبو المعالي: (أطبقت النصارىٰ على أن المسيح إله وأنه ابن إله).

قال ابن عطية: (ويُقال إن بعضهم يعتقدها بنوّة حنوّ ورحمة).

قال القرطبي: (وهذا المعنىٰ أيضاً لا يحل أن تطلق البنوّة عليه، وهو كفر).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، تكذيب من الله سبحانه للطائفتين، وأنهم افتروا على الله الكذب فيما قالوه ونسبوه.

وقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (يُشبِّهون). وقال قتادة: (ضاهت النصارى قول اليهود قبلهم).

وقال السدي: (النصارىٰ يضاهئون قول اليهود في «عزير»).

2 ـ وقال ابن عباس في رواية: (يقول: قالوا مثل ما قال أهل الأوثان).

3 ـ وقيل: يحكون بقولهم قول أهل الأوثان، الذين قالوا: (اللات، والعزّىٰ، ومناة الثالثة الأخرى) ـ ذكره ابن جرير.

قلت: وأصل المضاهاة في كلام العرب من ضهأ أو ضهي.

قال الرازي: (المضاهأة: المشاكلةُ، تُهْمَزُ وتُلَيَّنُ وقرئ بهما)، وكذلك المضاهاة.

والمقصود بالآية المشابهة في طريقة الافتراء بالنعت والوصف دون حجة أو برهان.

ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، قال ابن عباس: (لعنهم الله. وكل شيء في القرآن «قتل»، فهو لعن).

قال ابن كثير: (﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل).

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

قال ابن عباس: (لم يأمروهم أن يسجدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم، فسمّاهم الله بذلك أرباباً).

وقال حذيفة: (أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً أحله الله لهم حرَّموه، فتلك كانت ربوبيّتهم).

وقال السدي: (استنصحوا الرجال، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم).

قلت: والأحبار علماء اليهود، جمع (حِبْر) بكسر الحاء وفتحها. وهو العالم بتحبير الكلام وتحسينه، والرهبان جمع راهب بمعنىٰ المتعبد الخاشع الزاهد، وأصل الترهب عند النصارىٰ، التخلي عن أشغال الدنيا وترك ملاذّها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها.

وفي الحديث: [تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهبانية النصارىٰ][1].

أخرج الترمذي من حديث عدي: [أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. قال: أليس يُحلّون لكم ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلىٰ. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم][2].

وأخرج الإمام أحمد في المسند، وابن إسحاق في السيرة من حديث عدي بن حاتم ـ وكان قد هرب من النبي ﷺ إلى قيصر بالشام بعد حنين، ثم لحقته أخته ونصحته بالرجوع وحدثته عن رسول الله ﷺ وعفوه وكرمه ـ قال: [فأتيته وهو جالس في المسجد، فقال القومُ: هذا عديُّ بن حاتم، وجئتُ بغير أمان ولا كتاب، فلما دُفعت إليه، أخذ بيدي، وقد كان قبل ذلك قال: إني أرجو أن يجعل الله يدَه في يدي. قال: فقام لي، فلقيتْهُ امرأة، ومعها صبي، فقالا: إن لنا إليك حاجة، فقام معهما حتىٰ قضىٰ حاجتهما، ثم أخذ بيدي حتىٰ أتىٰ داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها، وجلست بين يديه، فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: ما يُفِرُّكَ؟! أَيُفِرُّكَ أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم من إله سوىٰ الله؟ قال: قلت: لا. قال: ثم تكلم ساعة، ثم قال: إنما تَفِرُّ أنْ يُقالَ: الله أكبر، وهل تعلم شيئاً أكبرُ من الله؟ قال: قلت: لا. قال:

---

(1) حديث حسن. أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (7/ 78) من حديث أبي أمامة مرفوعاً، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1782).

(2) رواه الترمذي (3094) في التفسير، ويتقوىٰ بما أخرجه الطبري (16634) عن حذيفة موقوفاً. انظر فتح المجيد (107). ومعجم الطبراني (7/ 92) من حديث عدي بألفاظ متقاربة.

فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارىٰ ضالون. قال: فقلت: إني حنيف مسلم ، قال: فرأيت وجهه يَنْبسِطُ فرحاً][1] .

وأما قوله: ﴿ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ ، قال ابن جرير: (فإن معناه: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أرباباً من دون الله).

وقال النسفي: (﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ أَحۡبَارَهُمۡ ﴾ علماءهم ﴿ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ ﴾ نساكهم ﴿ أَرۡبَابٗا ﴾ آلهة ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله كما يطاع الأرباب في أوامرهم ونواهيهم ﴿ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ عطف على أحبارهم ـ أي اتخذوه رباً حيث جعلوه ابن الله ـ).

وقوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: الذي إذا حرَّمَ الشيء فهو الحرام ، وما حَلَّله حلَّ ، وما شرعَهُ اتُّبِع ، وما حَكَمَ به نفذ. ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ ، أي: تعالىٰ وتقدَّسَ وتَنَزَّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، لا إله إلا هو ، ولا ربَّ سواه).

وقوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ .

قال السدي: (يقول: يريدون أن يطفئوا الإسلام بكلامهم).

والمقصود: أن محاولات الملأ الكافر على مدار الزمان تكذيب الحق والمكر بأهله والاستهزاء بالوحي ومنهاج الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إنما هي بمثابة من يحاول إطفاء شعاع الشمس أو نور القمر بِنَفْخِهِ ، وهذا تهريج وعبث.

وقوله: ﴿ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ .

أي: يأبىٰ الله تعالىٰ إلا أن يظهر دينه ويعلي كلمته رغم أنف الكافرين الماكرين ، الذين يكرهون أن يروا أمر الله يعلو في الأرض وأولياءه هم الغالبون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ .

تشريف لمحمد ﷺ صاحب الرسالة الخاتمة ، والشريعة الناسخة ، لكل الشرائع التي سبقتها ، وإعظام للمنهج الإلهي في صورته الأخيرة إلى البشرية جميعاً ، وهو دين

(1) انظر سيرة ابن هشام (2/ 578 ـ 581) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 378) ، ورجاله ثقات.

الإسلام على منهج الوحيين: القرآن والسنة المحمدية العطرة.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، قال: ليظهر الله نبيّه على أمر الدين كله، فيعطيه إيّاه كله، ولا يخفى عليه منه شيء. وكان المشركون واليهود يكرهون ذلك).

قال ابن جرير: (﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ، ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾، يعني: ببيان فرائض الله على خلقه، وجميع اللازم لهم، وبدين الحق، وهو الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، يقول: ليعلي الإسلام على الملل كلها، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، بالله ظهوره عليها).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا التمكين والانتشار والظهور، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله زوىٰ ليَ الأرض، فرأيت مشارِقَها ومغارِبَها، وإن أمتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ليبلغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغَ الليلُ والنهار، ولا يتركُ الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله (الله) هذا الدين، بعِزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عِزّاً يعزّ الله به الإسلام، وذُلاً يذل الله به الكفر].

فكان تميم الداري يقول: (قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزّ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلَّ والصَّغار والجزيةَ)[2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن خَبَّابِ بن الأرتِّ قال: [شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة، قلنا لَه: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2889) ـ كتاب الفتن ـ باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، في أثناء حديث أطول، وزوىٰ: أي جمع وضم، وأخرجه أبو داود (4252)، والترمذي (2/ 27)، وأحمد (5/ 278).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 103)، والطبراني (1280)، وقال الهيثمي في «المجمع» (6/ 14): ورجاله رجال الصحيح. ورواه ابن حبان في صحيحه (1631 ـ 1632). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (3).

بالمِيشَار فيوضَعُ على رأسه فَيُشَقُّ باثنتين وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينه ، ويُمْشَطُ بأمْشَاط الحديد ما دونَ لحمه من عَظْمٍ ، أو عَصَبٍ ، وما يَصُدّهُ ذلك عن دينه ، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمْرَ حتىٰ يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يخاف إلا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون][1] .

ويشهد لهذا الحديث ما في مسند أحمد من حديث عدي بن حاتم يقول: [دخلت على رسول الله ﷺ فقال: يا عدي ، أسلم تسلم. فقلت: إني من أهل دين. قال: أنا أعلم بدينك منك. فقلت: أنت أعلم بديني مني؟! قال: نعم ، ألست من الرَّكوسية[2] ، وأنت تأكل مرباع قومك؟. قلت: بلىٰ. قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك. قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها ، قال: أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام تقول: إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب. أتعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها ، وقد سمعت بها. قال: فوالذي نفسي بيده ليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتىٰ تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولَتُفتَحَنَّ كنوزُ كسرىٰ بن هرمز. قلت: كسرىٰ بن هُرْمُزَ؟! قال: نعم ، كسرىٰ بن هُرْمُز ، ولَيُبْذلَنَّ المال حتىٰ لا يقبله أحد. قال عَدِيّ بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرىٰ بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها][3] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يذهب الليل والنهار ، حتىٰ تُعْبَدَ اللاتُ والعزَّىٰ. فقلت: يا رسول الله ، إن كنتُ لأظنُّ حين أنزل الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أن ذلك تام ، قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ، ثم يبعثُ الله ريحاً طيِّبة فيتوفَّىٰ كلَّ من كان في قلبه مثقال حبة خردلٍ من إيمان ، فيبقىٰ من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم][4] .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3612) ـ كتاب المناقب ـ ، وكذلك (3852) ، (6943) .

(2) الركوسية: دين بين دين النصارىٰ والصابئين. والمرباع: ربع الغنيمة.

(3) أخرجه أحمد (4/ 378) ، والبيهقي في «الدلائل» (5/ 342) ، ورجاله ثقات وله طرق كثيرة عن عدي ، وأخرج الحاكم نحوه (4/ 518). وانظر كتابي: السيرة النبوية (3/ 1470 ـ 1471).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2907) من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وأخرجه أبو يعلىٰ (4565) ، وغيرهما.

34 ـ 35. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تحذير الله تعالىٰ المؤمنين من سلوك علماء اليهود وعباد النصارىٰ في أكلهم الدنيا بالدين والمناصب والرياسة بين الناس، ويصدون الناس عن اتباع الحق والإيمان بنبوة محمد ﷺ واتباعه.

ثم تحذير وترهيب من سلوك الطائفة الثالثة ـ بعد العلماء والعباد ـ وهم الأغنياء أصحاب الأموال في كنزهم الذهب والفضة وحرمان الفقير من حقها، والتلاعب ضد إخراج زكاتها، بأن لهم عذاباً أليماً، حيث تحمىٰ صفائح في نار جهنم ثم تكوىٰ بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، ذوقوا ما كنزتم لأنفسكم فبئس ما كنتم تكنزون ولا تزكون ولا تتصدقون.

فقوله: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

قال السدي: (أما ﴿ ٱلْأَحْبَارِ ﴾، فمن اليهود. وأما ﴿ وَٱلرُّهْبَانِ ﴾، فمن النصارىٰ. وأما ﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فمحمد ﷺ).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأقروا بوحدانية ربهم، إن كثيراً من العلماء والقرّاء من بني إسرائيل من اليهود والنصارىٰ، ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾، يقول: يأخذون الرشا في أحكامهم، ويحرّفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم ثم يقولون: ﴿ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم، ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، يقول: ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام الدخول فيه، بنهيهم إياهم عنه).

فالأحبار علماء اليهود، والرهبان: عباد النصارىٰ، والقسيسون علماؤهم.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ [المائدة: 63].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: 82].

قال ابن كثير: (والمقصود: التحذير من علماء السوء وعُبَّاد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فَسَدَ من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فَسَدَ من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارىٰ).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: [لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: فمن][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري وابن ماجة وأبو يعلىٰ من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتىٰ تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم. فقال: ومن الناس إلاّ أولئك][2].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً: [لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتىٰ لو أن أحدهم دخل جحر ضب دخلتم، وحتىٰ لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم][3].

وفي لفظ أحمد والآجري من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: [لتحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم حذو القُذَّة بالقذة][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3456)، (7320)، ومسلم (2669)، وأحمد (3/ 84).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7319)، وابن ماجة (3994)، وأخرجه أبو يعلىٰ (6292).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 455)، وله شاهد عند الترمذي وعند الحاكم (1/ 129) أيضاً، وشاهد آخر في المجمع (7/ 261)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1348).

(4) حديث حسن. انظر مسند أحمد (4/ 125)، و«الشريعة» للآجري (30) من حديث شداد بن أوس. والقُذّة: بضم القاف وفتح الذال المشددة: إحدىٰ ريش السهم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أصل الكنز لغة: الجمع والضم. قال الرازي: (اكتنَزَ الشيءُ: اجتمع وامتلأ).

والكنْز أيضاً المال المدفون. والآية تحذير للمؤمنين من سلوك طريقة أهل الكتاب في الأموال، والاستهتار بحق الفقراء والمساكين فيها.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن وَهْب قال: [مَرَرْتُ بالرَّبَذَةِ فإذا أنا بأبي ذَرٍّ رضي الله عنه، فقلت له: ما أنزلَكَ مَنْزِلَكَ هذا؟ قال: كنتُ بالشام فاخْتَلَفْتُ أنا ومعاويةُ في ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، قال معاوية: نَزَلَتْ في أهل الكتاب. فقلت: نزلَتْ فينا وفيهم، فكان بَيْني وبَيْنَه في ذلك، وكَتَبَ إلى عُثمانَ رضي الله عنه يَشْكوني، فكتَبَ إليَّ عثمانُ: أنِ اقْدم المدينة، فقَدِمْتها، فكَثُرَ عليَّ الناسُ حتىٰ كأنَّهم لم يَرَوْني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان فقال لي: إن شئت تَنَحَّيْتَ فكنت قريباً. فذاك الذي أنْزَلني هذا المنزل، ولو أمَّروا عليَّ حَبَشِياً لسَمِعْتُ وأطَعْتُ][1].

فإنه بعد ذكر العلماء والعباد، أتبع الله في الآية ذكر الأغنياء، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العبّاد، وعلى أرباب الأموال، فإن صلح أمر هؤلاء صلح أمر الناس وإن فسد فسدوا، كما قال عبد الله بن المبارك:

وهل أفسَدَ الدينَ إلا الملوك ... وأحبارُ سوءٍ ورهبانها

وبنزول أحْكام الزكاة وتفاصيل أنصبتها، يتوجه معنىٰ الآية في مفهوم الكنز.

كما قال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال: (هو المال الذي لا تؤدىٰ منه الزكاة).

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن شهاب، عن خالدِ بنِ أسْلَمَ قال: [خرجنا مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقال أعرابي: أخبرني عن قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؟! قال ابن عمر: مَنْ كَنَزَها فلم يُؤَدِّ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1406) ـ كتاب الزكاة ـ باب ما أُدِّيَ زكاتُهُ فليس بكَنْز. والرَّبَذَة: موضع قريب من المدينة.

زكاتَها فَوَيْلٌ له ، إنما كان هذا قبل أن تُنزَلَ الزَّكاة ، فلما أنزلت جَعَلَها الله طُهْراً للأموال][1] .

الأموال التي تجب فيها الزكاة:

تجب الزكاة في النقدين ، والزروع ، والثمار ، والمواشي ، والركاز .

أولاً ـ زكاة النقدين: الذهب والفضة.

نصاب الذهب عشرون ديناراً ، ونصاب الفضة مئتا درهم ، وفيهما ربع العشر:

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن علي بن أبي طالب ، عن النبي ﷺ قال: [إذا كانت لك مئتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم ، وليس عليك شيء ـ يعني في الذهب حتىٰ يكون لك عشرون ديناراً ، فإذا كانت لك عشرون ديناراً وحال عليها الحول ففيها نصف دينار][2] .

ثانياً ـ زكاة الزروع والثمار.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: 141].

ولا تؤخذ الزكاة إلا من أصناف أربعة ، كما روى الحاكم والبيهقي عن أبي بردة: عن أبي موسىٰ ومعاذ: [أن رسول الله ﷺ بعثهما إلى اليمن يعلمان الناس أمر دينهم ، فأمرهم أن لا يأخذوا الصدقة إلا من هذه الأربعة: الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب][3] .

ونصاب الزكاة في الزروع والثمار هو المذكور في هذا الحديث:

أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس فيما دون

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1404) ـ كتاب الزكاة ـ باب ما أُدِّيَ زكاتُهُ فليس بِكَنْزٍ.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1573) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وانظر صحيح سنن أبي داود (1391) ـ كتاب الزكاة ـ.

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 401) ، والدارقطني (201) نحوه. وانظر «الصحيحة» (879).

خمس ذَودٍ صدقة من الإبل ، وليس فيما دون خمس أواق[1] صدقة ، وليس فيما دون خمسة أوسُقٍ[2] صدقة][3].

المقدار الواجب إخراجه في زكاة الزروع والثمار:

أخرج أبو داود والنسائي عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: [في ما سقت الأنهار والعيون العشر ، وما سقي بالسواني ففيه نصف العشر].

وأصله في صحيح مسلم بلفظ: [فيما سقت الأنهار والغيم العشور ، وفيما سقي بالسانية نصف العشور][4].

وله شاهد عند البخاري والترمذي من حديث ابن عمر ، أن النبي ﷺ قال: [فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثَرياً العشر ، وفيما سقي بالنضح نصف العشر][5].

ثالثاً ـ زكاة المواشي.

المواشي ثلاثة أجناس: الإبل ، البقر ، الغنم.

فقد مضى من حديث أبي سعيد ـ في الصحيحين ـ أن رسول الله ﷺ قال: [ليس فيما دون خمس ذَودٍ من الإبل صدقة].

وفي سنن أبي داود والنسائي عن معاذ بن جبل قال: [بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وأمرني أن آخذ من البقر من كل أربعين مسنة ، ومن كل ثلاثين تبيعاً أو تبيعة][6].

وكتب أبو بكر رضي الله عنه فريضة الصدقة لأنس وفيها: [وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومئة شاة. .] الحديث. وتفصيل أنصبتها في كتب الفقه.

---

(1) أواق: جمع أوقية. قال ابن حجر: (ومقدار الأوقية في هذا الحديث أربعون درهما بالاتفاق والمراد بالدرهم الخالص من الفضة).

(2) أوسق: جمع وسق بفتح الواو ويجوز كسرها ، وهو ستون صاعاً بالاتفاق. انظر: (فتح الباري ج 3 ص 364 ـ ط. دار الريان).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1447) ـ كتاب الزكاة ـ. وأخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (979) ، والترمذي (622) ، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (981) ، وأبو داود (1597) ، والنسائي (5/ 42) ، وغيرهم.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1483) ، والترمذي (635) ، والنسائي (5/ 41) ، وغيرهم.

(6) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (619) ، وأبو داود (1576) ، والنسائي (5/ 26) ، وغيرهم.

رابعاً ـ زكاة الركاز.

الركاز: دفن الجاهلية الذي يؤخذ من غير أن يطلب بمال ولا يتكلف له كثير عمل. وتجب فيه الزكاة على الفور من غير اشتراط حول ولا نصاب، لعموم قوله ﷺ: [وفي الركاز الخمس][1].

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وعيد شديد للكانزين المانعين الزكاة.

أخرج البخاري في صحيحه من حديث الأحنف عن أبي ذر الغفاري ـ يرفعه ـ: [بشِّر الكانزين بِرَضْفٍ يُحْمىٰ عليهم في نار جهنم، ثم يوضع على حَلَمَةِ ثدي أحدهم حتىٰ يخرُجَ من نُغْضِ كتفِهِ، ويوضع على نُغْضِ كتفِهِ حتىٰ يخرجَ من حَلَمَةِ ثَدْيه، يتزلزَلُ][2].

وقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من آتاهُ الله مالاً فلم يُؤَدِّ زكاتَه مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعاً أَقْرَعَ له زبيبتان، يُطَوَّقُهُ يوم القيامة، ثم يأخُذُ بِلِهزِمَتَيْه، يعني بشِدْقَيْه، ثم يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزكَ، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية [آل عمران: 180]][3].

وفي صحيح مسلم من حديث سُهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله، إلا جُعِلَ يوم القيامة صفائح من نار يُكْوَىٰ بها جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة حتىٰ يُقضىٰ بين الناس، ثم يُرىٰ سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار] الحديث[4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1499)، ومسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1710)، وأهل السنن. وانظر تفصيل أبحاث الزكاة في كتاب: «الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز»، وفي «نيل الأوطار» و«فقه السنة»، وغيرها.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1407) ـ كتاب الزكاة ـ، ونحوه في صحيح مسلم (992)، ومسند أحمد (5/ 160)، وصحيح ابن حبان (3260)، من حديث الأحنف عن أبي ذر الغفاري.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1403) ـ كتاب الزكاة ـ، وانظر مسند أحمد (2/ 520)، وسنن النسائي (6/ 23)، (6/ 24)، وسنن ابن ماجة (1786)، وصحيح ابن حبان (3254).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (987)، وأبو داود (1658)، وأحمد (2/ 262، 276)، وغيرهم.

ثم يقال لهم تقريعاً وتبكيتاً وتهكُّماً: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فيقال لهم: فاطعموا عذاب الله بما كنتم تمنعون من أموالكم حقوق الله وتكنزونها مكاثرةً ومباهاة).

وفي التنزيل نحو هذا في التهكّم بالكافرين: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: 48 ـ 49].

36 ـ 37. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله تعالىٰ أن عدد أشهر السنة اثنا عشر شهراً في كتاب الله الذي كتب فيه كل ما هو كائن، منها أربعة أشهر حرم، ذلك دينُ الله المستقيم، فاحذروا ـ أيها الناس ـ الظلم فيها وانتهاك المحرمات، فالذنب فيها أعظم منه في غيرها، وقاتلوا المشركين، أيها المؤمنون، مجتمعين كما يقاتلونكم، واعلموا أن الله ولي المتقين.

إنما النسيء استهتار من المشركين، وهو تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، ليقضوا بذلك أوطارهم من قتال أعدائهم، وقد زَيَّنَ لهم الشيطان التحايل على شرع الله، والله لا يهدي القوم الكافرين.

فقوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.

قال السدي: (أما ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، فذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. أما ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾، فالذي عنده).

وقال مجاهد: (﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ قال: يعرف بها شأن النسيء، ما نقص من السنة).

أخرج الإمام أحمد والبخاري عن أبي بَكْرَةَ: [أن النبي ﷺ خطب في حجَّتِهِ، فقال: ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جُمادىٰ وشعبان. ثم قال: أَلا أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلمُ. فسكت حتىٰ ظننا أنه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحِجَّة؟ قلنا: بلىٰ. ثم قال: أيّ بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلمُ. فسكت حتىٰ ظنّنا أنه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: أليس البَلْدَة؟ قلنا: بلىٰ. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننّا أنه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: أليسَ يومَ النحر؟ قلنا: بلىٰ. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالاً، يضربُ بعضكم رقاب بعض، ألا لِيُبَلِّغ الشاهد الغائبَ، فَلَعَلَّ بعضَ من يُبَلَّغُهُ أن يكونَ أوعىٰ له من بعض من سَمِعَهُ. ثم قال: ألا هل بَلَّغْت ـ مرتين ـ][1].

وسمي (المُحَرّم) مُحَرَّماً، لكونه شهراً محرماً، أو لتأكيد تحريمه.

قال السَّخاوي: (لأن العرب كانت تتلعَّبُ به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً).

وأما (صفر): فسمي بذلك لخلو بيوتهم منهم، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: صفَر المكان: إذا خلا.

وأما شهر (ربيع الأول): فسمي بذلك لارتباعهم فيه، والارتباع: الإقامة في عمارة الرَّبع.

وسمي شهر (جُمادىٰ) لجمود الماء فيه.

وأما (رجب): فمن الترجيب، وهو التعظيم، و(شعبان): من تَشَعُّب القبائل وتَفَرُّقها للغارة. و(رمضان): من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: رَمِضَت الفصالُ: إذا عَطِشت.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4406) ـ كتاب المغازي ـ، وكذلك (1741) ـ كتاب الحج ـ. وأخرجه مسلم في صحيحه (1679) ـ كتاب القسامة والمحاربين ـ. وأخرجه أبو داود في السنن (1948)، وأحمد في المسند (5/ 37 ـ 39).

وأما (شوّال): من شالت الإبل بأذنابها للطِّراق.

وأما (القَعدة): بفتح القاف وكسرها لقعودهم فيه عن القتال والتَّرحال، و(الحِجَّة): بكسر الحاء وفتحها، فإنه سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه.

وأما الأيام فأولها الأحد، ثم ثانيها الاثنين، ثم الثلاثاء ثالثها، والأربعاء رابعها، والخميس خامسها، والجمعة سادسها، وآخرها السبت، وهو القطع، لانتهاء العدد عنده[1].

فقوله تعالىٰ: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، هي الثلاثة المتواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادىٰ وشعبان، والإضافة إلى مضر إنما هي لبيان صحة مذهبهم فيه: أنه بين جمادىٰ وشعبان، لا كما تظن ربيعة أنه بين شعبان وشوال، وهو رمضان بلا شك.

قال الحافظ ابن كثير: (وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَردٌ، وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم، ليرجعوا فيه إلى نائي أقصىٰ بلادهم آمنين، وحُرِّمَ رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصىٰ جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾. أي: الشرع الحق المستقيم.

قال السدي: (المستقيم).

وقال ابن زيد: (﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، قال: الأمر القيم. يقول: قال تعالىٰ: واعلموا، أيها الناس، أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله الذي كتب فيه كل ما هو كائن، وأن من هذه الاثني عشر شهراً أربعةُ أشهر حرماً، ذلك دين الله المستقيم، لا ما يفعله النسيء من تحليله ما يحلل من شهور السنة، وتحريمه ما يحرِّمه منها).

---

(1) قيل: وكانت العرب تسمي الأيام: أوّلَ، ثم أهْوَنَ، ثم جُبار، ثم دُبَار، ثم مُؤنِس، ثم العروبة، ثم شِيَار. كما قال الشاعر، من العرب العرباء العاربة المتقدِّمين:

أرجِّـي أن أعيـش وأن يَـوْمـي ... بـأوَّلَ أو بـأَهْـونَ أو جُبَـار
أو التـالـي دُبَـارَ فـإن أَفُتْـه ... فمُـؤنِـسَ أو عَـرُوبـةَ أو شِيَـار

وقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ ، أي: احذروا ارتكاب المعاصي والآثام في هذه الأشهر الأربعة المحرمة بشكل خاص ، فإن الإثم فيها أشد وأكبر ، كما أن المعاصي في البلد الحرام أبلغ في الإثم.

كما قال تعالىٰ في سورة الحج: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: 25].

وبنحو ذلك جاءت أقوال المفسرين:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ ، في كلِّهن. ثم خصَّ من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حُرُماً ، وعظَّمَ حُرُماتهن ، وجعل الذنْب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم).

2 ـ قال قتادة: (أما قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ ، فإن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووِزْراً ، من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً ، ولكن الله يعظِّم من أمره ما شاء.

وقال: إن الله اصطفىٰ صفايا من خلقه ، اصطفىٰ من الملائكة رُسلاً ، ومن الناس رسلاً ، واصطفىٰ من الكلام ذكره ، واصطفىٰ من الأرض المساجد ، واصطفىٰ من الشهور رمضانَ والأشهر الحرم ، واصطفىٰ من الأيام يوم الجمعة ، واصطفىٰ من الليالي ليلة القدر ، فَعَظِّموا ما عظَّم الله ، فإنما تعظم الأمور بما عظَّمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل).

3 ـ قال الحسن: («ظلم أنفسكم» ، أن لا تحرموهن كحرمتهن).

4 ـ وقال محمد بن إسحاق: (﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ ، أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً ، كما فعل أهل الشرك ، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ الذي كانوا يصنعون من ذلك ، ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية). وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قال السدي: (أما ﴿كَآفَّةً﴾ ، فجميع ، وأمركم مجتمع).

وعن ابن عباس: (﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ ، يقول: جميعاً).

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: وقاتلوا المشركين بالله، أيها المؤمنون، جميعاً غير مختلفين، مؤتلفين غير متفرقين، كما يقاتلكم المشركون جميعاً، مجتمعين غير متفرقين).

قلت: والراجح أنه يجوز قتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البراءة منهم، كما يجوز قتل القاتل في الحرم، فإن كان القاتل في الحل ثم التجأ إلى الحرم يُخرج إلى الحل ليقتل فيه.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 191].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ [البقرة: 217].

قال ابن القيم: (والمقصود: أن الله سبحانه قد حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يُبرِّئْ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبرُ وأعظمُ من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحقُ بالذم والعيب والعقوبة، لا سيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصِّرين نوعَ تقصير يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله، وإيثار ما عند الله، فهم كما قيل:

وإذا الحبيبُ أتىٰ بذنبٍ واحدٍ ... جاءت محاسِنُهُ بألف شفيع

فكيف يُقاس ببغيض عدوٍّ جاء بكل قبيح، ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن)[1].

ومن السنة الصحيحة ما يدل على جواز قتال المشركين في الأشهر الحرم، إن كانت المصلحة تقتضي ذلك:

1 ـ حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف شهر ذي القعدة من الأشهر الحرم.

---

(1) انظر زاد المعاد (3/ 170 ـ 171)، وكتابي: السيرة النبوية (1/ 525 ـ 527) لتفصيل البحث.

ففي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك: (أنه خرج إلى هوازن في شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ، ورجع فَلّهُم فلجؤوا إلى الطائف ـ عَمدَ إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتتحها)(1).

2 ـ دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً في شهر رمضان.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبيد الله أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [صام رسول الله ﷺ حتىٰ إذا بلغ الكَديد الماءَ الذي بين قُدَيْدٍ وعُسْفان أفطر ، فلم يزل مفطراً حتىٰ انسلخ الشهر](2).

وفي رواية ، قال ابن عباس: [سافر رسول الله ﷺ في رمضان فصام حتىٰ بلغ عُسْفان ، ثم دعا بإناء من ماء فشرب نهاراً ليُرِيَهُ الناس فأفطر حتىٰ قدم مكة].

3 ـ أعلن ﷺ يوم الفتح أنه: «لا يحل لأحد أن يسفك بها دماً» ، وأذن بِقَتْلِ مَنْ قَتَلَ في الحرم.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال: [مَنْ سَرَقَ أو قَتَلَ في الحِلِّ ثم دخل الحرم ، فإنه لا يُجَالَسُ ولا يُكَلَّمُ ، ولا يُؤوىٰ ، ولكنه يُناشَدُ حتىٰ يخْرُجَ ، فيؤخَذَ ، فيقامَ عليه الحدُّ ، وإن سَرَقَ أو قَتَل في الحرم أقيم عليه في الحرم](3).

وبنحوه روىٰ الأثرم عن ابن عباس قال: [مَنْ أحْدَثَ حَدَثاً في الحرم ، أُقيم عليه ما أحدث فيه من شيء].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾.

تقريع وذمٌّ لتصرفِ المشركين في التعامل بأهوائهم مع حرمات الله ، إذ أحدثوا قبل الإسلام بمدّة تحليلَ المحرم وتأخيره إلى صفر ، ليقضوا بذلك أوطارهم من قتال أعدائهم.

قال ابن عباس: (النسيء أنَّ جُنادة بن عوف بن أمية الكناني ، كان يوافي الموسم في كل عام ، وكان يُكنىٰ أبا ثُمامَةَ ، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يُحاب ولا يُعاب ، ألا

(1) صحيح. أخرجه مسلم (1059) ح (136) ، وانظر كتابي: السيرة النبوية (3/ 1390 ـ 1393).
(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (5/ 185) ، وفتح الباري (4/ 180 ـ 181).
(3) إسناده صحيح. انظر تخريج أحاديث زاد المعاد (3/ 447). وكتابي: السيرة النبوية (1312).

وإن صفر العام الأول العامَ حلال. فيحله للناس ، فيحرم صفراً عاماً ، ويحرم المحرم عاماً ، فذلك قول الله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾).

وقال مجاهد: (﴿ لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ : يعني الأربعة ، ﴿ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ ﴾ ، لتأخير هذا الشهر الحرام).

وقال ابن إسحاق في السيرة: (كان أوّل من نسأ الشهورَ على العرب ، فأحَلَّ منها ما حرَّم الله ، وحرَّم منها ما أحَلَّ الله ـ عز وجل ـ القَلَمَّسُ ، وهو: حُذيفة بن عَبْدِ بن فُقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعد بن عدنان ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبّاد ، ثم من بعد عباد ابنه: قَلَعُ بن عباد ، ثم ابنه أمية بن قلع ، ثم ابنه: عوف ابن أمية ، ثم ابنه أبو ثمامة جُنَادة بن عوف ، وكان آخِرَهم ، وعليه قام الإسلامُ.

فكانت العرب إذا فرغت من حَجِّها اجتمعت إليه ، فقام فيهم خطيباً ، فحرَّم: رجباً ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، ويحل المحرم عاماً ، ويجعل مكانه صَفَر ، ويحرمه عاماً ليواطئ عدة ما حرّم الله ، فيُحلّ ما حرم الله ، يعني: ويحرّم ما أحل الله ، والله أعلم).

وقوله : ﴿ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: حُسِّنَ لهم وحُبِّبَ إليهم سَيِّئ أعمالهم وقبيحها ، وما خولف به أمر الله وطاعته. قال: والله لا يوفق لمحاسن الأفعال وجميلها ، وما لله فيه رضىً ، القوم الجاحدين توحيده ، والمنكرين نبوة محمد ﷺ ، ولكنه يخذّلهم عن الهُدىٰ ، كما خذَّل هؤلاء الناس عن الأشهر الحرم).

38 ـ 39. قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩ ﴾ .

في هذه الآيات: يعيب الله تعالىٰ على المؤمنين الاستئناس بالديار ، والركون إلى الظلال ، عند النفير إلى الجهاد ، وقتال الأعداء ، فهل رضيتم ـ أيها المؤمنون ـ بحظ

هذه الدنيا الفانية ، من نعيم الآخرة الباقية ، فما بقاء هذه الدنيا ولذاتها إلا قليل .

إنكم إن تتقاعسوا عن النفير ، ينزل بكم العذاب ويأتي الله بالبديل ، من قوم يحبون نصرة دينه ، والموت في سبيله ، وما أنتم بترككم الجهاد بضارِّيه ـ تعالىٰ ـ شيئاً ، والله على كل شيء قدير .

فقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

قال مجاهد : (أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح ، وبعد الطائف ، وبعد حنين . أمروا بالنّفير في الصيف ، حين خُرِفَت النخل ، وطابت الثمار ، واشتَهُوا الظلال ، وشقّ عليهم المخرج) .

وقوله : ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ . من الثقل . أي تثاقلتم عن الجهاد إلى لزوم الديار والأرض والاستئناس بالجلوس فيها . ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ، أي : هل رضيتم بحظ هذه الدنيا الفانية من نعيم الآخرة والخلود في جنات الإقامة والسرور الذي لا ينقطع .

وقوله : ﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

أي : فما دوام لذات هذه الدنيا وزينتها وبهجتها إلا قليل زائل متغير بالنسبة لدوام نعيم الآخرة والخلود في روضاتها وملذاتها .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن إسماعيل بن أبي خالد قال : حدّثنا قيسٌ قال : سمعت مُسْتَوْرِداً أخا بني فِهْرٍ يقول : قال رسول الله ﷺ : [والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحدُكُمْ إصْبَعَه[1] هذه في اليَمّ ، فلينظرْ أحدُكُم بِمَ تَرْجِعُ؟][2] .

الحديث الثاني : أخرج الترمذي بسند صحيح لغيره عن سهل بن سعد قال : قال

(1) وأشار يحيىٰ بن سعيد ـ أحد الرواة ـ بالسّبابة .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2858) ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ . وأخرجه أحمد (228/4 ـ 229) .

رسول الله ﷺ: [لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافراً منها شربة ماء][1].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم في المستدرك بسند صحيح من حديث المستورد مرفوعاً: [ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكمْ إلى اليمِّ ، فأدخل إصبعه فيه ، فما خرج منه فهو الدنيا][2].

وله شاهد عند الإمام أحمد والطبراني بلفظ: [ما أخذتِ الدنيا من الآخرة ، إلا كما أخذ المِخْيَط غُمِسَ في البحر من مائه] وسنده صحيح.

الحديث الرابع: أخرج الترمذي والحاكم بسند صحيح عن عبد الله مرفوعاً: [مالي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها][3].

وله شاهد عند ابن حبان وأحمد عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: مالي وللدنيا؟! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها][4].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال ابن عباس: (إن رسول الله ﷺ استنفر حياً من أحياء العرب فتثاقلوا عنه ، فأمسك عنهم المطر ، فكان ذلك عذابهم ، فذلك قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾).

---

(1) صحيح لغيره. أخرجه الترمذي (2/ 52) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 3/ 253) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 319) ، وانظر للشاهد مسند أحمد (4/ 229) ، وصحيح مسلم (8/ 156) ، وصحيح الجامع الصغير ، حديث رقم (5398) ، (5423).

(3) حسن صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 60) ، والحاكم (4/ 310) ، وأحمد (1/ 391). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (439).

(4) صحيح لغيره. أخرجه ابن حبان (2526) ، والحاكم (4/ 309 ـ 310) ، وأحمد (1/ 301) ، والحديث رواه البيهقي أيضاً كما في «الترغيب» (4/ 114) ، وانظر السلسلة الصحيحة (440).

وقال قتادة: (استنفر الله المؤمنين في لَهَبَان الحرِّ في غزوة تبوك قِبَلَ الشام، على ما يعلم الله من الجَهْد).

فالمعنىٰ: إن رضيتم ـ معشر المؤمنين ـ بالحياة الدنيا ودَعتها، ونكلتم عن الخروج إلى الجهاد في سبيل الله فقد توعدكم ربكم بعذاب موجع، وما أنتم بترككم الجهاد بضارِّيه شيئاً، بل هو القادر سبحانه أن يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أخرج أبو داود في السنن، بسند صحيح، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا تبايَعْتُمْ بالعِينة، وأخذْتم أذناب البقر، ورضيتم بالزَّرْع، وتَرَكْتُم الجهادَ، سلَّطَ الله عليكم ذُلاًّ لا يَنْزِعُهُ حتىٰ ترجعوا إلى دينكم][1].

40. **قوله تعالىٰ**: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآية: يقول تعالىٰ ذكره: إنكم إنْ لا تنصروا هذا النبي ـ أيها الناس ـ فقد تكفل الله بنصره، فقد أخرجه كفار مكة هو وصاحبه، فنزلا مختفيين في الغار، وأعمىٰ الله عنهما الأبصار، وأنزل تعالىٰ عليه الطمأنينة والأمان، وأيّده بالجنود الكرام، وجعل كلمة الكفار السفلىٰ، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز في انتقامه، حكيم في قضائه.

فقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾.

قال مجاهد: (ذكر ما كان في أول شأنه حين بُعث، فالله فاعلٌ به كذلك، ناصره كما نصره إذ ذاك، ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3462) ـ كتاب الإجازة ـ باب في النهي عن العينة، ورواه أحمد.

وقال قتادة: (فكان صاحبَه أبو بكر، وأما ﴿ٱلْغَارِ﴾، فجبل بمكة يقال له: ثور).

لقد حدد الوحي غار ثور منطلقاً للهجرة، وتم ضرب الموعد مع الدليل بذلك المكان، وكان خروج المصطفىٰ ﷺ والصديق رضي الله عنه للغار ليلاً، وقد حمل الصديق رضوان الله عليه ثروته كلها لتكون تحت تصرف رسول الله ﷺ.

يروي الحاكم بسند حسن من حديث أسماء: [أنها كانت خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم][1].

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، تطمين لأبي بكر رضي الله عنه من النبي ﷺ

وفي الصحيحين والمسند من حديث أنس أن أبا بكر حدثه قال: [قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه! فقال: يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما][2].

وقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

أي: أنزل الله تعالىٰ السكينة، وهي الطمأنينة والسكون، على رسوله، وقيل على أبي بكر، وقوّاه بجنود وهي الملائكة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾. قال ابن عباس: (وهي الشرك بالله).

وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾. قال ابن عباس: (وهي: لا إله إلا الله).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ يقول: ودين الله وتوحيده وقولُ لا إله إلا الله، وهي كلمته ﴿ٱلْعُلْيَا﴾ على الشرك وأهله، الغالبة).

ثم قال جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (والله ﴿عَزِيزٌ﴾ أي في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه، واحتمىٰ بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله).

---

(1) انظر مستدرك الحاكم (3/ 5) بإسناد حسن. وانظر كتابي: السيرة النبوية (1/ 440) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3653) ـ كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ـ. وأخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2381)، كتاب فضائل الصحابة. وأخرجه أحمد في المسند (1/ 4).

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: [سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله][1].

41. قوله تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

في هذه الآية: دعوة الله تعالىٰ عباده المؤمنين، إلى النفير للجهاد لحراسة الدين، وكسر شوكة الكافرين المعاندين، وذلك بالأموال والأنفس والرخيص والثمين، وهذا هو الخير العظيم لو كانوا يعلمون.

فقوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال الحسن: (شيباً وشبّاناً). فعنىٰ بالخفة: الشباب، وبالثقل: الشيخوخة.

2 ـ قال عكرمة: (الشاب والشيخ). وقال مجاهد: (شباباً وشيوخاً، وأغنياء ومساكين).

3 ـ قال الضحاك: (كهولاً وشبّاناً).

4 ـ وقال الحكم: مشاغيل وغير مشاغيل). وقال الحسن: (في العسر واليسر).

5 ـ وقال أبو صالح: (﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال: أغنياء وفقراء).

6 ـ وقال قتادة: (﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال: نِشاطاً وغيرَ نشاط).

7 ـ وقال مجاهد: (﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة والضيعة والشغل، والمتيسر به أمره؟ فأنزل الله وأبىٰ أن يعذرهم دون أن ينفروا ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وعلى ما كان منهم).

والخلاصة: أمر الله تعالىٰ المؤمنين بالنفير لقتال أعدائه ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، ويشمل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (123) ـ كتاب العلم ـ، وأخرجه مسلم في صحيحه (1904) ـ كتاب الإمارة ـ.

ذلك جميع أحوال عباده: في الصحة والمرض، والنشاط والكسل، والقوة والضعف، وسعة المال وضيقه، والفراغ والشغل، واليسر والعسر، والقدرة على الظهر والركاب والعجز عن ذلك، وقلة العيال وكثرتهم، وغير ذلك من تقلب الأحوال.

وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ترغيب ببذل الأموال والنفوس في سبيل الله، فإن سلعة الله غالية، وسلعة الله هي الجنة.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: 157].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال حَجٌّ مبرور][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم والنسائي والترمذي عن زَيدِ بن خالدٍ، رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: [مَنْ جَهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خَلَفَ غازياً في أهله بخير فقد غزا][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 302)، ومسلم (83)، من حديث أبي هريرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 37)، ومسلم (1895)، وأخرجه النسائي (6/ 46)، والترمذي (1628)، من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه مرفوعاً.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَلِجُ النارَ رجُلٌ بكىٰ من خشية الله حتىٰ يعودَ اللّبن في الضَّرعِ ، ولا يجتمع على عَبْدٍ غُبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم][1] .

42 ـ 47. **قوله تعالىٰ**: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)﴾ .

في هذه الآيات: ذَمُّ الله تعالىٰ المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك ، فإنهم لو رأوا الغنيمة قريبة المنال في سفر سهل قريب لخرجوا معك ـ يا محمد ـ ولكن استصعبوا مشقة الطريق وزمان القَيْظ ، ويحلفون كذباً لِتَقْبَلَ أعذارهم الكاذبة والله يعلم إنهم لكاذبون.

لقد عفا الله عنك ـ يا محمد ـ في إذنك لهم ، وكان ينبغي التريث لاختبار الصادق من الكاذب.

إنه لا يطلب الإذن لعدم الخروج للجهاد من يؤمن بالله واليوم الآخر ، بل يطلبه المنافقون المبطلون.

ولو كانوا أرادوا الخروج معك بصدق لأخلصوا التأهب والاستعداد ، ولكنَّ الله عَلِمَ

---

(1) حسن صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (1633) ، والنسائي في السنن (6/ 12) ، وإسناده صحيح. وصححه الحاكم.

كَذِبَ قلوبهم فثَبَّط هممهم وأقعدهم مع القاعدين ، من المرضىٰ والنساء والصبيان والعجزة المعذورين .

إنهم لَو خرجوا معكم ما زادوكم ـ معشر المؤمنين ـ إلا فساداً وتخذيلاً ، ولأوقعوا بينكم بالنمائم والوشايات الكاذبة ، يريدون إفساد صفوفكم ، والله عليم بالظالمين .

فقوله : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ .

قال ابن جرير : (لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك ، والمستأذنيك في ترك الخروج معك[1] إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه ، ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ ، يقول : غنيمة حاضرة ، ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ ، يقول : وموضعاً قريباً سهلاً ، ﴿ لَّاتَّبَعُوكَ﴾ ، ونفروا معك إليهما ، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد ، وكلفتهم سفراً شاقاً عليهم ، لأنك استنهضتهم في وقتِ الحرّ ، وزمان القَيْظ ، وحين الحاجة إلى الكِنِّ) .

وعن قتادة : (﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ ، قال : هي غزوة تبوك) .

وقوله : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ، أي : لو لم تكن لنا أعذار لكنا قد خرجنا معكم واشتركنا في الجهاد . ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بسخط الله نتيجة الكذب والحلف بالله زوراً وبهتانا .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ . قال ابن إسحاق : (أي : إنهم يستطيعون) .

وقال قتادة : (إنهم يستطيعون الخروج ، ولكن كان تَبْطِئَة من عند أنفسهم والشيطان ، وزهادة في الخير) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

عتاب من الله سبحانه لنبيه ﷺ أنه كان ينبغي أن يتريَّثَ قبل الإذن لهؤلاء المتخلفين في التخلف عن غزوة تبوك حتىٰ يتبين له الصادق من الكاذب ، وصاحب العذر الحقيقي من المدعي ذلك .

قال مورِّق : (﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ : عاتبه ربه) .

وقال مجاهد : (ناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا) .

---

(1) أي إلى تبوك ، وهو توبيخ للمستأذنين في التخلف بأعذار واهية كاذبة .

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (فهذا تعييرٌ للمنافقين حين استأذنوا في القُعود عن الجهاد من غير عُذْر، وعذَرَ الله المؤمنين فقال: ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: 62]).

والآية في فضح بعض مسالك المنافقين في الاعتذار الكاذب لئلا يخرجوا إلى الجهاد والله عليم بمن خافه واتقاه وسارع إلى طاعته وامتثال أوامره.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

أي: إنما يستأذنك ـ يا محمد ـ في القعود عن الجهاد ـ ممن لا عذر له ـ الذين لا يثقون بالله ولا يرجون ثوابه ورضوانه في الدار الآخرة، بل هم في شك وحيرة وريبة يتخبطون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾.

أي: ولو أرادوا الخروج معك ـ يا محمد ـ بصدق إلى الغزو لكانوا أخلصوا في التأهب والاستعداد، أمَا وقد كذبوا النية في ذلك فأبغض الله خروجهم فأخّرهم وثبّط هممهم وعزائمهم وقيل اقعدوا مع المرضىٰ والعجزة والضعفاء الذين لا يجدون ما ينفقون ومع النساء والصبيان المعذورين، فإنه من لم يؤيّده الله بالقوة والعزيمة والثبات فلا سبيل له إلى ذلك.

وقوله: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ ﴾.

قال النسفي: (ما زادوكم بخروجهم معكم ﴿ إِلَّا خَبَالًا ﴾ إلا فساداً وشراً، والاستثناء متصل، لأن المعنىٰ ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً، والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنىٰ من غير جنس المستثنىٰ منه، كقولك: «ما زادوكم خيراً إلا خبالاً» والمستثنىٰ منه في هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء فكان استثناء متصلاً لأن الخبال بعضه. ﴿ وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وإفساد ذات البين).

وقال ابن جرير: («ولأوضعوا بينكم»، يقول: ولأسرعوا بركائبهم السَّير بينكم).

والمقصود: الإسراع ببث النمائم والفساد للإيقاع بينكم ونشر الدعايات الكاذبة لتخذيلكم وتثبيطكم.

قال الشهاب: (الإيضاع: إسراع سير الإبل). فشبه النمائم بالركائب في جريانها وانتقالها.

قال القاسمي: (واعلم أن قوله ﴿ وَلَأَوْضَعُوا ﴾ مرسوم في الإمام[1] بألفين، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي. والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من تلك الألف أثر في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرىٰ ونحوه ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ [النمل: 21]).

وقوله: ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾، قال مجاهد: (يبطئونكم).

وقال ابن زيد: (يخذلونكم)، ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾، الكفر). والمقصود يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم، وبإفساد نياتكم وعزائمكم.

وقوله: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾. قال مجاهد: (أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم).

وقال قتادة: (وفيكم من يسمع لهم) ـ وهو الأرجح من القول السابق.

قال ابن كثير: (﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾، أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير).

قال محمد بن إسحاق: (كان ـ فيما بلغني ـ من استأذن من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبيّ بن سلول والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثَبَّطهم الله، لعلمه بهم، أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. إخبار من الله تعالىٰ عن علمه بسرائر المنافقين وما يبيتون، وبأعمال المجرمين والظالمين، وبما كان ويكون وسوف يكون، وبما لن يكون لكن إن قُدِّرَ وكان كيف سوف يكون.

وهذه الآية من قبيل هذا المعنىٰ، فإنه سبحانه وتعالىٰ قال في أولها: ﴿ لَوْ خَرَجُوا

(1) أي في المصحف الأصلي «ولا أوضعوا» وبنحوه في آية النمل ﴿ أَوْلا أذبحنه ﴾.

فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ ، فأخبر كيف يكون من أمرهم لو خرجوا ، ومع هذا ما خرجوا ، وهذا كما في التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : 23] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : 66 ـ 68] .

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قَدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألفَ سنة][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام الترمذي بسند صحيح من حديث عبادة بن الصامت قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ أوَّلَ ما خلق الله القلمَ ، فقال: اكتب ، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القَدَرَ ما كان وما هو كائن إلى الأبد][2] .

وله شاهد عند أبي يعلىٰ والبيهقي من حديث ابن عباس مرفوعاً: [إن أول شيء خلقه الله تعالىٰ القلم ، وأمره أن يكتب كل شيء يكون] .

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند جيد عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال: [فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد][3] . وفي رواية: (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 51) ، وأخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (2259) . وانظر صحيح سنن الترمذي (1750) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2258) في أبواب القدر ، انظر صحيح سنن الترمذي (1749) ، وانظر للشاهد كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي ص (271) ، ومسند أبي يعلىٰ (1/ 126)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (133) .

(3) حديث جيد. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (7/ 195) ، وأحمد (5/ 197) . انظر صحيح الجامع الصغير (4077) ، (4078) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (813) لتفصيل البحث .

48 ـ 51. **قوله تعالى**: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآيات: يخاطب الله سبحانه نبيّه ﷺ محذّراً سلوك هؤلاء المنافقين: إنهم منذ مقدمك المدينة لم يُفَوِّتوا فرصة لِلنَّيل منك ومن دينك ومن أصحابك، حتىٰ أظهر الله الدين الحق وَقَوَّىٰ شوكة المؤمنين.

ومنهم من يعتذر عن الخروج بادِّعَاءٍ ساقط: وهو خشيته الوقوع بفتنة النساء، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة عن نفسه أعظم، ونار جهنم تحرق المكذبين المنافقين.

إنك إن تسعد ـ يا محمد ـ بنصر أو غنيمة تسؤهم، وإن تنزل بك نازلة يفرح هؤلاء بحذرهم.

فقل لهم ـ يا محمد ـ: إنه لن يصيبنا إلا ما قدّره الله لنا وهو سبحانه سيدنا وناصرنا وعليه يتوكل المؤمنون.

فقوله: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾.

قال ابن إسحاق: (ليخذِّلوا عنك أصحابك، ويردّوا عليك أمرك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾).

والمقصود: أن هؤلاء أهل النفاق لم يفوِّتوا فرصة منذ مقدمك المدينة ـ يا محمد ـ إلا أفادوا منها في محاولة لكيدك وكيد أصحابك وخِذلان دينك، حتىٰ أظهر الله الإسلام وأبطل الجاهلية، وكشف سبل المنافقين، وأعز أولياءه وخذل أعداءه ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾. أي: ائذن لي في القعود والتخلف ولا تفتني بالخروج معك لعدم احتمال رؤية الجواري من نساء الروم، فأجابهم الله تعالىٰ: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾، أي بهذا القول قد سقطوا، فإن التكاليف والأوامر الشرعية متحملة ولو ظهر فيها مشقة، فغض البصر أمر شرعي، وقتال الكفار أمر شرعي، وكل التكاليف والأوامر الشرعية مستطاعة.

ذكر الشاطبي: في «الموافقات»: (أن المشقة الشرعية لا يجوز دفعها لأنها دفع للتكليف، وبيّن أن المشقة قد تبلغ من الأ عمال العادية ما يظن أنه غير معتاد، ولكنه في الحقيقة معتاد، وبين أن العمل الواحد له طرفان وواسطة، فحيث يقول تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، كان هذا موضع شدة لأنه يقتضي ألا رخصة في التخلف أصلاً ولكنه محمول على أقصىٰ الثقل الذي يمكن إتيانه).

أخرج الطبري في التفسير، وابن إسحاق في السيرة، من طريق عبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمرَ بن قتادة وغيرهم قالوا: (قال رسول الله ﷺ ذاتَ يوم، وهو في جهازِه، للجَدِّ بن قيس أخي بني سَلِمَةَ: «هل لك يا جَدُّ في جِلاد بني الأصفر»؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذنُ لي ولا تَفْتنِّي، فوالله لقد عَرَفَ قومي ما رجلٌ أشدّ عجباً بالنساءِ مِنّي، وإني أخشىٰ إن رأيت نساءَ بني الأصفر ألاّ أصْبِرَ عنهنَّ. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أَذِنْتُ لك».

ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ...﴾ الآية، أي: إنما كان إنما يخشىٰ من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بِتَخلّفهِ عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم)[1].

وقد كان الجدّ بن قيس من أشرافِ بني سلمة، ويبدو أن الآية السابقة نزلت فيه، ولا شك أنها تنسحب على أمثاله.

أخرج الطبراني في «الكبير» من حديث كعب بن مالك: [أن رسول الله ﷺ قال لهم: من سيدكم يا بني سَلِمة؟ قالوا: الجَدُّ بن قيس، على أنا نُبَخِّلُهُ.

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره (16803)، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (4/ 516)، عن غير واحد من التابعين، وله شواهد مرسلة كثيرة يتأيد بها، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

فقال رسول الله ﷺ: وأيُّ داءٍ أدْوَأُ من البخل؟! ولكن سيّدكم الفتىٰ الأبيض الجَعْدُ، بشرُ بن البراء بن مَعْرور][1].

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: لا محيدَ لهم عنها، ولا محيص ولا مَهْرب).

وقوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: إن تصبك في سفرك هذه الغزوة تبوك، ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾، قال: الجدُّ وأصحابه).

وقال قتادة: (إن كان فتح للمسلمين، كبر ذلك عليهم وساءَهم).

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

قال ابن جرير: (وإن تصبك مصيبة بفلول جيشك فيها، يقول الجدَّ ونظراؤه: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: قد أخذنا حذَرنا بتخلّفنا عن محمد، وترك أتباعه إلى عدوه، ﴿مِن قَبْلُ﴾، يقول: من قبل أن تصيبه هذه المصيبة، ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، يقول: ويرتدُّوا عن محمد وهم فرحون بما أصاب محمداً وأصحابه من المصيبة، بفلول أصحابه وانهزامهم عنه، وقتل من قُتِلَ منهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

إرشادٌ من الله تعالىٰ نبيّه ﷺ كيف يجيبُ خصومه في عداوتهم التامة وشكهم في نصر الله وفرجه: قل لهم ـ أيها المرتابون في دينهم ـ نحن تحت مشيئة الله وحكمه وأمره، لن يصيبنا إلا ما كتبه علينا في اللوح المحفوظ وقضاه لنا، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصرنا وسيدنا وملجؤنا، ونحن متوكلون عليه واثقون بنصره وفرجه إنه سبحانه نعم المولىٰ ونعم النصير.

---

(1) أخرجه الطبراني في «الكبير» (19/ 163 ـ 164). وقال الهيثمي في «المجمع» (9/ 315): رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير شيخي الطبراني ولم أر من ضعفهما.
والحديث له شواهد وطرق. راجع «الإصابة» (1/ 150/ 654)، وتفسير ابن كثير (3543) ـ سورة التوبة، آية (49) ـ تحقيق المهدي. فهو حديث حسن إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: (التوكل عمل القلب).

وقال سهل: (التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضا بعده).

وقيل: (التوكل إسقاط التدبير) ـ يعني الإستسلام لتدبير الرب لك، وهذا في باب التجربة الابتلائية وليس في باب الأمر والنهي.

وفي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقول: [اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أَنَبْتُ، وبك خاصَمْت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني، أنت الحيّ الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون][1].

52 ـ 55. **قوله تعالىٰ**: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول تعالىٰ ذكره لنبيه ﷺ: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المنافقين: هل ترقبون بنا إلا النصر أو الشهادة؟! فنحن ننتظر بكم نزول نقمة الله بكم بعذاب من عنده أو بأيدينا فانتظروا إنا منتظرون.

إنكم لن ينفعكم الإنفاق في أي حال ما دمتم كفرتم بالوحي وأنكرتم النبوة، ثم سخرتم بالصلاة وأتيتموها كسالىٰ ولا تنفقون إلا وأنتم كارهون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 80) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1866) ـ كتاب الدعاء ـ ورواه البخاري.

فلا تعجبك ـ يا محمد ـ أموالهم وأولادهم ، فهي عقوبة الله لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وهذاجزاء الكافرين.

فقوله: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾. أي: الظفر أو الشهادة. وعليه أقوال المفسرين:

1 ـ قال ابن عباس: (يقول فتح أو شهادة. وقال مرة أخرىٰ: يقول: القتل ، فهي الشهادة والحياة والرزق ، وإمّا يخزيكم بأيدينا). وقال مرة أخرىٰ: (يقول: قتل فيه الحياة والرزق ، وإما أن يغلب فيؤتيه الله أجراً عظيماً . وهو مثل قوله ﴿ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 74]).

2 ـ وقال مجاهد: (القتل في سبيل الله ، والظهور على أعدائه).

3 ـ وقال قتادة: (﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ ، إلا فتحاً أو قتلاً في سبيل الله).

وقوله: ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾.

قال قتادة: (أي قتل).

وقال ابن جرير: (يقول: ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده عاجلة ، تهلككم ، ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ ، فنقتلكم ، ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ ، يقول: فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بنا ، وما إليه صائرٌ أمر كلِّ فريق منّا ومنكم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾.

أي: لن ينفعكم الإنفاق على أي حال وأنتم في شك من دينكم ، وإنكارٍ لِنُبوة نبيكم ، وجهل بالله تعالىٰ وثوابه وعقابه ، فإنكم كنتم قوماً خارجين عن الإيمان واليقين بربكم ولقائه ومعاده.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس قال ، قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يُعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة ، وأما الكافر فَيُطْعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة ، لم تكنْ له حسنةٌ يُجزىٰ بها][1].

وفي رواية: [إن الكافر إذا عمل حسنة أُطْعِمَ بها طُعْمَةً من الدنيا ، وأما المؤمن فإن الله يَدَّخِرُ له حسناته في الآخرة ويُعْقِبُهُ رِزْقاً في الدنيا على طاعته].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2808) ـ كتاب صفات المنافقين ـ. وانظر الحديث بعده في الباب للرواية الثانية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: إنما حَجَبَ نفقاتهم على القبول عند الله إبطان الكفر والاستهزاء بالدين والرسول والوحي، ويظهر ذلك بمجاملتهم في الصلاة فيأتونها متثاقلين، وكذلك لا ينفقون نفقة إلا وهم كارهون.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أيها الناس! إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾. ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يده إلى السماء يا رب يا رب! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنّىٰ يستجاب لذلك][1].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قال قتادة: (هذه من تقاديم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة).

وقال الحسن: (﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله) ـ وهو اختيار شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير رحمه الله.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55 ـ 56].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131].

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكىٰ

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (540).

لهم وأشد لعذابهم ، عياذاً بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه).

وفي المسند للإمام أحمد ، بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأيت الله تعالىٰ يُعطي العبد من الدنيا ما يحب ، وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك منه استدراج][1].

56 ـ 59. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ۝٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ۝٥٧ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾.

في هذه الآيات: فَضْحُ الله تعالىٰ المنافقين لعباده المؤمنين ، أنهم يحلفون بالله كذباً أنهم معكم في الدين والإيمان ، وإنما هم يتسترون بذلك خوف القتل والخذلان.

إنهم لو يجدون محرزاً لفروا إليه منكم مسرعين.

ومنهم ـ يا محمد ـ من يعيب عليك في قَسْمك الصدقات فإن حظوا منها بحظ وافر أظهروا الرضىٰ ، وإن لم يحظوا بما يرضيهم أظهروا السخط والغضب.

ولو رضي هؤلاء المنافقون قسمة الله ورسوله لهم واستعانوا بالله على مزيد من الرضا والعطاء لكان خيراً لهم ولكنهم قوم مذبذبون منافقون مخذولون.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾.

أي: يحلف هؤلاء المنافقون كذباً خوفاً منكم بأنهم منكم في الدين والملة وليسوا كذلك ، بل إنهم قوم يبطنون التكذيب والنفاق ، إنما حملهم على الحلف الخوف من القتل.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 145) ، وابن جرير في التفسير (7/ 115) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (414).

قال القرطبي: (والفَرَق الخوف، أي يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيقتلوا).

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (الملجأ: الحِرْز في الجبال، والمغارات: الغِيران في الجبال، والمدّخل: السَّرَب).

وقال أيضاً: (﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾، يقول: ذهاباً في الأرض، وهو النفق في الأرض، وهو السَّرَب).

وقال مجاهد: (﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾، قال: محرزاً لهم، لفرّوا إليه منكم).

قلت: والغيران جمع مَغَارة، من غار الرجل في الشيء إذا دخل فيه، والملجأ: الحصن، والمُدَّخل: المَسْلك نختفي بالدخول فيه كالنفق والسرب وغيره.

والمعنىٰ: يود المنافقون أن لا يخالطوا المؤمنين كراهية رؤية نصرهم وعزهم، حتىٰ لو سلكوا في حصن أو مغارات أو أنفاق تحجبهم عن رؤية عز الإسلام ورفعة جنده، لولجوا ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يسرعون في مَشْيِهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾.

أي: ومن المنافقين من يعيب عليك ـ يا محمد ـ في قسمك الصدقات، فإن حظوا منها بحظ وافر أظهروا الرضىٰ وإن كان غير ذلك أظهروا السخط والغضب.

قال قتادة: (﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾، يقول: ومنهم من يَطْعَنُ عليك في الصدقات). أي يعيب عليك فيها.

وقال ابن زيد: (هؤلاء المنافقون قالوا: والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرُ بها إلا هواه).

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: [بينما نحنُ عند رسول الله ﷺ وهو يَقْسِمُ قَسْماً إذ أتاه ذُو الخُوَيْصِرَة وهو رجُلٌ من بني تميم، فقال: يا رسول الله! اعدِلْ، فقال: وَيْلَكَ، ومن يَعْدِلُ إذا لم أَعْدِلْ؟ قد خِبْتُ وخَسِرْتُ إنْ لم أكُنْ أعْدِلُ، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرِبَ عُنُقَهُ، فقال: دَعْهُ فإنَّ له أَصْحاباً يَحْقِرُ أحدُكُم صلاتَهُ مع صلاتِهم، وصيامَهُ مع صيامِهِم،

يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقِيَهمْ ، يمرقون من الدين كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيّة ، يُنْظَرُ إلى نَصْلِهِ فلا يوجدُ فيه شيءٌ ، ثم يُنْظر إلى رِصَافِهِ فما يوجد فيه شيءٌ ، ثم يُنْظَرُ إلى نَضِيِّه ـ وهو قِدْحُهُ ـ فلا يوجد فيه شيءٌ ، ثم يُنْظَرُ إلى قُذَذِهِ فلا يوجَدُ فيه شيءٌ ، قد سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ ، آيتُهُم رجلٌ أسودُ إحدى عَضُدَيه مِثْلُ ثَدْيِ المرأة أو مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ ، ويخرجونَ على حين فُرْقَةٍ من الناس. قال أبو سعيد: فأشْهَدُ أنّي سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ، وأشهد أنَّ عليَّ بن أبي طالب قاتَلَهم ، وأنا معه ، فأمر بذلك الرَّجلِ فالتُمِسَ فأُتِيَ به ، حتىٰ نظرت إليه ، على نعت النبي ﷺ الذي نَعَتَهُ. قال: فنزلت فيهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾

أي: لو رضي هؤلاء الذين نافقوا ما قسم الله لهم ورسوله من عطاء ، وقالوا: كافينا الله ، سيعطينا الله من فضل خزائنه ، وكذلك رسوله من الصدقة وغيرها ، فإننا نرغب إلى الله في التوسعة علينا وفي بسط رزقه لنا حيث نستغني عن الصدقة والناس.

قال النسفي: (جواب «لو» محذوف تقديره: ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم ، والمعنىٰ: ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قل نصيبهم وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه ، وحسبنا ما قسم لنا ، سيرزقنا غنيمة أخرىٰ فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم إنا إلى الله في أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون).

60. قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾.

في هذه الآية: بيان من الله تعالىٰ لمصارف الزكاة بعد فضح المنافقين في سلوكهم ولمزهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3610) ، (6163) ، (6933) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (1064) ح (148) ، وأخرجه أحمد نحوه (3/ 56 ، 65) ، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة التوبة ، آية (58).

قال ابن كثير: (لما ذكر تعالىٰ اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات بيَّن تعالىٰ أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولَّىٰ أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين).

هل يجب استيعاب هـذه الأصنـاف؟

قال ابن كثير: (وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية، هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى من أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني: أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطىٰ جميع الصدقة مع وجود الباقين، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران).

قال ابن جرير: (وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف هاهنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء).

فإلى تفصيل مصارف الزكاة كما بيّنها الله تبارك وتعالىٰ:

1 ـ قوله: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾.

الفقير: هو المحتاج الذي لا يجد ما يكفيه.

أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تَحِلُّ الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّة سَوِيّ][1]. المِرّة: القوة والشدة، والمقصود صحيح البدن يحتمل التعب، و«سوي» أي سليم الأعضاء.

وفي صحيح سنن أبي داود عن عُبيد الله بن عدي: [أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فَقَلّب فيهما بصره، فرآهما جَلْدَين، فقال: إن شئتما أعطيتكما، ولاحظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب][2].

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 164، 192)، وابن ماجة (1839)، وأبو داود (1634)، والترمذي (652) وقال: حديث حسن. وأخرجه الحاكم (1/ 407)، والدارمي (1/ 386)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1633) ـ كتاب الزكاة ـ. وانظر صحيح سنن أبي داود (1438). وأخرجه النسائي (5/ 99 ـ 100)، والشافعي (1/ 242)، والدارقطني (3/ 119)، ورواه أحمد في المسند (4/ 224).

2 ـ قوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

المسكين: أسوأ حالاً من الفقير.

كما ذهب أبو حنيفة رحمه الله، وهذا قريب.

فالمسكين يتعفف عن السؤال بعكس الفقير، وقد دلت النصوص على ذلك:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: [ليس المسكينُ بهذا الطوّافِ الذي يطوف على الناس، فتَردّه اللقمةُ واللقمتان، والتمرةُ والتمرتان. قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجدُ غِنىً يغنيه، ولا يُفْطَنُ له فيتصدَّقُ عليه، ولا يسأل الناس شيئاً][1].

وأخرج الطبراني والحاكم بسند حسن عن أبي سعيد: أحبوا المساكين، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في دعائه: [اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين][2].

قال البيهقي ـ كما ذكر الحافظ في «التلخيص» ص 275 ـ: (ووجهه عندي أنه لم يسأل حال المسكنة التي يرجع معناها إلى القلة، وإنما سأل المسكنة التي يرجع معناها إلى الإخبات والتواضع).

3 ـ قوله: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

العاملون عليها: هم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة.

ففي صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال: [إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس][3].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1476)، (4539)، ومسلم (1039) ح (102)، وأخرجه أبو داود (1631)، والنسائي (5/ 84 ـ 85)، وأخرجه أحمد (2/ 395)، (2/ 493) ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في الدعاء (1425)، والحاكم (4/ 322)، وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (110/ 2)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (308).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1072)، (1073)، وأبو داود (2985)، والنسائي (5/ 105)، وأحمد (4/ 166)، والبيهقي (7/ 31)، والطحاوي (1/ 299)، وغيرهم.

قلت: وهذا الحكم خاص في حياة النبي ﷺ لأمرين اثنين:

الأول: أن النبي ﷺ كان يعرف آله وأهله.

والثاني: أنه ﷺ كان يكفي بني هاشم في حياته مقابل منع قبول الصدقة عنهم.

وأما اليوم فلا حجة بكلام بعضهم أنه من آل بيت النبي ﷺ فلا تحل له الصدقة لأمرين اثنين:

الأول: ربما لا يكون في التحقيق من آل بيته ﷺ.

والثاني: لقد غاب النبي ﷺ حيث كان يكفيهم.

4 ـ قوله: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

المؤلفة قلوبهم أصناف:

أ ـ منهم من يعطىٰ من الزكاة ليسلم.

ب ـ ومنهم من يعطىٰ منها ليحسن إسلامه ويثبت قلبه.

ج ـ ومنهم من يعطىٰ لما يرجىٰ من إسلام نظرائه.

د ـ ومنهم من يعطىٰ ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد.

ففي صحيح مسلم عن ابن شهاب قال: [غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بِحُنَيْن، فنصر الله دينه والمسلمين. وأعطىٰ رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مئة من النّعَم، ثم مئة، ثم مئة. قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح ـ وفي لفظ: فما زال ـ يعطيني حتىٰ إنه لأحب الناس إليّ][1].

وأعطىٰ يوم حنين جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مئة من الإبل، ليحسن إسلامهم وتثبت قلوبهم.

وقال ـ كما يروي البخاري عن سعد بن أبي وقاص ـ: [إني لأُعطي الرجل وغيرهُ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2313)، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 401)، (6/ 465)، وأخرجه الترمذي في السنن (666).

أحبُّ إليّ منه ، خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم][1] .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد: [أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بِذُهَيْبَةٍ في تربتها من اليمن ، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس ، وعُيينة بن بدر ، وعلقمة بن عُلاثة ، وزَيد الخير ، وقال: أتألفهم][2] .

5 ـ قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ .

ذكر الحسن البصري وسعيد بن جبير: (أنهم المكاتَبون). وهو مذهب الشافعي والليث.

وقال ابن عباس: (لا بأس أن تُعتَقَ الرقبة من الزكاة) ـ أي إنَّ الرقاب أعم من أن يعطي المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً ـ ، وهو مذهب مالك وأحمد.

وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة ، منها:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله منه بكل عضو منه عضواً من النار ، حتىٰ يعتق فرجَهُ بفرجِه][3] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي بسند حسن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله ، والمكاتَبُ الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف][4] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد ورجاله ثقات عن البراء قال: [جاء رجل فقال: يا رسول الله ، دُلَّني على عَمَلٍ يُقَـرِّبُني من الجنة ويباعدني عن النار. فقال:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (27) ، (1478) ، ومسلم (150) ، وأحمد (1/ 176) ، وأخرجه أبو داود (4683) ، (4684) ، والنسائي (8/ 103) ، (8/ 104) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. هو بعض حديث أخرجه البخاري (3344) ، ومسلم (164) ح (144) ، وأحمد (3/ 73) ، وأخرجه أبو داود (4764) ، والنسائي (7/ 118) (5/ 87) ، وأبو يعلىٰ (1163).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1581/ 49/ 3) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (6051).

(4) حدث حسن. أخرجه أحمد (2/ 251 ، 347) ، والترمذي (1655) ، والنسائي (6/ 61) ، وأخرجه ابن ماجة (2518) ، وابن حبان (4030) ، والحاكم (2/ 160 ، 217) ، على شرط مسلم.

أعتق النَسمة وفُكَّ الرقبة . فقال: يا رسول الله ، أوليسا واحداً؟ قال: لا ، عِتْقُ النَّسَمة أن تُفْرِدَ بعتقها ، وفك الرقبة أن تُعين في ثمنها][1] .

6 ـ قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ .

الغارمون أنواع:

أ ـ منهم من تحمل حمالة .

ب ـ أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله .

ج ـ أو غرم في أداء دينه .

د ـ أو غرم في معصية ثم تاب .

والأصل في هذا حديث قَبيصةَ بن مُخارِق الهِلالِيّ ـ رواه مسلم في صحيحه ـ قال: [تحمَّلْتُ حَمَالَةً ، فأتيتُ رسول الله ﷺ: أسألُهُ فيها ، فقال: أقمْ حتى تأتِيَنا الصدقةُ ، فنأمُرَ لك بها. قال: ثم قال: يا قبيصةُ ، إن المسألة لا تَحِلُّ إلا لأحدِ ثلاثةٍ ، رجلٍ تحمّلَ حَمَالَةً فَحَلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يُمْسِك ، ورجل أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله ، فحلّت له المسألة حتىٰ يُصيبَ قِواماً من عيش ـ أو قال: سداداً من عيش ـ ورجل أصابته فاقةٌ حتىٰ يقوم ثلاثة من ذوي الحِجا من قومه ، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ فحلَّتْ له المسألة ، حتىٰ يصيب قِواماً من عيش ـ أو قال: سَداداً من عيش ـ فما سواهُنَّ من المسألة يا قبيصة! سُحْتاً يأكلها صاحِبُها سُحْتاً][2] .

«حمالة»: المال الذي يتحمله الإنسان أي يستدينه ويدفعه في إصلاح ذات البين .

وقوله: «سُحْتاً» أي اعتقده سحتاً أو يُؤكلُ سحتاً ، والسحت: الحرام .

وفي مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس أن النبي ﷺ قال: [لا تحل المسألة إلا لثلاث: لذي فقر مُدْقِع ، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِع ، أو لذي دم موجع][3] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في صحيحه (374) ، وأحمد في مسنده (4/ 299) ، ورجاله ثقات ، وأخرجه الطيالسي (739) ، والبيهقي (10/ 272 ـ 273) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (4/ 240) وقال: ورجال أحمد ثقات .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1044) ، والطيالسي (1327) ، وابن أبي شيبة (3/ 210 ـ 211) ، وأبو داود (1640) ، وأخرجه النسائي (5/ 88 ـ 89) ، وأخرجه الدارمي (1/ 396) .

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود والبيهقي بسند صحيح من حديث أنس رضي الله عنه. انظر صحيح الترغيب (1/ 827) ـ كتاب الصدقات ـ.

ـ وقوله: «مدقع»: أي شديد ـ أي ملصق صاحبه بالدقعاء ـ وهي الأرض لا نبات فيها.

ـ وقوله: «مفظع»: أي شديد شنيع مجاوز للحد.

ـ وقوله: «لذي دم موجع»: أي يتحمل دية عن قريبه القاتل أو صديقه ليدفعها لأولياء المقتول، والتي إن لم يدفعها قتل صاحبه القاتل الذي يتوجع لقتله وإراقة دمه.

7 ـ قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

هذا السهم يشتمل على نوعين اثنين:

أ ـ الغزاة ـ أي في الجهاد ـ الذين لا حق لهم في الديوان.

ب ـ الحج هو من سبيل الله ـ وهو قول أحمد ـ.

وتفصيل ذلك من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تُصُدِّقَ عليه منها فأهدىٰ لغني][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والحاكم من حديث ابن عباس ـ وابن أبي شيبة واللفظ له، والطبراني عن طلق بن حبيب البصري أن أبا طُليق حدثهم: [أن امرأته أم طُليق أتته فقالت له: حضر الحج يا أبا طُليق! وكان له جمل وناقة، يحج على الناقة، ويغزو على الجمل، فسألته أن يعطيها الجمل تحج عليه؟ فقال: ألم تعلمي أني حبسته في سبيل الله؟ ـ وفي رواية: ذاك حبيس في سبيل الله عز وجل ـ. قالت: إن الحج من سبيل الله، فأعطنيه يرحمك الله! قال: ما أريد أن أعطيَك. قالت: فأعطني ناقتك وحجَّ أنت على الجمل. قال: لا أوثِرك بها على نفسي. قالت: فأعطني من نفقتك. قال: ما عندي فضل عني وعن عيالي ما أخرج به وما أترك لكم. قالت: إنك لو أعطيتني أخلفكها الله. قال: فلما أَبَيْتُ عليها قالت: فإذا أتيت رسول الله ﷺ فأَقْرِئْهُ مني السلام، وأخبره بالذي قلت لك. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأقرأته منها السلام وأخبَرْتُـهُ بالذي قالت أمُّ طليق. قال: صَدَقَتْ أمُّ طُلَيْقٍ، لو أعْطَيْتَها الجمل كان في سبيل الله. (وفي رواية: أما إنك لو أحججتها عليه كان في سبيل الله). ولو أعطيتها

(1) حديث صحيح. رواه أبو داود وابن ماجة بإسناد صحيح من حديث أبي سعيد. انظر سنن أبي داود (1619)، وسنن ابن ماجة (1841)، وصحيح الجامع الصغير (7250).

ناقتك كانت وكنت في سبيل الله ، ولو أعطيتَها من نَفَقَتِكَ أَخْلَفَكَها الله][1] .

8 ـ قوله : ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾ .

وهو المسافر انقطع ببلد السفر وإن كان غنياً في بلده ، فيعطىٰ ما يكفيه إلى بلده .

قال الحافظ ابن كثير : (وكذلك ابن السبيل : وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعينُ به على سفره ، فَيُعْطىٰ من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال . هذا الحكمُ فيمن أراد إنشاءَ سفر من بلده وليس معه شيءٌ ، فيُعطىٰ من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه) .

وقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول جل ثناؤه : قَسْمٌ قَسَمَهُ الله لهم ، فأوجبه في أموال أهل الأموال لهم) .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

أي عليم بمصالح عباده ودقائق أمور حياتهم وظروفهم وبظواهر الأمور وبواطنها ، حكيم في تشريعه لهم وقسمته زكاة أموالهم ومصارفها وفي قوله وفعله وقَدَره .

61 ـ 64 . قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : يخبر تعالىٰ عن بعض المنافقين الذين يؤذون رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (1990) ـ كتاب المناسك ـ . وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1753) ، وأخرجه الحاكم (1/ 183) ، والبيهقي (6/ 164) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (3069) .

ويعيبونه ويزعمون أنه أذن سامعة يسمع من كل أحد ويصدقه ويقبل منه ، فكذبهم الله وأخبر أن نبيّه ﷺ أذن خير لا أذن شر ، فهو يسمع ولايقبل إلا من المؤمنين ، فيؤمن بالله ويصدق المؤمنين ، وقد جعله الله رحمة لمن صدقه واتبعه ، وقد توعد الله المنافقين على إيذائهم رسول الله ﷺ وتكذيبهم العذاب الأليم .

إنهم ـ معشر المؤمنين ـ يتكلمون بالمطاعن ويتخلفون عن الجهاد ـ أي المنافقون ـ ثم يعتذرون إليكم لترضوا عنهم والله ورسوله أحق بذلك لو كانوا مؤمنين .

ألم يعلموا سوء عاقبة مخالفة الله ورسوله أنه العذاب الموجع في نار جهنم وذلك الخزي العظيم .

يحذر المنافقون نزول سورة أو آية من القرآن تفضح ما في قلوبهم وتكشف سرائرهم أمام المؤمنين ، فقال الله لهم : ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ ﴾ فإن الله سيفضح أمركم ويكشف بواطنكم ويطلع المؤمنين على ما في قلوبكم ، فإن هذه السورة هي «الفاضحة» .

فقوله : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

قال مجاهد : (نقول ما شئنا ، ثم نحلف له فيصدقنا) .

قال ابن كثير : (يقول تعالىٰ : ومن المنافقين قومٌ يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ، أي : من قال له شيئاً صَدَّقه ، ومن حدّثه فينا صدقه ، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا . روي معناه عن ابن عباس ، ومجاهد وقتادة) .

وقوله : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ .

قال ابن جرير : (يعني : قل هو أذن خير لكم ، لا أذن شرّ) .

وقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال ابن عباس : (يعني : يؤمن بالله ، ويصدق المؤمنين) .

وقوله : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ .

أي جعله الله رحمة لمن آمن به وتابعه وصدقه .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، توعد لهؤلاء المنافقين سوء العذاب مقابل إيذائهم رسول الله ﷺ وبسطهم القول فيه بالعيب والتنقص .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال الزمخشري: (الخطاب للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن، أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون مَعاذِيرهُم بالحلف ليعذروهم، ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون مغبة مخالفة أمر الله ورسوله أنه الخزي في نار جهنم خالدين فيها.

قال أبو السعود: (والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة، مع علمهم بسوء عاقبتها).

والمحاددة من الحدّ، قال الليث: (حاددته أي خالفته، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة، واشتقاقه من «الحدّ»، بمعنىٰ الجهة والجانب، كما أن المشاقّة من «الشق» بمعناه أيضاً، فإن كل واحد من المتخالفين والمتعاديّين في حدّ وشق، غير ما عليه صاحبه).

وقال القاسمي: (فمعنىٰ ﴿ يُحَادِدِ ٱللَّهَ ﴾ يصير في حدٍّ غير حدِّ أولياء الله، بالمخالفة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾.

قال مجاهد: (يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسىٰ الله أن لا يفشي سرنا علينا).

والمقصود: يخشىٰ المنافقون أن تَنْزِلَ فيهم سورة تظهر المؤمنين على ما في قلوبهم وتفضحهم، فأخزاهم الله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾، فأظهر سبحانه أمرهم وكشف ما في قلوبهم وفضحهم.

قال قتادة: (كانت تسمّىٰ هذه السورة: «الفاضِحة»، فاضحة المنافقين).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ

لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: 29 ـ 30].

2 ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: 8].

65 ـ 68. قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ عن المنافقين في سخريتهم من بعض المؤمنين، فإن سألتهم عن سبب هذا السلوك الساخر منهم لقالوا إنما كنا نخوض ونلعب، فانتصر الله لأوليائه منهم مخبراً أن السخرية من المؤمنين هي استهزاء بالله وآياته ورسوله، وأن الاستهزاء بشيء من الدين كفر، وأنه إن يُعْفَ عن التائبين فإنه لا يُعفىٰ عن المصرين المستكبرين.

إن المنافقين والمنافقات بعضهم أولياء بعض، قد تواصوا بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والبخل والشح، وقد نسوا حق الله عليهم فخذلهم ربهم وأكثرهم فاسقون.

ثم يوم القيامة يحشرهم مع الكفار في نار جهنم خالدين فيها مطرودين من رحمة الله في عذاب مقيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أخرج ابن أبي حاتم ورجاله رجال الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: [قال رجل

في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء لا أرغبَ بطوناً ولا أكذبَ ألسنة ولا أجبنَ عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بِحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تنكبُـهُ الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾][1].

زاد ابن جرير في رواية: (﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ الآية).

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾.

أي بما صدر منكم من قول واستهزاء.

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾، قال ابن كثير: (أي: لا يُعْفَىٰ عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم).

وقال النسفي: (﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بتوبتهم وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق غير تائبين منه).

أخرج البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد في المسند، بإسناد صحيح، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم، وويل لأقماع القول، وويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون][2].

قال الزمخشري: («ويل لأقماع القول»: وهم الذين يستمعون ولا يعون) ـ فهو مَجَاز ـ. والأقماع: جمع قِمْع، وهو الإناء يجعل في رأس الظرف ليملأ بالمائع.

قال الألباني: (شبه استماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يعملون به بالأقماع التي لا تعي شيئاً مما يفرغ فيها، فكأنه يمر عليها مجتازاً كما يمر الشراب في القمع).

وأخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بسند حسن لشواهده، من حديث جرير

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم ورجاله رجال الصحيح، إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد كما في الميزان، وأخرج الطبري ـ في التفسير ـ نحوه (16928)، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ سورة التوبة، آية (65) ـ.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (380)، وأحمد في المسند (2/ 165)، (2/ 219)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (1/ 42) وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (482).

يقول: قال رسول الله ﷺ: [من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يَغْفِر لا يُغفر له ، ومن لا يتب لا يتب عليه][1].

وقوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: هم صنف واحد ، وأمرهم واحد ، في إعلانهم الإيمان ، واستبطانهم الكفر).

وقال القرطبي: (أي هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدّين).

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ ، أي يأمرون بالكفر والعصيان ، وينهون عن الطاعة والإيمان.

وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾.

قال مجاهد: (لا يبسطونها بنفقة في حق).

وقال قتادة: (لا يبسطونها بخير). أو قال: (يقبضون أيديهم عن كل خير).

والمقصود: قبض أيديهم عن الإنفاق في الجهاد وفي سبيل الله وفي أبواب الخير والبر.

وقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾.

قال قتادة: (نُسوا من الخير ، ولم ينسوا من الشرّ).

والمقصود: تركوا طاعة الله واتباع رسوله ، فخذلهم الله عن توفيقه وهدايته وعنايته.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ، أي الخارجون عن سبيل الهدىٰ والحق ، الغارقون في طريق المعصية والضلال.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وعيد شديد ينتظر المنافقين مع الكفار في دركات جهنم خالدين فيها.

---

(1) حسن في الشواهد. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (1/ 180/ 1) ، وانظر مسند أحمد (4/ 365) ، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (483).

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 145].

أي: النار موعد المنافقين والمنافقات والكفار مقابل تمردهم في الكفر وانسلاخهم عن كل خير، وهي كفايتهم في العذاب إضافة إلى الطرد واللعن في عذاب مستمر.

قال النسفي: (﴿ حَسْبُهُمْ ﴾ فيه دلالة على عظم عذابها وأنه بحيث لا يزاد عليه. ﴿ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم).

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقىٰ من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً][1].

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سِجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من عصارة أهل النار، طينةِ الخبال][2].

69 ـ 70. قوله تعالىٰ: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4919) ـ كتاب التفسير ـ باب ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [ن: 42].
(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2025). ورواه أحمد. انظر تخريج مشكاة المصابيح (5112)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896).

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾ .

في هذه الآيات: تشبيه الله تعالىٰ حال هؤلاء المنافقين بحال من مضىٰ على منهاجهم في الأمم قبلهم ، أصابهم عذاب الله لما تمادوا رغم ما كانوا عليه من البأس والقوة ووفرة الأموال والأولاد ، فكُلٌّ أَخَذَ نصيبه من متاع هذه الدنيا والخوض بالكذب والباطل ومحاربة منهاج النبوة ، حتىٰ بطلت الأعمال وحَقّت كلمة العذاب والخسارة .

ألم يكن لهؤلاء المنافقين الذين اختاروا إسرار الكفر والمكر برسول الله والمؤمنين عبرة في خبر الأمم الماضية من قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وقوم لوط حين كذبوا رسلهم وتمادوا بالباطل والمنكر ، فدكهم الله بالهلاك والعذاب ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فقوله : ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ، أي من الأمم الماضية ، ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ ، أي أصابهم عذاب الله لما طغوا واستهزؤوا رغم القوة والعدد والعتاد ، وكثرة الأموال والأولاد .

قال عكرمة : قال ابن عباس : (ما أشبه الليلة بالبارحة! ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ، هؤلاء بنو إسرائيل ، شَبَّهَنا بهم ، لا أعلم إلا أنه قال : والذي نفسي بيده ، لَتَتَّبِعُنَّهم حتىٰ لو دخل الرجل منهم جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه) .

وقوله : ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ . قال الحسن البصري : (بدينهم) .

وقال ابن جرير : (يقول : فتمتعوا بنصيبهم وحظهم من دنياهم ودينهم ، ورضوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عوضاً من نصيبهم في الآخرة . ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ . قال : وقد سلكتم ، أيها المنافقون ، سبيلهم في الاستمتاع بخلاقكم . يقول : فعلتم بدينكم ودنياكم ، كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم ، الذين أهلكتهم بخلاف أمري ، ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ ، يقول : كما فعل الذين من قبلكم بنصيبهم من دنياهم ودينهم ، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ ، في الكذب والباطل على الله ، ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ ، يقول : وخضتم أنتم أيضاً ، أيها المنافقون ، كخوض تلك الأمم قبلكم) .

وقوله : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : بطلت مَساعيهم ، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة) .

وقوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ . أي: صفقة الآخرة لفساد التجارة والبضاعة.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: [لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبلكم شِبْراً بِشِبْرٍ ، وذِراعاً بذراع ، حتىٰ لو سلكوا جُحْر ضَبٍّ لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله ، اليهود والنصارىٰ؟ قال النبي ﷺ: فَمَنْ؟]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد وابن ماجة بسند صحيح عن سعيد المَقْبُري ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ فذكره وزاد: قال أبو هريرة: [اقرؤوا إن شئتم القرآن: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ ـ قال أبو هريرة: الخَلاقُ: الدين ـ ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ ، قالوا: يا رسول الله ، كما صنعت فارس والروم؟ قال: فهل الناس إلا هم]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتىٰ تأخذَ أمتي بأخْذِ القرون قبلها شِبراً بشِبْرٍ ، وذِراعاً بِذراعٍ. فقيل: يا رسول الله ، كفارسَ والروم؟ فقال: ومن الناسُ إلا أولئك]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعاً: [لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتىٰ لو أن أحدهم دخل جحر ضب دخلتم ، وحتىٰ لو أنّ أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم]⁽⁴⁾.

وقوله: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾.

يَعِظُ الله تعالىٰ المنافقين الذين اختاروا إسرار الكفر بالله ورسوله ومعاداة المؤمنين:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3456) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ ، وأخرجه مسلم في الصحيح (2669) ، والطبري في «التفسير» (16947).

(2) حسن صحيح. أخرجه أحمد رقم (8322) ـ ترقيم أحمد شاكر ـ وابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (3994) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (72).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7319) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ. وانظر أيضاً (3456) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ.

(4) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 455) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وله شاهد في «المجمع» (7/ 261) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1348).

ألم يكن لهم في خبر الأمم الماضية عبرة إذ اختاروا البغي والطغيان وتكذيب الرسل فدكّهم عذاب الله وأليم عقابه.

فقوم نوح أصابهم الغرق ، وقوم عاد أهلكوا بالريح حين كذبوا نبيهم هوداً ﷺ ، وثمود أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعقروا الناقة ، وقوم إبراهيم حين نصره الله عليهم وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني ، وأصحاب مدين: وهم قوم شعيب ﷺ أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾. قال قتادة: (قوم لوط، انقلبت بهم أرضهم فجعل عاليها سافلها).

قال ابن كثير: (قوم لوط ، وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: 53] ، أي الأمم المؤتفكة ، وقيل: أم قراهم ، وهي «سدوم». والغرض: أن الله تعالىٰ أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين).

وقال النسفي: (﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ مدائن قوم لوط ، وائتفاكهن انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر).

وقوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: كل هذه الأقوام التي مضت جَاءتها حجج الله البالغة ، ودلالات الوحي القاطعة ، فأقام الله عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ، فما ظلمهم سبحانه ، ولكن كانوا هم الظالمين بعنادهم وكبرهم واستهزائهم حتىٰ صبحهم الهلاك والدّمار.

71 ـ 72. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

في هذه الآيات: تَزْكِيَةٌ من الله تعالىٰ لصفات المؤمنين في مُغايرتها لِنُعوت

المنافقين: فالمؤمنون والمؤمنات كالأُسْرَةِ الواحدة في التناصر والتعاضد يتواصون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويحرصون على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة ربهم ورسوله ، أولئك تنالهم رحمته تعالىٰ إنه عزيز حكيم.

لقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات الخلود في الجنات ، لهم فيها مساكن طيبة وتجري من تحتها الأنهار ، ويحظون فيها بأكبر وأجَلّ النعم: رضوان الله عليهم ، وذلك هو الفوز العظيم.

فقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾.

بيان لصفات المؤمنين المحمودة ، بعد ذكر نعوت أولئك المنافقين المقيتة ، فهم يتناصرون ويتعاضدون لإقامة الدين ، فالولاء بينهم والبراء من أعدائهم.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال: [المُسْلم أخو المُسْلِم ، لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُه ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ، ومن فَرَّج عن مسلم كُرْبَةً فَرَّج الله عنه كُربَةً من كُرُبات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة](1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُهُ بعضاً ، وشبك بين أصابعه](2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مَثَلُ الجسد إذا اشتكىٰ منه عُضْوٌ تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ](3).

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [المُسْلِمُ أخو المُسْلِم لا يخونه ولا يكذِبُهُ ولا يخذُلُهُ ، كل المسلم على

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2442) ـ كتاب المظالم ـ باب: لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يُسْلِمُهُ.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (481) ، (2446) ، ومسلم (2585) ، والترمذي (1928) ، والنسائي (5/ 79) ، وأخرجه ابن أبي شيبة (11/ 22) ، وأحمد (4/ 404 ـ 405).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (10/ 367) من حديث النعمان بن بشير ، وأخرجه مسلم (2568) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 270).

المسلم حرامٌ عِرْضُهُ ومالُهُ ودَمُهُ ، التقوىٰ هاهنا ، بِحَسْبِ امرئٍ من الشرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلم][1] .

وقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ .

قال أبو العالية : (كل ما ذكره الله في القرآن من «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ، فالأمر بالمعروف ، دعاء من الشرك إلى الإسلام ، والنهي عن المنكر ، النهي عن عبادة الأوثان والشياطين) .

وفي التنزيل : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : 104] .

وفي سنن الترمذي بسند حسن عن حذيفة بن اليمان : عن النبي ﷺ قال : [والذي نفسي بيده ، لَتأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر ، أوْ ليوشِكَنَّ الله أن يبعثَ عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعُنَّهُ فلا يستجيب لكم][2] .

وعن ابن عباس : (قوله : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، قال : الصلوات الخمس) .

قال القرطبي : (وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة) .

وقال ابن عطية : (والمدح عندي بالنوافل أبلغ ، إذ من يقيم النوافل أحْرىٰ بإقامة الفرائض) .

وقال ابن جرير : (﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ، فيأتمرون لأمر الله ورسوله ، وينتهون عما نهياهم عنه) .

وقوله : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ . قال النسفي : (السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد) .

وقال القرطبي : (والسين في قوله : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ مُدْخِلَةٌ في الوعد مُهْلَةً لتكون

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (1928) ، وقال : حديث حسن . وانظر صحيح مسلم (2580) ، وصحيح البخاري (5/ 70) .

(2) حديث حسن . أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2273) ـ باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ، من حديث حذيفة بن اليمان . وانظر صحيح سنن الترمذي (1762) ، ورواه أحمد وغيره ، انظر صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم ، (6947) .

النفوس تنعم برجائه ، وفضلهُ تعالىٰ زعيمٌ بالإنجاز).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . قال ابن كثير: (أي ﴿عَزِيزٌ﴾ من أطاعه أعزّه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء ، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله ، تبارك وتعالىٰ).

وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ .

أي: وعد الله الذين صدقوا الإيمان بالله ورسوله بساتين إقامة تجري تحت أشجارها الأنهار ، لا يزولون عنها ، وفيها مساكن طيبة هي منازل المؤمنين يسكنونها ، حسنة البناء ، طيبة القرار ، قصور وغرف ، في جنات عدن.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: [جنّتان من فِضة آنيتُهما وما فيهما ، وجنّتان من ذَهَبٍ آنيتُهما وما فيهما ، وما بين القومِ وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكِبْرِ على وجهه في جنة عدن](1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي عِمْران الجَوْنيّ عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: [إن في الجنة خَيْمَةً مِنْ لُؤلؤةٍ مُجَوَّفة ، عرضُها سِتُّون مِيلاً ، في كل زاويةٍ منها أهل ما يَرَوْنَ الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون](2).

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصامَ رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخِلَهُ الجنة ، هاجر في سبيل الله ، أو جَلَسَ في أرضه التي ولد فيها. قالوا: يا رسول الله ، أفلا نُخْبِرُ الناس؟ قال: إن في الجنة مئة درجة ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله ، بين

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4878) ـ كتاب التفسير ـ ، وأخرجه مسلم في صحيحه (180) ، ورواه أحمد في المسند (4/ 411).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4879) ـ كتاب التفسير ـ من حديث عبد الله بن قيس ، وأخرجه مسلم أيضاً ـ حديث رقم ـ (180).

كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفِرْدوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة ، وفوقه عرشُ الرحمن][1] .

الحديث الرابع: أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ أهلَ الجنة يَتَراءَوْنَ أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءَوْن الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرُهم؟ قال: بلىٰ ، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين][2] .

الحديث الخامس: أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي مالك الأشعري ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن في الجنة غرفاً يرىٰ ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله لمن أطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلىٰ بالليل والناس نيام][3] .

وقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

أي: إن رضا الرحمن عز وجل هو أكبر نعمة ينعم بها المؤمنون يوم القيامة ، وهي فوق كل نعمة ولذة رأوها أو عاشوها في الدنيا والآخرة.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله ـ عز وجل ـ: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا وما فوقَ ما أعطيتنا؟ فيول: رضواني أكبر][4] .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تبارك وتعالىٰ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ، فيقولون: لبيّكَ ربَّنا وسَعْدَيكَ ، فيقول: هل رضيتُم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا مالم تُعْطِ أحداً من خلقكَ؟

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2790) ، (7423) ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 335 ، 339) من حديث أبي هريرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256) ـ كتاب بدء الخلق ـ ، وأخرجه مسلم (2830) ، وأحمد في المسند (5/ 340) ـ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي مالك الأشعري. انظر تخريج مشكاة المصابيح (1235) ، وتخريج الترغيب (2/ 46) ، وصحيح الجامع (2119).

(4) حديث صحيح. أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 82) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني ـ انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم (538).

فيقول: أنا أعطيكم أفضلَ من ذلك ، قالوا: يا ربِّ وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً][1].

73 ـ 74. **قوله تعالىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بإعلان الحرب الشديدة على الكفار والمنافقين فهم أهل النار. إنهم يحلفون بالله كذباً ما نطقوا كلمة كفر وهم في حقيقة الأمر منغمسون في الكفر والمكر بدين الله ورسوله ، وما للرسول عندهم من ذنب إلا أن الله سبحانه أغناهم بسببه ، فإن يتداركوا أنفسهم بالتوبة فهو خير لهم ، وإن يصروا على الكبر والإعراض ينزل بهم عذاب الله في الدنيا ثم في الآخرة ، وليس لهم في الأرض من يُنْقِذهم من بأس الله أو يدفع عنهم ما كتب عليهم من الخزي والهلاك.

فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

دعوة من الله سبحانه لنبيه ﷺ بمجاهدة الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فإنهم أهل النار.

قال ابن عباس: (فأمره الله بجهاد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ، وأذهبَ الرفق عنهم). وقال الضحاك: (يقول: جاهد الكفار بالسيف ، واغلظ على المنافقين بالكلام ، وهو مجاهدتهم). وعن الحسن: (قال: جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين بالحدود ، أقم عليهم حدود الله).

والحق أنه لا فرق بين الفريقين في مفهوم الآية ، وكل ذلك يرجع إلى الإمام ، كما

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6549) ـ كتاب الرقاق ـ. وأخرجه مسلم في الصحيح (2829) ، وأحمد في المسند (3/ 88).

قال ابن مسعود: من أنّ الله أمر نبيّه ﷺ من جهاد المنافقين بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين، وهو اختيار شيخ المفسرين ـ ابن جرير ـ رحمه الله. فإذا أظهر المنافقون نفاقهم أو طعنهم في الدين فإنهم يجاهدون بالسيوف.

قال القرطبي: (قوله تعالىٰ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ الغِلظ: نقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه. وقال: ومعنىٰ الغِلظُ خشونة الجانب، فهي ضدّ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: 215]. ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]. وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح).

وقال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، يقول: ومساكنهم جهنم، وهي مثواهم ومأواهم، ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، يقول: وبئس المكان الذي يُصار إليه جهنم).

وقوله: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ عن المنافقين أنهم يحلفون بالله كذباً عن كلمةِ كُفْرٍ تلفظوا بها وتشدقوا بذكرها أنهم ما قالوها.

قال النسفي: (﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾: وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام، وفيه دلالة على أن الإيمان والإسلام واحد، لأنه قال: وكفروا بعد إسلامهم).

وأما تأويل قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾، أي: من إطفاء نور الله بشكل من الأشكال، ومحاولة قتل النبي ﷺ أو التخلص منه بأي طريقة فأخزاهم الله.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن أبي الطُّفيل قال: [لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر منادياً فنادىٰ: إنّ رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخُذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمّار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً وهو يسوق رسول الله ﷺ، وأقبل عمار ـ رضي الله عنه ـ يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قَدْ، قَدْ». حتىٰ هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط نزل ورجع عمار، فقال: يا عمار، هل عرفت القوم؟ فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: هل تدري ما أرادوا؟ قال: الله ورسوله أعلم.

قال: أرادوا أن يُنَـفِّرُوا برسول الله ﷺ راحلته فيطرحوه][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي الطفيل قال: [كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم أخبره إذ سألك، فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم، فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة. قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم، وقد كان في حرّة فمشىٰ فقال: إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذ][2].

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾. قال ابن كثير: (أي: وما للرسول عندهم ذنبٌ إلا أن الله أغناهم ببركته ويُمْن سِفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به).

وقوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: هذا باب التوبة قد فتحه الله لهم ودعاهم إليه فإن يستعتبوا كان خيراً لهم، وإن يصروا ويستمروا على طريقهم نالهم عذاب في الدنيا بالقتل والهم والغم، وعذاب في الآخرة بالجحيم والهوان والصَّغار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي: وليس لهم في الأرض من يُنْجِدُهم أو يَدْفَعُ عنهم ما كتبَ الله عليهم من الخزي والهلاك.

75 ـ 78. قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 453 ـ 454) من حديث أبي الطفيل، وقال الهيثمي في «المجمع» (6/ 195): رجاله ثقات.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (279/ 11) ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (3/ 1534 ـ 1536).

كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

في هذه الآيات: فَضْحُ الله طائفة من المنافقين كانوا عاهدوا الله على البذل إن أغناهم وأن يكونوا من الصالحين.

فلما آتاهم سبحانه من فضله نكلوا وخانوا العهد ومضوا وهم معرضون.

فعاقبهم الله تعالىٰ بختم قلوبهم بالنفاق إلى يوم يلقونه ليكونوا من الخاسرين.

ألم يعلموا أن سرائرهم وعلانيتهم مكشوفة لِعَلّام الغيوب رب العالمين!.

فقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ عن طائفة من المنافقين كانوا قد أعطوا الله عهدهم وميثاقهم لئن أغناهم الله ليبذلن المال في الصدقات والقربات. ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، قال النسفي: (بإخراج الصدقة).

وقال القاسمي: (أي بإعطاء كل ذي حق حقه).

قلت: والصلاح يشمل أكثر من ذلك، فينسحب إلى كل أعمال البر والتقوىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: فلما أغناهم الله من فضله كذبوا العهد وخانوا ميثاقهم وأظهروا الشح والبخل ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: مصرون على الإعراض والإنكار.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

أي: فأعقبهم الله ببخلهم وشحهم وصنيعهم هذا في الخيانة ونقض العهد إطفاءً لنور قلوبهم، ونفاقاً سكن في أعماقها إلى يوم يلقونه عز وجل.

قال ابن جرير: (﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾، من الصدقة والنفقة في سبيله، ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، في قيلهم، وحَرَمهم التوبة منه، لأنه جل ثناؤه اشترط في نفاقهم أنه أعقبهموه إلى يوم يلقونه، وذلك يوم مماتهم وخروجهم من الدنيا).

وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر صفات المنافقين في أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [آية المنافق ثلاث[1]: إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وعَدَ أخلف، وإذا اؤْتُمِنَ خان][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو: أن النبي ﷺ قال: [أربع مَنْ كُنَّ فيه كان مُنافقاً خالصاً، وَمَنْ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ من النفاق حتىٰ يَدَعَها: إذا اؤْتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصم فَجَر][3].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾.

قال القاسمي: (أي ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه، وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين).

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾: أي ما غاب عن العباد وما ظهر وما بطن وكل سرٍّ ونجوىٰ.

79. قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

في هذه الآية: إخبار من الله تعالىٰ عن صفة أخرىٰ في نعت هؤلاء المنافقين، فإنه لا يَسْلَمُ أحد من عيبهم ولمزهم، فإنْ بذل المتصدق وسعه وجاء بمال قليل قالوا: إن الله غني عن صدقة هذا، وإن أعانه الله على بذل الجزيل والوفير اتهموه بالرياء وسخروا

(1) زاد مسلم في رواية: (وإن صام وصلىٰ وزعم أنه مسلم). صحيح مسلم (59) ح (110).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (33) ـ كتاب الإيمان ـ، وأخرجه مسلم (59) ح (109)، (110)، وأخرجه أحمد رقم (8670)، والترمذي (2633)، والنسائي (8/ 117) من حديث أبي هريرة.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (34) ـ كتاب الإيمان ـ باب علامات النفاق، وكذلك أخرجه برقم (2459)، (3178). وكذلك أخرجه مسلم (58) ـ كتاب الإيمان ـ باب خصال النفاق.

منه كما سخروا ممن قبله ، والله تعالىٰ في حقيقة الأمر هو يسخر من سلوكهم وأفعالهم وقد توعدهم على هذا الاستهتار العذاب الأليم.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي وائل ، عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: [لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير ، فقالوا: مُرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا ـ أو قال: عن صاع هذا ـ فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ الآية][1].

80. **قوله تعالى:** ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾.

في هذه الآية: إخبار من الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ أن هؤلاء المنافقين لن ينفعهم الاستغفار ، إذ ليسوا له أهلاً ، وأنه لو استغفر لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولو سبعين مرة ما كان الله ليغفر لهم بما ركبوا من الكفر بالله ورسوله ، وأصروا على التمرد والخروج عن طاعة الله سبحانه.

قال ابن جرير: (وهذا كلام خرج مخرج الأمر ، وتأويله الخبر ، ومعناه: إن استغفرت لهم ، يا محمد ، أو لم تستغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم).

81 ـ 85. **قوله تعالىٰ:** ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4668) ، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ سورة التوبة ، آية (79) ، ورواه مسلم.

وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: ذمٌّ من الله تعالىٰ للمنافقين في تخلّفهم عن ركب النبي ﷺ وصحابته ومسيرهم إلى تبوك ، وفرحهم بمقعدهم في الظلال والثمار بعد خروجه ، وخبره عنهم باعتذارهم عن الخروج بسبب شدة الحر ، فقال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: قل لهم ـ يا محمد ـ نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ويعقلون .

فليضحكوا في هذه الدنيا قليلاً فإنهم سيبكون في الآخرة كثيراً مقابل ما كانوا يكسبون .

فإن ردّك الله ـ يا محمد ـ من غزوتك هذه واستأذنك هؤلاء المنافقون مرة أخرىٰ للخروج معك فلا تقبل منهم ، فإنهم قد رضوا التخلف عنك أول مرة فليقعدوا مع المتخلفين .

وحذار أن تصلي علىٰ ميت منهم أو تقوم على قبره ، فإنهم عاشوا على الكفر والمكر والنفاق وماتوا فاسقين .

ولا تبهرك أموالهم وأولادهم ، فهي عذاب الله عليهم في الدنيا بما فتنتهم عن إقامة الدين ، وحسرة عليهم في الآخرة توردهم الجحيم .

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ يَفْقَهُونَ﴾ ، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه ، وذلك في الصيف ، فقال رجال: يا رسول الله ، الحرُّ الشديد ، ولا نستطيع الخروجَ ، فلا تنفر في الحرّ! فقال الله: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ ، فأمره الله بالخروج) .

وعن قتادة: (في قوله: ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ، قال: هي غزوة تبوك) .

وعن ابن إسحاق قال: (ثم ذكر قول بعضهم لبعض ، حين أمر رسول الله ﷺ بالجهاد ، وأجمع السير إلى تبوك ، على شدة الحرّ وجدب البلاد . يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾) .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [ناركم جزء من سبعين جُزءاً من نار جهنم . قيل يا رسول الله! إن كانت لكافية . قال:

فُضِّلَت عليهن بتسعة وستين جُزءاً كُلُّهُنَّ مثلُ حرِّها][1].

وفي لفظ: [ناركم هذه التي توقد بنو آدم، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم. قال: فإنها فَضَلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً، كُلُّهن مثل حرِّها].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مَعَ كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [أهونُ أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو مُنْتَعل بنعلين يغلي منهما دماغه].

وفي لفظ في الصحيحين من طريق النعمان بن بشير: [إن أهونَ أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يَرىٰ أن أحداً أشَدُّ منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً][3].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [اشْتَكَتْ النَّار إلى ربِّها، فقالت: يا ربِّ! أَكَلَ بَعْضي بَعْضاً. فجعل لها نَفَسَيْن: نَفَس في الشتاء ونفَس في الصيف. فَشِدَّةُ ما تجدون مِن البَرْدِ، من زَمْهَريرها. وشِدَّةُ ما تجدون من الحرِّ، مِنْ سَمُومها][4].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

قال ابن عباس: (هم المنافقون والكفار، الذين اتخذوا دينهم هُزُواً ولعباً. يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾، في الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾، في النار).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3265)، ومسلم (2843)، وابن حبان (7462)، وأخرجه مالك في الموطأ (2/ 994)، وأخرجه البغوي (4398)، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث (1976) ـ.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم (1975) ـ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 762) لتفصيل البحث.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (717)، ومسلم (994)، وأخرجه أحمد (4/ 271)، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3/ 346)، وابن ماجة (2/ 586) ـ واللفظ له ـ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3487)، وإسناده على شرط الشيخين، وقد أخرجاه وكذا أحمد (2/ 238 ـ 277 ـ 462 ـ 503) من طرق عن أبي هريرة نحوه.

وقال أبو رزين: (﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾، قال: في الدنيا، فإذا صاروا إلى الآخرة بكوا بكاءً لا ينقطع. فذلك الكثير).

أخرج الحاكم بسند حسن عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إن أهل النار ليَبْكُون، حتىٰ لو أُجْريت السفن في دموعهم جَرَت، وإنهم ليبكون الدم][1].

ورواه في شرح السنة عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! ابكوا فإن لم تستطيعوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتىٰ تسيل دموعهم في وجوههم، كأنها جداول، حتىٰ تنقطع الدموع، فتسيل الدماء، فتقرّح العيون، فلو أن سُفُناً أُزْجِيَتْ فيها لجرت]. «أزجيت» أي: أرسلت.

وله شاهد عند ابن ماجة من حديث أنس مرفوعاً: [يُرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتىٰ تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتىٰ يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيه السفن لجرت][2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾.

قال ابن عباس: (والخالفون الرجال).

قال قتادة: (قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾، أي: مع النساء. ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين، قيل فيهم ما قيل).

وقول ابن عباس في الخالفين أرجح، أنهم الرجال الذين نافقوا، ولا معنىٰ لذكر النساء، وهو اختيار ابن جرير.

والمعنىٰ: فإن ردّك الله ـ يا محمد ـ من غزوتك هذه واستأذنك هؤلاء المنافقون في الخروج معك إلى غزوة أخرىٰ فلا تقبل منهم أبداً، بأنهم رضوا في التخلف أول مرة نفاقاً وإيثاراً للدعة وزينة الحياة الدنيا وليقعدوا مع المنافقين المتخلفين.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 605) ـ على شرط الشيخين ـ. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1679).

(2) أخرجه ابن ماجة (4324)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (ق 12/ 1)، وانظر المرجع السابق، وأخرجه أبو يعلىٰ (4134)، وانظر مستدرك الحاكم (4/ 606)، والحديث حسن لشواهده.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

براءة من المنافقين ، ومنع للنبي ﷺ من الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم للدعاء أو الاستغفار لهم ، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا على ذلك .

وفي أسباب نزول الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما قال: [لما تُوُفِّي عبد الله بن أبيٍّ جاء ابنُهُ عبدُ الله بنُ عبد الله إلىٰ رسول الله ﷺ ، فسأله أن يُعْطِيَهُ قميصَهُ يكفِّنُ فيه أباه ، فأعْطاهُ ، ثم سأله أن يُصَلِّيَ عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلِّي عليه ، فقام عمرُ ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، أتُصَلِّي عليه وقد نهاكَ ربُّكَ أن تُصَلِّيَ عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيّرني الله فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وسأزيده على السَّبْعين. قال: إنه منافقٌ ، قال: فَصَلَّىٰ عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: [لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دُعِيَ له رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه فقلت: يا رسول الله ، أَتُصَلّي على ابن أُبيٍّ وقد قال يوم كذا ، كذا وكذا؟ . قال: أُعَدِّدُ عليه قولَه ، فتبَسَّمَ رسول الله ﷺ وقال: أَخِّرْ عنّي يا عُمَر .

فلما أَكْثَرتُ عليه قال: إني خُيِّرْتُ فاخْتَرْتُ ، لو أعلمُ أني إن زِدْتُ على السَّبْعين يُغْفَرُ له ، لَزِدْتُ عليها. قال: فصلىٰ عليه رسول الله ﷺ ، ثم انصرف ، فلم يَمْكُثْ إلا يسيراً حتىٰ نزلت الآيتان مِنْ براءة ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ . قال: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسولُهُ أعلم][2] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: [أتىٰ النبي ﷺ عَبدَ الله بن أبي بعدما دُفِنَ فأخرجه فنفث فيه من رِيقِهِ ، وألبسه قميصه][3] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4670) ، ومسلم (2774) ، والبيهقي في «الدلائل» (5/ 287) .
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4671) ـ كتاب التفسير ـ ، سورة التوبة ، آية (84) .
(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1270) ـ كتاب الجنائز ـ باب الكفن في القميص الذي يُكَفُّ أو لا يُكَفّ ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

وله شاهد في مسند أحمد من حديث جابر ـ أيضاً ـ قال: [لما مات عبد الله بن أبيّ ، أتىٰ ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، إنك إن لم تأته لم نَزَلْ نُعَيَّر بهذا. فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته ، فقال: أفلا قبل أن تدخلوه! فأخرجَ من حُفرته ، وتَفَل عليه من ريقه من قَرَنِهِ إلى قدَمِهِ ، وألبسه قميصه][1].

قلت: والحكم استناداً إلى هذه الآية عامٌ في كُلِّ من عُرِفَ نفاقه فيعتزل أهل العلم الصلاة عليه تعزيراً لأمثاله وتحذيراً من مسلك الفسق والنفاق.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي قتادة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا دُعِيَ لجنازة سأل عنها ، فإن أثني عليها خيرٌ قام فصلى عليها ، وإن أثني عليها غير ذلك قال لأهلها: شأنكم بها ، ولم يُصَلِّ عليها][2].

وقال أبو عُبيد في كتاب الغريب في حديث عمرَ أنه أراد أن يصلي على جنازة رَجُلٍ ، فَمَرزَه حُذيفة ، كأنه أراد أن يَصُدَّه عن الصلاة عليها.

ثم حكىٰ عن بعضهم أن المَرْزَ بلغة أهل اليمامة هو: القَرْص بأطراف الأصابع. ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

أي: لا تعجبك يا محمد أموال المنافقين وأولادهم فتصلي علىٰ أحدهم عند موته لأجل كثرة ماله وولده ، فإن الله تعالىٰ إنما بسط لهؤلاء في المال والولد فتنة وعذاباً لهم في الدنيا بالهموم والغموم ، ثم بما يلزمه من ذلك من المؤن والنفقات والزكوات ، وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات ، فإذا مات أحدهم وفارق المال والولد كان ذلك حسرة عليه عند موته مع ما ينتظره من وبال ذلك عليه في الآخرة ، فإن الله تعالىٰ لا يقبل عملاً مع الشرك به والكفر بدينه وجحد نبوة رسله.

قال السدي: (﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ ، في الحياة الدنيا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 371) من حديث جابر بن عبد الله ، ورجاله ثقات. وأخرجه النسائي (4/ 37) بنحوه. وانظر صحيح مسلم (2773) ، وصحيح البخاري (1350) ، (5795).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 299 ـ 300) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه ، وصححه ابن حبان (3057) ، والحاكم (1/ 364) ، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» (3/ 3 ـ 4): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته ، يعطىٰ بها (وفي رواية: يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزىٰ بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزىٰ بها][1].

وأخرج النسائي بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ قال رسول الله ﷺ: لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات ، يقول رسول الله ﷺ: لا شيء له. ثم قال: إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه][2].

86 ـ 87. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ عن سلوك المنافقين عند نزول سورة تدعوهم إلى الإيمان بالله والجهاد مع رسوله ، فإذا الأغنياء منهم يطلبون البقاء مع المرضىٰ والضعفاء المعذورين.

لقد رضوا البقاء مع النساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد ، وإنما قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يفهمون موعظة ولا يتدبرون مصلحتهم وما فيه نجاتهم وفوزهم.

فقوله: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾.

قال ابن عباس: (يعني أهل الغنىٰ). أو قال: (يعني الأغنياء).

والمقصود: نُكولُ المنافقين عن الجهاد في سبيل الله مع وجود السَّعة والطَّول ، وغياب العذر ، إنما هو حب الدنيا وزينتها الفانية على حساب الآخرة ونعمتها الباقية.

وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وقالوا لك: دعنا ،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 135) ، وأحمد (3/ 125) ، وانظر السلسلة الصحيحة (53).
(2) حديث حسن. أخرجه النسائي في «الجهاد» (2/ 59) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وحسنه العراقي في «تخريج الإحياء» (4/ 328).

نكن ممن يقعد في منزله مع ضعفاء الناس ومرضاهم ، ومن لا يقدر على الخروج معك في السفر).

وفي التنزيل: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: 20 ـ 21].

وقوله: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾.

قال ابن كثير: (رضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف[1]، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالىٰ عنهم في الآية الأخرىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب: 19]، أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبنُ شيء).

وقوله: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

قال النسفي: (ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الهلاك والشقاوة).

88 ـ 89. **قوله تعالىٰ**: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ثناء من الله تعالىٰ على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين الذين ناصروه وأيدوه وجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم ـ وهو في موضع ذم، بالإشارة، إلى المنافقين، أو ثناء للمؤمنين بعد ذمٍّ للمنافقين ـ ثم بيان من الله تعالىٰ لحسن عاقبة المؤمنين والمجاهدين ـ فإنهم أهل الفلاح والفوز العظيم.

لقد أعدالله لهم جنات تجري الأنهار تحت أشجارها وعبر بساتينها مع الطمأنينة لهم بالخلود وذلك الفوز العظيم.

(1) الخوالف: جمع خالفة، والمراد النساء.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة مئة درجة ، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلىٰ الجنة وأوسطُ الجنة ، ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنة ، وفوقه عرش الرحمن][1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [يا أبا سعيد مَنْ رضيَ بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً ، وجبت له الجنة. فعجب لها أبو سعيد. فقال: أعِدْها عَليَّ ، يا رسول الله! ففعل. ثم قال: وأخرىٰ يُرْفَعُ بها العَبْدُ مئةَ درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي؟ يا رسول الله! قال: الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله][2] .

وفيه من حديث سهل بن سعد الساعدي ، عن رسول الله ﷺ قال: [والغدوة يغدوها العَبْدُ في سبيل الله ، خيرٌ من الدنيا وما فيها][3] .

90 ـ 93. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن محاولة نفر من أحياء العرب حول المدينة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2790) ، (7423) ، وأحمد في مسنده (2/ 335 ـ 339) في أثناء حديث أطول.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1884) ـ كتاب الإمارة ـ باب بيان ما أعدّه الله تعالىٰ للمجاهد في الجنة من الدرجات ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1881) ـ كتاب الإمارة ـ باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله.

الاعتذار لرسول الله ﷺ بترك الجهاد لضعف أو عجز ، وقعود المنافقين فلم يجيئوا ولم يعتذروا ليظهر كذبهم ، وقد توعدهم الله بالقتل والخزي في الدنيا وبالعذاب الأليم في الآخرة.

إنه لا حرج على الضعفاء والمرضىٰ وكذلك من عجز بالمال عن الخروج للجهاد إذا قعدوا ونصحوا حال قُعودِهم فلم يُثَبِّطوا أحداً بل أحسنوا النصيحة والله غفور رحيم.

وكذلك لا سبيل ـ يا محمد ـ على النفر الذين جاؤوك صادقين يريدون الخروج وليس لديك ما تحملهم عليه ، فتولوا وهم يبكون أن لا سبيل للحملان والخروج.

إنما العتاب والعقاب على الأغنياء المتخلفين ، الذين ختم الله على قلوبهم في المنافقين ، فهم لا يعلمون سوء عاقبتهم.

فقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

هم أهل الأعذار بترك الجهاد لعجز أو ضعف.

قال الضحاك: (كان ابن عباس يقرأ: ﴿وجاء المُعْذِرُون﴾ ، مخففة ، ويقول: هم أهل العذر).

وقال مجاهد: (نفر من بني غفار ، جاؤوا فاعتذروا ، فلم يُعْذِرْهم الله).

والمقصود: محاولة نفر من أحياء العرب حول المدينة الاعتذار إلى رسول الله ﷺ بترك الجهاد لضعف أو عدم قدرة على الخروج. ولفظ ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ من عذّر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ، فهو يوهم أن له عذراً ، أو من لفظ: (المعتذرون) بإدغام التاء في الذال.

وقوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

قال النسفي: (هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان).

وقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. توعُّدٌ لهم بعذاب أليم إما بالقتل والخزي في الدنيا أو بالنار في الآخرة.

وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

هذه الآية نص في إعذار الضعفاء والمرضىٰ ، كأرباب الزمانة والهرم والعمىٰ

والعرج ، وكذلك من عجز عن الخروج للجهاد من جهة المال .

قال القرطبي : (قوله تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الآية . أصل في سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شيء سقط عنه ، فتارة إلى بدل هو فعل ، وتارة إلى بدل هو غرم ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال) .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور : 61] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] .

وفي السنة العطرة من آفاق هذا المعنىٰ في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري وأبو داود وابن ماجة من حديث أنس رضي الله عنه : [أن النبي ﷺ كان في غَزاةٍ ، فقال : إن أقواماً بالمدينة خَلْفَنا ما سَلكْنا شِعْباً ولاوادِياً إلا وهُمْ معنا فيه ، حَبَسَهُم العُذْر][1] .

الحديث الثاني : أخرج ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق بسند رجاله ثقات قال : حدثني أبي إسحاق بن يَسار ، عن أشياخ من بني سلمة : [أن عمرو بن الجموح كان رجلاً أعْرَج شديد العَرَج ، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حَبْسَه ، وقالوا له : إن الله عز وجل : قد عذرك ، فأتىٰ رسول الله ﷺ ، فقال : إن بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخُروج معك فيه ، فوالله إني لأرجو أن أطأ بِعَرْجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : أما أنتَ فقد عَذَرك الله فلا جهادَ عليكَ ، وقال لبنيه : ما عليكم أن لا تمنعوه ، لعلّ الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فَقُتِلَ يوم أحد][2] .

وله شاهد في مسند الإمام أحمد بسند حسن من حديث أبي قتادة ، رضي الله عنه ، وكان شاهد عيان ، قال : [أتىٰ عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتىٰ أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2839) ـ كتاب الجهاد والسير ـ . وأخرجه أبو داود (2508) ، وابن ماجة (2764) ، وأخرجه أحمد (3/ 103) ، وابن حبان (4731) ، وغيرهم من حديث أنس .

(2) انظر سيرة ابن هشام (2/ 90 ـ 91) وسنده حسن إن كان أشياخ بني سلمة من الصحابة ، وإلا فهو مرسل ورجاله ثقات . وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين (2/ 696 ـ 697) .

الجنة؟ وكانت رجله عرجاء ، فقال رسول الله ﷺ: نعم ، فقتلوا يوم أحد هو وابن أخيه ومولىً لهم ، فمرّ رسول الله ﷺ ، فقال: كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة . فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما ، فجعلوا في قبر واحد][1] .

قال النسفي : (﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بأن آمنوا في السر والعلن وأطاعوا كما يفعل الناصح بصاحبه) .

وقال ابن كثير : (فليس على هؤلاء حَرَجٌ إذا قَعَدُوا ونَصَحُوا في حال قعودهم ، ولم يُرْجفوا بالناس ، ولم يُثَبِّطوهم ، وهم محسنون في حالهم هذا ، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾) .

والنصح هو إخلاص العمل من الغش. قال الرازي : (والناصح : الخالص من كل شيء . قال : ورجل ناصح الجَيْب أي نقيّ الثوب . ومنه التوبة النصوح وهي الصادقة) .

وفي صحيح مسلم عن تميم الداري: [أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» . قلنا : لِمَنْ؟ قال: للهِ وَلِكتابِهِ ولِرَسُوله ولأئمة المسلمين وعامَّتِهم][2] .

قال العلماء: (النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوحدانية ، ووصفُه بصفات الألوهية ، وتنزيهه عن النقائص والرغبة في مَحابّه والبعد من مساخطه. والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوّته ، والتزام طاعته في أمره ونهيه ، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه ، وتوقيره ، ومحبته ومحبة آل بيته ، وتعظيمه وتعظيم سنته ، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها ، والتفقّه فيها والذبّ عنها ونشرها والدعاء إليها ، والتخلّق بأخلاقه الكريمة ﷺ .

وكذا النصح لكتاب الله : قراءته والتفقه فيه ، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به . والنصح لأئمة المسلمين: ترك الخروج عليهم ، وإرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين ، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم. والنصح للعامة : ترك معاداتهم ، وإرشادُهم وحب الصالحين منهم ، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافتهم) .

---

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (5/ 299) ، وحسّن إسناده الحافظ في الفتح . وانظر صحيح السيرة ـ إبراهيم العلي ـ ص (217) ، والمرجع السابق (2/ 697) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (55) ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان أن الدين النصيحة . وأخرجه أبو داود (4944) ، والنسائي (7/ 156 ـ 157) ، وابن حبان (4575) ، وأحمد (4/ 102) .

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير مرفوعاً: [مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ][1].

وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال القرطبي: (وهذه الآية أصل في رفع العقاب عن كل محسن).

وقال النسفي: (﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المعذورين الناصحين ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾ أي لا جناح عليهم ولا طريق للعتاب عليهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ يغفر تخلفهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ولا سبيل أيضاً على النفر الذين إذا ما جاؤوك، لتحملهم، يسألونك الحُمْلان، ليبلغوا إلى مغزاهم لجهاد أعداءِ الله معك، يا محمد، قلت لهم: لا أجد حَمُولة أحملكم عليها، ﴿تَوَلَّواْ﴾، يقول: أدبروا عنك، ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾، وهم يبكون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون، ويتحمّلون به للجهاد في سبيل الله).

وفي صحيح مسلم عن أبي موسىٰ الأشعري قال: [أتيتُ النبي ﷺ في رَهْطٍ من الأشعريِّين نَسْتَحْمِلُهُ، فقال: والله! لا أحْمِلُكُم، وما عندي ما أحملكُم عليه. قال: فَلَبِثْنَا ما شاء الله، ثم أُتِيَ بإبلٍ، فأمَرَ لنا بثلاثِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرا، فلما انطلقنا قلنا ـ أو قال بعضنا لبعض ـ: لا يُبارِكُ اللهُ لنا، أتَيْنا رسول الله ﷺ نَسْتَحْمِلُهُ فحلفَ أنْ لا يَحْمِلَنا، ثمَّ حَمَلَنا، فأَتَوْه فأخبروه، فقال: ما أَنا حَمَلْتُكم، ولكن الله حَمَلَكُم، وإني، والله! إن شاءَ الله، لا أَحْلِفُ على يمينٍ ثم أرى خيراً منها، إلا كفَّرْتُ عن يميني وأتَيْتُ الذي هو خَيْرٌ][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6011)، ومسلم (2586)، والبيهقي (3/ 353)، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 270)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1649) ـ كتاب الأيمان ـ وأخرجه النسائي (917)، وأخرجه ابن حبان (4354) من حديث أبي موسىٰ، وورد من حديث عمران بن حصين ـ أخرجه البخاري (3133)، و(4385)، ومسلم (1649)، وأحمد (4/ 401).

وعن ابن إسحاق: (﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿حَزَنًا﴾ قال: وهم البكاؤون، كانوا سبعة).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال القاسمي: (﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ أي بالعتاب والعقاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ أي قادرون على تحصيل الأهبة ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي من النساء والصبيان وسائر أصناف العاجزين. أي رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف).

وقال ابن جرير: (﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، سوء عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الثناء في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة).

94 ـ 96. قوله تعالىٰ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالىٰ عن المنافقين في حرصهم على الاعتذار إليكم عند وصولكم المدينة، فقولوا لهم: لن نصدقكم في محاولتكم وقد أخبرنا الله عن صفاتكم وأحوالكم ومحاولاتكم وسيُظهر الله أعمالكم للناس في الدنيا ثم يوم القيامة يخبركم سبحانه بما صدر منكم، وما اجترحتم من آثام ويجزيكم بها. إنهم سيحلفون بالله لكم معتذرين بكل وسيلة فأعرضوا عنهم تصغيراً لشأنهم واحتقاراً لسلوكهم فإنهم «رجس» أي: خبثاء نجسة بواطنهم واعتقاداتهم ومآلهم في الآخرة إلى جهنم مقابل آثامهم ونفاقهم. إنهم سيحلفون لكم محاولين إرضاءكم خشية عاقبة الأمور وتغير

أحوال الدنيا عليهم ، فإن ترضوا أنتم عنهم فاعلموا أن الله لا يرضىٰ عن القوم الخارجين عن طاعته المكذبين برسوله.

قال القرطبي: (﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني المنافقين. ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من تبوك. والمحلوف عليه محذوف ، أي يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج. ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي لتصفحوا عن لومهم).

وقال ابن عباس: (أي لا تكلموهم).

وقال النسفي: (﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ تعليل لترك معاتبتهم ، أي أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم لأنهم أرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم).

قلت: والمقصود عملهم رجس ومنهجهم قبيح.

وقال القاسمي: (﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ من تمام التعليل ، فالعلة نجاسة جبلتهم التي لا يمكن تطهيرها).

أخرج ابن جرير ورجاله رجال الصحيح عن عبد الله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يقول: [لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ: علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله ، وصَدَقْتُهُ حديثي. فقال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إنَّ الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾][1].

97 ـ 99. قوله تعالىٰ: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ

(1) أخرجه ابن جرير ورجاله رجال الصحيح ـ ونحوه في صحيح البخاري من حديث كعب (4418) ، وصحيح مسلم (2769) ـ وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ التوبة (95 ـ 96).

ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن الأعراب الجفاة أنهم أشد كفراً ونفاقاً وجهلاً في الدين. ومنهم طائفة يعيشون على المكر في المؤمنين ويترقبون الدائرة لتكون عليهم، والله سيوقعهم في سوء أعمالهم وهو السميع العليم. ومن الأعراب مؤمنون صادقون متصدقون، سيدخلهم الله في رحمته، والله غفور رحيم.

فقوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: الأعراب أشد جحوداً لتوحيد الله، وأشدّ نفاقاً، من أهل الحضر في القرىٰ والأمصار. وإنما وصفهم جل ثناؤه بذلك، لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسىٰ قلوباً، وأقلُّ علماً بحقوق الله).

وفي مسند أحمد وسنن النسائي بسند صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [من سَكَنَ البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتىٰ السلطان افتُتِن][1].

وله شاهد في المسند بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: [مَنْ بدا جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتىٰ أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحدٌ من السلطان قُرباً إلا ازداد من الله بُعْدَاً][2].

وفي لفظ من حديث البراء رضي الله عنه مرفوعاً: [من بدا جفا].

وقوله: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

قال قتادة: (هم أقل علماً بالسنن).

يروي ابن جرير بسنده عن الأعمش، عن إبراهيم قال: (جلس أعرابي إلى زيد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَنْد، فقال: والله إنّ حديثك ليعجبني، وإن يدك لَـتُريبُني! فقال زيد: وما يريبُك من يدي؟ إنها الشمال!

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3362)، وأبو داود (2859)، والنسائي (7/ 195 ـ 196).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 371)، (2/ 400)، (4/ 297)، وانظر الصحيحة (1272).

فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمينَ يقطعون أم الشمال؟ قال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾).

قال الحافظ ابن كثير: (ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله تعالىٰ منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: 109].

ولما أهدىٰ ذلك الأعرابي تلك الهديّة لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتىٰ رضي، قال: «لقد هَمَمْتُ ألا أقبل هدية إلا من قُرشِيّ، أو ثَقَفي أو أنصاري، أو دَوْسي»[1]، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بأمثلة عن قسوة الأعراب وجفاء معاملتهم وسلوكهم في أحاديث.

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن ابن شهاب: أخبرني عُبيد الله بنُ عبد الله بن عُتْبَةَ: أن أبا هريرة أخبره أن أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: [دَعُوه وأهْريقوا على بَوْلِهِ ذَنُوباً من ماء، أو سَجْلاً مِنْ ماء، فإنما بُعثتم مُيَسِّرين، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين][2].

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه من حديث طلحة بن عبيد الله يقول: [جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ مِنْ أهلِ نَجْدٍ، ثائِرُ الرأس، نسمع دويَّ صَوْتِهِ ولا نفقهُ ما يقول، حتىٰ دنا من رسول الله ﷺ، فإذا هو يسأل عن الإسلام. .] الحديث[3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: [جاء أعرابي إلى

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد رقم (2687)، والبزار (1938 ـ كشف الأستار)، وابن حبان (6384)، والطبراني (10897) من حديث ابن عباس، وقال الهيثمي في «المجمع» (148/4): ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6128) ـ كتاب الأدب ـ باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا» ورواه مسلم وأهل السنن.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (11) ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام.

النبي ﷺ فقال: تُقَبِّلون الصِّبيان؟ فما نُقَبِّلُهم ، فقال النبي ﷺ: أو أَمْلِكُ لك أن نزعَ الله من قلبك الرحمة][1] .

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، أي عليم بالمؤمن من عباده من المنافق ، وبمن يستحق العلم والإيمان ممن لا يستحق ، وبكل أحوال عباده وخلقه ، حكيم في قسمته الإيمان والعمل والعلم والجهل والنفاق ، وفي كل قدره وشرعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن زيد: (هؤلاء المنافقون من الأعراب ، الذين إنما ينفقون رياءً ، اتقاءَ أن يُغْزَوْا أو يحاربوا أو يقاتلوا ، ويرون نفقتهم مغرماً. ألا تراه يقول: ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾؟).

قال ابن جرير: (﴿ مَغْرَمًا ﴾ ، يعني: غرماً لزمه ، لا يرجو له ثواباً ، ولا يدفع به عن نفسه عقاباً ، ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ ، يقول: وينتظرون بكم الدوائر ، أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروهٍ، . . . ، وغلبة عدو لكم. يقول الله تعالىٰ ذكره: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ ، يقول: جعل الله دائرة السوء عليهم ، ونزول المكروه بهم).

وقال ابن كثير: (﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، أي: سميع لدعاء عباده ، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

هذا الصنف من الأعراب هو الأقرب إلى الله تعالىٰ ، وهم موضع المدح من بين ما قبلهم ، فهم إنما صَدَقُوا الله الإيمان وصَدّقوا بالدار الآخرة وعملوا ما استطاعوا من القربات لرضاء ربهم ونيل استغفار نبيهم لهم ، وقد وعدهم سبحانه أن يدخلهم في رحمته ويتجاوز عن سيئاتهم.

قال ابن عباس: (﴿ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ، يعني: استغفار النبي عليه السلام).

وقال قتادة: (دعاء الرسول ، هذه ثَنِيَّةُ الله من الأعراب).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5998) ـ كتاب الأدب ـ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

وقال النسفي: (﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي جنته، وما في السين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عيب المخل ﴿رَّحِيمٌ﴾ يقبل جهد المقل).

وفي كنوز السنة الصحيحة من آفاق هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ تَصَدَّق بِعَدْل تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولا يقبل الله إلا الطَّيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّهُ حتىٰ تكونَ مثلَ الجبل][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عَبْداً بِعَفْوٍ إلا عِزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله عز وجل][2].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [مَثَلُ البخيل والمُنْفِق، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهما جُنَّتان من حديدٍ من ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهما، فأما المنفِقُ، فلا يُنْفِقُ إلا سَبَغَت، أو وَفَرَتْ على جلدِهِ حتىٰ تُخْفيَ بنانَهُ، وتَعْفُوَ أثرَهُ، وأما البخيل، فلا يريد أن يُنْفِقَ شيئاً إلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكانَها، فهو يُوَسِّعُها فلا تَتَّسِعُ][3].

قال الخطابي فيما نقله الحافظ في «الفتح» (3/ 242): (وهذا مثل ضربه النبي ﷺ للبخيل والمتصدق، فشبههما برجلين، أراد كل واحد منهما لبس درع يستتر به من سلاح عدوه، فصبها على رأسه ليلبسها، والدرع أول ما يقع على الرأس إلى الثديين إلى أن يدخل الإنسان يديه في كميها، فجعل المنفق كمن لبس درعاً سابغة، فاسترسلت عليه حتىٰ سترت جميع بدنه، وجعل البخيل كمثل رجل غُلّت يداه إلى عنقه، فكلما أراد لبسها اجتمعت إلى عنقه، فلزمت ترقوته، والمراد أن الجواد إذا هم بالصدقة انفسح لها صدره، وطابت نفسه، فتوسعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه، فضاق صدره، وانقبضت يداه).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 220)، (3/ 222)، وأخرجه مسلم في الصحيح (1014).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2588).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 241 ـ 242)، وأخرجه مسلم ـ حديث رقم ـ (1021).

100. قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)﴾.

في هذه الآيـة: ثناء الله تعالىٰ علىٰ السابقين للإسلام، من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، فقد رضي الله عن منهاجهم، ورضوا عن شرعه وقدره وما أعدّه لهم، في روضات الجنات تجري من تحتها الأنهار، مع الخلود في لذات النعيم، وذلك هو الفوز العظيم.

فقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾.

قال الشعبي: (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية).

وقال قتادة: (هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ).

قلت: ولا شك أن السبق إلى الإسلام والمسارعة إلى الحق أوائل الدعوة يندرج تحت مسمىٰ السابقين الأولين، وقد كان في المهاجرين والأنصار أبطال ذلك وفرسانه.

وقد جعل الله للسبق في الإيمان منزلة عالية بين الناس، فذم من يحاول إيذاء الأوائل من السابقين، ممن أسلموا من بعدهم، فإن للسبق حرمة ومكانة.

وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: [كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبَّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه][1].

والحديث يشير إلى عبد الرحمن من السابقين الأولين وممن أسلم قبل الفتح وشهد بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان ومنهم خالد،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2541) ـ كتاب فضائل الصحابة ـ. باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم.

فنهىٰ أن يسب من له صحبة آخراً من له صحبة أولاً ، لامتيازهم عنهم في الصحبة .

وفي هذا يروي ابن بطة بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال: [لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ ، فلمقام أحدهم ساعة يعني مع النبي ﷺ خير من عمل أحدكم أربعين سنة][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة][2] .

وفي لفظ: قال جابر: أخبرتني أم مُبَشِّرٍ أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حَفْصة: [لا يدخل النار ، إن شاء الله ، مِن أصحاب الشجرة ، أحدٌ من الذين بايعوا تحتها] .

الحديث الثالث: يروي الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبَّعَ عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله][3] .

ثم أخبر النبي ﷺ أن هؤلاء الأوائل السابقين سيكون لهم حضور في كل زمان حتىٰ قيام الساعة ، وأن الأمة لا تزال تفرز الأبطال والقادة والعلماء ، وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته .

يروي أبو نعيم في «الحلية» بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [لكل قرن من أمتي سابقون][4] .

ثم أخبر صلوات الله وسلامه عليه أن هؤلاء الأوائل سيفوقهم واحد منهم ليكون السابق في ذلك الزمان .

ففي رواية أخرىٰ عند أبي نعيم عن أنس: قال رسول الله ﷺ: [لكل قرن سابق] .

---

(1) حديث صحيح . انظر تخريج الطحاوية (93) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 912) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2496) ـ كتاب فضائل الصحابة ـ . وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7557) .

(3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2032) . انظر صحيح سنن الترمذي (1655) . وانظر تخريج المشكاة (5044) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7862) .

(4) حديث صحيح . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (1/ 8) ، والديلمي (2/ 333) ، وسنده جيد . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2001) ، وصحيح الجامع (5047) ، (5048) .

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلبَ رضى الله).

وقولُه: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾. قال النسفي: (﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم الحسنة، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية).

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

تتويج الرضا من الله سبحانه بالخلود يوم القيامة في بساتين النعيم العظيم، والأمن المقيم، والفوز الكريم.

101 ـ 102. قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾.

في هذه الآيات: تَنْبيهُ الله تعالىٰ عباده المؤمنين، لوجود أعراب حولهم متسللين، من أهل النفاق ومن عاونهم ممن على طريقتهم في المدينة، دربوا على النفاق ومرنوا عليه، وقد تَوَعَّدَهُم الله بعذاب في الدنيا مرتين، ثم بالرد إلى عذاب في الآخرة عظيم.

وآخرون مؤمنون مقصرون، أهل كسل وتشاغل وتقاعس، جمعوا بين العمل الصالح ونقيضه، ربما يتوب الله عليهم، إن الله غفور رحيم.

فقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين عن قوم منافقين يتخللون الصفوف في المدينة ومن حولها من أعراب البادية.

قال ابن زيد: (﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، قال: أقاموا عليه، لم يتوبوا كما تاب الآخرون).

وقال ابن إسحاق: (أي: لجُوا فيه، وأبوا غيرَه).

وقال ابن جرير: (﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، يقول: مرَنُوا عليه ودَرِبوا به).

وفي لغة العرب: تمرّد فلان إذا عتا ومرنَ على معصيته واعتادها.

قال الرازي: (المرود على الشيء المُرون عليه. قال: والماردُ العاتي).

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، كقوله في سورة الأنفال: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، لا ينافي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: 30].. الآية. لأن هذا من باب التوسّم فيهم بصفات يُعْرَفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساء).

وقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال السدي عن أبي مالك: (كان رسول الله ﷺ يخطب فيذكر المنافقين، فيعذبهم بلسانه. قال: وعذاب القبر).

2 ـ وقال مجاهد: (﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، قال: القتل والسِّبَاء). أو قال: (بالجوع وعذاب القبر). أو قال: (الجوع والقتل). وقال يحيىٰ: (الخوف والقتل).

3 ـ قال قتادة: (﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، قال: عذاباً في الدنيا، وعذاباً في القبر).

4 ـ وقال ابن زيد: (أما عذابٌ في الدنيا، فالأموال والأولاد. وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: 55]، بالمصائب فيهم، هي لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر. قال: وعذاب في الآخرة، في النار، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، قال: النار).

وقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

هو في حال المذنبين المتأخرين عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إثبات الإيمان لهم، فالأولون هم المنافقون المتخلفون عن الغزو شكاً وتكذيباً، وهؤلاء هم المؤمنون المتخلفون كسلاً وتشاغلاً، فقد اعترفوا بالذنوب وأقروا بها، ولهم من الأعمال الصالحة ما يجعلهم تحت عفو الله ورحمته. والآية عامة في جميع المذنبين المخلطين، وإن كانت نزلت في أناس معينين، وكل «عسىٰ» في القرآن حق.

وفي صحيح البخاري ـ عند تفسير هذه الآية ـ عن سَمُرَة بن جُندب رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ لنا: [أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهيا بي إلى مدينة مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبَنِ فِضّة، فتلقّانا رجالٌ، شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهم كأَحْسَنِ ما أنت راءٍ، وشَطْرٌ كأَقْبَحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فَقَعُوا في ذلك النَّهْر، فَوَقَعوا فيه ثم رجعوا إلينا قَدْ ذَهَبَ ذلك السوء عنهم فصاروا في أَحْسَنِ صورة، قالا لي: هذه جَنَّةُ عَدْنٍ وهٰذاك مَنْزِلُك، قالا: أما القومُ الذينَ كانوا شَطْرٌ منهم حَسَنٌ وشَطْرٌ منهم قبيحٌ فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم][1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أي: ذو صفح عن ذنوب عباده وعفو لها إذا تابوا منها، وهو رحيم بهم يتجاوز تعذيبهم إذا أنابوا إليه.

103 ـ 106. قوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

في هذه الآيات: الأمْرُ من الله لنبيِّه أخذ صدقات أموال المسلمين والدعاء لهم، فالله تعالىٰ هو الذي يقبل توبة عباده ويأخذ بالصدقات فينمِّيها لهم.

والتوعد من الله للمتخلفين المتقاعسين بفضح أعمالهم أمام رسول الله ﷺ والمؤمنين، ثم يُرَدّون إلى ربهم فيرون عرض تفاصيل أعمالهم في صحائفهم.

وهناك آخرون أمرهم إلىٰ الله قد يتوب الله عليهم أو يعذبهم، فهو العليم بأعمالهم وحرصهم على التوبة، الحكيم في تقديره مصيرهم.

فقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

أمْرٌ من الله تعالىٰ نبيّه ﷺ أن يأخذ من أموال المؤمنين صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهي التطوع، تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء، وتزكي أنفسهم وتنميها بالبركات الخلقية والخيرات.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4674) ـ كتاب التفسير ـ باب قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

والآية عامة ، وإن كان بعض المفسرين أعادوا الضمير في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. و لهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، إنما كان خاصاً بالرسول ﷺ ، محتجين بقوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ، فتصدىٰ لهم صديق الأمة وأول خلفائها ، فردّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد وقاتلهم حتىٰ دفعوها.

فقد روىٰ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالىٰ. فقال: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عَنَاقاً[1] كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق][2].

والمراد بنو يربوع وكانوا جمعوا الزكاة ليخرجوها فمنعهم مالك بن نويرة وفرقها فيهم ، وكان قتالهم في أول خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾. أي: ادع لهم واستغفر لهم.

كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: [كان النبي ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلىٰ عليهم. وفي رواية: (قال: اللهم صل عليهم). فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفىٰ][3].

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ ، قال ابن عباس: (رحمة لهم). وقال قتادة: (وقار).

---

(1) أنثى المعز التي لم تبلغ سنة. وفي رواية: «عِقَالاً»: وهو الحبل الذي يعقل به البعير.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1399) ، (1400) ـ كتاب الزكاة ـ باب وجوب الزكاة ، ورواه مسلم وأهل السنن.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1078) ، وأخرجه البخاري (1497) ، (4166) ، (6332) ، وأخرجه أبو داود (1590) ، والنسائي (5/ 31) ، وأحمد (4/ 353 ـ 355 ـ 381) ، والطيالسي (819) من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. أي: ﴿سَمِيعٌ﴾ لدعائك يا محمد ولكل شيء، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهل لدعوتك، وبالسر وأخفىٰ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله عز وجل يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يُرَبِّي أحدكم مُهْرَه[1] أو فَلُوَّه أو فصيله، حتىٰ إن اللقمة لتصير مثلَ جبل أحد. قال وكيع: وتصديق ذلك في كتاب الله قوله: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾][2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ تَصدَّق بِعَدْلِ تَمْرةٍ مِنْ كسْبٍ طيّب، ولا يقبلُ اللهُ إلا الطيّبَ، وإنّ الله يتقبّلها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحبه كما يربي أحدكم فَلُوَّهُ، حتىٰ تكونَ مِثل الجبل][3].

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال مجاهد: (هذا وعيد). أي: إن الله تعالىٰ يتوعد المخالفين أوامره والمتخلفين عن الجهاد بعرض أعمالهم، فهو يراها سبحانه ويُريها رسوله والمؤمنين في الدنيا، ثم العرض الأكبر يوم القيامة، وهو قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 9 ـ 10].

---

(1) هو ولد الفرس.

(2) حسن صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 404)، والترمذي في الجامع (662)، وأصله في صحيح البخاري (1410)، وفي صحيح مسلم (1014).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1410)، ومسلم (1014)، والترمذي (661)، والنسائي (5/ 57)، وابن ماجة (1842)، وابن حبان (270)، وأحمد (2/ 331) من حديث أبي هريرة.

3 ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: 9 ـ 11].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المفهوم لعرض الأعمال في الدنيا والآخرة أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ يحاسَبُ يومَ القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾، فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينَه وبينه ترجمانٌ، ولا حجابٌ يَحْجُبُه، فينظرُ أيمنَ منه فلا يرىٰ إلا ما قدَّم من عمله، وينظرُ أشأمَ منه فلا يرىٰ إلا ما قدَّم، وينظر بين يديه فلا يرىٰ إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: [لا عليكم أن تَعْجَبُوا بأحدٍ حتىٰ تنظروا: بم يُختمُ له؟ فإن العاملَ يعملُ زماناً من عمره ـ أو: بُرْهة من دهره ـ بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعملُ البرهة من دَهْره بعمل سَيِّئٍ لو مات عليه دخلَ النار، ثم يتحولُ فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته. قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يوفِّقهُ لعمل صالحٍ ثم يقبضه عليه][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قال مجاهد: (هلال بن أمية، ومرارة بن ربعي، وكعب بن مالك، من الأوس والخزرج).

وقال الضحاك: (هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة).

قال النسفي: (﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ إن أصروا ولم يتوبوا، ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ إن تابوا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4939)، وأخرجه مسلم (2876).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 225)، وأخرجه مسلم (1016) (68).
(3) حدث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 120)، وكذلك أخرجه (3/ 223)، وله شواهد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ، أي برجائهم ، وبكل ما يخفىٰ وما يظهر ، ﴿حَكِيمٌ﴾ في إرجائهم ، وفي كل أمره وقدره.

وأصل الإرجاء التأخير. من أرجأته أي أخّرته. ومنه سمي «المرجئة» ـ لأنهم أخّروا العمل.

قال القرطبي: (﴿إِمَّا﴾ في العربية لأحد أمرين ، والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للعباد على ما يعرفون ، أي ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للعباد أكثر من هذا).

والمقصود: أنّ «إما» في قوله تعالىٰ: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أنها للشك بالنسبة للعباد ، أي خافوا عليهم العذاب و ارجوا لهم الرحمة ، وأما الله تعالىٰ فهو عالم بمصير كل شيء وإليه يرجع الأمر كله.

ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء][1].

107 ـ 110. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: كَشْفُ الله تعالىٰ قصة مسجد الضرار الذي أسّسه المنافقون على

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 51) ـ في القدر ـ باب: كتب المقادير قبل الخلق. وانظر مختصر صحيح مسلم (1841) ، بلفظ: «كتب الله مقادير الخلائق. . ».

الكفر والنفاق وإيواء المجرمين ، وتظاهرهم بالحسنىٰ والله يشهد إنهم لكاذبون.

ونَهْيُ الله نبيّه عن الصلاة فيه ، فإن المسجد الأول الذي أُسِّسَ على التقوىٰ هو الأحق للصلاة فيه ، وفيه رجال مؤمنون متطهرون.

هل يستوي البنيان الذي أُسِّسَ على طاعة الله كالبنيان المؤسس على معصيته ، والله لا يصلح عمل المفسدين.

لا يزال هذا البنيان القبيح نكتة سوداء في قلوب هؤلاء المنافقين حتىٰ زوالهم عن الدنيا والله عليم حكيم.

فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

قصّته: أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك في رجب (9 هـ) ، هي آخر غزوة غزاها ﷺ ، فقد وصلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، وأن جيشاً ضخماً يوشك أن يكون على جاهزية لمرحلة فاصلة دامية مع المسلمين ، ففرح المنافقون بهذه الأخبار ، وأبْرَقَ لهم الشّيطان آمالاً من الخزي والعار ، وكان أبو عامر الراهب ـ الذي سمّاه رسول الله ﷺ بالفاسق ـ قد فرَّ إلى قيصر بالشام ، وكان هو الذي حزّب الأحزاب من قبل لقتال رسول الله ﷺ ، فلما خذله الله لحق بالروم ، وكتب إلى المنافقين في المدينة يأمرهم ببناء مسجد يتحَزّبوا به ضد رسول الله والمسلمين ، وليكون بمثابة وكر للدس والتآمر يأمنون فيه ، وليستعدوا لاستقباله فيه مع جيش الروم الزاحف.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾. قال: وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجند من الروم ، فأُخرج محمداً وأصحابه! فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة)[1].

ويروي ابن إسحاق بسند حسن من حديث عاصم بن عمر بن قتادة قال: (وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا

(1) ذكره بسنده ابن جرير ـ تفسير الطبري ـ ، سورة التوبة ، آية (107).

فتصلي لنا فيه! فقال: إني على جناح سفر وحال شُغْلٍ ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ ولو قد قَدِمْنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه)[1].

ثم مضىٰ رسول الله ﷺ إلى تبوك، وأذلّ الله أعداءه الروم وكسر شوكتهم وأهان دولتهم، وركب المسلمون هودج النصر وداسوا مُلك قيصر بأقدامهم، وقفلوا عائدين إلى المدينة، فلما نزل النبي ﷺ بأصحابه بذوي أوان، وهي على ساعة من المدينة، أصدر أمره هناك إلى بعض أصحابه بحرق مسجد الضرار وهدمه على أهله.

قال ابن إسحاق: (فلما نزل بذي أوان، أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالكَ بن الدُّخشم، أخا بني سالم بن عوف، ومَعْنَ بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي، أخا بني العَجْلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه، فاهدماه وحرِّقاه. فخرجا سريعَيْن حتىٰ أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخْشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتىٰ أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل إلى أهله، فأخذ سَعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتىٰ دخلاه وفيه أهله، فحرّقاه وهدّماه، وتفرّقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى آخر القصة)[2].

قال مجاهد: (﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾، قال: المنافقون، ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، لأبي عامر الراهب). أي «إرصاداً» له، وإعداداً لأجل ذاك الفاسق.

وقوله: ﴿ضِرَارًا﴾ مفعول لأجله، أي مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء. ﴿وَكُفْرًا﴾ أي تقوية للنفاق وأهله، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن زيد: (لئلا يصلي في مسجد قباء جميع المؤمنين). فأرادوا تفريقهم واختلاف كلمتهم ففضحهم الله.

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

أي: يحلف بانوه أنهم إنما أرادوا ببنائه الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل

---

(1) انظر سيرة ابن هشام (2/ 529 ـ 530)، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1501 ـ 1502).

(2) انظر سيرة ابن هشام ـ في أعقاب تبوك ـ (2/ 530)، والمرجع السابق (3/ 1536).

الضعف والعلة ومن شَقَّ عليه الوصول إلى مسجد النبي ﷺ ، والله يشهد أنهم بحلفهم هذا يكذبون ، وما أرادوا الحق ولا نصرة هذا الدين.

وقوله: ﴿ لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ـ نهي من الله تعالىٰ نبيّه ﷺ عن القيام أو الصلاة في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله.

وقوله: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾.

قَسَمٌ من الله تعالىٰ أن مسجد قباء الذي أسس على التقوىٰ من أول يوم ابتدئ في بنائه هو أولىٰ أن تقوم فيه ـ يا محمد ـ مُصَلياً.

لقد نزل رسول الله ﷺ أول ما نزل المدينة في قباء ، في بني عمرو بن عوف ، على كلثوم بن الهدم ، أربع عشرة ليلة ، وأسَّس فيها مسجد قباء ، وهو أول مسجد أسس بعد النبوة وفي الإسلام.

قال ابن إسحاق: (فأقام رسول الله ﷺ بقُباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده).

وقد ذُكر أن رسول الله ﷺ كان أول من وضع حجراً في قبلة المسجد ، ثم جاء أبو بكر بِحَجَر فوضعه إلى حجر رسول الله ﷺ ثم أخذ الناس في البنيان.

أخرج البخاري في صحيحه عن عروة قال: [فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بِضْعَ عشْرَةَ ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوىٰ ، وصلىٰ فيه رسول الله ﷺ ، ثم ركب راحلته ، فسارَ يمشي معه الناس حتىٰ بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ، وهو يُصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مِرْبَداً للتمر ، لسُهَيْل وسَهْل غلامين يتيمين في حَجْر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزِلُ. ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساوَمَهُما بالمِربَد ليتخذه مسجداً ، فقالا: لا ، بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله ، فأبىٰ رسول الله ﷺ أن يقبلَهُ منهما هبةً حتىٰ ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِنَ في بنيانه ويقول ، وهو ينقل اللَّبِن: هذا الحمال لا حمال[1] خيبر ، هذا أبَرُّ ربَّنا وأطْهَر. ويقول: اللهم إن الأجر أجرُ الآخرة ، فارحم الأنصار والمهاجرة][2].

(1) والمراد بقوله: «لا حمال خيبر» ، أي: لا ما يحمل من خيبر من التمر ونحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم (3906) ـ كتاب مناقب الأنصار ـ.

وقد اختلف المفسرون في المقصود في قوله: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ على وجهين:

الوجه الأول: المقصود مسجد المدينة.

فقد روىٰ ابن جرير بإسناده إلى عثمان بن عبيد الله قال: (أرسلني محمد بن أبي هريرة إلى ابن عمر، أساله عن المسجد الذي أسس على التقوىٰ، أيّ مسجد هو؟ مسجد المدينة أو مسجد قباء؟ قال: لا، مسجد المدينة).

وقال زيد بن ثابت: (المسجد الذي أسس على التقوىٰ مسجد الرسول).

الوجه الثاني: بل المقصود مسجد قُباء.

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾، يعني مسجد قُباء).

وكذلك قال ابن بريدة: (مسجد قباء، الذي أسس على التقوىٰ، بناه نبي الله ﷺ).

وقد جمع الحافظ ابن كثير بين القولين جمعاً لطيفاً حيث قال: (وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية ويبن هذا، لأنه كان مسجد قباء قد أسس على التقوىٰ من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولىٰ والأحرىٰ).

ثم ذكر أحاديث بعضها رواه الإمام أحمد وبعضها جاء في بعض السنن وله رواية عند الإمام مسلم:

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي سعيد أنه قال: [تمارىٰ رجلان في المسجد الذي أسس على التقوىٰ من أول يوم، فقال رجل هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: هو مسجدي][(1)].

ورواه مسلم عن حميد الخراط المدني قال: [سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 89)، ح (11785)، وانظر المسند (3/ 8).

أبي سعيد فقلت: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوىٰ؟ فقال: إني أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيتٍ لبعض نسائه فقلت: يا رسول الله: أين المسجد الذي أسس على التقوىٰ؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: [هو مسجدكم هذا][1].

واختاره ابن جرير رحمه الله، على أنه أولىٰ القولين بالصواب.

قلت: والذي أميل إليه أن اللفظ قد أطلق في السنة الصحيحة على المسجدين معاً، فكلاهما أسس على التقوىٰ، فإلى أيهما كان الحديث عنه سلك المعنىٰ، فقد سبق في رواية البخاري عن عروة قوله: «فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأَسَّسَ المسجد الذي أسس على التقوىٰ». ثم قوله عليه الصلاة والسلام: «هو مسجدكم هذا» الذي رواه الإمام مسلم.

وقد مدح الله في القرآن المسجد الأول في الإسلام بقوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾.

وكذلك جاء المدح من السنة المطهرة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: [فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: صلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا مسجد الكعبة][2].

الحديث الثاني: روىٰ مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: [كان رسول الله ﷺ يأتي مسجدَ قباء راكباً أو ماشياً، فيصلي فيه ركعتين][3].

فكان رسول الله ﷺ يتعاهد مسجد قباء فيزوره راكباً وماشياً ويصلي فيه، فَإِنَّ ذِكْرَاهُ من أعطر الذكرىٰ، فقد أسسه المسلمون على التقوىٰ فكان بيت الحق والإيمان.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد وابن ماجة بسند صحيح من حديث سهل بن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم (1398) ـ كتاب الحج.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم (1396) ـ كتاب الحج.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1399) ـ كتاب الحج ـ، وأخرجه البخاري (1911)، (1193) نحوه، وأخرجه النسائي (2/ 47)، وأحمد رقم (4846).

حنيف مرفوعاً: [من تطهر في بيته ثم أتىٰ مسجد قباء فصلىٰ فيه صلاة كان له كأجر عمرة][1].

وله شاهد عند الترمذي والحاكم من حديث أُسَيد بن ظُهَير الأنصاري بلفظ: [صلاة في مسجد قباء كعمرة][2].

وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾. قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية][3].

وأخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك: [أن هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار! إن الله قد أثنىٰ عليكم في الطُّهور. فما طُهورُكم؟ قالوا: نتوضأ للصلاةِ، ونَغْتَسِلُ من الجنابة، ونستنجي بالماء. قال: فهو ذاك. فَعَلَيكُمُوه][4].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوىٰ من الله ورضوان، ومن بنىٰ مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنىٰ هؤلاء بنيانهم ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، أي: طرف حَفِيرة مُنْثَالة ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا يصلح عمل المفسدين).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 487)، (2/ 37)، وابن ماجة في السنن (1412). وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (1159).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (324) وحسنه، وابن ماجة في السنن (1411)، والحاكم (1/ 487)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (44) ـ كتاب الطهارة ـ باب في الاستنجاء بالماء. انظر صحيح أبي داود (34). وأخرجه الترمذي (3099)، وابن ماجة (357)، وله شواهد كثيرة.

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (355) ـ كتاب الطهارة وسننها ـ باب الاستنجاء بالماء. وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (285).

وقال القرطبي: (بيّن أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها. والشّفا: الشفير. وأشفىٰ على كذا أي دنا منه). وقال أيضاً: (الشفا: الحرف والحد. و﴿جُرُف﴾ قُرئ برفع الراء، وأبو بكر وحمزة بإسكانها، قال: والجُرُف: ما يُتجرّف بالسيول من الأودية، وهو جوانبه التي تَنْحَفِر بالماء، وأصله من الجَرْف والاجتراف، وهو اقتلاع الشيء من أصله. ﴿هَارٍ﴾ ساقط، يقال: تهور البناء إذا سقط، وأصله هائر، فهو من المقلوب يقلب ويؤخر ياؤها).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: لا يزال بنيان هؤلاء المنافقين في مسجد الضرار شكاً في قلوبهم ونفاقاً في نفوسهم إذ يحسبون أنهم ببنائه محسنون، إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا والله عليم بما بنوا وبما بيّتوا، حكيم في فضحهم بقرآن يتلىٰ إلى يوم القيامة، ثم بمجازاتهم يوم يلقونه.

قال ابن عباس: (﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، يعني: شكاً، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، يعني الموت).

وقال قتادة: (حتىٰ يموتوا).

وقال الحسن: (﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾: شكاً في قلوبهم).

وقال مجاهد: (﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، قال: إلا أن يموتوا).

قال النسفي: (أي إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء فحينئذ يسلون عنه، وأما ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، ثم يجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار، أو معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم).

وقرأ بعض قراء الحجاز والمدينة والبصرة والكوفة: (إلا أن تُقَطَّعَ قلوبهم) بضم التاء. في حين قرأ بعض قرأة المدينة والكوفة: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بفتح التاء، بمعنىٰ إلا أن تتقطَعَ قلوبهم، ثم حذفتِ إحدىٰ التاءين، وكلاهما قراءتان مشهورتان.

فوائد من الآيات :

الفائدة الأولى : هدم الحاكم المسلم لأماكن المعصية وتجمعات النفاق ، أو تغيير هيئاتها عما وضعت له ، ولا حرمة لوقف إن بُني على معصية أو نفاق.

ومنه حرق النبي ﷺ لمسجد الضرار وهدمه ، والنهي عن استخدام مرافق ديار ثمود.

قال ابن القيم : (ومنها : تحريق أمكنة المعصية التي يُعصىٰ الله ورسولُهُ فيها وهدمُها ، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار ، وأمر بهدمه ، وهو مَسْجدٌ يُصَلّىٰ فيه ويذكر اسم الله فيه ، لما كان بناؤه ضِراراً وتفريقاً بين المؤمنين ، ومأوىٰ للمنافقين ، وكلُّ مكان هذا شأنه ، فواجب على الإمام تعطيله ، إما بهدمٍ وتحريق ، وإما بتغيير صورته ، وإخراجه عما وُضِعَ له. وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار ، فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بالهدم وأوجب ، وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات ، وبيوت الخمارين ، وأرباب المنكرات).

ثم قال : (ومنها : أن الوقف لا يصح على غير برٍّ ولا قُربة ، كما لم يصحَّ وقفُ هذا المسجد ، وعلى هذا : فيُهدم المسجد إذا بني على قبر ، كما يُنْبَشُ الميتُ إذا دُفِنَ في المسجد ، نصّ على ذلك الإمام أحمد وغيرُه ، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجدٌ وقبر ، بل أيّهما طرأ على الآخر ، منع منه ، وكان الحكم للسابق).

الفائدة الثانية : كراهة الصلاة خلف إمام الحاكم الظالم.

وقد استفاده أهل العلم من قصة مسجد الضرار وإمامه.

قال القرطبي في التفسير : (قال العلماء : إنَّ مَنْ كان إماماً لظالم لا يُصَلّى وراءه ، إلا أن يظهر عذره أو يتوب ، فإن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمّع بن جارية أن يصلي بهم في مسجدهم ، فقال : لا ولا نعْمَة عين! أليس بإمام مسجد الضرار! فقال له مُجَمِّع : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل عليَّ ، فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرؤون من القرآن شيئاً ، فَصَلّيْتُ ولا أحسب ما صنعتُ إثماً ، ولا أعلم بما في أنفسهم ، فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء).

الفائدة الثالثة: لا تصلىٰ جماعتان في مسجد واحد بإمامين ، ولا يبنىٰ مسجدان إلى جانب بعضهما دون حاجة.

قال القرطبي: (قال علماؤنا: لا يجوز أن يُبْنَىٰ مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه ، والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقىٰ شاغراً ، إلا أن تكون المحَلّة كبيرة فلا يكفي أهلَها مسجدٌ واحد فيبنىٰ حينئذ.

ثم قال: تَفَطَّنَ مالك رحمه الله من هذه الآية فقال: لا تصلىٰ جماعتان في مسجد واحد بإمامين ، خلافاً لسائر العلماء.

وقد رُوي عن الشافعي المنع ، حيث كان تشتيتاً للكلمة وإبطالاً لهذه الحكمة وذريعة إلى أن نقول: من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف ويبطل النظام ، وخفي ذلك عليهم)[1].

111 ـ 112. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن صفقة رابحة عقدها سبحانه مع المؤمنين ، فقد بايعهم فأغلىٰ لهم الثمن بمعاوضته إياهم عن أنفسهم وأموالهم الجنة ، فهم يقاتلون في سبيله فيَقْتُلون ويُقتلون ، وهذا وعد مكتوب في التوراة والإنجيل والقرآن ، فمن أحسن وفاء وأصدق عهداً من الله ، فاستبشروا ياأهل الصدق والجهاد بهذا الربح العظيم.

ثم في الآيات وَصْفٌ من الله لهؤلاء المؤمنين أصحاب تلك الصفقة بنعت بعض مزاياهم ومحاسنهم مع تأكيد البشرىٰ لهم.

---

(1) انظر تفصيل هذه الأحكام ، في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (3/ 1544 ـ 1546).

فقوله: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

قال قتادة: (ثامَنَهم الله ، فأغلىٰ لهم الثمن).

وقال الحسن: (بايعهم فأغلىٰ لهم الثمن).

وقال شِمر بنُ عَطِيَّة: (ما من مسلم إلا ولله ـ عز وجل ـ في عنقه بيعةٌ ، وَفىٰ بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية).

قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ أنه عاوضَ عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تَفَضَّل به على عباده المطيعين له).

وفي كنوز السنة الصحيحة آفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [انتدب الله لمن خَرَجَ في سبيله لا يُخْرِجُهُ إلا إيمانٌ بي وتصديقٌ بِرسلي أَنْ أرْجعه بما نال من أجرٍ أو غنيمة أو أُدخله الجنة][1].

وفي لفظ: [وتَوَكّلَ الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يُدْخله الجنة أو يرْجِعَهُ سالماً مع أجر أو غنيمة].

وفي لفظ آخر: [تكفّلَ الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله ، وتصديق كلماته ، بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: [قيل: يا رسول الله! أيُّ الناسِ أفضلُ؟ فقال رسول الله ﷺ: مُؤمِنٌ يجاهِدُ في سبيل الله بنفسه وماله. قالوا: ثم مَنْ؟ قال: مؤمنٌ في شِعْبٍ مِنَ الشِّعابِ يتقي الله ويدعُ الناس من شَرّه][2].

الحديث الثالث: أخرج الحميدي في «مسنده» بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (36) ـ كتاب الإيمان ـ باب الجهاد من الإيمان. وانظر (2787) للفظ الآخر ـ كتاب الجهاد والسير ـ. وصحيح الجامع الصغير ـ حديث (2982) ـ للفظ بعده.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2786) ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب: أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. وأخرجه في كتاب الرقاق (6494) بنحوه.

عنه أن رسول الله ﷺ قال: [ثلاثة في ضمان الله عز وجل: رجل خرج إلىٰ مسجد من مساجد الله عز وجل، ورجل خرج غازياً في سبيل الله، ورجل خرج حاجاً][1].

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾. أي: هو ضمان لهم بالجنة سواء قَتلوا أو قُتلوا. فإنه بمجرد خروج المجاهد في سبيل الله يدخل في عقد هذا الضمان.

ففي سنن أبي داود ومستدرك الحاكم بسند صحيح عن أبي أمامة الباهلي، عن رسول الله ﷺ قال: [ثلاثة كلهم ضامن على الله: رجل خرج غازياً في سبيل الله فهو ضامنٌ على الله حتىٰ يتوفاه فيدخله الجنة، أو يردَّه بما نال من أجر أو غنيمة، ورجلٌ راحَ إلى المسجد فهو ضامنٌ على الله حتىٰ يتوفاه فيدخلَه الجنة أو يردّه بما نال من أجر، ورجلٌ دخلَ بيتَهُ بسلام، فهو ضامنٌ على الله][2].

وقوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾.

قال القرطبي: (إخبار من الله تعالىٰ أن هذا كان في هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسىٰ عليه السلام).

وقال النسفي: (وهو دليل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه).

وقوله: ﴿وَعۡدًا﴾ مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلاً.

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾. أي: ومن أحسن وفاء وأصدق عهداً وأوفىٰ ضماناً من الله تعالىٰ، وهو كقوله في سورة النساء: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾. وقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾.

وقوله: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

قال الحسن: (والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة).

ومعنىٰ الآية: أظهروا السرور ـ معشر المؤمنين ـ بهذه البشارة، وليستبشر من حفظ هذا العهد وقام بالتزاماته بالفوز العظيم، في جنة الخلود والنعيم.

---

(1) أخرجه الحميدي في «مسنده» (1190)، وأبو نعيم في «الحلية» (9/ 251)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ (598) ـ و قال الألباني: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (2494) ـ كتاب الجهاد ـ انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2178)، ورواه الحاكم.

وأصل البشارة إظهار السرور في البشرة. قال الرازي: («أبشر إبشاراً» أي سُرَّ. قال: والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة به كقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾).

وقوله: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

هو وصف للمؤمنين أصحاب تلك الصفقة ببعض مزاياهم ومحاسنهم.

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾، رُفِعَ على المدح أي هم التائبون، أو مبتدأ وخبر. وهم الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله، إلى الحالة المحمودة، وهي موضع طاعته ورضاه سبحانه.

قال الحسن: (تابوا من الشرك، وبرئوا من النفاق).

وقال: (تابوا إلى الله من الذنوب كلها).

وأما قوله: ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾، قال ابن جرير: (فهم الذين ذلُّوا خشيةً لله وتواضعاً له، فجدُّوا في خدمته).

قال الحسن: (العابدون لربهم. عبدوا الله على أحايينهم كلها، في السراء والضراء).

وقال قتادة: (﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾، قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم).

والخلاصة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ ـ إنهم قوم اعترفوا بذنوبهم وتخلصوا منها بالتوبة وارتقوا بالعبادة فمدحهم الله تعالىٰ بذلك.

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن أبي سعيد الأنصاري عن النبي ﷺ قال: [الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له][1].

وأما قوله: ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾، فهم أهل الحمد على كل تقلبات أحوالهم في السراء والضراء.

قال قتادة: (﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾، قوم حمدوا الله على كل حال).

---

(1) إسناده حسن. رواه الطبراني بإسناد حسن. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6679)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 275) لتفصيل البحث.

وعن الحسن: (الحامدون على الإسلام). وقال: (الذين حمدوا الله على أحايينهم كلها، في السراء والضراء).

أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالىٰ على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطىٰ أفضلَ مما أخذ][1].

وله شاهد عند الطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فحمدَ الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضلَ من تلك النعمة].

وعن كعب يحكي عن التوراة ـ في صفة النبي ﷺ وأصحابه وأمته ـ قال: (وأمته الحمادون، يحمدون الله في السراء والضراء، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبرونه على كل شرف)[2].

وفي صحيح الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان إذا أتاه الأمر يَسُرُّه قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال][3].

وأما قوله: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾، ففيه أقوال:

القول الأول: المقصود أهل الصيام.

قال قتادة: (قوم أخذوا من أبدانهم، صوماً لله).

وقال مجاهد: (﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾، هم الصائمون).

القول الثاني: المقصود طلبة العلم.

قال عكرمة: (هم طلبة العلم).

القول الثالث: المقصود أهل الجهاد.

قال عطاء: (السائحون: المجاهدون).

القول الرابع: هم المهاجرون.

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (3805) ـ كتاب اللباس ـ باب فضل الحامدين. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3067)، وانظر للشاهد صحيح الجامع الصغير (5438).

(2) انظر تخريج المشكاة (5771)، كتاب الفضائل والشمائل. ورواه الدارمي مع تغيير يسير.

(3) أخرجه الحاكم (1/ 499)، وأخرج نحوه ابن ماجة (2/ 422). وانظر السلسلة الصحيحة (265).

قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ورواه ابن أبي حاتم .

قلت : والراجح القول الثالث ، لورود الخبر الصحيح في ذلك عن رسول الله ﷺ .

فقد أخرج أبو داود بسند حسن عن أبي أمامة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ائذن لي في السياحة ، قال النبي ﷺ : [إنَّ سِيَاحةَ أمتي الجهادُ في سبيل الله تعالىٰ][1] .

وأما قوله : ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ ، يعني المصلين ، أهل الركوع والسجود بالمحافظة على صلواتهم .

قال الحسن : (﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ ، قال : الصلاة المفروضة) .

وأما قوله : ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ، صفة لازمة لأتباع هذا النبي الكريم ، عليه أزكىٰ الصلاة وأتم التسليم .

قال الحسن : (﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ : أما إنهم لم يأمروا الناس حتىٰ كانوا من أهلها ، ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ قال : أمَا إنهم لم ينهوا عن المنكر حتىٰ انتهوا عنه) .

أخرج ابن ماجة في السنن بسند حسن عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [مُروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن تَدْعُوا فلا يُسْتَجاب لكم][2] .

وأخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قام خطيباً . فكان فيما قال : [ألا ، لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً ، هَيْبَةُ الناس ، أن يقولَ بِحَقٍّ ، إذا عَلِمَه] . قال : فبكىٰ أبو سعيد ، وقال : قد والله! رأينا أشياء ، فهبنا .

وفي لفظ : [لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه أو شهده أو سمعه][3] .

وأما قوله : ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ ، قال ابن عباس : (يعني القائمين على طاعة

---

(1) حديث حسن . أخرجه أبو داود (2486) ـ كتاب الجهاد ـ باب النهي عن السياحة ، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم (2172) ، وأخرجه الحاكم (2/ 73) ، والديلمي (777) .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة في السنن (4004) ـ كتاب الفتن ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3235) .

(3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2/ 30) ، وابن ماجة (4007) ، والحاكم (4/ 506) ، وأحمد (3/ 19 ، 50 ، 61) ، وأبو يعلىٰ (ق 72/ 1) ، وانظر : «الصحيحة» (168) .

الله ، وهو شرطٌ اشترطه على أهل الجهاد ، إذا وَفَوا لله بشرطه ، وفىٰ لهم بشرطهم).

وقال الحسن: (﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾: القائمون على أمر الله).

وعنه في رواية: (﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: لفرائض الله).

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال ابن جرير: (يعني: وبشر المصدِّقين بما وعدهم الله إذا هم وفَّوا الله بعهده ، أنه مُوَفٍّ لهم بما وعدهم من إدخالهم الجنة).

113 ـ 116. قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: نَهْيُ الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أهل رحم وقرابة بعدما تبين لهم مصير المشركين.

وتبرير استغفار إبراهيم لأبيه أول الأمر ، فلما تبين له عداوته لله أعلن البراءة منه ، إن إبراهيم لأواه حليم.

إنه لا يضل الله قوماً إلا بعد توضيح السبيل لهم ، فإن أصروا على الفسق والغي خذلهم ، إنه سبحانه بكل شي عليم.

إن سلطان السماوات والأرض وملكهما ـ أيها الناس ـ بيد ربكم ، وقلوب الثقلين بين أصبعين من أصابع بارئكم ، فهو يحيي ويهدي من يشاء ، ويميت ويضل من يشاء ، ومالكم من دون الله من نصير ولا مجير ولا معين.

قوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾**.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي عن ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن

المسيب عن أبيه أنه أخبره: [أنه لما حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدَ الله بنَ أبي أمية بن المغيرة. قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتىٰ قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: أما والله لأستغفرن لك مالم أُنْهَ عنك، فأنزل الله تعالىٰ فيه الآية].

وفي رواية: (فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾)[1].

فنهىٰ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ والمؤمنين بعد هذه الآية أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا قرابة ورحماً فضلاً عن أن يحضروا أو يشهدوا جنائزهم، في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [استأذنت ربي أن أَسْتَغْفِرَ لأمي فلم يأذَنْ لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذِنَ لي][2].

وفي رواية: [قال أبو هريرة: زار النبي ﷺ قَبْرَ أمه، فبكىٰ وأبْكَىٰ من حَوْلَه فقال ﷺ: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلمْ يؤذنْ لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِنَ لي، فزوروا القبور، فإنها تُذَكِّرُكُم الموت].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن ابن بُرَيدة، عن أبيه، قال: [كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر فنزل بنا ونحن معه قريبٌ من ألف راكب، فصَلّىٰ ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذْرِفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفَداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: إني سألت ربي ـ عزَّ وجل ـ في الاستغفار لأمّي، فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1360)، (4772)، ومسلم(24)، والنسائي في «التفسير» (250)، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 533).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (976) ـ كتاب الجنائز ـ باب استئذان النبي ﷺ ربه ـ عز وجل ـ في زيارة قبر أمه. وانظر للرواية الأخرى الحديث بعده في الباب.

عن ثلاث: نَهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فتذكركم زيارتُها خيراً. ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث ، فكلوا وأمسكوا ما شئتم. ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية ، فاشربوا في أي وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً][1].

وله شاهد أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن سليمان بن بُريدة ، عن أبيه: [أنَّ النبي ﷺ لما قَدِمَ مكّة أتىٰ رَسْمَ قبر ، فجلس إليه ، فجعل يخاطب ، ثم قام مستعبراً. فقلنا: يا رسول الله ، إنا رأينا ما صنعت! قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي ، فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي». فما رُئي باكياً أكثر من يومئذ][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن علي قال: [قلت للنبي ﷺ: إن عمَّك الشيخ الضال قد مات ، قال: «اذهبْ فوَارِ أباكَ ، ثمَّ لا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتيني». فذهبت فواريته ، وجئته ، فأمرني فاغتسلت ، ودعا لي][3].

قلت: بل من السنة عدم حضور الإمام جنازة أهل الكبائر ولا الصلاة عليهم ، وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روىٰ مسلم عن جابر بن سَمْرَة قال: [أُتِيَ النبي ﷺ بِرَجُلٍ قَتَلَ نَفْسَهُ بِمَشَاقِصَ[4] ، فلم يُصَلِّ عليه][5].

الحديث الثاني: أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن أبي قتادة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا دعي لجنازة سأل عنها ، فإن أثني عليها خيرٌ قام فصلىٰ عليها ، وإن أثني عليها غير ذلك قال لأهلها: شأنكم بها ، ولم يصل عليها][6].

الحديث الثالث: أخرج أصحاب السنن بسند صحيح من حديث زيد بن خالد ـ في

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 350 ـ 355) ، وابن حبان (5390) ، وانظر نحوه في صحيح مسلم ـ حديث (977) ، و(3/ 1584) ، وانظر الحديث السابق برواياته.

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبري (17344) ، وإسناده على شرط مسلم ، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ـ سورة التوبة ـ آية (113) بإسناده.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (3214) ـ كتاب الجنائز ـ باب الرجل يموت له قرابة مشرك. وانظر صحيح سنن أبي داود (2753) ، وسنن النسائي (4/ 79).

(4) سهام عظام ، جمع مشقص.

(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (978) ـ كتاب الجنائز ـ باب ترك الصلاة على القاتل نفسه.

(6) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 399) ، (5/ 300 ـ 301) ، والحاكم (1/ 364) ، وقال «صحيح على شرط الشيخين» ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني: (هو كما قالا) ـ أحكام الجنائز (84).

امتناع النبي ﷺ من الصلاة على الغال ـ وقال لأصحابه: [**صلوا على صاحبكم. إن صاحبكم غل في سبيل الله**][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾.

قال ابن عباس: (استغفر له ما كان حيّاً، فلما مات أمسك عن الاستغفار له).

وقال الضحاك: (كان إبراهيم صلوات الله عليه يرجو أن يؤمن أبوه ما دام حيّاً، فلما مات على شركه تبرأ منه).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [**يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد. فيقول الله تعالىٰ: إني حرّمت الجنة على الكافرين. ثم يقال لإبراهيم: ما تحتَ رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذيخ متلطِّخ فيؤخذ بقوائمه فيُلقىٰ في النار**][2].

وفي معنىٰ «الأواه» ـ أقوال متقاربة:

1 ـ قال عبد الله بن مسعود: (الأواه: الدعّاء)، ذكره ابن جرير بسنده ورجّحه.

2 ـ وسئل عبد الله ـ في رواية ـ عن «الأواه»، فقال (الرحيم).

وقال الحسن: (الرحيم بعباد الله).

وقال عمرو بن شرحبيل: (الأواه: الرحيم، بلحن الحبشة).

3 ـ وقال مجاهد، عن ابن عباس: (الأواه: الموقن، بلسان الحبشة)، وقال سفيان نحوه.

وقال مجاهد: (أوّاه: مؤتمن موقن). وقيل: (الفقيه الموقن).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1/ 425)، والنسائي (1/ 278)، وابن ماجة (2/ 197)، وأحمد (4/ 114) من حديث زيد بن خالد، وإسناده صحيح.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (1344). والقترة: السواد من الكآبة والحزن. والذيخ: هو ذكر الضبع الكثير الشعر.

4 ـ وعن ابن عباس: (الأواه: المؤمن). وقيل هو المسبّح، الكثير الذكر لله. وقيل الخاشع المتضرع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

قال مجاهد: (بيانُ الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعتُهُ ومعصيتُهُ عامة، فافعلوا أو ذروا).

وفي الآية: إقامة الحجة من الله تعالىٰ على عباده قبل تغييره أحوالهم، فإن آمنوا وصدقوا وشكروا زادهم نعيماً ورزقاً كريماً، وإن فسقوا وآثروا الشهوات والشبهات والغي أضلهم وأزاغ قلوبهم، إنه بكل أحوال خلقه وبكل شيء عليم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: 5].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: 17].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 15].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [لَيْسَ أَحَدٌ أحبَّ إليه المَدْحُ من الله عز وجل، من أجل ذلك مَدَحَ نَفْسَه، وليس أحدٌ أغْيَرَ من الله، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحشَ، وليس أحَدٌ أحبَّ إليه العُذْرُ من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند، ومسلم في الصحيح عن حذيفة مرفوعاً: [تعرضُ الفِتنُ على القلوب عرضَ الحصير عُوداً عُوداً، فأيُّ قلب أُشربَها نُكِتَت فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلب أنكرَها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ يصيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا، لا تضُرُّه فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسودَ مُرْبَداً

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2760) ح (35) ـ كتاب التوبة ـ باب غيرة الله تعالىٰ، وتحريم الفواحش، من حديث عبد الله بن مسعود.

كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر مُنكراً ، إلا ما أشرب من هواه][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

يقرر تعالىٰ في آخر تلك الآيات أن سلطان السماوات والأرض وملكهما بيده ، وقلوب عباده بيده ، وحياتهم وموتهم ومعاشهم وأرزاقهم بيده ، يحيي من شاء منهم ويميت من شاء ، ويهدي من شاء منهم ويضل من شاء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولا نصير ولا مُجير من عذاب الله إلا أمره تعالىٰ ورضاه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله عز وجل: يَسُبُّ ابْنُ آدمَ الدَّهْرَ ، وأنا الدَّهْرُ ، بيدي الليلُ والنهار][2].

وفي رواية: [يؤذيني ابن آدم ، يسُبُّ الدهر ، وأنا الدَّهْر ، أقلب الليل والنّهار].

وفي رواية: [قال الله تبارك وتعالىٰ: يؤذيني ابنُ آدمِ ، يقول: يا خيبةَ الدَّهر! فلا يقولَنَّ أحدُكم: يا خيبة الدَّهر! فإني أنا الدَّهر ، أُقَلِّبُ ليلَه ونهارَهُ ، فإذا شئتُ قبضتُهما].

117. قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾.

في هذه الآية: يخبر تعالىٰ أنه أعان نبيّه محمداً ﷺ والمهاجرين ديارَهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام ، وأنصار رسوله عليه الصلاة والسلام ، على طاعته وامتثال أمره في الغزو ساعة العسرة منهم من النفقة والظَّهر والزاد والماء ، من بعد ما كاد يضعف بعضهم وتميل قلوبهم عن الصدق والحق ، ثم رزقهم سبحانه الإنابة والرجوع إلى الثبات واليقين في الإيمان والدين ، إنه تعالىٰ رؤوف بضعفهم رحيم بهم أن يهلكهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 89 ـ 90). وانظر مختصر صحيح مسلم (1990) ، ورواه أحمد وغيره ، انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2957).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2246) ـ كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ـ باب النهي عن سب الدهر ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال مجاهد: (﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾: غزوة تبوك. قال: ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾، أصابهم جَهْدٌ شديد، حتىٰ إن الرَّجُلين ليشقَّان التمرة بينهما، وإنهم ليمصُّون التمرة الواحدة، ويشربون عليها الماء).

وعن قتادة قال: (قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ الآية، الذين اتبعوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قِبَلَ الشام في لهبان الحرّ، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهدٌ شديد، حتىٰ لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم، يَمصُّها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصّها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوهم).

يروي ابن جرير بسند حسن عن نافع بن جبير بن مطعم، عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة فقال عمر: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطشٌ، حتىٰ ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتىٰ إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتىٰ إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عوَّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: تحب ذلك؟ قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتىٰ مالت السماء فأظَلَّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر)[1].

118 ـ 119. قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله خبر المخلفين الثلاثة، الذين تخلفوا عن تبوك، وكيف ضاقت عليهم أنفسهم، وحاصرهم الوحي حتىٰ رضي الله عنهم توبتهم، فأنزل فرجه عليهم، وهو التواب الرحيم.

---

(1) أخرجه ابن جرير في التفسير، (17443)، سورة التوبة آية (117)، وإسناده حسن، رجاله ثقات.

ودعوة الله تعالىٰ عباده المؤمنين ليخلصوا له التقوىٰ وليكونوا مع الصادقين.

أخرج الإمام البخاري في كتاب المغازي من صحيحه، والإمام مسلم في كتاب التوبة، واللفظ للبخاري، عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب رضي الله عنه من بنيه حين عَمِيَ، قال: سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث بحديثه حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك:

قال كعب: [لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تبوك، غيرَ أني كنتُ تَخَلَّفْتُ في غزوة بدْرٍ، ولم يُعَاتِب أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عيرَ قريش، حتىٰ جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحِبُّ أنَّ لي بها مَشْهدَ بَدْرٍ، وإن كانت بَـدْرٌ أذكرَ في الناس منها، وكان من خبري حين تخـلَّفْتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكُنْ قط أقوىٰ ولا أيسرَ حين تخلّفتُ عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتىٰ جَمَعْتُهُما في تلك الغزوة، ولم يَكُنْ رسول الله ﷺ يُريد غزوة إلا ورّىٰ بغيرها، حتىٰ كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدوّاً كثيراً، فجلّىٰ للمسلمين أمْرَهم ليتأهبوا أُهْبَةَ غَزْوِهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتابٌ حافظ، يريد الدِّيوان. قال كعب: فما رجل يريد أن يَتَغَيَّبَ إلا ظنَّ أن سيخفىٰ له، مالم ينزِل فيه وحيُ الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفِقْتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجِعُ ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادىٰ بي حتىٰ اشتد بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ مِنْ جَهازي شيئاً، فقلت أتجهزُ بعده بيوم أو يومين ثم ألْحَقُهُم، فَغَدَوْتُ بعد أن فَصَلُوا لأَتجهَّز، فرجَعْتُ، ولم أقْضِ شيئاً، ثم غَدَوْتُ، ثم رجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يَزلْ بي حتىٰ أسْرعوا وتفارطَ الغزو، وهَمَمْتُ أن أرتَحِلَ فأدركَهم، وليْتني فعلتُ، فلم يُقَدَّر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناسِ بَعْدَ خروج رسول الله ﷺ فطُفْتُ فيهم، أحزنَني أني لا أرى إلا رجلاً مَغْمُوصاً عليه النفاقُ، أو رجلاً ممن عَذَرَ الله من الضعفاء، ولم يذكُرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟».

فقال رجل من بني سَلِمَة: يا رسول الله ، حَبَسَهُ بُرْدَاه ، ونَظَرُهُ في عِطْفَيْه.

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلتَ ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّهَ قافلاً حضرني هَمِّي ، وطفِقْتُ أتذكَّرُ الكذِبَ وأقول: بماذا أخرجُ من سَخَطِه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأيٍ من أهلي ، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظَلَّ قادماً زاحَ عني الباطِلُ ، وعرفت أني لنْ أخرجَ منه أبداً بشيء فيه كَذِبٌ ، فأجمعت صِدْقَه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدِمَ من سَفَرٍ بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون ، فطفِقُوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بِضْعَةً وثمانين رجلاً ، فقبِلَ منهم رسول الله ﷺ علانِيَتَهُم ، وبايعهم واستغفَرَ لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فَجئتُهُ ، فلما سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ ، ثم قال: تعالَ. فجئت أمشي حتىٰ جلستُ بين يديه ، فقال لي: ما خَلَّفَكَ ، ألم تكُنْ قد ابْتَعْتَ ظهركَ؟ فقلت: بلىٰ ، إني والله ـ يا رسول الله ـ لو جَلَسْتُ عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيتُ أنْ سأخْرُجُ من سَخَطِهِ بعُذْرٍ ، ولقد أعطيتُ جدلاً ، ولكني والله ، لقد علمتُ لئن حَدَّثْتُكَ اليوم حديثَ كذبٍ ترضىٰ به عني ، ليوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَكَ عليَّ ولئن حَدَّثْتُكَ حَديثَ صِدْقٍ تجدُ عليَّ فيه ، إني لأرجو فيه عَفْوَ الله ، لا والله ، ما كان لي من عُذْرٍ ، والله ما كنْتُ قطُّ أقوىٰ ولا أيسرَ مني حين تَخَلَّفْتُ عنك.

فقال رسول الله ﷺ: أمّا هذا فقد صَدَقَ ، فَقُمْ حتى يقضي الله فيكَ.

فَقُمْتُ ، وثارَ رجالٌ من بني سَلِمَةَ فاتبعوني ، فقالوا لي: والله ما عَلِمْنَاكَ كنتَ أذْنَبْتَ ذنباً قبل هذا ، ولقد عَجَزْتَ أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذَنْبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ لك.

فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجعَ فأكذِّبَ نَفْسي ، ثم قلت لهم: هل لَقِيَ هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم ، رجلان قالا مِثْلَ ما قُلْتَ ، فقيل لهما مِثْلُ ما قيل لك ، فقلت: مَنْ هُما؟ قالوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبيع العَمْرِيُّ ، وهلالُ بن أميَّةَ الواقِفِيُّ ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بَدْراً ، فيهما أسوةٌ ، فَمَضَيْتُ حين ذكروهما لي ، ونهىٰ رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثةُ من بين من تخلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبَنَا الناس وتغيّروا لنا ، حتى تنكَّرَتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعْرِفُ ، فلبثنا على ذلك

خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنتُ أشَبَّ القومِ وأجلدَهم ، فكنت أخرجُ فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلمُ عليه وهو في مجلسِهِ بعد الصلاة ، فأقول في نفسي: هَلْ حرّك شفَتيْه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه ، فَأُسَارِقُهُ النَّظر[1] ، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إليّ ، وإذا التفتُّ نحوَهُ أعْرَض عني ، حتىٰ إذا طال عليَّ ذلك من جَفْوَةِ الناس ، مشيتُ حتىٰ تَسَوَّرْتُ جدار حائطِ أبي قتادة ، وهو ابنُ عمّي وأحَبُّ الناس إليَّ ، فَسَلّمْتُ عليه ، فوالله ما ردّ عليّ السلامَ ، فقلت: يا أبا قتادةَ ، أَنْشُدُكَ بالله هل تَعْلَمُني أحِبُّ الله ورسوله؟ فسكت ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُه فسكت ، فعدْتُ له فنشدتُهُ ، فقال: الله ورسوله أعْلَمُ ، ففاضت عَيْنايَ وتَوَلَّيْتُ حتىٰ تَسَوَّرْتُ الجدار.

قال: فبَيْنَا أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا نَبَطيٌّ من أنباط أهلِ الشَّأم ، ممن قَدِمَ بالطعام يبيعُهُ بالمدينة ، يقول: مَنْ يَدُلُّ على كعب بن مالك ، فَطَفِقَ الناسُ يُشيرون له ، حتىٰ إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً مِنْ مَلِكِ غسَّان ، فإذا فيه: أمّا بعد ، فإنه قد بلغني أن صاحِبَكَ قدْ جفاكَ ، ولم يَجْعَلْكَ الله بدار هوانٍ ولا مَضْيَعَةٍ ، فالحقْ بنا نواسِكَ. فقلت لما قرأتُها: وهذا أيضاً من البلاء. فتيمَّمْتُ بها التَّنُور فَسَجَرْتُهُ بها ، حتىٰ إذا مَضَتْ أربعون ليلةً من الخمسين ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمُرُكَ أن تعتزلَ امرأتَكَ ، فقلتُ: أُطَلِّقُها أمْ ماذا أفعل؟ قال: لا ، بل اعتزِلْها ولا تَقْرَبْها. وأَرسلَ إلى صاحِبَيَّ مِثْلَ ذلكَ ، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك ، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلالِ بن أميّةَ رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ، إن هلالَ بن أمية شيخٌ ضائعٌ ليسَ له خادِمٌ ، فهل تكْرَهُ أن أخْدِمَهُ؟ قال: لا ، ولكنْ لا يَقْرَبْكِ. قالتْ: إنه والله ما بِهِ حركة إلى شيء ، والله مازال يبكي مُنْذُ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتِكَ ، كما أذِنَ لامرأة هلال بن أمية أن تَخْدُمَهُ؟ فقلت: والله لا أستأذِنُ فيها رسول الله ﷺ ، وما يُدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذَنْتُهُ فيها ، وأنا رجل شابٌّ؟ فلبثْتُ بعد ذلك عَشْرَ ليال ،

---

(1) قال الحافظ في الفتح: (وفيها أن مسارقة النظر في الصلاة لا تقدح في صحتها).

حتىٰ كَمُلَتْ لنا خمسون ليلة من حين نهىٰ رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صَلَّيْتُ صلاةَ الفجر صُبْحَ خمسين ليلة ، وأنا على ظَهْرِ بَيْتٍ من بيوتنا ، فَبَيْنا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكرَ اللهُ ، قد ضاقتْ عليَّ نَفْسي ، وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَوْتَ صارخ ، أوفىٰ على جبل سَلْع ، بأعلى صَوْتِهِ : يا كعبُ بنَ مالك أبْشِر ، قال : فخررْتُ ساجِداً ، وعرفتُ أنْ قد جاءَ فَرَجٌ ، وآذنَ رسول الله ﷺ بتوبةِ الله علينا حين صلّىٰ صلاة الفجر فذهب الناس يبشّرونَنا ، وذَهَبَ قِبَلَ صاحِبَيَّ مُبَشِّرون ، وركضَ إليَّ رجُلٌ فَرساً ، وسعىٰ ساعٍ من أسْلَمَ ، فأوفىٰ على الجبل ، وكان الصَّوتُ أسرعَ من الفرس ، فلما جاءني الذي سَمِعْتُ صوتَهُ يُبَشِّرُني نزعتُ له ثَوْبَيَّ ، فكَسَوْتُهُ إياهما بِبُشْراه ، والله ما أمْلِكُ غَيْرَهُما يَوْمَئِذٍ ، واستَعَرْتُ ثوبين فلبِسْتُهُما ، وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقاني الناس فَوْجاً فَوْجاً ، يهنُّونَني بالتوبة يقولون : لتهنِكَ توبةُ الله عليك .

قال كعب : حتى دخلتُ المسجدَ ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوْلَهُ الناسُ ، فقام إليَّ طلحةُ بنُ عُبَيد الله يُهرولُ حتى صافحني وهَنَّاني ، والله ما قام إليَّ رجُلٌ من المهاجرين غَيْرُهُ ، ولا أَنْسَاها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ ، وهو يَبْـرُقُ وَجْهُهُ من السرور : أَبْشِرْ بخيرِ يوم مرَّ عليك مُنْذُ وَلدَتْكَ أمُّكَ .

قال : قلت : أمِنْ عِندك يا رسولَ الله ، أم من عندِ الله؟ .

قال : لا بل من عند الله .

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حتىٰ كأنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ ، وكنا نَعْرِفُ ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلتُ : يا رسولَ الله ، إن من تَوْبتي أن أنْخَلِعَ مِنْ مالي صدقةً إلى الله وإلى رسول الله .

قال رسول الله ﷺ : أَمْسِك عليك بَعْضَ مالِكَ فهو خَيْرٌ لك .

قلتُ : فإني أُمْسِكُ سَهْمي الذي بخيبرَ ، فقلتُ : يا رسول الله ، إن الله إنّما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أُحَدِّثَ إلا صِدْقاً ما بقيتُ .

فوالله ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبْلاه الله في صدْق الحديث مُنْذُ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسَنَ مما أبلاني ، ما تَعَمّدْتُ منذُ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت ، وأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ لَقَد

تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ ـ إلى قوله ـ : ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ .

فوالله ما أنعمَ الله عليَّ مِنْ نعمةٍ قطُّ ، بعد أنْ هداني للإسلام ، أعظم في نفسي مِنْ صِدْقي لرسول الله ﷺ ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا ـ حين أنزل الوحيَ ـ شرَّ ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ .

قال كعب: وكنا تُخِلِّفْنَا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتىٰ قضىٰ الله فيه ، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ ، وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفْنا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا ، عَمَّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه][1] .

قال عكرمة: (﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ قال: خلفوا عن التوبة) .

وقال مجاهد: (الذين أرجئوا) .

وقال نافع: (قيل للثلاثة الذين خلِّفُوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ، محمد وأصحابه) .

وقال الضحاك: (﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ، قال: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما رحمةُ الله عليهم) .

وقال ابن جُريج: (مع المهاجرين الصادقين) .

قال ابن القيم: (وتأمل تكرَيرَه سبحانه توبتَهُ عليهم مرتين في أول الآية وآخرِها ، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة ، فلما تابوا ، تاب عليهم ثانية بقبولها منهم ، وهو الذي وفقهم لفعلها ، وتفضل عليهم بقبولها ، فالخير كله منه وبه ، وله وفي يديه ، يعطيه من يشاءُ إحساناً وفضلاً ، ويحرمه من يشاء حكمة وعدلاً)[2] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4418) ـ كتاب المغازي ـ ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، حديث رقم (2769) ـ كتاب التوبة ـ ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 456 ـ 459) .

(2) انظر: «زاد المعاد» (3/ 592) ، وكتابي: السيرة النبوية (3/ 1550 ـ 1553) لتفصيل البحث .

دروس ونتائج وأحكام:

1 ـ الأصل حسن ظن المسلم بأخيه.

ومنه قول معاذ بن جبل في كعب: (والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً).

وفي التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ [الحجرات: 12].

وفي المسند عن أسماء بنت يزيد، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ ذَبَّ عن عِرض أخيه بالغَيْبَـة، كان حقاً على الله أن يُعْتِقَـهُ من النار][1].

2 ـ جواز الهجر أكثر من ثلاثة أيام لسبب شرعي.

ففي حديث البخاري عن كعب قال: (حتىٰ كملت لنا خمسون ليلة من حين نهىٰ رسول الله ﷺ عن كلامنا).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [تُعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله لكل امرئ لا يُشرك بالله شيئاً، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتىٰ يصطلحا][2].

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: 10].

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يحل لمسلم أن يهجرَ أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار][3].

قال أبو داود: (إذا كانت الهجرةُ لله تعالىٰ، فليس من هذا في شيء).

3 ـ أهمية الصدق وشؤم الكذب.

فقيمة الصدق عالية ورفيعة، ومنزلة الصادقين كبيرة وعظيمة، وقد أمر الله بذلك المؤمنين فقال في سورة التوبة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند ـ انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6116).
(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2565) ـ كتاب البر والصلة.
(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4914). انظر صحيح أبي داود (4106)، وانظر تخريج مشكاة المصابيح (5035)، وصحيح الجامع الصغير (7535).

ومنه قول كعب ـ كما روى البخاري عنه ـ: (يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صِدْقاً ما بقيت).

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن الصدق يهدي إلى البرِّ ، وإن البِرَّ يهدي إلى الجنة ، وإنَّ الرجل ليَصْدُق حتىٰ يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفُجور ، وإن الفُجورَ يهدي إلى النار ، وإن الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتىٰ يُكْتَبَ عند الله كَذّاباً][1].

4 ـ سعة رحمة الله وقبوله للتائبين.

ففي قصة المخلفين وتوبتهم درس لأهل الذنوب والمعاصي والآثام ، أن يطرقوا باب الكريم الغفور المنّان ، ليلتمسوا منه العفو عما مضىٰ والتجاوز والإحسان.

قال تعالىٰ في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسطُ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها][2].

وهناك دروس كثيرة أخرىٰ سطرتها في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ، عقب غزوة تبوك (3/ 1554 ـ 1578) ولله الحمد والمنة.

120 ـ 122. قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 423) ، ومسلم (2607) ، وأبو داود (4989) ، والنسائي (1972) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2759) ، من حديث أبي موسىٰ.

كُتِبَ لَهُم لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

في هـذه الآيات: إعلام من الله تعالىٰ عباده المؤمنين في المدينة وما حولها أنه لا ينبغي لأحد التخلف عن رسول الله ﷺ في الغزو والرغبة بنفسه عن مشاركته مشقة الجهاد وقتال الأعداء، وأنه لا يصيب أحداً في خروجه عطش أو تعب أو جوع، ولا ينزلون أرضاً أو موقعاً يُرهب العدو ولا يصيبون منه إلا كتب لهم به عمل صالح والله لا يضيع أجر المحسنين.

وكذلك لا يبذلون في سبيل الله نفقة صغيرة أو كبيرة، ولا يقطعون وادياً في طريقهم إلى الغزو أو في عودتهم إلا سُجِّلَ لهم ذلك في صحائفهم بأعطر وأجزل الثواب.

إنه لا ينبغي إخلاء المواقع في سبيل الله، بل إذا خرجت فِرَقُ السرايا إلى الغزو، جلس الباقون ليتفقهوا في دينهم، ليقوموا بواجب الإنذار والبلاغ في قومهم لعلهم يحذرون.

قال قتادة: (قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، هذا إذا غزا نبيُّ الله بنفسه، فليس لأحد أن يتخلف).

والآية عتاب من الله تعالىٰ للمتخلفين عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، من أهل المدينة وممن حولها من أحياء العرب وسكان البوادي، فإنه ما كان لهم أن يفعلوا ذلك، وما ينبغي لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن مشاركته ﷺ الجهاد وأعباء الغزو ومشقة السفر. فإنه: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو العطش. ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو: التعب. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة أو الجوع. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طريق إقامة دين الله ونصرته، وإبطال الباطل وهدم منار الكفر. ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: لا ينزلون أرضاً أو منزلاً يُرهب عدوهم ويغيظه ويغضبه. ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: ولا يصيبون من عدوهم ظفراً أو موقفاً أو قهراً في الأموال أو الأنفس. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ ـ أي: إلا احتسب لهم ضمن معالي الأعمال ورفيع الدرجات وثواب العمل الصالح، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ـ أي: لا يبطل ثوابهم.

وقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾.

قال النسفي: (﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في سبيل الله ﴿صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: أرضاً في ذهابهم ومجيئهم وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل، وهو في الأصل فاعل من ودى إذا سال، ومنه الودي، وقد شاع في الاستعمال بمعنىٰ الأرض ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ من الإنفاق وقطع الوادي).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أي: أرفع المراتب وأعلى الدرجات. وقد نال عثمان رضي الله عنه من هذه البشائر الحصة العظمىٰ.

فقد أخرج الترمذي وأحمد والحاكم بسند حسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال: [جاء عثمان، إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جَهَّزَ النبي ﷺ جيش العُسرة ـ قال: فَصَبَّها في حِجْر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: ما ضرَّ ابن عفانَ ما عملَ بعد اليوم. يرددها مراراً][1].

وفي رواية: (فنثرها في حجره. قال عبد الرحمن: فرأيت النبي ﷺ يقلبها في حجره ويقول: ما ضَرَّ عُثمانَ ما عَمِلَ بعد اليوم مرتين).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن في الشواهد عن عبد الرحمن بن خَبّاب السلمي قال: [خطب رسول الله ﷺ فَحَثَّ على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: عليَّ مئةُ بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مئة أخرىٰ بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرْقاة من المنبر ثم حَثَّ، فقال عثمان بن عفان: عَلَيَّ مئة أخرىٰ بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا ـ يحركها ـ «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»][2].

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (3/ 559): (ومنها: ما برز به عثمانُ بن عفان من النفقة العظيمة في هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبي ﷺ: غفر الله لك يا عثمانُ ما أسْرَرْتَ، وما أعْلَنْتَ، وما أخْفَيْتَ، وما أبْدَيْتَ. ثم قال: ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم، وكان قد أنفق ألف دينار، وثلاث مئة بعير بعُدتها وأحلاسها وأقتابها).

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3967) ـ مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2920)، وأخرجه أحمد (5/ 63)، والحاكم (3/ 102) بسند حسن.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 75)، والترمذي (3700)، وإسناده لا بأس به في الشواهد.

وذكر قتادة بإسناد صحيح مرسل أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم ، وهي نصف أمواله ، في تجهيز جيش العسرة[1].

كما أنفق أبو بكر وعمر والعباس وطلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة وغيرهم أموالاً كبيرة ، وجاء الفقراء بما استطاعوا ولم يوفروا اليسير الذي عندهم ، فتعرضوا للمز المنافقين.

وقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ ، فيه أقوال:

1 ـ قيل: هم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ بعثهم إلى البوادي يعلمون الناس الإسلام. فلما نزل قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ انصرفوا عن البادية خشية دخولهم في تحذير الآية.

قال مجاهد: (ناس من أصحاب محمد ﷺ ، خرجوا في البوادي ، فأصابوا من الناس معروفاً ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودَعوا من وجدوا من الناس إلى الهدىٰ ، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا! فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً ، وأقبلوا من البادية كلهم حتىٰ دخلوا على النبي ﷺ ، فقال الله: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ ، يبتغون الخير ، ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ ﴾ ، وليسمعوا ما في الناس ، وما أنزل الله بعدهم ، ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ ، الناس كلهم ، ﴿ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾).

2 ـ قيل: المعنىٰ: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً إلى عدوهم ، ويتركوا نبيّهم ﷺ وحده.

قال ابن زيد: (﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ ، قال: ليذهبوا كلهم ، فلولا نفر من كل حي وقبيلة طائفة ، وتخلف طائفة ، ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ ، ليتفقه المتخلفون مع النبي ﷺ في الدين ، ولينذر المتخلفون النافرين إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ـ وهو اختيار ابن جرير.

3 ـ قيل: بل المعنىٰ: لو كانوا مؤمنين لم ينفروا جميعهم بل هم منافقون ، وهذا قول بعيد.

4 ـ قيل: بل هو تكذيب من الله لمنافقين أزْرَوا بأعراب المسلمين وغيرهم في

(1) انظر تفسير الطبري (10/ 195) ، وكتابي: السيرة النبوية (3/ 1505 ـ 1508) لتفصيل أكبر.

تخلفهم خلاف رسول الله ﷺ، وهم ممن عذره الله بالتخلف.

5 ـ قيل: بل المعنىٰ: لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله قاعد، فإذا غزا بنفسه ﷺ لم يحل لأحد التخلف إلا بعذر.

قال الضحاك: (كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، إلا أهل العذر. وكان إذا أقام فأسرت السرايا لم يَحِلّ لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا أسرىٰ فنزل بعده قرآن وتلاه رسول الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيّه قرآناً. فيُقرِئُونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾، يقول: إذا أقام رسول الله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تَسَرّت السرايا، وقعد معه عظْمُ الناس).

6 ـ قال الحسن البصري: (ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم).

قلت: والراجح في معنىٰ الآية أنه لولا نفر للجهاد من كل فرقة طائفة، لتتفقه القاعدةُ وتنذر النافرةَ للجهاد عند رجوعهم إليهم فيخبرونهم بما نزل بعدهم من الوحي. فإن النفير في لغة العرب إنما يستعمل للخروج للجهاد لا لطلب العلم.

والمقصود: أهمية انصراف جموع المؤمنين لطلب العلم والتفقه في الدين ودعوة الخلق إلى إقامة منهاج الإسلام في حياتهم، وإنما يكتفىٰ للجهاد بنفير فئة يقوم بها أمر مجاهدة الأعداء.

وأكثر من حَلّق في آفاق هذا المعنىٰ بتحليل لطيف الإمام ابن القيم رحمه الله، فلنستمع إلى روائع التأويل في ذلك.

قال ابن القيم في «أعلام الموقعين» (2/ 178 ـ 179): (قولكم: «وقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾.

فأوجب قبول نذارتهم، وذلك تقليد لهم».

جوابه من وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذروهم به من الوحي الذي ينزل

في غيبتهم عند النبي ﷺ في الجهاد ، فأين في هذا حجة لفرقة التقليد على تقديم آراء الرجال على الوحي.

الثاني: أن الآية حجة عليهم ظاهرة ، فإنه سبحانه نوع عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين ، أحدهما: نفير الجهاد ، والثاني: التفقه في الدين ، وجعل قيام الدين بهذين الفريقين ، وهم الأمراء والعلماء أهل الجهاد وأهل العلم ، فالنافرون يجاهدون عن القاعدين ، والقاعدون يحفظون العلم للنافرين ، فإذا رَجعوا من نفيرهم استدركوا ما فاتهم من العلم بإخبار مَنْ سمعه من رسول الله ﷺ ، وهنا للناس في الآية قولان:

أحدهما: أن المعنىٰ فَهَلاّ نَفَر من كل فرقة طائفة تتفقه وتنذر القاعدة ، فيكون المعنىٰ في طلب العلم ، وهذا قول الشافعي وجماعة من المفسرين ، واحتجوا به على قبول خبر الواحد ، لأن الطائفة لا يجب أن تكون عدَد التواتر.

والثاني: أن المعنىٰ فلولا نفر من كل فرقة طائفة تجاهد لتتفقه القاعدةُ وتنذر النافرةَ للجهاد إذا رجعوا إليهم ويخبرونهم بما نزل بعدهم من الوحي ، وهذا قول الأكثرين ، وهو الصحيح ، لأن النفير إنما هو الخروج للجهاد.

كما قال النبي ﷺ: «وإذا استنفرتم فانفروا» ، وأيضاً فإن المؤمنين عام في المقيمين مع النبي ﷺ والغائبين عنه ، والمقيمون مرادون ولا بد فإنهم سادات المؤمنين ، فكيف لا يتناولهم اللفظ؟ وعلى قول أولئك يكون المؤمنون خاصاً بالغائبين عنه فقط ، والمعنىٰ: وما كان المؤمنون لينفروا إليه كلهم ، فلولا نفر إليه من كل فرقة منهم طائفة ، وهذا خلاف ظاهر لفظ المؤمنين ، وإخراج للفظ عن مفهومه في القرآن والسنة ، وعلى كلا القولين فليس في الآية ما يقتضي صحة القول بالتقليد المذموم ، بل هي حجة على فساده وبطلانه ، فإن الإنذار إنما يقوم بالحجة ، فمن لم تقم عليه الحجة لم يكن قد أنذر ، كما أن النذير مَنْ أقام الحجة ، فمن لم يأت بحجة فليس بنذير ، فإن سَمَّيْتُم ذلك تقليداً فليس الشأن في الأسماء ، ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنىٰ ، فَسَمُّوه ما شئتم ، وإنما ننكر نَصْبَ رجل معين يُجْعَلُ قولُه عياراً على القرآن والسنن ، فمَا وافق قوله منها قبل وما خالفه لم يقبل ، ويقبل قوله بغير حجة ، ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معهُ ، فهذا الذي أنكرناه ، وكل عالم على وجه الأرض يعلن إنكاره وذمه وذم أهله).

123. قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾.

في هذه الآيــة: أمْرُ الله تعالىٰ عباده المؤمنين في دولة الحق قتال الكفرة المعاندين الذين يصدون عن سبيل الله والقسوة عليهم والله ولي المتقين.

قال ابن كثير: (أمر تعالىٰ المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرَغَ منهم وفتح الله عليه مكة، والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولىٰ الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهْد الناس وجَدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام.

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجّة الوداع.

ثم عاجلته المنية ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد الحجة بواحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده. وقام بالأمر بعده وزيرُه وصديقه وخليفته أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل[1]، فثبته الله تعالىٰ به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم.

ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطَّغام، وبيَّنَ الحق لمن جهله، وأدىٰ عن الرسول ما حمله.

ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدَة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرىٰ وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمامُ الأمر على يدي وصيه من بعده، وَوَليِّ عهده الفاروق الأوّاب، شهيد

(1) انجفل الظل: انحسر.

المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب ، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولىٰ على الممالك شرقاً وغرباً ، وحُملت إليه خزائنُ الأموال من سائر الأقاليم بُعْداً وقرباً ، فَفرَّقها على الوجه الشرعي ، والسبيل المرضيِّ.

ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار.

فكُسِيَ الإسلامُ بحالةِ رياسته حُلَّة سابغة ، وأُمِدَّتْ في سائر الأقاليم على رقاب العباد حُجَّةُ الله البالغة ، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة الله وظهر دينه ، وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها ، فكلما عَلَوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار ، امتثالاً لقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ، أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوّه الكافر ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: 54] ، وقال تعالىٰ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29] ، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم: 9]).

قلت: ولا شك أن هذه الآية خطاب للدولة المسلمة ممثلة بالخليفة ذي الشوكة ليقوم بمقتضاها على مدار الزمان ، فيعز الحق في الأرض ويذل الشرك والكفر والباطل ، ومن ثمَّ فليس الخطاب لأفراد غُرباء في أرجاء المعمورة يفرون بدينهم وليس لأمتهم كيان ولا شوكة وهم لم يقيموا الإسلام أولاً في بيوتهم ومساجدهم وأحيائهم ومجتمعاتهم ، فيتهورون بفتح النار على أعدائهم قبل تميّز الصفوف وإقامة دولة الحق ، فيقعون في الفتنة والضياع.

وإنما الواجب على المسلمين اليوم إقامة الدين في طائفة الحق التي ستفرز يوماً قريباً بإذن الله الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ، والتي سيكون وصولها نذير سوء لكل مناهج الكفر والظلم وجيوش البغي في الأرض.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ:

[لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرّهم من خذلهم ، حتىٰ يأتي أمرُ الله وهم كذلك][1] .

وله شاهد عنده من حديث المغيرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لن يزالَ قَوْمٌ من أمتي ظاهرين على الناس ، حتىٰ يأتيهم أمر الله ، وهم ظاهرون] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة ، عن النبي ﷺ أنه قال: [لن يَبْرَحَ هذا الدينُ قائماً ، يُقاتل عليه عِصابةٌ من المسلمين ، حتىٰ تقوم الساعة][2] .

وله شاهد عنده من حديث جابر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة] .

وشاهد آخر من حديث سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتىٰ تقوم الساعة] . وأهل الغرب: هم أهل الشام .

وشاهد ثالث من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: [لا تزال عصابةٌ من أمتي يقاتلون على أمر الله ، قاهرين لعدوهم ، لا يضرّهم مَنْ خالفهم ، حتىٰ تأتيهم الساعة ، وهم على ذلك] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن حذيفة مرفوعاً: [تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ، فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت][3] .

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ . أي: توكل سبحانه بالنصر والتأييد لأهل

---

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1920) ـ كتاب الإمارة ـ. وانظر للشاهد الحديث (1921) من الباب نفسه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1922) ـ كتاب الإمارة ـ. وانظر للشواهد بعده: حديث رقم (1923) ـ إلى ـ (1925) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (4/ 273) ، وأخرج الطيالسي في مسنده (438) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (5) .

استقامة المنهج ، ووعدهم الظهور على عدوهم في كل زمان ، إذا ما أقاموا أمره ورفعوا لواء دينه الحق على منهاج النبوة.

124 ـ 127. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

في هذه الآيات: كَشْفٌ من الله تعالىٰ لسلوك المنافقين عند نزول سورة من سور القرآن ، إذ يقول قائلهم: أيكم زادته هذه السورة تصديقاً؟ فالمؤمنون يزدادون بها إيماناً وهم يستبشرون.

وأما المنافقون فيزدادون مرضاً ورجساً في قلوبهم ويموتون كافرين.

ثم في الآيات توبيخ لهؤلاء المنافقين حيث يختبرهم ربهم كل عام مرة أو مرتين ليصدقوه الإيمان والعمل ، ومع ذلك فلا هم يتوبون ولا هم يتعظون.

بل إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ تغامزوا بالعيون والتفت بعضهم إلى بعض ، ثم انصرفوا من مجلسه ﷺ خشية الفضيحة ، والله تعالىٰ بعدله وحكمته يصرف قلوبهم عن تدبر هذا القرآن لأنهم قوم لا يفقهون.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ ، قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها ، فزادهم الله إيماناً وتصديقاً ، وكانوا يستبشرون).

وعن الربيع: (﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ، قال: خشية).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه محمد ﷺ ، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله في هذه السورة من يقول: أيها الناس ، أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ يقول: تصديقاً بالله وآياته. يقول الله: ﴿فَأَمَّا

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، من الذين قيل لهم ذلك ، ﴿ فَزَادَتْهُمْ ﴾، السورة التي أنزلت ، ﴿ إِيمَٰنًا ﴾، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين).

وقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾، أي: نفاق وشك وريبة وسوء ظن بالله ودينه ، ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ أي: زادهم نزول تلك الآيات مرضاً إلى مرضهم ، ونفاقاً ونتناً في تصورهم ، وقبحاً في منهاجهم ، ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾. أي: هلكوا وفارقوا الدنيا على الكفر بالله ورسوله ، والشك والريبة والنفاق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

توبيخ من الله لهؤلاء المنافقين حيث يختبرهم ربهم في أحد الأعوام مرة وفي بعضها مرتين ، ثم هم مع ذلك البلاء والاختبار لا يرجعون من نفاقهم ولا يتوبون ولا يتعظون.

ومن أقوال المفسرين في ذلك:

1 ـ عن مجاهد قال: (يبتلون بالعذاب في كل عام مرة أو مرتين). وقال: (بالسنة والجوع).

2 ـ وعن قتادة قال: (يبتلون بالغزو في سبيل الله في كل عام مرة أو مرتين).

3 ـ عن حذيفة قال: (كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين ، فيضلُّ بها فئام من الناس كثير). أو قال: (كان لهم في كل عام كذبة أو كذبتان).

والمقصود أن المنافقين يفتنون بما يشيعه المشركون من الأكاذيب على رسول الله ﷺ وأصحابه فيمشون بالكذب والضلال.

ويجمع هذه الأقوال فَصْل شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير ـ رحمه الله حيث يقول: (إن الله عجَّبَ عبادَه المؤمنين من هؤلاء المنافقين ، وَوَبَّخَ المنافقين في أنفسهم بقلّة تذكرهم ، وسوء تنبههم لمواعظ الله التي يعظهم بها. وجائزٌ أن تكون تلك المواعظُ الشدائدَ التي ينزلها بهم من الجوع والقحط ، وجائزٌ أن تكون ما يريهم من نُصرة رسوله على أهل الكفر به ، ويرزقه من إظهار كلمته علىٰ كلمتهم ، وجائزٌ أن تكون ما يظهرُ للمسلمين من نفاقهم وخبث سرائرهم ، بركونهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله ﷺ وأصحابه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

إخبار منه سبحانه عن سلوك هؤلاء المنافقين عند نزول سورة على النبي ﷺ ، فهم يتلفتون بين بعضهم ، ويتغامزون فيما بينهم ، هل يراكم أحد إن تناجيتم بمعايب القوم فيخبرهم ، ثم يقومون منصرفين ولم يستمعوا التنزيل الذي فيه خزيهم وذكر معايبهم ، لقد صرف الله قلوبهم عن الحق وأزاغها بأنهم قوم لا يفقهون.

قال النسفي: (﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي وسخرية به قائلين ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم ، أو إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين أشار بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد إن قمتم من حضرته عليه السلام ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾ عن حضرة النبي عليه السلام مخافة الفضيحة ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ عن فهم القرآن ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا).

128 ـ 129. قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: امتنان الله تعالىٰ على العرب أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم لا من غيرهم ، يَعِزُّ عليه مشقتهم ، حريص على هدايتهم ونجاتهم وسعادتهم ، بالمؤمنين رفيق رحيم.

فإن أعرضوا عما جئتهم به ـ يا محمد ـ من الشريعة العظيمة السمحة فقل الله يكفيني فلا معبود سواه ، فبه وثقت ، وعليه اعتمدت ، فهو ناصري ومؤيدي ومعيني ، وهو رب العرش العظيم.

فقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره للعرب: لقد جاءكم ، أيها القوم ، رسول الله

إليكم ، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ، تعرفونه ، لا من غيركم فتتهمونه على أنفسكم في النصيحة لكم).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ ـ يحكي دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة ـ : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

ومن أقوال المفسرين:

1 ـ عن جعفر بن محمد ، عن أبيه في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ، قال: (لم يصبه شيء من شركٍ في ولادته). وقال: (لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية).

2 ـ وقال قتادة: (﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ، قال: جعله الله من أنفسهم ، فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة).

ومن السنة الصحيحة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس: [ـ في سؤال هرقل لأبي سفيان ـ كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. . . فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه؟ فذكرْتَ أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تُبْعَثُ في نسب قومها][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح من حديث أم سلمة رضي الله عنها ـ في قصة الهجرة إلى الحبشة ومخاطبة جعفر للنجاشي ـ قال له: [أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل المَيْتَـةَ ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، يأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولاً

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (7) ـ كتاب بدء الوحي ـ في أثناء حديث طويل.

منا ، نعرف نَسَبَه وصدقه وأمانته وعفافَه ، فدعانا إلى الله تعالى . .] الحديث[1] .

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حسن عن علي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [خرجت من نكـاح ، ولم أخرج من سِفـاح ، من لـدنْ آدم ، إلى أن ولدني أبـي وأمي ، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء][2] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم من حديث واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفىٰ قريشاً من كنانة ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم][3] .

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ .

قال القرطبي: (أي يعز عليه مشقتكم . والعنت: المشقة) .

وقال القاسمي: (أي شديد عليه شاق ، لكونه بعضاً منكم ، عنتُكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع في العذاب) .

ومن كنوز السنة الصحيحة في هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في وصف النبي ﷺ أشد ما لقي من قومها في يوم العقبة ـ قال: [فرفعت رأسي ، فإذا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قولَ قومِكَ لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، قال: فناداني ملكُ الجبال ، وسلّم عليَّ ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمعَ قولَ قومكَ لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ هما جبلا مكة أبو قبيس والمقابل ـ؟ فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرجَ الله من أصلابهم من يَعْبُدُ الله وحده لا يشرك به شيئاً][4] .

---

(1) حديث صحيح . رواه أحمد (5/ 290) (1/ 202 ـ 292) بسند صحيح عن زوجة رسول الله ﷺ ، وصححه أحمد شاكر في التعليق على المسند ، حديث رقم (1740) .

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني بسند حسن من حديث علي رضي الله عنه. انظر «المجمع» (8/ 214) ، و«الدر» (3/ 525) ، وصحيح الجامع الصغير (3220) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2276) ، وأحمد (4/ 107) ، والترمذي (3605) ، وابن حبان (6242) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (3/ 1420) ، ورواه البخاري (انظر فتح الباري 6/ 312 ـ 313) .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند حسن ، عن ابن عباس قال : [سئل النبي ﷺ أي الأديان أحب إلى الله عز وجل؟ قال: الحنيفيةِ السمحة . وفي لفظ : أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة][1] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس مرفوعاً: [يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا][2] .

وكان إذا بعث أحداً من أصحابه أوصاه بذلك ، وقال لأبي موسىٰ ومعاذ حين بعثهما إلى اليمن : [يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا][3] .

وقوله : ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ . أي : على هدايتكم في الدنيا ونجاتكم في الآخرة .

قال قتادة : (﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، حريص على ضالهم أن يهديه الله) . وقال : (حريص على من لم يسلم أن يسلم) .

وقال ابن جرير : (حريص على هدىٰ ضُلاّلِكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق) .

ومن كنوز السنة الصحيحة في هذا المعنىٰ أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد من حديث أبي ذر قال : [تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يُذَكِّرنا منه علماً . قال : وقال رسول الله ﷺ : ما بقي شيءٌ يُقرِّبُ من الجنة ويباعد من النار إلا و قد بُيِّنَ لكم][4] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسىٰ قال : قال رسول الله ﷺ : [مثلي ومثلُ ما بعثني الله كمثل رجلٍ أتىٰ قوماً فقال : رأيت الجيش بِعَيْني ، وإني

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (2108) ، وعلقه البخاري في صحيحه «كتاب الإيمان» ، ووصله في «الأدب المفرد» (283) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم (881) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (101/7) ، ومسلم في الصحيح (5/ 141) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 131) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (4/ 26) ، (5/ 108) ، ومسلم في الصحيح (5/ 141) ، وأحمد في مسنده (4/ 412) ، وغيرهم .

(4) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (5/ 153 ـ 162) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، والطيالسي (479) ، وابن حبان (65) ، والطبراني (1647) ، وإسناد ابن حبان والطبراني رجاله رجال الصحيح غير محمد المقري ، وهو ثقة .

أنا النذير العُريانُ ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ. فأطاعه طائفة فأدلجوا على مَهْلِهم فنَجوا ، وكذّبته طائفة فَصَبَّحَهُم الجيش فاجتاحهم][1] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إنما مثلي ومثل الناس: كمثلِ رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعْنَ فيها ، فجعل الرجل يَزَعُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ ، فَيَقْتَحِمْنَ فيها ، فأنا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عن النار وأنتم تَقَحَّمُونَ فيها][2] .

وقوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. أي: رفيق رحيم.

قال النسفي: (قيل لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ).

وفي التنزيل: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: 215 ـ 217].

وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩ ﴾.

أي إن أعرضوا وأنكروا ما جئتهم به من الشريعة العظيمة والدين الحق فقل الله يكفيني فلا معبود سواه ، فبه وثقت ، وعلى عونه اتكلت ، فهو ناصري ومعيني ، وهو رب العرش العظيم الذي كل مخلوق آخر دونه.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: [حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل][3] .

وفي الصحيحين عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقول: [اللهم لك أسلمتُ وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ ، اللهم إني أعوذ بعزّتك ، لا إله إلا أنت أن تضِلّني ، أنت الحَيُّ الذي لا يموتُ ، والجنُ والإنس يموتون][4] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (6482) ـ كتاب الرقاق ـ باب الانتهاء عن المعاصي.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (6483) ـ كتاب الرقاق ـ الباب السابق.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (8/ 172) ، من حديث ابن عباس مرفوعاً.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 101) ، وأخرجه مسلم (2717) ، واللفظ لمسلم.

وفي الصحيحين وجامع الترمذي عن ابن عباس أيضاً: [أن نبيَّ الله ﷺ كان يدعو عند الكرب: لا إله إلا الله الحليم الحكيم ، لا إله إلا الله ربُّ العرشِ العظيم ، لا إله إلا الله ربُّ السماوات والأرض وربُّ العرش الكريم].

وفي رواية: [كان يقول عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله ربُّ السماوات ، وربُّ الأرضِ ، ورَبُّ العرش الكريم][1].

تم تفسير سورة التوبة
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 123) ، وأخرجه مسلم (2730) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (3/ 154) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ براءة الإسلام من التعاقد والتعاون مع المشركين فيما فيه تقريبهم وإعزازهم.

2 ـ لا يدخل الجنة كافر، لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

3 ـ لا يحج في البيت مشرك، ولا يطوف به عريان. والحج الأكبر يوم النحر.

4 ـ المشركون لا يرقبون في المؤمنين إلاّ ولا ذمة، بل لا يجدون حرجاً في نقض العهد والكذب وإظهار الشماتة وإيقاع الضرر والأذىٰ.

5 ـ إذا استأمن المشرك فأمنوه حتىٰ يسمع كلام الله، ولا بد من أخذ الحذر.

6 ـ الجهاد اختبار من الله لصدق المؤمنين، والنصر من عند الله العلي العظيم.

7 ـ الإيمان والجهاد فوق عمارة المسجد وسقاية الحاج.

8 ـ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله ولي المتوكلين.

9 ـ مانع الزكاة يمثل ماله شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمتيه يوم القيامة.

10 ـ الأشهر الحرم: رجب مضر، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

11 ـ الإثم أبلغ في الأشهر الحرم، والمعاصي أغلظ في الحرم.

12 ـ النسيء: تحريم صفر بدل المحرم، وهذا هو الزيادة في الكفر.

13 ـ المجاهد: إن استشهد دخل الجنة، وإن بقي فاز بالأجر والغنيمة.

14 ـ المنافقون: إن أعطاهم الرسول رضوا، وإن منعهم سخطوا.

15 ـ الزكاة ليست لغني أو قوي، بل للفقير والمسكين والجابي والمؤلفة قلوبهم، وللعتق، وللغارمين، وفي سبيل الله: ويشمل الحج والغزو، وللمسافر المحتاج للمعونة.

16 ـ الولاء والبراء جزء من منهاج الإيمان عند المؤمنين.

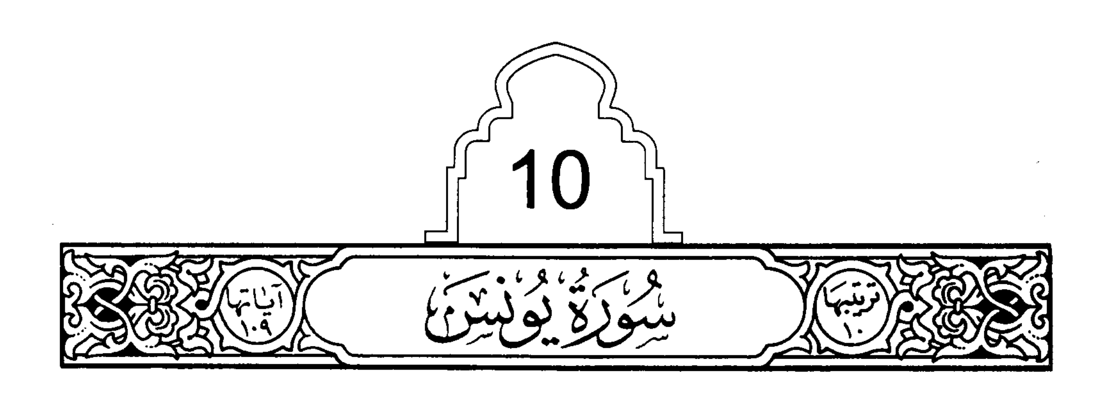
17 ـ تحريم الصلاة على المنافقين، ولا عذر بالتخلف عن الجهاد للأغنياء القادرين.

18 ـ الأعراب جفاة، ومنهم من هو أشد كفراً ونفاقاً. ويستثنىٰ الأعراب المؤمنون المتصدقون.

19 ـ النهي عن سب الصحابة ، فإنفاق مثل أحد ذهباً لايبلغ أعمالهم.
20 ـ كل مسجد لا يؤسس على التقوىٰ هو مسجد ضرار.
21 ـ هدم الحاكم المسلم لأماكن المعصية وتجمعات النفاق أو تغيير هيئاتها عما وضعت له مشروع ، ولا حرمة لوقف إن بُني على معصية أو نفاق.
22 ـ إن كان مسجد قباء أسس على التقوىٰ ، فمسجد الرسول ﷺ أولىٰ.
23 ـ المجاهدون في سبيل الله موعدهم الجنة ، سواء قَتلوا أو قُتلوا ، وسياحة هذه الأمة الجهاد.
24 ـ جواز الهجر أكثر من ثلاثة أيام لسبب شرعي.
25 ـ سعة رحمة الله وقبوله للتائبين ، وأهمية الصدق وشؤم الكذب.
26 ـ جواز إخبار المسلم عن تقصيره ، وجواز مدح نفسه للحاجة لا للرياء.
27 ـ بيعة العقبة هي من أفضل مشاهد الصحابة.
28 ـ استحباب اتخاذ الديوان إذا ظهرت مصلحة ذلك.
29 ـ استحباب تفقّد القائد لجنوده في مواطن مختلفة.
30 ـ لا يتخلف عن جيش المسلمين إلا منافق أو صاحب عذر.
31 ـ حكم الإمام مبني على الظاهر ، ويكل إلى الله السرائر.
32 ـ جواز ترك رد السلام على من أحدث زجراً وتأديباً ، والتبسم قد يكون عن الغضب والسرور.
33 ـ تبريد حرّ المصيبة بالتأسي بالنظير.
34 ـ جواز دخول المرء بُسْتان صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك.
35 ـ استحباب الصحابة سجدة الشكر عند البشارة ، واستحباب التسابق لِبَثِّها ، وجواز إعطاء البشير أنفس المتاع.
36 ـ استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية والقيام إليه عند قدومه لمصافحته وتهنئته.
37 ـ أفضل أيام العبد يوم توبته وقبول الله منه ذلك ، والله أشد فرحاً بذلك منه.
38 ـ استحباب الصدقة عند التوبة ببعض المال.
39 ـ الصدق علم المؤمنين والكذب علم المنافقين ، وذلك في الدارين.
40 ـ ما يصيب المؤمن من ظمأ ولا نصب ولا هم ولا غم إلا كفر الله به من خطاياه.
41 ـ النفقة لتجهيز جيش المؤمنين من أعظم القربات إلى الله عز وجل.

42 ـ وجوب انصراف فئة من المؤمنين للتفقه في الدين.
43 ـ الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وهو بضع وسبعون شعبة.
44 ـ قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.
45 ـ العرش سقف المخلوقات جميعاً سماءً وأرضاً.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (109)

موضوع السورة

دعوة الخلق والتذكير بآيات الله ونعمه وتحقير الدنيا وتأكيد عذاب المشركين في الآخرة. تكذيب الأمم الرسل ونزول عذاب الدنيا ، وتدارك قوم يونس أمرهم بالجأر إلى الله والاستغفار ، قبل نزول الهلاك والدمار.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله تعالى لهذا الكتاب الحكيم ، بعد ذكر الحروف المقطعة التي تدل على إعجاز القرآن الكريم.

2 ـ تعجب الناس من إرسال الله إليهم رسولاً منهم ، واتهامه بالسحر.

3 ـ دعوة الناس لإخلاص العبادة لله فهو المبدئ والمعيد ، وللمؤمنين عنده البشرىٰ وللكفار الوعيد.

4 ـ تذكير الله تعالى عباده بآياته الكبيرة: الشمس والقمر والليل والنهار.

5 ـ الإنسان يجأر لربه بالدعاء عند نزول المصاب والبلاء ، فإذا فرج عنه رجع إلى الطغيان والشرك بالله أيام الرخاء.

6 ـ طلب المستكبرين استبدال هذا القرآن ، ولا أظلم ممن كذب على الله وادّعى النبوة .
7 ـ شفعاؤكم ـ أيها المشركون ـ لا ينفعونكم شيئاً ، أتخبرون الله بما لا يعلم! .
8 ـ ما أسرع الناس إلى تناسي نعم الله عليهم ، فإذا هاج البحر ورأوا الهلاك أخلصوا لله تعالىٰ الدين ، فلما أنجاهم عادوا مشركين .
9 ـ تمثيل بديع من الله لهذه الحياة الفانية ، ووعده بجعل الأرض حصيداً كأن لم تغن بالأمس عند ذروة استكبار أهلها .
10 ـ ذِكْرُ ثواب المحسنين يوم القيامة: الجنة ورؤية وجه الله الكريم ، وجزاء الذين أشركوا وكسبوا السيئات الخزي وعذاب الجحيم .
11 ـ أمْرُ الله يوم القيامة بفصل المشركين عن المؤمنين ، وظهور دقائق الأعمال في صحائف الفريقين .
12 ـ محاكمات رفيعة: هل من يخلق كمن لا يخلق؟ ومن يهدي كمن لا يهدي؟ من المستحق للعبادة القادر على كل شيء أم العاجز؟!
13 ـ تحدي الله المشركين المكذبين أن يأتوا بسورة. والرسول ﷺ قد أعجز الفصحاء بهذا القرآن وأسكت البلغاء والشعراء .
14 ـ الله تعالى لا يظلم أحداً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .
15 ـ إخبار الله تعالىٰ عن حتمية عذاب المشركين في الآخرة ، وقد يطلع الله نبيه في حياته على عذابهم وقد يؤجل ذلك ، والرسول ﷺ لا يعلم من علم الله إلا ما أطلعه الله عليه .
16 ـ القرآن شفاء لما في الصدور من شرك وغيره .
17 ـ المشركون أحلوا ما حرم الله ، وحرموا ما أَحَلَّ ، بأهوائهم .
18 ـ أولياء الله في أمن وأمان ، وهم أهل الإيمان والتقوىٰ ، لهم الفوز والبشرىٰ .
19 ـ المشركون يعلمون أن الله هو جبار السماوات والأرض ، ثم يعبدون مماليكه .
20 ـ ذكر خبر نوح وغرور قومه ، وخبر موسىٰ مع فرعون وملئه .
21 ـ آمن بموسىٰ كافة بني إسرائيل ، وقليل من قوم فرعون .
22 ـ أُمِرَ بنو إسرائيل بالصلاة في بيوتهم ، تجنباً لاضطهاد فرعون .
23 ـ نجّىٰ الله فرعون ببدنه ، ليتحقق بنو إسرائيل من هلاكه .
24 ـ ما اختلف اليهود إلا بعد ما جاءتهم التوراة بالعلم الحق .

25 ـ صفات نبينا ﷺ مكتوبة في التوراة والإنجيل.

26 ـ لا يؤمن أحد إلا بإذن الله ، ويجعل الله الرجس على الذين لا يعقلون.

27 ـ الأمر بالنظر في ملكوت السماوات والأرض والاعتبار بمصير الأمم السالفة.

28 ـ الأمر بإفراده تعالى في الدعاء ، فالدعاء هو العبادة.

29 ـ نزول الضر بيد الله ، ولا يكشفه إلا الله ، ونزول النفع بإذن الله ، ولا يغيّره إلا الله.

30 ـ الأمر بالصبر على منهاج النبوة حتىٰ يفصل الله بين المؤمنين والكافرين ، والله خير الفاصلين.

❑ ❑ ❑

بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ 4. **قوله تعالى**: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ ﴾.

في هـذه الآيات: انتصارٌ من الله تعالىٰ لهذا الكتاب الحكيم، بعد ذكر الحروف المقطعة التي تفيد الإعجاز لهذا القرآن العظيم. أَفَعَجِبَ الناس أن بعث الله رجلاً منهم ينذرهم غضبه تعالىٰ إن عصوه، ويبشر المؤمنين ببشائر الخير والسعادة مقابل ما أطاعوه، لقد كذب الكافرون واتهموا رسول ربهم بالسحر والجنون. إن ربكم ـ أيها الناس ـ هو رب العالم كله، سماواته وأرضه، خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ على عرشه يدبر الأمر ويصرف المقادير، ولا يشفع أحد يوم القيامة إلا بإذنه، فأخلصوا له العبادة، فَمَرْجِعُكُم إليه، فهو المبدئ والمعيد، وللمؤمنين عنده البشرىٰ وللكفار الوعيد.

فقوله: ﴿الٓر﴾ ـ تقدم الكلام على مفهوم الحروف المقطعة في أوائل سورة البقرة وآل عمران. وخلاصة القول: هذا القرآن هو من جنس هذه الأحرف، وهو مع ذلك الكلام المعجز الذي لا يمكن لبشر أن يأتي بسورة من مثله.

وقوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ـ تأكيد لإعجاز هذا القرآن، فهو كلام الله

العظيم ، وهذه الآيات هي آيات هذا الكتاب المحكم ، الذي أحكمه الله وبيّنه لعباده.

وفي التنزيل : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1].

قلت : ومن ذهب من المفسرين إلى أن المقصود التوراة والإنجيل أو الزبور فلا مناسبة له ولا وجه ، بل السياق يدل على أن الوصف للقرآن الكريم.

وقوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ . قال ابن عباس : (لما بعث الله محمداً رسولاً ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظمُ من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد! فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ [يوسف : 109]).

وعن ابن ابن جريج قال : (عجبت قريش أن بُعث رجل منهم. قال : ومثل ذلك : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ ﴾ [الأعراف : 65] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ ﴾ [الأعراف : 73] ، قال الله : ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ ﴾ [الأعراف : 69]).

قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره : أكان عجباً للناس إيحاؤنا القرآن على رجل منهم ، بِإِنْذارِهِم عقاب الله على معاصيه ، كأنهم لم يعلموا أن الله قد أوحىٰ من قبله إلى مثله من البشر ، فتعجّبوا من وحينا إليه).

وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة :

1 ـ قال الضحاك : (ثواب صدق). وقال مجاهد : (﴿ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ ، قال : الأعمال الصالحة). وقال ابن عباس : (يقول : أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم). وقال ابن أبي مغيث عن مجاهد : (صلاتهم ، وصومهم ، وصدقتهم ، وتسبيحهم). وقال : (﴿ قَدَمَ صِدۡقٍ ﴾ : خير).

2 ـ قال ابن عباس : (﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ ، يقول : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول).

3 ـ وعن قتادة : (أي : سلف صدق عند ربهم). وعن الحسن : (﴿ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ ، قال : محمد شفيع لهم).

واختار ابن جرير قول من قال : أن لهم أعمالاً صالحة عند الله ، يستوجبون بها منه الثواب. قلت : ولا مانع من بقية المعاني ، فمن أسلف في العمل الصالح ومات عليه

فإن السعادة قد سبقت له في اللوح المحفوظ ، وتناله شفاعة النبي ﷺ بإذن الله يوم القيامة ، وكذلك كل بشائر الخير.

ففي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 2 ـ 3].

2 ـ قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

وفي سنن الترمذي ومسند الإمام أحمد بسند صحيح ، عن أبي أمامةَ ـ صُدَيِّ بنِ عَجْلانَ الباهلي رضي الله عنه ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يَخْطُبُ في حَجَّةِ الوداع فقال: [اتقوا الله ، وصلوا خَمْسَكُم ، وصوموا شَهْرَكم ، وأدُّوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا أُمَرَاءَكُم ، تدخلوا جَنَّة ربِّكم][1].

قال النسفي: (﴿ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة ، ولما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً كما سميت النعمة يداً لأنها تعطىٰ باليد ، وباعاً لأن صاحبها يبُوع بها).

وقوله: ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قرأ أهل المدينة والبصرة: ﴿إن هذا لسِحْر مبين﴾ ـ يعنون القرآن.

وقرأ أهل الكوفة وجماعة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ ـ يعنون النبي ﷺ. وكذبوا فيما قالوا على التأويلين ، وهو دليل عجزهم أمام هذا الوحي العظيم ، وصدق النبي الكريم ، صلوات الله عليه وعلى جميع المرسلين.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ﴾.

أي: إن الله ربكم هو رب العالم كله ، سماواته وأرضه ، وما فيهن من ألوان الخلائق ، فقد أبدع السماوات والأرض في ستة أيام ـ كهذه الأيام ـ ثم علا على

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (616) ، وأخرجه أحمد (5/ 251) ، وإسناده صحيح. وصححه ابن حبان (795) ، والحاكم (1/ 9 ، 389) ـ ووافقه الذهبي.

العرش ، فله الكبرياء وحده وتصريف أمور هذا الكون بيده. قال مجاهد: (﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: يقضيه وحده).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده ، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [خلق الله التربة في السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يومَ الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل](1).

وأخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة](2).

وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾. أي: لا يتجرأ أحد على الشفاعة لأحد يوم القيامة إلا من بعد إذن الله تعالى.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: 23].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: 26].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا كان يوم القيامة ماجَ الناس بعضهم في بعض ، فيأتون آدم فيقولون: اشفع إلى ربك فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن. فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسىٰ فإنه كليم الله. فيأتون موسىٰ فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسىٰ فإنه روح الله وكلمته. فيأتون عيسىٰ فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد. فيأتوني فأقول: أنا لها فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2789) ـ كتاب صفات المنافقين ، ورواه أحمد ، ورواه أبو يعلىٰ في المسند (288/ 1) ، والبيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» (ص 275 ـ 276).

(2) إسناده صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (114/ 1) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 290) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (109).

بتلك المحامد وأخِرُّ له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول يا رب أمتي أمتي. .] الحديث(1).

ويروي الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: [صنفان من أمتي لن تنالَهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكل غال مارق](2).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: هذه بعض صفات ربكم العظيم في الخلق والتصريف والتدبير، فأفردوه بالعبادة والتعظيم، فإنه لا تصلح العبادة والإنابة والرجاء والدعاء إلا له، أفلا تتعظون وتعتبرون.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

أي: إن مآلكم ومعادكم ـ أيها الناس ـ في نهاية المطاف إليه سبحانه، فهو الذي بدأ إنشاء الخلق وإحداثه، ثم هو يعيده بعد فنائه وبلائه، ليقوم الجميع بين يدي رب العالمين، فيقابل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فالمؤمنون في غبطة وسرور، والكافرون في جحيم وسعير، فتبارك الله العلي العظيم.

وعن مجاهد: (﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قال: يحييه ثم يميته، ثم يحييه).

أو قال: (يحييه، ثم يميته، ثم يبدؤه، ثم يحييه). وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ ـ قال مجاهد: (بالعدل). وقال ابن جرير: (﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، يقول: ليجزيهم على الحسن من أعمالهم التي عملوها في الدنيا الحسنَ من الثواب، والصالحَ من الجزاء في الآخرة وذلك هو «القسط»، و«القسط» العدلُ والإنصاف).

وأما الشراب الحميم فهو الشراب الذي أُغلي واشتد حرّه، فهو كالمهل يشوي الوجوه. وأصله في لغة العرب محموم، فهو مفعول صرف إلى فعيل، والمحموم: المُسَخَّن. قال الرازي: (الحميم: الماء الحار) ـ وكل مسخن عند العرب فهو حميم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الإيمان (193)، والبخاري في التوحيد (انظر: مختصر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ 2133)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات. انظر «مجمع الزوائد» (5/ 235)، ومعجم الطبراني الأوسط (1/ 197/ 2) نحوه. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (471).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص: 57 ـ 58].

2 ـ قال تعالىٰ: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن: 43 ـ 44].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة: 41 ـ 43].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: [ناركم هذه التي يُوقد ابن آدم، جزءٌ من سبعين جزءاً من حرّ جهنم. قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فُضِّلَت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها][1].

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عُصارة أهل النار، طينة الخبال][2].

5 ـ 10. قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 149 ـ 150) من حديث أبي هريرة. وانظر مختصر صحيح مسلم (1976) ـ كتاب صفة النار.

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025). ورواه أحمد. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (5112)، وصحيح الجامع الصغير (7896).

ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالىٰ عن بعض آياته الكبيرة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فقد جعل شعاع الشمس ضياء وجعل سلطانها بالنهار، وجعل شعاع القمر نوراً وجعل سلطانه بالليل، وقدّر القمر منازل لحساب أوقات السنين وعدد الأيام ومعرفة مواسم الخير، خلق ذلك كله بالحق لقوم يعلمون. إن في تعاقب الليل والنهار وما أبدع الله من الخلق في أرجاء السماوات والأرض لآيات للمتقين. إنَّ الذين اختاروا الركون إلى هذه الحياة الدنيا الزائلة وتجاهل الحياة الآخرة الباقية وما وجب في حق الله عليهم لمآلهم إلى نار الجحيم. وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فيرشدهم ربهم يوم القيامة إلى منازلهم في جنات النعيم. ينطقون بالتسبيح ويُحيون بالسلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

فقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ ـ أي للعالمين بالنهار. ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ ـ أي لهم بالليل.

قال القاسمي: (والضياء أقوىٰ من النور). و﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ ـ أي القمر. قال ابن كثير: (فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمُه، حتى يستوسقَ ويكمُلَ إبدارُه، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 39 ـ 40].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96].

وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ ـ فبحركة الشمس تُعرف الأيام، وبمنازل القمر ومسيره تُعرف الشهور والأعوام. قال القاسمي: (لكون منازله معلومة محسوسة، وتعلق أحكام الشريعة به، وكونه عمدة في تواريخ العرب ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ أي حساب الشهور والأيام، مما نيطَ به المصالح في المعاملات والتصرفات).

وقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾. أي: ما كان هذا النظام البديع في الخلق عن عبث، بل من ورائه حكمة بالغة وحجة من الله تعالى على خلقه.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: 27].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. أي: يبين الحجج والأدلة لقوم يتدبرونها فيعلمون ما وراءها من غاية الخلق وواجبات العبودية لله وكمال التعظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

أي: إن تعاقب الليل والنهار، وهذا الخلق العجيب المنتشر في أرجاء السماوات وأنحاء الأرض وأعماق المحيطات والبحار، كله آيات عظيمة دالة على وجوب تعظيم الواحد القهار، وصرف العبادة له وحده والخوف من معصيته وغضبه فهو العزيز الجبار.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190].

2 ـ وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: إن الأشقياء الذين آثروا الركون إلى هذه الحياة الدنيا يلهثون وراء زينتها وشهواتها بما يسخط الله تعالى، وهم لا يرجون لقاءه ولا الدار الآخرة، بل إنهم كفروا بالله واليوم الآخر، فهؤلاء مصيرهم عذاب الخزي في نار جهنم بما كانوا يكسبون.

قال قتادة: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾، قال: إذا شئت رأيتَ صاحب دُنْيا، لها يفرح، ولها يحزن، ولها

يسخط ، ولها يرضىٰ). وقال ابن زيد: (هؤلاء أهل الكفر).

وقال الحسن: (والله ما زيّنوها ولا رَفَعوها حتىٰ رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعيّة فلا يأتمرون بها ، فإن مأواهم يومَ معادهم النار ، جزاءً على ما كانوا يكسبون في دُنياهم من الآثام والخطايا والأجرام ، مع ما هُم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

هذه هي المرتبة الرابعة من مراتب الهداية كما وردت في القرآن والسنة. فإن مراتب الهداية:

1 ـ هداية الخالق خلقه لمصالحهم.

2 ـ هداية الدلالة والإرشاد.

3 ـ هداية التوفيق والإلهام.

4 ـ هداية الله المؤمنين يوم القيامة إلى الجنة.

فقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾. قال مجاهد: (يكون لهم نوراً يمشون به).

وقال ابن جرير: (يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: 24].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 4 ـ 6].

قال مجاهد: (﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ الآية. يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحداً).

وقال ابن عباس: (هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم).

وقال محمد بن كعب: (يعرفونها كما تعرفون بيوتكم في الدنيا إذا انصرفتم من يوم الجمعة).

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري ، أن نبيَّ الله ﷺ قال: [إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصُّون مظالم كانت بينهم في

الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا][1] .

وفيه وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة][2] .

والخلاصة: إن أهل صدق الإيمان واليقين بالله واليوم الآخر وقد تهيؤوا للقاء ربهم بالعمل الصالح يرشدهم ربهم يوم القيامة بنور إيمانهم إلى مساكنهم في الجنة تجري تحتهم الأنهار في بساتين النعيم .

وقوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

إخبار من الله تعالى عن دعاء المؤمنين في الجنة أنه تسبيح وتنزيه لله العظيم ، الذي أولاهم هذا الخير من ألوان النعيم ، والسلام تحيتهم فيما بينهم ، والحمد لله ختام كل لذة ونعمة يرونها ويتنعمون بها .

قال قتادة: (﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾. ذلك دعاؤهم فيها ، ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾) .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر مرفوعاً: [يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك ، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس][3] . وفي رواية: [قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك . يلهمون التسبيح والحمد] .

أي: تسبيحهم وتحميدهم يجري مع الأنفاس كما تلهمون أنتم النفس .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [أول زمرة تَلِجُ الجنة صورتُهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصُقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، آنيتُهم فيها الذهب ، وأمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامِرُهم الألُوَّة ، ورشحُهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يُرىٰ مُخُّ سُوقِها من وراء اللحم من الحُسنِ ، لا اختلاف

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2440) ـ كتاب المظالم . باب قصاص المظالم . وانظر (6535) ـ كتاب الرقاق . باب القصاص يوم القيامة .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (6535) ـ كتاب الرقاق ، ومسند أحمد (3/ 13) ، (3/ 74) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (8/ 147) . والجشاء: ريح يخرج من الفم عند الشبع يرافقه صوت .

بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلبٌ واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً][1] .

قلت: وهذا يدل على ارتفاع العبادات والتكاليف عن أهل الجنة إلا عبادة الذكر فإنها دائمة .

ومعنى سبحانك هو تنزيه الرب تعالىٰ وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به .

وقال علي رضي الله عنه : (هي كلمة رضيها الله تعالى لنفسه) .

وقد أفاد ابن القيم رحمه الله في مفهوم هذه الآية فقال : (الدعوىٰ مثل الدعاء، والدعاء يراد به الثناء ويراد به المسألة . وفي الحديث : أفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين . فهذا دعاء ثناء وذكر يلهمه الله أهل الجنة . فأخبر الله سبحانه عن أوله وآخره ، فأوله تسبيح ، وآخره حمد يلهمونهما ، كما يلهمون النفس . وفي هذا إشارة إلى أن التكليف في الجنة يسقط عنهم ، ولا تبقى عبادتهم إلا هذه الدعوة التي يلهمونها . وفي لفظة ﴿ ٱللَّهُمَّ ﴾ إشارة إلى صريح الدعاء فإنها متضمنة لمعنى يا الله فهي متضمنة للسؤال والثناء)[2] .

11 ـ 14 . **قوله تعالى** : ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالى عباده أنه لو يعجل استجابته لكثير من دعائهم أثناء غفلتهم كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم ، ويَدَعُ سبحانه الذين لا يؤمنون بالحساب في تمردهم وغيّهم يترددون . إنه إذا نزل بالإنسان الضر سارع إلى الدعاء لكشفه ، فإذا

(1) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (3246) ، (3254) ، (3245) . ومختصر صحيح مسلم (1956 ـ 1957) ، وصحيح الجامع الصغير (2561 ـ 2563) .

(2) انظر كتاب : «صفة الجنة في القرآن والسنة» ـ والنلي ـ ص (216 ـ 217) .

كشفه الله له تنكّر لشكره وزيّن له الشيطان الكبر والعجب والغرور. لقد أهلك الله أمماً كثيرة عاشت على الكبر وكذبت الرسل فأذاقها الله ما يذيق المجرمين. ثم جعلكم ـ أيها الناس ـ سكاناً في الأرض من بعدهم، لِتُمْتَحنوا كما امتَحَنَ من قبلكم ولينظر كيف تعملون.

فقوله: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾.

قال مجاهد: (قولُ الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه! فلو يعجِّلُ الله الاستجابة لهم في ذلك، كما يستجاب في الخير، لأهلكهم).

والآية تدل على حلم الله سبحانه ولطفه بعباده، فإنه لو استجاب دعاء الداعي منهم ـ حالة غضبه أو ضيقه ـ وهو يدعو على نفسه أو ماله أو ولده أو أهله لأصابهم العنت والهلاك ولنزل بهم ما يحذرون من الضيق والهمّ. قال ابن جرير: (﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، يقول: لهلكوا، وَعُجِّلَ لهم بالموت، وهو الأجل).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أمِّ سَلَمَةَ قالت: [دخل رسول الله ﷺ على أبي سَلَمَةَ وقد شَقَّ بَصَرُه، فأغْمَضَهُ، ثم قال: إن الروح إذا قُبِضَ تبعه البصر. فَضَجَّ ناسٌ من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون...] الحديث(1).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تَدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (920) ـ كتاب الجنائز ـ باب في إغماض الميت والدعاء له، إذا حُضِر، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة نَيْل فيها عطاء فيستجيبَ لكم][1] .

الحديث الثالث: أخرج الحاكم بسند صحيح على شرط البخاري ، عن أم الفضل رضي الله عنها : [أن رسول الله ﷺ دخل عليهم ، وعباس عم رسول الله ﷺ يشتكي ، فتمنىٰ عباس الموت ، فقال له رسول الله ﷺ: يا عم! لا تتمن الموت ، فإنك إن كنت محسناً ، فأن تؤخر تزداد إحساناً إلى إحسانك خير لك ، وإن كنت مسيئاً فأن تؤخر فتستعتب من إساءتك خير لك ، فلا تتمن الموت][2] .

وقوله : ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

أي : فندع الذين لا يؤمنون بالحساب والبعث ولا يخافون العاقبة في تمردهم وطغيانهم وغيّهم يترددون .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ .

قال ابن جريج : (﴿ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ قال : مضطجعاً). وقال ابن جرير : (﴿ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ ، يقول : استغاث بنا في كشف ذلك عنه ، ﴿ لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ ، يعني مضطجعاً لجنبه ، ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ ، بالحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرّ به) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ .

أي : حتى إذا استجاب الله له وكشف عنه ما نزل به من الضيق والهم والمصيبة عاد لغفلته ونسي شكر ربه على ما فرّج عنه ، وربما خاض من جديد في طريقته الأولى في العتو والكبر والإسراف .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ـ ذمٌ لمن كان هذا حاله في التقلب ، فهو يستكين ويتواضع لربه عند النازلة ، ثم لا يلبث أن يعود لتكبره عن شكره تعالى وعبادته عند الفرج والفرح .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (1532) ـ كتاب الصلاة . باب النهي : أن يدعو الإنسان على أهله وماله ـ وهو بإسناد على شرط مسلم ، وانظر صحيح سنن أبي داود (1356) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (1/ 339) من حديث أم الفضل رضي الله عنها ـ وأخرجه الشيخان ، والبيهقي (3/ 377) من حديث أنس نحوه مرفوعاً .

وفي التنزيل من آفاق هذا المعنى:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: 9 ـ 11].

فاستثنت الآية من تلك الصفة الذميمة أهل الإيمان والهداية والصبر، فإنهم حذرون من السقوط في تلك الهاوية، وبذلك جاءت نصوص السنة العطرة، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن صُهَيْبٍ قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً لأمر المؤمن، إنَّ أَمْرَه كُلَّهُ له خَيْرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابَتْهُ سَرّاء شكَرَ، فكان خَيْراً له، وإن أصابَتْهُ ضَرَّاءَ صَبَرَ، فكان خيراً له][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والدارمي بسند صحيح على شرط مسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عن صهيب قال: [بينا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][2].

الحديث الثالث: أخرج الطيالسي بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: [عجبتُ للمسلم إذا أصابته مصيبةٌ احتسب وصبر، وإذا أصابه خيرٌ حمدَ الله وشكرَ، إنَّ المسلم يؤجرُ في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه][3].

الحديث الرابع: يروي عبد الله بن أحمد في مسند أبيه عن أنس بن مالك قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2999) ـ كتاب الزهد ـ باب المؤمن أمره كله خير.
(2) إسناده صحيح على شرط مسلم. أخرجه الدارمي (2/ 318)، وأحمد (6/ 16)، وبنحوه روى الإمام مسلم (8/ 227)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (147).
(3) حديث صحيح. أخرجه الطيالسي (211) بإسناد صحيح، وأخرجه البيهقي. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (147)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3881).

رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له][1].

وفي لفظ: [عجبتُ للمؤمن، إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

إخبار من الله تعالى عن مصير الأمم المكذبة رسلها فيما مضىٰ، فقد نزل بهم العذاب والهلاك عند طغيانهم بعدما جاءتهم حجج الحق والوحي البالغة والمعجزات، وقد أصرّوا على الكفر والظلم حتى لو بقوا، ومن ثمَّ فإن طغاة مكة ـ يا محمد ـ داخلون في مصير من قبلهم من أولئك القوم المجرمين إن أصروا على الكفر والتكذيب بالقرآن والنبوة.

قال النسفي: (﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ إن بقوا ولم يهلكوا، لأن الله علم منهم أنهم يصرون على كفرهم، وهو عطف على ﴿ظَلَمُوا﴾ أو اعتراض، واللام لتأكيد النفي، يعني أنّ السبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء يعني الإهلاك ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

الخلائف: جمع خليفة، أي جعلناكم ـ أيها الناس ـ سكاناً في الأرض تخلفون أولئك القوم ـ وتلك القرون السالفة ـ الذين أهلكناهم، لينظر ربكم في أعمالكم هل تخالفون منهج أولئك الهالكين أم تستقيمون على طاعته وتعظيم شرعه ووحيه.

قال القرطبي: (﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب، ولم يزل يعلمه غيباً. وقيل: يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل. وقيل: النظر راجع إلى الرسل، أي لينظر رسلنا، وأولياؤنا كيف أعمالكم).

قلت: والراجح هو نظر الرب سبحانه في أعمال عباده وأحوالهم التي اختبرهم بها، وهو أعلم بها، وإنما هو يحصيها عليهم ليوافيهم بها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: 15].

(1) إسناده صحيح. رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (5/ 24)، وأبو يعلى (200/ 2) ورواه أبو نعيم في الحلية. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (148)، وصحيح الجامع الصغير (3880).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: [. . .يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم ـ أيضاً ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: [إنّ الدنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُم فيها، فينظرُ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أوّلَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء][3].

وقوله: «مستخلفكم» أي جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم، فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم. «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء». أي: احذروا الافتتان بهذه الدنيا الفانية، وبأخطر ما فيها على الرجال، ألا وهي فتنة النساء، فقد ضلت أمم بذلك.

15 ـ 17. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2577) ـ كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2564) (33)، (34) ـ كتاب البر والصلة. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، من حديث أبي هريرة.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2742) ـ كتاب الرقاق ـ باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء، من حديث أبي سعيد الخدري.

تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن سلوك المستكبرين عند سماع قوارع القرآن تتلىٰ عليهم، فهم في تنطع وغرور، يطلبون استبدال هذا القرآن في محاولة للنفور، فقل لهم يا محمد: إني لا أملك تبديله من تلقاء نفسي، وإنما أتبع ما يوحىٰ إليّ من ربي، وإني أخاف إن تجرأت على الوحي نحو تجرئكم عذاب يوم عظيم. إنه لو شاء الله ما سمعتم هذا القرآن ولا علمتم به، فقد مكثت فيكم عمراً قبل أن أتلوه عليكم أفلا تعقلون؟! إنه لا أحد أشد ظلماً ممن افترى الكذب على الله أو تطاول على آياته إنه لا يفلح المجرمون.

فقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ـ إخبار من الله تعالى عن سوء سلوك الكافرين عند سماع حجج الحق وقوارع الوحي، فحاولوا صَرْفَ هذا البلاغ المبين والإنذار القويم إلى الهزل والتنطع بطلبهم غيره من نمَطٍ آخر، أو تبديله بغيره.

وقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾. أي: قل لهم ـ يا محمد ـ: كيف لي أن أبدِّلَه وقد أوحاه الله إليّ، وإنما أنا رسول مُبَلِّغ عن الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إني أخشىٰ إن بدلت وحيه ـ تعالى ـ وحولت حلاله أو حرامه إلى ما يناسب أهواءكم، وخالفت هديه ومنهاجه، فعصيته بذلك، عذاب يوم شديد الهول والآلام، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وتحسب الناس سكارىٰ وما هم بسكارى.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لو شاء الله لم يعلمكموه). أو قال: (يقول: ما حذّرتكم به).

وعن قتادة: (﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، قال: لبث أربعين سنة).

والخلاصة في معنى الآية: قل لهم ـ يا محمد ـ لهؤلاء المتنطعين الذين يريدون تبديل هذا القرآن ليأتي بأحكام تناسب أهواءهم ـ: إنّ الله تعالى لو شاء ما حذّرتكم به ولا أعلمكم به، فقد مكثت فيكم أربعين سنة قبل أن أتلوه عليكم، وذلك قبل أن يوحيه الله إلي.

قال ابن جرير: (﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أني لو كنت منتحلاً ما ليس لي من القول، كنت قد انتحلته في أيام شبابي وحَداثتي، وقبل الوقت الذي تلوته عليكم، فقد كان لي اليوم، لو لم يوحَ إليّ وأُومر بتلاوته عليكم، مندوحةٌ عن معاداتكم، ومتَّسَعٌ، في الحال التي كنت بها منكم قبل أن يوحىٰ إليَّ وأومر بتلاوته عليكم).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

أي: ليس هناك أشد ظلماً وأكبر إجراماً ممن تطاول بالكذب على الله أو كذّب بآياته. قال ابن كثير: (ومثل هذا لا يخفىٰ أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟!).

قلت: إنه ما من شخص يتصدىٰ لأمر الناس إلا وسلّطَ الناس أنظارهم عليه لدراسة أحواله، فما تمر الأعوام إلا وقد انكشف على حقيقته، وخاصة إذا تقلب بين أوضاع الضعف والقوة، والخوف والأمن، والفقر والغنى، وقلة الأتباع وكثرتهم، والشدة والرخاء، كما حدث في حياة نبينا محمد ﷺ. وإذا تأملنا أحواله وجدْناها تشهد بأنها أحوال لا تكون إلا لنبي، ولقد شهد له قومه بالصدق فسمَّوه قبل أن يبعثه الله بالرسالة «الصادق الأمين»، حتى قال له أبو جهل: «إنا لا نكذبك، ولكن نكذِّبُ ما جئت به» فأنزل الله قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: [أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب. قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها

الناس! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصَلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام][1] .

18 ـ 20. **قوله تعالى :** ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : توبيخُ الله المشركين في عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم وادعائهم حصول الشفاعة لهم منهم ، فقل لهم ـ يا محمد ـ : هل تخبرون الله بما لا يعلم في السماوات والأرض! تنزه الله عما يشركون. إن الناس كانوا على دين واحد فتفرقت بهم السبل حين اتبعوا الشياطين ، ولولا قضاء الله أن لا يهلك قوماً إلا بعد انقضاء آجالهم لفصل بينهم بإهلاك المجرمين ونجاة المؤمنين. إن المشركين يطالبون بالمعجزات لإثبات النبوة ، والله تعالى يُقَدِّرُ ما يصلح شؤون عباده ، وهو علام الغيوب.

فقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ . أي : ويعبد هؤلاء المشركون ـ يا محمد ـ من دون الله ما لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً. قال النسفي : (﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمْ ﴾ إن تركوا عبادتها ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوها).

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ . قال القرطبي : (وهذه غاية الجهالة منهم ، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال. وقيل : ﴿ شُفَعَٰٓؤُنَا ﴾ أي تشفع لنا عند الله في إصلاح معائشنا في الدنيا).

وقوله : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

---

(1) حديث صحيح. رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه. انظر صحيح الترغيب (1/ 612) ـ كتاب النوافل.

أي: قل لهم يا محمد، هل تنبئون الله بأمر غاب عنه، فهم شفعاء لكم من حيث لا يعلم!! وهو ملك السماوات والأرض وما فيهن!! تنزه الله وتعالى أن يكون له شريك.

أخرج البخاري ومسلم عن معاذ قال: [كنتُ رِدْفَ رسول الله ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مُؤخرة الرحل فقال: يا معاذ! هل تدري ما حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم! قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. فقلت: يا رسول الله! أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا](1).

وفي المسند وصحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [من مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخل النار](2).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾. قال مجاهد: (حين قتل أحد ابني آدم أخاه). وقال الزجاج: (هم العرب كانوا على الشرك). وقيل: كل مولود يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ. والمقصود: أن الناس كانوا على دين واحد وملة واحدة ثم افترقت بهم السبل حين اتبعوا الشياطين. قال ابن عباس: (كان بين آدم ونوح عشرةُ قرون، كُلُّهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنامُ والأندادُ، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحُجَجِه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42]).

أخرج البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ [نوح: 23].

قال ابن عباس: [أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يَجْلِسُون أنْصَاباً وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هَلَكَ أولئكَ وتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ](3).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (13/ 300) ـ كتاب التوحيد. وأخرجه مسلم (30) ـ كتاب الإيمان، من حديث معاذ رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 132) ـ في تفسير سورة البقرة، وأخرجه أحمد (1/ 462 ـ 464)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4920) ـ كتاب التفسير ـ سورة نوح، آية (23).

ثم انتقل الشرك إلى جزيرة العرب عن طريق الشقي عمرو بن لحي.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [إنّ أول من سيَّبَ السوائب وعَبَدَ الأصنام أبو خزاعة عمرو بنُ عامر، وإني رأيته في النار يَجُرُّ أمعاءَه فيها][1].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولولا أنه سبق من الله أنه لا يهلك قوماً إلا بعد انقضاء آجالهم ـ لقضي بينهم بأن يُهلك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. أي: يقول هؤلاء المشركون: لولا أنزل على محمد آية من ربه كدليل على ما يقول. قال ابن كثير: (يعنون كما أعطىٰ الله ثمود الناقة، أو أن يُحَوِّل لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله).

قلت: والإيمان بالله لا يحتاج إلى دليل، فكل ما في هذا الكون الفسيح من السماوات والأرض والجبال والبحار والرياح والأقمار والمجرات يدل على الخالق العظيم، وإنما كان التحدي في إثبات النبوة، فأكرم الله نبينا ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي شده العرب وألقاهم أمامه حائرين، وحملهم عند سماع قوارع آياته فخروا ساجدين. وإنما حاولوا تنطعاً سؤال المعجزات كبقية الأمم، وهذا الذي سألوه زيادة يشكل إنكارها خطراً مضاعفاً على منكريها كما قال تعالى:

1 ـ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59].

2 ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96 ـ 97].

3 ـ ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: 111].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 446) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وانظر صحيح البخاري (6/ 400)، وصحيح مسلم (8/ 155).

4 ـ ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: 14 ـ 15].

ومع ذلك فقد استجاب الله تعالى ـ أمام إلحاح كفار قريش وطغاة مكة ـ فأراهم معجزة انشقاق القمر نصفين، إلا أنهم عادوا إلى كفرهم متهمين ما رأوا بالسحر شأن الأمم قبلهم لتحق سنة الله فيهم.

أخرج الترمذي من حديث أنس قال: [سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فنزلت: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي ذاهب](1).

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: [أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شِقَّتين حتى رأوا حراءً بينهما](2).

وقد روى الحدث أيضاً ـ الإمام البخاري ـ عن شاهد عيان وهو عبد الله بن مسعود حيث قال: [انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى فقال: اشهدوا، فذهبت فرقة نحو الجبل](3).

وقوله: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾.

قال النسفي: (﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أي هو المختص بعلم الغيب فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة ـ ليس غير ـ ﴿ فَانتَظِرُوا ﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات).

21 ـ 23. قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي من حديث أنس. انظر سنن الترمذي (3517) ـ في التفسير ـ سورة القمر. وانظر صحيح سنن الترمذي (2619).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ (انظر فتح الباري: 7/ 182).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود. انظر فتح الباري ـ شرح صحيح البخاري (6/ 631)، وصحيح مسلم بشرح النووي (17/ 143).

وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن مسارعة الناس إلى تناسي نعمة الله عليهم في إخراجهم من العسر إلى اليسر ومن الكرب إلى الفرج، بل إلى المكر في آياته والاستهزاء بشرعه، فقل لهم ـ يا محمد ـ: إن الله أسرع بكم مكراً، وملائكته تكتب عليكم ما تمكرون. هو الذي يحملكم في البر والبحر آمنين، فإذا هاج البحر بكم ورأيتم الموت أخلصتم له الدعاء والدين، وعاهدتموه أن تكونوا من الشاكرين. فلما أنجاكم رجعتم إلى البغي متنكرين، وما بغيكم إلا على أنفسكم، فمآلكم إلى ربكم لو كنتم تعلمون.

فقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾. أي: فَرَجاً من بعد كرب، أو يسراً من بعد شدة، أو عافية من بعد مرض، أو خِصْباً من بعد جَدْب، أو مطراً من بعد قَحْط، ونحو ذلك مما يجعل الله فيه بعد العسر يسراً على الناس، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾. قال مجاهد: (استهزاء وتكذيب).

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾. أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين المستهزئين بالحق وتعظيم الوحي ومنهاج النبوة، الله أسرع مِحَالاً بكم وهو يستدرجكم من حيث لا تشعرون.

وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: 12].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق معنىٰ الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأيت الله تعالى يُعطي العبد من الدنيا ما يحب، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 145)، ورواه الطبراني. انظر «تخريج الإحياء» (4/ 115) وحسنه الحافظ العراقي، ورواه البيهقي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414).

وفي رواية: ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته. وفي لفظ: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾][1].

قال قتادة: (بغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم. فلا تغتروا بالله).

الحديث الثالث: أخرج الطبراني ورجاله ثقات عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله][2].

قال أبو سليمان الداراني: (ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف فَسَد القلب).

الحديث الرابع: أخرج الشيخان من حديث زيد بن خالد الجهني أنه قال: [صلّىٰ لنا النبي ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثْر سَماءٍ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأمّا مَنْ قال: مُطِرنا بفضلِ الله ورَحْمتِهِ فذلك مؤمن بي كافرٌ بالكوكب، وأمّا مَنْ قال: بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافِرٌ بي ومؤمنٌ بالكوكب»][3].

وقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾. قال القرطبي: (يعني بالرسل الحَفظة).

وقال النسفي: (إعلام بأن ما تظنونه خافياً لا يخفىٰ على الله وهو منتقم منكم).

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾. أي: يُسَيِّرُكم في البر على الظَّهر، وفي البحر في الفلك، يحفظكم ويكلؤكم بحراسته.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾. أي: حتى إذا ركبتم في السفن وجرت في البحر بريح طيبة فرح لها ركبان الفلك واطمأن الناس في رحلتهم،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أبي موسىٰ. انظر مختصر صحيح مسلم (1831)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (492) لتفصيل البحث.

(2) إسناده صحيح. انظر تحقيق فتح المجيد (422) (424)، والمرجع السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (846) ـ كتاب الأذان ـ، وأخرجه مسلم في الصحيح (71)، وأبو داود في السنن (3906).

﴿ جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أي: شديدة مفاجئة. ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ ﴾. أي: عصف الموج بركبان السفينة من كل اتجاه ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ ﴾. أي: أيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق بمصيرهم، فهنالك أخلصوا لله الدعاء وأفردوه بالتعظيم لينجيهم.

وهو قوله: ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾. قال قتادة: (إذا مَسَّهم الضرُّ في البحر أخلصوا له الدعاء).

وقوله: ﴿ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾. أي: دعوا الله مخلصين له الدين، لئن كشفت عنا هذه الحال وكتبت لنا النجاة من أهوالها وظلماتها لنخلصن لك في الشكر والطاعة والعبادة.

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ﴾. أي: فلما خلّصهم وأنقذهم رجعوا إلى العمل بالفساد والمعاصي. قال القرطبي: (والبغي: الفساد والشرك، من بَغى الجرحُ إذا فسد، وأصله الطلب، أي يطلبون الاستعلاء بالفساد. ﴿ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ﴾ أي: بالتكذيب، ومنه بغت المرأةُ طلبت غير زوجها).

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾.

أي: إن اعتداءكم ـ أيها الناس ـ إنما هو على أنفسكم، وظلمكم يعود بالوبال عليها، وهذا البغي والتفلت إنما هو متاع الحياة الدنيا الفانية. قال سفيان بن عيينة: (أراد أن البغي متاع الحياة الدنيا، أي عقوبته تعجل لصاحبه في الدنيا).

قلت: وهذا الذي قاله سفيان منسجم مع الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ.

فقد أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من ذنب أحرىٰ أن يعجّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يُدَّخر له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي][1].

وقرأها ابن أبي إسحاق: ﴿متاعَ﴾ بالنصب على أنه مصدر، والتقدير: تتمتعون متاعَ الحياة الدنيا، أو بالنصب على الحال أو الظرفية. في حين قرأها الباقون ﴿متاعُ﴾ بالضم، أي هو متاع الحياة الدنيا، وكلاهما مشهور عند القراء.

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾. أي: إنما مآلكم ومصيركم في

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (67). وأخرجه الحاكم (2/ 356)، وأحمد (5/ 36)، وابن حبان (455)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد.

نهاية المطاف إلى الله سبحانه ، وهو مخبركم بجميع ما كنتم تعملون ثم مجازيكم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنّ إلا نفسه .

24 ـ 25 . **قوله تعالى** : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : تشبيهُ الله تعالى حقيقة هذه الحياة الزائلة بالماء أنزله من السماء فأنبت به النبات ، فاستهلكه الناس والدواب والأنعام. إنه إذا ظهر حسن الأرض وبهاؤها ، وظن أهلها بما أوتوا من علم التحكم بشؤونها والسيطرة على تقلباتها ، أنزل الجبار أمره فيها ، فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس عقاباً لأهلها ، ويفصل سبحانه هذه الآيات لقوم يتفكرون. وهو ـ تعالى ـ يدعو عباده إلى الجنة دار السلام ، والأمن والأمان ، ويهدي من يستحق إلى صراطه المستقيم.

فقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ ـ تمثيل لحقيقة حال هذه الحياة الفانية البالية. قال ابن كثير : (ضرب تعالى مثلاً لزهرةِ الحياة الدنيا وزينتها وسُرعَةِ انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء ، مما يأكلُ الناس من زَرْعٍ وثِمار ، على اختلاف أنواعها وأصنافِها ، وما تأكل الأنعام من أبّ وقَضْب وغير ذلك).

وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ .

إيذانٌ من الله تعالى بانهدام هذه الحضارة المادية الظالم أهلها ، الذين أفادوا منها في البغي والظلم ونشر الفساد في الأرض ، ولم ينتفعوا منها في إقامة العدل ورفع راية الحق ، بل فرحوا بما أوتوا من العلم وظنوا أنهم تمكنوا من السيطرة على تقلبات الظواهر الطبيعية والكونية ، فهنالك يأذن الله تعالى بوضع حدّ لهذا الكبر والغرور ، إذ

لا يليق الكبر إلا بالله العظيم ، فهو الجبار المتكبر وحده لا شريك له .

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ: 45].

2 ـ وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: 82 ـ 83].

3 ـ وقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 53].

ومن كنوز صحيح السنة ما يدل على آفاق هذا المعنى في اقتراب انقراض هذا البنيان المادي المهدّد من داخله بالدمار والخراب ، وعودة أساليب القوة إلى ما كانت عليه في كشف البطولات وكفاءات الرجال والأبطال:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوْماً صِغارَ الأعين ، عِرَاضَ الوجوه ، كأن أعيُنَهم حَدَقُ الجراد ، كأن وجوههم المِجانُّ المُطْرَقة ، ينتعلون الشَّعْرَ ، ويتخذون الدَّرْقَ ، حتىٰ يربطوا خيولهم بالنخل][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ذي مِخْبَر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ستصالحون الروم صلحاً آمناً ، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم ، فتُنْصَرون وتغنمون وتسلمون ثم ترجعون ، حتى تنزلوا بِمَرْج ذي تُلول ، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب ، فيقول: غَلَبَ الصليبُ ، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه فعند ذلك تغدرُ الروم ، وتجمع للملحمة. (زاد بعضهم: فيثور المسلمون إلى أسلحتهم ، فيقتتلون ، فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة)][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 31) ، وأخرجه ابن ماجة في السنن (4099) ، وإسناده جيد ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (1872) بإسناد صحيح على شرط مسلم. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2429).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4292) ـ (4293) ـ كتاب الملاحم ، باب ما يذكر من ملاحم الروم. وانظر صحيح أبي داود (3607) ـ (3608) ، وصحيح الجامع الصغير حديث رقم (3606).

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق(1)، فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خَلُّوا بيننا وبين الذين سَبَوْا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقْتَلُ ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلثُ لا يفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية، فبيناهم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيحَ قد خلفكم في أهليكم فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبيناهم يُعِدُّون للقتال يسوّون الصفوف، إذْ أُقيمت الصلاة، فينزل عيسىٰ بن مريم، فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لا نذاب حتىٰ يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حَرْبَتِه](2).

وفي رواية من طريق ابن مسعود في تفصيل أكبر للحدث: [فبيناهم كذلك إذا سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ: أن الدَّجال قد خلفهم في ذراريّهم، فيرفضون ـ أي يتركون ـ ما في أيديهم، ويقبلون فيبعثون عشر فوارسَ طليعة، قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ].

والخلاصـــة: حتى إذا ظهر حسن الأرض وبهاؤها وتزينت بوسائل البذخ والترف والشهوات بما يسخط الله تعالى، وظن أهلها أنهم قد أصبحوا متحكمين بنباتها وصناعتها وآلاتها وتقلباتها جاء أمر الله فجأة بهلاك ما عليها من الحرث وآلات المكر والخزي ووسائل الترف في المعصية والكفر، فأحالها محصودة مهجورة خاوية على عروشها، كأن لم تكن اكتست بالأمس بألوان الكساء وماديّات الحضارة وزخرفها.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. أي: نبيّنُها لقوم يعتبرون في حجج الله وآياته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قال قتادة: (الله هو السلام، وداره الجنة). وقال ابن كثير: (لما ذكر تعالى الدنيا

(1) موضع في بلاد الشام ـ من أعمال مدينة حلب.
(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (2029)، كتاب الفتن. وصحيح مسلم (8/ 177 ـ 178) ـ كتاب الفتن ـ باب: في قتال الروم وكثرة القتل عند خروج الدجال، للرواية بعده.

وسرعة زوالها ، رغَّبَ في الجنة ودعا إليها ، وسَمَّاها دارَ السلام ، أي من الآفات والنقائص والنكبات). وقال ابن جرير: (وهو يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم ، وهو الإسلام الذي جعله جل ثناؤه سبباً للوصول إلى رضاه ، وطريقاً لمن ركبه وسلك فيه إلى جِنانِهِ وكرامته).

26 ـ 27. قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27)﴾.

في هذه الآيات: إعلامٌ من الله تعالى أن ثواب الذين أحسنوا دخول جنات النعيم ، وزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم ، وبعد ذلك لا يغشىٰ وجوههم كآبة ولا حزن ، بل هم في السرور والملذات خالدون. وأمّا الذين ظلموا وكسبوا السيئات فيعتريهم خزي وهوان ، وظلمة في الوجوه وسواد ، ولا عاصم لهم من الله ، وهم في النار خالدون.

فقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾. أي: الجنة. قال ابن زيد: (الحسنى: الجنة). وتشمل ما فيها من القصور والحور والرضا عنهم والخلود في النعيم المقيم في بساتين عدن.

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾. هي النظر إلى وجه الرحمان تبارك وتعالى. قال قتادة: (وأما الزيادة ، فالنظر إلى وجه الرحمان). وهو مروي عن أبي بكر وحذيفة وابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن والسدي ومحمد بن إسحاق ، وجمهور كبير من أئمة السلف والخلف.

قلت: وقد ثبت ذلك أصلاً من خبر النبي ﷺ في سنته المطهرة.

ففي صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي لَيْلَىٰ ، عن صُهيب ، عن النبي ﷺ قال: [إذا دخل أهل الجنّةِ الجَنَّةَ ، قال يقول الله تبارك وتعالى: تُريدونَ شيئاً أزيدُكُم؟ فيقولون: أَلَمْ تُبيِّضْ وجوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلنا الجنة وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيكشِفُ الحجابَ ، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظرِ إلى ربهم عزَّ وجل][1]. وفي رواية:

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (181) ، والترمذي (2552) ، والنسائي في التفسير (254) ، وأخرجه أحمد (4/ 333) ، والطبري (17641) ، وابن حبان (7441).

[ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾]. وفي لفظ عند أحمد: [فيُكشَفُ الحجابُ، فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم].

وقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

القتر: الغبار، جمع قَتَرة، والذلة: الهوان. قال ابن عباس: (﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾، قال: سوادُ الوجوه). وقال عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: (﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، قال: بعد نظرهم إلى ربهم). والمقصود كما قال ابن جرير: (لا يغشىٰ وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى تصيرَ من الحُزن كأنما علاها قترٌ).

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. أي: هؤلاء الموصوفون بما ذُكر، هم سكان الجنة وأهلها، وهم ماكثون فيها أبداً لا يخافون زوال نعمة أو تنغيص لذة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾. قال ابن عباس: (تغشاهم ذلة وشدّة). قال القرطبي: (ومعنى هذه المِثلية أن ذلك الجزاء مما يعدّ مماثلاً لذنوبهم، أي هم غير مظلومين، وفعل الرب ـ جلت قدرته وتعالى شأنه ـ غير معلَّل بعلة).

والخلاصـــة: الجزاء لأهل السيئات بالمثل ويعتريهم هوان وخزي من هول ما ينتظرهم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: 45].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: 42 ـ 43].

وقوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾. أي: لا يحول بينهم وبين عقاب الله أحد.

قال النسفي: (أي لا يعصمهم أحد من سخطه وعقابه).

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾. قال ابن كثير: (إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة).

والقطع: جمع قطعة، قال قتادة: (﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾، قال: ظلمة من الليل).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: 106 ـ 107].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [عبس: 38 ـ 42].

ومن كنوز السنة الصحيحة:

أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذَّرِّ في صُور الرجال، يغشاهم الذُّل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جَهَنَّمَ يُسمىٰ بُولسَ، تعلوهم نار الأنيار، يُسْقَوْنَ من عُصارة أهل النار، طينة الخبال][1].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. أي: هؤلاء الموصوفون بما سبق، هم أهل النار الذين هم ماكثون فيها والعياذ بالله.

28 ـ 30. قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٣٠﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن يوم حشر الناس جميعاً في أرض المحشر، ثم أمْره الذين أشركوا لزوم أماكنهم وشركاءهم، فيقطع الله الأوصال التي كانت تربطهم، ثم يتبرأ الشركاء من عبادة شركائهم، والله شهيد على ما كانوا يكسبون. هنالك تُختبر

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2492). انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2025)، وصحيح الجامع (7896)، ورواه أحمد وقد مضى.

الأنفس بما صدر عنها ، وترجع الأمور إلى آمرها ، ويحيق بالمستهزئين ما كانوا يفترون .

فقوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ . أي : نجمعهم في أرض المحشر ، إنسهم وجنهم ، وبرّهم وفاجرهم ، ﴿جَمِيعًا﴾ . أي : فلا نغادر منهم أحداً. فهو في محل نصب حال .

وقوله : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ . قال ابن جرير : (أي : امكثوا مكانكم ، وقفوا في موضعكم ، أنتم ، أيها المشركون ، وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الآلهة والأوثان) .

وفي التنزيل : قال تعالى : ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات : 22 ـ 24] .

وقوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ . قال النسفي : (ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم والوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا) . وقال ابن جرير : (يقول : ففرّقنا بين المشركين بالله وما أشركوه به) .

وقوله : ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ . قال القاسمي : (إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا ، بل عن أمر الشيطان ، فكنتم عابديه بالحقيقة ، بطاعتكم إياه ، وعابدي ما اخترعتموه في أوهامكم من أباطيل فاسدة ، وأمانيّ كاذبة) .

وقال القرطبي : (وذلك أنهم ادعوا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنهم أمروهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتىٰ أمرتمونا) .

قلت : ولا مانع من قولهم ذلك تملصاً من أمرهم لهم بالعبادة ، وإنما يقولون اليوم ذلك كذباً واحتيالاً للخلاص ، عندما رأوا هول العذاب ، وهذا ينطبق على حال بعض الشياطين والطغاة .

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : 166 ـ 167] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 5 ـ 6] .

3 ـ وقال تعالى: ﴿ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: 82].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: 32 ـ 33].

وقوله تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾.

قال مجاهد: (يقول ذلك كل شيء كان يُعْبَدُ من دون الله).

قال ابن كثير: (وفي هذا تبكيتٌ عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، مِمّن لا يسمع ولا يُبصر، ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضيَ به ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء...).

وقوله: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ ﴾. قال مجاهد: (تختبر). وهناك قراءة أخرى مشهورة قرأها بعض أهل الكوفة والحجاز «تتلو» ـ قال ابن زيد: (تعاينه). وقيل بل معناه: تتبع كل نفس ما قدّمت في الدنيا لذلك اليوم، وقيل: بل المعنىٰ: يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدون فيتبعونهم حتى يوردوهم النار، وهذا المعنىٰ وارد في السنة الصحيحة:

أخرج عبد الله بن أحمد في «السنة» بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [... ثم ينادي مناد: أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل ناس ما كان يتولىٰ ويعبد في الدنيا؟ أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلىٰ فينطلقون، فيتمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون، فمنهم من ينطلق إلى الشمس، ومنهم من ينطلق إلى القمر، وإلى الأوثان، ويتمثل لمن كان يعبد عيسىٰ شيطان عيسىٰ، ولمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير..][1].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: مَنْ كان يعبدُ شيئاً فَلْيَتَّبِعْه، فيتَّبعُ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمسَ الشَّمسَ، ويتَّبعُ مَنْ يَعْبُدُ

(1) حديث صحيح. أخرجه بتمامه عبد الله بن أحمد في «السنة» ص (177). وانظر مختصر العلو ـ الذهبي ـ (69) ص (110). وأصله في الصحيحين، وانظر ما بعده.

القمرَ القمرَ ، وَيتَّبعُ مَنْ يَعْبُدُ الطواغيتَ الطواغيتَ . .] الحديث(1).

وقوله: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

أي: رجعت الأمور إلى آمرها العزيز الحكيم ، وصارت الأحوال في نهاية المطاف إلى الحكم العدل العلي العظيم ، بعدما دخلت في حالة التخيير والابتلاء ، فحصل ما حصل من كذب وافتراء ، وظلم وبغي واستهزاء ، فأدخل سبحانه أهل الجنة الجنة كرماً منه وفضلاً ، وأدخل أهل النار النار حكمة منه وعدلاً ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ـ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء وكذباً على الله ، وحاق بهم ما كانوا يعملون.

31 ـ 33. قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾.

في هذه الآيات: يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين: من الذي يرزقكم ويملك حماية أسماعكم وأبصاركم ويخرج الحي من الميت والميت من الحي وَيُصرِّف أمور هذا الكون؟! سيجيبوك: إنه الله. فقل لهم أفلا تتقون؟! ذلكم الله ربكم الحق وماذا يكون بمخالفة الحق إلا الوقوع في الباطل والضلال فأنىٰ تصرفون! إنه كذلك لزمت كلمة ربك الفاسقين أنهم يعاندون ولا يؤمنون ، عقاب الله لهم مقابل استكبارهم وإصرارهم على ما يعملون ويفسدون.

فقوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. أي: الغيث والقطر من السماء ، والشجر والنبت من الأرض. قال ابن جرير: (﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ـ يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: قل ، يا محمد ، لهؤلاء المشركين بالله الأوثان والأصنام ، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، الغيث والقطر ، ويطلع لكم شمسها ، ويُغْطِشُ ليلها ، ويخرج ضُحاها ، ومن الأرض ، أقواتكم وغذاءكم الذي ينبته لكم ، وثمار أشجارها).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (182) ـ كتاب الإيمان ـ باب معرفة طريق الرؤية.

وقوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾. قال النسفي: (أي: من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنىٰ شيء).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: 46].

2 ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: 23].

فَصِحَّةُ هذه الآلات من النعم الجليلة التي يغفل عنها كثير من الناس ولا يؤدون حق شكرها.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ][1].

وأخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [اغتنم خَمساً قبل خمس: حياتك قبلَ موتك، وصحتك قبل سقمكِ، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك][2].

وقوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. أي: يخرج الشيء الحيّ من الشيء الميت وبالعكس، كما سبق ذكره بآفاقه المختلفة، نحو النطفة من الإنسان، والبيضة من الطائر، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾. قال القاسمي: (أي ومن يلي تدبير أمر العالم كله، بيده ملكوت كل شيء، تعميم بعد تخصيص).

وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. أي: سيعترفون بأن كل الأمر والخلق لله، فقل لهم عند ذلك: أفلا تخافون غضبه وتتقون عقابه فتفردوه سبحانه بالطاعة والعبادة والتعظيم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6412)، والترمذي (2304)، وأخرجه ابن ماجة (4170).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس، وأخرجه أحمد في الزهد من طريق عمرو بن ميمون، وكذلك أبو نعيم في «الحلية». انظر صحيح الجامع الصغير (1088).

أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن أبي تميمة، عن رجل من قومه، أنه أتى رسول الله ﷺ، أو قال شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تدعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مَسَّكَ ضر فدعوته كشفَ عنكَ، والذي إن أضللت بأرض قفرٍ فدعوته ردّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][1].

وقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

أي: إن الذي أقررتم له بفعل ذلك كله هو الله ربكم وإلـٰهكم الحق، فأفردوه بالتعظيم فإنه لا يستحق ذلك غيره، وكل معبود سواه باطل. قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾، أي: فكيف تُصْرَفُون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الربُّ الذي خلقَ كُلَّ شيء، والمتصرّف في كل شيء؟!).

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: بسبب ما كان من إصرار المشركين على عبادة وتعظيم غير الله مع اعترافهم لله تعالى بالخلق والأمر، كان ما كتب الله في اللوح المحفوظ من استحقاق هؤلاء المشركين الشقاء في الدار الآخرة.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: 13].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: 71].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر: 31].

ولكن هذه الكتابة في اللوح المحفوظ هي كتابة علم لا كتابة جبر، فإن أهل الشقاء اختاروا سبيلهم ذلك بأعمالهم، كما اختار أهل السعادة سبيل سعادتهم بأعمالهم.

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله: [ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4084) انظر صحيح سنن أبي داود (3442)، كتاب اللباس، وانظر صحيح الجامع الصغير (242)، ورواه أحمد.

لعمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة ، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾][1] .

34 ـ 36. **قوله تعالى**: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ .

في هذه الآيات: أَمْرُ الله نبيّه متابعة الاحتجاج بقوارع الوحي على المشركين. قل لهم: هل يستطيع أحد من شركائكم بدء الخلق ثم إعادته؟! فالله القادر على ذلك وحده ، فأنى تؤفكون؟! ثم قل لهم: هل من شركائكم من يملك هداية القلوب وانشراح الصدور للحق؟! إنّ الله هو القادر على ذلك وحده ، أفيستحق العاجز أن يُعبد أم القادر؟ فكيف تحكمون؟! إنه ما يتبع أكثرهم ـ يا محمد ـ إلا الظن ، والظن لا يفيد صاحبه من الحق شيئاً ، والله عليم بما يفعلون.

فقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ . أي: ينشئه من العدم ، فيبدؤه من غير أصل «ثم يعيده» ـ قال ابن جرير: (يقول: ثم يفنيه بعد إنشائه ، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه). وهذا احتجاج بديع من الله تعالى على هؤلاء المشركين الذين خلقهم ويعبدون غيره ، وهو وحده القادر على بدء الخلق وإعادته. ومنه:

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ ـ قال الحسن: (أنى تصرفون).

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ ـ قال ابن كثير: (أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يَهدِي الحيارىٰ والضُّلَّال ويُقلب القلوب من الغيِّ إلى الرُّشد الله الذي لا إله إلا هو).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1362) ، (4948) ، (4949). وانظر مختصر صحيح مسلم (1844) ، باب: في القدر والشقاوة والسعادة.

وقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

قال ابن جرير: (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع، أم من لا يهتدي إلى شيء إلاّ أن يهدىٰ؟).

وقال النسفي: (أفمن يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي أي لا يهتدي بنفسه أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله. وقيل معناه: أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن يهدى إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حياً ناطقاً فيهديه ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد الله).

وقرأ عامة قراء المدينة «أمَّن لا يَهْدِّي» بتسكين الهاء وتشديد الدال، في حين قرأها بعض قراء مكة والشام والبصرة: «يَهَدِّي» بفتح الهاء وتشديد الدال، وقرأها بعض قراء الكوفة «يِهِدِّي» بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، وبعضهم قرأها «أمْ مَنْ لا يَهْدي».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

قال القرطبي: (﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ يريد الرؤساء منهم، أي ما يتبعون إلا حَدْساً وتخريصاً في أنها آلهة وأنها تشفع، ولا حجة معهم. وأما أتباعهم فيتبعونهم تقليداً. ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي من عذاب الله، فالحق هو الله. وقيل «الحق» هنا اليقين، أي ليس الظن كاليقين. وفي هذه الآية دليل على أنه لا يُكْتَفىٰ بالظن في العقائد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، خرجت مخرج التهديد).

37 ـ 40. قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تقرير من الله تعالى أن هذا الكتاب العظيم المعجز لا يقدر أحد

على معارضته بمثله ، وهو تصديق للكتب التي قبله ، وفيه بيان مجمل الأحكام ، وأمور الحلال والحرام ، من الله رب العالمين. فإن زعم المبطلون أنك افتريته ـ يا محمد ـ فاسألهم أن يخوضوا في محاولةِ مشابهة سورة منه ، وليستعينوا بمن شاؤوا لتحقيق ذلك إن كانوا صادقين. وإنما كذب المشركون بهذا القرآن تطاولاً وبغياً ولم يقدروا حقه ، شأن المكذبين الذين درجوا في الأمم عبر الزمان ، ودكهم الله بعذابه ، وأوعدهم في الآخرة أليم عقابه. إنه سيؤمن به بعضهم ويُصِدّ آخرون على الكفر به كما هو سابق في علم الله ، فهو سبحانه عليم بالمصلحين والمفسدين.

فقوله : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. قال ابن جرير : (يقول : ما ينبغي له أن يتخرّصه أحد من عند غير الله). وهذا بيانٌ من الله لإعجاز هذا الكتاب العظيم ، فإنه لا يقدر أحد أو يتجرأ على مشابهته في فصاحته وبلاغته وجوامع كلمه وحلاوة آياته وعذوبة معانيه.

وقوله : ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾. أي : من الكتب قبله التي أنزلها الله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله. ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. قال ابن كثير : (أي : وبيان الأحكام والحلال والحرام ، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مِرْيَةَ فيه من الله رب العالمين).

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. قال القاسمي : (أي إن كان الأمر كما تزعمون ، فأتوا على وجه الافتراء ، بسورة مثله في البلاغة ، وحسن الصياغة ، وقوة المعنى ، فأنتم مثل في العربية والفصاحة ، وأشد تمرناً في النظم ، ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي ادعو من دونه تعالى ، ما استطعتم من خلقه ، للاستعانة به على الإتيان بمثله ـ إن صدقتم في أني اختلقته ـ فإنه لا يقدر عليه أحد).

والآية في موضع التحدي الذي تدرج في مراتب ثلاث :

المرتبة الأولى : المجيء بنظير هذا القرآن جملة. قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : 88].

المرتبة الثانية : المجيء بعشر سور مثله. قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود : 13].

المرتبة الثالثة: المجيء بسورة واحدة. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23].

وهذه الآية هنا من سورة يونس هي في ذلك المقام الثالث من التحدي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾. أي: بل كذب المشركون بهذا القرآن جهلاً بحقه فما عرفوه وما فهموه ولم يدركوا آفاق ما فيه من الهدى والدين الحق كما فعل المكذبون من الأمم قبلهم فانظر يا محمد كيف كان مصير من كذّب وطغى وتعامل مع الوحي المنزل بالجهل والافتراء والهوى.

قال ابن جرير: (﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾، يقول: ولما يأتهم بعدُ بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعّدهم الله في هذا القرآن). وقال القاشاني: (تأويله: أي ظهور ما أشار إليه في مواعيده، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه، فلا يمكنهم التكذيب، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

قال القرطبي: (﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ قيل: المراد أهل مكة، أي ومنهم من يؤمن به في المستقبل وإن طال تكذيبه، لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من السعادة. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ والمعنى ومنهم من يُصر على كفره حتى يموت، كأبي طالب وأبي لهب ونحوهما. وقيل المراد أهل الكتاب. وقيل هو عام في جميع الكفار، وهو الصحيح. قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي من يُصرّ على كفره، وهذا تهديد لهم).

41 ـ 44. قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)﴾.

في هذه الآيات: خطاب الله تعالى لنبيه ﷺ مُسَلّياً: إن أصرَّ هؤلاء المشركون على

تكذيبك فقل لهم: لي عملي ولكم عملكم ، وكل سينال تبعة عمله. ومنهم من يستمعون إلى قولك ولكنهم لا يفقهون. ومنهم من ينظرون إليك ويقرؤون الصدق في وجهك ودلائل النبوة ، ولكن غلبهم العمى فهم لا يبصرون. إن الله لا يظلم أحداً: فمن استحق الهداية نوّر الله قلبه وبصيرته ، ومن استحق الخذلان أعمى الله قلبه وبصيرته ، فالناس هم أنفسهم يُسْعِدُون أو يظلمون.

فقوله: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾. أي: إن كذبك هؤلاء المشركون من قومك ويئست من إجابتهم ـ يا محمد ـ فتبرَّأ منهم ومن عملهم وقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم ، فلا يضرني عملكم ولا يضركم عملي ، ولكم دينكم ولي دين ، وهو قوله: ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

وفي التنزيل: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾. أي: ومن هؤلاء المشركين من يستمعون إلى قولك ولكنهم لا يفقهون ما تقول ولا يريدون. قال ابن جرير: (يقول: أفأنت تخلق لهم السمع ، ولو كانوا لا سمع لهم يعقلون به ، أم أنا؟. قال: وإنما هذا إعلامٌ من الله عبادَه أن التوفيق للإيمان به بيده لا إلى أحد سواه. يقول لنبيه محمد ﷺ: كما أنك لا تقدر أن تسمع ، يا محمد ، من سلبته السمع ، فكذلك لا تقدر أن تفهم أمري ونهيي قلباً سلبته فهم ذلك ، لأني ختمتُ عليه أنه لا يؤمن).

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

قال النسفي: (ومنهم ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون. أتحسب أنك تقدر على هداية الأعمى ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة ، لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدث ، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء ، يعني أنهم في اليأس من أن يقلبوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر).

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [تُعرض الفِتنُ كالحصير عوداً عوداً ، فأي قَلبٍ أُشْرِبَها نُكت فيه نكتةٌ سوداء ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاء ، حتى يصيرَ على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسودُ مُرْباداً كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرف

معروفاً ولا يُنْكر منكراً ، إلا ما أشربَ من هواه][1] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . قال ابن كثير: (أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً ، وإن كان قد هدى به من هدى وبَصَّرَ به من العمى ، وفتحَ به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً ، وأضلَّ به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء ، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، لعلمه وحكمته وعَدْلِه).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عزَّ وجل: [يا عبادي ، إني حَرَّمت الظلم على نفسي ، وجعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تظالموا. . . ـ إلى أن قال ـ يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه][2] .

45 ـ 47. **قوله تعالى**: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالى عن إقرار الناس يوم الحشر أنهم ما لبثوا في هذه الحياة الدنيا إلا ساعة من نهار يتعارفون بينهم ، لقد خسر يومئذ المكذبون وما كانوا راشدين. فإما نرينك ـ يا محمد ـ في حياتك خزي هؤلاء المشركين أو توفيناك قبل ذلك فإن مرجعهم إلينا والله شهيد على ما يفعلون. إنه ستعرض كل أمة على الله بحضرة رسولها والفصل يومئذ بالعدل وهم لا يظلمون.

فقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ . أي: ما لبثوا في دنياهم إلا قدر ساعة. قال ابن عباس: (رأوا أن طول أعمارهم في مقابلة الخلود كساعة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (1/ 89 ـ 90). وانظر مختصر صحيح مسلم (1990) كتاب الفتن. باب: عرض الفتن على القلوب ونكتها فيها.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2577) ، وأحمد في المسند (5/ 160) ، والترمذي في الجامع (2495) ، وابن ماجة في السنن (4257).

وقال القرطبي: (يعني أنهم استقصروا طول مقامهم في القبور لهول ما يرون من البعث، دليله قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: 19]. وقيل: إنما قصرت مُدّة لبثهم في الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم في القبر). قلت: وصرفها إلى مدة لبثهم في الدنيا أرجَح.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ [الأحقاف: 35].

2 ـ وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: 102 ـ 104].

4 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: 55].

وقوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المشركين فنجمعهم في موقف الحساب، كأنهم كانوا قبل ذلك لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون فيما بينهم، ثم انقطعت المعرفة، وانقضت تلك الساعة).

2 ـ وقال ابن كثير: (وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرفُ الأبناءُ والآباءُ والقراباتُ بعضهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا، ولكن كُلٌّ مشغولٌ بنفسه، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا﴾ [المعارج: 10 ـ 15]).

3 ـ وقيل: وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح، ويقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر، وليس تعارف شفقة ورأفة وعطف. ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة كما قال: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: 10].
وقيل: يبقى تعارف التوبيخ، قال القرطبي: (وهو الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سبأ: 33]. وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38]، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا

سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: 67] الآية. قال: فأمّا قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: 101] فمعناه لا يسأله سؤال رحمة وشفقة، والله أعلم. قال: وقيل: القيامة مواطن. وقيل: معنى ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يتساءلون، أي يتساءلون كم لبثتم، كما قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: 27]، وهذا حسن).

قلت: وكل ما سبق بيانه من آفاق معنى قوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾. أي: قد خسر هؤلاء المجرمون والمشركون والمكذبون أنفسهم وأهليهم، وفُرِّقَ بينهم وبين أحبتهم يوم القيامة، إذ أصروا على الكفر بلقاء الله وما كانوا بذلك مصيبين رشدهم.

وقوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾. قال مجاهد: (﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل، ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾).

أي: يقول تعالى: إن أريناك ـ يا محمد ـ في حياتك بعض ما نعد هؤلاء المشركين من قومك من الخزي والعذاب أو توفيناك قبل ذلك فإن مآلهم لا محالة إلينا. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ـ أي هو سبحانه شاهد على أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا ولا يخفى عليه منها شيء، والميزان سيزن تلك الأعمال ليروا مصيرهم بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. قال مجاهد: (﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، قال: بالعدل). قال ابن كثير: (فكلّ أمة تُعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشَرٍّ موضوع شاهدٌ عليهم، وحَفَظتهم من الملائكة شهودٌ أيضاً، أمة بعد أمة، وهذه الأمةُ الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أولُ الأمم يوم القيامة يُفْصَلُ بينهم، ويُقضى لهم. كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضيُّ لهم قبل الخلائق». فأمته إنما حازت قَصَب السَّبْقِ لشرفِ رسولها، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين).

قلت: بل أمة محمد ﷺ هي الشاهدة للرسل بالبلاغ حين يكذب الأقوام رسلهم في أرض المحشر، ثم يقبل الله شهادة هذه الأمة ويعذِر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم في بلاغهم أقوامهم ـ وهو أعلم بهم ـ ويقضي بينهم وبين أممهم بالقسط وهو لا يظلمون.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

[يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبيّ ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيُقال له : هل بلغت قومك؟ فيقول : نعم ، فيُدعى قومه ، فيقال لهم : هل بَلَّغكُم هذا؟ فيقولون : لا ، فيقال له : من يشهدُ لك ، فيقول : محمدٌ وأمته ، فيُدعى محمدٌ وأمتُه ، فيقالُ لهم : هل بَلَّغَ هذا قومه؟ فيقولون : نعم ، فيُقال : وما عِلْمُكُم بذلك؟فيقولون : جاءَنا نبيُّنا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا فصدَّقناه ، فذلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143]] ورواه البخاري[1] .

48 ـ 54. **قوله تعالى :** ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إخْبَارٌ من الله تعالى عن استعجال المشركين العقوبة أو الساعة بكثرة سؤالهم عنها ، فقل لهم يا محمد : إني لا أملك جلب النفع لنفسي أو دفع الضر عنها فكيف أملك جلب العذاب لكم ، إنه لكل أمة أجل محدد لا يتجاوزونه ساعة بزيادة أو نقصان . ثم قل لهم : ماذا لو نزل بكم العذاب ليلاً أو نهاراً هل تقدرون على دفعه؟ أم هو مجرد اليقين بحدوثه! ثم يعقبه الهلاك فالخلود في النار . إنهم يستخبرونك ـ يا محمد ـ أحق نبأ المعاد وبعث الأجساد لمشهد الحساب؟ فَأَقْسِمْ لهم بقولك : إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين . يوم تتمنى كل نفس ظلمت لو افتدت بجميع ما في الأرض من سوء العذاب ، ولكن هيهات ، فلا ينفع يومئذ أعظم الفداء ، وإنما هو حصاد الأعمال ، والندامة عند رؤية العذاب ، والقصاص بالحق وهم لا يظلمون .

---

(1) حديث صحيح . رواه أحمد والبخاري من حديث أبي سعيد . انظر صحيح البخاري (6/ 286) ، ومسند أحمد (2/ 32) ، وصحيح الجامع (7889) .

فقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ . قال ابن جرير: (ويقول هؤلاء المشركون من قومك ، يا محمد ، ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ ، الذي تعدنا أنه يأتينا من عند الله ، وذلك قيام الساعة). وقال النسفي: (أي وعد العذاب ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أن العذاب نازل ، وهو خطاب منهم للنبي والمؤمنين).

وقوله: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ . أي: قل ـ يا محمد ـ لمستعجليك هذا العذاب أو الوعيد ، أنا لا أملك لنفسي ولا أقدر لها على ضر أو نفع في دين أو دنيا إلا بإذن الله. قال القاسمي: (﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي مع أن ذلك أقرب حصولاً ، فكيف أملك لكم حتى أستعجل في جلب العذاب لكم ، وتقديم الضر).

وقوله: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ . قال النسفي: (لكل أمة وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح ، فإذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلوا).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المتنطعين المستكبرين من قومك: أخبروني ما الذي يستعجله المجرمون من نزول العذاب بهم ، وهو واقع معلوم زمانه وهيئته في علم الله ، ثم هم لا يقدرون دفعه إن نزل بهم ليلاً أو نهاراً ، بل يصبحون أسارى ذلك الخزي والعقاب.

وقوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

يعني: أنهم حين ينزل العذاب بهم يصدقون ما كانوا أنكروا من قبل ولكن هيهات فقد أخروا ذلك إلى حين لا ينفع التصديق ، وإلى وقت فات قطار النجاة. قال القرطبي: (﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير: أتأمنون أن ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل: آلآن آمنتم به؟ قيل: هو من قول الملائكة استهزاء بهم. وقيل: هو من قول الله تعالى ، ودخلت ألف الاستفهام على ﴿ثم﴾ والمعنى: التقرير والتوبيخ). واختار ابن جرير معنى ﴿ أَثُمَّ ﴾ أهنالك. وأما ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ فقيل: أصل فعل مبنيّ مثل حان ، والألف واللام لتحويله إلى الاسم. قال الخليل: (بنيت لالتقاء الساكنين ، والألف واللام للعهد والإشارة إلى الوقت ، وهو حدّ الزمانين).

والخلاصة: إن المشركين المنكرين النبوة والوحي ولقاء الله يوم البعث إذا عاينوا

المشهد في الحشر وأهوال ذلك اليوم وأبصروا جهنم اضطرهم ذلك للإيمان بعد كفر طويل، ولكن حين لا ينفع الإيمان.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: 84 ـ 85].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12].

ومن السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [يقول الله تبارك وتعالى لأهونِ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مُفْتَدِياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أَرَدْتُ منك أهونَ مِنْ هذا وأنت في صُلب آدم: أن لا تُشْرك ولا أدخِلَكَ النار، فأبيتَ إلا الشرك][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: [يُقال للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك مِلءُ الأرض ذهباً، أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيُقال له: قَدْ سُئِلْتَ أَيْسَرَ من ذلك][2].

وفي رواية: [فيُقال له: كَذَبْتَ، قَدْ سُئِلتَ ما هوَ أيسرُ من ذلك].

الحديث الثالث: أخرج البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترَةٌ وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تُخْزِيَني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟! فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين] الحديث[3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2805) ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً. وأخرجه البخاري (3334) نحوه ـ كتاب أحاديث الأنبياء، و(6557) ـ كتاب الرقاق.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2805) (52) (53) ـ كتاب صفات المنافقين ـ الباب السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري ـ كتاب الأنبياء ـ انظر مختصر صحيح البخاري (1344).

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي: ثم يقال للظالمين يوم القيامة بعد أن عرفوا مصيرهم المؤلم ـ ذوقوا عذاب الخلد ـ يقال ذلك تقريعاً لهم وتبكيتاً، فإنما تنالون ما قدمتم لأنفسكم وما كسبتم بأيديكم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: 13 ـ 16].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: 37].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادى: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، فيؤمر به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت](1).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

أي: ويستخبرونك ـ يا محمد ـ في شأن المعاد وبعث الأجساد من القبور والقيام لموقف الحساب أهو حق فعلاً؟ فأقسم لهم بقولك: ﴿ إِى وَرَبِّىٓ ﴾ إن بعثكم حق والحِسَاب حق، والنار حق، والجنة حق، وليس صيرورتكم تراباً بمعجز لله عن إعادتكم كما خلقكم أول مرة، فإنما أمره لشيء إذا أراده أن يقول له كن فيكون. قال ابن كثير: (وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد، في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: 3]. وفي التغابن: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: 7]).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 153)، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2149)، وصحيح الجامع (536) ـ ورواه البخاري.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: إن كل كافر حق عليه العذاب يتمنى لو افتدى من عذاب جهنم بملء الأرض ذهباً ولكن لا حيلة له إلى ذلك، فإن الله تعالى لا يحابي أحداً من خلقه، وإنما ستملأ الندامة صدور المشركين حين يرون العذاب يوم القيامة، ولا يُظلم أحدٌ يومئذ شيئاً.
قال ابن جرير: (﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ يقول: وقضى الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وذلك أنه لا يعاقب أحداً منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحد، ولا يعذِّب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وتابع عليه الحجج).

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: 37].

2 ـ وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 106 ـ 108].

ومن السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليُمْلي للظالم، فإذا أخذه لم يُفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [أعذر الله إلى امرئٍ أخَّر أجله حتى بلغ ستين سنة][2].

الحديث الثالث: أخرج الحاكم من حديث سهل بن سعد مرفوعاً: [من عَمَّرَ من أمتي سبعين سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 19). وانظر مختصر صحيح مسلم (1831).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 200 ـ فتح)، وأحمد (2/ 275)، وأخرجه الحاكم (2/ 427) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 428) ـ وقال صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأقره الألباني في السلسلة الصحيحة (1089). وانظر مسند أحمد (2/ 417).

وفي لفظ آخر: [إذا بلغ العبد ـ أو قال: إذا عمر العبد ـ ستين سنة، فقد أبلغ الله إليه، وأعذر الله إليه في العمر].

55 ـ 58. **قوله تعالى**: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات الملك جميعه لله، ويوم الحشر بعض ذلك، ووعد الله نافذ في المشركين. فإنه تعالى يحيي ويميت وإليه المصير. يا أيها الناس قد جاءكم زاجر من ربكم وقوارع من الوحي، فيه شفاء للصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين. فليفرح القوم بهذا القرآن العظيم، وهذا الشرع الكريم، هو خير مما يجمعون.

فقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾. أي: له ملك كل شيء فلا سبيل للكافرين من فداء للنجاة من لقاء الله وعذابه. ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: إن العذاب الذي أوعده الله المشركين على كفرهم واقع بهم لا محالة، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقة وقوع ذلك بهم، فهم في جهلهم يترددون، ولأجل ذلك يُكذبون.

وقوله: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. قال النسفي: (هو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وإلى حسابه وجزائه المرجع فيخاف ويرجى).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. قال ابن كثير: (﴿مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: من الشُّبَهِ والشكوك، وهو إزالةُ ما فيها من رجس ودَنَس). وقال القاسمي: (﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: القلوب من أمراضها، كالشك والنفاق، والغل والغش، وأمثال ذلك، بتعليم الحقائق، والحكم الموجبة لليقين، وتصفيتها بقبول المعارف، والتنوّر بنور التوحيد، ﴿وَهُدٗى﴾ أي: لنفوسكم من الضلالة، ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لمن آمن به، بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

ذهب المفسرون إلى أن فضل الله ورحمته هو القرآن والإسلام، أو الإسلام والقرآن، فإن القرآن وانتساب المرء إلى أهله هو خير من كل ما يحرص عليه الناس في هذه الحياة الدنيا من الأموال والذهب والفضة.

1 ـ قال قتادة: (أما فضله فالإسلام، وأما رحمته فالقرآن). وقال مجاهد: (﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، قال: القرآن).

2 ـ قال هلال بن يساف: (﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾، قال: بالإسلام الذي هداكم، وبالقرآن الذي علّمكم). وعنه قال: (﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، قال: بالإسلام والقرآن، ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، من الذهب والفضة).

3 ـ قال ابن عباس: (﴿ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾، القرآن، ﴿ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، حين جعلهم من أهل القرآن).

قلت: فإذا كان يوم القيامة فرحَ صاحب القرآن بتكريمه أمام الخلق وبتتويجه. وفي ذلك أحاديث من صحيح السنة العطرة:

الحديث الأول: أخرج الترمذي والحاكم بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب حَلِّه، فَيُلْبَسُ تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده، فيلبَسُ حُلَّةَ الكرامة، ثم يقول: يا رب ارضَ عنه فيرضى عنه فيقول: اقرأ وارق ويُزاد بكل آية حسنة][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (3088) ـ كتاب (أبواب فضائل القرآن). انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2328).

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2095) ـ كتاب فضائل القرآن.

رسول الله ﷺ: [الماهر بالقرآن مع السَّفَرَةِ الكرام البَرَرَة ، والذي يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه وهو عليه شاق له أجران][1].

59 ـ 61. **قوله تعالى**: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾.

في هذه الآيات: ذَمُّ الله تعالى المشركين الذين يتجرؤون على الله بالتحليل والتحريم دون علم ، بل يفترون الكذب ويمضون خلف أهوائهم ، فما ظنهم إذا وقفوا بين يدي ربهم يوم القيامة؟! إنّ الله لذو تفضل على خلقه بتأجيل معاقبتهم ، وأكثر الناس لا يشكرون. إنه ما تكون ـ يا محمد ـ في حال أو عمل أو تلاوة للقرآن ـ وكذلك أنتم أيها الناس ـ فإنكم لا تعلمون شيئاً إلا والله مطلع عليه وعلى جميع شؤونكم ، فلا يغيب عنه ـ جَلت عظمته ـ دقائق أعمالكم ، بل كل صغير وكبير مسطر في اللوح المحفوظ.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾. فيه أقوال متقاربة متكاملة.

1 ـ قال ابن عباس: (﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ قال: الحرث والأنعام). وقال مجاهد: (البحائر والسُّيَّب). أو قال: (في البحيرة والسائبة).

2 ـ وقال قتادة: (يقول: كل رزق لم أحرِّم حَرَّمْتُموه على أنفسكم من نسائكم وأموالكم وأولادكم ، آلله أذن لكم فيما حرمتم من ذلك ، أم على الله تفترون).

3 ـ وعن ابن عباس: (﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ قال: هم أهل الشرك).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2/ 195) ، كتاب فضائل القرآن. انظر مختصر صحيح مسلم (2105) ـ باب: في الماهر بالقرآن والذي يشتد عليه. وقوله: «يَتَتَعْتَع» أي يتردد في تلاوته لضعف حفظه أو ثقل لسانه «له أجران» أحدهما بالقراءة ، والآخر بالمشقة الحاصلة عليه من التردد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. أي: ما ظن الذين يتجرؤون على الله بالتحليل والتحريم دون علم، بل يفترون الكذب ويمضون حسب أهوائهم يَضلون! هل يظنون أنهم يفلتون من عقاب الله وغضبه؟. قال ابن جرير: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يقول: إن الله لذو تفضُّل على خلقه، بتركه معاجلة من افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا، وإمهاله إياه إلى وروده عليه في القيامة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، يقول: ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على تفضّله عليهم بذلك، وبغيره من سائر نعمه).

وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾. أي: وما تكون ـ يا محمد ـ في حال أو عمل أو في قراءة من كتاب الله، أو أنتم كذلك ـ أيها الناس ـ فإنكم لا تعملون من عمل إلا وأنتم تحت مراقبة الله فهو ينظر سبحانه إلى أعمالكم ويشهد شؤونكم. قال ابن عباس: (﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ يقول: إذ تفعلون).

وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

خَبَرٌ من الله تعالى عن نفسه أنه شاهد لصغائر ودقائق أعمال عباده وما يجري في ملكه فقد علم كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ.

وفي لغة العرب: عَزَبَ فلان عن أهله إذا بَعُدَ وغاب. والمقصود أن الله تعالى لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، بل يعلم سبحانه السر وأخفى.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6].

2 ـ وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

وفي صفحات السنة الصحيحة من آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كتبَ الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقَ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال: وعرشُهُ على الماء][1].

الحديث الثاني: أخرج الطبراني في (الكبير) بسند جيد عن أبي الدرداء ـ حين حضرته الوفاة قال: أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: [اعبُد الله كأنك تراهُ ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراكَ ، واعدُدْ نفسك في الموتى ، وإياك ودعوةَ المظلوم فإنها تُستجابُ ، ومن استطاعَ منكم أن يشهدَ الصلاتين العِشاء والصبحَ ولو حَبْواً فليفعل][2].

وتقدّم في الصحيح حديث جبريل: [الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني في «الكبير» بسند حسن في الشواهد عن أبي سلمة قال: قال معاذ: قلت: يا رسول الله أوصني ، قال: [اعبُد الله كأنك تراه ، واعدُدْ نفسك في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر ، وعند كل شجر ، وإذا عملت سيئة بجنبها حسنةٌ ، السِّرُ بالسِّر ، والعلانية بالعلانية][3].

62 ـ 64. قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تأكيدٌ من الله تعالى على حفظه أولياءه وحمايته لهم وإزاحة الخوف

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2653) ـ كتاب القدر ـ باب حجاج آدم وموسىٰ صلى الله عليهما وسلم.

(2) حسن لشواهده. أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (19/ 153/ 2) ، والطبراني في «الكبير» كما ذكر الهيثمي في «المجمع» (2/ 40) ، وله شاهد عند أبي نعيم (8/ 202) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1474).

(3) حسن لشواهده. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (مجمع الزوائد: 4/ 218) بإسناد حسن في الشواهد من حديث معاذ رضي الله عنه ، وانظر المرجع السابق (1475).

والحزن عنهم. وإخباره تعالى عن ركني الولاية: الإيمان والتقوى. فالأولياء الصالحون لهم بشائر الظفر في الدنيا والسعادة في الآخرة، وعداً عليه تعالى حقاً، وذلك الفوز العظيم.

فقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إن أنصار الله مطمئنون في الدنيا آمنون في الآخرة، فلا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، ولا هم يفزعون في الآخرة إذ آمَنَهُم سبحانه من عقابه. والأولياء جمع «ولي»، وهو النصير. قال الرازي: (الوِلاَية بالفتح والكسر النُّصرة). وقال سيبويه: («الوَلاية» بالفتح المصدر وبالكسر الاسم).

وأركان الولاية بنص الآية: 1 ـ الإيمان. 2 ـ التقوى. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. فكل من جمع بين هذين الركنين: الإيمان والتقوى كان ولياً من أولياء الله تعالى، ولو كان مجهولاً لكثير من الناس أو أشعث أغبر لا يُهتم به.

ومن أقوال المفسرين في وصف أولياء الله تعالى:

1ـ قال ابن عباس: (الذين يذكر الله لرؤيتهم).

2 ـ قال أبو الضحا: (من الناس مفاتيح، إذا رؤوا ذُكِرَ الله لرؤيتهم).

3 ـ قال ابن زيد: (﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، من هم يا ربّ؟ قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ قال أبيّ: لن يُتَقَبَّلَ الإيمان إلا بالتقوى).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر صفات هؤلاء الأولياء ونعوتهم التي تميزوا بها في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن جرير: أن عمر بن الخطاب قال: قال النبي ﷺ: [إنّ من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء، ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يومَ القيامة بمكانهم من الله تعالى. قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور: لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن

الناس ، وقرأ هذه الآية : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾][1] .

الحديث الثاني: أخرج أبو نعيم والطبراني ورجاله ثقات عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً: [أولياء الله تعالى الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى][2] .

وفي لفظ : (أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [يأتي من أفناءِ الناسِ ونوازع القبائل قومٌ لم تتصل بينهم أرحامٌ متقاربة ، تحابُّوا في الله ، وتَصَافُّوا في الله ، يَصنَعُ اللَّهُ لهم يوم القيامة منابرَ من نور ، فَيُجلِسُهم عليها ، يفزع الناس ولا يفزعون ، وهم أولياء الله ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون][3] .

وقوله : ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة :

1 ـ قال الحسن : (هي ما يبشرهم الله تعالى في كتابه من جنته وكريم ثوابه) .

2 ـ وقال قتادة : (هي البشارة التي تبشّر بها الملائكة المؤمنَ في الدنيا عند الموت) .

3 ـ وقيل : إذا خرجت الروح بُشِّرت بِرِضْوانِ الله . وقوله : ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بالجنة إذا خرجوا من قبورهم .

4 ـ وقيل : بل البشرى هي الثناء الحسن والذكر العطر بين الناس .

5 ـ وقيل : بل البشرى هي الرؤيا الصالحَة يراها المسلم أو تُرى له .

قلت : وكل ما سبق داخل في مفهوم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه المعاني العطرة في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [إذا اقْتَرَبَ الزمانُ لم تَكَدْ رؤيا المسلم تَكْذِبُ ، وأصْدَقُكم رؤيا أصدقكم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزءٌ من خمسةٍ وأربعين جزءاً من النبوة ، والرؤيا ثلاث : فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورُؤيا تحزينٌ من الشيطان ، ورؤيا مما يُحَدِّثُ المرءُ نفسَهُ ، فإن رأى

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (3527) ـ كتاب الإجازة ـ باب في الرهن . وانظر صحيح سنن أبي داود (3012) ، وأخرجه الطبري (17729) ، ورجاله ثقات .

(2) صحيح لشواهده . أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (1/ 231) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (12325) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1733) .

(3) حديث حسن . أخرجه أحمد (5/ 343) ، والطبري (17730) ، وله شواهد .

أحدكم ما يَكْرَهُ ، فليَقُمْ فَلْيُصَلِّ ، ولا يحدِّثْ بها الناس][1] .

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وابن ماجة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة][2] .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة في السنن بسند صحيح عن عبادة بن الصامت قال: [سألت رسول الله ﷺ ، عن قول الله سبحانه: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ . قال: هي الرؤيا الصالحة ، يراها المسلم ، أو تُرى له][3] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: [كشف رسول الله ﷺ السِّتارة ، والناسُ صفوفٌ خلف أبي بكر فقال: أيها الناسُ! إنه لم يَبْقَ من مُبَشِّراتِ النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له . .] الحديث[4] .

الحديث الخامس: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الرسالةَ والنُبوَّةَ قد انقطعت ، فلا رسولَ بعدي ، ولا نبيَّ . قال: فشقَّ ذلك على الناس فقال: لكن المُبَشِّرات . فقالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: رؤيا المسلم وهي من أجزاء النبوة][5] .

الحديث السادس: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال: [رؤيا الرجل المسلم الصالح ، جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوة][6] .

وفي الباب عن أم كرز الكعبية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ذهبت النبوة وبقيت المبشِّراتُ] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2263) ـ كتاب الرؤيا ـ باب في كون الرؤيا من الله وأنها جزء من النبوة .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6983) ، وانظر صحيح مسلم (2264) ، وأخرجه ابن ماجة (3893) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (3898) ـ كتاب تعبير الرؤيا ـ باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرىٰ له . وانظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3146) .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (479) ـ كتاب الصلاة ـ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود .

(5) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2388) ـ أبواب الرؤيا ـ باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات . وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1853) . وقال الألباني: صحيح الإسناد .

(6) حديث صحيح . انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3143) ، (3144) ـ كتاب تعبير الرؤيا .

الحديث السابع: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي ذر أنه قال: يا رسول الله ، الرجلُ يعملُ العملَ فيحمده الناسُ عليه ، ويثنونَ عليه به ، فقال رسول الله ﷺ: [تلك عاجلُ بشرى المؤمن][(1)].

الحديث الثامن: أخرج الإمام أحمد من حديث البراء: [إن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيضُ الوجوه ، بيضُ الثياب ، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيّبة إلى رَوْحٍ وريْحان ، وربٍّ غير غضبان ، فتخرجُ من فَمِهِ ، كما تسيل القطرةُ من فَمِ السِّقاء][(2)].

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 ـ 32].

2 ـ وقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103].

3 ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: 12].

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. أي: هذا الوعد بالبشرى ، بكل ألوانها وأشكالها في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا يغيّره شيء ، فإن الله لا يخلف الميعاد ، وهذا أعظم الفوز وأكبر الظفر.

65 ـ 67. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 156) ، وانظر صحيح مسلم (2642) ، وسنن ابن ماجة (4225) ، وصحيح ابن حبان (366) ـ بإسناد صحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287) ، والحاكم (1/ 37) ، وعبد الرزاق (6737) ، وغيرهم.

يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

في هذه الآيات: تسلية الله تعالى نبيّه ﷺ عما يلقاه من أذى قومه: لا يحزنك ـ يا محمد ـ قول هؤلاء المشركين، فالعزة لله وهو السميع العليم. له ما في السماوات وما في الأرض، والمشركون تائهون في شركهم مغرورون كاذبون. إن الله تعالى هو الذي يقلب الليل والنهار، فجعل الليل سكناً مظلماً تسكنون فيه، والنهار مبصراً مضيئاً تعملون فيه، إن في ذلك لآيات كبيرة لقوم يسمعون فيتعظون، ويعلمون حق الله عليهم في وجوب إفراده تعالى بالعبادة والتعظيم.

فقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. أي: لا يحزنك ـ يا محمد ـ قول هؤلاء المشركين في ربهم وإشراكهم في عبادته الأوثان والطواغيت، فإن العزة لله جميعاً. كما قال ابن جرير: (فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحد، لأنه لا يُعَازُّه شيء).

وقوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. أي: السميع لأقوال عباده العليم بأعمالهم وأحوالهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

إِخْبارٌ بأن الملك كله في هذا الكون لله، وإليه يرجع الأمر كله، فهو المثيب والمعاقب، وإنما يعظم المشركون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ويمضون بذلك التيه والضلال وراء أوهامهم وتخرّصهم وكذبهم وإفكهم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

قال النسفي: (أي جعل لكم الليل مظلماً لتستريحوا فيه من تعب التردد في النهار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئاً لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم). وقال ابن كثير:

(﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ، أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدّرها ومسيِّرها).

68 ـ 70. قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾

في هذه الآيات: إِخْبَارُ الله تعالى عن تجرؤ المشركين على انتقاص صفات الله ، فهم يدعون له الولد ، والله تعالى هو الغني الملك له سلطان السماوات والأرض ، والذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. إنما هو متاع قليل في الدنيا ثُمَّ مرجعهم إلى الله ، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يشركون.

فقوله: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾.

قال القاسمي: (تنزيه له عن أن يجانس أحداً ، أو يحتاج إليه ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء ، ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي الذي وجوده بذاته ، وبه وجود كل شيء ، فكيف يماثله شيء؟ ومَنْ له الوجود كله ، فكيف يجانسه شيء ، والجملة علة لتنزيهه ، وإيذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إما للتقوي به ، أو لبقاء نوعه ، ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقرير لغناه ، أي فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً).

وقوله: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ ـ المراد تجهيلهم ، وأنه لا دليل على ادعائهم إلا تقليد الأوائل ، واتباع جاهل لجاهل ، وأما البرهان الساطع فهو في حجج الله ووحيه العظيم ، وهو ينقض دعواهم ويبطل منهجهم ويكشف باطلهم ، ولذلك قال سبحانه: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وفي التنزيل: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (88) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (93) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: 88 ـ 95].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

أي: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الذين يفترون على الله الباطل ويتطاولون بانتقاص جلال صفاته وكمالها، فيدعون له ولداً، لن تفلحوا في طريقتكم بل إنكم تمتعون أيام حياتكم الدنيا، ثم تردون إلى أشد العذاب بما كنتم تكفرون.

قال ابن جرير: (﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾، يقول: لا يَبْقَوْن في الدنيا، ولكن لهم متاع في الدنيا يمتعون به، وبلاغ يتبلغون به إلى الأجل الذي كُتِبَ فناؤهم فيه، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، يقول: ثم إذا انقضى أجلهم الذي كتب لهم، إلينا مصيرهم ومنقلبهم، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾، وذلك إصلاؤهم جهنم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بالله في الدنيا، فيكذبون رسله، ويجحدون آياته).

71 ـ 73. قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى نبيّه ﷺ أن يقصص على كفار مكة نبأ نوح ﷺ مع قومه، إذ تحدّى قومه الذين استكبروا عن وعظه لهم بحجج الله البالغة أن يفعلوا ما بوسعهم فهو متوكل على ربه، ولا يريد منهم أجراً، بل كان هو أول المسلمين. فلما أصروا على عنادهم وتكذيبهم أغرقهم الله ونجّى نوحاً ومن معه من المؤمنين، فجعلهم خلائف في الأرض من بعدهم وساء عاقبة المنذرين.

فقوله: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾. أي: أخبرهم ـ يا محمد ـ واقصص على كفار مكة الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك خبر نوح عليه الصلاة والسلام ـ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إن كان عظُمَ عليكم مقامي بين أظهركم وشق عليكم ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يقول: ووعظي إياكم بحجج الله، وتنبيهي إياكم على ذلك).

وقوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾. أي: إن عزمتم على طردي أو قتلي أو التخلص مني فإني لا أبالي بما تبيتون من مكر، فعلى الله اتكالي، وبه ثقتي، وهو سندي ومعيني.

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾. قال الأعرج: (يقول: أحكموا أمركم، وادعوا شركاءكم). وقد نصب ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ بالتقدير السابق. أي: وادعوا شركاءكم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ الآية. قال قتادة: (لا يكبر عليكم أمركم). قال ابن كثير: (أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم مُلتَبِساً، بل افصِلُوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم مُحقُّونَ فاقضوا إلي ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلُوا، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 54 ـ 56]).

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. قال القاسمي: (﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي عن الإيمان بما جئتكم به ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي جُعْلٍ على عظتكم، أي فلا باعث لكم على التولي والنفور ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما ثوابي على التذكير إلا عليه تعالى، يثيبني به، آمنتم أو توليتم، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي المستسلمين له وحده بالإيمان به، ونبذ كل معبود دونه).

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

إِخْبَارٌ من الله تعالى عن تكذيب قوم نوح لنبيّهم، وما أعقب ذلك من هلاكهم بالغرق، ونجاة المؤمنين معه في السفينة واستخلافهم في الأرض، فانظر يا محمد كيف كانت نهاية القوم المنذَرين بالوحي وحجة الله البالغة، المقابلين ذلك الإنذار والبرهان والحجج بالتكذيب والمكر.

74 ـ 78. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم

مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إِخْبَارُ الله تعالى نبيه ﷺ عن متابعته إرسال الرسل ـ من بعد نوح ـ إلى أقوامهم بالحجج الدامغات ، وطَبْع الله على قلوب المكذبين. وكذلك كان شأن فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ، كذبوه واتهموه بالسحر ومحاولة أخذ الرياسة منهم في الأرض وما كانوا مؤمنين.

فقوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ . أي : من بعد نوح ﴿ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ ـ أي بالحجج الدامغات والبراهين القاطعات على صدق النبوة وما جاؤوا به من الوحي ، ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ . قال النسفي : (يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق ، فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث إليهم أحد).

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ . أي : نختم على قلوب المجاوزين الحدّ في الكفر والعناد والتكذيب.

وقوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ . أي : من بعد تلك الرسل والأمم. ﴿ مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ ـ أي أشراف قومه. ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ـ قال القرطبي : (يريد الآيات التسع). وقال ابن جرير : (﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ، يقول : بأدلتنا على حقيقة ما دعوهم إليه من الإذعان لله بالعُبودة ، والإقرار لهما بالرسالة).

وقوله : ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ . أي : تكبروا عن الحق وكانوا مشركين آثمين. وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أي : فلما جاء فرعون وقومه دلائل الحق وبينات الهدى حملوا المعجزات على السحر مخففين من قيمتها لئلا تؤثر في حياة الناس ، شأن الطغاة على مدار الزمان ، يتفننون في حرف الناس عن صدق الإيمان ومتابعة الرسل خشية على مصالحهم وزينةِ دنياهم الفانية.

وقوله : ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا ﴾ . إنكار بعد إنكار ، فالإنكار

الأول: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وقولهم محذوف، أي هذا سحر. **والإنكار الثاني**: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ خبر ومبتدأ. وهو استفهام إنكار من قول موسى وليس من قولهم، لأنهم بتّوا القول بأنه سحر. قال القاسمي: (فهو مستأنف لإنكار كونه سحراً، وتكذيب لقولهم، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ).

وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾. أي: ولا يظفر الساحرون ولا فلاح لهم ولا بقاء.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾. أي: لتصرفنا عن الدين الذي وجدنا عليه آباءنا قبل مجيئك إلينا. قال قتادة: (لتلوينا عما وجدنا عليه آباءنا).

وقوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ يعني السلطان والملك والعظمة. قال مجاهد: (السلطان في الأرض). أو قال: (الملك). وقال الضحاك: (﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال: الطاعة).

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾. أي: ونحن غير مقرين لكما بالرسالة ـ يا موسى وهارون.

79 ـ 82. **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إِخْبارُ الله تعالى نبيّه ﷺ عن استنفار فرعون سحرته لمقارعة موسى بما معه من الحق، وتحذير موسى السحرة أن السحر باطل لا يصمد أمام الحق والله لا يصلح عمل المفسدين. بل يحق الله الحق ويرفع أهله ولو كره المجرمون.

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ـ محاولة من فرعون لطمس الحق المبين، بالبهرجة على الناس بحركات المشعوذين وزخارف السحرة المبطلين، ولكن الأمر مضى بعكس ما أحبّ، فانقلب السحر على الساحر، وآمن السحرة وخروا لله ساجدين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ـ أي من حبالكم

وعصيّكم. وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾. قال ابن جرير: (فقرأته عامة قرأة الحجاز والعراق: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ على وجه الخبر من موسى عن الذي جاءت به سحرة فرعون، أنه سحر). وهناك من قرأها من المدنيين والبصريين: «ما جئتم به آلسِّحر؟» على وجه الاستفهام، لكن لا وجه له، لأن موسى لم يكن شاكاً أنه سحر.

وفي التنزيل:

1. قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116].

2 ـ وقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: 67 ـ 69].

قال ابن كثير: (فأراد موسى أن تكون البَدْأَةُ منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. أي: إن الله سيظهر بطلان هذا السحر وسيذهب به، فإنه لا يصلح عمل من بغى في الأرض وأراد إفشاء الفساد فيها ونشر المعاصي والآثام.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قال القرطبي: (﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يبيّنه ويوضحه، ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بكلامه وحججه وبراهينه، وقيل: بعداته بالنصر، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ من آل فرعون).

83 ـ 86. قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارُ الله تعالى نبيّه ﷺ أنه لم يؤمن مع موسى إلا طائفة قليلة على خوف من بطش فرعون وملئه، فلقد كان فرعون عاتياً من المجرمين، فطمأن موسى

من اتبعه وأمرهم بحسن التوكل على الله إن كانوا صادقين ، فاستجابوا له وأعلنوا اعتمادهم على ربهم راجين أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين ، وأن ينجيهم ـ تعالى ـ برحمته من القوم الكافرين.

فقوله : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ . أي : فلم يؤمن لموسى ويتابعه على الحق إلا قلة من قومه خائفين من بطش فرعون وملئه. قال قتادة : (كان ابن عباس يقول : «الذرية» ، القليل).

وقوله : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ . أي : وإن فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في الظلم والعتو والتمرد ، يخشى الناس في زمانه من شدة سطوته وطغيانه ، وقد بلغ به الإسراف أن ادعى الربوبية وهو عبد حقير يحتاج للطعام والشراب والنوم والتغوط وما يجري على المخلوق.

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ .

إخبار من الله سبحانه عن قيل موسى لقومه : يا قوم إن كنتم صدقتم ربكم الإيمان وأفردتموه بالتعظيم والخضوع فثقوا به ، وأسلموا لأمره ، واستسلموا لقضائه وقدره فإنه تعالى لن يضيع أولياءه.

وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : 3].

2 ـ وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر : 36].

3 ـ وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : 29].

4 ـ وقال تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : 9].

قال ابن القيم : (وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموعة أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها ، فأول ذلك معرفة بالله وصفاته : من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها ابراهيم ﷺ حين أُلقِيَ في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : إن الناس

قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل][1] .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقول: [اللهم لك أَسْلَمْتُ وبِكَ آمَنْتُ ، وعليك توكَّلْتُ ، وإليكَ أنَبْتُ ، وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني ، أنت الحيُّ الذي لا يموتُ ، والجِنُّ والإنسُ يموتون][2] .

ثم إن قوم موسى توكلوا على الله وألجؤوا أمرهم إليه ورجوه سبحانه ألا يبتلي قوم فرعون بهم ، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - وفيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال أبو مجلز: (قالوا: لا تظهرهم علينا ، فيروا أنهم خيرٌ منا).

2 ـ قال أبو الضحا: (لا تسلطهم علينا ، فيزدادوا فتنة). وقال مجاهد: (لا تسلطهم علينا فيفتنونا). أو قال: (فيضلونا).

3 ـ وعن مجاهد أيضاً: (﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون ، ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون: «لو كانوا على حق ما سُلِّطنا عليهم ولا عُذِّبوا» ، فيفتنوا بنا).

وقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. قال ابن جرير: (ـ أي ـ ونَجِّنا ، يا ربنا ، برحمتك ، فخلصنا من أيدي القوم الكافرين ، قوم فرعون ، لأنهم يستعبدونهم ويستعملونهم في الأشياء القذرة من خدمتهم).

87 ـ 89. قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (8/ 172). وفي رواية له عن ابن عباس قال: [كان آخرَ قولِ إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل].

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 101) ، وأخرجه مسلم (2717) ـ من حديث ابن عباس.

أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾.

في هذه الآيات: وَحْيُ الله تعالى إلى موسى وأخيه ـ عليهما السلام ـ اتخاذ بيوت مناسبة بمصر لأقوامهما وجعلها مساجد للصلاة، والبشرى للمؤمنين. وتضرع موسى إلى ربه تغيير أموال فرعون وملئه التي يفسدون فيها ويصدّون عن الحق إلى غير حالتها لتصير إلى الهلاك كما تصير القلوب إلى الطبع والإقفال فلا يؤمن أصحابها حتى يروا العذاب الأليم. واستجابة الله تعالى دعوة موسى وتأمين هارون عليها وأمره لهما بالاستقامة على سبيل الحق واجتناب سبيل الجاهلين.

فقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾. أي: اتخذوا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها. ومن أقوال المفسرين في هذه الآية:

1 ـ عن ابن عباس: (﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، قال: مساجد). وقال: (أمروا أن يتخذوها مساجد). وقال: (كانوا يَفْرَقون من فرعون وقومه أن يصلّوا، فقال لهم: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، يقول: اجعلوها مسجداً حتى تصلوا فيها).

2 ـ وعن منصور، عن ابراهيم قال: (كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم). وقال مجاهد: (كانوا لا يصلون إلا في البيع، وكانوا لا يصلون إلا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم).

3 ـ وقال ابن زيد: (﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال أبي: اجعلوا في بيوتكم مساجدكم تصلّون فيها، تلك «القبلة»).

4 ـ وقال قتادة: (وذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم، وأن يوجهوا نحو القبلة).

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ـ أمر من الله تعالى لهم بأداء الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها، والبشرى للمؤمنين الصابرين المخبتين لأوامر ربهم سبحانه وتعالى.

وفي سنن أبي داود بإسناد حسن عن حذيفة قال: [كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر صَلَّى][1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

إِخْبَارٌ من الله تعالى عن قول موسى: يا ربنا، إنك أعطيت فرعون وحاشيته من الملأ من أشراف قومه من متاع الحياة الدنيا وزينتها ومن الأموال من أعيان الذهب والفضة وغيرها، وهم مع ما أعطيتهم يضلون عن سبيلك، ويصدون عن سبيلك.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ هذا دعاء من موسى، دعا الله على فرعون وملئه أن يغيّر أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها). قال مجاهد: (﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال: أهلكها). وعن ابن عباس قال: (يقول: دمِّر عليهم وأهلك أموالهم، ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: واطبع على قلوبهم، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وهو الغرق). وقال مجاهد (﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، بالضلالة). وقال الضحاك: (يقول: أهلكهم كفاراً).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال عكرمة: (كان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فذلك قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾). وعن ابن عباس: (﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾، فامضيا لأمري، وهي الاستقامة). وقال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: ولا تسلكان طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، فإن وعدي لا خلف له، وإن وعيدي نازلٌ بفرعون، وعذابي واقع به وبقومه).

قلت: وهذه الآيات العظيمة جزء من بناء منهج المفاصلة الذي سار عليه الأنبياء والرسل الكرام ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وهو منهاج قائم لمن بعدهم إلى يوم القيامة.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1319) ـ انظر صحيح سنن أبي داود (1171) ـ كتاب الصلاة. باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: 68].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 112 ـ 113].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ـ يعني لما وصلوا الحِجْر ديار ثمود فيما بين المدينة والشام ـ: [لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يُصيبكم ما أصابهم](1). وفي رواية: [لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين. ثم قنَّعَ رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي].

الحديث الثاني: أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: [ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن عريفاً ولا شرطياً ولا جابياً ولا خازناً](2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح عن أبي أمامة رضي الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3381) ـ كتاب الأنبياء ـ، وأخرجه مسلم (2980)، وأحمد (2/ 9، 58) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1558 ـ موارد)، والطبراني في «المعجم الكبير» (ص 117) من طريق أخرىٰ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (360).

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [سيكون في آخر الزمان شُرَطة يغدون في غضب الله وَيرُوحونَ في سخط الله ، فإياك أن تكون من بطانتهم][1] .

90 ـ 93. **قوله تعالى:** ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٩٣﴾ .

في هذه الآيات: قِصَّةُ اختراقِ بني إسرائيل البحر مع موسى ومطاردة فرعون وجنوده لهم ، وإعلان فرعون الإيمان لحظة الغرق وقد فات الأوان ، وجَعْل الله جسده باقياً للعبرة تنظر إليه الأمم المتعاقبة. وإخبار الله تعالى عن بعض نعمه الجليلة على بني إسرائيل بعد إهلاكه فرعون ، وحصول الخلاف بينهم بعد حصول العلم ظلماً وبغياً ، والله يقضي بينهم ويجازيهم يوم القيامة بأعمالهم.

فقوله: ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ الآية.

فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام في حوالي ست مئة ألف مقاتل ـ فيما ذكر ـ سوى الذرية ، أتبعهم فرعون وركب وراءهم بجيوش هائلة وفي أُبّهةٍ عظيمة ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته ، فلحقوهم وقت شروق الشمس. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61]. وسأل أصحاب موسى نبيّهم كيف المخلص والنجاة مما نحن فيه؟ فيقول: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: 62] ، إني أمرت أن أسلك ها هنا ، ثم أمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63] ، أي كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقاً ، لكلِ سبط واحد. وأمر الله الريح فنشفت

(1) حديث صحيح الإسناد. أخرجه أحمد (5/ 250) ، والحاكم (4/ 436) ، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (رقم ـ 8000). وانظر السلسلة الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1893).

أرضه ، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: 77] ، وجاوزت بنو إسرائيل البحر ، فلما انتهى فرعون إلى حافة البحر الأخرى اقتحم بجيوشه لينفذ قدر الله فيه ، فأمر الله البحر فارتطم بأمواجه فوقهم فما نجا منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وغشيت فرعون سكرات الموت فقال عندئذ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولكنه آمن حيث لا ينفعه الإيمان ، سنة الله فيه وفي أمثاله ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ . قال ابن جرير: (الآن ، تقرّ لله بالعبودية ، وتستسلم له بالذلة ، وتخلص له الألوهة ، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك ، فأسخطته على نفسك ، وكنت من المفسدين في الأرض ، الصادّين عن سبيله؟ فهَلاّ وأنت في مَهَلٍ ، وباب التوبة لك منفتح ، أقررت بما أنت به الآن مقرٌّ؟) .

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [لما أغرق الله فرعون قال: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل: يا محمد! فلو رأيتني وأنا آخِذٌ من حالِ البحر فأدُسُّهُ في فيهِ ، مخافةَ أن تدركه الرحمة][1] . وحال البحر: هو الطين الأسود ، والتراب اللين ، وفي رواية: (من حمأِ البحر) .

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ . قال مجاهد: (﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قال: بجسدك) . وقال عبد الله بن شداد: (جسده رمى به البحر) . وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: (لما جاوز موسى البحر بجميع من معه ، التقى البحر عليهم ـ يعني: على فرعون وقومه ـ فأغرقهم ، فقال أصحاب موسى: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ، ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربّه فأخرجه فنبذه البحر ، حتى استيقنوا بهلاكه) . ـ والله تعالى أعلم. وقال الحسن: (﴿بِبَدَنِكَ﴾: بجسم لا روحَ فيه) . قلت: والذي لا شك فيه أن الله تعالى

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 245) ، والترمذي في السنن (3107) ، وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5082) .

أراد بإخراج جسده وحفظه أن يكون عبرة لكل طاغية على مر الأزمان ، ليعلم الظالمون مكر الله بهم ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. وهو قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لَيُمْلي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفْلِتْه ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾][1].

وقد كان إهلاك الله تعالى فرعون الطاغية يوم عاشوراء ، ولذلك جاءت السنة الصحيحة بندب صيام ذلك اليوم لتذكر آيات الله العظيمة ، لا كالذين قال فيهم: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ ـ أي لا يعتبرون ولا يتعظون.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: [قدِمَ النبيُّ ﷺ المدينة فرأى اليهود تصومُ يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالحٌ ، هذا يومُ نَجّى الله بني إسرائيل من عَدُوِّهم ، فصامَهُ موسى ، قال: فأنا أحَقُّ بموسى منكم. فصامه وأمر بصيامه][2].

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله ﷺ أمر بصيامِ يومِ عاشوراء ، فلما فُرِض رمضانُ كانَ مَنْ شاء صامَ ومَنْ شاءَ أفطر][3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

إِخْبَارٌ من الله تعالى عن بعض نعمه الجليلة على بني إسرائيل بعد إهلاكه فرعون ، فقد جعل لهم مبوأ صدق في بلاد مصر والشام ، مما يلي بيت المقدس ونواحيه ، وأغدق عليهم من الرزق الحلال الطيب النافع ، فلم يحصل الخلاف والافتراق بينهم إلا بعد حصول العلم بغياً وظلماً وعلواً في الأرض بالشبهات والشهوات ، وإن الله سيقضي بينهم يوم القيامة ويجازيهم بأعمالهم.

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1831) ، كتاب الظلم ، باب: في الإملاء للظالم. ورواه البخاري. انظر صحيح البخاري (4686) ـ كتاب التفسير ـ سورة هود ـ آية (102).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2004) ـ كتاب الصوم ـ باب صوم يوم عاشوراء ، وأخرجه مسلم في صحيحه (1130) ، وأخرجه أحمد (1/ 291) ، وابن حبان (3625) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2001) ـ كتاب الصوم ـ باب صوم يوم عاشوراء. وانظر كذلك الحديث (2002) منه.

وفي التنزيل : .

1 ـ قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف : 137].

2 ـ وقال تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء : 57 ـ 59].

لقد استقرت دولة موسى عليه السلام ـ بعد هلاك فرعون ـ على بلاد مصر ، فألح بنو إسرائيل على بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة ، فلما مضى بهم موسى نكلوا عن قتالهم ، فشردهم الله في التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ، ثم موسى ـ عليهما السلام ـ وخرجوا بعدهما مع يوشَع بن نون ، ففتح الله عليهم بيت المقدس. قال ابن كثير : (واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بُخْتَنَصَّر حيناً من الدهر ، ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان ، وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة ، وبعث الله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ في تلك المدة ، فاستعانت اليهود ـ قَبَّحهم الله ـ على معاداة عيسى ـ عليه السلام ـ بملوك اليونان ، وكانت تحت أحكامهم ، ووشَوا عندهم ، وأوحوا إليهم أن هذا يُفسد عليكم الرعايا. فبعثوا من يقبض عليه ، فرفعه الله إليه وشبّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره ، فأخذوه فصلبوه ، واعتقدوا أنه هو ، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : 157 ـ 158]. ثم بعد المسيح ـ عليه السلام ـ بنحو ثلاث مئة سنة ، دخل قسطنطينُ ـ أحد ملوك اليونان ـ في دين النصرانية ، وكان فيلسوفاً قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل : تقية ، وقيل : حيلةً ليفسده ، فوضعت له الأساقفةُ منهم قوانين وشريعةً وبِدعاً أحدثُوها ، فبنى لهم الكنائسَ والبيَعَ الكبار والصغار ، والصوامع والهياكل ، والمعابد والقلاّيات[1]. وانتشر دينُ النصرانية في ذلك الزمان ، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ، وَوَضْع وكذب ، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبقَ على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليلُ من الرهبان ، فاتخذوا لهم الصوامعَ في البراري والمهامِهِ والقِفار.

واستحوذت يدُ النصارى على مملكةِ الشام والجزيرة وبلاد الروم ، وبنى هذا الملك المذكورُ مدينة قُسطنطِينيَّةَ ، والقُمَامة ، وبيتَ لحم ، وكنائس بيت المقدس ، ومدن

(1) القلايات : جمع قلاية ، وهي كالصومعة في الكنيسة.

حَوران كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة ، وعَبَدُوا الصليب من حينئذ ، وصَلُّوا إلى المشرق ، وصَوَّروا الكنائس ، وأحلُّوا لحم الخنزير ، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ، ووضعوا له الأمانةَ الحقيرة التي يسمونها الكبيرة ، وصَنَّفوا له القوانين ، وبسطُ هذا يطول . والغَرَضُ أن يَدَهُمْ لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكان فتحُ بيتِ المقدس على يَدَي أمير المؤمنين عُمرَ بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ولله الحمد والمنة) .

والخلاصة : أَنَّ الله تعالى صدق بني إسرائيل النصر حين صدقوه ، فلما ركبوا الأهواء وتفرقوا وخاضوا في شهواتهم سلط الله عليهم الذل في الأرض ، وهذا درس بليغ لهذه الأمة ألا تحذو حذوهم .

أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند حسن عن أبي عامر عبد الله بن لُحَيّ قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة ، قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : [إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين مِلّة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين مِلَّة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة ـ وهي الجماعة ـ وإنه سيخرج في أمتي أقوام تُجارىٰ بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقىٰ منه عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دخله . والله ـ يا معشر العرب ـ لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أحرىٰ أن لا يقومَ به][1] .

وأخرج أبو داود وابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : [افترقت اليهود على إحدىٰ أو ثِنْتين وسبعين فِرْقَةً ، وتَفَرَّقت النَّصارىٰ على إحدىٰ أو ثنتين وسبعين فِرْقَةً ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة][2] .

ورواه الحاكم وفيه : [أن اليهود اختلفوا على إحدىٰ وسبعين فِرقة ، وأن النصارىٰ اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار . قيل : من هم يا رسول الله؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي] .

---

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (4/ 102) ، وأبو داود (4597) ، وله شواهد كثيرة .
(2) حسن صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4596) ـ كتاب السنة ، باب شرح السنة . وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3842) ، ورواه الحاكم وغيره ، وله شواهد .

94 ـ 97. **قوله تعالى**: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تثبيتٌ من الله تعالى لهذه الأمة أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة، وطمأنة للنبي ﷺ للثبات في مواجهة المكذبين المعاندين. وتقرير منه تعالى أن الذين لزمتهم كلمة الله في اللوحِ المحفوظ لا يؤمنون. عقوبة من الله لهم مقابل استكبارهم ليموتوا كافرين، فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم.

فقوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾. قال ابن عباس: (التوراة والإنجيل، الذين أدركوا محمداً ﷺ من أهل الكتاب فآمنوا به. يقول: فاسألهم إن كنتَ في شكٍ بأنك مكتوب عندهم).

وعن الحسن، في هذه الآية، قال: (لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل). وكذا قال سعيد بن جبير: (ما شكَ وما سأل).

ووجه ذلكَ كما قال الحافظ بن كثير رحمه الله: (وهذا فيهِ تثبيتٌ للأمةِ، وإعلامٌ لهم أن صِفةَ نَبِيِّهم ﷺ موجودةٌ في الكُتبِ المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: 157] الآية).

وقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ ـ أي الشاكين المرتابين.

وفي مفهومِ الآية وتوجه الخطاب بها أقوال للمفسرين يكمل بعضها بعضاً:

1 ـ المقصود تكثير الدلائل وتقويتها، لتزداد قوة اليقين، وطمأنينة القلب، وسكون الصدر.

2 ـ الاستدلال على تحقيق ما قص، والاستشهاد بما في الكتاب المتقدم، وأن القرآن مصدق لمافيه.

3 ـ وصف الأحبار بالرسوخ في العلم ، بصحة ما أنزل إلى رسول الله ﷺ ، تعريضاً بالمشركين.

4 ـ تهييج الرسول ـ صلوات الله عليه ـ وتحريضه ليزداد يقيناً كما قال إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾.

5 ـ الخطاب للنبي ﷺ ، والمراد أمته. قال القاسمي: (وفيه من قوة التأثير في القلوب ما لا مزيد عليهِ ، بمثابة ما لو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلكَ أفعل في النفوس).

6 ـ الخطاب لكل من يسمع وهو في شك. قال النسفي: (أو الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك). وقال القُتَبيّ: (هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه ﷺ ، بل كان في شك) ـ ذكره القرطبي.

وقال القاسمي: (وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها ، بمقادحة العلماء المنبهين على الحق).

7 ـ وقيل: الشك ضيق الصدر ، أي إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك يخبروك صَبْرَ الأنبياء من قبلك على أذىٰ قومهم وكيف عاقبة أمرهم. والشك في اللغة أصله الضيق ـ ذكره القرطبي وقال: (فالشكُ يقبض الصدر ويضمه حتىٰ يضيق).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (ويقول تعالى ذكره لنبيهِ ﷺ: ولا تكونن ، يا محمد ، من الذين كذّبوا بحجج الله وأدلته ، فتكون ممن غُبنَ حظه ، وباع رحمة الله ورضاه ، بسخطه وعقابه).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾.

أي: إن الذين ثبت عليهم قول الله المكتوب في اللوح المحفوظ أنهم يموتون كفاراً فلا سبيل إلى هدايتهم ، فإن الله سبحانهُ كتب كل شيء بعلمه وعدله وحكمته ، وهؤلاء صنف يعلم الله تعالى أنهم سيؤمنون به أول مرة حين يبصرون العذاب الأليم.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: 111].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: 13].

3 ـ وقال تعالى ـ يحكي دعاء موسى على فرعون وملئه ـ: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: 88].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [كتب اللهُ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعَرْشُهُ على الماء][1].

98 ـ 103. قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن قوم يونس إذ تداركوا أنفسهم بالإيمان قبل حلول العذاب بهم. وأنَّ سنتهُ تعالى ترك اختيار الإيمان للناس وإلا لو شاء الله لأجبرهم عليه. وأنَّه ما كان لنفس اختيار الإيمان إلا بإذن الله. ثم في الآيات دعوة الله العباد للنظر في ملكوتِ السماوات والأرض ليقودهم ذلكَ النظر إلى الإيمان، وكذلكَ الاعتبار

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2653) ـ كتاب القدر ـ وروىٰ أحمد وأهل السنن نحوه.

بمصير الأمم المكذبة عبر الزمان ، وقد كتب اللهُ الغلبة في النهاية والنجاة لأهل الصدق في الإسلام.

فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. قال ابن عباس: (لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذا نزل بها بأس الله ، إلا قرية يونس). وقال مجاهد: (فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها ، كما نفع قوم يونس إيمانهم إلا قوم يونس).

وقال قتادة: (لم يكن هذا في الأمم قبلهم ، لم ينفع قريةً كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب ، فتُرِكت ، إلا قومَ يونس ، لما فقدوا نبيَّهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم ، قذف اللهُ في قلوبهم التوبةَ ، ولبسوا المسوح[1] ، وفرقوا بين كل بهيمةٍ وولدها ، ثم عَجُّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله الصدق من قلوبهم ، والتوبةَ والندامة على ما مضىٰ منهم ، كشف اللهُ عنهم العذابَ بعد أن تدلَّى عليهم. قال وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوىٰ أرضِ الموصل).

والمقصود: أنه لم تؤمن قرية بكمالها من القرىٰ في الأمم السالفة برسولها ، بل كان التكذيبُ شعار أكثرها ، إلا أهل نينوىٰ ـ قوم يونس ـ خافوا نزول العذاب بهم إذ أنذرهم به رسولهم وقد خرج من بينهم وشعروا بدنو حلوله ، فهنالك جأروا إلى الله تعالى واستغاثوا به وتضرعوا إليهِ ، وأحضروا أطفالهم ودوابّهم ومواشيهم ذلكَ المشهد ، فآمنوا واستغفروا فقبل اللهُ منهم وكشف عنهم العذاب الذي أنذرهم به رسولهم.

وبغير ذلك ـ يا محمد ـ كان شعار الأمم الماضية التكذيب بالرسل.

كما في التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: 30].

2 ـ وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 52].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23].

(1) المسوح: جمع مسح ، وهو كساء من شعر يلبسه الراهب ، والمقصود التقشف.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي اللهُ عَنْهُما قال: [خرج علينا النبي ﷺ يوماً فقال: عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ فجعلَ يمرُّ النبيُّ معهُ الرَّجُل، والنبي معهُ الرَّجُلان، والنبيُّ معهُ الرَّهْطُ، والنَّبيُّ ليسَ معه أحد. .] الحديث[1].

ولا شكَ أن أمة محمد ﷺ أكثر تلك الأمم إيماناً واتباعاً لرسولها ﷺ، فهي لكثرتها تسد الخافقين الشرقي والغربي يوم القيامة، ويليها أمة موسىٰ ـ عليهِ الصلاة والسلام ـ كمايدل على ذلكَ تتمة الحديث السابق.

وعن السدي: (﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ـ إلى أجلهم). وعن عباس قال: (إلى أن يصيروا إلى الجنةِ أو إلى النار).

قال ابن جرير: (يقول: وأخرّنا في آجالهم ولم نعاجلهم بالعقوبةِ، وتركناهم في الدنيا يستمتعون فيها بآجالهم إلى حين مماتهم، ووقت فناء أعمارهم التي قضَيْتُ فَنَاءها).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

هو في المشيئةِ الإذنية، فإن المشيئة كما وردت في القرآن والسنة ثلاثة أقسام:

أولاً: المشيئة الكونية: وهي نوعان: أ ـ المشيئة الإجبارية. ب ـ المشيئة الإذنية.

ثانياً: المشيئة الشرعية. (الأمر والنهي ـ الثواب والعقاب).

ثالثاً: المشيئة المشتركة.

وقد فصلت ذلكَ في كتابي: «أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان»، فلله الحمد والمنة.

والمقصود هنا أنه لا أحد اختار الإيمان رغم مشيئة الله، ولا أحد اختار الكفر رغم مشيئة الله، بل الكل داخل في اختياره تحت مشيئته سبحانه، فلا يستطيعُ أحد أن يخرجَ بإرادتهِ ومشيئته عن إرادة الله ومشيئته عز وجل.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ﴾ [النساء: 64].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (5752) ـ كتاب الطب ـ باب مَنْ لم يَرْقِ.

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [الأنعام: 107].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل: 93].

4 ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 99]. أي إن آمنوا ـ يا محمد ـ فبمشيئة ربكَ لا بإكراهك لهم، ولا بحرصك على ذلك منهم.

5 ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: 100].

قال ابن عباس: (﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ [يونس: 99]، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [يونس: 100]، ونحو هذا في القرآن، فإن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدىٰ، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق لهُ من الله الشقاء في الذكر الأول).

وعن سفيان: (﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾، قال: بقضاء الله).

وعن ابن عباس: (﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ ﴾ قال: السَّخَط). أي: ويجعل اللهُ الضلال والخبال والسخط على الذين لا يعقلون حججه وأدلته، ولا يفهمون أبعاد اتباع الهوىٰ ومغبة تعظيم الشبهات والشهوات.

وقوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾. إرشاد من الله تعالى عباده إلى النظر في أرجاء هذا الكون الفسيح والتفكر بدقائق آياته ومخلوقاته: سواء في السموات: كالكواكب النيّرات والأفلاك والمجرّات، الثوابت منها والسيّارات، إلى الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من البرد والثلج والمطر، فأحيا به في الأرض الينابيع والنبات والشجر، ومختلف الدواب وصنوف البشر، وفي الأرض آيات عظيمة أخر، كالجبال والسهول والقفار والوديان والبحيرات والبساتين والنهر، كل ذلكَ يدل على وجوب تعظيم الملك المقتدر.

وقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: وما تفيدُ الحجج والعبر والرسل وعظيم الآيات من قومٍ كتب اللهُ عليهم

الشقاء ، نتيجةَ عتوهم وتمردهم على الحق وبغيهم في الأرض بالظلم والإفساد.

وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ﴾. قال قتادة: (يقول: وقائع الله في الذين خلوا من قبلهم ، قوم نوحٍ وعاد وثمود).

وقوله: ﴿ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾. قال الربيع بن أنس: (خوَّفهم عذابه ونقمتهُ وعقوبته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلكَ أمرٌ ، أنجىٰ الله رسله والذين آمنوا معهُ ، فقال الله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾).

فهو حق أوجبه سبحانه على نفسه الكريمة ، بنجاة الرسل ونزول الرحمة بهم وبأتباعهم المؤمنين، وهلاك الطغاة والعتاة والمتمردين، سنة الله ولن تجد لسنته تبديلاً.

وفي التنزيل:

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: 54].

وفي الصحيحين: عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: [إن الله لما خَلَقَ الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش ، إن رحمتي تَغْلِبُ غضبي][1].

وفي رواية: (إن رحمتي سبقت غضبي).

104 ـ 107. قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: دَعْوَةُ الله تعالى نبيهُ ﷺ لإعلان تمسكه بالدين الحق أمام

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3194) ، (7404) ، (7553) ، وأخرجه مسلم (2751) ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 313 ، 381 ، 397 ، 432) ، والترمذي في الجامع (3543) ، وابن ماجة في السنن (4295) ، وغيرهم.

المشركين ، وأن آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع هي التي هزلت فهي في موضع الشك وليس الذي يملك الموت والحياة والنفع والضر. إنه إن يمسسك الله بضر فلا يملك كشفه إلا هو سبحانه ، وإن يردكَ بخير فلا يقدر منعه عنك أحد ، يصيب تعالى برحمته من يشاء وهو الغفور الرحيم.

فقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

خِطَابٌ من الله تعالى لنبيهِ محمد ﷺ: أن قل لهؤلاء المكذبين نبوتكَ والوحي النازل إليكَ من ربك: إن كنتم في شكٍ من ديني الذي أدعوكم إليهِ وأنهُ حق من عند الله ، فها أنا لا أشارككم في دينكم الباطل ، ودعوتكم الأصنامَ والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ، بل أعبد الله ربي وحدهُ لا شريكَ له ، ومن ثمَّ فلا أخاف ضرراً من آلهتكم المخلوقة الباطلة ، فادعوها إن شئتم فلتضرني ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وقد أمرني ربي أن أكون بهِ من المؤمنين.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ ، يقول: ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند آجالكم ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يقول: وهو الذي أمرني أن أكون من المصدقين بما جاءني من عنده).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

أي: وأمرني ربي أن أستقيم على دينِ الإسلام ، ولا أنحرف عنه إلى وثنية أو يهودية أو نصرانية ، فإنه من يبتغ غير الإسلامِ ديناً فلن يقبل منهُ ، ومن يشرك باللهِ يحبط عمله.

أخرج الإمام مسلم عن جابر رضي اللهُ عَنْهُ ، عن النبي ﷺ قال: [من ماتَ لا يشركُ باللهِ شيئاً دخل الجنة ، ومن ماتَ يشرك باللهِ شيئاً دخل النار][1].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن والد أبي مالك الأشجعي عن النبي ﷺ قال: [من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُمَ ماله ودمه][2].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (93) ، كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات مشركاً دخل النار.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (23) ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله ، من حديث والد أبي مالك الأشجعي.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

قال القرطبي: (﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ أي لا تعبد. ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ ﴾ إن عبدته. ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن عصيته. ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ أي عبدت غير الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي الواضعين العبادة في غير موضعها).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

أي: إن يصبكَ اللهُ بضر كتبهُ عليكَ فلا دافع له سواه سبحانهُ ، وإن يصبكَ برخاء أو فضل أو نعمةٍ أو فرج فلا راد لفضله ، فهو يصيب بكل ما أراد من الخير والشر لا يشاركه أحد ، وهو الغفور لذنوب عبادهِ وتقصيرهم وزللهم ، الرحيم بأوليائه في الآخرة.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن أبي تميمة عن رجل من قومه ، أنه أتىٰ رسول الله ﷺ ، أو قال شهدت رسول الله ﷺ وأتاهُ رجل فقال: أنتَ رسول الله؟ أو قال: أنتَ محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تَدْعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مسّكَ ضر فدعوتهُ كشفَ عنك ، والذي إن ضللت بأرضٍ قفرٍ فدعوتهُ ردّ عليك ، والذي إن أصابتكَ سنة فدعوتهُ أنبت لك][1] .

108 ـ 109 . قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: أمرُ الله تعالى نبيه ﷺ أن يُصرِّحَ لقومه أنّ هذا القرآنَ هو الحق قد جاءكم من ربكم ، فمن اتبع الهدىٰ نجا واهتدىٰ ، ومن أصر على الكبر والكفر والعناد ضلّ وهلك ، وما أنا مُوكَّلٌ بكم حتىٰ تدخلوا في الإسلام. وإنما أنا نذير ، وأمرت ـ كما أمرتم ـ باتباع هذا الوحي من ربي ، والصبر حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم وهو خير الحاكمين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4084). انظر صحيح سنن أبي داود (3442). ورواه أحمد. انظر تخريج مشكاة المصابيح (918) ، وصحيح الجامع الصغير (242) ، وقد مضىٰ.

فقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾. أي: قل ـ يا محمد ـ للناس، يا أيها الناس قد جاءكم كتاب الله فيه الحق من ربكم. ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾. قال ابن كثير: (فمن اهتدىٰ به واتبعهُ فإنما يعود نفع الاتباع على نفسه ـ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ـ ومن ضل عنه فإنما يرجعُ وبال ذلكَ عليه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، أي: وما أنا مُوَكَّلٌ بكم حتىٰ تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

أمرٌ من اللهِ لرسوله ﷺ أَنْ تمسَّك بهذا الوحي فهو سرُّ النجاةِ والقوة والشوكة في الأرض، وإنما يحتاج ذلك إلى الصبر على مكائد الأعداء والخصوم حتىٰ يفصلَ اللهُ الأمر بحكمهِ فيعلي لواء المؤمنين ويكسر شوكة الكافرين، واللهُ خير الفاصلين.

قال ابن جرير: (﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، يقول: وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين. فحكم جل ثناؤه بينه وبينهم يوم بَدْرٍ، قتلهم بالسيف، وأمر نبيّهُ ﷺ فيمن بقي منهم أن يسلك بهم سبيل من أهلك منهم أو يتوبوا وينيبوا إلى طاعته).

وقال ابن زيد (﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، قال هذا منسوخ، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾، حكم الله بجهادهم، وأمره بالغلظةِ عليهم).

تم تفسير سورة يونس

بعون الله وتوفيقهِ، وواسع منِّهِ وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ تعجب الناس من إرسال الله رسولاً إليهم من بينهم إنما هو استكبار على الوحي.

2 ـ في جريان الشمس والقمر يُعلم عدد السنين والحساب.

3 ـ تحية الله المؤمنين في الجنة: سلام، وكذلكَ في الدنيا: السلامُ تحية أهل الإسلام.

4 ـ الإنسان إذا جزع دعا ربه، فإذا فرج عنه أعرض، إلا من رحم الله.

5 ـ خُلق العبادُ حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم.

6 ـ الحسنىٰ: الجنة، والزيادة: رؤية وجهه تعالى في الجنة.

7 ـ يتبع كل قومٍ ما كانوا يعبدون في الدنيا، فآلهتهم تمثل أمامهم يوم الحشر.

8 ـ القرآن أكبر معجزة خالدة في الأرض إلى يوم القيامة، وهو شفاء لما في الصدور.

9 ـ شروط الولاية: الإيمان والتقوىٰ. وأولياء الله تعالى الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله تعالى.

10 ـ طَبْعُ الله على قلوب المعاندين بسبب تكذيبهم للحق.

11 ـ كلما ضاق الأمر اتسع، وإن مع العسر يسراً.

12 ـ نجاة فرعون ببدنه آية من آيات الله، ليتحقق بنو إسرائيل من هلاكه، وليبقىٰ جسدهُ محل اعتبار لكل طاغية إلى يوم القيامة.

13 ـ لا يطاعُ الله تعالى إلا بإذنه، ولا يُعصىٰ إلا بمشيئته.

14 ـ إذا سألت فاسأل الله، وإذ استعنتَ فاستعن بالله، فالضر والنفع كله بيد الله.

15 ـ الصبر مفتاحُ الفرج، وإن مع العسر يسراً.

❑ ❑ ❑